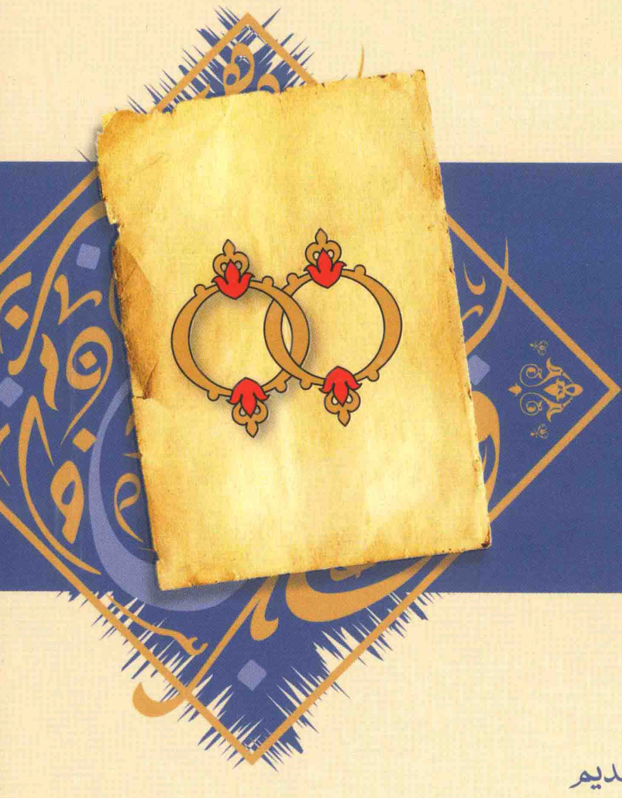
فايز بن سياف السريع

التناسب بين الآيات



الجزء الرابع

من سورة الأنبياء
إلى سورة فاطر

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح

التناسب بين الآيات: الجزء الرابع. /

فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ

٧٣٦ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣-٠٨-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

١ - القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٩٨٨١

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٨١

ردمك: ٣-٠٨-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٩٠٨

البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فايز بن سيَّاف السَّريح

التناسب بين الآيات

الجزء الرابع

من سورة الأنبياء إلى سورة فاطر

تقديم

جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

ولمَّا أخبَرَ سبحانه عن غفلتِهم وإعراضهم، علَّل ذلك بقولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

جملةٌ مبيِّنةٌ لجملةِ ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؛ لبيانِ تمكُّن الغفلة منهم وإعراضِهم؛ بأنَّهم إذا سَمِعوا في القرآن تذكيرًا لهم بالنظر والاستدلال، اشتغَلوا عنه باللعب واللهوِ، فلم يَفقَهوا معانيَه، وكان حظُّهم منه سماعَ ألفاظه(٢).

إنَّما ذكَر الله تعالىٰ ذلك بيانًا لكونهم مُعرِضين؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالىٰ يجدِّدُ لهم الذِّكْرَ وقتًا فوقتًا، ويُظهِرُ لهم الآيةَ بعد الآيةِ، والسورةَ بعد السورة؛ ليُكرِّرَ علىٰ أسماعهم التَّنبيهَ والموعظةَ لعلهم يتَّعظون، فما يَزيدهم ذلك إلا لعبًا واستسخارًا(٣)(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١١).

(٣) أي: سخرية.

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٩).

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حالٌ مِن المبتدأ في جملةِ ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾، وهي احتراسٌ لجملة ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾؛ أي: استماعًا لا وَعْيَ معه[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ ما كانوا يَتناجَون به مِن ضَلالهم بقولِه سبحانه: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كان اللهُ تعالىٰ لا يُقِرُّ مَن كذَب عليه، فضلًا عن أن يُصدِّقه ويؤيِّدَه، ولا يَخفىٰ عليه كيدٌ حتىٰ يَلزمَ منه نقصُ ما أراده؛ قال -دالًّا لهم علىٰ صِدْقِه، منبِّهًا علىٰ موضع الحُجَّة في أمره، وجوابًا لِمَن كأنَّه قال: فماذا يقال لهؤلاء؟-: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٣)].

أطلَعَ اللهُ رسولَه ﷺ علىٰ نجواهم، فلم يُتِمَّ لهم ما أرادوا مِن الإسرارِ بها، فبعد أن حكىٰ ما تناجَوا به، أمَره أن يُخبِرَهم بأنَّ اللهَ الذي عَلِم نجواهم يعلمُ كلَّ قولٍ في السماء والأرض مِن جَهْرٍ أو سِرٍّ؛ فالتعريفُ في القول للاستغراق، وبذلك كان هذا تذييلًا، وأعلَمَهم بأنَّه المتصِفُ بتمام العِلْمِ للمسموعات وغيرها بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٢).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٤).

لمَّا أورَد هذا الكلامَ عَقِيبَ ما حكىٰ عنهم، وجَب أن يكونَ كالجواب لِما قالوه، فكأنَّه قال: إنَّكم وإن أخفيتم قولَكم وطَعْنَكم، فإنَّ ربِّي عالمٌ بذلك، وإنَّه مِن وراءِ عقوبتِه، فتُوُعِّدوا بذلك لكي لا يعودوا إلىٰ مِثْلِه[(١)].

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حكايةٌ مِن جهته تعالىٰ لِما قال ﷺ بعدما أوحىٰ إليه أحوالَهم وأقوالَهم؛ بيانًا لظهور أمرِهم، وانكشاف سِرِّهم[(٢)].

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ٥ ﴾

ولمَّا كانت أقوالُهم في أمرِ القرآن قد اضطربت، والاضطرابُ مِن أمارات الباطلِ، وكان وصفُهم له بأنَّه سِحرٌ ممَّا يهولُ السامعَ ويُعلَم منه أنَّه مُعجِزٌ، فربما أدىٰ إلىٰ الاستبصار في أمرِه؛ أخبَر أنَّهم نزلوا به عن رُتْبة السِّحر علىٰ سبيل الاضطراب، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[(٣)].

﴿ بَلْ ﴾ الأُولىٰ مِن كلام الله تعالىٰ، إضرابُ انتقال مِن حكايةِ قولِ فريق منهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٣﴾ إلىٰ حكايةِ قولٍ آخرَ مِن أقوال المشركين؛ وهو زَعْمُهم أنَّ ما يُخبِر عنه ويحكيه هو أحلامٌ يراها فيحكيها؛ فضميرُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لجماعة المشركين، لا لخصوصِ القائلين الأوَّلين[(٤)].

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ ﴾ إضرابٌ مِن جهته تعالىٰ، وانتقالٌ مِن حكاية قولِهم السابق إلىٰ حكايةِ قولٍ آخرَ مضطربٍ في مسالك البُطْلان[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢١).

(٢) روح المعاني (٩/ ١٠).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٥).

ثم بيَّن خوضهم في فنون الاضطراب، وعدمَ اقتصارهم على ما تقدَّم مِن دعوى السِّحر بقوله: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1].

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا أشار سبحانه إلى فساد طَعْنِهم بما جعله هباءً منثورًا، وتضمَّن قولُهم الذي سبَّبوه عنه الإقرارَ بالرُّسل البشَرِيِّين وآياتِهم؛ أتبعه بيانَ ما عليهم فيه، فبيَّن أولًا أنَّ الآياتِ تكون سببًا للهلاك، فقال جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ربِّ أجِبْهم إلى ما اقترحوه ليؤمنوا: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

استئنافٌ ابتدائيٌّ جوابًا على قولِهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾؛ والمعنى: أنَّ الأمَمَ التي أُرسِلَ إليها الأوَّلون ما أغنَتْ فيهم الآياتُ التي جاءتهم -كما وَدِدتم أن تكونَ لكم مِثْلُها- فما آمنوا؛ ولذلك حقَّ عليهم الإهلاكُ؛ فشأنُكم أيها المشركون كشأنهم[3].

ثم أجاب تعالى عن قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ بقوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسُوقٌ لتكذيبهم فيما تُنبئُ عنه خاتمةُ مقالهم مِن الوعد الضمنيِّ بالإيمانِ؛ كما أُشير إليه، وبيانِ أنَّهم في اقتراحِ تلك الآيات كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفِه، وأنَّ في تركِ الإجابة إليه إبقاءً عليهم، كيف لا؟ ولو أُعطُوا

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤١٠).

ما اقترَحوا مع عدم إيمانهم قطعًا، لوجَب استئصالُهم؛ لجرَيانِ سُنة الله ﷻ في الأمم السالفة علىٰ أنَّ المقترِحين إذا أُعطوا ما اقترَحوه ثم لم يؤمنوا، نزَل بهم عذابُ الاستئصال لا محالةَ! وقد سبقت كلمةُ الحق منه تعالىٰ أنَّ هذه الأمَّةَ لا يُعذَّبون بعذابِ الاستئصال(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ كَذِبِهم في دعوىٰ الإيمان بمجيء الآيةِ؛ كما يشير إلىٰ طلبِهم لها بقولِه ﷻ: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾

ولمَّا بيَّن أولًا أنَّ الآياتِ تكون سببًا للهلاك، فلا فائدةَ في الإجابة إلىٰ ما اقترَحوه منها بعد بُطلانِ ما قدَحوا به في القرآن؛ بيَّن ثانيًا بطلانَ ما قدَحوا به في الرسول بكونه بشرًا؛ بأنَّ الرُّسلَ الذين كانوا مِن قبلِه كانوا بإقرارهم مِن جنسِه، فما لهم أن يُنكِروا رسالتَه وهو مِثْلُهم؟! بل عليهم أن يَعترفوا له عندما أظهَر مِن المُعجِز كما اعترفوا لأولئك، كلُّ ذلك فَطْمًا عن أن يتمنَّىٰ أحدٌ إجابتَهم إلىٰ التَّأييد بملكٍ ظاهرٍ، فقال عاطفًا علىٰ ﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٣).

عطفُ جوابٍ علىٰ جواب، والمقصودُ مِن هذا إبطالُ مقصودهم؛ مِن قولِهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾؛ إذ أرادوا أنَّه ليس بأهلٍ للامتياز عنهم بالرسالة عن الله

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٥-٥٦).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٧٧).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٩).

تعالىٰ، فبيَّن خطأَهم في استدلالهم بأنَّ الرُّسلَ الأوَّلين الذين اعترفوا برسالتِهم ما كانوا إلا بشرًا، وأنَّ الرسالةَ ليست إلا وحيًا مِن الله لِمَن اختاره مِن البشر(١).

ثم أوضَح جوابَ شُبهتهم في منافاة البشريةِ للرسالةِ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٢).

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه علىٰ سُنَّةِ مَن مضىٰ مِن الرُّسل في كونه رجلًا، بيَّن أنَّه علىٰ سُنَّتِهم في جميع الأوصافِ التي حكَم بها علىٰ البشرِ مِن العيش والموتِ، فقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾(٣).

هذا ردٌّ لِما يقولونه: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا﴾ بيانٌ لكون الرسلِ عليهم السلام أسوةً لسائرِ أفراد الجنس في أحكام الطبيعة البشريةِ، إثرَ بيان كونِهم أسوةً لهم في نفس البشرية والجسدِ(٤).

﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ الرُّسلَ كالمرسَل إليهم بشرٌ غيرُ خالدين، بيَّن سُنَّتَه فيهم وفي أُمَمِهم؛ ترغيبًا لِمَن اتبَع، وترهيبًا لِمَن امتنَع، فقال عاطفًا بأداة التراخي في مظهر العظَمةِ علىٰ ما أرشد إليه التَّقديرُ مِن مِثْلِ: بل جعلناهم جسدًا يأكلون ويشربون، ويعيشون إلىٰ انقضاء آجالهم ويموتون، وأرسلناهم إلىٰ أُمَمِهم، فحذَّروهم وأنذروهم وكلَّموهم

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٠-٣٩١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٧).

كما أمَرناهم، ووعَدناهم أنَّ مَن آمَن بهم أسعَدناه، ومَن كفَر واستمرَّ أشقيناه، وأنَّا نُهلِكُ مَن أردنا مِن المكذِّبين، فآمَن بهم بعضٌ، وكفَر آخرون؛ فلم نُعاجِلْهم بالأخذ، بل صبَرنا عليهم، وطال بلاءُ رسلنا بهم، ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

﴿ثُمَّ﴾ عاطفةُ الجملةِ على الجُمَل السابقةِ؛ فهي للترتيب الرُّتْبي؛ والمعنى: وأهَمُّ ممَّا ذُكِر أنَّا صدَقْناهم الوعدَ فأنجيناهم وأهلَكْنا الذين كذَّبوهم، ومضمونُ هذا أهمُّ في الغرضين: التَّبشير، والإنذار؛ فالتَّبشيرُ: للرسول ﷺ والمؤمنين بأنَّ الله صادِقُه وَعْدَه مِن النصرِ، والإنذارُ: لِمَن ماثَلَ أقوامَ الرُّسل الأوَّلين[2].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ عطفٌ على ما يُفهَم مِن حكاية وحيِه تعالى إليهم على الاستمرار التَّجدُّديِّ؛ كأنَّه قيل: أوحَيْنا إليهم ما أوحينا، ثم صدَقْناهم في الوعدِ الذي وعدناهم في تضاعيفِ الوحي بإهلاكِ أعدائهم[3].

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾

ولمَّا انقضى ما لَزِمهم بسببِ الإقرار برُسليَّة البشر مِن الإقرار برُسليَّة رسولهم ﷺ؛ لكونه مساويًا لهم في النوع والإتيانِ بالمُعجِز، وما فُعِل بهم وبأُمَمِهم ترغيبًا وترهيبًا، وختَم ذلك بأنَّه أباد المسرفين، ومحا ذِكْرَهم إلا بالشرِّ؛ التفَتَ إلى الذِّكر الذي طعنوا فيه، فقال مجيبًا لِمَن كأنَّه قال: هذا الجوابُ عن الطعن في الرسول قد عُرِف، فما الجوابُ عن الطعنِ في الذِّكر؟ مُعرِضًا عن جوابِهم لِما تقدَّم مِن الإشارة بحرف الإضرابِ إلى أنَّ ما طعنوا به فيه لا يقولُه عاقلٌ، مبيِّنًا لِما لهم فيه مِن الغِبطة التي

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٩١-٣٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٧).

هم لها رادُّون، والنِّعْمةِ التي هم بها كافرون: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

استئنافُ جوابٍ عن قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ بإيقاظِهم إلى أنَّ الآيةَ التي جاءتهم هي أعظمُ مِن الآيات التي أُرسِلَ بها الأوَّلون، وتجهيلًا لألبابِهم التي لم تُدرِكْ عِظَمَ الآية التي جاءتهم؛ كما أنبأ بذلك موقعُ هذه الجملةِ في هذا المكان[2].

لمَّا توعَّدهم أعقَب ذلك بوَعْدِه بنعمته عليهم، فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، والكتابُ هو القرآنُ[3].

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسُوقٌ لتحقيق حَقِّيَّةِ القرآن العظيمِ، الذي ذُكِر في صدر السورةِ الكريمة إعراضُ الناس عمَّا يأتيهم مِن آياته، واستهزاؤهم به، وتسميتُهم تارةً سِحرًا، أو تارةً: أضغاثَ أحلامٍ، وأخرى: مفترًى وشِعْرًا، وبيانُ علوِّ رُتْبتِه إثرَ تحقيق رسالته ﷺ؛ ببيانِ أنَّه كسائرِ الرُّسلِ الكرامِ عليهم الصَّلاة والسلام[4].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فإن عدَلتم بقَبوله شرَّفناكم، وإن ظلمتم بردِّه عنادًا أهلَكْناكم كما أهلَكْنا مَن كان قَبْلَكم؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١-٢٢).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤١١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٨).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٤).

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ ﴾، أو علىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، وهو تعريضٌ بالتهديد، ومناسبةُ موقعِها: أنَّه بعد أن أخبَرَ أنَّه صدَق رُسُلَه وَعْدَه، وهو خبرٌ يفيدُ ابتداءَ التنويه بشأن الرُّسُلِ ونصرِهم، وبشأن الذين آمنوا بهم، وفيه تعريضٌ بنصرِ محمَّدٍ ﷺ، وذكَر إهلاكَ المكذِّبين له تبعًا لذلك، فأعقَب ذلك بذِكْرِ إهلاكِ أُمَمٍ كثيرة مِن الظالمين، ووَصْفِ ما حلَّ بهم؛ ليكونَ ذلك مقصودًا بذاته ابتداءً؛ اهتمامًا به ليَقرَعَ أسماعَهم؛ فهو تعريضٌ بإنذار المشركين بالانقراضِ؛ بقاعدة قياسِ المساواة، وأنَّ اللهَ يُنشئ بعدهم أمَّةً مؤمنةً[(١)].

لمَّا ردَّ الله تعالىٰ عليهم ما قالوه، بالَغ تعالىٰ في زَجْرِهم بذِكْرِ ما أهلَك مِن القُرىٰ، فقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾[(٢)].

لمَّا حكىٰ عنهم تلك الاعتراضاتِ، وكانت تلك الاعتراضاتُ ظاهرةَ السقوطِ؛ لأنَّ شرائطَ الإعجاز لمَّا تمت في القرآنِ ظهَر حينئذ لكلِّ عاقلٍ كونُه معجِزًا، وعند ذلك ظهَر أنَّ اشتغالَهم بإيراد تلك الاعتراضاتِ كان لأجلِ حُبِّ الدُّنيا وحُبِّ الرياسة فيها، فبالَغ سبحانه في زَجْرِهم عن ذلك، فقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾[(٣)].

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ ﴾ نوعُ تفصيلٍ لإجمالِ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، وبيانٌ لكيفيَّةِ إهلاكهم وسببِه، وتنبيهٌ علىٰ كثرتهم[(٤)].

ثم أوعَدهم وحذَّرهم ما جرىٰ علىٰ الأُمَمِ المكذِّبة، فقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣-٢٤).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤١٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٨).

(٥) فتح القدير (٣/ ٤٧٢-٤٧٣).

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم بيَّن حالَها عند إحلال البأسِ بها، فقال: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴾[١].

﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

فناداهم لسانُ الحالِ تقريعًا وتبشيعًا لحالهم وتفظيعًا: ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[٢].

جملةُ ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ ﴾ معترِضةٌ، وهي خطابٌ للراكضين بتخيُّلِ كونِهم الحاضرين المشاهِدين في وقت حكايةِ قصَّتِهم؛ ترشيحًا لِما اقتضى اجتلابَ حرفِ المفاجأة، وتكون هذه الجملةُ معترضةً بَيْنَ جملةِ ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ ﴾ وبين جملةِ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقالِ: ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[٤].

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: بما أجابوا هذا المقالَ؟ قيل: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[٥].

جملةُ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ ﴾ إن جُعِلت جملةُ ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ ﴾ معترضةً -على ما قرَّرتُه آنفًا-، تكونُ هذه مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا عن جملة ﴿ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴾، كأنَّ سائلًا سأل عمَّا يقولونه حين يُسرِعون هاربين؛ لأنَّ شأنَ الهارب الفَزِعِ أن تصدُرَ منه أقوالٌ تدلُّ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٨٠).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٦).

علىٰ الفزَعِ أو الندمِ عن الأسباب التي أحلَّت به المخاوفَ، فيُجاب بأنَّهم أيقنوا حينَ يَرون العذابَ أنَّهم كانوا ظالمين، فيُقرُّون بظُلمهم، ويُنشِئون التلهُّفَ والتندُّمَ بقولِهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(١).

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾

فلمَّا اعترَفوا حيث لم يَنفَعْهم الاعترافُ -لفَواتِ محلِّه- قال: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ فاسمُ ﴿تِّلۡكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ القول المستفاد مِن قولِه تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾، وتأنيثُه لأنَّه اكتسب التأنيثَ مِن الإخبار عنه بدعواهم؛ أي: ما زالوا يكرِّرون تلك الكلمةَ يَدْعُون بها علىٰ أنفسِهم(٣).

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾

ولمَّا ذمَّهم باللَّعِب، وبيَّن أنَّه يفعل في إهلاك الظُّلم وإنجاء العدلِ فِعلَ الجادِّ بإحقاق الحقِّ بالانتقام لأهله، وإزهاقِ الباطل باجتثاثه مِن أصله، فكان التَّقديرُ: وما ينبغي لنا أن نفعلَ غيرَ ذلك مِن أفعال الحكمةِ العريَّة عن اللعب، فلم نخلُقِ الناسَ عبثًا يعصوننا ولا يؤاخذون؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧-٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ قَصْمَ تلك القُرىٰ الظالمةِ، أتبَع ذلك بما يدلُّ علىٰ أنَّه فعَل ذلك عدلًا منه ومجازاةً علىٰ ما فعلوا، وأنَّه ما أنشأ هذا العالَمَ العُلْويَّ المحتويَ علىٰ عجائبَ مِن صُنْعِه وغرائبَ مِن فعله، وهذا العالَمَ السُّفليَّ وما أودَع فيه مِن عجائبِ الحيوان والنبات والمعادنِ، وما بَيْنَهما مِن الهواء والسَّحاب والرياح: علىٰ سبيل اللعب؛ بل لفوائدَ دينيةٍ تقضي بسعادة الأبد أو بشَقاوتِه، ودنياويةٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَىٰ[(١)].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إشارةٌ إجماليةٌ إلىٰ أنَّ تكوينَ العالم وإبداعَ بني آدمَ مؤسَّسٌ علىٰ قواعدِ الحِكَمِ البالغةِ المستتبِعةِ للغايات الجليلة، وتنبيهٌ علىٰ أنَّ ما حُكي مِن العذاب الهائل والعقاب النازلِ بأهل القرىٰ مِن مقتضياتِ تلك الحِكَم ومتفرِّعاتها؛ حسَبَ اقتضاءِ أعمالهم إياه، وأنَّ للمخاطَبين المقتدِينَ بآثارِهم ذنوبًا مِثْلَ ذنوبِهم[(٢)].

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ عنه اللَّعِبَ، أتبعه دليلَه، فقال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ مقرِّرةٌ لمعنىٰ جملةِ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ تقريرًا بالاستدلال علىٰ مضمون الجملة، وتعليلًا لنفيِ أن يكونَ خَلْقُ السماوات والأرض لعبًا[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٩).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢).

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لِما قبله مِن انتفاء اللَّعِب واللَّهو[١].

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ بَلْ ﴾ للإضراب عن اتخاذ اللَّهوِ وعن أن يكونَ الخَلْقُ لَعِبًا إضرابَ إبطالٍ وارتقاءٍ؛ أي: بل نحن نَعمِدُ إلىٰ باطلكم فنَقذِفُ بالحقِّ عليه كراهيةً للباطل؛ بَلْهَ أن نعملَ عملًا هو باطلٌ ولَعِبٌ[٢].

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللَّهو، بل عن إرادتِه؛ كأنَّه قيل: لكنَّا لا نريدُه، بل شأنُنا أن نُغلِّبَ الحقَّ، الذي مِن جملتِه الجِدُّ، علىٰ الباطلِ الذي مِن قَبيلِه اللَّهوُ، وتخصيصُ شأنه هذا مِن بَيْنِ سائر شؤونه تعالىٰ بالذِّكر للتَّخلُّص إلىٰ ما سيأتي مِن الوعيد[٣].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم عطَف أيضًا علىٰ ما لَزِم مِن ذلك القذفِ قولَه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾[٤].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾، مبيِّنة أنَّ كلَّ مَن في السماوات والأرض عبادٌ لله تعالىٰ، مخلوقون لقَبول تكليفه، والقيامِ بما خُلقوا

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٠).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٠).

لأجله، وهو تخلُّصٌ إلىٰ إبطال الشرك بالحُجَّةِ الدامغة بعد الإفاضة في إثبات صِدق الرسول ﷺ، وحُجِّيَّةِ القرآن(١).

في تعلُّق هذه الآية بما قبلها: وجهان؛ الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا نفىٰ اللَّعِبَ عن نفسه، ونفيُ اللعبِ لا يصحُّ إلا بنفي الحاجةِ، ونفيُ الحاجة لا يصحُّ إلا بالقدرة التامة؛ لا جرَمَ عقَّب تلك الآيةَ بقولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لدلالة ذلك علىٰ كمال المِلْكِ والقدرة. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ كلامَ الطاعنين في النبوَّات، وأجاب عنها، وبيَّن أنَّ غرضَهم مِن تلك المطاعنِ التمرُّدُ وعدم الانقياد؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالىٰ منزَّهٌ عن طاعتهم؛ لأنَّه هو المالكُ لجميع المخلوقاتِ، ولأجلِ أنَّ الملائكةَ -مع جلالتهم- مطيعون له، خائفون منه؛ فالبشَرُ -مع نهاية الضَّعف- أَوْلىٰ أن يُطيعوه(٢).

ثم أخبَر تعالىٰ عن عبوديَّة الملائكة له، ودَأْبِهم في طاعته ليلًا ونهارًا، وبراءتِهم مِن البُنوَّة المفتراة عليهم، إثرَ إخبارِه عن مِلْكِه للخَلق كافةً بقولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾(٣).

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

فأنتَج ذلك قولَه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٤).

جملةُ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ لأنَّ مَن لا يتعبُ مِن عملٍ لا يتركُه، فهو يواظبُ عليه، ولا يَعيَا منه(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٥).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ١٨٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٠١).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٦).

استئنافٌ وقع جوابًا عمَّا نشأ ممَّا قبله؛ كأنَّه قيل: ماذا يصنعون في عباداتهم؟ أو: كيف يعبدون؟ فقيل: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾(١).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ ﴾

ولمَّا كانوا عند هذا البيانِ جديرين بأن يُبادِروا إلىٰ التوحيدِ فلم يفعلوا، كانوا حقيقِينَ بعد الإعراضِ عنهم بالتَّوبيخ والتَّهكُّم والتَّعنيف، فقال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾(٢).

﴿ أَمِ ﴾ هذه منقطعةٌ، عاطفةٌ الجملةَ علىٰ الجملةِ عَطْفَ إضرابٍ انتقاليٍّ؛ هو انتقالٌ مِن إثباتِ صِدق الرسول ﷺ وحُجِّية دلالة القرآن إلىٰ إبطال الإشراك؛ انتقالًا مِن بقية الغرض السابقِ الذي تهيَّأ السامعُ للانتقال منه بمقتضىٰ التَّخلُّص الذي في قولِه تعالىٰ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾ كما تقدَّم، إلىٰ التَّمحُّضِ لغرضِ إبطال الإشراك، وإبطالِ تعدُّد الآلهةِ، وهذا الانتقالُ وقع اعتراضًا بَيْنَ جملةِ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ وجملةِ ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾، وليس إضرابُ الانتقال بمقتضٍ عدمَ الرجوع إلىٰ الغرض المنتقَلِ إليه(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الدلائلَ علىٰ وَحْدانيَّتِه، وأنَّ مَن في السماوات والأرضِ كلُّهم مِلْكٌ له، وأنَّ الملائكةَ المكرَّمين هم في خدمتِه لا يَفْتُرونَ عن تسبيحِه وعبادته؛ عاد إلىٰ ما كان عليه مِن توبيخ المشركين وذمِّهم، وتسفيهِ أحلامهم(٤).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أخرىٰ مِن جناياتهم بطريق الإضراب والانتقالِ مِن فنٍّ إلىٰ فنٍّ آخرَ مِن التَّوبيخِ، إثرَ تحقيقِ الحق؛ ببيانِ أنَّه تعالىٰ خلَق جميعَ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦١).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٧).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٤١٧).

المخلوقات علىٰ منهاج الحِكمة، وأنَّهم قاطبةً تحت ملكوتِه وقهرِه، وأنَّ عبادَه مُذعِنون لطاعته، ومثابِرون علىٰ عبادته، مُنـزِّهون له عن كلِّ ما لا يَلِيق بشأنه مِن الأمور التي مِن جملتِها الأندادُ(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تقرير وَحدانيَّتِه في ألوهيته ونفي الأنداد، إثرَ تقريرِه أمرَ الرسالة؛ فإنَّ ما سلف مِن أوَّل السورةِ كان في تحقيق شأن النُّبوَّة بقولِه سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾(٢).

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ قطعًا: لم يَتخذوا آلهةً بهذا الوصفِ، ولا شيءَ غيرُه سبحانه يستحقُّ وَصْفَ الإلهيَّة؛ أقام البرهانَ القطعيَّ علىٰ صحَّة نفي إلهٍ غيرِه ببرهان التمانع، وهو أشدُّ برهانٍ لأهل الكلامِ، فقال: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣).

جملةٌ مبيِّنةٌ للإنكار الذي في قولِه تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾؛ ولذلك فُصِلت ولم تُعطَفْ(٤).

ثم بيَّن تعالىٰ بطلانَ تعدُّدِ الآلهة بإقامة البرهان علىٰ انتفائه، بل علىٰ استحالتِه، بقولِه سبحانه: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦١).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٨).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ١٨٣).

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

الأظهَرُ أنَّ هذه الجملةَ حالٌ مكمِّلةٌ لمدلول قولِه تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، كما تقدَّم عند قولِه تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾... إلخ؛ فالمعنىٰ: أنَّ مَن عنده -وهم المقرَّبون مِن المخلوقات- هم مع قُرْبِهم يُسألون عمَّا يفعلون، ولا يَسألونه عمَّا يفعل؛ أي: لم يبلُغْ بهم قُرْبُهم إلىٰ حدِّ الإدلال عليه، وانتصابِهم لتعقُّبِ أفعاله[2].

لمَّا أقام البرهانَ علىٰ وَحدانيَّته وانفرادِه بالألوهيَّةِ، نزَّه نفسَه عمَّا وصَفه به أهلُ الجهلِ بقولِه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ثم وصَف نفسَه بأنَّه مالكُ هذا المخلوق العظيمِ الذي جميعُ العالَمِ هو متضمِّنُهم، ثم وصَف نفسَه بكمال القدرة ونهاية الحُكْمِ، فقال: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[3].

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ استئنافٌ ببيانِ أنَّه تعالىٰ -لقوَّة عظمتِه وعِزَّةِ سلطانِه القاهرِ- بحيث ليس لأحدٍ مِن مخلوقاته أن يناقشَه ويَسألَه عمَّا يفعلُ مِن أفعاله، إثرَ بيانِ أنْ ليس له شريكٌ في الإلهيَّة[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٥).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٢).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا قام الدَّليلُ، ووضَح السَّبيلُ، واضمحَلَّ كلُّ قالٍ وقيلٍ، فانمحَقتِ الأباطيلُ؛ قال مُنبِّهًا لهم علىٰ ذلك: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1].

جملةُ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ تأكيدٌ لجملةِ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، أُكِّد ذلك الإضرابُ الانتقاليُّ بمِثْلِه استعظامًا[2].

ثم كرَّر تعالىٰ عليهم الإنكارَ والتوبيخَ، فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[3].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن إظهار بطلانِ كونِ ما اتخذوه آلهةً حقيقةً؛ بإظهار خُلُوِّها عن خصائصِ الإلهيَّة التي مِن جملتها الإنشارُ، وإقامةِ البرهان القطعيِّ علىٰ استحالةِ تعدُّدِ الإله مطلقًا، وتفرُّدِه سبحانه بالألوهية، إلىٰ بطلانِ اتخاذِهم تلك الآلهةَ -مع عَرائِها عن تلك الخصائصِ بالمرَّةِ- شركاءَ لله تعالىٰ شأنُه، وتبكيتِهم بإلجائهم إقامةَ البرهان علىٰ دعواهم الباطلةِ، وتحقيقِ أنَّ جميعَ الكتب السماوية ناطقةٌ بحقيَّة التوحيدِ وبطلان الإشراك[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٦).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢١).

(٤) روح المعاني (٩/ ٣٠).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ -بيانًا لِما في الذِّكرينِ-: ولو أقبَلوا على الذِّكرِ، لَعَلِموا أنَّا أوحينا إليك في هذا الذِّكرِ أنَّه لا إلهَ إلا أنا، ما أرسلناك إلا لنوحيَ إليك ذلك؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

لمَّا أظهَرَ لرسوله أنَّ المعانِدين لا يَعلَمون الحقَّ لإعراضهم عن تلقِّيه، أقبَلَ على رسولِه ﷺ بتأييد مَقالِه الذي لقَّنه أن يجيبَهم به؛ وهو قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾، فأفاده تعميمَه في شرائعِ سائر الرُّسلِ؛ سواءٌ مَن أُنزِلَ عليه كتابٌ ومَن لم يُنزَلْ عليه كتابٌ، وسواءٌ مَن كان كتابُه باقيًا؛ مثلُ: موسى وعيسى وداودَ، ومَن لم يَبقَ كتابُه؛ مثلُ إبراهيم[2].

لمَّا ذكَر انتفاءَ عِلْمِهم الحقَّ وإعراضَهم، أخبَر أنَّه ما أرسَل مِن رسولٍ إلا جاء مقرِّرًا لتوحيد الله، وإفرادِه بالإلهيَّة، والأمر بالعبادة[3].

ثم بيَّن تعالى أنَّ التَّوحيدَ دعوى كل نبيٍّ بقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢٢).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٨٨).

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ على نفي مطلَقِ الشَّريك عقلًا ونقلًا، فانتفى بذلك كلُّ فردٍ يُطلَق عليه هذا الاسمُ؛ عجَّب مِن ادعائهم الشرِكةَ المقيَّدةَ بالولد، فقال عاطفًا على قولِه: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[(١)].

عطَف قِصَّةً مِن أقوالهم الباطلة على قِصَّة أخرى، فلمَّا فرَغ مِن بيان باطِلهم فيما اتخذوا مِن دُونِ الله آلهةً، انتقَل إلى بيانِ باطلٍ آخرَ[(٢)].

لمَّا بيَّن بالدلائل الباهرةِ كونَه منزَّهًا عن الشريكِ والضدِّ والنِّدِّ، أردَف ذلك ببراءته عن اتخاذِ الولد، فقال: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[(٣)].

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ حكايةٌ لجناية فريقٍ مِن المشركين، جيء بها لإظهار بطلانِها، وبيانِ تنزُّهِه تعالى عن ذلك، إثرَ بيان تنزُّهِه سبحانه عن الشُّركاء على الإطلاق[(٤)].

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم فسَّر الإكرامَ بقولِه: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[(٥)].

ثم وصَفهم بصفةٍ أخرى، فقال: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٧-٤٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٣٤).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٨).

(٦) فتح القدير (٣/ ٤٧٨).

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثم علَّل إخبارَه بذلك بعِلْمِه بما هذا المُخبَرُ به مُندرِجٌ فيه، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[(١)].

ثم إنَّه سبحانه ذكَر ما يجري مَجرىٰ السببِ لهذه الطاعة، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[(٢)].

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ استئنافٌ وقَع تعليلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده؛ فإنَّ لعلمِهم بإحاطته تعالىٰ بما قدَّموا وأخَّروا مِن الأقوال والأعمالِ: لا يَزالون يراقِبون أحوالَهم، فلا يَقدِرون علىٰ قولٍ أو عملٍ بغير أمره تعالىٰ[(٣)].

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ الشَّريكَ مطلَقًا ثم مقيَّدًا بالولديَّةِ، أتبَعه التَّهديدَ علىٰ ادعائه بتعذيب المتبوعِ الموجِبِ لتعذيب التابعِ، فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٣٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٩).

وبعد أن وصَف كرامتَهم عليه، وقُرْبَ منزلتِهم عنده، وأثنىٰ عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعالَ السَّنيةَ والأعمال المرضيَّةَ؛ فاجأَ بالوعيد الشديدِ، وأنذَر بعذاب جهنَّمَ مَن أشرك منهم، فقصَد بذلك تفظيعَ أمرِ الشرك، وتعظيمَ شأن التوحيد[1].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا أنكَر سبحانه اتخاذَهم آلهةً مِن دُونِه: تارةً بقيدِ كونها أرضيةً، وتارةً بقيدِ كونها سماويةً، وتارةً مطلَقةً؛ لتعُمَّ كلًّا مِن القِسْمَينِ وغيرَهما، واستدَلَّ علىٰ ذلك كلِّه بما لم تَبقَ معه شبهةٌ، فدلَّ تفرُّدُه علىٰ أنَّه لا مانعَ له ممَّا يريد مِن بعثٍ ولا غيرِه، وكان عِلْمُهم لا يتجاوز ما في السماوات والأرض؛ قال مستدِلًّا علىٰ ذلك أيضًا مقرِّرًا لهم بما يَعلمونه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

اعلَمْ أنَّه ﷻ شرَع الآن في الدلائل الدالَّةِ علىٰ وجود الخالقِ، وهذه الدلائلُ أيضًا دالَّةٌ علىٰ كونه منزَّهًا عن الشريك؛ لأنَّها دالَّةٌ علىٰ حصول الترتيب العجيبِ في العالَم، ووجودُ الإلهينِ يقتضي وقوعَ الفساد؛ فهذه الدلائلُ تدلُّ مِن هذه الجهةِ علىٰ التوحيد، فتكونُ كالتوكيد لِما تقدَّم، وفيها أيضًا ردٌّ علىٰ عَبَدةِ الأوثان؛ مِن حيث إنَّ الإلهَ القادر علىٰ مِثْلِ هذه المخلوقاتِ الشريفةِ كيف يجوز في العقلِ أن يُعدَلَ عن عبادتِه إلىٰ عبادة حَجَرٍ لا يضرُّ ولا ينفعُ؟! فهذا وجهُ تعلُّقِ هذه الآية بما قبلها[3].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٨٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤١١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٣٦).

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن القدرة الباهرة ثباتُ الأرض مِن غير حركةٍ، وكان الماءُ أدلَّ دليلٍ على ثباتها، وكانت الأرضُ أقربَ في الذِّكر مِن السماء؛ أتبَع ذلك قولَه: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[(١)].

هذا مِن آثارِ فَتْقِ الأرض في حدِّ ذاتِها؛ إذ أخرَج اللهُ منها الجبالَ؛ وذلك فَتْقُ تكوينٍ، وجعَل فيها الطرقَ السهلةَ التي يتمكن الإنسانُ مِن المشي فيها؛ عكسَ الجبال[(٢)].

ثم ذكَر دليلًا آخرَ مِن الدلائل الأرضية، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[(٣)].

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا دلَّهم بالسماوات والأرض على عظمتِه، ثم فصَّل بعضَ ما في الأرض لملابستِهم له، وخَصَّ الجبالَ لكثرتها في بلادِهم؛ أتبعه السماءَ، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[(٤)].

لمَّا ذكَر الاعتبارَ بخَلْقِ الأرض وما فيها، ناسَب -بحُكْمِ الطِّباق- ذِكْرُ خَلْقِ السماء عَقِبَه[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤١٣-٤١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢٦).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤١٤-٤١٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر السماءَ، ذكَر ما ينشأ عنها، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

ثم ذكَّرهم بنعمةٍ أخرىٰ أنعَم بها عليهم، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الصارمَ البَتَّار، للأعمار الطِّوال والقِصار، مِن الليل والنهار؛ كان كأنَّه قيل: فيُفنِيان كلَّ شديدٍ، ويُبلِيان كلَّ جديد، فعطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[2].

عُنِيتِ الآياتُ مِن أوَّل السورة باستقصاء مَطاعنِ المشركين في القرآن ومَن جاء به، وكان مِن جملةِ أمانيِّهم - لمَّا أعياهم اختلاقُ المطاعن -: أن كانوا يَتمنَّون موتَ محمَّد ﷺ، أو يرجُونه، أو يدبِّرونه، فلمَّا كان تَمنِّيهم موتَه وتربُّصُهم به ريبَ المَنُونِ يقتضي أنَّ الذين تمنَّوا ذلك وتربَّصوا به كأنَّهم واثقون بأنَّهم يموتون بعده، فتَتِمُّ شماتتُهم، أو كأنَّهم لا يموتون أبدًا فلا يَشمَتُ بهم أحدٌ؛ وجَّه إليهم استفهامَ الإنكارِ؛ علىٰ طريقة التعريضِ بتنزيلهم منزلةَ مَن يزعُمُ أنَّهم خالدون[3].

لمَّا استدَلَّ بالأشياءِ الستة التي شرحناها في الفصل المتقدم، وكانت تلك الأشياءُ مِن أصول النِّعم الدنيوية؛ أتبَعه بما نبَّه به علىٰ أنَّ هذه الدُّنيا جعَلها كذلك لا لتبقىٰ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤١٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤١٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٢).

وتدُومَ، أو يبقىٰ فيها مَن خُلِقت الدُّنيا له، بل خلَقها ﷻ للابتلاء والامتحانِ، ولكي يُتوصلَّ بها إلىٰ الآخرةِ التي هي دارُ الخلود(١).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، أنتج قطعًا: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢).

جُمَلٌ معترِضاتٌ بَيْنَ الجملتين المتعاطفتين، ومضمونُ الجملة الأولىٰ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة المعطوفِ عليها؛ وهي ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾، ووجهُ إعادتِها اختلافُ القصد؛ فإنَّ الأُولىٰ للردِّ علىٰ المشركين، وهذه لتعليمِ المؤمنين(٣).

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه عن إعراضِهم عن الساعة تكذيبًا، واستدلَّ علىٰ كونها منزَّهةً عن الغيبِ في خَلْقِ هذا العالَمِ، وتَعاليه عن جميع صفات النقصِ، واتصافِه بأوصاف الكمال، إلىٰ أن ختَم ذلك بمثلِ ما ابتدأ به علىٰ وجهٍ أصرَحَ، وكان فيه تنبيهُهم علىٰ الابتلاءِ، وكان الابتلاءُ علىٰ قَدْرِ النِّعم، فكان ﷺ أعظَمَ شيء ابتُلُوا به؛ لأنَّه لا نعمةَ أعظمُ مِن النِّعْمة به، ولا شيءَ أظهَرُ مِن آياته؛ عطَف علىٰ قولِه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤١٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٣).

قولــــــه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾(١).

هذا وَصْفٌ آخَرُ لِما يؤذي به المشركون رسولَ اللهِ ﷺ حين يرونه؛ فهو أخَصُّ مِن أذاهم إياه في مَغِيبِه، فإذا رأوه يقولُ بعضُهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾(٢).

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان مِن آيات الأوَّلين التي طلبوها العذابُ بأنواع الهَوْلِ، وكانوا هم أيضًا قد طلبوا ذلك واستعجَلوا به، وكان الذي جرَّأهم على هذا حِلْمَ الله عنهم بإمهالِه لهم؛ قال مُعلِّلًا لذلك: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾(٣).

جملةُ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وبَيْنَ جملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، جُعِلت مقدمةً لجملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، ومناسبةُ موقعِ الجملتين أنَّ ذِكْرَ استهزاء المشركين بالنبي ﷺ يُهيِّجُ حَنَقَ المسلمين عليهم، فيودُّوا أن يَنزِلَ بالمكذِّبين الوعيدُ عاجلًا، فخوطبوا بالتريُّثِ وألا يستعجلوا ربَّهم؛ لأنَّه أعلَمُ بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيدِ وما في تأخير نزوله مِن المصالح للدِّينِ، وأهمُّها مصلحةُ إمهالِ القوم حتى يدخُلَ منهم كثيرٌ في الإسلام(٤).

كانوا يَستعجِلون عذابَ الله تعالى وآياتِه الملجئة إلى العلم والإقرار، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، فأراد زَجْرَهم عن ذلك، فقدَّم أولًا ذمَّ الإنسان على إفراط العَجَلة،

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٧).

ثم نهاهم وزجَرهم؛ كأنَّه قال: لا يبعُدُ منكم أن تَستعجلوا؛ فإنَّكم مجبولون على ذلك، وهو طَبْعُكم وسجيَّتُكم، فإن قيل: مقدمةُ الكلام لا بد وأن تكونَ مناسبةً للكلام، وكونُ الإنسانِ مخلوقًا مِن العَجَل يناسب كونَه معذورًا فيه، فلِمَ رتَّبَ على هذه المقدمةِ قولَه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟ قلنا: لأنَّ العائقَ كلَّما كان أشدَّ، كانت القدرةُ على مخالفته أكمَلَ، فكأنَّه سبحانه نبَّه بهذا على أنَّ تَرْكَ الاستعجال حالةٌ شريفةٌ عاليةٌ مرغوبٌ فيه[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا ذمَّ العجَلةَ -وهي إرادةُ الشيء قبل أوانِه- ونهى عنها، قال دالًّا عليها عاطفًا على عاملِ ﴿هَٰذَا﴾: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

نشأ عن ذِكْرِ استبطاء المسلمين وَعْدَ اللهِ بنصرهم على الكافرين ذِكْرُ نظيرِه في جانب المشركين؛ أنَّهم تساءلوا عن وقتِ هذا الوعدِ تهكُّمًا، فنشأ به القولان، واختلَف الحالان، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ عطفًا على جملةِ ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، وهذا معبِّرٌ عن مقالةٍ أخرى مِن مقالاتهم التي يتلقَّون بها دعوةَ النَّبيِّ ﷺ استهزاءً وعنادًا، وذِكْرُ مقالتِهم هذه هنا مناسبٌ لاستبطاء المسلمين النصرَ، وبهذا الاعتبار تكونُ متصلةً بجملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، فيجوزُ أن تكونَ معطوفةً عليها[3].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الاستعجالُ المذمومُ المذكورُ على سبيل الاستهزاء، فبيَّن تعالى أنَّهم يقولون ذلك لجهلِهم وغفلتهم[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٥).

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا غلَوْا في الاستهزاء، فكانوا أجهَلَ الجهَلةِ باستحالة الممكِن؛ استأنَف الجوابَ عن كلامهم بنفي العِلْمِ عنهم في الحال والمآل دُونَ المعاينةِ؛ علىٰ طريق التهكُّمِ والاستهزاء بهم، فقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[١].

جملةُ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ مستأنفةٌ للبيان؛ لأنَّ المسلمين يترقَّبون مِن حكايةِ جملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ماذا يكونُ جوابُهم عن تهكُّمِهم، وحاصلُ الجوابِ أنَّه واقعٌ لا محالةَ، ولا سبيلَ إلىٰ إنكاره[٢].

ثم إنَّه سبحانه ذكَر في رَفْعِ هذا الحزن عن قلبِ رسول اللهِ ﷺ وجهين؛ الأولُ: بأنْ بيَّن ما لصاحبِ هذا الاستهزاء مِن العقابِ الشديد، فقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٣].

ثم بيَّن هَوْلَ ما يَستعجلونه وفَظاعةَ ما فيه، وأنَّ عجَلتَهم لجهلهم بمغبَّتِه بقولِه تعالىٰ: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٥).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٩٥).

﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

﴿ بَلۡ ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن تهويلِ ما أُعِدَّ لهم إلى التهديد بأنَّ ذلك يحُلُّ بهم بغتةً وفجأةً، وهو أشَدُّ على النفوسِ؛ لعدم التهيؤ له، والتوطُّنِ عليه[(١)].

ثم إنَّه تعالى لمَّا بيَّن شدَّةَ هذا العذاب، بيَّن أنَّ وقتَ مجيئه غيرُ معلوم، فقال: ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: حاقَ بهم هذا باستهزائهم بك، تَبِعه ما يدلُّ على أنَّ الرُّسلَ في ذلك شرعٌ واحدٌ؛ تسليةً له ﷺ وتأسيةً، فقال عاطفًا على ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ﴾: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[(٣)].

عطفٌ على جملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾، وتطمينٌ للنبيِّ ﷺ وتسليةٌ له، ومناسبةُ عطفِها على جملةِ ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ ﴾: ظاهرةٌ[(٤)].

ثم إنَّه سبحانه ذكَر الوجهَ الثانيَ في دفعِ الحزن عن قلبِ رسوله ﷺ، فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٦).

ثم أشار إلىٰ تسليتِه ﷺ عن استهزائهم، في ضِمْنِ وعيدٍ لهم، بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[(١)].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا هدَّدهم بما مضىٰ ممَّا قام الدليلُ علىٰ قُدْرتِه عليه، وختَمه -لوقوفِهم مع المحسوسات- بما وقَع لِمَن قبلهم، وكان الأمانُ عن مِثْلِ ذلك لا يكونُ إلا بشيء يوثَقُ به؛ أمَره أن يسألَهم عن ذلك بقولِه: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾[(٢)].

بعد أن سَلَّىٰ الرسولَ ﷺ علىٰ استهزائهم بالوعيدِ، أمَر أن يُذكِّرَهم بأنَّ غرورَهم بالإمهال مِن قِبَلِ اللهِ رحمةٌ منه بهم؛ كشأنه في الرحمة بمخلوقاتِه؛ بأنَّهم إذا نزَل بهم عذابُه لا يجدون حافظًا لهم مِن العذاب غيرَه، ولا تَمنعُهم منه آلهتُهم، والاستفهامُ إنكارٌ وتقريع؛ تنبيهًا لهم إذا نَسُوا نِعَمَه[(٣)].

ثم أمَره تعالىٰ أن يسألَهم: مَن الذي يَحفَظُكم في أوقاتِكم مِن بأس الله؟[(٤)].

لمَّا بيَّن أنَّ الكفارَ في الآخرة لا يكُفُّون عن وجوههم النارَ بسائرِ ما وصَفهم به، أتبعه بأنَّهم في الدُّنيا أيضًا لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ يحرُسُهم ويَحفَظُهم لَمَا بقُوا في السلامةِ، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٩٥).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٣).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٣٢-٤٣٣).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٦).

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾

ولمَّا أرشد السِّياقُ إلىٰ أنَّ التَّقديرَ: أصحيحٌ هذا الذي أشَرْنا إليه مِن أنَّه لا مانعَ لهم منا؟ عادَله بقولِه إنكارًا عليهم: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾(1).

ثم أضرَب إضرابًا ثانيًا بـ﴿أَمۡ﴾ المنقطعةِ التي هي أختُ «بل»، مع دلالتِها علىٰ الاستفهام لقصد التقريعِ، فقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾(2).

﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾

ولمَّا لم يصلُحْ هذا لأنْ يكونَ سببًا لاجترائهم، أضرَب عنه قائلًا في مظهرِ العظمةِ -إشارةً إلىٰ أنَّ اغترارَهم به سبحانه -مع ما له مِن دلائلِ الجلال- مِن أعجَبِ العجَبِ، بانيًا علىٰ نحوِ «لا كالئَ لهم منه ولا مانعَ»-: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(3).

لمَّا أبطَل كونَ الأصنام نافعةً، أضرَب عن ذلك؛ منتقِلًا إلىٰ بيانِ أنَّ ما هم فيه مِن الخير والتمتع بالحياةِ العاجلةِ هو مِن عندِ اللهِ، لا مِن مانعٍ يَمنَعُهم مِن الهلاك، ولا

---

(1) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٤).

(2) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٤).

(3) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٥).

مِن ناصرٍ ينصُرُهم علىٰ أسباب التمتُّعِ، فقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(١).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا تبيَّن الخُلْفُ في قولِهم علىٰ كثرتِه، وادعائهم الحكمةَ والبلاغةَ، وفِعْلِهم علىٰ كثرتِهم، وزَعْمِهم القوةَ والشجاعةَ؛ ثبَت أنَّ أقواله الناقضةَ لذلك مِن عندِ الله؛ بما ثبَت مِن استقامة معانيها وإحكامِها، بعد ما اتضَح مِن إعجاز نظومِها، وحُسْنِ التئامها، فأمَره أن يبيِّنَ لهم ذلك بقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، مقصودٌ منه الإتيانُ علىٰ جميع ما تقدَّم مِن استعجالهم بالوعد؛ تهكُّمًا بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ عقَّب به أمرَ اللهِ رسولَه أن يخاطبَهم بتعريف كُنْهِ دعوته؛ وهي قَصْرُه علىٰ الإنذار بما سيحُلُّ بهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنذارًا مِن طريق الوحي المُنزَلِ عليه مِن الله تعالىٰ؛ وهو القرآنُ؛ أي: فلا تُعرِضوا عنه، ولا تَتطلَّبوا مني آيةً غيرَ ذلك، ولا تَسألوا عن تعيين آجالِ حُلولِ الوعيد، ولا تَحسَبوا أنَّكم تُغيظونني بإعراضِكم، والتوغُّلِ في كفركم(٣).

لمَّا كرَّر في القرآن الأدلةَ، وبالَغَ في التنبيه عليها علىٰ ما تقدَّم؛ أتبَعه بقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾(٤).

---

(١) فتح القدير (٣/ ٤٨٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٨).

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا كان المُنذَرُ لا يترُكُ الاستعدادَ لِما يُنذَرُ به مِن العذاب إلا إذا كان قويًّا على دفعه، بيَّن أنَّهم على غيرِ ذلك، فقال: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾، والخطابُ للنبيِّ ﷺ؛ أي: أنذِرْهم بأنَّهم سيَندَمون عندما ينالُهم أوَّلُ العذاب في الآخرةِ، وهذا انتقالٌ مِن إنذارهم بعذاب الدُّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة(٢).

ثم أخبَر تعالى أنَّ هؤلاء الذين صَمُّوا عن سماعِ ما أُنذِروا به: إذا نالهم شيءٌ ممَّا أُنذِروا به ولو كان يسيرًا، نادَوا بالهلاك، وأقَرُّوا بأنَّهم كانوا ظالمين؛ نُبِّهوا على العلَّة التي أوجَبت لهم العذابَ؛ وهو ظلمُ الكفر، وذَلُّوا وأذعَنوا(٣).

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ بيانٌ لسرعة تأثُّرِهم مِن مجيء نفس العذاب، إثرَ بيانِ عدم تأثُّرِهم مِن مجيء خبرِه؛ على نهج التَّوكيد القَسَميِّ(٤).

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ما افتُتِحت السورةُ مِن اقتراب الساعةِ بالقدرة عليه واقتضاءِ الحكمةِ له، وأنَّ كلَّ أحدٍ ميتٍ لا يستطيع شيئًا مِن الدَّفع عن نفسه، فضلًا عن غيره، وخُتِمت

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٧٠).

الآياتُ بإقرار الظالم بظُلمه، وكانت عادةُ كثيرٍ مِن الناس الجَوْرَ عند القدرة؛ بيَّن أنَّه سبحانه بخلاف ذلك؛ فذكَر بعضَ ما يُفعَل في حساب الساعة مِن العدل، فقال عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[(١)].

يجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً هذه الجملةَ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ إلخ؛ لمناسبةِ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، ولبيانِ أنَّهم مُجازَوْنَ علىٰ جميعِ ما أسلَفوه مِن الكفر وتكذيب الرسول؛ بيانًا بطريقِ ذِكر العموم بعد الخصوص في المُجازَيْنَ، فشابَه التذييلَ؛ مِن أجلِ عموم قولِه تعالىٰ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾، وفي المُجازَىٰ عليه؛ مِن أجلِ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر حالَهم في الدُّنيا إذا أُصيبوا بشيء، استطرَد لِما يكونُ في الآخرةِ التي هي مَقَرُّ الثواب والعقابِ، فأخبَر تعالىٰ عن عدلِه[(٣)].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم في قولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم ﴾ الآيةَ، وغيرِه: أنَّهم أعرَضوا عن هذا الذِّكر؛ تعلُّلًا بأشياءَ، منها طلبُ آيات الأوَّلين، ونبَّه علىٰ إفراطِهم في الجهلِ بما رَدُّوا مِن الشَّرفِ بقولِه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾، ومرَّ إلىٰ أن ختَم بالتَّهديد بعذابِه، وأنَّه يحكُمُ بالقِسط، وكان كتابُ موسىٰ عليه السلام بعد القرآن أعظَمَ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٨٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٣٥).

الكتبِ السماوية، وكان أهلُ الكتاب قد أعرَضوا عنه غيرَ مرةٍ على زمنِ موسى عليه السلام بعبادةِ العِجْلِ وغيرِه، وبعد موته، مع كونِ المرسَلِ به اثنينِ تعاضَدَا على إبلاغِه وتقريرِ أحكامه، بعد أن بَهَرا العقولَ بما أتيَا به مِن الآياتِ، التي منها التصرُّفُ في العناصر الأربعةِ، التي هي أصلُ الحيوانِ الذي بدأ اللهُ منها خَلْقَه، ومقصودُ السورةِ الدلالةُ على إعادته، ومنها ما عُذِّب به مَن أعرَض عن ذِكْرِ موسى وهارونَ عليهما السلام، الذي هو ميزانُ العدل لِما نُشِر مِن الضياء المورِثِ للتبصرةِ الماحقةِ للظلام، فلا يقع مُتَّبِعُه في ظُلَمٍ، وكان الحسابُ تفصيلَ الأمور ومقابلةَ كلٍّ منها بما يليق به؛ وذلك بعينه هو الفُرْقانُ؛ قال سبحانه بعد آيةِ الحساب عاطفًا على ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(1)].

عطفٌ على جملةِ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لإقامة الحُجَّةِ على المشركين بالدلائل العقلية والإقناعية والزَّجْرية، ثم بدلائلِ شواهدِ التاريخ، وأحوالِ الأمم السابقة[(2)].

لمَّا تكلَّم في دلائل التوحيد والنبوَّة والمَعادِ، شرَع في قصص الأنبياء عليهم السلام؛ تسليةً للرسول صلى الله عليه وسلم فيما ينالُه مِن قومه، وتقويةً لقلبه على أداء الرسالة، والصبرِ على كلِّ عارِضٍ دُونَها، وذكَر هاهنا منها قصصًا: القِصَّةُ الأولى قِصَّةُ موسى عليه السلام، ووجهُ الاتصال: أنَّه تعالى لمَّا أمَر رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾، أتبعه بأنَّ هذه عادةُ الله تعالى في الأنبياءِ قبله، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(3)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٨٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٠).

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ثـم بـيَّن التقـوىٰ بوَصْـفِهم بقولِـه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾[١].

ووصفَهم بما يَزيدُ معنىٰ المتقين بيانًا بقولِه تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾[٢].

لمَّا ذكَر التقوىٰ، ذكَر ما أنتجَتْهُ؛ وهو خشيةُ الله، والإشفاقُ مِن عذاب يوم القيامةِ[٣].

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر فُرْقانَ موسىٰ عليه السلام، وكان العرَبُ يشاهِدون إظهارَ اليهودِ للتمسك به، والمقاتلةَ علىٰ ذلك، والاغتباطَ؛ حثَّهم علىٰ كتابِهم الذي هو أشرَفُ منه، فقال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[٤].

عقَّب هذا التعريضَ بذِكْرِ المقصود مِن سَوْقِ الكلام الناشِئ هو عنه؛ وهو المقابلةُ بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[٥].

لمَّا ذكَر ما آتىٰ موسىٰ وهارونَ عليهما السلام، أشار إلىٰ ما آتىٰ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[٦].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٣١).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٠).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٣٧).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٠).
(٦) البحر المحيط (٧/ ٤٣٧).

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ ﴾

ولمَّا كان مقصودُ السورةِ الدلالةَ علىٰ القدرة علىٰ ما استبعَده العرَبُ مِن إعادة الحيوانِ بعد كونه ترابًا، وبدأ ذِكْرَ الأنبياء بمَن صرَّفه في العناصرِ الأربعة؛ كما تقدَّم قَصُّ ذلك مِن التَّوراةِ في سورتي «البقرة» و«الأعراف»؛ إشارةً إلىٰ أنَّ مَن استبعَد عليه ما جعَله إلىٰ بعضِ عبيدِه أعمىٰ الناسِ؛ تلاه مِن الأنبياء بمَن سخَّر له واحدًا مِن تلك العناصر، مرتِّبًا لهم علىٰ الأخفِّ في ذلك فالأخفِّ علىٰ سبيل الترقي، فبدأهم بذِكْرِ مَن سخَّر له عنصرَ النارِ، مع التنبيه للعربِ علىٰ عَماهم عن الرُّشد؛ بإنكاره للشركِ بعبادة الأوثان علىٰ أبيه وغيره، ودعائهم إلىٰ التوحيدِ والمجاهدةِ في الله علىٰ ذلك حقَّ الجهاد، وهو أعظمُ آباءِ الرادِّينَ لهذا الذِّكر، والمستمسكين بالشرك تقليدًا للآباء؛ إثباتًا للقدرة الباهرة الدالَّةِ علىٰ التوحيد الداعي إليه جميعُ هؤلاء الأصفياءِ، هذا مع مشاركتِه بإنزال الصُّحُفِ عليه لموسىٰ ومحمَّدٍ عليهما الصَّلاة والسلام، ومشاركتِه لهما في الهجرة، وإذا تأمَّلتَ ما في سورتي «الفرقان» و«الشعراء»، ازداد ما قلتُه وضوحًا؛ فإنَّه لمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّهم قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]، بدأ بقِصَّةِ موسىٰ الذي كتَب له ربُّه في الألواح مِن كل شيءٍ، وقومُه مقِرُّون بعظمة كتابه، وأنَّه أوتي مِن الآيات ما بَهَر العقولَ، وكفَر به مع ذلك كثيرٌ منهم، ولمَّا قال في «الشعراء»: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الآية: ٥] كما هنا، صنَع كما صنع هنا مِن البَداءة بقِصَّةِ موسىٰ عليه السلام، وإيلائها ذِكْرَ إبراهيمَ عليه السلام، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[1].

أُعقبت قِصَّةُ موسىٰ وهارون بقِصَّةِ إبراهيمَ فيما أوحيَ إليه مِن مقاومة الشِّرك ووضوح الحُجَّة علىٰ بطلانِه؛ لأنَّ إبراهيمَ كان هو المَثَلَ الأوَّلَ قبل مجيء الإسلام

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

في مقاومة الشركِ؛ إذ قاوَمه بالحُجَّةِ، وبالقوة، وبإعلان التوحيد، فكانت قِصَّةُ إبراهيمَ مع قومه شاهدًا على بطلانِ الشِّرك الذي كان مماثِلًا لحال المشركين بمكَّةَ، الذي جاء محمَّدٌ ﷺ لقطعِ دابره[(١)].

لمَّا تقدَّم الكلامُ في دلائلِ التوحيد والنبوَّة والمَعاد، أتبَع ذلك بثلاثةَ عشرَ نبيًّا؛ غيرَ مراعًى في ذِكْرِهم الترتيبُ الزمانيُّ، وذكَر بعضَ ما نال كثيرًا منهم مِن الابتلاء، كلُّ ذلك تسليةً للرسول ﷺ، ولِيَتأسَّى بهم فيما جرى عليه مِن قومه[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالى موسى ومحمَّدًا صلى الله عليهما وسلم وكتابَيْهما، قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[(٣)].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم استطرَد مِن ذلك إلى تفسير الرُّشد -وهو الدعاءُ إلى توحيدِ الله، ورفضِ ما عُبِد مِن دُونه-، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[(٤)].

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا أتاهم بهذا القاصِمِ، استأنَف الخبرَ سبحانه عن جوابهم بقولِه: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٢).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٤١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٢٥).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٤٢).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٥).

ولمَّا سألهم أجابوه بالتقليد البَحْتِ، وأنَّه فِعْلُ آبائهم؛ اقتدَوا به مِن غير ذِكْرِ برهانٍ، وما أقبَحَ هذا التقليدَ الذي أدَّىٰ بهم إلىٰ عبادةِ خشَبٍ وحَجَرٍ ومَعدِنٍ، ولَجَاجِهم في ذلك، ونُصْرةِ تقليدهم! وكان سؤالُه إياهم عن عبادة التماثيلِ، وغايتُه أن يذكُروا شُبْهةً في ذلك فيُبطِلَها(١).

فأجابوا بغير حُجَّةٍ جوابَ العاجزِ الذي ليس بيده أدنىٰ شُبهةٍ: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾(٢).

﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤﴾

ولمَّا غلَوا في الجهل غيرَ محتشمين مِن إقرارهم علىٰ أنفسِهم به، بالاستناد إلىٰ محضِ التقليدِ بعد إفلاسهم مِن أدنىٰ شُبهةٍ، فضلًا عن الدليلِ؛ استأنف اللهُ تعالىٰ الإخبارَ عن جوابه بقولِه: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(٣).

جاؤوا في جوابه بما توهَّموا إقناعَه به؛ وهو أنَّ عبادةَ تلك الأصنام كانت مِن عادة آبائهم، فحَسِبوه مِثْلَهم يُقدِّسُ عملَ الآباء ولا ينظُرُ في مصادفتِه الحقَّ؛ ولذلك لم يَلبَثْ أن أجابهم: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(٤).

فلمَّا أجابوه بما لا شُبهةَ لهم فيه، وبدَا ضَلالُهم؛ قال: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٤٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٢٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٥).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٤٤٢).

📖 ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ ﴾ 📖

ولمَّا لم تكُنْ عادتُه مواجهةَ أحدٍ بما يَكرَهُ، استأنف الإخبارَ عنهم بما يدلُّ عليه، فقال: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾[(١)].

لمَّا جرىٰ هذا السؤالُ وهذا الجوابُ، تعجَّبوا مِن تضليله إياهم؛ إذ كان قد نشأ بَيْنَهم، وجوَّزوا أنَّ ما قاله هو علىٰ سبيل المِزاح لا الجِدِّ، فاستفهَموه: أهذا جِدٌّ منه أم لعبٌ؟![(٢)].

لمَّا حقَّق ﷺ ذلك عليهم، ولم يَجِدوا مِن كلامه مَخلَصًا، ورأَوْهُ ثابتًا علىٰ الإنكار قويَّ القلبِ فيه، وكانوا يَستبعِدون أن يَجرِيَ مِثْلُ هذا الإنكارِ عليهم، مع كثرتهم وطُولِ العهد بمذهبهم؛ فعند ذلك قالوا له: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾؛ مُوهِمين بهذا الكلامِ أنَّه يبعُدُ أن يُقدِمَ علىٰ الإنكار عليهم جادًّا في ذلك[(٣)].

📖 ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ ﴾ 📖

ثم أضرَب عن قولهم وأخبَر عن الجِدِّ، وأنَّ المالكَ لهم والمستحقَّ العبادةَ هو رَبُّهم وربُّ هذا العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ، المندرجِ فيه أنتم ومعبوداتُكم؛ نبَّه علىٰ الموجِب للعبادةِ؛ وهو مُنشِئُ هذا العالَم ومخترعُه مِن العدم الصِّرْفِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٦).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٢).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٤٣).

لمَّا أوهَموا أنَّه يمازِحُ بما خاطَبَهم به في أصنامِهم، أظهَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يَعلَمون به أنَّه مُجِدٌّ في إظهارِ الحق الذي هو التوحيدُ؛ وذلك بالقول أولًا، وبالفعل ثانيًا؛ أمَّا الطريقةُ القوليةُ: فهي قولُه: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، وهذه الدلالةُ تدلُّ علىٰ أنَّ الخالقَ الذي خلَقها لمنافعِ العبادِ هو الذي يحسُنُ أن يُعبَدَ؛ لأنَّ مَن يَقدِرُ علىٰ ذلك يَقدِرُ علىٰ أن يضُرَّ وينفعَ في الدار الآخرةِ بالعقابِ والثوابِ(١).

فرَدَّ عليهم إبراهيمُ ردًّا بيَّن به وجهَ سفَهِهم، وقلَّةِ عقولهم، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٢).

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾

لمَّا أقام البرهانَ علىٰ إثبات الإلهِ الحقِّ، أتبَعه البرهانَ علىٰ إبطال الباطلِ، فقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾(٣).

ثم انتقَل إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن تغيير المنكَر بالقول إلىٰ تغييره باليدِ؛ معلنًا عزمَه علىٰ ذلك بقولِه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾(٤).

وأمَّا الطريقةُ الفِعْليةُ: فهي قولُه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ فإنَّ القومَ لمَّا لم يَنتفعوا بالدلالة العقليةِ، عدَل إلىٰ أن أراهم عدمَ الفائدة في عبادتِها(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٢٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٣).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾

ولمَّا كانوا في غايةِ التعظيم لأصنامهم؛ لرسوخِ أقدامِهم في الجهل؛ لم يقعْ في أوهامِهم قطُّ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام يُقدِمُ على ما قال، وعلى تقدير إقدامِه -الذي هو عندهم مِن قَبيل المُحالِ- لا يَقدِرُ على ذلك، فتولَّوا إلى عيدِهم، وقصَد هو ما كان عزَم عليه، فشمَّر في إنجازه تشميرًا يَليق بتعليقِه اليمينَ بالاسمِ الأعظمِ، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(١).

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾

فلمَّا عادُوا إلى أصنامِهم فوجَدوها على تلك الحالِ، عُلِم أنَّه لا بدَّ لهم عند ذلك مِن أمرٍ هائلٍ، فاستؤنف الإخبارُ عنه بقولِه: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

في الكلام محذوفٌ؛ تقديرُه: فلمَّا رجَعوا مِن عيدهم إلى آلهتِهم، ورأَوْا ما فُعِل بها؛ استفهَموا على سبيل البحث والإنكارِ، فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾

فأجاب بعضُهم بعضًا قائلًا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٨).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٣٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٤٦).

﴿ قَالُوا۟ فَأۡتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ ﴾

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا شاهَدوا كسرَ الأصنام، وقيل: إنَّ فاعِلَه إبراهيمُ عليه السلام؛ قالوا فيما بَيْنهم: ﴿فَأۡتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾[1].

فلمَّا تحقَّقوا أنَّه إبراهيمُ، ﴿ قَالُوا۟ فَأۡتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴾[2].

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ ﴾

ولمَّا كان إحضارُه معلومًا أنَّهم لا يتأخَّرون عنه، استأنَف إخبارَه لِما يقع التَّشوُّفُ له، فقال: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾[3].

وقَع هنا حذفُ جملةٍ تقتضيها دلالةُ الاقتضاء؛ والتَّقديرُ: فأتَوْا به فقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾[4].

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكاية قولهم؛ كأنَّه قيل: فماذا فعَلوا به عليه السلام بعد ذلك؟ هل أتَوْا به أو لا؟ فقيل: أتَوا به، ثم ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾[5].

﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ٦٣ ﴾

لمَّا طلَبوا منه الاعترافَ بذلك ليُقدِموا علىٰ إيذائه، فظهَر منه ما انقلَب الأمرُ عليهم حتىٰ تمنَّوُا الخلاصَ منه، قال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وقد علَّق الفأسَ علىٰ رقبتِه؛ لكي يورِدَ هذا القولَ فيُظهِرَ جهلَهم في عبادةِ الأوثان[6].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٥).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٢٥).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٠).
(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٧٤).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٥).

فأجابهم إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾.

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان رُوحُ الكلام إقرارَه بالفعل، وجَعْلَهم موضعَ الهُزْءِ؛ لأنَّهم عبَدوا ما لا قدرةَ له علىٰ دفاعٍ أصلًا؛ تسبَّب عنه قولُه تعالىٰ الدالُّ علىٰ خِزْيِهم: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

لمَّا نبَّههم بما أورَده عليهم علىٰ قُبْحِ طريقِهم، تنبَّهوا فعَلِموا أنَّ عبادةَ الأصنام باطلةٌ، وأنَّهم علىٰ غرورٍ وجهلٍ في ذلك(٢).

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان رجوعُهم إلىٰ الضَّلال بعد هذا الإقرار الصحيحِ الصريح في غاية البُعْدِ، عبَّر بأداته مشيرًا إلىٰ ذلك، فقال: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾(٣).

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن قولِهم هذا إقرارُهم بأنَّهم لا فائدةَ فيهم، فاتجهت لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الحُجَّةُ عليهم؛ استأنَف سبحانه الإخبارَ عنها بقولِه: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٤١).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٦).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٢).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٢).

ولمَّـا ظهـرت الحُجَّـةُ علـيهم، أخَـذ يُقـرِّعُهم ويـوبِّخُهم بعبـادةِ تماثيـلِ مـا لا ينفـعُ ولا يضُرُّ[١].

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّـا أثبَت أنَّ معبـوداتِهم هـذه في حيِّزِ العَـدَم، فكـانوا -لعبادتِهـا- دُونَهـا؛ استأنَف تبكيتَهم لذلك بأعلىٰ كلماتِ التَّحقير التي لا تُقال إلا لِما هو غايةٌ في القَذارةِ، فقـال: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

ثم أبدىٰ لهم التضجُّرَ منهم ومِن معبوداتِهم[٣].

ثم تضجَّر عليه السلام مِن إصرارِهم علىٰ الباطل بعد انقطاع العُـذْرِ ووضـوح الحـقِّ، فقـال: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا وصَل بهم إلىٰ هذا الحدِّ مِن البيان، فدَحَضَتْ حُجَّتُهم، وبـان عَجْزُهم، وظهَـر الحقُّ، واندفَع الباطلُ، فانقطَعوا انقطاعًا فاضحًا؛ أشار سبحانه إلىٰ الإخبارِ عن ذلك بقولِه استئنافًا: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾[٤].

لمَّا غلَبهم بالحُجَّة القاهرةِ لم يجدوا مَخلَصًا إلا بإهلاكه، وكذلك المُبطِلُ إذا قرَعـتْ باطلَه حُجَّةُ فسادِه، غَضِب علىٰ المُحِقِّ، ولـم يَبقَ له مَفزَعٌ إلا مناصبتُه والتشفِّي منه؛

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٤٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٣).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٥٠).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٣-٤٤٤).

كما فعل المشركون مِن قُرَيشٍ مع رسول اللهِ ﷺ حينَ عجَزوا عن المعارضة، واختار قومُ إبراهيمَ أن يكونَ إهلاكُه بالإحراق؛ لأنَّ النارَ أهوَلُ ما يُعاقَب به وأفظَعُه(١).

لمَّا نبَّههم علىٰ قبيحِ مُرتكَبِهم، وغلَبهم بإقامةِ الحُجَّة عليهم؛ لاذوا بالإيذاء له، والغضبِ لآلهتهم، واختاروا أشدَّ العذاب؛ وهو الإحراقُ(٢).

لمَّا بيَّن ما أظهَرَه إبراهيمُ عليه السلام مِن دلائلِ التوحيدِ، وإبطالِ ما كانوا عليه مِن عبادة التماثيلِ؛ أتبَعه بما يدلُّ علىٰ جهلِهم، وأنَّهم ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾(٣).

فحينئذ لمَّا أفحَمهم، ولم يُبينوا حُجَّةً؛ استعمَلوا قوَّتَهم في معاقبته؛ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾(٤).

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾

فأراد اللهُ الذي له القوةُ جميعًا سلامتَه منها، فعبَّر عن ذلك بقولِه سبحانه -استئنافًا لجوابِ مَن زاد تشوُّفُه إلىٰ ما كان مِن أمرِه بعد الإلقاء فيها-: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾(٥).

جملةُ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مفصولةٌ عن التي قبلها؛ إمَّا لأنَّها وقعت كالجوابِ عن قولهم: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، فأشبَهتْ جُمَلَ المحاوَرة، وإمَّا لأنَّها استئنافٌ عن سؤالٍ ينشأ عن قِصَّة التآمُرِ علىٰ الإحراق(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٥).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٥٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٢٥).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٥).

(٦) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٦).

📖 ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ 📖

ولمَّا قدَّم ما نبَّه على شدَّة الاهتمامِ به؛ لإفهامه أنَّه حكَم بسلامته مِن كيدِهم عند همِّهم به؛ فكيف بما بعده؟! قال -عاطفًا على ما تقديرُه: فألقَوْهُ فيها-: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ (١).

📖 ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ 📖

ولمَّا كان إنجاؤه -وهو وحده- ممَّن أرادوا به هذا الأمرَ العظيمَ مِن العجائبِ، فكيف إذا انضمَّ إليه غيرُه، ولم يكُنْ في ذلك الغيرِ آيةٌ تمنعُهم عنه كما كان في إبراهيمَ عليه السلام؟! قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢).

هذه نجاةٌ ثانيةٌ بعد نجاته مِن ضُرِّ النار، هي نجاتُه مِن الحُلول بَيْنَ قومٍ عدوٍّ له كافرينَ بربِّه وربِّهم، وهي نجاةٌ مِن دار الشِّرك وفسادِ الاعتقاد؛ وتلك بأنْ سهَّل اللهُ له المهاجَرةَ مِن بلاد الكلْدانِ إلى أرضِ فِلَسْطينَ؛ وهي بلادُ كَنْعانَ (٣).

لمَّا ذكَر تعالى ما أنعَم به على إبراهيمَ عليه السلام، ذكَر ما أنعَم به على مَن هاجَر معه فارًّا بدينِه؛ وهو لوطٌ ابنُ أخيه (٤).

📖 ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ 📖

ولمَّا أولَد له في حالِ شيخوختِه وعَجْزِ امرأتِه مع كونِها عقيمًا، وكان ذلك دالًّا على الاقتدارِ على البعث الذي السِّياقُ كلُّه له؛ قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٨).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٥٣).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٨).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بعد ذِكْرِه لإنعامه علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ لوطٍ بأن نجَّاهما إلىٰ الأرض المباركة، أتبَعه بذِكْرِ غيره مِن النِّعم[1].

ثم بيَّن بركتَه تعالىٰ علىٰ إبراهيمَ بقولِه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾[2].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه أعطاهم رُتْبةَ الصلاح في أنفسهم، ذكَر أنَّه أعطاهم رُتْبةَ الإصلاحِ لغيرهم، فقال مُعظِّمًا لإمامتهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[3].

إعادةُ فِعْلِ «جعَل» في قولِه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دُونَ أن يقالَ: وأئمَّة يَهدون، بعطفِ ﴿أَئِمَّةً﴾ علىٰ ﴿صَٰلِحِينَ﴾؛ اهتمامًا بهذا الجَعْلِ الشريف، وهو جَعْلُهم هادين للناسِ بعد أن جعَلهم صالحين في أنفسِهم، فأُعيد الفِعْلُ ليكون له مَزيدُ استقرار، وفي تلك الإعادة مِن الاعتناء ما في الإظهار في مَقام الإضمارِ؛ كما يظهرُ بالذوق[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٦٠).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٠٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٤٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٩).

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا كان سبحانه قد سخَّر لصديقِه لوطٍ عليه السلام إهلاكَ مَن عصاه في أوَّل الأمر بحجارةِ الكِبريت التي هي مِن النار، وفي آخره بالماءِ الذي هو أقوىٰ مِن النار؛ تلاه به، فقال: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾، وقدَّم مفعولَ ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ اهتمامًا به؛ لينبِّهَ علىٰ أنَّه محَلُّ العناية؛ إذ كان قد تأخَّر ذِكْرُ قصته بعد أن جرىٰ ذِكْرُه تبعًا لذِكر إبراهيمَ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه بُعِث بشريعة خاصةٍ، وإلىٰ قومٍ غيرِ القوم الذين بُعِث إليهم إبراهيمُ، وإلىٰ أنَّه كان في مواطنَ غيرِ المواطن التي حلَّ فيها إبراهيمُ؛ بخلاف إسحاقَ ويعقوبَ في ذلك كلِّه، وأُعقبت قِصَّةُ إبراهيم بِقصَّة لوطٍ للمناسبة، وخُصَّ لوطٌ بالذِّكر مِن بَيْنِ الرسلِ؛ لأنَّ أحوالَه تابعةٌ لأحوال إبراهيمَ في مقاومة أهل الشرك والفساد، وإنَّما لم يُذكرْ ما هم عليه -قومَ لوطٍ- مِن الشرك؛ استغناءً بذِكْرِ الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سُنَّةً؛ فإنها أثرٌ مِن الشرك[2].

اعلَمْ أنَّه سبحانه بعد بيانِ ما أنعَم به علىٰ إبراهيمَ عليه السلام، أتبَعه بذِكْرِ نِعَمِه علىٰ لوطٍ عليه السلام لمَّا جمَع بَيْنَهما مِن قبلُ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١١١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٦٢).

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ثم زاد الإشارةَ وضوحًا بقولِه: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(١).

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه قِصَّةَ لوطٍ المناسبةَ لقِصَّةِ الخليل عليه السلام بحجارة الكبريت، ولقِصَّةِ نوحٍ عليه السلام بالماء الذي غُمِرت به قُراه السَّبْعُ؛ أتبَع ذلك قِصَّةَ نوحٍ عليه السلام الذي سخَّر له مِن الماء ما لم يسخِّرْهُ لغيره؛ لغَمْرِه جميعَ الأرض: دانيها وقاصيها، واطيها وعاليها، فقال: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢).

لمَّا ذكَر أشهَرَ الرُّسُلِ بمناسباتٍ، أعقَب بذِكْرِ أوَّلِ الرسل(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ قِصَّةَ إبراهيمَ -وهو أبو العرَب-، وتنجيتَه مِن أعدائه؛ ذكَر قِصَّةَ أبي العالَمِ الإنسيِّ كلِّهم، وهو الأبُ الثاني(٤).

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وكان إنجاؤه وأهلِه وإهلاكُ قومِه بعد دعائه عليهم نصرًا له؛ فلذلك قال: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٥١).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١١١).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٥٣).

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ ﴾

ولمَّا كان ربما قيل: لِمَ قدَّم إبراهيمَ ومَن معه علىٰ نوحٍ وهو أبوهم ومِن أُولي العزم، وموسىٰ وهارونَ علىٰ إبراهيمَ وهو كذلك؟ أشار بقِصَّة داودَ وسليمانَ علىٰ جميعهم الصَّلاة والسلام إلىٰ أنَّه ربما يفضُلُ الابنُ الأبَ في أمرٍ، فربما قُدِّم لأجلِه، وإن كان لا يَلزَم منه تقديمُه مطلقًا، مع ما فيها مِن أمر الحَرْثِ، الذي هو أنسَبُ شيء لِما بعد غَيْضِ الماء في قِصَّة نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ هذا في أوَّلِه، وأمَّا في آخِره فما يُنبِتُه مِثالٌ للدنيا في بهجتِها وغرورها، وانقراضِها ومرورِها، ومِن تصريفِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجبالِ، وهي أشدُّ التراب الذي هو أقوىٰ مِن الماءِ، وفي الحديدِ، وهو أقوىٰ مِن ترابِ الجبال، وسليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرِّيح، وهي أقوىٰ مِن الترابِ، فقال: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّآ ﴾ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾: كلُّه نَسَقٌ علىٰ ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ ﴾، ومِن قولِه: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾، واعلَمْ أنَّ المقصودَ ذِكْرُ نِعَمِ الله تعالىٰ علىٰ داودَ وسليمانَ، فذكَر أولًا النِّعْمةَ المشتركةَ بَيْنَهما، ثم ذكَر ما يختصُّ به كلُّ واحدٍ منهما مِن النِّعم[2].

﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ ﴾

فاجتهَد داودُ وسليمانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٦٣).

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾

ولمَّا ذكَر التَّسخيرَ بالتَّسبيح، أشار إلىٰ تسخير الحديدِ، الذي هو أقوىٰ ترابِ الجبال وأصلبُه وأصفاه، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[1].

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾

ولمَّا كان قد سخَّر لابنه سليمانَ عليه السلام الريحَ التي هي أقوىٰ مِن بقية العناصر، قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ بمناسبةِ تسخيرٍ خارقٍ للعادة في كلتا القصتينِ؛ معجزةً للنبيَّينِ عليهما السلام[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما خَصَّ به نبيَّه داودَ عليه السلام، ذكَر ما خَصَّ به ابنَه سليمانَ عليه السلام، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٢).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٥٧).

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾

ولمَّا ذكَر تسخيرَ الرِّيح له، ذكَر أنَّه سخَّر له ما أغلَبُ عناصرِه النارُ والريحُ للعمل في الماء؛ مقابلةً لارتفاعِ الحملِ في الهواء باستفالِ[1] الغَوْصِ في الماء، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ تسخيرَ الرِّيحِ له، وهي جسمٌ شفَّافٌ لا يَعقِلُ، وهي لا تُدرَك بالبصر؛ ذكَر تسخيرَ الشياطين له، وهم أجسامٌ لطيفةٌ تَعقِلُ، والجامعُ بَيْنهما أيضًا سرعةُ الانتقال[3].

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ذِكْرَ مَن سخَّر لهم العناصرَ، التي منها الحيوانُ المحتومُ ببَعْثتِه تحقيقًا لذلك؛ ذكَر بعدهم مَن وقع له أمرٌ مِن الخوارق يدلُّ علىٰ ذلك؛ إمَّا بإعادةٍ أو حفظٍ أو ابتداءٍ، بدأهم بمَن أعاد له ما كان أعدَمَه مِن أهلٍ ومالٍ، وسخَّر له عنصرَ الماء في إعادة لحمه وجِلْدِه؛ لأنَّ الإعادةَ هي المقصودةُ بالذات في هذه السورة، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[4].

عطفٌ علىٰ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾، وتخصيصُه بالذِّكر مع مَن ذُكِر مِن الأشياء لِما اختصَّ به مِن الصبر؛ حتىٰ كان مَثَلًا فيه[5].

---

(١) عكس: ارتفاع.

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٥٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٥٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٦١).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٥).

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

فلمَّا عرَّض بالسؤال حيث ذكَر نفسَه بما يوجِب الرحمةَ، وربَّه بـأبلَغِ صفاته، ولـم يصرِّحْ، فكان ذلك ألطفَ في السؤال، فهو أجدرُ بـالنَّوال، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾(1).

ولكـونِ ثنـاءِ أيـوبَ عليه السلام تعريضًـا بالـدعاء، فـرَّع عليـه قولَـه تعـالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(2).

ثـم أخبَـر اللهُ سـبحانه باسـتجابتِه لدعائــه، فقــال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(3).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم أتبَعه سبحانه بمَن أنبَعَ له مِن زمزمَ ماءً باقيًا شريفًا؛ إشارةً إلىٰ شرَفِه وشرَفِ ولـده خاتمِ الرُّسل؛ ببقاء رسالته ومعجزتِه، فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾(4).

عطـفٌ علـىٰ ﴿وَأَيُّوبَ﴾، وجُمِـع هـؤلاء الثلاثـة في سِـلْكٍ واحـدٍ لاشـتراكهم في خَصيصيةِ الصبر؛ كما أشار إليه قولُـه تعـالىٰ: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، جرىٰ ذلك لمناسبةِ ذِكْرِ المثَلِ الأشهر في الصبر؛ وهو أيوبُ عليه السلام، فأمَّا صبرُ إسماعيلَ عليه السلام فقد تقرَّر بصبره علىٰ الرضا بالذبح، وأمَّا إدريسُ عليه السلام فقد تقرَّر بصبره علىٰ تتبُّعِ الحكمة والعلومِ، وما لَقِيَ في رِحلاتِه مِن المتاعب؛ أنَّه كان يترُكُ الطعام والنومَ مُدَّةً طويلةً؛

---

(1) نظم الدرر (١٢/ ٤٦٢).

(2) التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٧).

(3) فتح القدير (٣/ ٤٩٥).

(4) نظم الدرر (١٢/ ٤٦٣).

لتصفوَ نفسُه للاهتداء إلى الحكمة والعلم، وأمَّا ذو الكِفْلِ عليه السلام فقد تقرَّر بصبره على ثلاثٍ: أن يصومَ النهارَ، ويقومَ الليلَ، ولا يَغضَبَ[١].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر صَبْرَ أيوبَ عليه السلام وانقطاعَه إليه، أتبَعه بذِكْرِ هؤلاء؛ فإنَّهم كانوا أيضًا مِن الصابرين على الشدائد والمِحَنِ والعبادة[٢].

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ثم زاد الإشارةَ وضوحًا بقولِه: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٧) ﴾

ثم أتبَعهم مَن هو أغربُ حالًا منهم في الحفظِ، فقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣].

عطفٌ على ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، وذِكْرُ ذي النُّون في جملةِ مَن خُصُّوا بالذِّكر مِن الأنبياء؛ لأجلِ ما في قصته مِن الآيات: في الالتجاء إلى اللهِ، والندمِ على ما صدَر منه مِن الجزَعِ، واستجابةِ اللهِ تعالى له[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٣٠).

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولـذلك قـال تعـالىٰ مُسـبِّبًا عـن دعائـه: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

ثـم أخبـر اللهُ سـبحانه بأنَّـه اسـتجاب لـه، فقـال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ولمَّا كان حاصِلُ أمرِ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه خرَج مِن بطنٍ لم يُعهَدِ الخروجُ مِن مثلِه، عطَف عليه قِصَّةَ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ في هِبَتِه له ولدًا مِن بطنٍ لـم يُعهَدِ الحَمْلُ مِن مثلـه؛ في العُقْمِ واليأس؛ ناظرًا إلىٰ أبيه إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أوَّلِ مَن ذُكِر تصريفُه في آحاد العناصرِ؛ فيما اتَّفق له مِن مثلِ ذلك في ابنه إسحاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تكريرًا لأعلام القيامةِ، وتقريـرًا للقـدرة التامَّـةِ، فقال: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن انقطاعَ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ربِّه تعالىٰ لمَّـا مسَّـه الضـرُّ بتفـرُّدِه، وأحَـبَّ مَن يؤنِسه ويُقوِّيه علىٰ أمرِ دِينه ودنياه، ويكون قائمًا مَقامَه بعد موته، فدعا اللهَ تعالىٰ دعاءَ مُخلِصٍ عارفٍ بأنَّـه قـادرٌ علىٰ ذلـك، وإنِ انتهـت الحـالُ بـه وبزوجتـه مِـن كِبَـرٍ وغيرِه إلىٰ اليأس مِن ذلك بحُكْمِ العادة(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٦٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٦٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٢).

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

ثم أخبَر اللهُ سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

ولمَّا استدَلَّ على الساعةِ بما وهَب لهؤلاء القوم مِن أهل الطاعة مِن التَّصرُّف في العناصر وغيرِها، إلى أن ذكَر أنَّه خرَق العادةَ في إبداع يحيى عليه السلام بيْنَ والدَينِ لا يولَدُ لمِثْلِهما؛ لأنَّ أباه زكريَّا عليه السلام كان قد صار إلى حالة الكِبَرِ ويُبْسٍ مِن الأعضاء عظيمةٍ، وأمُّه كانت -مع وصولها إلى مِثل تلك الحال- عاقرًا في حال شبابها؛ تلاه بإبداع ابنِ خالته عيسى عليه السلام، الذي هو عَلَمٌ للساعة على حالٍ أغرَبَ مِن حاله، فأخرَجه مِن أنثى بلا ذكَرٍ؛ إشارةً إلى قُرْبِ الوقت لضَعْفِ الأمر؛ كضعفِ الأنثى بالنسبة إلى الذَّكَر، فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

لمَّا انتهى التنويهُ بفضل رجالٍ مِن الأنبياءِ، أعقَب بالثناءِ على امرأةٍ نبيَّةٍ؛ إشارةً إلى أنَّ أسباب الفضل غيرُ محجورةٍ؛ وهي مريمُ ابنةُ عِمرانَ(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٣٧).

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾

ولمَّا دلَّ ما مضىٰ مِن قصصِ هؤلاء الأنبياء وغيرِهم علىٰ أنَّ لله القدرةَ الباهرة، والقوةَ البالغةَ الشاملةَ للبعث وغيرِه، وكان ذلك دالًّا علىٰ التوحيد الذي هو أصلُ الدِّين، وأنَّهم كلَّهم متفقون عليه: بالتَّصريح مِن البعض هنا، ومِن الباقين فيما سبق؛ كان إثباتُه فَذْلَكةَ هذه القصصِ وما تقدَّمها مِن هذه السورة؛ فلذلك اتصَل به قولُه -مخاطِبًا لِمَن قال لهم: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾-: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾(١).

ولمَّا أنهىٰ ما ذكَر تعالىٰ مِن شأن جماعةٍ مِن الأنبياء صلوات الله عليهم، أشار إلىٰ أنَّ عقائدَهم وأصولَ دِينهم واحدةٌ بقولِه ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾(٢).

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّهم لم يفعلوا، أعرَض إلىٰ أسلوب الغيبةِ إيذانًا بالغضب، فكان التَّقديرُ في جوابِ مَن كأنَّه قال: ما فعَلوا؟ لم يُطيعوا أمري في الاجتماع علىٰ ما جمَعتُهم عليه مِن عبادتي، التي هي سببٌ لجلبِ كلِّ خيرٍ، ودَفْعِ كلِّ ضيرٍ، ولا اقتدَوا في ذلك بالكُمَّل مِن عبادي، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٧٦).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٠).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٧٨).

انتقالٌ مِن الحكاية عن الرُّسُلِ إلىٰ الحكاية عن حال أُمَمِهم في حياتهم، أو الذين جاؤوا بعدهم؛ مِثْلِ اليهودِ والنصارىٰ إذ نقَضوا وصايا أنبيائهم[(١)].

وكان اللائقُ الاجتماعَ علىٰ هذا الأمر، وعدمَ التفرُّقِ فيه، ولكنَّ البغيَ والاعتداءَ أبَيا إلا الافتراقَ والتقطُّعَ؛ ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾[(٢)].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيتسبَّب عن ذلك أنَّا نُجازيهم إقامةً للعدل، فنُعطي كلًّا مِن المُحِقِّ التابعِ لأصفيائنا والمُبطِلِ المائل إلىٰ الشياطينِ أعدائنا ما يستحِقُّه؛ وذلك هو معنىٰ قولِه تعالىٰ -فارقًا بَيْنَ المحسن والمُسيء؛ تحقيقًا للعدل، وتشويقًا بالفضل-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[(٣)].

فُرِّع علىٰ الوعيد المعرَّضِ به في قولِه تعالىٰ: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تفريعٌ بديعٌ؛ مِن بيانِ صفةِ ما تُوُعِّدوا به، وقُدِّم وعدُ المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحةِ؛ اهتمامًا به، ولوقوعه عَقِبَ الوعيدِ؛ تعجيلًا لمَسرَّة المؤمنين قبل أن يَسمَعوا قوارعَ تفصيل الوعيد[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٤١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٣٠).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٤٣).

لمَّا ذكَر أمرَ الأمَّةِ مِن قبلُ، وذكَر تفرُّقَهم، وأنَّهم أجمَعَ راجعون إلىٰ حيث لا أمرَ إلا له؛ أتبَع ذلك بقولِه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[(1)].

ثم فصَّل جزاءه فيهم منطوقًا ومفهومًا، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[(2)].

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾

ولمَّا كان هذا غيرَ صريحٍ في أنَّ هذا الرُّجوعَ بعد الموت، بيَّنه بقولِه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(3)].

ثم أشار إلىٰ مقابِلِ هؤلاء؛ وهم مَن أعرَض عن ذِكْرِه تعالىٰ، بلُحوق الوعيدِ لهم؛ لِما جرَت به سُنَّتُه تعالىٰ بقولِه سبحانه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(4)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾

ثم دلَّ علىٰ قُدْرتِه قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[(5)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٤).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٣٠).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٠).
(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٢).
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٠).

ثم أشار إلىٰ تحقُّقِ نصرِ الرُّسل وغلبتِهم، وكثرةِ أتباعهم حتىٰ يُحيطوا بأعدائهم مِن كلِّ جانبٍ، ويُنزِلوا بهم ما تَشخَصُ لهم أبصارُهم؛ يورِثُهم طُولَ النَّدامة بقولِه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾[1].

ثم بيَّن طريقَ رجوعهم إليه؛ وذلك يومَ القيامة، وبدايتُه بظهورِ علاماته الكبرىٰ؛ ومنها: انكسارُ سَدِّ يأجوجَ ومأجوجَ، وتدفُّقُهم في الأرض يُخرِبون ويُدمِّرون.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾

ولمَّا كان خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ مِن علامات الساعة الكبرىٰ، وباتت القيامةُ التي وعَد اللهُ بوقوعها أقربَ مِن أيِّ وقتٍ مضىٰ؛ ناسَب أن يقالَ: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾

ولمَّا كان هذا محلًّا يخطرُ بالبال فيه آلهتُهم بما يترجَّونه منها مِن النَّفع، قال مُخاطِبًا لهم -إرادةَ التَّعنيفِ والتَّحقيرِ-: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[2].

جملةُ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ جوابٌ عن قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ إلىٰ آخره؛ فهي مقُولُ قولٍ محذوفٍ؛ علىٰ

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٢).

طريقة المحاوَرات؛ فالتَّقديرُ: يقالُ لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1].

ثم أشار إلىٰ شأنِهم في الآخرةِ بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[2].

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطابٌ لكفار مكَّةَ، وتصريحٌ بمآلِ أمرِهم، مع كونه معلومًا ممَّا سبَق علىٰ وجه الإجمال؛ مبالغةً في الإنذار، وإزاحةِ الاعتذار[3].

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ولمَّا قرَّعهم مِن هذا الكلام بما لا جوابَ لهم عنه غيرُ المكابَرةِ، أعرَض عنهم الخطابَ استهانةً بهم واحتقارًا لهم، فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4].

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

ثم إنَّه سبحانه وصَف ذلك العذابَ، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٢).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٤).
(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٨٥).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٣).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٨).

ثم ذكَر حالَهم في النار، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ولمَّا ذكَر حالَهم وحالَ معبوديهم بغايةِ الويلِ، كان موضعُ السؤال عمَّن عبَدوهم مِن الصالحين؛ مِن نبيٍّ أو مَلَكٍ، وغيرِهما مِن جميعِ مَن عبَدَه سبحانه لا يُشرِكُ به شيئًا، فقال -مبيِّنًا أنَّهم ليسوا مُرادِينَ لشيءٍ مِن ذلك على وجهٍ يعُمُّهم وغيرَهم مِن الصالحين-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، دعا إليه مقابلةُ حكايةِ حال الكافرين وما يقال لهم يومَ القيامة بحكايةِ ما يَلْقاه الذين آمنوا يومَ القيامة وما يقالُ لهم[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروعٌ في بيان حالِ المؤمنين، إثرَ شرحِ حال الكفَرةِ؛ حسَبما جرَتْ به سنَّةُ التَّنزيل؛ مِن شَفْعِ الوعد بالوعيد، وإيرادِ التَّرغيب مع التَّرهيب[(٣)].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

ولمَّا كان أقلُّ ما يُنكِئُ مِن المكروه سماعَه، قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٨٧).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٤).

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولمَّا كان معنىٰ ذلك أنَّ سرورَهم ليس له زوالٌ، أكَّده بقولِه: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(١).

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ بيانٌ لنجاتهم مِن الإفزاع بالكليَّةِ، بعد بيان نجاتهم مِن النار؛ لأنَّهم إذا لم يحزُنْهم أكبرُ الأفزاع لا يحزُنُهم ما عداه بالضَّرورة(٢).

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الأفعالُ علىٰ غايةٍ مِن الأهوال، تتشوَّف بها النفسُ إلىٰ معرفة اليومِ الذي تكونُ فيه؛ قال تعالىٰ شافيًا لعِيِّ هذا السؤال -زيادةً في تهويلِ ذلك اليوم لِمَن له وعيٌ-: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾(٣).

جملةٌ مستأنفةٌ، قُصِد منها إعادةُ ذِكْرِ البعث، والاستدلالُ علىٰ وقوعِه وإمكانِه؛ إبطالًا لإحالةِ المشركين وقوعَه؛ بعلَّةِ أنَّ الأجسادَ التي يُدَّعىٰ بَعْثُها قد انتابها الفَناءُ العظيم، والمناسبةُ في هذا الانتقالِ هو ما جرىٰ مِن ذِكْرِ الحشر والعقاب والثواب(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٨٧).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٧).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولـمَّا ذكَر صِدْقَه في الوعد، وسهولةَ الأفعال عليه، وكان مِن محطِّ كثيرٍ ممَّا مضىٰ أنَّ مَن فعَل ما لا يُرضِي اللهَ غيَّر عليه؛ كائنًا مَن كان، ومَن فعَل ما أمَره به، نصَره وأيَّده ولو بعد حينٍ؛ قال تعالىٰ -عاطفًا علىٰ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، وما عُطِف عليه مِن أشباهِه، مُذكِّرًا بما وعَد علىٰ لسان داودَ عليه السلام-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[(١)].

إن كان المرادُ بالأرض أرضَ الجَنَّةِ، فمناسبةُ ذِكْرِ هذه الآية عَقِبَ التي تقدَّمتْها ظاهرةٌ، ولها ارتباطٌ بقولِه تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، وإن كان المرادُ أرضًا مِن الدُّنيا -أي: مصيرُها بيدِ عباد الله الصالحين-، كانت هذه الآيةُ مسُوقةً لوعدِ المؤمنين بميراث الأرضِ التي لَقُوا فيها الأذىٰ؛ وهي أرضُ مكَّةَ وما حَوْلَها، فتكونُ بشارةً بصلاح حالهم في الدُّنيا بعد بِشارتهم بحُسْنِ مآلهم في الآخرة[(٢)].

ثم أشار إلىٰ تحقيقِ مِصداقِه -بإعزاز المنبئ عنه، وإيراثِه مُلْكَ جاحدِه- بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٦١).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٦).

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ما ذُكِر في هذه السورةِ مِن الحِكَمِ والدلائل والقصص واعظًا شافيًا حكيمًا، ومُرشِدًا هاديًا عليمًا؛ قال -واصلًا بما تقدَّم؛ إشارةً إلىٰ أنَّه نتيجتُه-: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾[1].

جملةُ ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ تذييلٌ للوعد، وإعلانٌ بأنْ قد آنَ أوانُه، وجاء إبَّانُه، وإن لم يأتِ بعد داودَ قومٌ مؤمنون وَرِثوا الأرض، فلمَّا جاء الإسلامُ وآمَن الناسُ بمحمَّدٍ ﷺ، فقد بلَغ البلاغُ إليهم[2].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مُشيرًا إلىٰ رَشادِهم، فكان التَّقديرُ: فما أرسلناك إلا لإسعادِهم، والكفايةِ لهم في البلاغ إلىٰ جنات النعيم؛ عطَف عليه ما يُفهِم سببَ التَّأخير؛ لإنجازِ ما يستعجلُه غيرُ العابدين مِن العذاب، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

ثم أثنىٰ علىٰ رسولِه ﷺ الذي جاء بالقرآنِ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٣).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٥٠٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٣٢).

📖 ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ ﴾ 📖

ولمَّا كان البلاغُ الذي رتَّب هذا لأجلِه هو التوحيدَ الملزومَ لتمام القدرة، أتبَع الإشارةَ إلىٰ تأخيرِهم الإيماءَ إلىٰ تحذيرِهم، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾(١).

عقَّب الوصفَ الجامعَ لرسالة محمَّد ﷺ -مِن حيث ما لها مِن الأثرِ في أحوالِ البشر- بوَصْفٍ جامعٍ لأصل الدعوةِ الإسلامية في ذاتها، الواجبِ علىٰ كلِّ مُتبعٍ لها؛ وهو الإيمانُ بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالىٰ، وإبطالُ إلهيَّة ما سِواه؛ لنبذِ الشِّركِ المبثوثِ بين الأمم يومئذٍ(٢).

لمَّا أورَد علىٰ الكفارِ الحُجَجَ في أنْ لا إلهَ سِواه مِن الوجوهِ التي تقدَّم ذِكْرُها، وبيَّن أنَّه أرسل رسولَه رحمةً للعالمين؛ أتبَع ذلك بما يكون إعذارًا وإنذارًا في مجاهَدتهم والإقدامِ عليهم، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾(٣).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ أصلَ تلك الرحمةِ هو التوحيدُ والبراءةُ مِن الشرك، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥١٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٩٤).

(٤) فتح القدير (٣/ ٥٠٩).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾

ولمَّا كان تَولِّيهم بعد هذه القواطعِ مُستبعَدًا، أشار إلىٰ ذلك بإيراده بأداةِ الشَّكِّ، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[(١)].

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾

ولمَّا كان مِن المقطوع به مِن كون الشَّك إنَّما هو في القُرْبِ أو البُعْدِ أن يكونَ التَّقديرُ: لكنَّه محقَّقُ الوجود؛ لأنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ له، وقريبٌ عند الله؛ لأنَّ كلَّ ما حُقِّق إيجادُه قريبٌ؛ علَّله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾[(٢)].

جملةٌ معترضةٌ بَيْنَ الجُمَل المتعاطفة، وضميرُ الغائب عائدٌ إلىٰ الله تعالىٰ؛ بقرينةِ المَقامِ، والمقصودُ مِن الجملة تعليلُ الإنذارِ بتحقيقِ حلول الوعيد بهم، وتعليلُ عدمِ العِلم بقُرْبِه أو بُعْدِه؛ علَّل ذلك بأنَّ اللهَ تعالىٰ يَعلَم جهرَهم وسِرَّهم، وهو الذي يؤاخِذُهم عليه، وهو الذي يَعلَم متىٰ يحُلُّ بهم عذابُه[(٣)].

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١١﴾

ولمَّا كان الإمهالُ قد يكون نعمةً، وقد يكون نقمةً؛ قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥١٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٥١١).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٤).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٥١٣).

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

ولمَّا كان اللازمُ مِن هذه الآيات تجويزَ أمورٍ تُهِمُّ سامعَها وتُقلِقُه؛ للعِلْمِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ له أن يفعلَ ما يشاءُ مِن عدلٍ وفضلٍ، وكان مِن العدل جوازُ تعذيب الطائع وتنعيمِ العاصي؛ كان كأنَّه قيل: فما قال الرسولُ الشَّفوقُ علىٰ الأمَّة حينَ سَمِع هذا الخطابَ؟ فقيل: قال مُبتهِلًا إلىٰ اللهِ تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد ما مضىٰ مِن وَصْفِ رسالة محمَّدٍ ﷺ وإجمالِ أصلها، وأمرِه بإنذارِهم وتسجيل التبليغ، قصَد مِن هذا الاستئنافِ التَّلويحَ إلىٰ عاقبة أمرِ هذا الدِّين المرجوَّة المستقبَلة؛ لتكونَ قِصَّةُ هذا الدِّينِ وصاحبِه مستوفاةَ المبدأ والعاقبةِ، وفي أمرِ الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالالتجاءِ إليه والاستعانةِ به بعدما قال له: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: رمزٌ إلىٰ أنَّهم مُتوَلُّون لا محالةَ، وأنَّ اللهَ سيحكُمُ فيهم بجزاء جُرْمِهم؛ لأنَّ الحُكْمَ بالحق لا يغادرُهم، وأنَّ اللهَ في إعانتِه؛ لأنَّ اللهَ إذا لقَّن عبادَه دعاءً، فقد ضَمِن لهم إجابتَه[2].

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥١٣-٥١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٥).

سورة الحج

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان المرادُ بالساعة القيامَ وما والَاه، جُعِل مظروفًا لذلك اليومِ الذي هو مِن ذلك الوقتِ إلىٰ افتراقِ الفريقينِ إلىٰ دارَيِ الإبعاد والإسعاد، والهَوانِ والغُفران، فقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ ﴾ إلخ، بيانٌ لجملةِ ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾؛ لأنَّ ما ذُكِر في هذه الجملةِ يبيِّنُ معنىٰ كونها شيئًا عظيمًا؛ وهو أنَّه عظيمٌ في الشرِّ والرُّعبِ[(٢)].

ثم أشيرَ إلىٰ شيءٍ مِن بليغِ هَوْلِها بقولِه سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٨).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٣٠).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ ﴾

ولمَّا أفهَمَ العطفُ الآتي أنَّ الناسَ قسمان، وأنَّ التَّقديرَ: فإنَّ منكم مَن يؤمنُ فيتَّقي فينجو مِن شرِّ ذلك اليومِ، الذي اقتضت الحكمةُ إظهارَ العظمة فيه؛ ليزدادَ حزبُ الله فَرَحًا، وحزبُ الشيطانِ غمًّا وترَحًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: الناسُ فريقان: فريقٌ يمتثلُ الأمرَ، فيتَّقي اللهَ ويخشى عذابَه. وفريقٌ يُعرِض عن ذلك، ويُعارضه بالجَدَل الباطلِ في شأن اللهِ تعالى؛ مِن وَحدانيَّته وصفاتِه ورسالته، وهذا الفريقُ هم أئمةُ الشرك وزعماءُ الكفر؛ لأنَّهم الذين يَتصدَّون للمجادلةِ بما لهم مِن أغاليطَ وسَفسطةٍ، وما لهم مِن فصاحةٍ وتمويه[2].

لمَّا ذكَر تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، ذكَر مَن غفَل عن الجزاء في ذلك اليوم، وكذَّب به[3].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ كلامٌ مبتدَأٌ، جيء به إثرَ بيانِ عظيمِ شأنِ الساعة المنبِئة عن البعث؛ بيانًا لحال بعضِ المنكِرين لها[4].

ثم لمَّا أراد سبحانه أن يَحتجَّ على منكِري البعث، قدَّم قبل ذلك مقدمةً تشمَلُ أهلَ الجدال كلَّهم، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٦-٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٢).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٨٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٢).

(٥) فتح القدير (٣/ ٥١٥).

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

جملةُ ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ إلىٰ آخرها، صفةٌ ثانيةٌ لـ﴿ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾[(١)].

ثم أشار لوصفٍ آخرَ لهذا الشيطان المتَّبَع بقولِه تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[(٢)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا حذَّر الناسَ مِن ذلك اليومِ، وأخبَر أنَّ منهم مَن يُكذِّب، وعرَّف بمآله، فأفهَمَ ذلك أنَّ منهم مَن يُصدِّق به، فيكونُ له ضدُّ حالِه، وكان كثيرٌ مِن المصدِّقين يعملون عمَلَ المكذِّبين؛ أقبَلَ عليهم سبحانه إقبالًا ثانيًا رحمةً لهم؛ مُنبِّهًا علىٰ أنَّه ينبغي ألا يكونَ عندهم نوعٌ مِن الشَّكِّ في ذلك اليومِ؛ لِما عليه مِن الآيات في الآفاقِ وفي أنفسهم، فقال دالًّا عليه بالأمرَينِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[(٣)].

أعاد خِطابَ الناس بعد أن أنذَرهم بزلزلةِ الساعة، وذكَر أنَّ منهم مَن يجادلُ في الله بغير عِلْمٍ، فأعاد خطابَهم بالاستدلال علىٰ إمكان البعث، وتنظيرِه بما هو أعظَمُ منه؛ وهو الخَلْقُ الأوَّلُ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٣).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٣٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٦).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ مَن يجادلُ في قدرة الله بغير عِلْمٍ، وكان جدالُهم في الحشر والمَعاد؛ ذكَر دليلينِ واضحين علىٰ ذلك؛ أحدهما: في نفس الإنسانِ، وابتداءِ خَلْقِه، وتطوُّره في مراتبَ سبعٍ؛ وهي: الترابُ، والنُّطفة، والعَلَقة، والمُضْغة، والإخراج طفلًا، وبلوغُ الأشُدِّ، والتَّوفِّي أو الردُّ إلىٰ الهَرَم. والثاني: في الأرض التي تشاهِدون تنقُّلَها مِن حال إلىٰ حالٍ. فإذا اعتبَر العاقلُ ذلك، ثبَت عنده جوازُه عقلًا، فإذا ورَد خبرُ الشرع بوقوعه، وجَب التصديقُ به، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ (١).

ثم ذكَر سبحانه ما هو المقصودُ مِن الاحتجاجِ علىٰ الكفار بعد فراغه مِن تلك المقدِّمة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ (٢).

ثم بيَّن تعالىٰ الحُجَّةَ القاطعةَ لِما يجادلون فيه بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ (٣).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ ﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه هذين الدَّليلينِ، رتَّب عليهما ما هو مطلوبٌ، والنَّتيجةَ، فقال علىٰ طريقِ التَّعليلِ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٨٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥١٥).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٣).

فَذْلكةٌ لِما تقدَّم، فالجملة تذييلٌ، والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ ما تقدَّم مِن أطوارِ خَلْقِ الإنسان وفَنائه، ومِن إحياء الأرض بعد موتِها وانبثاقِ النَّبْتِ منها[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، جيء به إثْرَ تحقيقِ حَقيَّة البعث وإقامةِ البرهان عليه مِن العالَمَينِ: الإنسانيِّ، والنباتيِّ؛ لبيانِ أنَّ ذلك مِن آثار ألوهيَّتِه تعالىٰ، وأحكامِ شؤونه الذاتية والوصفية والفِعْلية، وأنَّ ما ينكرون وجودَه بل إمكانَه -مِن إتيان الساعة والبعثِ- مِن أسبابِ تلك الآثارِ العجيبةِ التي يشاهِدونها في الأنفُسِ والآفاق، ومَبادي صدورِها عنه تعالىٰ، وفيه مِن الإيذان بقوةِ الدليل وأصلِه المدلولِ في التحقيق وإظهار بطلانِ إنكاره ما لا يخفىٰ؛ فإنَّ إنكارَ تحقُّقِ السبب مع الجزم بتحقيقِ المُسبَّب ممَّا يَقضي ببطلانِه بديهةُ العقول[٢].

لمَّا ذكَر افتقارَ الموجوداتِ إليه سبحانه، وتسخيرَها علىٰ وَفْقِ إرادته واقتداره؛ قال بعد ذلك هذه المقالاتِ؛ وهي إثباتُ أنَّه سبحانه الحقُّ، وأنَّه المتفردُ بإحياء الموتىٰ، وأنَّه قادرٌ علىٰ كل شيء مِن الأشياء[٣].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

قولهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ إلىٰ آخره، توكيدٌ لقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٤].

لمَّا أقام الدلائلَ علىٰ أنَّ الإعادةَ في نفسِها ممكنةٌ، وأنَّه ﷻ قادرٌ علىٰ كلِّ الممكِنات؛ وجَب القطعُ بكونه قادرًا علىٰ الإعادة في نفسِها، وإذا ثبَت الإمكانُ -والصادقُ أخبَر عن وقوعِه-، فلا بُدَّ مِن القطع بوقوعه[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٥).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥١٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٨٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٠٥).

ثم تسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾

عطفٌ على جملةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾[1].

المجادَلةُ المتقدِّمةُ للمقلِّد، وهذه المجادَلةُ للشيطان المَريد، الداعي إلى البِدَع، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾[2].

لمَّا ذكَر تعالى حالَ الضُّلَّالِ الجُهَّال المقلِّدين، ذكَر في هذه حالَ الدُّعاة إلى الضَّلال مِن رؤوس الكفر والبدع[3].

﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾

ثم ذكَر حالَ هذا المجادِلِ، فقال: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

جملةُ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ مقُولُ قولٍ محذوفٍ، تدلُّ عليه صيغةُ الكلام، وهي جملةٌ مستأنفةٌ، أو في موضع الحال مِن ضمير النَّصب في قولِه تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾[4].

ثم ذكَر السببَ الذي لأجلِه عُذِّب هذا المجادِلُ، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ ﴾

ولمَّا بيَّن قِسْمَيِ المُصارِحين بالكفر -الكثيفَ والأكثَفَ- صريحًا، وأفهَم المؤمنَ المخلِصَ؛ عطَف علىٰ ذلك المُذبذَب، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾(١).

هذا وصفُ فريقٍ آخرَ مِن الذين يُقابِلون الأمرَ بالتَّقوىٰ والإنذارَ بالساعة مقابلةَ غيرِ المطمئنِّ بصِدق دعوة الإسلام ولا المُعرِضِ عنها إعراضًا تامًّا، ولكنَّهم يضعون أنفسَهم في مَعرِض الموازنةِ بَيْنَ دِينِهم القديم ودِينِ الإسلام، فهم يَقبَلون دعوةَ الإسلام، ويدخُلون في عِداد مُتَّبِعيه، ويرقُبُون ما ينتابُهم بعد الدخول في الإسلام، فإن أصابهم الخيرُ عَقِب ذلك، عَلِموا أنَّ دِينَهم القديم ليس بحقٍّ، وأنَّ آلهتَهم لا تَقدِرُ علىٰ شيءٍ؛ لأنَّها لو قدَرتْ لانتقمت منهم علىٰ نَبْذِ عبادتها، وظنُّوا أنَّ الإسلام حقٌّ، وإن أصابهم شرٌّ مِن شرور الدُّنيا العارضة في الحياة المسبَّبة عن أسبابٍ عاديةٍ، سَخِطوا علىٰ الإسلام، وانخلَعوا عنه، وتوهَّموا أنَّ آلهتَهم أصابتهم بسُوءٍ؛ غضبًا مِن مفارقتهم عبادتَها(٢).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ شروعٌ في بيانِ المذبذَبين إثرَ بيانِ حالِ المجاهِرين(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٦-١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٧).

﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ ﴾

ثم بيَّن هذا الخُسْرانَ الذي ردَّه إلىٰ ما كان فيه قبل الإيمان الحرفيِّ بقولِه: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾(١).

جملةُ ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إلخ، حالٌ مِن ضمير ﴿ ٱنقَلَبَ ﴾(٢).

﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لعِظَم الخُسْران(٣).

﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣ ﴾

ولمَّا كان الإحسانُ جالبًا للإنسان مِن غيرِ نظرٍ إلىٰ مورِدِه؛ لأنَّ القلوب جُبِلت علىٰ حُبِّ مَن أحسَن إليها؛ بيَّن أنَّ ما قيل في جانب النَّفع إنَّما هو علىٰ سبيل الفرضِ، فقال: ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾(٤).

جملةٌ في موضعِ حالٍ ثانيةٍ، ومضمونُها ارتقاءٌ في تضليلِ عابدي الأصنام؛ فبعد أن بيَّن لهم أنَّهم يعبُدون ما لا غَناءَ لهم فيه، زاد فبيَّن أنَّهم يعبُدون ما فيه ضرٌّ(٥).

﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ مآل دعائه المذكورِ، وتقريرِ كونه ضَلالًا بعيدًا، مع إزاحةِ ما عسىٰ يُتوهَّمُ مِن نَفْيِ الضَّررِ عن معبوده بطريقِ المباشرةِ نَفْيَهُ عنه بطريق التَّسبُّب أيضًا(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٥).

(٦) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

ولمَّا أفهَمَ ما تقدَّم أنَّ هذا الإلهَ المدعوَّ إليه قادرٌ على كلٍّ مِن النفع والضُّرِّ بالاختبار، وأنَّ تجويزَ الوقوع لكل منهما منه على حدٍّ سواءٍ؛ نبَّه على ذلك بقوله مستأنفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1].

هذا مقابِلُ قولِه: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾، وقولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ فالجملةُ معترضةٌ، وقد اقتصَر على ذِكرِ ما للمؤمنين مِن ثواب الآخرة دُونَ ذِكرِ حالهم في الدُّنيا؛ لعدمِ أهميَّةِ ذلك لديهم، ولا في نظرِ الدِّين[2].

لمَّا ذكَر تعالى حالةَ مَن يعبُدُه على حرفٍ، وسفَّه رأيَه، وتوعَّده بخسرانه في الآخرة؛ عقَّبه بذِكْرِ حالِ مخالفيهم مِن أهل الإيمان، وما وعَدهم به مِن الوعد الحسَن[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ استئنافٌ جيء به لبيانِ كمال حُسْنِ حالِ المؤمنين العابدين له تعالى، وأنَّ اللهَ ﷻ يتفضَّلُ عليهم بما لا غايةَ وراءَه مِن أجَلِّ المنافع وأعظَمِ الخيراتِ، إثرَ بيانِ غايةِ سُوءِ حال الكفَرةِ ومآلِهم؛ مِن فريقَي المجاهِرين والمذبذَبين، وأنَّ معبودَهم لا يُجديهم شيئًا مِن النَّفع؛ بل يضرُّهم مَضرةً عظيمةً، وأنَّهم يعترفون بسُوءِ وَلايته وعِشرته، ويذُمُّونه مَذَمَّةً عامَّةً[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٩١-٤٩٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٨).

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا أتمَّ الدَّليلَ علىٰ خسران هذا المُنقلِبِ وربْحِ الثابت، وكان هذا مُفهِمًا لأنَّ مَن رجَاه لِما وعَد به بادَر الإقبالَ عليه، ولم يَنفَعْ إلا نفسَه، ومَن لا يَرْجُ ذلك أعرَض عن الله سبحانه مُنقلِبًا علىٰ وجهِه، فلم يضُرَّ إلا نفسَه؛ ترجَم عن حالِ هذا الثاني العابدِ علىٰ حرفٍ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾(١).

يَحتمِلُ أن يكونَ موقعُها استئنافًا ابتدائيًّا، أُريدَ به ذِكْرُ فريقٍ ثالثٍ غيرِ الفريقينِ المتقدمينِ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآيةَ، وقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، وهذا الفريقُ الثالثُ جماعةٌ أسلَموا واستبطَؤوا نَصْرَ المسلمين، فأَيِسوا منه، وغاظهم تعجُّلُهم للدخول في الإسلام، وأن لم يَتريَّثوا في ذلك، وهؤلاء هم المنافقون، ويَحتمِلُ أن يكونَ موقعُها تذييلًا لقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةَ، بعد أنِ اعترض بَيْنَ تلك الجملة وبين هاته بجُمَلٍ أخرىٰ، فيكون المرادُ: أنَّ الفريقَ الذين يعبُدون اللهَ علىٰ حرفٍ والمُخبَرَ عنهم بقولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ هم قومٌ يظُنُّون أنَّ اللهَ لا ينصرُهم في الدُّنيا ولا في الآخرة إن بقُوا علىٰ الإسلام، فأمَّا ظنُّهم انتفاءَ النَّصر في الدُّنيا: فلِأنَّهم قد أَيِسوا مِن النَّصرِ استبطاءً، وأمَّا في الآخرةِ: فلأنَّهم لا يؤمنون بالبعث(٢).

ثم أخذ في توبيخ أولئك الأوَّلين؛ كأنَّه يقولُ: هؤلاء العابدون علىٰ حرفٍ صَحِبهم القلقُ، وظنُّوا أنَّ اللهَ لن ينصُرَ محمَّدًا ﷺ وأتباعَه، ونحن إنَّما أمرناهم

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٨).

بالصبر وانتظار وَعْدِنا، فمَن ظنَّ غيرَ ذلك، فَلْيمدُدْ بسببٍ ويختلِقْ وينظُرْ: هل يَذهَبُ بذلك غَيْظُه؟[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه هذه الآياتِ المرئيَّةَ، في هذه الأساليب العليَّة، هذا البيانَ الشافيَ الهاديَ بإعجاز حُكْمِه؛ بيَّن أنَّه مُعجِزٌ أيضًا بنَظْمِه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾[(٢)].

لمَّا تضمَّنت هذه الآياتُ تبيينَ أحوال الناس تُجاهَ دعوة الإسلامِ بما لا يبقىٰ بعده التباسٌ، عُقِّبت بالتَّنويه بتبيينها؛ بأنْ شبَّه ذلك التبيينَ بنفسِه؛ كنايةً عن بلوغه الغايةَ في جنسه، بحيث لا يُلحَق بأوضَحَ منه؛ فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجُمَل التي قبلها عَطْفَ غَرَضٍ علىٰ غرض، والمناسبةُ ظاهرةٌ؛ فهي استئنافٌ ابتدائيٌّ[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كان ذلك مُوجِبًا للسؤال عن حال الفريقين: المَهْديِّ والضالِّ، أجاب عن ذلك ببيانِ جميعِ فِرَقِ الضَّلال؛ لأنَّ لهذه السورةِ أتمَّ نظَرٍ إلىٰ يوم الجَمْعِ، الذي هو مقصودُ السورة التي قبلها، فقصَد إلىٰ استيعاب الفِرَقِ تصويرًا لذلك اليومِ بأليَقِ صورةٍ، وقرَن بكلٍّ مِن فريقَيْ أهل الكتاب موافقةً في معناه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢١).

ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١].

فَذْلكةٌ لِما تقدَّم؛ لأنَّه لمَّا اشتملت الآياتُ السابقة علىٰ بيان أحوال المتردِّدين في قَبول الإسلام، كان ذلك مَثارًا لأن يُتساءلَ عن أحوال الفِرَقِ بعضِهم مع بعضٍ في مختلِفِ الأديان، وأن يُسألَ عن الدِّين الحقِّ؛ لأنَّ كلَّ أمَّة تَدَّعي أنَّها علىٰ الحق، وغيرَها علىٰ الباطلِ، وتُجادِلُ في ذلك، فبيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ الفصلَ بين أهل الأديان فيما اختصَموا فيه يكونُ يومَ القيامة[٢].

لمَّا ذكَر قبلُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يريد، عقَّب ببيانِ مَن يَهديه ومَن لا يَهديه؛ لأنَّ ما قبله يقتضي أنَّ مَن لا يريد هدايته لا يَهديه؛ يدلُّ إثباتُ الهداية لِمَن يريد علىٰ نفيِها عمَّن لا يريد[٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

ولمَّا كان جميعُ ما تقدَّم في هذه السورة دالًّا علىٰ أنَّه علىٰ كلِّ شيء قديرٌ، وأنَّه يفعل ما يريد، وختَم ذلك بأنَّه بكلِّ شيء عليمٌ؛ لم يَغِبْ ولا يغيب شيءٌ عنه، فاقتضىٰ ذلك قيُّوميَّتَه، وكان بحيث يُستعظَمُ لكثرة الخلائقِ، فكيف بأحوالهم؟! قرَّر ذلك في جوابِ مَن كأنَّه سأل، فهي في معنىٰ العلَّة، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٢).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٩٣).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٥).

جملةٌ مستأنفةٌ لابتداءِ استدلالٍ على انفراد اللهِ تعالى بالإلهيَّة، وهي مرتبطةٌ بمعنى قولِه: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ ارتباطَ الدَّليل بالمطلوبِ؛ فإنَّ دلائلَ أحوال المخلوقات كلِّها -عاقلِها وجمادِها- شاهدةٌ بتفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّة، وفي تلك الدلالةِ شهادةٌ على بُطْلانِ دعوةِ مَن ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، وما وقَع بين هاتين الجملتينِ استطرادٌ واعتراضٌ(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيانٌ لِما يوجِبُ الفصل المذكور مِن أعمال الفِرق المذكورةِ؛ مع الإشارة إلى كيفيَّته وكونِه بطريقِ التَّعذيب والإثابةِ، والإكرام والإهانة، إثْرَ بيانِ ما يوجِبه مِن كونه تعالى شهيدًا على جميع الأشياءِ، التي مِن جملتِها أحوالُهم وأفعالُهم(٢).

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا قسَّم النَّاسَ إلى مُخالِف ومؤالِفٍ، أتبَعه جزاءهم بما يُرغِّب المؤالفَ ويُرهِّبُ المُخالِفَ؛ على وجهٍ موجِبٍ للأمر بالمعروفِ، الذي مِن جملته الجهادُ لوجهه خالصًا، فقال: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾(٣).

مُقتضى سياقِ السورة واتصالِ آيِ السورة وتتابُعِها في النزولِ: أن تكونَ هذه الآياتُ متصِلةَ النزول بالآيات التي قبلها، فيكونَ موقعُ جملة ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ موقعَ الاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يثير سؤالَ مَن يسألُ عن

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٠٠).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٨).

بعض تفصيلِ صفة العذاب، الذي حَقَّ علىٰ كثيرٍ مِن الناس الذين لم يسجُدوا لله تعالىٰ، فجاءت هذه الجملةُ لتفصيلِ ذلك[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أهلَ السعادة وأهلَ الشَّقاوةِ، ذكَر ما دار بينهم مِن الخصومة في دِينِه، فقال: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾[٢].

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾

استأنَف الإخبارَ عنه بقولِه: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[٣].

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾

ولمَّا ذكَر العذابَ الباطنَ، ذكَر العذابَ الظاهرَ، فقال: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾

ثم لمَّا بيَّن شدَّةَ عذابهم فيها، بيَّن أنَّهم يحاوِلون الخروجَ منها، فقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾

ولمَّا ذكَر ما لأحدِ الخَصْمينِ -وهم الكافرون-، أتبَعه ما للآخَر -وهم المؤمنون-، وغيَّر السِّياقَ بالتأكيد لِمَن كأنَّه سأل عنه، مُعظِّمًا له بإثبات الاسمِ العَلَم الجامع؛

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٨).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٠).

إيذانًا بالاهتمام، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾(١).

كان مقتضىٰ الظاهرِ أن يكونَ هذا الكلامُ معطوفًا بالواو علىٰ جملةِ ﴿ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾؛ لأنَّه قَسيمُ تلك الجملةِ في تفصيلِ الإجمال الذي في قولِه: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ ﴾؛ بأن يقالَ: والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات يُدخِلهم اللهُ جناتٍ... إلىٰ آخره، فعدَل عن ذلك الأسلوبِ إلىٰ هذا النَّظْمِ؛ لاسترعاءِ الأسماع إلىٰ هذا الكلام؛ إذ جاء مُبتدأً به مُستقِلًّا، مُفتتَحًا بحرف التَّأكيد، ومُتوَّجًا باسم الجلالة، والبليغُ لا تفوتُه معرفةُ أنَّ هذا الكلامَ قَسيمٌ للذي قبله في تفصيل إجمالِ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ ﴾؛ لوَصْفِ حال المؤمنين المقابلِ لحال الذين كفروا؛ في المكان، واللِّباس، وخطاب الكرامة(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما أعَدَّ لأحد الخَصْمينِ مِن العذابِ، ذكَر ما أعَدَّ مِن الثواب للخَصم الآخَرِ(٣).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ بيانٌ لحُسْنِ حال المؤمنين، إثرَ بيان سُوءِ حال الكفرة، وقد غيَّر الأسلوبَ فيها بإسناد الإدخال إلىٰ الله ﷻ وتصديرِ الجملة بحرف التَّحقيقِ؛ إيذانًا بكمال مبايَنةِ حالِهم لحال الكفَرة، وإظهارًا لمزيد العنايةِ بأمر المؤمنين، ودلالةً علىٰ تحقُّقِ مضمون الكلام(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣١).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٩٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٠٢).

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ٢٤﴾

وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مقابِلُ قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ٢٢﴾؛ فإنَّه مِن القول النَّكِدِ(١).

ولمَّا ذكَر ما تُحلَّىٰ به الأبدانُ، ذكَر ما تُحلَّىٰ به الألسُنُ، فقال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥﴾

ولمَّا بيَّن ما للفريقينِ، وتضمَّن ما للفريق الثاني بيانَ أعمالهم الدالةِ علىٰ صِدْقِ إيمانهم؛ كرَّر ذِكْرَ الفريق الأولِ؛ لبيان ما يدلُّ علىٰ استمرار كُفْرِهم، ويؤكدُ بيانَ جزائهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

هذا مقابِلُ قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ٢٤﴾ بالنسبة إلىٰ أحوال المشركين؛ إذ لم يَسبِقْ لقولِه ذلك مقابلٌ في الأحوال المذكورة في آيةِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ كما تقدَّم؛ فموقعُ هذه الجملة الاستئنافُ البيانيُّ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣١).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٥).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر الفريقينِ وجزاءَ كلٍّ، وختَمه بذِكْرِ البيت؛ أتبَعه التَّذكيرَ به وبحَجِّه؛ لِما فيه مِن التَّذكير بالقيامة الحاملةِ على التَّقوى، التي هي مقصدُ السورة، بما فيه مِن الوِفادة على الله، مع التَّجرُّدِ مِن المحيط، والخضوع للربِّ، والاجتماعِ في المشاعر؛ موقفًا في أثَرِ موقفٍ، ولِما فيه مِن الحثِّ على التَّسنُّنِ بأبيهم الأعظمِ إبراهيمَ عليه السلام، فقال -مقرِّعًا وموبِّخًا لِمَن أشرَك في بُقعةٍ أُسِّستْ على التوحيد مِن أوَّلِ يومٍ؛ عطفًا على قولِه أوَّلَ السورةِ: ﴿ٱتَّقُوا۟﴾-: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ عَطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّة[2].

لمَّا ذكَر تعالى حالَ الكفار وصَدَّهم عن المسجد الحرامِ، وتوعَّد فيه مَن أراد فيه بإلحادٍ؛ ذكَر حالَ أبيهم إبراهيمَ، وتوبيخَهم على سلوكِهم غيرَ طريقه؛ مِن كفرِهم باتخاذِ الأصنام، وامتنانَه عليهم بإيفاد العالَمِ إليهم[3].

ثم أشار تعالى إلى تقريعِ وتوبيخِ مَن عبَد غيرَه وأشرَك به في البُقْعة المباركة التي أُسِّست مِن أوَّلِ يومٍ على توحيدِ الله وعبادتِه وحدَه لا شريك له بقولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٠٠).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٤٠).

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

﴿ وَأَذِّن ﴾ عطفٌ على ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن إكرام الزائر تنظيفَ المنزل، وأنَّ ذلك يكون قبل نزولِ الزائر بالمكان[1].

لمَّا فرغ إبراهيمُ عليه السلام مِن بناء البيت، قيل له: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[2].

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ ميَّالًا إلى الفوائد، مُستشرِفًا إلى جميلِ العوائد؛ علَّل الإتيانَ بما يُرغِّبه؛ مُبيحًا مِن فضلِه ما يقصِدُه مِن أمر المعاش، فقال: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ ﴾[3].

لمَّا أمر بالحج في قولِه: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾، ذكَر حِكْمةَ ذلك الأمر في قولِه: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[4].

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

وأكَّد هذا الحثَّ، ونفى عنه الرَّيبَ بعَوْدِه إلى الأسلوب الأول في قولِه: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٠).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٤٠).

هذا مِن جملة ما خاطب اللهُ به إبراهيمَ عليه السلام، و﴿ ثُمَّ ﴾ هنا عطفتْ جملةً على جملةٍ؛ فهي للتَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ، فتفيدُ أنَّ المعطوفَ بها أهمُّ في الغرض المسُوقِ إليه الكلامُ مِن المعطوف عليه(١).

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم أشار إلى تعظيمِ الحجِّ وأفعالِه هذه بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾(٢).

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا نهى عن الزُّور الذي هو الانحرافُ عن الدليل، أتبعه بالحَنَفِ الذي هو الميلُ مع الدليل، فقال: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾(٣).

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ حالٌ مِن ضميرِ ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ﴾؛ أي: تكُونوا إنِ اجتنبتم ذلك ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾(٤).

لمَّا أمَر باجتنابِ عبادة الأوثانِ وقولِ الزُّور، ضرَب مثلًا للمشرِكِ، فقال: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٤).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٥٠٥).

📖 ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ 📖

ثم عظَّم ما تقدَّم مِن التَّوحيد وما هو مُسبَّبٌ عنه بالإشارة بأداة البُعْدِ، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾(١).

جملةُ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ إلىٰ آخرِها عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلخ، وشعائرُ الله أخَصُّ مِن حُرُمات الله، فعطفُ هذه الجملةِ للعناية بالشعائر(٢).

ثم إنَّه سبحانه أكَّد ما تقدَّم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾(٣).

📖 ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ 📖

جملةُ ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في قولِه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، وما بَيْنهما اعتراضاتٌ، أو حالٌ مِن ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ علىٰ التفسير الثاني للشعائر، والمقصودُ بالخبر هنا: هو صِنْفٌ مِن الأنعام، وهو صِنْفُ الهدايا؛ بقرينةِ قولِه: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، وضميرُ الخطاب موجَّهٌ للمؤمنين(٤).

ومِن الشعائر التي تُعظَّمُ: الهدايا التي قال فيها: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٧).

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: جعَل لكم سبحانه هذه الأشياءَ مناسكَ، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾[1].

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم بيَّن علاماتِهم، فقال: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2].

اعتراضٌ بَيْنَ سَوْقِ المِنَن، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، وأصحابُ هذه الصفاتِ هم المسلمون[3].

ثم وصَف سبحانه هؤلاء المخبِتين بقولِه: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[4].

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه الحثَّ على التَّقرُّب بالأنعام كلِّها، وكانت الإبلُ أعظمَها خَلْقًا، وأجَلَّها في أنفسهم أمرًا؛ خصَّها بالذِّكر في سياقٍ تكون فيه مذكورةً مرتينِ؛

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٠).

(٤) فتح القدير (٣/ ٥٣٥).

مُعبرًا بالاسم الدالِّ علىٰ عِظَمها، أو أنَّه خصَّها لأنَّه خصَّ العرَبَ بها دُونَ الأممِ الماضية، فقال -عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، أو يكون التَّقديرُ والله أعلم: فأشرَكْناكم مع الأُمَمِ الماضية في البقر والغنم-: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ أي: جعَلْنا مَنسَكًا للقُرْبان والهدايا، وجعَلْنا البُدْنَ التي تُهدَىٰ ويُتقرَّبُ بها شعائرَ مِن شعائر الله[(٢)].

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾

ولمَّا حثَّ علىٰ التَّقرُّب بها مذكورًا اسمُه عليها، وكان مِن مكارمِ الأخلاق، وكان أكثرُهم يفعله، وكانوا يَنضِحُون البيتَ ونحوَه بدماء قرابينِهم، ويُشرِّحون اللحمَ، ويضعونه حولَه؛ زاعمين أنَّ ذلك قُرْبةٌ، وقد كان بعضُ ذلك شرعًا قديمًا؛ نبَّه سبحانه علىٰ نَسْخِ ذلك بأنْ نبَّه علىٰ أنَّ المقصودَ منه رُوحُه لا صورتُه، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[(٣)].

جملةٌ في موضع التَّعليل لجملةِ ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦﴾؛ أي: دلَّ علىٰ أنَّا سخَّرناها لكم لتشكُروني: أنَّه لا انتفاعَ لله بشيءٍ مِن لحومها ولا دمائها حينَ تَتمكَّنون مِن الانتفاع بها، فلا يريد اللهُ منكم علىٰ ذلك إلا أن تتَّقُوه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٩-٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٥٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٧).

لمَّا كانت عادةُ الجاهليَّةِ -علىٰ ما رُوِي في القُرْبان- أنَّهم يُلوِّثون بدمائها ولحومِها الوثَنَ وحيطانَ الكعبةِ؛ بيَّن تعالىٰ ما هو القصدُ مِن النَّحر، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الحجَّ المذكِّرَ للمهاجِرين بأوطانِهم بعد المخاصَمةِ التي أُنزِلت في غزوة بَدْرٍ، وذكَر ما يُفعَل فيه مِن القُرُبات؛ عظُمَ اشتياقُ النُّفوس إلىٰ ذلك، وتذكَّرت علوَّ المشركين الذي يصُدُّون عن سبيلِ الله والمسجدِ الحرام، وظهورَهم، ومَنْعَهم لِمَن أراد هذه الأفعالَ علىٰ هذه الأوصاف الخالصةِ والأحوال الصالحة، وفِتْنتَهم له، فأجابها سبحانه عن هذا السُّؤالِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[(٢)].

استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ يخطُرُ في نفوس المؤمنين ينشأُ مِن قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه توعَّد المشركين علىٰ صدِّهم عن سبيل الله والمسجدِ الحرام بالعذاب الأليمِ، وبشَّر المؤمنين المخبِتين والمحسنين بما يَتبادرُ منه ضِدُّ وعيد المشركين؛ وذلك ثوابُ الآخرة، وطال الكلامُ في ذلك بما تَبِعه؛ لا جرَمَ تشوَّفت نفوسُ المؤمنين إلىٰ معرفة عاقبة أمرِهم في الدُّنيا، وهل يُنتصَرُ لهم مِن أعدائهم أو يُدَّخرُ لهم الخيرُ كلُّه إلىٰ الدارِ الآخرة؟ فكان المقامُ خَليقًا بأن يُطَمئِنَ اللهُ نفوسَهم بأنَّه كما أعَدَّ لهم نعيمَ الآخرة هو أيضًا مُدافِعٌ عنهم في الدُّنيا وناصِرُهم[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٥٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧١).

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر جملةً ممَّا يُفعَل في الحج، وكان المشركون قد صَدُّوا رسولَ اللهِ ﷺ عامَ الحُدَيبيَة، وآذَوْا مَن كان بمكَّةَ مِن المؤمنين؛ أنزَل اللهُ تعالىٰ هذه الآياتِ مبشِّرةً المؤمنين بدَفْعِه تعالىٰ عنهم، ومُشيرةً إلىٰ نَصْرِهم، وآذِنَةً لهم في القتال، وتمكينِهم في الأرضِ، بردِّهم إلىٰ ديارهم وفَتْحِ مكَّةَ، وأنَّ عاقبةَ الأمور راجعةٌ إلىٰ الله تعالىٰ[(١)].

لمَّا بيَّن ما يَلزَمُ الحجَّ ومناسكَه، وما فيه مِن منافعِ الدُّنيا والآخرةِ، وقد ذكَرْنا مِن قبلُ أنَّ الكفارَ صَدُّوهم؛ أتبَع ذلك ببيان ما يُزيلُ الصدَّ، ويؤمَنُ معه التمكُّنُ مِن الحج، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[(٢)].

والأَوْلىٰ أن يقالَ: إنَّه طليعةٌ لِما بعده مِن الإذن بالقتال، مبشِّرةٌ بغايةِ النُّصرة والحفظ والكَلاءةِ والعاقبة للمؤمنين؛ تشجيعًا لهم علىٰ قتالِ مَن ظلَمهم، وتشويقًا إلىٰ استخلاصِ بيته الحرام؛ ليَتسنَّىٰ لهم إقامةُ شعائره، وأداءُ مناسكه[(٣)].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

ولمَّا كان كأنَّه قد قيل: كيف تكون المدافَعةُ؟ وبمَن؟ فقيل: بعبادِه المؤمنين؛ عبَّر عن ذلك بقولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[(٤)].

جملةٌ وقعت بدلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأنَّ دفاعَ الله عن الناس يكون تارةً بالإذن لهم بمقاتَلةِ مَن أراد اللهُ مدافعتَهم عنهم؛ فإنَّه إذا أَذِن لهم بمقاتَلتِهم، كان مُتكفِّلًا لهم بالنَّصر[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٨).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٤٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٥٥-٥٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٢).

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم وصَفهم بما يُبيِّنُ مظلوميَّتَهم علىٰ وجهٍ يَجمَعهم ويوثِقُهم بالله، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[1].

بدلٌ مِن ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، وفي إجراء هذه الصِّلةِ عليهم إيماءٌ إلىٰ أنَّ المرادَ بالمقاتَلة الأذىٰ، وأعظَمُه إخراجُهم مِن ديارهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾[2].

لمَّا بيَّن أنَّهم إنَّما أُذِنوا في القتال لأجلِ أنَّهم ظُلِموا، فبيَّن ذلك الظُّلْمَ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، فبيَّن تعالىٰ ظُلْمَهم لهم بهذين الوجهينِ؛ أحدهما: أنَّهم أخرَجوهم مِن ديارهم، والثاني: أنَّهم أخرَجوهم بسببِ أنَّهم قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، وكلُّ واحدٍ مِن الوجهين عظيمٌ في الظُّلم[3].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا وصَف نفسَه سبحانه بما يقتضي تمكينَ منصورِه الذي ينصُرُه، وصَفهم بما يُبيِّن أنَّ قتالَهم له لا لهم، بعد أن وصَفهم بأنَّهم أُوذُوا بالإخراج مِن الدِّيار، الذي يُعادِل

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٩).

القتـــلَ، فقـــال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1].

الكلامُ مسُوقٌ للتَّنبيه علىٰ الشُّكر علىٰ نعمة النَّصرِ؛ بأن يأتوا بما أمَر اللهُ به مِن أصول الإسلام؛ فإنَّ بذلك دوامَ نصرِهم، وانتظامَ عِقْدِ جماعتِهم، والسَّلامةَ مِن اختلال أمرهم، فإن حادُوا عن ذلك، فقد فرَّطوا في ضمان نصرِهم، وأمرُهم إلىٰ الله[2].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ صـفةٌ لِمَـن تقـدَّم؛ وهـو قولُـه: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾، والأنصارُ ما أُخرِجوا مِن ديارهم، فيَصِيرُ معنىٰ الآية: أنَّ اللهَ تعالىٰ وصَف المهاجِرين بأنَّه إن مكَّنَهم مِن الأرض وأعطاهم السلطنةَ، فإنَّهم أتَوْا بالأمور الأربعةِ؛ وهي: إقامةُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزكاة، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكَر، لكن قد ثبَت أنَّ اللهَ تعالىٰ مكَّن الأئمةَ الأربعة مِن الأرض، وأعطاهم السلطنةَ عليها؛ فوجَب كونُهم آتينَ بهذه الأمور الأربعة[3].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا كان في ترغيب هذه الآياتِ وترهيبِها ما يُعطِّف العاقلَ، ويَقصِفُ الجاهلَ؛ طُوي حُكْمُ العاقلِ؛ لفَهْمِه ما سبق؛ وهو: فإن يؤمنوا بك مكَّناهم في الأرض، ودلَّ عليه بعطفِ حُكْمِ الجاهلِ علىٰ غيرِ مذكورٍ، في سياقٍ يُسلِّي به نبيَّه ﷺ ويُعزِّيه، ويُؤنِسه ويُواسيه، فقال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣٠-٢٣١).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٦٠).

لمَّا نعىٰ علىٰ المشركين مَساويَهم في شؤون الدِّين؛ بإشراكهم وإنكارِهم البعثَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ وعن المسجدِ الحرام، وما ناسَب ذلك في غرضِه مِن إخراجِ أهله منه؛ عُطِف هنا إلىٰ ضلالِهم بتكذيب النَّبيِّ ﷺ، فقُصِد مِن ذلك تسليةُ الرسول ﷺ، وتمثيلُهم بأمثالِ الأُمَم التي استأصَلها اللهُ، وتهديدُهم بالمصير إلىٰ مصيرهم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن فيما تقدَّم إخراجَ الكفار المؤمنين مِن ديارهم بغير حقٍّ، وأَذِن في مقاتَلتهم، وضَمِن للرسول والمؤمنين النُّصرةَ، وبيَّن أنَّ لله عاقبةَ الأمور؛ أردَفه بما يَجري مَجرىٰ التَّسلية للرسول ﷺ في الصبر علىٰ ما هم عليه مِن أذيَّته وأذيَّة المؤمنين بالتَّكذيب وغيرِه، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾(٢).

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، متضمِّنةٌ للوعد الكريم بإهلاكِ مَن يعاديه مِن الكفَرة، وتعيينٌ لكيفيَّة نصرِه تعالىٰ له، الموعودِ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وبيانٌ لرجوعِ عاقبة الأمور إليه تعالىٰ(٣).

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾

مناسبةُ عَدِّ قومِ إبراهيمَ هنا في عِداد الأقوام الذين أخذهم اللهُ دُونَ الآيات الأخرىٰ التي ذُكِر فيها مَن أُخِذوا مِن الأقوام: أنَّ قومَ إبراهيمَ أتَمُّ شَبَهًا بمشركي قُريشٍ في أنَّهم كذَّبوا رسولَهم وآذَوْه، وألجَؤوه إلىٰ الخروج مِن موطنه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١١٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٣-٢٨٤).

﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾

ثم بعد قوم لوطٍ جاء قومُ شُعَيبٍ أصحابِ مَدْيَنَ.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾

ولمَّا كانت هذه الأُمَمُ السبعةُ أكثرَ أهلِ الأرض، بل كانت أمةٌ منهم أهلَ الأرض؛ كما مضىٰ بيانُه في «الأعراف»، فكيف بمَن عداهم ممَّن كان في أزمانهم وبعدهم، وأخبَر ﷻ أنَّ عادتَه فيهم الإملاءُ ثم الإهلاكُ؟! تسبَّب عن ذلك تهويلُ الإخبارِ عنهم وتكثيرُهم، فقال تعالىٰ شارحًا للأخذِ والإمهالِ علىٰ طريق النَّشر المشوَّش: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾[1].

تفرَّع ذِكْرُ جملةِ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ علىٰ جملةِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾، فعُطِفت عليها بفاءِ التفريعِ والتعقيب في الذِّكر، لا في الوجود؛ لأنَّ الإملاءَ لكثير مِن القُرىٰ ثم أَخْذَها بعد الإملاء لها يبيِّنُ كيفيةَ نكيرِ الله وغضبِه علىٰ القُرىٰ الظالمة ويفسِّرُه، فناسَب أن يُذكَرَ التفسيرُ عَقِبَ المفسَّر بحرف التفريع، ثم هو يفيدُ -بما ذُكِر فيه مِن اسم كثرة العدد- شمولًا للأقوام الذين ذُكِروا مِن قبلُ في قولِه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلىٰ آخره، فيكون لتلك الجملةِ بمنزلة التذييل[2].

ثم ذكَر سبحانه كيف عذَّب أهلَ القرىٰ المكذِّبةِ، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٥).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٤٢).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

ولمَّا كان هذا واعظًا لِمَن له استبصارٌ، وعاطفًا له إلىٰ العزيز الغفَّار؛ تسبَّب عنه الإنكارُ عليهم في عدم الاعتبار، فعَدَّ أسفارَهم -التي كانوا يَرَون فيها هذه القُرىٰ علىٰ الوجهِ الذي أخبَر به سبحانه لمَّا كانت علىٰ ذلك الوجهِ- عَدَمًا، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ مَن كذَّب الرُّسلَ مِن الأمم الخاليةِ، وكان عند العرَبِ أشياءُ مِن أحوالهم ينقُلونها، وهم عارفون ببلادهم، وكثيرًا ما يمُرُّون علىٰ كثيرٍ منها؛ قال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾، فاحتمَل أن يكونَ حثًّا علىٰ السفرِ؛ ليشاهِدوا مَصارعَ الكفار فيَعتبروا، أو يكونوا قد سافروا وشاهَدوا فلم يَعتبروا؛ فجُعِلوا كأن لم يسافِروا ولم يَرَوا[٢].

ثم أنكَر سبحانه علىٰ أهل مكَّةَ عدمَ اعتبارِها بهذه الآثار قائلًا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٣].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّ الضالَّ المُضِلَّ له خزيٌ في الدُّنيا، وقدَّم أنَّه يَدفَعُ عن الذين آمنوا وينصُرُهم، وساق الدَّليلَ الشُّهوديَّ علىٰ ذلك لِمَن كان جامدَ الفَهم، مُقيِّدًا

(١) نظم الدرر (١٣/ ٦٣).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٢١).
(٣) فتح القدير (٣/ ٥٤٣).

بالوهم، بالقُرىٰ الظالمة التي أُنجِزَ هلاكُها، وختَم بإنكار عَماهم عن ظاهر الآيات البيِّنات؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ مُعجِّبًا منهم، وموضِّحًا لعَماهم: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ عَطْفَ القِصَّةِ علىٰ القِصَّة؛ فإنَّ مِن تكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالوعيد، وقالوا: لو كان محمَّدٌ صادقًا في وعيده، لعجَّل لنا وعيدَه، فكانوا يَسألونه التَّعجيلَ بنزول العذاب استهزاءً، فذكَر ذلك في هذه الآية بمناسبةِ قولِه: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآيةَ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ مِن عِظَمِ ما هم عليه مِن التَّكذيب أنَّهم يستهزِئون باستعجال العذابِ، فقال: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، ثم بيَّن أن العاقلَ لا ينبغي أن يستعجلَ عذابَ الآخرة، فبيَّن سبحانَه أنهم لو عرَفوا حالَ عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصفِ لَمَا استعجلوه[(٣)].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ نصرِ أوليائه، وقَسْرِ أعدائه، بشَهادة تلك القُرىٰ، وختَم بالتَّعجيب مِن استعجالهم مع ما شاهَدوا مِن إهلاك أمثالهم، وأعلَمَهم ما هو عليه مِن الأَناة، واتِّساعِ العظمة، وكِبَرِ المقدار؛ عطَف علىٰ ﴿فَكَأَيِّن﴾ -محذِّرًا مِن نكاله، بعد طويل إمهالِه- قولَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٠-٢٩١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣٤).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٦٧).

عطفٌ على جملةِ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أو على جملةِ ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ باعتبارِ ما تضمَّنه استعجالُهم بالعذاب مِن التَّعريض بأنَّهم آيِسُون منه لتأخُّر وقوعه، فذُكِّروا بأنَّ أممًا كثيرةً أُمهِلت ثم حلَّ بها العذابُ[1].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كان الاستعجالُ بالأفعال لا يُطلَب مِن الرسول، وكان الإخبارُ باستهزائهم وشِدَّةِ عَماهم ربما أفهَمَ الإذنَ في الإعراض عنهم أصلًا ورأسًا؛ قال ﷻ -مُزيلًا لذلك، مُنبِّهًا على أنَّ مِثْلَه إنَّما يُطلَب مِن المُرسِل لا مِن الرسول-: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

استئنافٌ بعد المواعظ السالفة والإنذارات، والغرضُ مِن خطابهم إعلامُهم بأنَّ تكذيبَهم واستهزاءهم لا يَغيظُ النَّبيَّ ﷺ، ولا يصُدُّه عن أداء رسالتِه؛ ففي ذلك قمعٌ لهم إذا كانوا يَحسَبون أنَّهم بتكذيبهم واستهزائهم يُمِلُّونه فيترُكُ دعوتَهم، وفيه تثبيتٌ للنبيِّ ﷺ، وتسليةٌ فيما يَلْقَاه منهم[3].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم تسبَّب عن كونِه مُبِينًا العِلْمُ بأنَّ وَصْفَ البشارة مرادٌ وإن طُوِي، فدلَّ عليه سبحانه بقولِه -تفضيلًا لأهل البشارة والنِّذارة-: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٣).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٦٧).

وفُرِّع علىٰ الأمر بالقول تقسيمٌ للناس في تَلقِّي هذا الإنذارِ، المأمورِ الرسولُ بتبليغه إلىٰ مصدِّقٍ ومكذِّبٍ؛ لبيانِ حالِ كِلا الفريقين في الدُّنيا والآخرة؛ ترغيبًا في الحالةِ الحسنىٰ، وتحذيرًا مِن الحالةِ السُّوءىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[1].

لمَّا بيَّن للرسولِ ﷺ أنَّه يجبُ أن يقولَ لهم: أنا نذيرٌ مبينٌ، أردَف ذلك بأن أمَره بوَعْدِهم ووعيدهم؛ لأنَّ الرَّجُلَ إنَّما يكون منذِرًا بذِكْرِ الوعدِ للمطيعين والوعيدِ للعاصين، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[2].

ثم ذكَر تفصيلَ النِّذارة والبشارة، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾

ولمَّا كان في سياق الإنذار، قال معبِّرًا بالماضي زيادةً في التَّخويف: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[4].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾ هم الفريقُ المقابِلُ لقولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[5].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾

ولمَّا لاح مِن ذلك أنَّ الشيطانَ ألقىٰ للكفَّار شُبَهًا يُعاجِزون بها بجدالهم في دِينِ اللهِ الذي أمَر رسولَه محمَّدًا ﷺ بإظهاره، وتقريرِه وإشهاره؛ عطَف عليه تسليةً له ﷺ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣٥).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٤١).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٦٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٥).

قولـــه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ لأنَّه لمَّا أفضى الكلامُ السابقُ إلى تثبيتِ النَّبيِّ ﷺ، وتأنيسِ نفسِه -فيما يَلْقاه مِن قومه مِن التَّكذيب- بأنَّ تلك شِنْشِنةُ الأُمَمِ الظالمة مِن قبلِهم، وأنه مقصورٌ على النِّذارة؛ فمَن آمَن فقد نجا، ومن كفر فقد هلك، أُرِيدَ الانتقالُ من ذلك إلى تفصيلِ تسليتِه وتثبيته بأنه لقِيَ ما لقِيَه سلفُه من الرسل والأنبياء عليهم السلام[2].

لمَّا ذكَر تعالى أنَّه يَدفَعُ عن الذين آمنوا، وأنَّه تعالى أَذِن للمؤمنين في القتال، وأنَّهم كانوا أُخرِجوا مِن ديارهم، وذكَر مَسلاةَ رسولِه ﷺ بتكذيب مَن تقدَّم مِن الأمم لأنبيائهم، وما آلَ إليه أمرُهم مِن الإهلاك، إثرَ التكذيبِ وبعد الإمهال، وأمَره أن يناديَ الناسَ ويخبرَهم أنَّه نذيرٌ لهم بعد أنِ استعجَلوا بالعذاب، وأنَّه ليس له تقديمُ العذاب ولا تأخيرُه؛ ذكَر له تعالى مَسْلاةً ثانيةً باعتبارِ مَن مضى مِن الرُّسل والأنبياءِ؛ وهو أنَّهم كانوا حريصينَ على إيمانِ قومهم، متمنِّين لذلك، مثابرين عليه، وأنَّه ما منهم أحدٌ إلا وكان الشيطانُ يُراغِمُه بتزيينِ الكفر لقومه، وبثِّ ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم، كما أنَّه ﷺ كان مِن أحرَصِ الناس على هُدى قومه، وكان فيهم شياطينُ -كالنَّضْرِ بن الحارث- يُلقُون لقومه وللوافدين عليه شُبَهًا يُثبِّطون بها عن الإسلام؛ ولذلك جاء قبل هذه الآيةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾. وسَعْيُهم بإلقاء الشُّبَه في قلوبِ مَن استمالوه. ونسَب ذلك إلى الشيطانِ؛ لأنَّه هو المُغوي والمحرِّكُ شياطينَ الإنسِ للإغواء[3].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٦٩-٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٢٥).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تسليةِ رسوله صلوات الله عليه عمَّا كان يلاقيه مِن صَدِّ شياطينِ قومِه عن سبيلِ الله؛ بأنَّ تلك سنَّةُ كلِّ رسولٍ، وأنَّ العاقبةَ له، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ٥٣﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما حكَم به مِن تمكين الشيطانِ مِن هذا الإلقاء، ذكَر العلَّةَ في ذلك، فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢].

أنَّه تعالىٰ بيَّن أثَرَ تلك الوسوسةِ، ثم إنَّه سبحانه شرَح أثرَها في حق الكفار أولًا، ثم في حقِّ المؤمنين ثانيًا؛ أمَّا في حق الكفار فهو قولُه: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

ثم أشار إلىٰ أنَّ مِن مقتضيات حِكْمتِه أنَّه يجعل الإلقاءَ الشيطانيَّ فتنةً للشاكِّين المنافقين والقاسيةِ قلوبُهم عن قَبول الحق؛ ابتلاءً لهم ليزدادوا إثمًا، ورحمةً للمؤمنين ليزدادوا ثباتًا واستقامةً، فقال تعالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٤].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٢٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٧٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٤١).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٥٤).

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا شرَح أثرَها في حق الكافرين أولًا، شرَح أثرَها في حقِّ المؤمنين ثانيًا، فقال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾.

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّ ذلك الإلقاءَ كان فتنةً في حق أهل النفاق والشكِّ والشرك، بيَّن أنَّه في حقِّ المؤمنين العالِمين بالله العارفين به سببٌ لحصول العِلْم لهم بأنَّ القرآنَ حقٌّ وصدقٌ، فقال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾[١].

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

لمَّا حكىٰ عن الذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهم: أنَّ ما يُلقِيه لهم الشيطانُ مِن إبطالِ ما جاءت به الرُّسلُ يكون عليهم فتنةً؛ خَصَّ في هذه الآيةِ الكافرين بالقرآن بعد أن عَمَّهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخَصَّهم بأنَّهم يستمِرُّ شكُّهم فيما جاء به محمَّدٌ ﷺ، ويَتردَّدون في الإقدام علىٰ الإسلام إلىٰ أن يُحالَ بَيْنَهم وبَيْنَه بحلول الساعة بغتةً، أو بحلول عذابٍ بهم قبل الساعةِ؛ فالذين كفَروا هنا: هم مشركو العرَبِ؛ بقرينة المضارع في فعلِ ﴿ وَلَا يَزَالُ ﴾، وفعلِ ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ﴾، الدالَّينِ علىٰ استمرار ذلك في المستقبل[٢].

لمَّا ذكَر حالَ الكافرين أولًا، ثم حالَ المؤمنين ثانيًا؛ عاد إلىٰ شرحِ حال الكافرين[٣].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٢٨).

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾

ولمَّا كانوا مِن الكثرة والقوة بمكانٍ، كان كأنَّه قيل: كيف يُغلَبون؟ فقال جوابًا عن ذلك: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾[(١)].

آذنَت الغايةُ التي في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ أنَّ ذلك وقتُ زوال مِرْيةِ الذين كفروا، فكان ذلك منشأَ سؤالِ سائلٍ عن صورة زوال المِرية، وعن ماذا يَلقَوْنَهُ عند زوالها، فكان المقامُ أن يُجابَ السؤالُ بجملةِ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلىٰ آخرِ ما فيها مِن التفصيلِ؛ فهي استئنافٌ بيانيٌّ[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

ولمَّا ذكَر ثوابَ المؤمنين، أعقبه بذِكْرِ عِقاب الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾

ولمَّا كان المشركون يَمنَعون بهذه الشُّبَهِ وغيرِها كثيرًا مِن الناس الإيمانَ، وكانوا لا يتمكَّنون بها إلا ممَّن يُخالِطُهم؛ رغَّب سبحانه في الهجرة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٧٦).

لمَّا ذكَر أنَّ المُلْكَ له يومَ القيامة، وأنَّه يحكُمُ بَيْنَهم، ويُدخِلُ المؤمنين الجناتِ؛ أتبعَه بذِكْرِ وَعْدِه الكريمِ للمهاجرين، وأفرَدهم بالذِّكر تفخيمًا لشأنهم، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(١).

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾

ولمَّا كان الرزقُ لا يَتِمُّ إلا بحُسْنِ الدار، وكان ذلك مِن أفضل الرزقِ؛ قال دالًّا على ختام التي قبلُ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾(٢).

جملةُ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بدلٌ مِن جملة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهي بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ كرامةَ المُنزَلِ مِن جملة الإحسان في العطاء؛ بل هي أبهَجُ لدى أهل الهِمَم؛ ولذلك وصَف المُدخَلَ بـ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾(٣).

لمَّا ذكَر الرزقَ، ذكَر المسكَنَ، فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾(٤).

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

ولمَّا ختَم هذه الآياتِ -التي فيها الإذنُ للمظلومين في القتال للظالمين- بصفةِ الحِلْمِ، فكان ذلك مخيلةً لوجوبِ العفوِ عن حقوقِ العبادِ؛ كما في شريعةِ عيسى عليه الصلاة والسلام؛ نفَى ذلك بقولِه -إذنًا للمهاجرين فيمَن أخرَجهم مِن ديارهم أن يُخرِجوه مِن

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٤٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١١).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٥٢٩).

ديارِه، ويُذيقوه بعضَ ما توعَّده اللهُ به مِن العذاب المُهين-: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(١).

اسمُ الإشارة للفصل بَيْنَ الكلامينِ؛ لفتًا لأذهان السامعين إلىٰ ما سيجيء مِن الكلام؛ لأنَّ ما بعده غيرُ صالح لأن يكونَ خبرًا عن اسم الإشارة، والغرضُ منها التهيئةُ للجهاد، والوعدُ بالنصر الذي أشيرَ إليه سابقًا؛ فإنَّه قد جاء معترضًا في خلال النَّعْيِ علىٰ تكذيب المكذِّبين وكفرِهم النِّعَمَ، فأكمَل الغرضَ الأولَ بما فيه مِن انتقالات، ثم عطَف الكلامَ إلىٰ الغرض الذي جرَتْ منه لمحةٌ، فعاد الكلامُ هنا إلىٰ الوعد بنصرِ اللهِ القومَ المعتدىٰ عليهم؛ كما وعَدهم بأن يُدخِلَهم في الآخرةِ مُدخَلًا يرضَونه(٢).

لمَّا ذكَر ثوابَ مَن هاجَر وقُتِل أو مات في سبيل اللهِ، أخبَر أنَّه لا يَدَعُ نُصْرتَهم في الدُّنيا علىٰ مَن بَغَىٰ عليهم(٣).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾

ولمَّا ختَم بهذين الوصفينِ، ذكَر مِن الدَّليلِ عليهما أمرًا جامعًا للمصالح، عامًّا للخلائق، يكون فيه وبه الإحسانُ بالخَلْقِ والرزق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(٤).

ليس اسمُ الإشارة مستعمَلًا في الفصل بين الكلامينِ مثلَ شبيهِه الذي قبله، بل الإشارةُ هنا إلىٰ الكلام السابق الدالِّ علىٰ تكفُّل النصر؛ فإنَّ النصرَ يقتضي تغليبَ أحدِ الضِّدَّينِ علىٰ ضده، وإقحامَ الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرَب له مثَلًا

(١) نظم الدرر (١٣/ ٧٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١١).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٢٩-٥٣٠).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٨٠).

بتغليب مُدَّةِ النهارِ علىٰ مُدَّة الليل في بعض السَّنة، وتغليبِ مُدَّة الليل علىٰ مُدَّة النهار في بعضها؛ لِما تقرَّر مِن اشتهار التضادِّ بين الليل والنهار؛ أي: الظُّلمةِ والنُّور(١).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ ﴾

ولمَّا وصَف نفسَه سبحانه بما ليس لغيرِه، فبانَ بذلك تغير ما سِواه بفِعله؛ علَّله بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾(٢).

اسمُ الإشارة هنا تكريرٌ لاسم الإشارة الذي سبقه؛ ولذلك لم يُعطَفْ، ثم أخبَر عنه بسببٍ آخرَ لنصرِ المؤمنين علىٰ المشركين؛ بأنَّ الله هو الربُّ الحقُّ الذي إذا أراد فعَل وقدر؛ فهو ينصُرُ أولياءه، وأنَّ ما يَدْعوه المشركون مِن دُونِ الله هو الباطلُ؛ فلا يستطيعون نصرَهم، ولا أنفسَهم ينصُرون(٣).

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ ﴾

ولمَّا دلَّ ما تضمَّنه رزقُه سبحانه للميتِ في سبيله بقتلٍ أو غيرِه علىٰ إحيائه له، ودلَّ سبحانه علىٰ ذلك، وعلىٰ أنَّه خيرُ الرازقين بما له مِن العظمةِ، وختَم بهذين الوصفين؛ أتبَعه دليلًا آخرَ علىٰ ذلك كلِّه بآيةٍ مشاهَدةٍ جامعةٍ بَيْنَ العالَمِ العُلْوي والسُّفْلي، قاضيةٍ بعُلُوِّه وكِبْرِه، فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٦).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٨٠).

انتقالٌ إلىٰ التذكير بنِعَم الله تعالىٰ علىٰ الناس بمناسبةِ ما جرىٰ مِن قولِه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآيةَ، والمقصودُ التَّعريضُ بشكر الله علىٰ نِعَمِه، وألا يعبُدوا غيرَه؛ كما دلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعْدادِ هذه النِّعم بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾؛ أي: الإنسانَ المشركَ، وفي ذلك كلِّه إدماجُ الاستدلال علىٰ انفراده بالخَلق والتدبيرِ؛ فهو الربُّ الحقُّ المستحقُّ للعبادة، والمناسبةُ هي ما جرىٰ مِن أنَّ اللهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يَدْعونه الباطلُ، فالجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما دلَّ علىٰ قُدْرتِه الباهرة مِن إيلاجِ الليل في النهارِ والنهارِ في الليلِ، وهما أمران مشاهَدان -مجيءُ الظُّلمة والنُّور-؛ ذكَر أيضًا ما هو مشاهَدٌ مِن العالَم العُلوي والعالم السُّفلي؛ وهو: نزولُ المطر، وإنباتُ الأرض. وإنزالُ المطر واخضرارُ الأرض: مَرئيَّان(٢).

ثم ذكَر سبحانه دليلًا بيِّنًا علىٰ كمال قُدْرتِه، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾(٣).

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾

ولمَّا اقتضىٰ ذلك أَنْهىٰ التَّصرُّف؛ لأنَّه لا بدَّ بعد اختلاطِ الماء بالتُّراب مِن أمورٍ ينشأ عنها النباتُ علىٰ تلك الهيئاتِ الغريبة المختلفةِ، فأوجَب ذلك أن يكونَ هو المالكَ المطلَقَ؛ قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٤).

الجملةُ خبرٌ ثانٍ عن اسمِ الجلالة في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾؛ للتَّنبيهِ علىٰ اختصاصِه بالخالقيَّة والمُلْكِ الحقِّ؛ ليُعلَمَ مِن ذلك أنَّه المختصُّ بالمعبوديَّة، فيُردَّ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٧).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٣١).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٥٠).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٨٣).

زَعْمُ المشركين أنَّ الأصنامَ له شركاءُ في الإلهيَّة، وصَرْفُ عبادتِهم إلىٰ أصنامهم. والمناسبةُ هي ذِكْرُ إنزال المطر، وإنبات العُشب، فما ذلك إلا بعضُ ما في السماوات وما في الأرض، وإنَّما لم تُعطَفِ الجملةُ علىٰ التي قبلها مع اتحادهما في الغرضِ؛ لأنَّ هذه تتنزَّلُ مِن الأُولىٰ منزلةَ التذييل بالعموم، الشاملِ لِما تضمنتَّه الجملةُ التي قبلها، ولأنَّ هذه لا تتضمَّنُ تذكيرًا بنِعْمةٍ[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

ثم استدلَّ علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

هذا مِن نسَقِ التَّذكير بنِعَم الله، واقعٌ موقعَ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؛ فهو مِن عِدادِ الامتنان والاستدلال، فكان كالتَّكريرِ للغرض؛ ولذلك فُصِلت الجملةُ ولم تُعطَفْ[3].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه جُمَلًا مِن أمَّهات الدِّين، وأتبَعها الإعانةَ لأهله علىٰ المعتدِين، وختَم بما بعد الموت للمهاجرين؛ ترغيبًا في مُنابَذة الكافرين، وعرَّف بما له مِن تمام العلم وشمولِ القدرة، ومثَّل ذلك بأنواعٍ مِن التَّصرف في خَلْقِ السماوات

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢١).

والأرضين، وأنهاه بالدلالة على أنَّه كلَّه لنَفْعِ الآدميِّين نعمةً منه؛ تلا ذلك بما هو أكبَرُ منه نعمةً عليهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾(١).

بعد أن أُدمِجَ الاستدلالُ على البعث بالمواعظ والمِنَن والتَّذكير بالنِّعم، أُعيدَ الكلامُ على البعث هنا بمنزلة نتيجةِ القياس، فذُكِّر الملحِدون بالحياة الأُولى التي لا ريبَ فيها، وبالإماتةِ التي لا يَرتابون فيها، وبأنَّ بعد الإماتةِ إحياءً آخرَ؛ كما أُخِذ مِن الدَّلائل السابقة، وهذا محَلُّ الاستدلال، فجملةُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ لأنَّ صدرَ هذه مِن جملة النِّعمِ، فناسَب أن تُعطَفَ على سابقتها المتضمنةِ امتنانًا واستدلالًا كذلك(٢).

ثم ذكَر سبحانه نعمةً أخرى، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾(٣).

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾

ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ المناسكِ، وكان لكثرةِ الكفار قد يقع في النفس أنَّ إقامتَها معجوزٌ عنها، وكشَف سبحانه غُمَّةَ هذا السؤال بآيةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وما بعدها، فأنتَج ذلك عِلْمَنا بتصرُّفه التامِّ بقُدْرتِه الباهرة، وعِلْمِه الشاملِ المقتضي لإقبال العباد إليه، واجتماعِهم كلِّهم عليه، فمَن شكَّ في قُدْرتِه على إظهار دِينِه

(١) نظم الدرر (١٣/ ٨٧-٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٥١).

بمدافعته عن أهله، أو نازَع فيه؛ فهو كَفورٌ: ذكَر بإظهارِ أوَّلِ هذا الخطاب بآخِرِ ذلك الخطابِ، مؤكِّدًا لِما أجاب به عن ذلك السؤالِ مِن تمام القدرة وشمول العلم أنَّه هو الذي مكَّن لكلِّ قومٍ ما هم فيه مِن المناسكِ التي بها انتظامُ الحياة، فإن وافَقتِ الأمرَ الإلهيَّ، كانت سببًا للحياة الأبدية، وإلا كانت سببًا للهلاك الدائمِ، وهو سبحانه الذي نصَب مِن الشرائع لكلِّ قومٍ ما يلائمهم؛ لأنَّه بتغيير الزمانِ -بإيلاج الليلِ في النهارِ، علىٰ مَرِّ الأيام، وتَوالي الشهور والأعوامِ، بسببٍ مِن الأسباب؛ لأجلِ امتحانِ العباد، وإظهارِ ما خبَّأ في جِبلَّةِ كلٍّ منهم مِن طاعة وعصيان، وشُكْرٍ وكفرانٍ- ما يُصيِّرُ الفعلَ مصلحةً بما يقتضيه مِن الأسباب بعد أن كان مَفسَدةً، وبالعكس؛ لاقتدارِه علىٰ كل شيءٍ، وإظهارِ اقتداره؛ كما قال تعالىٰ عند أوَّل ذِكره للنَّسْخِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ الآياتِ، فعُلِم أنَّ منازعتَهم فيه كفرٌ؛ فلذلك أتبَع هذا قولَه مِن غير عاطفٍ -لِما بَيْنَهما مِن تمام الاتصال-: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قدَّم ذِكْرَ نِعَمِه، وبيَّن أنَّه رؤوف رحيمٌ بعباده، وإن كان منهم مَن يكفُرُ ولا يشكُرُ؛ أتبَعه بذِكرِ نِعَمه بما كلَّف، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[2].

عاد سبحانه إلىٰ بيان أمرِ التكاليف، مع الزَّجْرِ لمعاصري رسول اللهِ صلىٰ الله عليه وآله وسلم مِن أهلِ الأديانِ عن منازعته، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٤٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٥٢).

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾

ولمَّا أمَره بالإقبال علىٰ ما يُهِمُّه، والإعراضِ عن منازعتهم في صيغةِ نهيِهم عن منازعته؛ علَّمه الجوابَ إنِ ارتكبوا مَنْهيَّه بعد الاجتهاد في دفعِهم؛ لِما لهم مِن اللَّجاج والعُتُوِّ، فقال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(1).

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾

ولمَّا أمَره بالإعراض عنهم، وكان ذلك شديدًا علىٰ النفسِ؛ لتشوُّفِها إلىٰ النُّصرةِ؛ رجَّاه في ذلك بقولِه -مُستأنِفًا مُبدِلًا مِن مقُولِ الجزاء تحذيرًا لهم-: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾(2).

جملةُ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، ليس مِن المقُولِ؛ فهو خطاب للنبيِّ ﷺ، وليس خطابًا للمشركين؛ بقرينةِ قولِه: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾، والمقصودُ تأييدُ الرسول والمؤمنين(3).

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

ولمَّا كان حِفْظُ ما يقع بيْنَهم -علىٰ كثرتهم في طول الأزمانِ- أمرًا هائلًا، أتبعه قولَه: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾(4).

---

(1) نظم الدرر (١٣/ ٩٠).

(2) نظم الدرر (١٣/ ٩١).

(3) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣١).

(4) نظم الدرر (١٣/ ٩١).

استئنافٌ لزيادة تحقيقِ التَّأييد الذي تضمَّنه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: فهو لا يفُوتُه شيءٌ مِن أعمالكم؛ فيجازي كلًّا علىٰ حسابِ عمَلِه؛ فالكلام كنايةٌ عن جزاء كلٍّ بما يَلِيق به[١].

لمَّا تقدَّم ذِكْرُ الفصل بين الكفار والمؤمنين يوم القيامةِ، أعقَب تعالىٰ أنَّه عالِمٌ بجميع ما في السماء والأرض، فلا تَخفَىٰ عليه أعمالُكم، وأنَّ ذلك في كتابٍ[٢].

لمَّا قال مِن قبلُ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أتبعه بما به يُعلَمُ أنَّه سبحانه عالِمٌ بما يستحِقُّه كلُّ أحدٍ منهم، فيقع الحُكْمُ منه بيْنَهم بالعدل، لا بالجَوْرِ، فقال لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٣].

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ (٧١)﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه أنَّ الشكَّ لا يزالُ ظرفًا لهم -لِما يُلقِي الشيطانُ مِن شُبَهِه في قلوبهم القابلةِ لذلك؛ بما لها مِن المرضِ، وما فيها مِن الفسادِ إلىٰ إتيان الساعةِ، وعقَّب ذلك بما ذكَر مِن الحِكَم المفصَّلة، والأحكامِ المشرَّفة المفضَّلة، إلىٰ أن ختَم بأنَّه وحده الحَكَمُ في الساعة، مُرهِّبًا مِن تمام عِلْمِه وشمولِ قُدْرته-، قال مُعجِّبًا ممَّن لا ينفعُه الموعظةُ، ولا يجوِّزُ الواجبَ، وهو يوجِبُ المُحالَ، عاطفًا علىٰ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥٠).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٩٢).

يجوز أن يكونَ الواوُ حرفَ عطفٍ، وتكونَ الجملة معطوفةً علىٰ الجملة السابقة بما تفرَّع عليها، عَطْفَ غرضٍ علىٰ غرضٍ، ويجوزُ أن يكونَ الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حالًا مِن الضمير المرفوع في قولِه: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾؛ والمعنىٰ: جادَلوك في الدِّين مستمِرِّين علىٰ عبادةِ ما لا يستحقُّ العبادةَ، بعد ما رأَوْا مِن الدَّلائل، وتتضمَّن الحالُ تعجيبًا مِن شأنهم في مكابَرتهم وإصرارهم[1].

ثم بيَّن سبحانه ما يُقدِمُ الكفارُ عليه مع عظيم نِعَمِه، ووضوح دلائله، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[2].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر اعترافَهم بما لا يُعرَفُ بنقلٍ ولا عقلٍ، ذكَر إنكارَهم لِما لا يصحُّ أن يُنكَرَ، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ لبيانِ جُرْمٍ آخرَ مِن أجرامِهم مع جُرْمِ عبادة الأصنام؛ وهو جُرْمُ تكذيبِ الرسول، والتَّكذيبِ بالقرآن[4].

ثم بيَّن أنَّهم مع جهلهم إذا نُبِّهوا علىٰ الأدلةِ، وعُرِضتْ عليهم المعجزةُ؛ ظهَر في وجوههم المنكَرُ، والمرادُ دلالةُ الغيظِ والغضب[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٩٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن أنَّه لا حُجَّةَ لعابدِ غيرِه، وهدَّد مَن عانَد؛ أتبَعه بأنَّ الحُجَّة قائمةٌ علىٰ أنَّ ذلك الغيرَ في غايةِ الحقارة، ولا قُدْرةَ له علىٰ دفع ما هُدِّد به عابِدوه ولا علىٰ غيره، فكيف بالصَّلاحيةِ لتلك الرُّتبةِ الشَّريفة، والخُطَّة العالية المُنيفةِ؟! فقال -مُناديًا أهلَ العقلِ، مُنبِّهًا تنبيهًا عامًّا-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[(١)].

أُعقِبتْ تضاعيفُ الحُجَج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورةُ ممَّا فيه مَقنَعٌ للعلمِ بأنَّ إلهَ الناس واحدٌ، وأنَّ ما يُعبَدُ مِن دُونِه باطلٌ؛ أُعقِبتْ تلك كلُّها بمَثَلٍ جامعٍ لوصفِ حالِ تلك المعبودات وعابديها[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ الكفارَ يعبُدون ما لا دليلَ علىٰ عبادته؛ لا مِن سمعٍ ولا مِن عقل، ويترُكوا عبادةَ مَن خلَقهم؛ ذكَر ما عليه معبوداتُهم مِن انتفاء القدرة علىٰ خَلْقِ أقلِّ الأشياء، بل علىٰ رَدِّ ما أخَذه ذلك الأقلُّ منه، وفي ذلك تجهيلٌ عظيمٌ لهم؛ حيث عبَدوا مَن هذه صفتُه[(٣)].

لمَّا بيَّن مِن قبلُ أنَّهم يعبُدون مِن دُونِ الله ما لا حُجَّةَ لهم فيه ولا عِلْمَ، ذكَر في هذه الآيةِ ما يدلُّ علىٰ إبطالِ قولهم[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٩٤-٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٣٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥١).

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ﴾

ولمَّا أنتج هذا جهلَهم بالله، عبَّر عنه بقوله: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

تذييلٌ للمثَلِ بأنَّ عبادتَهم الأصنامَ مع الله استخفافٌ بحق إلهيَّتِه تعالىٰ؛ إذ أشركوا معه في أعظمِ الأوصاف أحقَرَ الموصوفين، وإذ استكبَروا عند تلاوة آياته تعالىٰ عليهم، وإذ هَمُّوا بالبطش برسوله ﷺ[2].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ المشركين الذين عبَدوا مِن دُونِ الله آلهةً عاجزةً إلىٰ هذه الغاية في العَجْزِ ما عرَفوا اللهَ حقَّ معرفته، فقال: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3].

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾

ولمَّا نصَب الدَّليلَ علىٰ أنَّ ما دعَوْهُ لا يصلُحُ أن يكونَ شيءٌ منه إلهًا، بعد أن أخبَر أنَّه لم يُنزِلْ إليهم حُجَّةً بعبادتِهم لهم، وختَم بما له سبحانه مِن وَصْفَي القوة والعزَّةِ، بعد أن أثبَت أنَّ له المُلْكَ كلَّه: تلا ذلك بدليله الذي تقتضيه سَعةُ المُلْكِ وقوَّةُ السلطانِ؛ مِن إنزال الحُجَج علىٰ ألسنة الرسلِ بأوامره ونواهيه، الموجِبِ لإخلاص العبادةِ له، المقتضي لتعذيب تاركِها، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٢).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٥٥).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٩٧).

لمَّا نفَتِ الآياتُ السابقة أن يكونَ للأصنام التي يعبُدها المشركون مزيَّةٌ في نصرهم، ونعىٰ علىٰ المشركين تكذيبَهم الرسولَ ﷺ، وقد كان مِن دواعي التكذيب أنَّهم أحالوا أن يأتيَهم رسولٌ مِن البشر؛ أعقَب إبطالَ أقوالِهم بأنَّ اللهَ يصطفي مَن شاء اصطفاءه مِن الملائكة ومِن الناس دُونَ الحجارة، وأنَّه يصطفيهم ليُرسِلَهم إلىٰ الناس[1].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا قدَّم ما يتعلَّقُ بالإلهيَّاتِ، ذكَر ها هنا ما يتعلَّق بالنُّبوات[2].

ثم أراد سبحانه أن يرُدَّ عليهم ما يعتقدونه في النُّبوات والإلهيَّات، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾[3].

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾

ولمَّا كان المتصفُ بذلك قد يكون وَصْفُه مقصورًا علىٰ بعض الأشياء، أخبَر أنَّ صفاتِه محيطةٌ، فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[4].

جملةٌ مقرِّرةٌ لمضمونِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾، وفائدتُها -زيادةً علىٰ التَّقرير-: أنَّها تعريضٌ بوجوب مراقبتِهم ربَّهم في السر والعلانيةِ؛ لأنَّه لا تَخفَىٰ عليه خافيةٌ[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥٣).
(٣) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٩٩).
(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾

ولمَّا أثبت سبحانه أنَّ المُلْكَ والأمرَ له وحده، وأنَّه قد أحكَمَ شَرْعَه، وحَفِظَ رُسلَه، وأنَّه يمكِّنُ لِمَن يشاء أيَّ دينٍ شاء، وختَم ذلك بما يصلُحُ للترغيب والترهيب، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ المَلِكَ إذا برزت أوامرُه وانبثَّت دعاتُه، أقبَلَ إليه مقبِلون؛ خاطَب المقبِلين إلىٰ دِينِه، وهم الخُلَّصُ مِن الناس، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(١).

لمَّا كان خطابُ المشركين فاتحًا لهذه السورة، وشاغلًا لمعظمها، عدا ما وقع اعتراضًا في خلال ذلك، فقد خوطب المشركون بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربعَ مرات، فعند استيفاء ما سِيقَ إلىٰ المشركين مِن الحُجَج والقوارع والنِّداء علىٰ مَساوي أعمالهم؛ خُتِمت السورةُ بالإقبال علىٰ خطاب المؤمنين بما يُصلِحُ أعمالهم، ويُنوِّه بشأنهم(٢).

لمَّا تكلَّم في الإلهيات ثم في النبوَّات، أتبَعه بالكلام في الشرائع(٣).

ولمَّا تضمَّن ما ذكَره -مِن أنَّ الأمورَ تَرجِعُ إليه- الزَّجْرَ لعباده عن معاصيه، والحضَّ لهم علىٰ طاعاته؛ صرَّح بالمقصودِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٩٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٥٣).
(٤) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

ولمَّا كان الجهادُ أساسَ العبادة، وهو -مع كونه حقيقةً في قتال الكفار- صالحٌ لأن يعُمَّ كلَّ أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكَرٍ: بالمال والنفس، بالقول والفعل، بالسيف وغيره، وكلَّ اجتهادٍ في تهذيب النفس وإخلاصِ العمل؛ ختَم به، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1].

ثم أمَرهم بما هو سَنامُ الدِّين، وأعظمُ أعماله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[2].

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٠٠-١٠١).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

سُورَةُ المُؤمِنُونَ

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾

ثم قيَّدهم بما يَلزَمُ مِن الصِّدق في الإيمانِ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[1].

ثم وصَف هؤلاء المؤمنين بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن الصَّلاة والخشوعِ صادًّا عن اللَّغو، أتبَعه قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[3].

لمَّا وصَفهم بالخشوع في الصَّلاة، أتبَعه الوصفَ بالإعراض عن اللَّغو؛ ليَجمَعَ لهم الفعلَ والتَّرْكَ الشاقَّينِ على الأنفس، اللذينِ هما قاعدتا بناءِ التكليف[4].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

ولمَّا جمَع بَيْنَ قاعدتي بناء التَّكاليف: فِعْلِ الخشوع، وتَرْكِ اللَّغو، وكان الإنسانُ محَلَّ العَجْزِ ومركزَ التقصيرِ، فهو لا يكاد يخلو عمَّا لا يَعنِيه، وكان المالُ مكفِّرًا لِما

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٠٥).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٦٠).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٦١).

قصَد مِن الأيمان، فضلًا عمَّا ذكَر منها على سبيل اللَّغو، فكان مكفِّرًا لِلَّغو في غيرِ اليمين مِن باب الأَولى؛ أتبعه قولَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[(١)].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾

ولمَّا أشار إلى أنَّ بَذْلَ المال على وجهِه طُهْرةٌ، وأنَّ حَبْسَه عن ذلك تَلْفةٌ[(٢)]؛ أتبعه الإيماءَ إلى أنَّ بَذْلَ الفَرْجِ في غيرِ وجهه نجاسةٌ، وحِفْظَه طُهْرةٌ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾[(٣)].

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾

ثم استثنى مِن ذلك، فقال: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾[(٤)].

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾

ولمَّا كان مَن لم يكتفِ بالحلال مُكلِّفًا نفسَه طلَبَ ما يضُرُّه، سبَّب عن ذلك قولَه مُعبِّرًا بما يُفهِم العلاجَ: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٠٧).

(٢) أي: هلاك.

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٠٨).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٠٨).

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك مِن الأمانات العظيمةِ، أتبعه عمومَها، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[1].

هذه صفةٌ أخرىٰ مِن جلائلِ صفات المؤمنين تَنحلُّ إلىٰ فضيلتينِ؛ هما: فضيلةُ أداء الأمانة التي يُؤتمَنون عليها، وفضيلةُ الوفاء بالعهد[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كانت الصَّلاةُ أجَلَّ ما عُهِد فيه مِن أمر الدِّين وآكَدَ، وهي مِن الأمور الخفيَّة التي وقع الائتمانُ عليها؛ لِما خفَّف اللهُ فيها علىٰ هذه الأمَّة بإيساعِ زمانها ومكانها؛ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[3].

وإنَّما ذُكِر هذا مع ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ لأنَّ ذِكْرَ الصَّلاةِ هنالك جاء تبعًا للخشوع، فأُريدَ خَتْمُ صفاتِ مدحِهم بصفةِ محافظتِهم علىٰ الصلواتِ؛ ليكونَ لهذه الخَصْلةِ كمالُ الاستقرار في الذهن؛ لأنَّها آخِرُ ما قرَع السمعَ مِن هذه الصفات، وقد حصَل بذلك تكريرُ ذِكْرِ الصَّلاة؛ تنويهًا بها، وردًّا للعَجُزِ علىٰ الصدر؛ تحسينًا للكلام الذي ذُكِرتْ فيه تلك الصفاتُ؛ لتزدادَ النفسُ قبولًا لسماعها ووعيِها، فتتأسَّىٰ بها[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٥).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا ذكَر مجموعَ هذه الأوصافِ العظيمة، فخَّم جزاءهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾(١).

ثم مدَح سبحانه هؤلاء، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾(٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾

ثم ترجَم الوارثين بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، فجاء بفخامةٍ وجَزالةٍ لإرثهم لا تَخفَىٰ علىٰ الناظرِ(٣).

ثم بيَّن الموروثَ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤).

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الجَنَّةَ، المتضمِّنَ ذِكْرُها للبعث؛ استدَلَّ علىٰ القدرة عليه بابتداءِ الخَلْقِ للإنسان، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾(٥).

الواوُ عاطفةٌ غرضًا علىٰ غرضٍ، ويُسمَّىٰ عَطْفَ القِصَّةِ علىٰ القِصَّة؛ فللجملةِ حُكْمُ الاستئناف؛ لأنَّها عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾، التي هي ابتدائيَّةٌ، وهذا شروعٌ في الاستدلال علىٰ انفراد الله تعالىٰ بالخَلق، وبعظيم القدرة التي لا يشارِكُه

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٠٩).
(٢) فتح القدير (٣/ ٥٦٢).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٥٠).
(٤) فتح القدير (٣/ ٥٦٢).
(٥) نظم الدرر (١٣/ ١١٣).

فيها غيرُه، وعلىٰ أنَّ الإنسانَ مربوبٌ لله تعالىٰ وحده، والاعتبارُ بما في خَلْقِ الإنسان وغيره مِن دلائل القدرة ومِن عظيم النِّعْمةِ؛ فالمقصودُ منه إبطالُ الشركِ؛ لأنَّ ذلك الأصلُ الأصيلُ في ضَلال المُعرِضين عن الدعوة المحمَّدية، ويَتضمَّن ذلك امتنانًا علىٰ الناس بأنَّه أخرَجهم مِن مَهانة العدم إلىٰ شرف الوجودِ، وذلك كلُّه ليُظهِرَ الفَرْقَ بين فريق المؤمنين الذين جرَوْا في إيمانهم علىٰ ما يَليق بالاعتراف بذلك، وبَيْنَ فريقِ المشركين الذين سلكوا طريقًا غيرَ بيِّنةٍ، فحادُوا عن مقتضىٰ الشكر بالشِّرك(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ المتصِفين بتلك الأوصافِ الجليلة هم يرثون الفِرْدوسَ، فتضمَّن ذلك المَعادَ الأخروي؛ ذكَر النَّشأةَ الأُولىٰ ليستدِلَّ بها علىٰ صحَّةِ النشأة الآخِرة(٢).

لمَّا أمَر بالعباداتِ في الآية المتقدِّمة، والاشتغالُ بعبادةِ الله لا يصحُّ إلا بعد معرفةِ الإله الخالق؛ لا جرَمَ عقَّبها بذِكرِ ما يدلُّ علىٰ وجودِه واتصافه بصفاتِ الجلال والوَحْدانيَّة(٣).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ شروعٌ في بيانِ مبدأ خَلْقِ الإنسان وتقلُّبه في أطوارِ الخِلْقة وأدوار الفِطرة بيانًا إجماليًّا إثرَ بيانِ حال بعضِ أفراده السعداء(٤).

لمَّا حَثَّ سبحانه عبادَه علىٰ العبادة، ووعَدهم الفِرْدوسَ علىٰ فعلِها؛ عاد إلىٰ تقريرِ المبدأ والمَعاد ليَتمكَّنَ ذلك في نفوسِ المكلَّفين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٢).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٥٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٦٤).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢٥).

(٥) فتح القدير (٣/ ٥٦٤).

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أصلَ الآدميِّ الأولَ، الذي هو الطِّينُ الذي شرَّفه به لجمعِه الطَّهُورَينِ، وعبَّر فيه بالخَلْقِ لِما فيه مِن الخلط؛ لأنَّ الخَلْقَ -كما مرَّ عن الحَرَالِّيِّ في أوَّل «البقرة»-: تقديرُ أمشاجٍ ما يراد إظهارُه بعد الامتزاجِ والتركيب صورةً، مع أنَّه ليس ممَّا يَجري علىٰ حِكْمةِ التَّسبيب التي نَعهَدُها أن يكونَ مِن الطِّينِ إنسانٌ؛ أتبَعه سبحانه أصلَه الثانيَ الذي هو أطهَرُ الطَّهُورَينِ: الماء، الذي منه كلُّ شيءٍ حي، معبِّرًا عنه بالجَعْلِ؛ لأنَّه -كما مرَّ أيضًا- إظهارُ أمرِ سببٍ وتصييرٍ، وما هو مِن الطين ممَّا يتسبَّب عنه مِن الماء، ويستجلبُ منه، وهو بسيطٌ لا خَلْطَ فيه، فلا تخليقَ له، وعبَّر بأداةِ التراخي؛ لأنَّ جَعْلَ الطِّينِ ماءً مستبعَدٌ جدًّا، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[(١)].

ذكَر مِن الدلائل أنواعًا: النوع الأول: الاستدلالُ بتقلُّب الإنسان في أدوار الخِلْقة، وأكوانِ الفطرة، وهي تسعةٌ: المرتبة الأُولىٰ: قولُه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾... المرتبة الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[(٢)].

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان تصييرُ الماء دَمًا أمرًا بالغًا خارجًا عن التَّسبيب، وكانت النُّطْفةُ التي هي مبدأُ الآدميِّ تفسُدُ تارةً وتأخذ في التَّكوُّن أخرىٰ؛ عبَّر بالخَلْقِ لِما يَخلِطُها به ممَّا

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١١٤-١١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٦٤-٢٦٥).

تكتسبه مِن الرَّحِمِ، وقرَنه بأداةِ التراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾(١).

حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ في قولِه: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ للترتيب الرُّتبي؛ إذ كان خَلْقُ النُّطْفةِ علَقةً أعجَبَ مِن خَلْقِ النُّطفة؛ إذ قد صُيِّر الماءُ السائل دمًا جامدًا، فتغيَّر بالكثافة، وتبدَّل اللَّونُ مِن عواملَ أودَعها اللهُ في الرَّحِم(٢).

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت إماتةُ ما صار هكذا - بعد القوَّة العظيمة، والإدراكِ التام - مِن الغرائبِ، وكان وجودُها فيه وتكْرارها عليه في كل وقتٍ قد صيَّرها أمرًا مألوفًا، وشيئًا ظاهرًا مكشوفًا، وكان عُتُوُّ الإنسانِ علىٰ خالقه وتمرُّدُه ومخالفته لأمره نسيانًا لهذا المألوفِ كالإنكار له؛ أشار إلىٰ ذلك بقولِه تعالىٰ مُسببًّا مُبالِغًا في التَّأكيد: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾(٣).

إدماجٌ في أثناء تَعْداد الدَّلائل علىٰ تفرُّدِ الله بالخَلْقِ علىٰ اختلافِ أصناف المخلوقات لقصدِ إبطال الشرك، و﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرُّتْبي؛ لأنَّ أهميةَ التَّذكير بالموت في هذا المقامِ أقوىٰ مِن أهميةِ ذِكْرِ الخَلق؛ لأنَّ الإخبارَ عن موتهم توطئةٌ للجملةِ بعده؛ وهي قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾، وهو المقصود(٤).

(١) نظم الدرر (١٣/ ١١٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٣).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ١١٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦).

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بذلك القدرةُ علىٰ البعثِ تقرُّرًا لا يشكُّ فيه عاقلٌ، قال نافيًا ما يُوهِمه إعراءُ الظَّرف مِن الجارِّ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.(١)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن لهم أنَّ فِكْرَهم فيهم يَكفيهم، ولاعتقاد البعث يَعنِيهم؛ أتبَعه دليلًا آخَر بالتَّذكير بخَلْقِ ما هو أكبَرُ منهم، وبتدبيرِهم بخَلْقِه وخَلْقِ ما فيه مِن المنافعِ لاستبقائهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾(٢).

انتقالٌ مِن الاستدلالِ بخَلْقِ الإنسانِ إلىٰ الاستدلال بخَلْقِ العوالم العُلْويَّة؛ لأنَّ أمرها أعجَبُ، وإن كان خَلْقُ الإنسان إلىٰ نظَرِه أقرَبَ؛ فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾، وإنَّما ذُكِر هذا عَقِب قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ للتَّنبيهِ علىٰ أنَّ الذي خلَق هذا العالَمَ العلويَّ ما خلَقه إلا لحِكْمةٍ، وأنَّ الحكيمَ لا يُهمِل ثوابَ الصالحين علىٰ حسناتِهم، ولا جزاءَ المسيئين علىٰ سيئاتهم، وأنَّ جَعْلَه تلك الطرائقَ فوقنا بحيث نراها لَيدُلُّنا علىٰ أنَّ لها صلةً بنا؛ لأنَّ عالَمَ الجزاء كائنٌ فيها، ومخلوقاته مستقرَّةٌ فيها(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ابتداءَ خَلْقِ الإنسان وانتهاءَ أمره، ذكَّره بنِعَمِه(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١١٧-١١٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١١٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٥٥٣).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ بيانٌ لخلْقِ ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيانِ خَلْقِهم[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ خَلْقَ الآدميِّ، ذكَر سكَنَه، وتوفُّرَ النِّعَمِ عليه مِن كلِّ وجه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[(٢)].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا ساقَ سبحانه هذينِ الدَّليلينِ علىٰ القدرةِ علىٰ البعثِ، أتبَعهما بما هو مِن جنسِهما، ومُشاكِل للأولِ منهما، وهو مع ذلك دليلٌ علىٰ ختامِ الثاني مِن أنَّه مِن أجلِّ النِّعمِ التي يجب شكرُها، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾[(٣)].

مناسبةُ عطفِ إنزال ماءِ المطر علىٰ جملةِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾: أنَّ ماءَ المطرِ ينزِلُ مِن صَوْبِ السَّماء؛ أي: مِن جهةِ السَّماء[(٤)].

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر إنزالَه، سبَّب عنه الدَّليلَ الأقرب علىٰ البعثِ، فقال: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٢١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ نِعْمةَ الماء، ذكَر ما ينشأ عنه فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، وخَصَّ هذه الأنواعَ؛ لأنَّها أكرَمُ الشجر، وأجمَعُها للمنافع[(١)].

لمَّا نبَّه علىٰ عظيمِ نِعْمته بخَلْقِ الماء، ذكَر بعده النِّعَمَ الحاصلة مِن الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، وإنَّما ذكَر تعالىٰ النخيلَ والأعناب لكثرةِ منافعهما؛ فإنَّهما يقُومان مَقامَ الطعام، ومقامَ الإدام، ومقامَ الفواكه رَطْبًا ويابسًا[(٢)].

ثم بيَّن سبحانه ما يتسبَّب عن إنزالِ الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٣)].

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما إذا عُصِر كان ماءً لا يَنفَع للاصطباح، أتبَعه ما إذا عُصِر كان دُهْنًا يعُمُّ الاصطباحَ والاصطباغ، وفصَله عنه؛ لأنَّه أدلُّ علىٰ القدرة، فقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾[(٤)].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه وتعالى علىٰ قُدْرته بما أحيا بالماء حياةً قاصرةً عن الرُّوح، أتبَعه ما أفاض عليه به حياةً كاملةً، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٦٩).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٦٥).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٢٢).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٢٧).

هذا العطفُ مثلُ عطفِ جملة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ ففيه كذلك استدلالٌ ومِنَّة(١).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيانٌ للنِّعَمِ الفائضة عليهم مِن جهةِ الحيوان إثرَ بيانِ النِّعَم الواصلة إليهم مِن جهةِ الماء والنبات(٢).

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ٢٢﴾

ولمَّا كانت المفاوَتةُ بين الحيوانات في القُوَىٰ وسهولةِ الانقياد دالةً علىٰ كمال القدرة، وكان الحَمْلُ للنَّفسِ والمتاع عليها وعلىٰ غيرها مِن الحيوان مِن أجلِّ المنافع، بحيث لولا هو تعطَّلتْ أكثَرُ المصالح؛ ذكَره فيها مُذكِّرًا بغيرها في البَرِّ تلويحًا، وذاكرًا لمحاملِ البحر تصريحًا، فقال مُقدِّمًا للجارِّ عدًّا لحَمْلِ غيرِها بالنسبة إلىٰ حملِها لعظيم وَقْعِه عدمًا: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٣).

عطفٌ فيه إدماجٌ وتهيئةٌ للتَّخلُّص إلىٰ قِصَّةِ نوح عليه السلام(٤).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فلقد حمَلْنا نوحًا ومَن أرَدْنا ممَّن آمَن به مِن أولاده وأهله وغيرِهم علىٰ الفُلْكِ، وأغرَقْنا مَن عانَدَه مِن أهلِ الأرض قاطبةً بقُدْرتنا، ونصَرْناه عليهم بعد ضَعْفِه عنهم بأيدينا وقُوَّتنا، وجعَلْناه وذُريتَه هم الوارثين، وكنتم ذريةً في أصلابهم، وكثَّرْناهم حتىٰ ملَأْنا منهم الأرضَ، دلالةً علىٰ ما قدَّمْنا مِن تفرُّدِنا، كما أجرَيْنا عادةَ

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٠).

هذا الكتابِ الكريم بذِكْرِ عظيمِ البطش بعد أدلَّة التَّوحيد، وأتبَعْناه بعده الرُّسلَ الذين سَمِعتم بهم، وعرَفْتم بعضَ أخبارهم، يا مَن أنكَر الآن رسالةَ البشَرِ لإنكارِ رسالة هذا النَّبيِّ الكريم؛ عطَف عليه يُهدِّد بإهلاكِ الماضين للرجوعِ عن الكفر، ويُذكِّر بنِعْمةِ النجاة للإقبال علىٰ الشكر، ويُسلِّي هذا النَّبيَّ الكريم ومَن معه مِن المؤمنين بمن كُذِّب قبله مِن النبيين وأُوذِي مِن أتباعهم، ويدلُّ علىٰ أنَّه يفضِّلُ مِن عباده مَن يشاء بالرسالة، كما فضَّل طِينةَ الإنسان علىٰ سائرِ الطين، وعلىٰ أنَّ الفلاحَ بالإرثِ والحياة الطيِّبة في الدارينِ مخصوصٌ بالمؤمنين؛ كما ذُكِر أوَّلَ السُّورة، فذكَر نوحًا لأنَّ قصَّتَه أشهَرُ القِصص، ولأنَّ قومَه كانوا مِلْءَ الأرض، ولم تُغْنِ عنهم كثرتُهم، ولا نفَعتْهم قوَّتُهم، ولأنَّه الأبُ الثاني بعد الأبِ الأول المشار إليه بالطِّين، ولأنَّ نجاتَه ونجاة المؤمنين معه كانت بالفُلْكِ المختوم به الآيةُ قبله، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[(١)].

لمَّا كان الاستدلالُ والامتنان اللذان تقدَّما مُوجَّهَينِ إلىٰ المشركين الذين كفَروا بالنبي ﷺ، واعتلُّوا لذلك بأنَّهم لا يؤمنون برسالةِ بشَرٍ مثلِهم، وسألوا إنزالَ ملائكةٍ، ووسَموا الرسولَ عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلمَّا شابَهوا بذلك قومَ نوحٍ ومَن جاء بعدهم، ناسَب أن يُضرَبَ لهم بقومِ نوحٍ مثَلٌ؛ تحذيرًا ممَّا أصاب قومَ نوحٍ مِن العذاب، وقد جرىٰ في أثناءِ الاستدلال والامتنان ذِكْرُ الحَمْلِ في الفُلْكِ؛ فكان ذلك مناسَبةً للانتقال، فحصَل بذلك حُسْنُ التَّخلُّصِ، فيُعتبر ذِكْرُ قصصِ الرُّسلِ: إمَّا استطرادًا في خلالِ الاستدلال علىٰ الوَحْدانيَّة، وإمَّا انتقالًا[(٢)].

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٠).

لمَّا ذكَر أولًا بَدْءَ الإنسانِ وتطوُّرَه في تلك الأطوارِ، وما امتَنَّ به عليه ممَّا جعَله تعالى سببًا لحياتهم، وإدراكِ مقاصدهم؛ ذكَر أمثالًا لكفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَم السابقة المنكِرة لإرسالِ الله رُسُلًا، المكذِّبةِ بما جاءتهم به الأنبياءُ عن الله، فابتدأ قِصَّةَ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّه أبو البشَرِ الثاني؛ كما ذكَر أولًا آدمَ في قولِه: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، ولقصَّتِه أيضًا مناسبةٌ بما قبلها؛ إذ قبلها ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. فذكَر قِصَّةَ مَن صنَع الفُلْكَ أولًا، وأنَّه كان سببَ نجاةِ مَن آمَن، وهُلْكِ مَن لم يكُنْ فيه؛ فالفُلْكُ مِن نِعْمةِ الله. كلُّ هذه القِصَص يحذِّرُ بها قُرَيشًا نِقَمَ الله، ويذكِّرهم نِعَمَه[1].

لمَّا بيَّن دلائلَ التوحيد، أردَفها بالقصصِ؛ كما هو العادةُ في سائرِ السُّوَر، وهي هاهنا[2].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروعٌ في بيانِ إهمال الأُمَم السابقة، وترْكِهم النَّظَرَ والاعتبار فيما عُدِّد مِن النِّعم الفائتةِ للحصر، وعدمِ تذكُّرهم بتذكيرِ رُسُلِهم وما حاق بهم لذلك مِن فنونِ العذاب؛ تحذيرًا للمخاطَبين، وتقديمُ قِصَّةِ نوحٍ عليه السلام على سائر القِصص ممَّا لا يَخفَىٰ وجهُه، وفي إيرادِها إثرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ مِن حُسْنِ الموقع ما لا يوصَفُ[3].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فتسبَّب عن ذلك أن كذَّبوه ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٥٦-٥٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢٩).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٣٠-١٣١).

وقد خُولفت في حكايةِ جواب الملأ مِن قومِه الطريقةُ المألوفة في القرآنِ في حكاية المحاوَرات، فعُطِف هنا جوابُ الملأ مِن قومه بالفاءِ لوجهينِ: أحدهما: أنَّهم لم يُوجِّهوا الكلامَ إليه، بل ترَكوه وأقبَلوا على قومهم يُفنِّدون لهم ما دعَاهم إليه نوحٌ. والثاني: ليُفادَ أنَّهم أسرَعوا بتكذيبِه، وتزييفِ دَعْوتِه قبل النَّظر(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا نفَوْا عنه الرسالةَ، وحصَروا أمره في قصدِ السيادة، وكانت سيادتُه لهم بمِثْلِ هذا عندهم مِن المُحال؛ قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٢).

وجملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جميعَ ما قالوه يثير في نفوسِ السامعين أن يتساءلوا: إذا كان هذا حالَ دَعْوتِه في البطلانِ والزَّيف، فماذا دعَاه إلى القول بها؟ فيجاب بأنَّه أصابه خَلَلٌ في عقلِه، فطلَب ما لم يكُنْ لينالَه مِثْلُه مِن التفضُّل على الناس كلِّهم بنسبتِهم إلى الضَّلال، فقد طَمِع فيما لا يَطمَع عاقلٌ في مثله، فدلَّ طمَعُه في ذلك على أنَّه مجنونٌ(٣).

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٤).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِي عن صَدِّهم الناسَ عن تصديقِ دعوة نوحٍ وما لَفَّقوه مِن البهتان في نسبتِه إلى الجنون ممَّا يُثير سؤالَ مَن يَسأل عمَّاذا صنَع نوحٌ حين كذَّبه قومُه؟ فيجاب بأنَّه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٢-٤٣).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٣٢).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٤).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٣٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٥).

دعا ربَّه تعالىٰ بأن ينصُرَه ويُظفِرَه بهم بسببِ ما كذَّبوه (١).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ كلامِ الكفرة؛ كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سَمِع منهم هذه الأباطيلَ؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٢).

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ ﴾

فتسبَّب عن دعائه أنَّا أوحينا ﴿ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ (٣).

لمَّا أجاب اللهُ دعاءه، قال: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ ﴾ (٤).

﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ ﴾

ولمَّا قدَّم ذلك -لأنَّ دَرْءَ المفاسد بالنَّهيِ عمَّا لا يُرضِي أَوْلىٰ مِن جَلْبِ المصالح-، أتبعه الأمرَ بالشُّكر، فقال: ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٥).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٥٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٢).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٣٤).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا أشار له بهذا القولِ إلىٰ السَّلامة بالحَمْلِ، أتبَعه الإشارةَ إلىٰ الوعدِ بإسكان الأرض، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[(١)].

ثم أمَره أن يدعوَه بأن يُنزِلَه مُنزَلًا مباركًا[(٢)].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه القِصَّةُ مِن أغرَبِ القِصص، حَثَّ علىٰ تدبُّرها بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[(٣)].

لمَّا ذكَر هذه القِصَّةَ العظيمة، أعقَبها بالتَّنبيهِ إلىٰ موضع العِبْرة منها للمسلمين، فأتىٰ بهذا الاستئنافِ لذلك[(٤)].

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه وتعالى تكذيبَهم وما عذَّبهم به، وكان القياس مُوجِبًا لأنَّ مَن يأتي بعدهم يَخشَىٰ مِثْلَ مصرعِهم، فيسلُكُ غيرَ سبيلِهم، ويقولُ غيرَ قِيلِهم؛ بيَّن أنَّه لم تنفعْهم العِبْرةُ، فارتكَبوا مثلَ أحوالهم، وزادوا علىٰ أقوالهم وأفعالهم؛ لإرادةِ ذلك مِن الفاعلِ المختار، الواحدِ القهَّار، وأيضًا فإنَّه لمَّا كان المقصودُ -مع التَّهديدِ والدَّلالة علىٰ القدرة والاختيار- الدَّلالةُ علىٰ تخصيصِ المؤمنين بالفلاحِ والبقاء بعد الأعداء، وكان إهلاكُ المترَفِينَ أدَلَّ علىٰ ذلك؛ اقتصَر علىٰ ذِكْرِهم وأبهَمهم ليَصِحَّ تنزيلُ قِصَّتِهم علىٰ كلِّ مَن ادَّعىٰ فيهم الإترافَ مِن الكفرة، ويَترجَّح إرادةُ عادٍ: لِما

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٣٤).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٥٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٨).

أُعطُوا مع ذلك مِن قوَّةِ الأبدان، وعِظَمِ الأجسام، وبذلك قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، وإرادةُ ثمودَ: لِما في «الشعراء» و«القمر» ممَّا يُشابِهُ بعضَ قولهم هنا، وللتَّعبير عن عذابِهم بالصَّيحة، ولموافقتِهم لقومِ نوحٍ في تعليل رَدِّهم بكونه بشَرًا، وطوىٰ الإخبارَ عمَّن بعدهم بغيرِ التَّكذيبِ والإهلاك لعدم الحاجةِ إلىٰ ذِكْرِ شيءٍ غيره، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾(١).

تعقيبُ قِصَّةِ نوحٍ عليه السلام وقومه بقِصَّةِ رسولٍ أخرىٰ، وما بعدها مِن القصص يُراد منه أنَّ ما أصاب قومَ نوحٍ علىٰ تكذيبهم له لم يكُنْ صُدْفةً، ولكنَّه سُنَّةُ الله في المكذِّبين لرُسلِه؛ ولذلك لم يعيِّنِ القَرْنَ ولا القرونَ بأسمائهم(٢).

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

فتعقَّب إنشاءَنا لهم وتسبَّب عنه أنْ أرسَلْنا ﴿فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٣).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فلم يُؤمِنوا، ولم يَتَّقوا دَأْبَ قومِ نوحٍ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٣٥-١٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٣٦-١٣٧).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٣٨).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ حكايةٌ لقولهم الباطلِ إثرَ حكايةِ القول الحقِّ الذي يَنطِقُ به حكايةُ إرسال الرسول[1].

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فلئن اتَّبعتموه إنَّكم لضالُّون؛ عطَف عليه: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[2].

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾

ثم بيَّنوا إنكارَهم بقولِهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾[3].

والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ للتَّعجُّب، وهو انتقالٌ مِن تكذيبِه في دعوىٰ الرسالة إلىٰ تكذيبِه في المرسَلِ به[4].

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبله مِن زَجْرِهم عن اتباعِه عليه السلام بإنكارِ وقوع ما يدعوهم إلىٰ الإيمانِ به واستبعادِه[5].

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾

ثم استأنفوا التَّصريحَ بما دلَّ عليه الكلامُ مِن استبعادهم ذلك، فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[6].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٣٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٣).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣٣).

(٦) نظم الدرر (١٣/ ١٣٩).

جملةُ ﴿هَيْهَاتَ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾؛ فلذلك فُصِلتْ ولم تُعطَفْ[1].

ثم لم يَقتصروا على هذا القَدْرِ حتى قرَنوا به الاستبعادَ العظيم؛ وهو قولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كانوا بهذا التَّأكيدِ في التَّبعيد، كأنَّهم قالوا: إنَّا لا نُبعَث أصلًا؛ اتَّصل به: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3].

قولُه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ يجوز أن يكونَ بيانًا للاستبعاد الذي في قولِه: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، واستدلالًا وتعليلًا له، ولكِلا الوجهينِ كانت الجملةُ مفصولةً عن التي قبلها[4].

ثم أكَّدوا الشُّبْهةَ بقولِهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما هذا الكلامُ الذي يقوله؟ فقيل: كَذِبٌ، ثم حصَروا أمرَه في الكذبِ، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

(٦) نظم الدرر (١٣/ ١٤٠).

ثم جاءت جملة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ نتيجةً عَقِبَ الاستدلالِ، فجاءت مستأنَفةً؛ لأنَّها مستقِلةٌ علىٰ ما تقدَّمها، فهي تصريحٌ بما كُني عنه آنفًا في قولِه: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وما بعده مِن تكذيبِ دعوته، فاستخلَصوا مِن ذلك أنَّ حالَه مُنحصِرٌ في أنَّه كاذبٌ علىٰ الله فيما ادَّعاه مِن الإرسال(١).

ولمَّا فرَغوا مِن الطَّعن في صحَّةِ الحشر، بنَوْا عليه الطَّعنَ في نبوَّتِه، فقالوا: لمَّا أتىٰ بهذا الباطلِ، فقد افترىٰ علىٰ اللهِ كذبًا، ثم لمَّا قرَّروا الشُّبْهةَ الطاعنة في نبوَّتِه، قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ القومَ كالتَّبَعِ لهم(٢).

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم استأنَف قوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِي مِن صدِّ الملأِ الناسَ عن اتِّباعِه وإشاعتِهم عنه أنَّه مُفْترٍ علىٰ اللهِ وتلفيقِهم الحُجَجَ الباطلة علىٰ ذلك ممَّا يُثير سؤالَ سائلٍ عمَّا كان مِن شأنِه وشأنهم بعد ذلك، فيُجاب بأنَّه توجَّه إلىٰ اللهِ الذي أرسَله بالدُّعاء بأن ينصُرَه عليهم(٤).

اعلَمْ أنَّ ذلك الرسولَ لمَّا يَئِس مِن قَبولِ الأكابر والأصاغر، فَزِع إلىٰ ربِّه، و﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٧-٥٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

لمَّا اشتَدَّ كفرُهم، ولم يَنفَعْ فيهم الإنذارُ؛ دعا عليهم نبيُّهم، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[١].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾

فأجابه ربُّه بأنْ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾[٢].

جاء جوابُ دعاءِ هذا الرسولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غيرَ معطوف؛ لأنَّه جرىٰ علىٰ أسلوبِ حكاية المحاوَرات[٣].

أجابه اللهُ تعالىٰ فيما سأل، و﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾[٤].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾

ولمَّا تسبَّب عن دعائه أن تعقب هلاكهم، وعَد اللهُ له بذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾[٥].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ تقتضي الفاءُ تعجيلَ إجابةِ دعوة رسولهم[٦].

ثم بيَّن تعالىٰ الهلاكَ الذي أنزله عليهم بقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٧].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٥١).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٤٠).

(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ٥٩).

(٧) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦).

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت عادةُ المكذِّبين أن يقولوا تكذيبًا: هذا تعريضٌ لنا بالهلاك، فصَرِّحْ، ولا تَدَعْ جُهْدًا في إحلالِه بنا، والتَّعجيلِ به إلينا؛ فإنَّا لا نَدَعُ ما نحن عليه لشيءٍ، وكان العرَبُ أيضًا قد ادَّعَوْا أنَّ العادةَ بموتِهم وإنشاءِ مَن بعدهم شيئًا فشيئًا لا تنخرِمُ؛ قال تعالىٰ رادعًا لهم: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾(١).

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ثم أخبَر بأنَّه لم يعجِّلْ علىٰ أحدٍ منهم قبل الأجلِ الذي حدَّه له بقولِه: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾(٢).

ثم بيَّن سبحانه كمالَ عِلْمِه وقُدْرته في شأنِ عباده، فقال: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾(٣).

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا كان قد أملىٰ لكلِّ قومٍ حتىٰ طال عليهم الزمنُ، فلمَّا لم تَهدِهم عقولُهم لِما نصَب لهم مِن الأدلة، وأسبَغ عليهم مِن النِّعَم، وأحَلَّ بالمكذِّبين قبلهم مِن النِّقَم؛ أرسَل فيهم رسولًا، دلَّ علىٰ ذلك بأداةِ التراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٤١-١٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٤٢).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٤٢).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ رُسُلَه كانوا بعد هذه القرونِ متواتِرين، وأنَّ شأنَ أُمَمِهم كان واحدًا في التَّكـذيب لهـم، فقـال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولـمَّا كان آلُ فِرْعونَ قد أنكَروا الإيمانَ لبشَرٍ مِثْلِهم، كما قال مَن تقدَّم ذِكْرُه مِن قومِ نوحٍ والقَرْنِ الذي بعدهم، وكانوا أترَفَ أهلِ زمانهم، وأعظَمَهم قوَّةً، وأكثرهم عُدَّةً، وكانوا يَستعبدون بني إسرائيلَ، وكان قد نُقِل إلينا مِن الآيات التي أظهَر رسولُهم ما لم يُنقَلْ إلينا مثلُه لِمَن تقدَّمَه؛ صرَّح سبحانه بهم، وكأنَّ الرسالةَ إليهم كانت بعد فترةٍ طويلـة، فـدلَّ عليهـا بحـرفِ التراخـي، فقـال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم إنَّه سبحانه حكىٰ عن فِرْعونَ وقومِه صِفتَهم، ثم ذكَر شُبْهتَهم؛ أمَّا صِفتُهم فأمرانِ: أحدهما: الاستكبارُ والأنَفة. والثاني: أنَّهم كانوا قومًا عالِينَ(٣).

ولـمَّا ذكَر الرسولَ، ذكَر المرسَلَ إليه، فقـال: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٤٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٩).

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن استكبارِهم وعلوِّهم إنكارُهم للاتِّباع، قال: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾(١).

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن هذا الإنكارِ التَّكذيبُ، فتسبَّب عنه الهلاكُ؛ قال: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴾(٢).

وتفرَّع علىٰ قولِهم التَّصميمُ علىٰ تكذيبهم إيَّاهما، المَحْكي بقولِه: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾(٣).

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩ ﴾

ولمَّا كان ضَلالُ قومِهما الذين استنقَذْناهم مِن عبوديَّةِ فِرْعونَ وقومِه أعجَبَ، وكان السامعُ مُتشوِّفًا إلىٰ ما كان مِن أمرِهم بعد نصرِهم؛ ذكَر ذلك مُبتدِئًا له بحرفِ التَّوقُّع، مشيرًا إلىٰ حالهم في ضلالِهم؛ تسليةً للنبيِّ ﷺ، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾(٤).

لمَّا ذُكِرتْ دعوةُ موسىٰ وهارونَ لِفرْعونَ وملئه وما ترتَّب علىٰ تكذيبهم مِن إهلاكهم، أُكمِلتْ قِصَّةُ بَعْثةِ موسىٰ بالمهمِّ منها الجاري ومِن بعثةِ مَن سلَف مِن الرُّسل المتقدِّم ذِكْرُهم؛ وهو إيتاءُ موسىٰ الكتابَ لهدايةِ بني إسرائيلَ لحصولِ اهتدائهم؛ ليَبنيَ علىٰ ذلك الاتعاظَ بخلافِهم علىٰ رُسلِهم؛ فإنَّ موعظةَ المكذِّبين

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٥).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٤٧).

رسولَهم بذلك أَوْلىٰ، وهنا وقَع الإعراضُ عن هارونَ؛ لأنَّ رسالتَه قد انتهت؛ لاقتصارِه علىٰ تبليغِ الدعوة لِفرْعونَ وملئه؛ إذ كانت مقامَ محاجَّةٍ واستدلال، فسأل موسىٰ ربَّه إشراكَ أخيه هارونَ في تبليغها؛ لأنَّه أفصَحُ منه لسانًا في بيانِ الحُجَّة، والسلطانِ المبين(١).

ثم حكىٰ سبحانه ما جرىٰ علىٰ قومِ موسىٰ بعد إهلاك عدوِّهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٢).

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾

ولـمَّا كان مَن ذُكِر كلُّهم قد رَدُّوا مَن جاءهم لإشعارِهم استبعادَهم لأن يكونَ الرُّسلُ بشرًا، وكان بنو إسرائيلَ الذين أعَزَّهم اللهُ ونصَرهم علىٰ عدوِّهم وأوضَح لهم الطريقَ بالكتاب قد اتخَذوا عيسىٰ عليه السلام -مع كونه بشَرًا- إلهًا؛ أتبَع ذلك ذِكْرَه تعجيبًا مِن حالِ المكذِّبين في هذا الصُّعودِ بعد ذلك النزول في أمرِ مَن أُرسِلوا إليهم، وجرَتْ علىٰ أيديهم الآياتُ لهدايتهم، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾

ولـمَّا بيَّن أنَّ عيسىٰ عليه السلام علىٰ منهاجِ إخوانه مِن الرُّسلِ في الأكلِ والعبادة، وجميعِ الأحوال؛ زاد في تحقيقِ ذلك بيانًا لِمَن ضلَّ بأن اعتقَد فيه ما لا يَليق به، فقال مخاطِبًا لجميعهم بعد إهلاك مَن عانَدهم مِن قومهم علىٰ وجهٍ يَشمَل ما قبل ذلك؛ ردًّا لِمَن

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٤٨).

جعَله مُوجبًا لإنكار الرسالة، وتبكيتًا لِمَن ابتدَع الرَّهبانيَّةَ مِن أمَّة عيسىٰ عليه السلام؛ إعلامًا بأنَّ كلَّ رسولٍ قيل له معنىٰ هذا الكلام، فعَمِل به، فكانوا كأنَّهم نُودوا به في وقتٍ واحدٍ، فعبَّر بالجمع ليكونَ أفخَمَ له، فيكونَ أدعىٰ لقَبوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، والغرضُ مِن هذا بيانُ كرامةِ الرُّسل عند الله، ونزاهتِهم في أمورهم الجسمانيَّة والرُّوحانيَّة؛ فالأكلُ مِن الطيِّبات نزاهةٌ جسميةٌ، والعملُ الصالح نزاهةٌ نفسانيةٌ، والمناسبةُ لهذا الاستئنافِ هي قوله: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾، وليحصُلَ مِن ذلك الردُّ علىٰ اعتقادِ الأقوام المعلِّلين تكذيبَهم رُسُلَهم بعلَّةِ أنَّهم يأكلون الطعامَ، وليبطُلَ بذلك ما ابتدَعه النصارىٰ مِن الرَّهبانية(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ حكايةٌ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم علىٰ وجهِ الإجمال لِما خُوطِب به كلُّ رسول في عصرِه، جيء بها إثرَ حكايةِ إيواءِ عيسىٰ عليه السلام وأمِّه إلىٰ الرَّبْوة؛ إيذانًا بأنَّ ترتيبَ مبادئِ التَّنعُّم لم يكُنْ مِن خصائصِه صلى الله عليه وسلم؛ بل إباحةُ الطيِّبات شرعٌ قديمٌ جرىٰ عليه جميعُ الرُّسلِ عليهم السلام، ووصَّوْا به(٣).

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾

ولمَّا كان هذا تعليلًا لِما سبَقه مِن الأمر، عطَف علىٰ لفظِه قولَه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٥٥).

يجوز أن تكونَ الواوُ عاطفةً على جملةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ إلخ، فيكونَ هذا ممَّا قيل للرُّسل؛ والتَّقدير: وقُلْنا لهم: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية، ويجوزُ أن تكونَ عطفًا على قِصَصِ الإرسال المبدوءة مِن قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾؛ لأنَّ تلك القِصَصَ إنَّما قُصَّتْ عليهم ليَهتدوا بها إلى أنَّ شأنَ الرُّسل منذ ابتداءِ الرسالة هو الدعوةُ إلى توحيدِ الله بالإلهيَّة[(١)].

استئنافٌ داخلٌ فيما خُوطِب به الرُّسلُ عليهم السلام على الوجهِ المذكور، مسُوقٌ لبيانِ أنَّ ملَّةَ الإسلامِ والتوحيد ممَّا أُمِر به كافَّةُ الرُّسلِ عليهم السلام، والأُمَمِ[(٢)].

﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ قطعًا أنَّ التَّقديرَ: فاتَّقى الأنبياءُ اللهَ الذي أرسَلهم، وتجشَّموا حَمْلَ ما أرسَلهم به مِن عظيمِ الثقل، فدعَوُا العبادَ إليه، وأرادوا جَمْعَهم عليه؛ عطَف عليه بفاءِ السَّبب قولَه مُعبِّرًا بفعل التَّقطُّع لأنَّه يفيدَ التَّفرُّق: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[(٣)].

جيء بفاءِ التعقيب لإفادةِ أنَّ الأُمَم لم يَتريَّثوا عَقِب تبليغِ الرُّسل إيَّاهم، فاتخَذوا آلهةً كثيرة، فصار دِينُهم متقطِّعًا قِطَعًا، لكلِّ فريقٍ صنَمٌ وعبادة خاصة به[(٤)].

ثم قَصَّ ما وقَع مِن أُمَم الرُّسلِ بعدهم مِن مخالفةِ الأمر بقولِه تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٢).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٢٩٢).

﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ ﴾

ولمَّا أنتج هذا أنَّ الضَّلالَ وإن وضَح لا يَكشِفُه إلا ذو الجلال، سبَّب عنه سبحانه قولَه تسليةً لرسوله ﷺ: ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[١].

انتقالٌ بالكلام إلىٰ خطابِ النَّبيِّ ﷺ، وضميرُ الجمع عائدٌ إلىٰ معروفٍ مِن السياق؛ وهم مشركو قُرَيش؛ فإنَّهم مِن جملةِ الأحزاب الذين تقطَّعوا أمرَهم بينهم زُبُرًا، والكلامُ ظاهره المُتارَكة؛ والمقصودُ منه الإملاءُ لهم، وإنذارُهم بما يَستقبلهم مِن سُوءِ العاقبة في وقتٍ ما[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ مَن ذكَر مِن الأُمَم، ومآلَ أمرِهم مِن الإهلاك حين كذَّبوا الرُّسلَ؛ كان ذلك مثالًا لقُرَيشٍ، فخاطَب رسولَه ﷺ في شأنهم بقولِه: ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، وهذا وعيدٌ لهم؛ حيث تقطَّعوا في أمرِ رسول اللهِ ﷺ؛ فقائلٌ: هو شاعر، وقائل: ساحر، وقائل: به جِنَّةٌ[٣].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ تفرُّقَ هؤلاء في دِينِهم، أتبعَه بالوعيد، وقال: ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٤].

﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ ﴾

ولمَّا كان الموجِبُ لغرورهم ظَنَّهم أنَّ حالَهم في بسطِ الأرزاق مِن الأموال والأولاد حالُ الموعود، لا المتوعَّدِ؛ أنكَر ذلك عليهم تنبيهًا لِمَن سبقَتْ له السعادةُ، وكُتِبتْ له الحسنىٰ وزيادةٌ، فقال: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٤).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٦٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٢).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٥٨).

الأشبَهُ أن تكونَ هذه الجملةُ بدلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ باعتبارِ أنَّ جملةَ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ تشتمِلُ علىٰ معنَىٰ عدمِ الاكتراث بما هم فيه مِن الأحوال التي ألهَتْهم عن النظَرِ في دعوةِ الإسلام، وغرَّتْهم بأنَّهم بمحَلِّ الكرامةِ علىٰ الله بما خوَّلهم مِن العِزَّةِ والتَّرف، وما تشتمِلُ عليه مِن التوعُّد بأنَّ ذلك له نهايةٌ ينتهون إليها، وأنَّ اللهَ أعطاهم ما هم فيه زمَنَ النِّعْمةِ استدراجًا لهم[(١)].

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لمَّا كان القومُ في نِعَمٍ عظيمة في الدُّنيا، جاز أن يظُنُّوا أنَّ تلك النِّعَمَ كالثوابِ المعجَّلِ لهم علىٰ أديانهم؛ فبيَّن سبحانه أنَّ الأمرَ بخلافِ ذلك، فقال: ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أهلَ الافتراق، أتبَعهم أهلَ النفاق، فكان كأنَّه قيل: فمَن الذي يكون له الخيراتُ؟ فأُجيبَ بأنَّه الخائفُ مِن الله، فقيل معبِّرًا بما يناسب أوَّلَ السُّورة مِن الأوصاف، بادئًا بالخشيةِ لأنَّها الحاملةُ علىٰ تجديدِ الإيمان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾[(٣)].

هذا الكلامُ مقابل ما تضمَّنتْهُ الغَمْرةُ مِن قولِه: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ مِن الإعراضِ عن عبادة الله وعن التصديقِ بآياته، ومِن إشراكهم آلهةً مع الله، ومِن شُحِّهم عن الضعفاءِ وإنفاقِ مالهم في اللذَّات، ومِن تكذيبِهم بالبعث؛ كلُّ ذلك ممَّا شَمِلتْهُ الغَمْرة، فجيءَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٥٩).

في مقابلِها بذِكْرِ أحوالِ المؤمنين ثناءً عليهم، فكانت هذه الجملةُ كالتفصيلِ لإجمال الغَمْرة مع إفادةِ المقابَلة بأحوالِ المؤمنين(١).

لمَّا فرَغ مِن ذِكْرِ الكفرة وتوعَّدَهم، عقَّب ذلك بذِكْرِ المؤمنين ووعَدَهم، وذكَرهم بأبلَغِ صفاتِهم(٢).

لمَّا ذمَّ مَن تقدَّم ذِكْرُه بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ثم قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾؛ بيَّن بعده صفاتِ مَن يسارِعُ في الخيرات، ويشعُرُ بذلك؛ وهي أربعة: الصفة الأُولىٰ: قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(٣).

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ مَن له المسارَعة في الخيرات إثرَ إقناطِ الكفار عنها، وإبطالِ حِسْبانِهم الكاذبِ(٤).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الذين جمَعوا بين الإساءةِ والأمن، الذين يزعُمون أنَّ عطاءَ الله إيَّاهم في الدُّنيا دليلٌ علىٰ خيرِهم وفضلِهم؛ ذكَر الذين جمَعوا بين الإحسانِ والخوف، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾

الصفةُ الثانية: قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٦).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٦٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٢).
(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٣٩).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٥٤).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا كان المؤمنُ قد يَعرِضُ له ما تقدَّم في إيمانه مِن شِرْكٍ جليٍّ أو خفيٍّ، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾(١).

ثم ذكَر نَفْيَ الإشراكِ؛ وهو عبادتُهم آلهتَهم التي هي الأصنام؛ إذ لكفارِ قُريشٍ أن تقولَ: نحن نؤمن بآياتِ ربِّنا، ونصدِّقُ بأنَّه الخالق(٢).

الصفة الثالثة: قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾(٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا أثبَت لهم الإيمانَ الخالص، نفىٰ عنهم العُجْبَ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾(٤).

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾، واعلَمْ أنَّ ترتيبَ هذه الصفاتِ في نهاية الحُسْنِ؛ لأنَّ الصفةَ الأُولىٰ: دلَّتْ علىٰ حصولِ الخوف الشديد الموجِبِ للاحتراز عمَّا لا ينبغي. والصفة الثانية: دلَّتْ علىٰ تركِ الرياء في الطاعات. والصفة الثالثة: دلَّتْ علىٰ أنَّ المستجمِعَ لتلك الصفاتِ الثلاثة يأتي بالطاعاتِ مع الوَجَلِ والخوف مِن التقصير؛ وذلك هو نهايةُ مَقاماتِ الصِّدِّيقين، رزَقنا اللهُ سبحانه الوصولَ إليها(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٥٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٥٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣).

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

ثـم أثبـتَ لهـم مـا أفهـمَ أنَّ ضِـدَّه لأضـدادهم، فقـال: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[١].

ثـم إنَّـه سـبحانه لمَّـا ذكَـر هـذه الصفاتِ للمـؤمنين المخلِصـين، قـال بعـده: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٢].

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

تذييلٌ لِما تقدَّم مِن أحوالِ الذين مِن خشيةِ ربِّهم مشفقون؛ لأنَّـه لمَّـا ذكَـر مـا اقتضـى مخالفةَ المشـركين لِمـا أُمِروا بـه مِـن توحيـدِ الـدِّين، وذكَـر بعـده مـا دلَّ علـى تقـوى المـؤمنين بالخشـيةِ وصـحَّة الإيمـان والبَـذْلِ ومسـارعتِهم في الخيـرات؛ ذيَّـل ذلـك بأنَّ اللهَ ما طلَب مِن الذين تقطَّعوا أمرَهم إلا تكليفًا لا يشُقُّ عليهم، وبأنَّ اللهَ عذَر مِن المؤمنين مَن لم يبلُغوا مَبلَغَ مَن يفُوتُهم في الأعمال عذرًا يقتضي اعتبارَ أجرِهم على ما فاتهم إذا بذَلوا غايةَ وُسْعِهم[٣].

لمَّا ذكَر كيفيَّةَ أعمالِ المؤمنين المخلِصين، ذكَر حُكمَينِ مِن أحكـامِ أعمـال العبـاد؛ فالأول: قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والثاني: قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٦٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٧٨-٧٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٤).

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، سِيقتْ للتَّحريض علىٰ ما وُصِف به السابقون مِن فعلِ الطاعات المؤدِّي إلىٰ نيلِ الخيرات؛ ببيانِ سهولتِه، وكونِه غيرَ خارجٍ عن حدِّ الوُسْعِ والطاقة[1].

ولمَّا ذكَر مسارعتَهم إلىٰ الخيرات وسَبْقَهم إليها، ربما وَهِم واهمٌ أنَّ المطلوبَ منهم ومِن غيرهم أمرٌ غيرُ مقدور، أو متعسِّرٌ؛ أخبَر تعالىٰ أنَّه لا يكلِّفُ ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: ولكنَّهم بذلك لا يَعلَمون، قال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾[3].

إضرابُ انتقالٍ إلىٰ ما هو أغرَبُ ممَّا سبَق؛ وهو وصفُ غَمْرةٍ أخرىٰ انغمَس فيها المشركون؛ فهُمْ في غَمْرةٍ غمَرتْ قلوبَهم، وأبعدتها عن أن تَتخلَّقَ بخُلُقِ الذين هم مِن خشيةِ ربِّهم مشفقون، كيف وأعمالُهم علىٰ الضدِّ مِن أعمالِ المؤمنين تناسِبُ كُفْرَهم! فكلٌّ يَعمَل علىٰ شاكلتِه[4].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضرابٌ عمَّا قبله، ورجوعٌ إلىٰ بيانِ حال الكفرة[5].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤١).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٥٤).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٦٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٠).
(٥) روح المعاني (٩/ ٢٤٦).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ ﴾

ولمَّا كانوا كالبهائم لا يخافون مِن المَهلكةِ إلا عند المشاهدة، غيَّا[1] عمَلَهم للخبائثِ بالأخذ، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾[2].

ثم رجَع سبحانه إلىٰ وصفِ الكفار، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾[3].

﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ ﴾

فكأنَّه قيل: فهل يَقبَل اعتذارَهم أو يَرحَم انكسارهم؟ فقيل: لا، بل يقالُ لهم بلسانِ الحال أو القال: ﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾[4].

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ إقناطهم، وعدمِ انتفاعهم بجُؤَارِهم[5][6].

ثم أخبَر سبحانه أنَّه يقال لهم حينئذٍ علىٰ جهةِ التبكيت: ﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾[7].

﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ۝٦٦ ﴾

ثم علَّل عدمَ نصرِه لهم بقولِه: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴾[8].

---

(١) أي: جعل له غاية.
(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٦٢).
(٣) فتح القدير (٣/ ٥٧٩).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٦٣).
(٥) أي: ارتفاع أصواتهم.
(٦) روح المعاني (٩/ ٢٤٩).
(٧) فتح القدير (٣/ ٥٨٠).
(٨) نظم الدرر (١٣/ ١٦٣).

لمَّا بيَّن فيما قبلُ أنَّه لا ينصُرُ أولئك الكفارَ، أتبعه بعلَّةِ ذلك؛ وهي أنَّه متىٰ تُلِيتْ آياتُ الله عليهم، أتَوْا بأمورٍ ثلاثة: أحدها: أنَّهم كانوا علىٰ أعقابِهم يَنكِصون[1].

فكأنَّه قيل: ما السبب الذي أوصَلهم إلىٰ هذا الحالِ؟ قال: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾[2].

ثم عدَّد سبحانه عليهم قبائحَهم توبيخًا لهم، فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾[3].

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم ذكَر الأمرَ الثانيَ الذي إذا تُلِيتْ عليهم آياتُ الله، أتَوْا به؛ وهو الاستكبارُ بالبيت، وأنَّهم أهلُه، فقال: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت الآياتُ -لِما فيها مِن البلاغةِ المُعجِزة، والحِكَمِ المُعجِبة- داعيةً إلىٰ تقبُّلها بعد تأمُّلها، وكانوا يُعرِضون عنها، ويفحُشون في وصفِها تارةً بالسِّحر وأخرىٰ بالشِّعر، وكَرَّةً بالكِهانة ومرَّةً بغيرِها؛ تسبَّب عن ذلك الإنكارُ عليهم، فقال مُعرِضًا عنهم إيذانًا بالغضب، مُسنِدًا إلىٰ الجمعِ الذي هو أَوْلىٰ بإلقاءِ السَّمع: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٥٤).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٨٠).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٦٤).

ثم بيَّن سبحانه سببَ إقدامِهم على الكفر، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ولمَّا كان الرجُلُ الكامل مَن عرَف الرجالَ بالحقِّ، بدأ بما أشار إليه، ثم أعقبه بمَن يَعرِفُ الشيءَ للإلفِ به، ثم بمَن يَعرِفُ الحقَّ بالرجالِ، فقال: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[١].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن التَّوبيخ بما ذُكِر إلى التَّوبيخ بوجهٍ آخرَ[٢].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا فرَغ بما قد يجُرُّ إلى الطعنِ في القول أو القائل، أشار إلى العنادِ في أمرِ القائل والقول والرسول بقولِه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾[٣].

ولمَّا كان البشَرُ قد يَعرِض له ما يسلُبُ خصالَه -وهو اختلالُ عقلِه-، عطَف على ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ قولَه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾، وهو الاستفهام الرابع[٤].

ثم وبَّخهم رابعًا بأنَّهم نسَبوه إلى الجِنِّ وقد علِموا أنَّه أرجَحُهم عقلًا، وأثقبُهم ذهنًا[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٦٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤٣).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٦٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٩).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٥٧٤).

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ولمَّا كان ربما قيل: ما لَه؟ ما كانَ[1] بحسَبِ أهوائهم؟ فكانوا يتَّبِعونه ويستريحُ ويستريحون مِن هذه المخالَفات، التي جرَّتْ إلىٰ المشاحَنات، فأوجَبتْ أعظَمَ المقاطَعات؛ قال مُبيِّنًا فسادَ ذلك، ولعلَّه حالٌ مِن فاعلٍ كارهٍ، فإنَّ جزاءَه خبَريٌّ مسوِّغٌ لكونه حالًا، أو هو معطوفٌ علىٰ ما تقديرُه: فلو تركوا الكُرْهَ لأحَبُّوه، ولو أحَبُّوه لاتَّبَعوه، ولو اتَّبَعوه لانصلَحوا وأصلَحوا: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[2].

عُطِف هذا الشرطُ الامتناعي علىٰ جملةِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ زيادةً في التَّشنيعِ علىٰ أهوائهم؛ فإنَّها مفضيةٌ إلىٰ فسادِ العالم ومَن فيه، وكفىٰ بذلك فظاعةً وشناعةً[3].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الحقَّ لا يتَّبِعُ الهوىٰ، بل الواجبُ علىٰ المكلَّف أن يطَّرِحَ الهوىٰ، ويتَّبِعَ الحقَّ، فبيَّن سبحانه أنَّ اتباعَ الهوىٰ يؤدي إلىٰ الفسادِ العظيم، فقال: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[4].

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّ أهواءهم الزائغةَ التي ما كَرِهوا الحقَّ إلا لعدمِ موافقتِه إياها مقتضيةٌ للطامَّة[5].

---

(١) أي: لماذا لم يكن علىٰ وفق أهوائهم؟

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٩١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤٤).

فإن قيل: لِمَ لَمْ يكُنِ الحقُّ موافقًا لأهوائهم لأجلِ أن يؤمنوا ويُسرِعوا الانقيادَ؟ أجاب تعالىٰ بقولِه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[(١)].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

ولمَّا أبطَل تعالىٰ وجوهَ طعنِهم في المرسَلِ به والمرسَلِ مِن جهةِ جهلهم مرةً، ومِن جهةِ ادعائهم البطلانَ أخرىٰ؛ نبَّههم علىٰ وجهٍ آخرَ هم أعرَفُ الناس ببطلانه؛ ليُثبِتَ المدَّعَىٰ مِن الصحَّة إذا انتفَتْ وجوهُ المطاعن، فقال مُنكِرًا: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٢)].

ثم بيَّن سبحانه أنَّه ﷺ لا يَطمَعُ فيهم حتىٰ يكونَ ذلك سببًا للنُّفرة، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٣)].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ دعوةَ نبيِّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم ليست مشُوبةً بأطماعِ الدُّنيا، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٤)].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا كانت عظَمةُ المَلِكِ مقتضيةً لتقبُّلِ ما أتىٰ به، والتَّشرُّفِ به علىٰ أيِّ حالٍ كان؛ نبَّه علىٰ أنَّه حقٌّ يكسِب قَبولُه الشَّرفَ لو لم يكُنْ مِن عندِ المَلِكِ، فكيف إذا كان مِن عندِه؟ فكيف إذا كان مَلِكَ الملوك، ومالكَ المُلْكِ؟ فكيف إذا كان الآتي به خالصةَ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٦٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٧).

(٤) فتح القدير (٣/ ٥٨٤).

العباد، وأشرَفَ الخَلْقِ؟! كما قام عليه الدَّليلُ بنَفْيِ هذه المطاعنِ كلِّها، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

أُعقِبَ تنزيهُ الرسول ﷺ عمَّا افترَوْهُ عليه بتنزيهِ الإسلام عمَّا وسَمُوه به مِن الأباطيلِ، والتَّنزيهِ بإثباتِ ضدِّ ذلك؛ وهو أنَّه صراطٌ مستقيمٌ؛ فالكلام تعريضٌ بالذين اعتقَدوا خلافَ ذلك، وإطلاقُ الصراطِ المستقيم عليه مِن حيث إنَّه موصِّلٌ إلىٰ ما يَتطلَّبه كلُّ عاقلٍ مِن النَّجاةِ وحصولِ الخير، فكما أنَّ السائرَ إلىٰ طَلِبَتِه لا يبلُغُها إلا بطريقٍ، ولا يكون بلوغُه مضمونًا ميسورًا إلا إذا كان الطريقُ مستقيمًا؛ فالنبيُّ ﷺ لمَّا دعاهم إلىٰ الإسلامِ، دعاهم إلىٰ السَّيرِ في طريقٍ موصلٍ بلا عناءٍ(٢).

لمَّا زيَّف طريقةَ القوم، أتبَعه ببيانِ صحَّةِ ما جاء به الرسولُ ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

ثم لمَّا أثبَتَ سبحانه لرسولِه مِن الأدلةِ الواضحة المقتضية لقَبولِ ما جاء به، ونفَىٰ عنه أضدادَ ذلك؛ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

مسُوقٌ للتَّعريض بالمنكِرين علىٰ ما دعاهم إليه النَّبيُّ ﷺ، والغرضُ منه ما تُنبِئُ به الصلةُ مِن سببِ تنكُّبهم عن الصراطِ المستقيم؛ أنَّ سببَه عدمُ إيمانهم بالآخرة(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٩٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٧).

(٤) فتح القدير (٣/ ٥٨٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٨/ ٩٨).

ثم أخبَر أنَّ مَن أنكَر المَعادَ ناكبٌ عن هذا الصراطِ؛ لأنَّه لا يسلُكُه إلا مَن كان راجيًا للثواب، خائفًا مِن العقاب(١).

ثم وصَفهم سبحانه بأنَّهم على خلافِ ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾(٢).

﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾

ولمَّا وُصِفوا بالميل، وكان ربما قال قائلٌ: إنَّ جُؤَارَهم المذكور آنفًا سلوكٌ في الصراطِ؛ بيَّن أنَّه لا اعتدادَ به لعُروضِه، فقال: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾(٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾، وما بيْنهما اعتراضاتٌ باستدلالٍ عليهم، وتنديمٍ وقطعٍ لمعاذيرهم؛ أي: ليسوا بحيث لو استجاب اللهُ جُؤَارَهم عند نزول العذابِ بهم، وكشَف عنهم العذابَ، لعادُوا إلى ما كانوا فيه مِن الغَمْرةِ والأعمال السيِّئة؛ لأنَّها صارت سجيَّةً لهم لا تَتخلَّف عنهم(٤).

ثم بيَّن سبحانه أنَّهم مُصِرُّون على الكفر لا يَرجِعون عنه بحالٍ، فقال: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٧٦).
(٢) فتح القدير (٣/ ٥٨٤).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٧٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٩٩).
(٥) فتح القدير (٣/ ٥٨٤).

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ثم أتبَع هذا الدَّليلَ تأييدًا له ما يدلُّ علىٰ أنَّهم لا يسلُكون الصراطَ إلا اضطرارًا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[(١)].

استدلالٌ علىٰ مضمونِ قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ بسابقِ إصرارِهم علىٰ الشرك، والإعراضِ عن الالتجاء إلىٰ الله، وعدمِ الاتعاظ بأنَّ ما حَلَّ بهم مِن العذابِ هو جزاءُ شِرْكِهم[(٢)].

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ للاستشهادِ علىٰ مضمون الشَّرطيَّة[(٣)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ثم ذكَر بعد عذابِ الدُّنيا عذابَ الآخرة، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ثم التفَت إلىٰ خطابِهم استعطافًا بعتابِهم؛ لأنَّه عند التَّذكيرِ بعذابهم أقربُ إلىٰ إيابهم، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[(٤)].

هذا رجوعٌ إلىٰ غرَضِ الاستدلالِ علىٰ انفرادِ الله تعالىٰ بصفاتِ الإلهيَّة، والامتنانِ بما منَح الناسَ مِن نِعْمةٍ لعلَّهم يشكُرون بتخصيصِه بالعبادة؛ وذلك قد انتقَل عنه مِن

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٧١).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤٦).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٧٢).

قولِه: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾، فانتقَل إلىٰ الاعتبار بآيةِ فُلْكِ نوحٍ عليه السلام، فأُتبعَ بالاعتبارِ بقِصَصِ أقوام الرُّسل عَقِب قولِه تعالىٰ: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ فالجملةُ إمَّا معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾، والغرضُ واحدٌ وما بينهما انتقالاتٌ، وإمَّا مستأنَفةٌ رجوعًا إلىٰ غرضِ الاستدلال والامتنان، وفي هذا الانتقالِ مِن أسلوبٍ إلىٰ أسلوب ثم الرجوعِ إلىٰ الغرض تجديدٌ لنشاطِ الذهن، وتحريكٌ للإصغاءِ إلىٰ الكلام، وهو مِن أساليبِ كلام العرَبِ في خُطَبِهم وطِوالِهم[١][٢].

لمَّا بيَّن إعراضَ الكفار عن سماعِ الأدلة ورؤيةِ العِبَر والتأمُّلِ في الحقائق، خاطَب العالَمَ بأسْرِهم تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن لم يُعمِلْ هذه الأعضاءَ فيما خلَقه اللهُ تعالىٰ، وتدبَّر ما أودَعه فيها مِن الدلائلِ علىٰ وَحدانيَّته وباهرِ قُدْرته؛ فهو كعادمِ هذه الأعضاءِ[٣].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ قُدْرتِه علىٰ البعثِ بآياته المبصِرةِ في الأنفسِ والآفاق، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٤].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم بهذه النِّعَمِ التي هي دالةٌ علىٰ خَلْقِهم، صرَّح به في قولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٥].

---

(١) أي: قصائدهم الطويلة.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٣).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٧٩-٥٨٠).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٩٩).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٧٣).

وهذا امتنانٌ بنِعْمةِ الإيجاد، والحياة، وتيسيرِ التمكُّن مِن الأرض، وإكثارِ النوع؛ لأنَّ الذَّرْءَ يستلزِمُ ذلك كلَّه، وهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِ الله تعالى بالإلهيَّة؛ إذ قد عَلِموا أنَّه لا شريكَ له في الخَلْقِ، فكيف يُشرِكون معه في الإلهيَّةِ أصنافًا هم يَعلَمون أنَّها لا تخلُقُ شيئًا؟! وهو أيضًا استدلالٌ على البعثِ؛ لأنَّ الذي أحيا الناسَ عن عدَمٍ قادرٌ على إعادةِ إحيائهم بعد تقطُّعِ أوصالهم[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠ ﴾

ولمَّا تضمَّن ذلك إحياءَهم وإماتتهم، صرَّح به على وجهٍ عامٍّ، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[2].

وأُعقِب ذِكْرُ الحشرِ بذِكْرِ الإحياء؛ لأنَّ البعثَ إحياءٌ؛ إدماجًا للاستدلالِ على إمكان البعث في الاستدلالِ على عموم التَّصرُّف في العالَم[3].

﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١ ﴾

ولمَّا كان معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ النَّفْيَ، حسُنَ بعده كلَّ الحُسْنِ قولُه: ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾[4].

هذا إدماجٌ لذِكْرِ أصلٍ آخرَ مِن أصولِ الشرك؛ وهو إحالةُ البعثِ بعد الموت، و﴿ بَلۡ ﴾ للإضرابِ الإبطالي إبطالًا لكونِهم يَعقِلون[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٥).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٧٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٦).

ثم بيَّن سبحانه أنَّه لا شُبْهةَ لهم في إنكارِ البعث إلا التَّشبُّثُ بحبلِ التَّقليد المبنيِّ على مجرَّدِ الاستبعاد، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(١).

ثم بيَّن تعالى أنَّهم لم يَعتبروا بآياته، ولا تَدبَّروا ما احتَجَّ عليهم مِن الحُجَج الدالة على قُدْرتِه على فعلِ كلِّ ما يشاء، بقولِه: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(٢).

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثم استأنف قولَه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾(٣).

ثم بيَّن ما قاله الأوَّلون، فقال: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾(٤).

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا كان محَطَّ العنايةِ في هذه السُّورةِ الخَلْقُ والإيجاد، والتَّهديدُ لأهلِ العناد؛ حكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(٥).

جملةُ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ تعليلٌ للإنكار، وتقويةٌ له، وقد جعَلوا مستنَدَ تكذيبهم بالبعثِ أنَّه تكرَّر الوعدُ به في أزمانٍ متعدِّدةٍ، فلم يقَعْ، ولم يُبعَثْ واحدٌ مِن آبائهم(٦).

ثم حكى الشُّبْهةَ عنهم مِن وجهينِ: أحدهما: قولُهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وهو مشهورٌ. وثانيهما: قولهم: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ

(١) فتح القدير (٣/ ٥٨٥).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٩٩).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٧٤).
(٤) فتح القدير (٣/ ٥٨٥).
(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٧٥).
(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٧).

وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ ﴾، كأنَّهم قالوا: إنَّ هذا الوعدَ كما وقَع منه ﷺ فقد وقَع قديمًا مِن الأنبياء(١).

ثم كمَّلوا ذلك القولَ بقولِهم: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾(٢).

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولمَّا أنكَروا البعثَ هذا الإنكارَ المؤكَّد، ونفَوْهُ هذا النَّفْيَ المحتَّم؛ أمَره أن يُقرِّرَهم بأشياءَ هم بها مُقِرُّون، ولها عارفون، يَلزمُهم مِن تسليمِها الإقرارُ بالبعث قطعًا، فقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾(٣).

استئنافُ استدلالٍ عليهم في إثباتِ الوَحْدانيَّة لله تعالى، عاد به الكلامُ متَّصِلًا بقولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾(٤).

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا كانوا مُقِرِّين بذلك، أخبَر عن جوابِهم قبل جوابهم -ليكونَ مِن دلائلِ النُّبوَّة، وأعلامِ الرسالة- بقولِه استئنافًا: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٥).

ولذلك أخبَر بجوابهم قبل أن يُجيبوا؛ حيث قيل: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٩).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٨٥).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٩).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٧٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤٧).

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ٨٦ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم بالعالَمِ السُّفْلي لقُرْبِه، تلاه بالعُلْويِّ لأنَّه أعظَمُ، فقال على ذلك المنوالِ مُرقِّيًا لهم إليه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(١).

تكريرُ الأمرِ بالقول، وإن كان المقُولُ مختلِفًا، دُونَ أن تُعطَفَ جملةُ ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾؛ لأنَّها وقَعتْ في سياق التَّعداد، فناسَب أن يعادَ الأمرُ بالقول دُونَ الاستغناءِ بحرف العطف(٢).

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ ﴾

ولمَّا كانوا مُقِرِّين بذلك، أخبَر عن جوابهم قبل جوابهم -ليكونَ مِن دلائل النُّبوة، وأعلام الرسالة- بقولِه استئنافًا: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨ ﴾

ولمَّا قرَّرهم بالعالَمينِ: العُلْويِّ والسُّفْليِّ، أمَره بأن يُقرِّرَهم بما هو أعَمُّ منهما وأعظَم، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

لمَّا ذكَر الأرضَ أولًا، والسماءَ ثانيًا؛ عمَّم الحُكْمَ هاهنا، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٠٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٧٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩٠).

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم استأنف قولَه: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (١).

ثـم عقَّـب بمـا يـدلُّ علىٰ أنَّهـم إذا تـدبَّروا عَلِمـوا، فقيـل: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (٢).

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنكارُ بمعنىٰ النَّفْيِ، حسُنَ قولُه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٣).

إضرابٌ لإبطالِ أن يكونوا مسحورين (٤).

ثـم بـيَّن سـبحانه أنَّـه قـد بـالَغ في الاحتجـاجِ علـيهم، فقـال: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٥).

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ كَذِبِهم ما أشار إليه قولُه تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، قـال: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٦).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١١٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١١٢).

(٥) فتح القدير (٣/ ٥٨٧).

(٦) نظم الدرر (١٣/ ١٨٠).

أتبَع الاستدلالَ علىٰ إثباتِ الوَحْدانيَّة لله تعالىٰ بالاستدلالِ علىٰ انتفاءِ الشركاء له في الإلهيَّة[١].

ثم بيَّن أعظَمَ كَذِبهم، فقال: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ثم أقام دليلًا آخرَ علىٰ كمالِه بوصفه بقولِه: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

أتبَع الاستدلالَ علىٰ انتفاءِ الشريك بقولِه: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣].

ثم نبَّه علىٰ عظَمةِ صفاته بأنموذجٍ مِن ذلك؛ وهو عِلْمُه المحيط، فقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤].

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ولمَّا أقام الدَّليلَ علىٰ كَذِبهم بالأدلةِ علىٰ عظَمتِه، وتَعاليه عن كلِّ ما يقول الظالمون، وبيَّن لهم الأمرَ غايةَ البيان بعد أن هدَّدهم بمثلِ ما أنزَله بالماضين، وأحَلَّه بالمكذِّبين، وكان مِن المعلومِ أنَّه ليس بعد الإعذارِ إلا إيقاعُ القضاء وإنزالُ البلاء، وكان مِن الممكن أن يعُمَّ سبحانه الظالمَ وغيرَه بعذابه؛ لأنَّه لا يُسأل عمَّا

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٨١).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٨١).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١١٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٥٨).

يَفعَل: أمَره أن يَتعوَّذَ مِن ذلك إظهارًا لعظَمةِ الرُّبوبيَّةِ وذلِّ العبوديَّة، فقال: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾[1].

آذَنتِ الآياتُ السابقة بأقصىٰ ضَلالِ المشركين وانتفاءِ عُذْرِهم فيما دانُوا به اللهَ تعالىٰ، وبغضبِ اللهِ عليهم لذلك، وأنَّهم سواءٌ في ذلك مع الأُمَم التي عجَّل اللهُ لها العذابَ في الدُّنيا، وادَّخر لها عذابًا آخرَ في الآخرة، فكان ذلك نِذراةً لهم بمثلِه وتهديدًا بما سيقولونه، وكان مثارًا لخشيةِ النَّبيِّ ﷺ أن يحُلَّ العذابُ بقومه في حياتِه، والخوفِ مِن هَوْلِه، فلقَّن اللهُ نبيَّه أن يَسألَ النجاةَ مِن ذلك العذابِ، وفي هذا التلقينِ تعريضٌ بأنَّ اللهَ منجيهم مِن العذابِ بحِكْمتِه، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ اللهَ يُرِي نبيَّه حلولَ العذاب بمكذِّبيه، كما هو شأنُ تلقينِ الدعاء. فهذه الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عمَّا يختلِجُ في نفسِ رسول اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[2].

لمَّا أقام تعالىٰ علىٰ المكذِّبين أدلتَه العظيمة، فلم يَلتفتوا لها، ولم يُذعِنوا لها؛ حَقَّ عليهم العذابُ، ووُعِدوا بنزولِه، وأرشَد اللهُ رسولَه ﷺ أن يقولَ: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾[3].

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) ﴾

ثم نبَّهه علىٰ الزيادةِ في الضَّراعة بتكريرِ النداء بصفةِ الإحسان تعبُّدًا وتخشُّعًا، وتذلُّلًا وتخضُّعًا؛ إشارةً إلىٰ أنَّ اللهَ سبحانه له أن يَفعَلَ ما يشاء، فينبغي لأقربِ خَلْقِه إليه أن يكونَ علىٰ غايةِ الحذَرِ منه، فقال: ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١١٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٥٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٨٢).

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولمَّا أرشَد التَّعبيرُ بأداةِ الشَّك إلىٰ أنَّ التَّقديرَ: فإنَّا علىٰ العفوِ عنهم وعلىٰ الإملاءِ لهم لقادرون، عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لِما لهم مِن التَّكذيبِ المتضمِّن للطَّعن في القدرةِ وهم المقصودون بالتَّهديد: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾(١).

ثم لمَّا كان المشركون يُنكِرون العذابَ، ويَسخَرون مِن النَّبيِّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم إذا ذكَر لهم ذلك؛ أكَّد سبحانه وقوعَه بقولِه: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾(٢).

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

فكان كأنَّه قال: فماذا أفعل فيما تَعلَم مِن أمرهم؟ فقال آمِرًا له بمداواتِه: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾(٣).

لمَّا أنبأ اللهُ رسولَه ﷺ بما يُلمِّح له بأنَّه مُنجِزٌ وعيدَه مِن الذين كذَّبوه، فعَلِم الرسولُ والمسلمون أنَّ اللهَ ضَمِن لهم النصرَ؛ أعقَب ذلك بأنْ أمَره بأن يَدفَعَ مكذِّبيه بالتي هي أحسَنُ، وألا يَضِيقَ بتكذيبهم(٤).

ثم أمَره تعالىٰ بحُسْنِ الأخلاق، فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٨٣).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٨٧).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٨٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١١٩).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٥٨٣).

ثم أمَره سبحانه بالصبر إلىٰ أن ينقضيَ الأجلُ المضروب للعذاب، فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [(١)].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾

ولمَّا كان الصَّبرُ عليه لا يطاقُ إلا به سبحانه، أمَره بالدُّعاء بذلك، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [(٢)].

لمَّا أمَر اللهُ رسولَه ﷺ أن يفوِّض جزاءهم إلىٰ ربِّه، أمَره بالتعوُّذِ مِن حيلولةِ الشياطين دُونَ الدفعِ بالتي هي أحسَنُ [(٣)].

لمَّا أدَّب رسولَه ﷺ بقولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أتبعه بما به يَقوَىٰ علىٰ ذلك؛ وهو الاستعاذةُ بالله [(٤)].

ثم علَّمه سبحانه ما يُقوِّيه علىٰ ما أرشَده إليه مِن العفوِ والصَّفحِ ومقابَلة السَّيئة بالحسنة، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [(٥)].

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾

ثم أمَره سبحانه أن يَتعوَّذَ بالله مِن حضورِ الشياطين بعدما أمَره أن يَتعوَّذَ مِن همَزاتِهم، فقال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [(٦)].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٨٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٢١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩٢).

(٥) فتح القدير (٣/ ٥٨٨).

(٦) فتح القدير (٣/ ٥٨٨).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾

ولمَّا كان أضَرَّ أوقاتِ حضورِهم ساعةُ الموت، وحالةُ الفوت؛ فإنَّه وقتُ كشفِ الغطاء، عمَّا كُتِب مِن القضاء، وآنَ اللقاء، وتحتَّم السُّفول أو الارتقاء: عقَّب ذلك بذِكْرِه تنبيهًا علىٰ بذلِ الجهد في الدُّعاء، والتَّضرُّع للعصمةِ فيه، فقال منبِّهًا بحرف الغاية علىٰ أنَّه سبحانه يمدُّ في أزمانهم استدراجًا لهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[(١)].

﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ولمَّا كان في تلك الحالةِ علىٰ القطعِ مِن اليأس مِن النَّجاة لليأس مِن العمل لفواتِ دارِه مع وصوله إلىٰ حدِّ الغرغرة، قال: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[(٢)].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

ولمَّا غيَّا ذلك بالبعث، فتشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ ما يكون بعده، وكان قد تقدَّم أنَّ النَّاسَ -بعد أن كانوا أمَّةً واحدةً في الاجتماعِ علىٰ ربِّهم- تَقطَّعوا قِطَعًا، وتحزَّبوا أحزابًا، وتعاضَدوا بحُكْمِ ذلك وتناصَروا؛ قال نافيًا لذلك: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[(٣)].

تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾؛ فإنَّ زمَنَ النَّفخِ في الصُّور هو يومُ البعث[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٨٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٨٥).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٢٥).

لمَّا قال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ذكَر أحوالَ ذلك اليومِ، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[1].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢﴾

فتسبَّب عن ذلك أنَّه لا نُصْرةَ إلا بالأعمال التي رَحِم الله بالتَّيسير لها، ثم رَحِم بقَبولها؛ فلذلك قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾

ثم ذكَر الفريقَ الثاني، فقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾

ثم استأنَف قولَه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[3].

جملةُ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ في موضعِ الحال مِن ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[4].

ثم ذكَر تعالىٰ سُوءَ مصيرِ الكافرين، فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٨٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٢٧).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٥٩).

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا جرَتِ العادةُ بأنَّ المعذَّبَ بالفعل يضُمُّ إليه القِيلَ، أُجيبَ مَن قد يَسأل عن ذلك بقولِه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾

ثم استأنَف جوابَهم بقولِه: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[2].

لمَّا سَمِعوا هـذا التقريرَ، أذعَنوا، وأقَرُّوا علىٰ أنفسِهم بقولِهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[3].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ولمَّا تضمَّن هذا الإقرارُ الاعتذارَ، وكان ذلك ربما سوَّغ الخلاصَ؛ وصَلوا به قولَهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾[4].

ثم طلَبوا ما لا يُجابون إليه، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾[5].

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

استُؤنف جوابُهم بأنْ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ١٨٨).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٨٩).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٨٦).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٨٩).
(٥) فتح القدير (٣/ ٥٩١).
(٦) نظم الدرر (١٣/ ١٨٩).

ثم إنَّ القومَ لمَّا أورَدوا هذينِ العُذْرَينِ، قال لهم سبحانه: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[(١)].

فأجاب اللهُ عليهم بقولِه: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

ولمَّا كانت الشَّماتةُ أسَرَّ السُّرور للشَّامت، وأخزىٰ الخِزْيِ للمشموتِ به؛ علَّل ذلك بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾ إلىٰ آخرِها استئنافٌ قُصِد منه إغاظتُهم بمقابلةِ حالهم يومَ العذاب بحالِ الذين أنعَم اللهُ عليهم، وتحسيرِهم علىٰ ما كانوا يعامِلون به المسلمين[(٤)].

ثم ذكَر الحالَ التي أوصلتهم إلىٰ العذابِ، وقطَعتْ عنهم الرحمةَ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٥)].

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾

ولمَّا تسبَّب عن إيمانِ هؤلاء زيادةُ كفرانِ أولئك، قال: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾[(٦)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٩١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٢٩).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٦٠).

(٦) نظم الدرر (١٣/ ١٩٠-١٩١).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾

ولمَّا تشوَّفتِ النَّفسُ بعد العلم بما فُعِل بأعدائهم إلىٰ جزائهم، قال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(1).

ثم بيَّن سبحانه ما يقتضي فيهم الأسفَ والحسرة بأنْ وصَف ما جازىٰ به أولئك المؤمنين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(2).

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾

ولمَّا كان الفائزُ -وهو الظافرُ- مَن لم يحصُلْ له بؤسٌ في ذلك الأمرِ الذي فاز به، وكان قد أشار سبحانه -بحرفِ الغاية وما شاكَله- إلىٰ أنَّه مَدَّ لأهلِ الشقاء في الدُّنيا في الأعمارِ والأرزاق حتىٰ استهانوا بعبادة السُّعداء، فكان ربما قيل: إنَّ أعداءَهم فازوا بالاستهزاءِ بهم والرِّفعة عليهم في حالِ الدُّنيا، وكان سبحانه قد أسلَف ما يرُدُّ ذلك مِن الإخبار بأنَّه خلَّدهم في النار، وأعرَض عنهم، وزجَرهم عن كلامه، وكان أنعَمُ أهلِ الدُّنيا إذا غُمِس في النارِ غَمْسةً، ثم سُئِل عن نعيمِه، قال: ما رأيتُ نعيمًا قط(3)، فكان ذلك محزًّا لتقريعِ الأشقياء بسببِ تضييع أيامِهم، وتنديمِهم عليها؛ تشوَّف السامعُ إلىٰ أنَّه: هل يَسألهم عن تنعيمِه لهم في الدُّنيا الذي كان جديرًا منهم بالشكرِ، فقابَلوه بالكفرِ والاستهزاء بأوليائه؟ فأجاب تشوُّفَه ذلك -مجهِّلًا لهم، ومندِّمًا، ومنبِّهًا علىٰ الجواب أنَّ فوزَهم في الدُّنيا لقلَّتِه التي هي أحقَرُ مِن قطرةٍ في جَنْبِ بحرٍ عدمٌ- بقولِه: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾(4).

---

(1) نظم الدرر (١٣/ ١٩١).

(2) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩٨).

(3) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

(4) نظم الدرر (١٣/ ١٩٢).

﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

لمَّا سُئلوا عن المدَّةِ التي أقاموا فيها في الأرض، فنَسُوا لفَرْطِ هَوْلِ العذاب، حتىٰ قالوا: يومًا أو بعضَ يوم؛ أجابوا بقولِهم: ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾[(١)].

﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك -علىٰ تقديرِ تسليمه- لا يَنفعُهم؛ لأنَّ الجزاءَ بالعذاب علىٰ عزمِهم علىٰ التَّمادي في العنادِ علىٰ مَرِّ الآباد، المصدَّقِ منهم بالانهماكِ في الفساد: أجابهم إلىٰ قصدِهم في عَدِّهم بعبارةٍ صالحة صادقة علىٰ مُدَّةِ لُبْثِهم طالَ أو قصُرَ، بقولِه علىٰ طريقِ الاستئناف لِمَن تشوَّف إلىٰ معرفةِ جوابهم: ﴿ قَٰلَ ﴾؛ أي: اللهُ علىٰ قراءةِ الجماعة، وبيَّنَتْ قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ أنَّ إسنادَ القولِ إليه سبحانه مجازٌ عن قولِ بعضِ عباده العُظَماء، فقال علىٰ طريقِ الأوَّلِ: ﴿ قُلۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[(٢)].

قولُه: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ هو حكايةٌ للمحاوَرة؛ فلذلك لم يُعطَف[(٣)].

﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان حالُهم في ظنِّهم أن لا بَعْثَ، حتىٰ اشتغَلوا بالفَرَح، والبَطَر والمَرَح، والاستهزاءِ بأهل الله، حالَ مَن يظُنُّ العبَثَ علىٰ اللهِ المَلِك الحقِّ المبين؛ سبَّب عن ذلك عطفًا علىٰ قولِه: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا ﴾ إنكارَه عليهم في قولِه: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٨٨).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٩٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٣١).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ١٩٤).

ثم زاد سبحانه في توبيخهم، فقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١).

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: ليس الأمرُ كما حَسِبتم، علَّل ذلك بقولِه: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(٢).

تفرَّع على ما تقدَّم بيانُه مِن دلائلِ الوَحْدانيَّة والقدرة والحكمة ظهورُ أنَّ اللهَ هو المَلِكُ الذي ليس في اتصافِه بالمُلْكِ شائبةٌ مِن معنى المُلْكِ؛ فمُلْكُه المُلْكُ الكامل في حقيقتِه، الشاملُ في نَفاذِه(٣).

ثم نزَّه سبحانه نفسَه، فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(٤).

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فمَن دعا اللهَ وَحْدَه فأولئك هم المفلِحون الوارثون في الدارينِ، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾(٥).

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ١٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٣٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ٥٩٢).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٩٩).

لمَّا كان أعظَمُ ما دعا اللهُ إليه توحيدَه، وكان أصلُ ضَلالِ المشركين إشراكَهم؛ أُعقِب وَصْفُ الله بالعلوِّ العظيم والقدرةِ الواسعة ببيانِ أنَّ الحسابَ الواقع بعد البعث يَنالُ الذين دعَوْا مع الله آلهةً[1].

ثم زيَّف ما عليه أهلُ الشرك توبيخًا لهم وتقريعًا، فقال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2].

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الأمرُ كذلك، أمَر سبحانه نبيَّه ﷺ بالاجتهادِ في إنقاذِ عباده حتىٰ بالدعاءِ لله في إصلاحِهم؛ ليكونَ الخَتْمُ بالرحمةِ للمؤمنين، كما كان الافتتاحُ بفلاحهم، فقال عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ -فإنَّه لا إحسانَ أحسَنُ مِن الغفرانِ-: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[3].

لمَّا شرَح أحوالَ الكفار في جهلِهم في الدُّنيا وعذابِهم في الآخرة، أمَر بالانقطاعِ إلىٰ الله تعالىٰ، والالتجاءِ إلىٰ دلائلِ غفرانه ورحمته؛ فإنَّهما هما العاصمانِ عن كلِّ الآفات والمَخافاتِ[4].

بُدِئت السورةُ الكريمة بتقريرِ فلاح المؤمنين، وخُتِمت بنَفْيِ الفلاحِ عن الكافرين، ثم أُمِر رسولُ اللهِ ﷺ بالاستغفارِ والاسترحام، فقيل: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٣٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٩٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٠٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٥٤).

سورة النور

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا كان مبنى هذه الدارِ على الأنساب في التَّوارثِ والإمامة والنِّكاح وغيرِ ذلك، ومبنى تلك الدارِ على الأعمال، وكان قد حَثَّ في آخرِ تلك على السَّتر والرحمة؛ حذَّر رحمةً منه في أوَّلِ هذه مِن لَبْسِ الأنساب، وكَسْبِ الأعراض، وقَطْعِ الأسباب، مُعلِمًا أنَّ السَّتْرَ والرِّقَّة ليسا على عمومهما؛ بل على ما يحُدُّه سبحانه، فقال مخاطِبًا للأئمَّة ومَن يُقيمونه: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[(١)].

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ شروعٌ في تفصيلِ ما ذُكِر مِن الآيات البيِّنات، وبيانِ أحكامها[(٢)].

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا كان في ذلك مِن الغلظةِ على الزاني -لِما ارتكَب مِن الحرام المتَّصِف بالعار- ما يُفهِم مجانبتَه، صرَّح به، مانعًا مِن نكاحِ المتَّصِف بالزنا مِن ذكَرٍ وأنثى، إعلامًا

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٠٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٥٥).

بأنَّ وَطْءَ مَن اتصَف به مِن رجُلٍ أو امرأة لا يكون إلا زنًا، وإن كان بعقدٍ، فقال واصلًا له بما قبله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

ثم ذكَر سبحانه شيئًا يختصُّ بالزاني والزانية، فقال: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا نفَّر سبحانه مِن نكاحِ مَن اتصَف بالزِّنا مِن رجُلٍ أو امرأةٍ، وبدأ -لأنَّ نكاحَ المرأة للزاني مظنَّةٌ لزِناها- بتنفيرِ الإناث بما يُوهِم جوازَ إطلاق الزِّنا عليهنَّ بمجرَّد نكاحِ مَن عُلِم زِناه؛ وذلك بعد أنِ ابتدأ في حدِّ الزِّنا بالأنثى أيضًا؛ لأنَّ زِناها أكبَرُ شرًّا، وأعظَمُ فضيحةً وضرًّا: عطَف على ذلك تحريمَ القَذف بما يوجِبُ تعظيمَ الرغبة في السَّتر، وصيانةِ الأعراض، وإخفاءِ الفواحش، فقال ذاكرًا الجمْعَ لأنَّ الحُكْمَ بإقامةِ الحد عليه يُفهِم إقامةَ الحد على الواحد مِن بابِ الأَوْلى، ولا إيهامَ فيه؛ لأنَّ الجمعَ إذا قُوبِل بالجمع أفهَمَ التوزيعَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣).

كان فاشيًا في الجاهليَّة رَمْيُ بعضِهم بعضًا بالزِّنا إذا رأَوْا بَيْنَ النساءِ والرجال تعارفًا أو محادَثةً، وكان فاشيًا فيهم الطَّعنُ في الأنسابِ بهتانًا إذا رأَوْا قلَّةَ شَبهٍ بَيْنَ الأبِ

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) فتح القدير (٤/ ٧).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢١٣-٢١٤).

والابن، فكان ممَّا يقترِنُ بحُكْمِ حدِّ الزِّنا أن يُذيَّلَ بحُكْمِ الذين يرمُون المحصَنات بالزِّنا إذا كانوا غيرَ أزواجِهنَّ؛ وهو حدُّ القذف(١).

لمَّا كانت معصيةُ الزِّنا كبيرةً مِن أمَّهات الكبائر، وكان مُتعاطيها كثيرًا ما يَتستَّر بها فقلَّما يطَّلِعُ أحدٌ عليها؛ شدَّد اللهُ تعالىٰ علىٰ القاذفِ؛ حيث شرَط فيها أربعةَ شُهَداءَ؛ رحمةً بعباده، وسَتْرًا لهم(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ بيانٌ لحُكْمِ العفائف إذا نُسِبْنَ إلىٰ الزِّنا بعد بيانِ حُكْمِ الزَّواني(٣).

ثم بيَّن تعالىٰ حُكْمَ جَلْدِ القاذف للمحصَنة، وهي الحُرَّةُ البالغة العفيفة، بقولِه ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾(٤).

لمَّا عظَّم تعالىٰ أمرَ الزاني بوجوبِ جَلْدِه، وكذا رجمِه إن كان محصَنًا، وأنَّه لا تجوزُ مقارنته ولا مخالطته علىٰ وجهٍ لا يَسلَم فيه العبدُ مِن الشرِّ؛ بيَّن تعالىٰ تعظيمَ الإقدامِ علىٰ الأعراض بالرَّمْيِ بالزِّنا، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾

ولمَّا كان مِن أصلِ الشَّافعي رحمه الله أنَّ الاستثناءَ المتعقِّبَ للجُمَلِ المتواصلة المتعاطفة بالواو عائدٌ إلىٰ الجميع، سواءٌ كانت مِن جنسٍ أو أكثَر، إلا إذا منعَتْ قرينةٌ؛ أعاد

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٥٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٥٧).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٣٢٧).

الاستثناءَ هنا إلىٰ الفسقِ وردِّ الشَّهادةِ دُونَ الحُكْمِ بالجَلْدِ؛ لأنَّ مِن تمام التوبةِ الاستسلامَ للحدِّ، والاستحلالَ منه، ولقرينةِ كونه حقَّ آدميٍّ، وهو لا يسقُطُ بالتَّوبة، في قولِه تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هذا التَّأبيدَ لعدم قَبول شَهادتهم هو مع عدمِ التوبة، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾

ولمَّا كان لفظُ المحصَنات عامًّا للزوجات، وكان لهنَّ حُكْمٌ غيرُ ما تقدَّم؛ أخرَجهنَّ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

هذا تخصيصٌ للعمومينِ اللذين في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ فإنَّ مِن المحصنات مَن هنَّ أزواجٌ لِمَن يرميهنَّ، فخُصَّ هؤلاء الذين يَرمُون أزواجَهم مِن حُكْمِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلخ؛ إذ عُذرَ الأزواجُ خاصةً في إقدامهم علىٰ القولِ في أزواجهم بالزِّنا إذا لم يستطيعوا إثباتَه بأربعةِ شهداء(٤).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا ذكَر أحكامَ قَذْفِ الأجنبيات، عقَّبه بأحكامِ قذفِ الزوجات(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢١٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ١١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢١٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٦١).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٣٠).

ثم ذكَر سبحانه بعد ذِكْرِه لحُكْمِ القذفِ على العموم حُكْمَ نوعٍ مِن أنواعِ القذف؛ وهو قذفُ الزَّوج للمرأة التي تحته بعقدِ النكاح، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾

ثم ذكَر الشَّهادةَ الخامسة المكمِّلة للأربعِ المتقدمة، فقال: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾

فإذا فعَل الزوجُ ذلك، سقَط عنه العذابُ بحدِّ القذف، وأوجَبه على المقذوفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٢].

لمَّا كانت هذه الأيمانُ مقتضيةً صِدْقَ دعوى الزوجِ على المرأة، كان مِن أثرِ ذلك أن تُعتبرَ المرأةُ زانيةً، أو أن يكونَ حملُها ليس منه؛ فهو مِن زِنًا؛ لأنَّها في عصمةٍ، فكان ذلك مقتضيًا أن يقامَ عليها حدُّ الزِّنا، فلم تُهمِلِ الشريعةُ حقَّ المرأة، ولم تَجعَلْها مأخوذةً بأَيْمانٍ قد يكون حالِفُها كاذبًا فيها؛ لأنَّه يُتَّهَمُ بالكذبِ لتبرئة نفسه، فجعَل للزوجةِ معارضةَ أَيْمانِ زوجها كما جعَل للمشهود عليه الطعنَ في الشَّهادة بالتجريح أو المعارضة، فقال تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٣].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٢).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢١٧-٢١٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٦٧).

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾

ثم ذكَر الشَّهادةَ الخامسة المكملة للأربع المتقدمة، فقال: ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، وعيَّن لها الدعاءَ بغضبِ الله عليها إن صدَق زوجُها؛ لأنَّها أغضَبتْ زوجَها بفعلها؛ فناسَب أن يكونَ جزاؤها علىٰ ذلك غضَبَ ربِّها عليها كما أغضَبتْ بعلَها.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا حرَّم اللهُ سبحانه بهذه الجُمَلِ الأعراضَ والأنساب، فصانَ بذلك الدماءَ والأموال؛ عُلِم أنَّ التَّقدير: فلولا أنَّه سبحانه خيرُ الغافرين وخيرُ الراحمين، لَمَا فعَل بكم ذلك، ولفضَح المذنِبين، وأظهَر سرائرَ المُسْتخفِين؛ ففسَد النظامُ، وأطبقتم علىٰ التَّهاونِ بالأحكام، فعطَف علىٰ هذا الذي عُلِم تقديرُه قولَه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

تذييلٌ لِما مَرَّ مِن الأحكامِ العظيمة المشتمِلة علىٰ التَّفضُّل مِن الله والرحمةِ منه، والمؤذِنة بأنَّه توَّابٌ علىٰ مَن تاب مِن عباده، والمنبِئة بكمالِ حِكْمتِه تعالىٰ؛ إذ وضَع الشِّدَّةَ موضعَها، والرِّفْقَ موضعَه، وكَفَّ بعضَ الناس عن بعض، فلمَّا دخَلتْ تلك الأحكامُ تحت كليٍّ هذه الصفاتِ، كان ذِكْرُ الصفات تذييلًا[2].

واعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن حُكْمَ الرامي للمحصَنات والأزواج علىٰ ما ذكَرْنا، وكان في ذلك مِن الرحمةِ والنِّعْمة ما لا خفاءَ فيه؛ لأنَّه تعالىٰ جعَل باللِّعان للمرء سبيلًا إلىٰ

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٦٨).

مراده، ولها سبيلًا إلىٰ دفعِ العذاب عن نفسها، ولهما السبيلَ إلىٰ التوبة والإنابة؛ فلأجلِ هذا بيَّن تعالىٰ بقولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ عِظَمَ نِعَمِه فيما بيَّنه مِن هذه الأحكامِ، وفيما أمهَل وأبقىٰ ومكَّن مِن التوبة[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ثم علَّل ما اقتضته ﴿لَوْلَآ﴾ -مِن نحوِ: ولكنَّه لم يَفعَلْ ذلك إفضالًا عليكم ورحمةً لكم- بقولِه علىٰ وجهِ التَّأكيد -لِما عُرِف مِن حالِ كثيرٍ ممَّن غَضِب لله ولرسوله مِن إرادةِ العقوبة للآفِكين بضربِ الأعناق- مُنبِّهًا لهم علىٰ أنَّ ذلك يجرُّ إلىٰ مفسدةٍ كبيرةٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ نبأ الإفكِ وتبرئةِ عائشة رضي الله عنها بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

لمَّا ذكَر فيما تقدَّم تعظيمَ الرَّمْيِ بالزِّنا عمومًا، صار ذلك كأنَّه مقدِّمةٌ لهذه القِصَّةِ التي وقَعتْ علىٰ أشرَفِ النساء: أمِّ المؤمنين رضي الله عنها[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٢٠).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٣٣٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٦٣).

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا أخبرَ ﷻ بعقابِهم، وكان مِن المؤمنين مَن سَمِعه فسكَت، وفيهم مَن سَمِعه فتحدَّث به مُتعجِّبًا مِن قائله، أو مُستثبِتًا في أمره، ومنهم مَن كذَّبه؛ أتبَعه سبحانه بعتابِهم في أسلوبِ خطابِهم، مُثنِيًا على مَن كذَّبه، فقال مستأنِفًا مُحرِّضًا: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[1].

استئنافٌ لتوبيخِ عُصْبةِ الإفك مِن المؤمنين وتعنيفِهم بعد أن سمَّاه إفكًا[2].

واعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا ذكَر القِصَّةَ، وذكَر حالَ المقذوفين والقاذفين؛ عقَّبها بما يَليقُ بها مِن الآدابِ والزواجر[3].

ثم أرشَد اللهُ عبادَه عند سماعِ مثلِ هذا الكلام، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[4].

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

ثم علَّل سبحانه بيانَ كَذِبِ الآفِكِينَ بأنْ قال مُوبِّخًا لِمَن اختلَقه وأذاعه، مُلقِّنًا لِمَن ندَبه إلى ظنِّ الخير: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٧٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٤٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٢٣٠).

استئنافٌ ثانٍ لتوبيخِ العُصْبةِ الذين جاؤوا بالإفك، وذمٌّ لهم[١].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا بيَّن لهم بإقامةِ الدَّليل على كَذِبِ الخائضين في هذا الكلامِ أنَّهم استحقُّوا المَلامَ، وكان ذلك مُرغِّبًا لأهلِ التقوى؛ بيَّن أنَّهم استحَقُّوا بالتَّقصير في الإنكارِ عمومَ الانتقام، في سياقٍ مُبشِّرٍ بالعفوِ، فقال عاطفًا على ﴿لَّوْلَا﴾ الماضيةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم بيَّن وقتَ حلولِه وزمانَ تعجيلِه بقولِه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[٣].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن فُحْشَه وشناعتَه، وقُبْحَه وفظاعتَه؛ عطَف على التَّأديبِ الأول في قولِه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٧٥).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٣١).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٣١).

عطفٌ على جملة ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ، وأُعيدت ﴿لَوْلَآ﴾ وشرطُها وجوابها لزيادةِ الاهتمام بالجملة؛ فلذلك لم يُعطَفْ ﴿قُلْتُم﴾ الذي في هذه الجملةِ على ﴿قُلْتُم﴾ الذي في الجملةِ قبلها؛ لقصدِ أن يكونَ صريحًا في عطفِ الجُمَل[1].

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه وعظًا لهم واستصلاحًا، ترجَمه بقولِه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

بعد أن بيَّن اللهُ تعالىٰ ما في خبَرِ الإفكِ مِن تَبِعاتٍ لَحِقَ بسببِها للذين جاؤوا به والذين تقبَّلوه عديدُ التَّوبيخ والتَّهديد، وافتضاحٌ للذين روَّجوه وخيبةٌ مختلَقة بنقيضِ قصدِهم، وانتفاعٌ للمؤمنين بذلك، وبيَّن باديَ ذي بَدْءٍ أنَّه لا يُحسَب شرًّا لهم، بل هو خيرٌ لهم، وأنَّ الذين جاؤوا به ما اكتسَبوا به إلا إثمًا، وما لَحِقَ المسلمين به ضرٌّ، ونعىٰ على المؤمنين تهاوُنَهم وغفلتَهم عن سُوءِ نيَّةِ مختلِقيه، وكيف ذهَلوا عن ظنِّ الخير بمَن لا يَعلَمون منها إلا خيرًا، فلم يفنِّدوا الخبَرَ، وأنَّهم اقتحَموا بذلك ما يكون سببًا لِلَحاقِ العذاب بهم في الدُّنيا والآخرة، وكيف حَسِبوه أمرًا هيِّنًا وهو عند اللهِ عظيمٌ، ولو تأمَّلوا لعَلِموا عِظَمَه عند الله، وسكوتَهم عن تغييرِ هذا؛ أعقَب ذلك كلَّه بتحذيرِ المؤمنين مِن العَوْدِ إلىٰ مثلِه مِن المجازَفة في التلقِّي، ومِن الاندفاع وراء كلِّ ساعٍ دُونَ تثبُّتٍ في مواطئِ الأقدام، ودُونَ تبصُّرٍ في عواقبِ الإقدام[3].

ثم وعَظ سبحانه الذي خاضوا في الإفكِ، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٧٩).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٢).

(٤) فتح القدير (٤/ ١٧).

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾

ثم أشار سبحانه إلىٰ بيانِ أحكامه ليَتعظوا ويَتأدبوا بها، فقال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ الوعظ بيانُ ما يُستحقُّ علىٰ الذَّنبِ مِن العقاب، أدَّبهم تأديبًا ثالثًا أشَدَّ مِن الأوَّلينِ، فقال واعظًا ومقبِّحًا لحالِ الخائضين في الإفكِ، ومُحذِّرًا ومُهدِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

لَمَّا حذَّر اللهُ المؤمنين مِن العَوْدِ إلىٰ مثلِ ما خاضوا به مِن الإفكِ علىٰ جميع أزمنةِ المستقبل، أعقَب تحذيرَهم بالوعيد علىٰ ما عسىٰ أن يصدُرَ منهم في المستقبلِ بالوعيد علىٰ محبَّةِ شيوعِ الفاحشة في المؤمنين؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[2].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن ما علىٰ أهلِ الإفك وما علىٰ مَن سَمِع منهم، وما ينبغي أن يَتمسَّكوا به مِن آدابِ الدِّينِ؛ أتبَعه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ مَن أحبَّ ذلك فقد شارَك في هذا الذمِّ كما شارَك فيه مَن فعَله ومَن لم يُنكِرْهُ، وليُعلَمَ أنَّ أهلَ الأفكِ كما عليهم العقوبةُ فيما أظهَروه فكذلك يَستحقُّون العقابَ بما أسَرُّوه مِن محبَّةِ إشاعةِ الفاحشة في المؤمنين؛

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٤).

وذلك يدلُّ علىٰ وجوبِ سلامة القلب للمؤمنين كوجوبِ كَفِّ الجوارح والقولِ عمَّا يضُرُّ بهم[(١)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تأديبٍ ثالثٍ لِمَن سَمِع شيئًا مِن الكلامِ السيِّئ فعَلِق بذهنِه منه شيءٌ ألَّا يتكلَّمَ به ولا يُذيعَه بقولِه سبحانه مُتوعِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[(٢)].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا ختَم بالحُكْمِ عليهم بالجهل، وكان التَّقديرُ -كما أرشَد إليه ما يأتي مِن العطف علىٰ غيرِ معطوفٍ-: فلولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه بكم، لعجَّل هلاكَ المحبِّين لشيوعِ ذلك بعذاب الدُّنيا ليكونَ موصولًا بعذابِ الآخرة؛ عطَف عليه قولَه مكرِّرًا التَّذكيرَ بالمنَّة بتركِ المعاجَلة، حاذفًا الجوابَ، مُنبِّهًا بالتَّكريرِ والحذف علىٰ قوَّةِ المبالغة وشدَّةِ التهويل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

هذه ثالثُ مرَّةٍ كرَّر فيها: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وحذَف في الأولِ والثالث جوابَ ﴿لَوْلَا﴾ لتَذهَبَ النفسُ كلَّ مذهبٍ ممكِنٍ في تقديرِه بحسب المقام، وقد ذكَر في المرةِ الأُولىٰ وَصْفَ اللهِ بأنَّه توَّاب حكيم، وذكَر هنا بأنَّه رؤوفٌ رحيم؛ لأنَّ هذا التَّنبيهَ الذي تضمَّنه التَّذييلُ فيه انتشالٌ للأمَّةِ مِن اضطرابٍ عظيمٍ في أخلاقِها وآدابِها، وانفصامِ عُرَىٰ وَحْدتِها، فأنقَذها مِن ذلك؛ رأفةً ورحمةً لآحادِها وجماعتِها، وحفظًا لأواصرِها[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٤٥).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٣٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٥-١٨٦).

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا أخبرهم بأنَّه ما أنزل لهم هذا الشَّرعَ على لسانِ هذا الرسول الرؤوفِ الرحيم إلا رحمةً لهم بعد أن حذَّرهم مواردَ الجهل، نهاهم عن التَّمادي فيه، في سياقٍ مُعلِمٍ أنَّ الدَّاعيَ إليه الشَّيطانُ العدوُّ، فقال سارًّا لهم بالإقبالِ عليهم بالنداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١).

هذه الآيةُ نزَلتْ بعد العَشْرِ الآيات المتقدِّمة؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، ووقوعُه عَقِب الآياتِ العشر التي في قضية الإفكِ مشيرٌ إلى أنَّ ما تضمَّنته تلك الآياتُ مِن المناهي وظُنونِ السَّوء ومحبَّةِ شيوع الفاحشة كلُّه مِن وساوسِ الشيطان، فشبَّه حالَ فاعلها في كونه متلبِّسًا بوسوسةِ الشيطان بهيئةِ الشيطان يمشي، والعامل بأمره يتَّبِعُ خُطَى ذلك الشيطانِ(٢).

ولمَّا نهى عن هذا الذَّنبِ بخصوصه، نهى عن الذنوب عمومًا، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٣).

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

عطفٌ على جملةِ ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ عَطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه قد يَخفَى أنَّه مِن خطواتِ الشيطان؛ فإنَّ مِن كيدِ الشيطان أن يأتيَ بوسوسةٍ في

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٦٣).

صورةِ خواطرِ الخير إذا عَلِم أنَّ الموسوَسَ إليه مِن الذين يَتوخَّون البِرَّ والطاعة، وأنَّه ممَّن يَتعذَّر عليه ترويجُ وسوستِه إذا كانت مكشوفةً[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾

ولمَّا كان الختمُ بهذين الوصفينِ بعد الأمرِ بالعفوِ ربما جرَّأ علىٰ مِثْلِ هذه الإساءةِ، وصَل به مُرهِّبًا مِن الوقوع في مثلِ ذلك قولَه معمِّمًا للحُكْم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2].

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ استئنافٌ بعد استئنافِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والكلُّ تفصيلٌ للموعظة التي في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧﴾، فابتُدئ بوعيدِ العَوْدِ إلىٰ محبَّةِ ذلك، وثنَّىٰ بوعيدِ العودة إلىٰ إشاعةِ القالة[3].

ثم بيَّن تعالىٰ وعيدَ القاذفين للبريئاتِ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[4].

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾

ثم أتبَع ذلك ذِكْرَ اليومِ الذي يكون فيه أثرُ ذلك علىٰ وجهٍ زاد الأمرَ عِظَمًا، فقال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٩٠).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٣٤١).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٢٤٢).

وقولُه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصِلٌ بما قبله، مسُوقٌ لتقريرِ العذاب المذكور بتعيينِ وقتِ حلوله وتهويلِه ببيانِ ظهورِ جناياتهم الموجِبة له مع سائرِ جناياتهم المستتبِعة لعقوباتها علىٰ كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ خارقةٍ للعادات(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

ثم زاد في التهويل بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾(٢).

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْرَ شَهادةِ الأعضاء يُثير سؤالًا عن آثارِ تلك الشَّهادةِ، فيجاب بأنَّ أثَرَها أن يجازيَهم اللهُ علىٰ ما شَهِدتْ به أعضاؤُهم عليهم(٣).

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا تضمَّن ما ذكَر مِن وصفِه تعالىٰ عِلْمَه بالخفيَّات، أتبَعه ما هو كالعلَّةِ لآيةِ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ دليلًا شُهوديًّا علىٰ براءةِ عائشةَ رضي الله تعالىٰ عنها، فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٤).

بعد أن برَّأ اللهُ عائشةَ رضي الله عنها ممَّا قال عُصْبةُ الإفكِ، ففضَحهم بأنَّهم ما جاؤوا إلا بسيِّئِ الظنِّ، واختلاقِ القذفِ، وتوعَّدهم وهدَّدهم، ثم تاب علىٰ الذين تابوا؛ أنحىٰ عليهم

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ١٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٤٣).

ثانيةً ببراءةِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن أن تكونَ له أزواجٌ خبيثاتٌ؛ لأنَّ عِصْمتَه وكرامته علىٰ الله يأبىٰ اللهُ معها أن تكونَ أزواجُه غيرَ طيِّباتٍ؛ فمكانةُ الرسول ﷺ كافيةٌ في الدَّلالةِ علىٰ براءةِ زوجه، وطهارةِ أزواجه كلِّهنَّ؛ وهذا مِن الاستدلالِ علىٰ حال الشَّيء بحالِ مقارِنه ومماثله، وفي هذا تعريضٌ بالذين اختلَقوا الإفكَ بأنَّ ما أَفَكُوه لا يَلِيقُ مِثْلُه إلا بأزواجهم؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمنافقين المختلِقينَ للإفك[(١)].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ علىٰ قاعدةِ السُّنة الإلهيَّة الجارية فيما بَيْنَ الخَلْقِ علىٰ موجَبِ أنَّ للهِ تعالىٰ مَلَكًا يسُوقُ الأهلَ إلىٰ الأهل[(٢)].

ثم ختَم سبحانه الآياتِ الواردةَ في أهلِ الإفك بكلمةٍ جامعةٍ، فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[(٣)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا أنهىٰ سبحانه الأمرَ في براءةِ عائشةَ رضي الله عنها علىٰ هذا الوجهِ الذي كساها به مِن الشَّرف ما كساها، وحلَّاها برونقِه مِن مزايا الفضل ما حلَّاها، وكأنَّ أهلَ الإفكِ قد فتَحوا بإفكِهم هذا بابَ الظُّنونِ السيئة عدواةً مِن إبليسَ لأهلِ هذا الدِّين بعد أن كانوا

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٩٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٦٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢١).

في ذلك وفي كثيرٍ مِن سجاياهم -إذ كان قانعًا منهم بداءِ الشرك- علىٰ الفِطْرةِ الأُولىٰ؛ أمَر تعالىٰ ردًّا لِما أثار بوَسْواسه مِن الداء بالتَّنزُّهِ عن مواقعِ التُّهَم والتَّلبُّسِ بما يَحسِمُ الفسادَ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[(١)].

ذكَرْنا أنَّ مِن أكبَرِ الأغراضِ في هذه السُّورةِ تشريعَ نظامِ المعاشَرة والمخالطة العائليَّة في التَّجاور؛ فهذه الآياتُ استئنافٌ لبيانِ أحكام التزاور، وتعليمِ آداب الاستئذان، وتحديدِ ما يحصُلُ المقصودُ منه؛ كيلا يكونَ الناسُ مختلِفين في كيفيَّته علىٰ تفاوُتِ اختلاف مداركِهم في المقصودِ منه والمفيد[(٢)].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّ أهلَ الإفك إنَّما وجَدوا السَّبيلَ إلىٰ بهتانهم مِن حيث اتفقَتِ الخَلْوةُ، فصارت كأنَّها طريقٌ للتُّهمة؛ فأوجَب اللهُ تعالىٰ ألَّا يدخُلَ المرءُ بيتَ غيرِه إلا بعد الاستئذانِ والسَّلام؛ لأنَّ في الدُّخول لا علىٰ هذا الوجهِ وقوعَ التُّهمة، وفي ذلك مِن المضرَّةِ ما لا خَفاءَ به[(٣)].

ثم إنَّه ﷻ إثرَ ما فصَّل الزَّواجرَ عن الزِّنا وعن رَمْيِ العفائفِ عنه، شرَع في تفصيلِ الزَّواجر عمَّا عسىٰ يُؤدِّي إلىٰ أحدهما مِن مخالطةِ الرجال بالنساء، ودخولِهم عليهنَّ في أوقاتِ الخلَوات، وتعليمِ الآدابِ الجميلة والأفاعيلِ المَرْضيَّة المستتبِعة لسعادة الدارينِ، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٩٦).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٠).

(٤) روح المعاني (٩/ ٣٢٨).

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان السُّكانُ قد يكونون غائبين، والإنسان لكونه عَورةً لا يحبُّ أن يَطَّلِعَ غيرُه علىٰ جميعِ أموره؛ قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان مِن الأماكن التي قد لا يوجَدُ بها أحدٌ ما يباحُ الدُّخولُ إليه -لخُلُوِّه، أو عدمِ اختصاص النازل به؛ كالخاناتِ والرُّبُطِ[2]-، أتبَع ما تقدَّم التَّعريفَ بأنَّه لم يدخُلْ في النَّهيِ، فقال مستأنِفًا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[3].

هذا تخصيصٌ لعمومِ قوله: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ بالبيوتِ المُعَدَّة للسُّكنىٰ، فأمَّا البيوتُ التي ليست معدودةً للسُّكنىٰ إذا كان لأحدٍ حاجةٌ في دخولها أنَّ له أن يدخُلَها؛ لأنَّ كونَها غيرَ معدودةٍ للسُّكنىٰ يَجعَل القاطنَ بها غيرَ محترزٍ مِن دخولِ الغير إليها، بل هو علىٰ استعدادٍ لِمَن يغشاه، فهي لا تخلو مِن أن تكونَ خاويةً مِن السَّاكن؛ مثل البيوتِ المُقامة علىٰ طُرُقِ المسافرين لنزولِهم[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٥٠).

(٢) جمع (رباط)، وهو: المكان المبني للفقراء.

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٥٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٢).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ حُكْمَ الدُّورِ المسكونة، ذكَر بعده حُكْمَ الدُّور التي هي غيرُ مسكونةٍ، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾(١).

ثم بيَّن تعالىٰ ما رخَّص فيه من عدم الاستئذان بقولِه سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾(٢).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أُعقِبَ حُكْمُ الاستئذان ببيانِ آداب ما تقتضيه المجالَسةُ بعد الدُّخول؛ وهو ألا يكونَ الدَّاخلُ إلىٰ البيت مُحدِّقًا بصَره إلىٰ امرأةٍ فيه، بل إذا جالسته المرأةُ غَضَّ بصَره، واقتصَر علىٰ الكلامِ، ولا ينظُرُ إليها إلا النَّظَرَ الذي يعسُرُ صَرْفُه(٣).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ شروعٌ في بيانِ أحكامٍ كليَّةٍ شاملة للمؤمنين كافةً، يندرج فيها حُكْمُ المستأذِنين عند دخولهم البيوتَ اندراجًا أوليًّا(٤).

لمَّا ذكَر سبحانه حُكْمَ الاستئذان، أتبَعه بذِكْرِ حُكْمِ النَّظر علىٰ العموم، فيندرجُ تحته غَضُّ البصَرِ مِن المستأذِن(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٥٩).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٦٩).

(٥) فتح القدير (٤/ ٢٦).

ثم أرشد سبحانه إلىٰ آدابٍ عظيمةٍ تتناول المستأذِنين عند دخولِهم وغيرَهم بقولِه تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا بدأ بالقَوَمَة مِن الرِّجالِ، ثنَّىٰ بالنساء، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[2].

أردَف أمرَ المؤمنين بأمرِ المؤمنات؛ لأنَّ الحِكْمةَ في الأمرينِ واحدةٌ، وتصريحًا بما تقرَّر في أوامرِ الشَّريعة المخاطَبِ بها الرِّجالُ مِن أنَّها تَشمَل النساءَ أيضًا، ولكنَّه لمَّا كان هذا الأمرُ قد يُظَنُّ أنَّه خاصٌّ بالرِّجالِ -لأنَّهم أكثَرُ ارتكابًا لضِدِّه- وقَع النَّصُّ علىٰ هذا الشمولِ بأمرِ النساء بذلك أيضًا، وانتقَل مِن ذلك إلىٰ نَهْيِ النساءِ عن أشياءَ عُرِف منهنَّ التَّساهلُ فيها، ونهيُهنَّ عن إظهارِ أشياءَ تعوَّدْنَ أن يُحبِبْنَ ظهورَها[3].

ثم ذكَر تعالىٰ حُكْمَ المؤمنات في تَساوِيهنَّ مع الرِّجالِ في الغضِّ مِن الأبصار، وفي الحفظِ للفروجِ[4].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٧٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٥).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٣).

ثم أمَر اللهُ تعالىٰ النساءَ بما أمَر به الرِّجالَ، وزاد في أمرِهنَّ ما فرَضه مِن رفضِ حالةِ الجاهليَّة المألوفةِ قبلُ لهنَّ، بقولِه سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[(١)].

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا تقدَّم سبحانه إلىٰ عبادِه في الأمورِ العامَّة للأحوال والأشخاص في الزِّنا وأسبابه، فحكَم وقرَّر، ووعَظ وحذَّر؛ أتبَعه أسبابَ العِصْمةِ التي هي نِعْمَ العونُ علىٰ التَّوبة، فقال مُرشِدًا: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[(٢)].

أُردِفتْ أوامرُ العفافِ بالإرشاد إلىٰ ما يُعِينُ عليه، ويُعِفُّ نفوسَ المؤمنين والمؤمنات، ويغُضُّ مِن أبصارِهم؛ فأُمِر الأولياءُ بأن يُزوِّجوا أيَامَاهم، ولا يتركوهنَّ متأيِّماتٍ؛ لأنَّ ذلك أعفُّ لهنَّ، وللرِّجال الذين يتزوَّجونهنَّ، وأُمِر السَّادةُ بتزويجِ عبيدهم وإمائهم، وهذا وسيلةٌ لإبطالِ البِغاءِ؛ كما سيتبعُ به في آخرِ الآية[(٣)].

لمَّا تقدَّمت أوامرُ ونواهٍ في غَضِّ البصَرِ، وحِفْظِ الفَرْجِ، وإخفاءِ الزينة، وغيرِ ذلك، وكان الموجِبُ للطُّموحِ مِن الرِّجال إلىٰ النساء ومِن النساءِ إلىٰ الرِّجال هو عدمَ التزوُّجِ غالبًا؛ لأنَّ في تكاليفِ النكاح وما يجب لكلِّ واحدٍ مِن الزَّوجين ما يَشغَلُ: أمَر تعالىٰ بإنكاحِ الأيَامَىٰ -وهم الذين لا أزواجَ لهم مِن الصِّنْفَينِ- حتىٰ يشتغِلَ كلٌّ منهما بما يَلزمُه، فلا يلتفِتَ إلىٰ غيرِه[(٤)].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٧٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢١٥).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر مِن قبلُ بغَضِّ الأبصار وحفظِ الفروج، بيَّن مِن بعدُ أنَّ الذي أمَر به إنَّما هو فيما لا يَحِلُّ؛ فبيَّن تعالىٰ بعد ذلك طريقَ الحِلِّ، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[1].

ولمَّا زجَر تعالىٰ عن السِّفاحِ ومَباديه القريبةِ والبعيدة، أمَر بالنكاح؛ فإنَّه مع كونه مقصودًا بالذات مِن حيث كونُه مَناطًا لبقاءِ النوع خيرُ مَزجَرةٍ عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

لمَّا أمَر سبحانه بِغَضِّ الأبصار وحفظِ الفروج، أرشَد بعد ذلك إلىٰ ما يَحِلُّ للعباد مِن النكاحِ الذي يكون به قضاءُ الشَّهوة، وسكونُ دواعي الزِّنا، ويسهُلُ بعده غَضُّ البصَرِ عن المحرَّمات، وحفظُ الفَرْجِ عمَّا لا يَحِلُّ، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا أمَر سبحانه بما يَعصِمُ مِن الفتنةِ مِن غَضِّ البصَرِ، ثم بما يُحصِنُ مِن النكاح، وجرَّأ عليه بالوعدِ بالإغناء، وكان هذا الوعدُ فيما بعد النكاح، وقدَّم الكلامَ فيه ترغيبًا للإنسان في التَّوكُّل والإحصان، وكان قبله ما قد يَتعذَّر لأجلِه: إمَّا بعدمِ

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٨٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٢).

وجدانِ المهر وما يُطلَب منه تقديمُه، أو بعدمِ رضا العبدِ وغيرِه بكونِ ولَدِه رقيقًا، أو غيرِ ذلك؛ أتبَعه قولَه حاثًّا على قَمْعِ النَّفسِ الأمَّارة عند العَجْزِ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(١).

ثم أمَر كلَّ مَن تعلَّق به الأمرُ بالإنكاح بأن يُلازِموا العفافَ في مُدَّةِ انتظارِهم تيسيرَ النكاح لهم بأنفسِهم، أو بإذنِ أوليائهم ومَواليهم(٢).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا ذكَر تزويجَ الحرائرِ والإماء، ذكَر حالَ مَن يَعجِزُ عن ذلك، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(٣).

ثم أرشَد تعالى العاجزين عن أسبابِ النكاح إلى ما هو أَوْلى لهم بعد بيانِ جوازِ مناكحة الفقراء بقولِه سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(٤).

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه هذه الآياتِ في براءةِ عائشةَ رضي الله عنها، ومقدِّماتها وخواتيمها؛ قال عاطفًا على قولِه أوَّلَها: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٧٢).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٣٨٢).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٢٧٠).

ذُيِّلتِ الأحكامُ والمواعظ التي سبَقتْ بإثباتِ نفعها وجَدْواها لِما اشتمَلتْ عليه ممَّا يَنفَع الناسَ، ويُقيم عمودَ جماعتهم، ويُميِّز الحقَّ مِن الباطل، ويُزيلُ مِن الأذهان اشتباهَ الصَّواب بالخطأ، فيَعلَم الناسُ طُرُقَ النَّظَرِ الصَّائب، والتَّفكير الصحيح؛ وذلك تنبيهٌ لِما تستحِقُّه مِن التَّدبُّر فيها، ولنِعْمةِ اللهِ على الأمَّة بإنزالها؛ ليشكُروا اللهَ حقَّ شُكْرِه[(١)].

ثم حذَّر سبحانه مِن مخالَفةِ ما نهى عنه، ممَّا بيَّنه أشدَّ البيان، بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

ثم عظَّم وفخَّم هذه الآياتِ التي تلاها على عبادِه؛ ليَعرِفوا قَدْرَها، ويقوموا بحقِّها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(٣)].

ولمَّا فرَغ سبحانه مِن بيانِ تلك الأحكام، شرَع في وصفِ القرآن بصفاتٍ ثلاثٍ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(٤)].

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

ثم علَّل إنزالَه لذلك على هذا السَّنَنِ الأقوَم والنَّظْمِ المُحكَم بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٢٨).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٨٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٦٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٦).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٢٧١).

لمَّا بيَّن سبحانه مِن الأحكام ما بيَّن، أردَف ذلك بكونِه سبحانه في غايةِ الكمال، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فأيَّ شيءٍ يكونُ هذه المشكاةُ؟ قال شافيًا على هذا السُّؤالِ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾[1].

استئنافٌ لبيانِ حالِ مَن حصَلتْ لهم الهدايةُ لذلك النُّورِ، وذِكْرِ بعضِ أعمالهم القلبيَّة والقالبيَّة[2].

لمَّا ضرَب اللهُ تعالى مثَلَ قلبِ المؤمن وما فيه مِن الهدى والعلمِ بالمصباحِ في الزُّجاجة الصَّافية المتوقِّد مِن زيتٍ طيِّبٍ -وذلك كالقِنْديل-، ذكَر محلَّها -وهي المساجدُ، التي هي أحَبُّ البقاعِ إلى الله تعالى مِن الأرض، وهي بيوتُه التي يُعبَد فيها ويُوحَّد-، فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾[3].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

لمَّا قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾، فكأنَّه قيل: مَن يُسبِّح؟ فقيل: يُسبِّح ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٧٧).

(٢) روح المعاني (٩/ ٣٦٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٦٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٣٩٦).

لمَّا ذكَر أنَّه يَهدي لنُورِه مَن يشاء، ذكَر حالَ مَن حصَلتْ له الهدايةُ لذلك النُّورِ؛ وهم المؤمنون[١].

ثم ذكَر مَن يعمُرُ هذه البيوتَ، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أفعالَ هؤلاء الرِّجال التي أقبَلوا بها عليه، وأعرَضوا عمَّا عدَاه؛ بيَّن غايتَهم فيها، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢].

يتعلَّق قولُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ بـ﴿يَخَافُونَ﴾؛ أي: كان خوفُهم سببًا للجزاءِ علىٰ أعمالِهم الناشئة عن ذلك الخوفِ[٣].

ثم ذكَر الجزاءَ ترغيبًا، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّ الذين اتبَعوا نورَ الحقِّ سبحانه وصَلوا -مِن جزائه بسبب ما هدَاهم إليه النُّورُ مِن الأعمالِ الصالحة- إلىٰ حقائقَ هي في نفسِ الأمر الحقائقُ؛

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٨١).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٠).

أخبَر عن أضدادهم الذين اتبَعوا الباطلَ، فحالت جبالُه الوَعْرةُ الشامخة بَيْنَ أبصارِ بصائرهم وبَيْنَ تلك الأنوارِ بضدِّ حالهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـٔٗا ﴾(١).

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ أعمالِ المتَّقين مِن المؤمنين وجزائهم عليها، أعقَب ذلك بضدِّه مِن حالِ أعمال الكافرين التي يَحسَبونها قُربَاتٍ عند اللهِ تعالىٰ، وما هي بمُغْنيةٍ عنهم شيئًا؛ علىٰ عادةِ القرآن في إرداف البشارة بالنِّذارة(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالةَ الإيمان والمؤمنين، وتنويرَه قلوبَهم، ووصَفهم بما وصَفهم مِن الأعمال النافعة في الآخرة؛ أعقَب ذلك بذِكْرِ مقابِلِهم: الكفرةِ، وأعمالِهم(٣).

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه بهذا المثالِ أنَّهم لم يَصِلوا إلىٰ شيءٍ غيرِ التَّعب، المُثمِرِ للعطَب، وكان هذا لا يفعلُه بنفسِه عاقلٌ؛ ضرَب مثالًا آخرَ بيَّن الحاملَ لهم علىٰ الوقوعِ في ممثولِ الأول؛ وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، المُوقِعُ في خَبْطِ العَشْواءِ كالماشي في الظَّلام، فقال عاطفًا علىٰ ﴿ كَسَرَابِۭ ﴾ قولَه: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٥١).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٨٥-٢٨٦).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تمثيلِهم بنوعٍ آخرَ بقولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾

ولمَّا كان قيامُ الأمور وظهورُها كلَّ ظهور إنَّما هو بالنُّور: حسًّا بالإيجاد، ومعنًىٰ بجَعْلِ الموجودات آياتٍ مرئيَّاتٍ تدلُّ علىٰ مُوجِدها؛ قال تعالىٰ -دالًّا علىٰ ما أخبَر به مِن أنَّه وَحْدَه نورُ السَّماواتِ والأرض؛ أي: مُوجِدُهما بعِلْمِه وقُدْرته، ومِن أنَّ مَن كساه مِن نورِه، فإنَّ في يومِ البعث يُجازي الخَلْقَ علىٰ ما يقتضيه العلمُ الذي هو النُّورُ في الحقيقة مِن مقاديرِ أعمالهم، ومَن أعراه مِن النُّور هلَك-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[2].

أُعقِبَ تمثيلُ ضَلالِ أهل الضَّلالة وكيف حرَمهم اللهُ الهدىٰ بطلبِ النَّظَر والاعتبار كيف هدىٰ اللهُ تعالىٰ كثيرًا مِن أهل السَّماوات والأرض إلىٰ تنزيهِ الله، المقتضي الإيمانَ به وَحْدَه، وبما ألهَم الطَّيْرَ إلىٰ أصواتِها المُعرِبة عن بهجتِها بنِعْمةِ وجودِها ورزقِها الناشئينِ عن إمداد الله إيَّاها بهما، فكانت أصواتُها دلائلَ حالٍ علىٰ تسبيحِ الله وتنزيهِه عن الشَّريك[3].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٨).

لمَّا ذكَر تعالىٰ مثَلَ المؤمنِ والكافر، وأنَّ الإيمانَ والضَّلال أمرُهما راجعٌ إليه؛ أعقَب بذِكْرِ الدلائلِ علىٰ قُدْرتِه وتوحيده[١].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا وصَف أنوارَ قلوبِ المؤمنين، وظلماتِ قلوب الجاهلين؛ أتبَع ذلك بدلائلِ التوحيد[٢].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تعديلِ الدَّلائل علىٰ ربوبيَّتِه ووَحْدانيَّته في ألوهيَّته، وظهورِ أمرِه وجلالته، بقولِه سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[٣].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٢ ﴾

ولمَّا أخبَر عمَّا في الكونينِ بما يَستلزم المُلْكَ علىٰ أنهىٰ وجوهِ التَّمام المستلزِم للقدرة علىٰ البعث، أخبَر عنهما بالتَّصريحِ به، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٤].

فلمَّا بيَّن عبوديتَهم وافتقارَهم إليه -من جهةِ العبادة والتوحيد-، بيَّن افتقارَهم مِن جهة المُلْكِ والتربيةِ والتدبير، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٥].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ المبدأَ منه والمَعادَ إليه، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٦].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٥٥-٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٠١).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٣٩٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٩١).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٧٠).

(٦) فتح القدير (٤/ ٤٨).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا أخبَر بذلك، فتقرَّر مُلْكُه وقُدْرته علىٰ البعثِ علىٰ حسَب ما وعَد به بعد أن تحرَّر مُلْكُه؛ دلَّ عليه بتصرُّفِه في العالَمِ العُلْوي والسُّفْلي بما يدلُّ علىٰ القدرةِ علىٰ الإعادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾(١).

أعقَب الدَّلالةَ علىٰ إعطاء الهدىٰ في قوانينِ الإلهام في العَجْماوات بالدَّلالةِ علىٰ خَلْقِ الخصائص في الجمادِ بحيث تَسِيرُ علىٰ السَّير الذي قدَّره اللهُ لها سَيْرًا لا يتغيَّر، فهي بذلك أهدىٰ مِن فريقِ الكافرين الذين لهم عقولٌ وحواسٌّ لا يهتدون بها إلىٰ معرفةِ الله تعالىٰ، والنَّظرِ في أدلتها، وفي ذلك دلالةٌ علىٰ عِظَمِ القدرة، وسَعة العلم، ووَحْدانيَّة التَّصرُّف(٢).

لمَّا ذكَر انقيادَ مَن في السماواتِ والأرض والطَّيْرِ إليه تعالىٰ، وذكَر مُلْكَه لهذا العالَمِ وصيرورتَهم إليه؛ أكَّد ذلك بشيءٍ عجيب مِن أفعالِه، مُشعِرٍ بانتقالٍ مِن حالٍ إلىٰ حال(٣).

ثم ذكَر سبحانه دليلًا آخرَ مِن الآثارِ العُلْويَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٩١).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٥٦-٥٧).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٨).

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾

ثم ذكَر ما هو أدلُّ على الاختيارِ، فقال مُترجِمًا لِما مضى بزيادةٍ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1].

الكلامُ استئنافٌ، وجيءَ به مستأنَفًا غيرَ معطوفٍ على آياتِ الاعتبار المذكورة قبله؛ لأنَّه أُريدَ الانتقالُ مِن الاستدلال بما قد يَخفَى على بعضِ الأبصار إلى الاستدلالِ بما يُشاهِده كلُّ ذي بصَرٍ كلَّ يومٍ، وكلَّ شهرٍ؛ فهو لا يكاد يَخفَى على ذي بصَرٍ[2].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾

ولمَّا ذكَر أولًا أحوالَ الخافقَينِ دليلًا على وَحدانيَّته، وفصَّل منها الآثارَ العُلْويَّة: فذكَر ما يسقي الأرضَ، وطوَى ذِكرَ ما ينشأ عنه مِن النَّباتِ للعلمِ به؛ ذكَر أحوالَ ما يَتكوَّن به مِن الحيوانات دليلًا ظاهرًا على الإعادة، وبرهانًا قاهرًا على المنكِرين لها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾[3].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثالث مِن الدَّلائل على الوَحْدانيَّة؛ وذلك لأنَّه لمَّا استدَلَّ أولًا بأحوالِ السماء والأرض، وثانيًا بالآثارِ العُلْوية؛ استدَلَّ ثالثًا بأحوال الحيوانات[4].

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٠٦).

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا اتَّضح بهذا ما للهِ تعالىٰ مِن صفاتِ الكمال والتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبة نقصٍ، وقامت أدلةُ الوَحْدانيَّة علىٰ ساقٍ، واتسَقتْ براهينُ الألوهيَّة أيَّ اتساقٍ؛ قال مترجمًا لتلك الأدلَّةِ: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

تذييلٌ للدَّلائلِ والعِبَر السالفة، وهو نتيجةُ الاستدلال؛ ولذلك خُتِم بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: إن لم يهتدِ بتلك الآياتِ أهلُ الضَّلالة؛ فذلك لأنَّ اللهَ لم يَهدِهم؛ لأنَّه يَهدي مَن يشاء(٢).

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان إخفاءُ هذه الآيات عن البعض بعد بيانها أعجَبَ مِن ابتداءِ نصبِها، فكان السياقُ ظاهرًا في أنَّ التَّقديرَ: واللهُ يُضِلُّ مَن يشاء، فيكفُرون بالآياتِ والذِّكر الحكيم، وكان الخروجُ مِن نُورِها بعد التَّلبُّس بها إلىٰ الظَّلام أشَدَّ غرابةً؛ عطَف علىٰ ما قدَّرته ممَّا دلَّ عليه السِّياقُ أتمَّ دلالةٍ قولَه دليلًا شُهوديًّا علىٰ ذلك المَطْويِّ، مُعجِّبًا ممَّن عَمِي عن دلائلِ التَّوحيد التي أقامها تعالىٰ وعدَّدها وأوضَحها بحيث صارت كما ذكَر تعالىٰ أعظَمَ مِن نُورِ الشَّمس: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٥).

عطف جملةَ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ علىٰ جملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾؛ لِما تَتضمَّنه جملةُ ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ مِن هدايةِ بعضِ الناس، وحرمانِ بعضهم مِن الهداية؛ كما هو مقتضىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهذا تخلُّصٌ إلىٰ ذِكْرِ بعضٍ ممَّن لم يَشأِ اللهُ هدايتَهم، وهم الذين أبطَنوا الكفرَ وأظهَروا الإسلامَ؛ وهم أهلُ النفاق، فبعد أن ذُكِرتْ دلائلُ انفرادِ الله تعالىٰ بالإلهيَّة، وذُكِرَ الكفارُ الصُّرحاء الذين لم يَهتدوا بها في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ الآياتِ؛ تهيَّأ المقامُ لِذكْرِ صِنْفٍ آخرَ مِن الكافرين الذين لم يَهتدوا بآياتِ الله، وأظهَروا أنَّهم اهتدَوْا بها[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ دلائلَ التوحيد، أتبَع ذلك بذَمِّ قومٍ آمَنوا بألسنتِهم دُونَ عقائدِهم، ثم يَتولَّىٰ فريقٌ منهم عن الإيمان[(٢)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا ذكَر دلائلَ التوحيد، أتبَعه بذَمِّ قومٍ اعترَفوا بالدِّين بألسنتهم، ولكنَّهم لم يَقبَلوه بقلوبهم[(٣)].

لمَّا ذكَر إنزالَ الآيات، ذكَر بعدها افتراقَ الناسِ إلىٰ ثلاثِ فِرَقٍ: فِرْقةٍ صدَّقتْ ظاهرًا وكذَّبتْ باطنًا؛ وهم المنافقون، وفِرْقةٍ صدَّقتْ ظاهرًا وباطنًا؛ وهم المخلِصون، وفِرْقةٍ كذَّبتْ ظاهرًا وباطنًا؛ وهم الكافرون، علىٰ هذا الترتيبِ، وبدأ بالمنافقين، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٠٩).

(٤) تفسير النسفي (٢/ ٥١٢).

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ ﴾

ولمَّا فضَحهم بما أخفَوْهُ مِن تولِّيهم، قبَّح عليهم ما أظهروه، فقال مُعبِّرًا بأداةِ التَّحقيق: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾(١).

ثم وصَف هؤلاء المنافقين بأنَّ فريقًا منهم يُعرِضون عن إجابةِ الدَّعوة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله في خصوماتِهم، فقال: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾(٢).

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ ﴾

ثم بيَّن أنَّه إذا كانت الحكومةُ لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين، فقال: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾.

ثم ذكَر سبحانه أنَّ إعراضَهم إنَّما هو إذا كان الحقُّ عليهم، وأمَّا إذا كان لهم فإنَّهم يُذعِنون؛ لعِلْمِهم بأنَّ رسولَ اللهِ صلىٰ الله عليه وآله وسلم لا يحكُمُ إلا بالحقِّ، فقال: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾(٣).

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ ﴾

ولمَّا كان سببُ فعلِهم هذا بعد إظهارهم الطاعةَ مُشكِلًا، ناسَب أن يَسأَل عنه، فقال تعالىٰ مُبيِّنًا له بعد التَّنبيهِ علىٰ ما يحتمِلُه مِن الحالات: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٧).

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لإعراضِهم المذكور، وبيانٌ لمَنشئِه بعد استقصاءِ عِدَّةٍ مِن القبائح المحقَّقة فيهم، والمتوقَّعة منهم[(١)].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم الإيمانَ الكامل بما وصَفهم به، كان كأنَّه سُئِل عن حالِ المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن الذين يُعرِضون عندما يُدْعَوْنَ إلىٰ الحكومة بأنَّهم ليسوا بالمؤمنين في حينِ أنَّهم يُظهِرون الإيمانَ يُثير سؤالَ سائلٍ عن الفاصل الذي يميزُ بَيْنَ المؤمن الحقِّ وبَيْنَ الذي يُرائي بإيمانِه في حينِ يُدْعَىٰ إلىٰ الحكومةِ عند رسول اللهِ ﷺ، فيقتضي أن يُبيِّنَ للسَّائل الفرقَ بَيْنَ الحالينِ؛ لئلا يلتبِسَ عنده الإيمانُ المزوَّر بالإيمان الصادق، فقد كان المنافقون يُموِّهون بأنَّ إعراضَ مَن أعرَض منهم عن التَّحاكم عند رسول اللهِ ﷺ ليس لتزلزُلٍ في إيمانِه بصِدْقِ الرسول ﷺ، ولكنَّه إعراضٌ لمراعاةِ أعراضٍ مِن العلائقِ الدُّنْيوية؛ كقولِ بشرٍ: إنَّ الرسولَ يُبغِضُني، فبيَّن اللهُ بطلانَ ذلك بأنَّ المؤمن لا يرتاب في عدلِ الرسول ﷺ، وعدمِ مصانَعتِه[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ قولَ المنافقين وما قالوه وما فعَلوه، أتبَعه بذِكْرِ ما كان يجب أن يفعلوه، وما يجب أن يسلُكَه المؤمنون، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤١١).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ جارٍ علىٰ عادتِه تعالىٰ في إتباعِ ذِكْرِ المُحِقِّ المُبطِلَ، والتَّنبيهِ علىٰ ما ينبغي بعد إنكارِه لِما لا ينبغي(١).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

ولمَّا رتَّب سبحانه الفلاحَ علىٰ هذا النَّوعِ الخاص مِن الطاعةِ، أتبعه عمومَ الطاعة، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٢).

وموقعُ هذه الجملةِ موقعُ تذييلٍ؛ لأنَّها تعُمُّ ما ذُكِر قبلها مِن ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وتَشمَل غيرَه مِن الطاعاتِ بالقول أو بالفعل(٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئنافٌ جيء به لتقريرِ مضمون ما قبله مِن حُسْنِ حالِ المؤمنين، وترغيبِ مَن عداهم في الانتظامِ في سِلْكِهم(٤).

ثم أردَف الثَّناءَ عليهم بثناءٍ آخرَ، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٥).

ولمَّا ذكَر فضلَ الطاعةِ في الحُكْمِ خصوصًا، ذكَر فضلَها عمومًا في جميعِ الأحوال، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٦).

---

(١) روح المعاني (٩/ ٣٨٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧٥-٢٧٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٨٨).

(٥) فتح القدير (٤/ ٥٣).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٥٧٢).

﴿ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما رتَّب على الطاعةِ الظاهرة التي هي دليلُ الانقياد الباطن، ذكَر حالَ المنافقين فيه، فقال عاطفًا على ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ -لأنَّه ليس المرادُ منه إلا مجرَّدَ القول مِن غيرِ إرادة تقييدٍ بزمانٍ معيَّنٍ-: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(١).

عطفٌ على جملة ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾، أُتبعتْ حكايةُ قولهم ذلك بحكايةِ قَسَمٍ أقسَموه بالله؛ ليتنصَّلوا مِن وصمةِ أن يكونَ إعراضُهم عن الحكومةِ عند الرسول ﷺ، فجاؤوه، فأقسَموا إنَّهم لا يُضمِرون عصيانه فيما يقضي به؛ فإنَّه لو أمَرهم الرسولُ بأشَقِّ شيءٍ -وهو الخروجُ للقتال-، لأطاعوه(٢).

لمَّا بلَّغ المنافقين ما أنزَل تعالى فيهم، أتَوْا إلى الرسول ﷺ ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ إلى آخرِه(٣).

ثم أُشيرَ إلى حكايةِ شيءٍ مِن أحوال أولئك المنافقين الممتنِعين عن قَبولِ حُكْمِه؛ وذلك إقسامُهم الكاذب؛ ليستدِلَّ به على إيمانِهم الباطن، بقولِه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧٦).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٦٣).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٤٠١).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا نبَّه على خداعهم، أشار إلى عدمِ الاغترار بإيمانهم، وإلى قَبولِ شَهادة التَّوسُّم فيهم؛ أمَر بترغيبِهم وترهيبهم، مشيرًا إلى الإعراضِ عن عقوبتهم، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[(١)].

تلقينٌ آخرُ للرسول ﷺ بما يرُدُّ بهتانَهم بقلَّةِ الاكتراث بمواعيدهم الكاذبةِ، وأن يَقتصروا مِن الطاعة على طاعةِ الله ورسوله فيما كلَّفهم دُونَ ما تبرَّعوا به كذبًا[(٢)].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا لاح بهذا الإذنِ في الكفِّ عن قتلِ النَّبيِّ ﷺ للمنافقين لئلا يقولَ الناسُ: إنَّ محمَّدًا استنصَر بقومٍ، فلمَّا نصَره اللهُ بهم أقبَلَ يقتُلُهم، فيمتنِعُ مَن يَسمَع ذلك مِن الدُّخول في الإسلام، فتكون مفسدةُ قتلِهم أعظَمَ مِن مفسدة إبقائهم؛ لأنَّ الدِّينَ لم يكُنْ حينئذٍ تمكَّن تمكُّنًا لا يُؤثِّر فيه مثلُ ذلك؛ تشوَّفت النُّفوسُ إلى أنَّ هذا الحالَ هل يستمر؟ فجلَّى اللهُ عنهما هذا الكَرْبَ بقولِه -بيانًا لأنَّ تمكُّنَ الدِّين غيرُ مفتقِرٍ إليهم، سواءٌ أقبَلوا أو أدبَروا-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٠٣).

الأشبهُ أنَّ هذا الكلامَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقلَ إليه بمناسبةِ التَّعرُّض إلىٰ أحوالِ المنافقين الذين أبقاهم علىٰ النفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمر المسلمين، وخشيتُهم ألا يستقِرَّ بالمسلمين المُقامُ بالمدينةِ حتىٰ يَغزوهم المشركون، أو يُخرِجَهم المنافقون حين يجدون الفرصةَ لذلك، فكانوا يُظهِرون الإسلامَ اتقاءً مِن تمامِ أمر الإسلام، ويُبطِنون الكفرَ ممالأةً لأهلِ الشرك، حتىٰ إذا ظهَروا علىٰ المسلمين لم يَلمِزوا المنافقين بأنَّهم قد بدَّلوا دِينَهم، مع ما لهذا الكلامِ مِن المناسبة مع قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[1].

قولُه تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لِما في قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ مِن الوعدِ الكريم، ومُعرِبٌ عنه بطريقِ التَّصريح، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيه مِن فنونِ السَّعادات الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، التي هي مِن آثارِ الاهتداء، ومتضمِّنٌ لِما هو المرادُ بالطاعة التي نِيطَ بها الاهتداءُ[2].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٦﴾

ولمَّا تمَّت هذه البشرىٰ، وكان التَّقدير: فاعمَلوا واعبُدوا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾؛ لِما فيها مِن معنىٰ الأمرِ بتركِ الشرك، فكأنَّه قيل: اعبُدوني، ولا تُشرِكوا، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٩٠).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٩).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

ولمَّا كان الكفارُ مِن الكثرةِ والقوَّة بمكان، كان الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكين، جوابًا لسؤالِ مَن كأنَّه قال: وهل ذلك ممكنٌ؟ فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لتحقيقِ ما اقتضاه قولُه: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛ فقد كان المشركون يومئذٍ لم يَزالوا في قوَّةٍ وكثرةٍ، وكان المسلمون لم يزالوا يَخافون بأسَهم، فربما كان الوعدُ بالأمن مِن بأسِهم مُتلقًّى بالتَّعجُّب، والاستبطاءِ الشَّبيه بالتَّردُّد، فجاء قولُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطمينًا وتسليةً [2].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمَّا بيَّن حالَ مَن أطاعه ﷺ، وأُشيرَ إلى فوزِه بالرحمة المطلَقة المستتبِعة لسعادةِ الدارينِ؛ عُقِّب ذلك ببيانِ حال مَن عصاه ﷺ، ومآلِ أمرِه في الدُّنيا والآخرة، بعد بيانِ تَناهيه في الفِسْقِ؛ تكميلًا لأمرِ التَّرغيب والتَّرهيب [3].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

ولمَّا كان المَلَلُ مِن شِيَمِ النُّفوس، فكان تدريجُ الكلام في المقاصدِ -لا سيَّما الأحكام- شيئًا فشيئًا خلالَ مقاصدَ أخرى أوقَعَ في القلب، وأشهى إلى الطَّبع،

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٩٢).

لا سيَّما إذا كان على وجوهٍ مِن المناسبات عجيبةٍ، وضروبٍ مِن الاتصالات هي مع دقَّتِها غريبةٌ؛ زيَّن اللهُ تأصيلَها بتفصيلها، فابتدأ السُّورةَ بطائفةٍ منها، وفصلها بِدُرِّ الوعظ، وجواهرِ الحِكَم، والحثِّ على معالي الأخلاق، ومكارمِ الأعمال، ثم وصَلها بالإلهيَّاتِ التي هي أصولها، وختَمها بالتَّمكينِ لأهل هذا الدِّين، وتوهينِ أمرِ المعتدِينَ؛ شرَع في إكمالها، بإثباتِ بقيَّة أحوالها، تأكيدًا لِما حَكَمَ به مِن التَّمكين، وما ختَمه مِن ذلك مِن التَّوهين، وتحذيرًا ممَّا ختَمه مِن العذاب المُهين، وتحقيقًا لِما ألزم به مِن الطاعة، ولزومِ السُّنة والجماعة، فقال واصلًا بما ختَم به الأحكام الأُولى مِن الأمرِ بإنكاح الأيامَى، والكفِّ عن إكراهِ البغايا، إثرَ الذين لم يَظهَروا على عَوْراتِ النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾[1].

استئنافٌ انتقاليٌّ إلى غرضٍ مِن أحكامِ المخالَطة والمعاشرة، وهو عَوْدٌ إلى الغرضِ الذي ابتُدئت به السُّورةُ، وقُطِع عند قوله: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾، وقد ذُكِر في هذه الآيةِ شرعُ الاستئذانِ لأتباع العائلة ومَن هو شديدُ الاختلاط إذا أراد دخولَ بيتٍ؛ فهو مِن مُتمِّمات ما ذُكِر في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾[2].

ثم أُشيرَ إلى تتمَّةِ الأحكام السَّابقة، إثرَ تمهيدِ ما يجب امتثالُه مِن الأحكام، ومِن التَّرغيب والتَّرهيب، بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩١-٢٩٢).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤٠٤).

لمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ ما ذكَره مِن دلائلِ التَّوحيد، رجَع إلىٰ ما كان فيه مِن الاستئذان، فذكَره هاهنا علىٰ وجهٍ أخصَّ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾[1].

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ ﴾

ولمَّا بيَّن حُكْمَ الصِّبيانِ والأرقَّاء الذين هم أطوَعُ للأمر، وأقبَلُ لكلِّ خيرٍ؛ أتبعه حُكْمَ البالغين مِن الأحرارِ، فقال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾[2].

وقَع قولُه: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ﴾ في موقعِ التَّصريح بمفهوم الصفة في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ الأطفالَ إذا بلَغوا الحُلُمَ، تغيَّر حُكْمُهم في الاستئذانِ إلىٰ حُكْمِ استئذان الرِّجال الذي في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾ الآيات[3].

لمَّا بيَّن سبحانه آنفًا حُكْمَ الأطفال -مِن أنَّهم لا يَحتاجون إلىٰ الاستئذان في غيرِ الأوقات الثلاثة-، عقَّب ﷻ ببيانِ حالهم إذا بلَغوا؛ دفعًا لِما عسىٰ أن يُتوهَّمَ أنَّهم وإن كانوا أجانبَ ليسوا كسائرِ الأجانب؛ بسبب اعتيادِهم الدُّخولَ[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣١٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩٦).

(٤) روح المعاني (٩/ ٤٠٦).

﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه اقتبالَ الشَّباب في تغييرِ حُكْمِ الحجاب، أتبَعه الحُكْمَ عند إدبار الشَّباب في إلقاءِ الظاهر مِن الثياب، فقال: ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ ﴾[(١)].

ومناسبةُ هذا التَّخصيصِ هنا: أنَّه وقَع بعد فرضِ الاستئذان في الأوقات التي يضعُ الرِّجالُ والنساء فيها ثيابَهم عن أجسادهم، فعُطِف الكلامُ إلىٰ نوعٍ مِن وضعِ الثياب عن لابسها؛ وهو وضعُ النساءِ القواعدِ بعضَ ثيابِهنَّ عنهنَّ، فاستُثني مِن عمومِ النساءِ النساءُ المتقدِّمات في السِّنِّ بحيث بلَغْنَ إبَّانَ الإياسِ مِن المَحيض، فرُخِّص لهنَّ ألا يَضرِبْنَ بخُمُرِهنَّ علىٰ جيوبهنَّ، وألا يُدْنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبهنَّ[(٢)].

لمَّا أمَر تعالىٰ النساءَ بالتحفُّظ مِن الرِّجال ومِن الأطفال غيرِ البُلَّغِ في الأوقاتِ التي هي مَظِنَّةُ كشفِ عَوْرتِهنَّ، استثنىٰ القواعدَ مِن النساء اللاتي كَبِرْنَ وقعَدْنَ عن الميلِ إليهنَّ والافتتانِ بهنَّ، فقال: ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣١٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٩٦).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٧٠).

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما ذكَر مِن حُرُماتِ البيوت المستلزِمة لصيانةِ الأبضاع على وجهٍ يَلزمُ منه إحرازُ الأموال، أتبَعه ما يُباح مِن ذلك للأكل الذي هو مِن أجلِّ مقاصدِ الأموال اجتماعًا وانفرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سأل: هل هذا التَّحجيرُ في البيوت سارٍ في الأقاربِ وغيرِهم في جميعِ الأحوال؟ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (١).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا كان سبحانه قد نفىٰ عنهم الإيمانَ بالتَّولي عن الأحكام، وتلاه بما رأيتَ أنَّ نَظْمَه أحسَنُ نظامٍ، حتىٰ ختَم بما أومأ إلىٰ أنَّ مَن عَمِيَ عن أحكامه بعد هذا البيانِ مسلوبُ العقل، وكرَّر في هذه السُّورةِ ذِكْرَ البيانِ تكريرًا أشار إلىٰ لَمَعانِ المعاني

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣١٥).

بأمتَنِ بنانٍ حتىٰ صارت مُشخصاتٍ للعِيان، وبيَّن مَن حاز وَصْفَ الإيمان بحُسْنِ الاستئذان، وكان أمر الرسول ﷺ أجلَّ موطنٍ تجب الإقامة فيه ويُهجَر ما عداه مِن الأوطان، فتَصِير الأرض برحبِها ضيِّقةً لأجله، محظورًا سلوكُها مِن جرَّاه، بمنزلةِ بيتِ الغير الذي لا يَحِلُّ دخولُه بغير إذنٍ؛ قال مُعرِّفًا بذلك علىٰ طريقِ الحصر، مُقابِلًا لسلبِ ﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾، مُبيِّنًا عظيمَ الجنايةِ في الذَّهاب عن مجلسِ النَّبيِّ ﷺ المقتضي للجمعِ مِن غيرِ إذنٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[1].

لمَّا جرىٰ الكلامُ السابق في شأنِ الاستئذان للدُّخول، عُقِّب ذلك بحُكْمِ الاستئذان للخروج ومفارَقة المَجامع، فاعتُني مِن ذلك بالواجبِ منه؛ وهو استئذانُ الرسول ﷺ في مفارَقةِ مجلسِه، أو مفارَقةِ جمعٍ جُمِع عن إذنه لأمرٍ مهمٍّ؛ كالشُّورىٰ، والقتال، والاجتماع للوعظِ، ونحوِ ذلك[2].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ استئنافٌ جيءَ به في أواخرِ الأحكام السابقة تقريرًا لها، وتأكيدًا لوجوبِ مراعاتها، وتكميلًا لها ببيانِ بعضٍ آخرَ مِن جنسها[3].

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا أظهَرتْ هذه السُّورةُ بعمومِها، وهذه الآياتُ بخصوصِها، مِن شرَفِ الرسول ﷺ ما بهَر العقولَ، لأجلِ ما وقَع للمنافق مِن التَّجرُّؤ علىٰ ذلك الجَنابِ

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٠٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٩٧).

الأشمِّ، والمَنصِبِ الأتمِّ، وعُلِم منه أنَّ له ﷺ في كلِّ أمرِه وجميعِ شأنه خَصُوصيَّةً ليست لغيره؛ صرَّح بذلك تفخيمًا للشأن، وتعظيمًا للمقام؛ ليتأدَّبَ مَن ناضَل عن المنافق، أو توانىٰ في أمرِه فقصَّر عن مدَىٰ أهلِ السَّوابق، فقال مُنبِّهًا علىٰ أنَّ المصائبَ سببٌ لإظهارِ المناقب أو إشهارِ المعايب: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا ﴾[(١)].

لمَّا كان الاجتماعُ للرسول ﷺ في الأمور يقعُ بعد دَعْوتِه الناسَ للاجتماع وقد أمَرهم اللهُ ألا يَنصرفوا عن مَجامعِ الرسول ﷺ إلا لعُذْرٍ بعد إذنِه، أنبأهم بهذه الآيةِ وجوبَ استجابةِ دعوة الرسولِ ﷺ إذا دعَاهم[(٢)].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا أقام سبحانه الأدلَّةَ علىٰ أنَّه نُورُ السَّماواتِ والأرض بأنَّه لا قيامَ لشيءٍ إلا به سبحانه، وختَم بالتَّحذير لكلِّ مُخالِفٍ؛ أنتَج ذلك أنَّ له كلَّ شيءٍ، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٠٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٢٦).

سورة الفرقان

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ مُنزِّلِ الفرقانِ سبحانه، وذِكْرُ الفرقانِ والمنزَّل عليه علىٰ طريق الإجمال؛ أتبَع ذلك تفصيلَه علىٰ التَّرتيب؛ فبدأ بوصفِ المنزِّل سبحانه بما هو أدلُّ دليلٍ علىٰ إرادةِ التَّعميم في الرسالة لكلِّ مَن يريدُ، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(1).

ثم إنَّه سبحانه وصَف نفسَه بصفاتٍ أربعٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(2).

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾

ولمَّا ذكَّرهم بما ركَز في فِطَرِهم مِن العلم، عجَّب منهم لكلِّ ذي عقلٍ في جملةٍ حاليَّةٍ فيما خالَفوا ما لهم مِن المشاهَدة، فقال مُضمِرًا للفاعل إشارةً إلىٰ استهجانِ نسبة

---

(1) نظم الدرر (١٣/ ٣٣٥).

(2) فتح القدير (٤/ ٧١).

هذا الفعلِ إلىٰ فاعلٍ معيَّنٍ؛ توبيخًا لهم، وإرشادًا إلىٰ المبادرةِ مِن كلِّ سامعٍ إلىٰ نفيِه عنه، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾[1].

استطرادٌ لانتهازِ الفرصة لوصفِ ضَلالِ أهل الشرك وسفالةِ تفكيرهم، فهو عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما تلاها ممَّا هو استدلالٌ علىٰ انفراده تعالىٰ بالإلهيَّةِ، وأُردِفتْ بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الشاملِ لكونِ ما اتخذوه مِن الآلهةِ مخلوقاتٍ، فكان ما تقدَّم مهيِّئًا للتَّعجيب مِن اتخاذِ المشركين آلهةً دُونَ ذلك الإلهِ المنعوتِ بصفات الكمال والجلال[2].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا وصَف نفسَه بصفاتِ الجلال والعِزَّة والعُلُوِّ، أردَف ذلك بتزييفِ مذهبِ عبدةِ الأوثان، وبيَّن نقصانَها مِن وجوهٍ[3].

ولمَّا تضمَّن هذا إثباتَ التَّوحيدِ والنُّبوَّة، تأثَّره بالبرهنةِ عليهما، وتضليلِ المخالِفينَ فيهما، بقولِه سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[4].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤)﴾

ولمَّا وصَف مُنزِّلَ الفرقانِ بما لا يحيطُ به علمُ أحدٍ غيرِه مِن الشُّؤون، فاتضَح بذلك إعجازُ المُنزَّلِ الذي أبان ذلك، وهو هذا القرآنُ، وأنَّه وَحْدَه الفُرْقانُ؛ عجَّب مِن حالِ

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣١).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٤١٧).

المكذِّبين به، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾[1].

انتقالٌ مِن ذِكْرِ كفرِهم في أفعالهم إلىٰ ذِكْرِ كفرِهم بأقوالهم الباطلة[2].

اعلَمْ أنَّه سبحانه تكلَّم أولًا في التَّوحيد، وثانيًا في الردِّ علىٰ عبَدةِ الأوثان، وثالثًا في هذه الآيةِ تكلَّم في مسألةِ النُّبوَّة، وحكىٰ سبحانه شُبَهَهم في إنكارِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ[3].

ولمَّا فرَغ مِن بيانِ التَّوحيد وتزييفِ مذاهبِ المشركين، شرَع في ذِكْرِ شُبَهِ منكِري النُّبوَّة، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾[4].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾

ولمَّا تبيَّن تناقُضُهم أولًا في ادعائهم في القرآنِ ما هو واضحُ المنافاة لوصفه، وثانيًا بأنَّه أُعِينَ عليه بعدما أشعَرتْ به صيغةُ الافتعال مِن الانفراد؛ أتبعه تعالىٰ تناقُضًا لهم آخرَ بقولِه مُعجِّبًا: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[5].

الضميرُ عائدٌ إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ فمدلولُ الصلة مراعًىٰ في هذا الضميرِ إيماءً إلىٰ أنَّ هذا القولَ مِن آثار كفرهم[6].

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٣٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣٢).
(٤) فتح القدير (٤/ ٧٢).
(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٣٩).
(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٤).

بعدما جعَلوا الحقَّ الذي لا محيدَ عنه إفكًا مُختلَقًا بإعانة البشر، بيَّنوا -على زعمِهم الفاسد- كيفيَّةَ الإعانة، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[1].

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾

ولمَّا رمَوْهُ بهذه الأقوالِ التي هم فيها في خَبْطِ عَشْواءَ، وكانت مع كونها ظاهرةَ العَوَارِ عند مَن له أدنى استبصارٍ، ترُوجُ على بعض العرَبِ بعضَ الرَّواج، مع سَعةِ عقولهم، وصحَّةِ أفكارهم، لشُبَهٍ واهيةٍ مكَّنهم فيها التَّقليدُ، وشِدَّةُ الإلفِ لِما هم عليه مِن الزمنِ المديد؛ أمَره سبحانه بجوابِهم مُستأنِفًا، فقال: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[2].

لقَّن اللهُ رسولَه ﷺ الجوابَ لردِّ بهتانِ القائلين: إن هذا القرآنُ إلا إفكٌ، وإنَّه أساطيرُ الأولين: بأنَّه أنزَله اللهُ على رسوله[3].

فأجاب سبحانه عن هذه الشُّبْهةِ بقولِه: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[4].

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما أراد مِن ذِكْرِ المنزِّلِ والمنزَّلِ، وأخبَر عن طعنِهم في المنزَّلِ الذي هو المقصودُ بالذَّات مِن الرسالة، وأقام تعالى ذلك الدَّليلَ على كذبِهم؛ أتبعَه الإخبارَ عن طعنِهم في الرسول الآتي به، فقال مُعجِّبًا مِن عقولِهم التي يعُدُّونها أصفى

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٠٣).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٤٢-٣٤٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٥).
(٤) فتح القدير (٤/ ٧٢).

العقول أفكارًا، وأعلاها آثارًا، فيما أبدَوْهُ مِن ذلك ممَّا ظنُّوا أنَّه دليلٌ علىٰ عدمِ الرسالة، ولا شيءَ منه يصلُحُ أن يكونَ شُبْهةً لذي مُسْكةٍ مِن أمره، فضلًا عن أن يكونَ دليلًا: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾(١).

انتقالٌ مِن حكايةِ مطاعنِهم في القرآن وبيانِ إبطالها إلىٰ حكايةِ مطاعنِهم في الرسول ﷺ(٢).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تعنُّتِهم بخصوص المنزَّل عليه بقولِه: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾(٣).

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾

ثم نزلوا أيضًا إلىٰ اقتراحِ أن يُرفَدَ بكنزٍ إن لم يُرفَدْ بملَكٍ، فقالوا: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾(٤).

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما ذكَر مِن أقوالهم النَّاشئةِ عن ضلالهم، التفَتَ سبحانه إلىٰ رسوله ﷺ مُسلِّيًا له، فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٦).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤١٩).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٤١٩).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٤٦).

ثـم اسـتعظَم الأباطيـلَ التـي اجـترَؤوا علـىٰ التَّفـوُّهِ بهـا، وعجَّـب منهـا، فقـال: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[١].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

ولـمَّا ثبَت أنَّه لا وجودَ لهم لأنَّهم لا عِلْمَ لهم ولا قدرةَ، وأنَّهم لا يُمْنَ لهم ولا بركةَ، لا علىٰ أنفسهم ولا غيرِهم؛ أثبَتَ لنفسِه سبحانه ما يستحِقُّ مِن الكمال الذي يُفِيضُ به علىٰ مَن يشاء مِن عباده ما يشـاء، فقـال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾[٢].

ابتُدئت السُّورةُ بتعظيمِ الله وثنائه علىٰ أن أنزَل الفُرْقـانَ علىٰ رسوله، وأُعقِبَ ذلك بما تَلَقَّىٰ به المشركون هذه المزيَّةَ مِن الجحودِ والإنكـار الناشـئ عـن تمسُّكِهم بمـا اتخَذوه مِن آلهةٍ مِن صفاتهم ما ينافي الإلهيَّةَ، ثم طعَنوا في القرآنِ والـذي جـاء بـه بمـا هو كفرانٌ للنِّعْمة ومَن جاء بها، فلمَّـا أُريدَ الإعـراضُ عـن بـاطلهم، والإقبالُ علىٰ خطابِ الرسول بتثبيتِه وتثبيت المؤمنين؛ أُعيدَ اللفظُ الذي ابتُدئت بـه السُّـورةُ علىٰ طريقـةِ وصـلِ الكـلام بقولِـه: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾. وهـذه الجملةُ استئنافٌ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ إلخ[٣].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الجوابُ الثاني عن تلك الشُّبْهة[٤].

---

(١) روح المعاني (٩/ ٤٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٣٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣٥).

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّه إن شاء آتاه خيرًا ممَّا يقترحون بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (١).

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت بما أثبَتَ لنفسِه الشَّريفة مِن الكمال أنَّه لا مانعَ مِن إيجادِ ما ساقُوه مساقَ التَّوبيخ إلا عدمُ المشيئة، لا عَجْزٌ مِن الجاعل، ولا هوانٌ بالمجعول له؛ تسليةً له ﷺ في أسلوبٍ مشيرٍ بأنَّه يُعطِيه ذلك: سلَّاه أيضًا بأنَّ ما نسَبوه إليه لا يعتقدون حقيقتَه، فأضرَب عن كلامهم قائلًا: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (٢).

﴿ بَلْ ﴾ للإضراب، فيجوز أن يكونَ إضرابَ انتقالٍ مِن ذِكْرِ ضَلالهم في صفةِ الرسول ﷺ إلىٰ ذِكْرِ ضَلالهم في إنكارِ البعث، ويجوزُ أن يكونَ إضرابَ إبطالٍ لِما تضمَّنه قولُه: ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ مِن الوعدِ بإيتائه ذلك في الآخرة (٣).

هذا جوابٌ ثالث عن تلك الشُّبْهةِ؛ كأنَّه سبحانه قال: ليس ما تعلَّقوا به شُبْهةً عليك في نفسِ المسألة، بل الذي حمَلهم علىٰ تكذيبِك تكذيبُهم بالساعة استثقالًا للاستعدادِ لها (٤).

إضرابٌ عن توبيخِهم بحكاية جناياتهم السَّابقة، وانتقالٌ منه إلىٰ توبيخِهم بحكايةِ جناياتهم الأخرىٰ؛ للتَّخلُّص إلىٰ بيانِ ما لهم في الآخرة بسببِها مِن فنونِ العذاب (٥).

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٤٢٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٣١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣٦).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٠٥).

📖 ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ 📖

تخلَّص مِن اليأس مِن اقتناعِهم إلىٰ وصفِ السَّعير الذي أُعِدَّ لهم[(١)].

ثم وصَف تعالىٰ السَّعيرَ بقولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[(٢)].

📖 ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ 📖

ولمَّا وصَف ملاقاتَها لهم، وصَف إلقاءهم فيها، قال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[(٣)].

اعلَمْ أنَّ اللهَ سبحانه لمَّا وصَف حالَ الكفار حينما يكونون بالبُعْدِ مِن جهنَّمَ، وصَف حالَهم عندما يُلقَوْنَ فيها -نعوذُ باللهِ منه- بما لا شيءَ أبلَغُ منه[(٤)].

📖 ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ 📖

فأُجيبوا علىٰ طريقِ الاستئناف بقولِه تعالىٰ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[(٥)].

📖 ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ 📖

ولمَّا كانت عادتُهم تجويزَ الممكن مِن كلِّ ما يَحذَرون منه مِن الخَلْقِ، اقتضىٰ الحالُ سؤالَهم: هل أعَدُّوا لِما هُدِّدوا به مِن الخالق عُدَّةً أم لا؟ في سياقِ الاستفهام عن

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٣٢).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٤٢١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣٨).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٤).

المفاضلةِ بينه وبين ما وُعِدَه المتَّقون؛ تنبيهًا على أنَّه أعلى رتبةً مِن الممكنِ؛ فإنَّه واقعٌ لا محالةَ، وتهكُّمًا بهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا وصَف حالَ العقاب المُعَدِّ للمكذِّبين بالساعة، أتبَعه بما يؤكِّدُ الحسرةَ والنَّدامة، فقال لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾(٢).

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر تعالى نعيمَهم بها، ذكَر تنعُّمَهم فيها، فقال: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾(٣).

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا لسؤالٍ نشأ ممَّا قبله؛ حيث أفاد أنَّ الجنَّةَ مسكنٌ لهم، والساكنُ في دارٍ يحتاج إلى أشياءَ كثيرةٍ لتَطِيبَ نفسُه بسُكْناها، فكأنَّ سائلًا يقول: ما لهم إذا صاروا إليها وسكَنوا فيها؟ فقيل: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾(٤).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر لهم حالَهم في الساعةِ معه سبحانه، أتبَعه ذِكْرَ حالهم مع معبوداتهم مِن دُونه، فقال بالالتفاتِ إلى مظهر العظمةِ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٣٩).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٦).
(٤) روح المعاني (٩/ ٤٣٥).
(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٥٩).

ثـم ذكـر حالـةَ المشـركين وشـركائهم يـومَ القيامـة، فقـال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا (١٨) ﴾

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ السؤال، كأنَّه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾[(١)].

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا واقعًا لا محالةَ، التفتَ إليهم مُبكِّتًا، فقال معبِّرًا بالماضي بعد «قد» المقرِّبة المحقِّقة: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[(٢)].

ثـم أشـار تعـالىٰ لاحتجاجِـه علـىٰ عبَـدتِهم وإلـزامِهم مـا يُبكِّـتهم بقولِـه: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[(٣)].

فلمَّا تبرَّؤوا منهم، قال اللهُ توبيخًا وتقريعًا للعابدين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[(٤)].

---

(١) روح المعاني (٩/ ٤٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٦٣).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤٢٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٨٠).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾

ولمَّا أبطَل سبحانه ما وصَموا به رسولَه ﷺ، وذكَر ما جزاهم عليه، وما أعَدَّ لهم وله ولأتباعه، ونفىٰ ما زعَموه في معبوداتهم، وختَمه بتعذيبِ الظالم؛ ذكَر ما ظلَموا فيه مِن قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ ونحوِه، فبيَّن أنَّ ما جعَلوه مِن ذلك وصمةً في حقِّه هو سُنَّتُه سبحانه في الرُّسلِ مِن قَبْلِه أسوةً لنوعِهم البشري، وأتبَعه سِرَّه، فقال زيادةً في التَّسليةِ والتَّعزيةِ والتَّأسية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[(١)].

هذا ردٌّ علىٰ قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ بعد أن ردَّ عليهم قولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ بقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾[(٢)].

لمَّا تقدَّم الطعنُ علىٰ الرسولِ ﷺ بأكلِ الطعام والمشيِ في الأسواق، أخبَر تعالىٰ أنَّها عادةٌ مستمِرَّة في كلِّ رسالة[(٣)].

ثم أجاب عن شُبَهِهم السَّابقة بقولِه سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٦٤-٣٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٤٣).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٩٤).
(٤) محاسن التأويل (٧/ ٤٢٣).

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾

ولمَّا ذكَر هذا الابتلاءَ بعد أن ذكَر أوَّلَ السُّورةِ ما هو سبحانه عليه مِن العظمةِ مِن سَعة المُلْكِ، وكثرةِ الصَّنائع، والإحسانِ إلىٰ جميع الخَلْقِ، وكان مِن حقِّ كلِّ مربوبٍ أن يَتعرَّفَ إلىٰ ربه، كائنًا مَن كان، لا سيَّما إذا كان بهذه الصفةِ؛ ليَنالَ مِن إحسانه، ويَتعزَّزَ به علىٰ أقرانه: أتبَع ذلك أنَّه كشَف الابتلاءُ عن أنَّه لا بصَرَ لهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾[1].

حكايةُ مقالةٍ أخرىٰ مِن مقالاتِ تكذيبِهم الرسولَ عليه الصلاة والسلام، وقد عَنْوَنَ عليهم في هذه المقالةِ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وعنون عليهم في المقالات السابقة بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وبـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّ بَيْنَ هذا الوصفِ وبين مقالتِهم انتقاضًا؛ فهم قد كذَّبوا بلقاءِ الآخرة بما فيه مِن رؤيةِ الله والملائكة، وطلَبوا رؤيةَ الله في الدُّنيا، ونزولَ الملائكة عليهم في الدُّنيا، وأرادوا تَلقِّيَ الدِّينِ مِن الملائكة أو مِن الله مباشرةً، فكان في حكايةِ قولهم وذِكْرِ وَصْفِهم تعجيبٌ مِن تناقُضِ مداركهم[2].

اعلَمْ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ هو الشُّبهةُ الرابعة لمنكِري نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٤٧).

شروعٌ في حكايةِ بعضٍ آخرَ مِن أقاويلهم الباطلةِ وبيانِ بطلانها إثرَ إبطالِ أباطيلهم السَّابقة[١].

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

ثم بيَّن لهم حالَهم عند بعضِ ما طلَبوا، فقال: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[٢].

استئنافٌ ثانٍ جوابٌ عن مقالتِهم؛ فبعد إبداءِ التَّعجيب منها عقَّب بوعيدٍ لهم، فيه حصولُ بعضِ ما طلَبوا حصولَه الآن؛ ففي هذا الاستئنافِ تلميحٌ وتهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ ابتداءه مُطمِّعٌ بالاستجابة، وآخرَه مؤيِّسٌ بالوعيد[٣].

قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ هو جوابٌ لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فبيَّن تعالىٰ أنَّ الذي سألوه سيوجَدُ، ولكنَّهم يَلقَوْنَ منه ما يكرَهون[٤].

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما يَلقَوْنَه عند مشاهدتهم لِما اقترَحوه مِن نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه، وبيانِ كونه في غايةِ ما يكون مِن الشَّناعة[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٤٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١١).

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان المريدُ لإبطال الشَّيء -لشِدَّةِ كراهته له- لا يَقنَع في إبطالِه بغيره، بل يأتيه بنفسه فيُبطِله؛ عبَّر بقولِه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[(١)].

﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا أنَّ التَّقديرَ: فكان بحيث إنَّهم لا قرارَ لهم إذا كانت النارُ مَقِيلَهم، تلاه بحالِ أضدادهم، فقال: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، جيء به لمقابلةِ حال المشركين في الآخرة بضدِّها مِن حالِ أصحاب الجَنَّة؛ وهم المؤمنون؛ لأنَّه لمَّا وُصِف حالُ المشركين في الآخرة، عُلِم أنْ لا حَظَّ لهم في الجَنَّة، فتعيَّنتِ الجَنَّةُ لغير المشركين يومئذٍ؛ وهم المؤمنون[(٣)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن حالَ الكفار في الخَسارِ الكليِّ والخَيْبة التامة، شرَح وَصْفَ أهلِ الجَنَّة؛ تنبيهًا على أنَّ الحظَّ كلَّ الحظ في طاعةِ الله تعالى[(٤)].

ثم ميَّز سبحانه حالَ الأبرار مِن حالِ الفجَّار، فقال: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٧١).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٨-٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥١).

(٥) فتح القدير (٤/ ٨٢).

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان للكفرةِ في هذه الدارِ مِن العزِّ والقوَّة والضَّخامة ما يتعجَّبون معه مِن مصيرِ حالهم وحال أخصامهم إلىٰ ما ذُكِر، بيَّن أنَّ الأمرَ في ذلك اليومِ علىٰ غيرِ ما نَعهَده، فقال عاطفًا علىٰ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾؛ والمقصودُ تأييسُهم مِن الانتفاعِ بأعمالهم وبآلهتهم، وتأكيدُ وعيدهم، وأُدمِجَ في ذلك وَصْفُ بعضِ شؤون ذلك اليومِ، وأنَّه يومُ تنزيلِ الملائكة بمرأًىٰ مِن الناس[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ مبنيٌّ علىٰ ما استدعَوْهُ مِن إنزالِ الملائكة؛ فبيَّن سبحانه أنَّه يحصُلُ ذلك في يومٍ له صفاتٌ[(٣)].

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك اليومُ سببًا لانكشافِ الأمور، ومعرفةِ أنَّه لا مُلْكَ لسِواه سبحانه؛ لأنَّه لا يَقضِي فيه غيرُه؛ قال: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾[(٤)].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا كان حاصلُ حالهم أنَّهم جانَبوا أشرَفَ الخَلْقِ الهادي لهم إلىٰ كلِّ خيرٍ، وصاحَبوا غيرَه ممَّن يقودُهم إلىٰ كل شرٍّ؛ بيَّن عُسْرَ ذلك اليومِ، الذي إنَّما أوجَب

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٣).

جرأتهم تكذيبُهم به، بتَناهي نـدمِهم علىٰ فعلِهـم هـذا، فقـال: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾[1].

هذا هو ذلك اليومُ، أُعيدَ الكلامُ عليه باعتبارِ حالٍ آخرَ مِن أحوالِ المشركين فيه، أو باعتبارِ حالِ بعض المشركين المقصودِ مِن الآية[2].

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ ﴾

ولـمَّا تأسَّف علىٰ مجانَبةِ الرسول، تندَّم علىٰ مصادقةِ غيره بقولِه: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾[3].

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ بدلٌ مِن جملة ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ اتِّباعَ سبيلِ الرسول يشتمل علىٰ نَبْذِ خُلَّةِ الذين يصُدُّون عن سبيلِه؛ فتَمنِّي وقوعِ أولهما يشتملُ علىٰ تمنِّي وقوع الثاني[4].

﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ ﴾

ثـم استأنف قولَـه الـذي يَتوقَّـع كـلُّ سـامعٍ أن يقولَـه: ﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٥).

جملةُ ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ تعليليَّةٌ لتمنِّيه ألا يكونَ اتخذ فلانًا خليلًا بأنَّه قد صدَر عن خُلَّتِه أعظَمُ خُسْرانٍ لخليله؛ إذ أضَلَّه عن الحقِّ بعد أن كاد يَتمكَّنُ منه[١].

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ تعليلٌ لتَمنِّيه المذكورِ، وتوضيحٌ لتعلُّله[٢].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أقوالَ الكفار إلىٰ أن ختَم بالإضلالِ عن الذِّكر، وكانوا مع إظهارِهم التَّكذيبَ به وأنَّه مفتعَلٌ في غايةِ الطَّرَب له، والاهتزاز به، والتَّعجُّب منه، والمعرفةِ بأنَّه يكون له نبأٌ؛ أشار إلىٰ ذلك بقوله -عاطفًا علىٰ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، مُعظِّمًا لهذه الشِّكاية منه ﷺ، مُخوِّفًا لقومِه؛ لأنَّ الرُّسلَ قبله عليهم الصَّلاة والسلام كانوا إذا شَكَوْا، أُنزِلَ بقومِهم عذابُ الاستئصال-: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾[٣].

عطفٌ علىٰ أقوالِ المشركين، ومناسبتُه لقوله: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾: أنَّ الذِّكْرَ هو القرآن، فحُكِيتْ شِكايةُ الرسول إلىٰ ربِّه قومَه مِن نَبْذِهم القرآنَ بتسويلِ زعمائهم وسادتِهم الذين أضَلُّوهم عن القرآن؛ أي: عن التَّأمُّل فيه بعد أن جاءهم وتمكَّنوا مِن النَّظر، وهذا القول واقعٌ في الدُّنيا، والرسولُ هو محمَّدٌ ﷺ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧).

اعلَمْ أنَّ الكفارَ لمَّا أكثَروا مِن الاعتراضاتِ الفاسدة ووجوهِ التعنُّت، ضاق صدرُ الرسولِ ﷺ، وشكَاهم إلى اللهِ تعالى، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾

ولمَّا كان في هذا الكلامِ معنى الشِّكاية، وشِدَّة التَّحرُّق، وعظيم التَّحزُّن؛ كما يشير إليه إثباتُ (يا) التي للبُعْدِ، على خلافِ ما جرت به العادةُ في نداءِ الخواصِّ الذين هو أخَصُّهم، والاستفهام عن سببِ هِجْرانهم مع ما لهم إليه مِن الدَّواعي؛ كان كأنَّه قيل: ذلك بأنَّ مَن فعَله عاداك حسدًا لك، وعطَف عليه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٢).

هذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ ما لَقِيَه مِن بعضِ قومه هو سُنَّةٌ مِن سُنَنِ الأُمَمِ مع أنبيائهم، وفيه تنبيهٌ للمشركين ليَعرِضوا أحوالَهم على هذا الحُكْمِ التاريخي، فيَعلَموا أنَّ حالهم كحالِ مَن كذَّبوا مِن قومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ(٣).

ثم ذكَر تعالى ما يكون أسوةً لنبيِّه، وتسليةً له، ووعدًا بالنُّصرة، بقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٤٢٦).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه شِكايتَه مِن هِجْرانهم للقرآن، وقرَّر عداوتَهم له ونُصْرتَه عليهم؛ أتبَع ذلك بما يدلُّ عليه، فقال عطفًا على ما مضى مِن الأشباهِ في الشُّبَه، وأظهَرَ موضعَ الإضمار تنبيهًا على الوصفِ الذي حمَلهم على هذا القولِ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1].

عَوْدٌ إلى معاذيرِهم وتعلُّلاتهم الفاسدةِ إذ طعَنوا في القرآن بأنَّه نزَل منجَّمًا[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهةُ الخامسة لمنكِري نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ أهلَ مكَّة قالوا: تزعُمُ أنَّك رسولٌ مِن عندِ الله، أفلا تأتينا بالقرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التَّوراةُ جملةً على موسى، والإنجيلُ على عيسى، والزَّبورُ على داودَ؟[3].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ حكايةٌ لاقتراحهم الخاصِّ بالقرآن الكريم بعد حكايةِ اقتراحهم في حقِّه ﷺ[4].

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: قد بطَل ما أتَوْا به مِن هذا الاعتراضِ، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١٥).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٨١).

لمَّا استقصىٰ أكثَرَ معاذيرِهم وتعلُّلاتِهم، وألقمهم أحجارَ الرَّدِّ إلىٰ لَهواتِهم؛ عطَف علىٰ ذلك فَذْلكةً جامعةً تعمُّ ما تقدَّم، وما عسىٰ أن يأتوا به مِن الشُّكوك والتَّمويه؛ بأنَّ كلَّ ذلك مدحوضٌ بالحُجَّةِ الواضحة الكاشفةِ لتُرَّهاتِهم(١).

ثم ذكَر سبحانه أنَّهم محجُوجُون في كلِّ أوانٍ، مدفوعٌ قولُهم بكلِّ وجهٍ، وعلىٰ كل حالةٍ، فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٢).

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا أنتَجتْ هذه الآياتُ كلُّها أنَّهم معانِدون لربِّهم، وأنَّهم يريدن بهذه السُّؤالاتِ أن يُضلِّلوا سبيله، ويَحتقروا مكانتَه، ويُهدِروا منزلتَه؛ عُلِم قطعًا أنَّه يعمُرُ بهم دارَ الشَّقاء، وكان ذلك أدلَّ علىٰ أنَّهم أعمىٰ الناس عن الطُّرقِ المحسوسة، فضلًا عن الأمثالِ المعلومة، والتمثيلِ للمدارك الغامضة، وأنَّهم أحقَرُ الناس؛ لأنَّه لا ينتقِصُ الأفاضلَ إلا ناقصٌ، ولا يَتكلَّم الإنسانُ إلا فيمَن هو خيرٌ منه، قال مُعادِلًا لقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ﴾، واصفًا لِما تقدَّم أنَّه أظهَره موضعَ الإضمار مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لتسليةِ الرسول ﷺ، ولوعيدِ المشركين وذَمِّهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١).

(٢) فتح القدير (٤/ ٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٨١-٣٨٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣).

ثم أوعَد هؤلاء الجهلةَ وذمَّهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[(١)].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥﴾

ولمَّا بيَّن أنَّهم كذَّبوه وعادَوْهُ، وأشار بآيةِ الحشر إلىٰ جهنَّمَ إلىٰ أنَّه لا يُهلِكهم بعامَّةٍ؛ عطَف علىٰ عاملِ ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ -تسليةً له، وتخويفًا لهم- قولَه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾[(٢)].

لمَّا جرىٰ الوعيدُ والتسلية بذِكْرِ حالِ المكذِّبين للرسول ﷺ، عطَف علىٰ ذلك تمثيلَهم بالأُمَمِ المكذِّبين رُسُلَهم؛ ليحصُلَ مِن ذلك موعظةُ هؤلاء، وزيادةُ تسليةِ الرسول ﷺ، والتعريض بوعدِه بالانتصار له[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بعد أن تكلَّم في التوحيدِ، ونفيِ الأنداد، وإثباتِ النُّبوَّة، والجوابِ عن شبهات المنكِرين لها، وفي أحوالِ القيامة؛ شرَع في ذِكْرِ القصصِ علىٰ السُّنَّةِ المعلومة[(٤)].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، سيقت لتأكيدِ ما مرَّ مِن التَّسليةِ والوعد بالهداية والنصر في قولِه تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ بحكايةِ ما جرىٰ بَيْنَ مَن ذُكِر مِن الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام وبَيْنَ قومهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصودُ[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٨٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٤-٢٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٥٨).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١٧).

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كانت الواوُ لا تُرتِّب، فلم يَلزَمْ مِن هذا أن يكونَ هذا الجَعْلُ بعد إنزالِ الكتاب كما هو الواقع؛ رتَّب عليه قولَه: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾[1].

قوله: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ ﴾ مفرَّعٌ عن إيتاءِ الكتاب؛ فالإيتاءُ متقدِّمٌ عليه[2].

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا هدَّد المكذِّبين بإهلاك الأوَّلين، الذين كانوا أقوىٰ منهم وأكثَر، وقدَّم قِصَّةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمناسبةِ الكتاب في نفسه أولًا، وفي تنجيمِه[3] ثانيًا؛ أتبعه أوَّلَ الأُمَمِ لأنَّهم أوَّلُ، ولِما في عذابهم مِن الهول، ولمناسبةِ ما بَيْنَه وبين عذابِ القِبْطِ، فقال: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾[4].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ باعتبارِ أنَّ المقصودَ وصفُ قومِه بالتَّكذيب، والإخبارُ عنهم بالتَّدمير[5].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر آخِرَ الأُمَمِ المُهلكة بعامَّةٍ وأوَّلَها، وكان إهلاكُهما بالماء؛ ذكَر مَن بَيْنَهما ممَّن أهلَكَ بغيرِ ذلك؛ إظهارًا للقدرةِ والاختيار، وطوىٰ خبَرَهم بغير

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٥).

(٣) أي: كونه موزعا علىٰ أوقات.

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦).

العذاب؛ لأنَّه -كما مضىٰ- في سياق الإنذار، فقال: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾(١).

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّه يأتي في هذا الكتابِ بما هو الحقُّ في جوابِ أمثالهم، بيَّن أنَّه فُعِل بالجميع نحوٌ مِن هذا، فقال تسليةً لنبيِّه ﷺ، وتأسيةً، وبيانًا لتشريفِه بالعفوِ عن أُمَّته: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾(٢).

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الإهلاكَ بالماء وبغيره، وكان الإهلاكُ بالماء تارةً بالبحر، وتارةً بالإمطار، وختَم بالخَسْفِ؛ ذكَر الخسفَ الناشئ عن الإمطار بحجارةِ النار، مع الغَمْرِ بالماء، دلالةً علىٰ تمامِ القدرة، وباهر العظَمة، وتذكيرًا بما يَرونه كلَّ قليلٍ في سفَرِهم إلىٰ الأرضِ المقدَّسة لمتجرهم، وافتتَح القِصَّةَ باللام المؤذِنة بعظيم الاهتمام، مقرونةً بحرفِ التَّحقيق؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم لعدمِ الانتفاع بالآياتِ كالمنكِرين للمحسوسات، وغيَّر الأسلوبَ تنبيهًا علىٰ عظيمِ الشَّأن، وهزًّا للسامع، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾(٣).

لمَّا كان سوقُ خبَرِ قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّس وما بينهما مِن القرون مقصودًا لاعتبارِ قُريشٍ بمصائرهم، نُقِل نَظْمُ الكلامِ هنا إلىٰ إضاعتِهم

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٨٩).

الاعتبارَ بذلك، وبما هو أظهَرُ منه لأنظارهم؛ وهو آثارُ العذاب الذي نزَل بقريةِ قوم لوطٍ(١).

﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، مسُوقةٌ لبيانِ مشاهدتهم لآثارِ هلاكِ بعضِ الأُمَم المُتبَّرة، وعدمِ اتعاظهم بها، وتصديرُها بالقَسَمِ لمزيدِ تقرير مضمونها(٢).

﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا أثبَت تكذيبَهم بالآخرة، عطَف عليه تحقيقًا قولَه -مُبيِّنًا أنَّهم لم يَقتصروا على التَّكذيب بالممكِن المحبوب حتى ضَمُّوا إليه الاستهزاءَ بمَن لا يُمكِن أصلًا في العادة أن يكونَ موضعًا للهُزْءِ-: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾(٣).

كان ما تقدَّمتْ حكايتُه مِن صنوفِ أذاهم الرسولَ ﷺ أقوالًا في مَغِيبه، فعُطِف عليها في هذه الآيةِ أذًى خاصٌّ؛ وهو الأذى حين يَرَونه، وهذا صِنْفٌ مِن الأذى تَبعَثهم إليه مشاهدةُ الرسول في غيرِ زِيِّ الكُبَراء والمُترَفِين، لا يجُرُّ المطارفَ(٤)، ولا يركَب النجائبَ(٥)، ولا يمشي مرحًا، ولا ينظُرُ خُيَلاءَ، ويجالِس الصالحين، ويُعرِض عن المشركين، ويرفُقُ بالضعفاء، ويواصِلُ الفقراءَ، وأولئك يَستخِفُّون بالخُلُقِ الحسَن؛ لِما غلَب على آرائهم مِن أفنٍ(٦)؛ لذلك لم يَخْلُ حالُه عندهم مِن الاستهزاء به إذا

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١٩).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٩١).

(٤) من الثياب.

(٥) أي: الإبل الخفيفة السريعة.

(٦) أي: ضعف عقل.

رأَوْهُ بأنَّ حالَه ليست حالَ مَن يختاره اللهُ لرسالته دُونَهم، ولا هو أهلٌ لقيادتِهم وسياستهم، وهذا الكلامُ صدَر مِن أبي جهلٍ وأهلِ ناديه[(١)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن مبالغةَ المشركين في إنكارِ نبوَّتِه، وفي إيرادِ الشُّبهات في ذلك؛ بيَّن بعد ذلك أنَّهم إذا رأَوُا الرسولَ اتخذوه هُزُوًا؛ فلم يَقتصروا على تركِ الإيمان به، بل زادوا عليه بالاستهزاءِ والاستحقار، ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[(٢)].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

ثم استأنَفوا مُعجِّبينَ مِن أنفسهم، مُخيِّلين غيرَهم مِن الالتفات إلى ما يأتي به مِن المعجزات، قائلين: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[(٣)].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا أخبَره تعالى بحقيقةِ حالهم، في ابتدائِهم ومآلهم، وكان ذلك ممَّا يحزُنُه ﷺ -لشِدَّة حرصِه على رجوعهم، ولزومِ ما يَنفعهم، واجتنابِ ما يضُرُّهم-؛ سلَّاه بقولِه مُعجِّبًا مِن حالهم: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٦١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٩١).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٢).

استئنافٌ خوطب به الرسولُ ﷺ فيما يخطُرُ بنفسِه مِن الحزنِ علىٰ تكرُّر إعراضهم عن دعوتِه؛ إذ كان حريصًا علىٰ هُداهم، والإلحاحِ في دعوتهم، فأعلَمَه بأنَّ مِثْلَهم لا يُرجَىٰ اهتداؤه؛ لأنَّهم جعَلوا هواهم إلههم[1].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيبٌ لرسول اللهِ ﷺ مِن شناعةِ حالهم بعد حكايةِ قبائحهم مِن الأقوالِ والأفعال، وبيانِ ما لهم مِن المصيرِ والمآل، وتنبيهٌ علىٰ أنَّ ذلك مِن الغرابةِ بحيث يجب أن يُرَىٰ ويُتعجَّبَ منه[2].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا انتفىٰ الرَّدُّ عن الهوىٰ قسرًا بالوكالة، نفىٰ الرَّدَّ طوعًا بتقبيح الضَّلالة، فذكَر المانعَ منه بقولِه مُعادِلًا لِما قبله، مُنكِرًا حِسْبانَه، لا كونَه هو الحاسبَ، أو أنكَر كونَه هو الحاسبَ، مع ما له مِن العقلِ الرَّزين، والرَّأي الرَّصين، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

انتقالٌ عن التَّأييس مِن اهتدائهم لغلَبَةِ الهوىٰ علىٰ عقولهم إلىٰ التَّحذير مِن أن يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائل والحُجَج، وهذا توجيهٌ ثانٍ للإعراض عن مجادَلتِهم التي أنبأ عنها قولُه تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٧).

ثم انتقل سبحانه مِن الإنكارِ الأوَّل إلى إنكارٍ آخَر، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا بيَّن جمودَ المعترِضين على دلائلِ الخالق، وتَناهي جهلِهم، وفسادِ طريقتهم، وكان المرادُ مِن العبد في تعرُّف ذلك أن ينظُرَ في أفعالِ سيِّده بعينِ الحقيقة نظرًا تفنَى لديه الأغيارُ، فلا يرى إلا الفاعلَ المختار؛ خاطَب رأسَ المخلِصين النَّاظرين هذا النَّظَرَ؛ حثًّا لأهلِ وُدِّه على مثلِ ذلك، فقال ذاكرًا لأنواعٍ مِن الدَّلائل الدالة على وجودِ الخالق، وإحاطةِ علمه، وشمولِ قُدْرته، مشيرًا إلى أنَّ النَّاظرَ في هذا الدَّليل -لوضوحِه في الدلالة على الخالق- كالناظرِ إلى الخالق، معبِّرًا بوصفِ الإحسان تشويقًا إلى إدامةِ النظر إليه، والإقبالِ عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيه انتقالٌ مِن إثباتِ صِدْقِ الرسول ﷺ، وإثباتِ أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله أنزَله على رسوله، وصفاتِ الرُّسل. وفيه انتقالٌ إلى الاستدلالِ على بطلانِ شركِهم، وإثباتِ الوَحْدانيَّة لله(٣).

لمَّا بيَّن تعالى جَهْلَ المعترِضين على دلائلِ الخالق، وفسادَ طريقتهم؛ ذكَر أنواعًا مِن الدلائلِ الواضحة التي تدلُّ على قُدْرتِه التامة لعلَّهم يَتدبَّرونها، ويؤمنون بمَن هذه

(١) فتح القدير (٤/ ٩٠).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٧-٣٩٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٨).

قُدْرتُه، وتصرُّفُه في عالَمِه؛ فبدأ بحالِ الظِّلِّ في زيادتِه ونقصانه، وتغيُّره مِن حالٍ إلىٰ حال، وأنَّ ذلك جارٍ علىٰ مشيئته(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ بعضِ دلائل التَّوحيد، وما فيها مِن النِّعَمِ العظمىٰ الجديرةِ بأن تُتلقَّىٰ بالشُّكر، لا بالكفر، كحالِ هؤلاء الكفرة، بقولِه سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾(٢).

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كانت إزالتُه شيئًا فشيئًا بعد مُدَّةٍ كذلك مِن العظَمة بمكانٍ، قال منبِّهًا علىٰ فضلِ مدخولِ ﴿ثُمَّ﴾ وترتُّبه متصاعِدًا في درجِ الفضل، فما هنا أفضَلُ ممَّا قبله، وما قبله أجَلُّ ممَّا تقدَّمه، تشبيهًا لتباعُدِ ما بَيْنَ المراتبِ الثَّلاث في الفضل بتباعُدِ ما بَيْنَ الحوادثِ في الوقت: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾(٣).

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿مَدَّ﴾ داخلٌ في حُكْمِه، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الزماني؛ لِما أنَّ في بيانِ كونِ القَبْضِ والمَدِّ مُرتَّبَينِ دائرَينِ علىٰ قُطْبِ مصالحِ المخلوقات مزيدَ دلالةٍ علىٰ الحِكْمة الرَّبانيَّة(٤).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا تضمَّنتْ هذه الآيةُ الليلَ والنهار، قال مُصرِّحًا بهما دليلًا علىٰ الحق، وإظهارًا للنِّعمة علىٰ الخَلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١١١).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ٤٣٠).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٣).
(٥) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٩).

مناسبةُ الانتقال مِن الاستدلال باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاء[١] إلى الاعتبار بأحوال اللَّيل والنَّهار: ظاهرةٌ؛ فاللَّيل يُشبِه الظِّلَّ في أنَّه ظُلْمةٌ تعقُبُ نورَ الشمس[٢].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ بيانٌ لبعضِ بدائعِ آثار قُدْرته تعالىٰ وحِكْمتِه، وروائعِ أحكام رحمتِه، ونِعَمِه الفائضة علىٰ الخَلق، وتلوينُ الخطاب لتوفيةِ مقامِ الامتنان حقَّه، وفي تعقيبِ بيان أحوالِ الظِّلِّ ببيانِ أحكام اللَّيل الذي هو ظِلُّ الأرض مِن لُطفِ المسلكِ ما لا مزيدَ عليه[٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ عظَمتِه بتصرُّفه في المعاني بالإيجادِ والإعدام، وختَمه بالإماتةِ والإحياء بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبعه التَّصرُّفَ في الأعيان بمثلِ ذلك، دالًّا علىٰ الإماتةِ والإحياء بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، وفيه النَّشْرُ الذي ختمَ به ما قبله، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[٤].

استدلالٌ علىٰ الانفراد بالخَلق، وامتنانٌ بتكوينِ الرِّياح والأسحبة والمطر، ومناسبةُ الانتقال مِن حيث ما في الاستدلال الذي قبله مِن ذِكرِ حالِ النُّشور والامتنانِ به، فانتقل إلىٰ ما في الرياح مِن النُّشورِ بذِكرِ وصفِها بأنَّها «نشر» علىٰ قراءةِ الجمهور، أو

---

(١) أي: ارتفاع الشمس.

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٤٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٣).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٠).

لكونها كذلك في الواقعِ على قراءة عاصم. ومردودُ الاستدلال قَصْرُ إرسالِ الرياح وما عُطِف عليه على الله تعالى؛ إبطالًا لادِّعاء الشُّركاء له في الإلهيَّة بنَفْيِ الشَّركة في التَّصرُّف في هذه الكائناتِ، وذلك ما لا يُنكِره المشركون[1].

﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الأفعالُ دالَّةً على البعثِ لكن بنوعِ خفاءٍ، أتبَعها ثمرةَ هذا الفعل دليلًا واضحًا على ذلك، فقال مُعبِّرًا بالإحياء لذلك، مُعلِّلًا للطَّهور المرادِ به البُعْدُ عن جميعِ ما يُدنِّسه مِن ملوحةٍ أو مرارةٍ، ونحوِ ذلك ممَّا يَمنَع كمالَ الانتفاع به: ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[2].

ثم ذكَر سبحانه علَّةَ الإنزال، فقال: ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[3].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أنَّ مِن ثمرةِ إنزال القرآن نجومًا إحياءَ القلوب التي هي أرواحُ الأرواح، وأتبَعه ما لاءَمَه، إلى أن ختَم بما جعَله سببًا لحياةِ الأشباح، فكان موضعًا لتوقُّع العَوْدِ إلى ما هو حياةُ الأرواح؛ قال عاطفًا على متعلَّقِ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ ﴾، مُنبِّهًا على فائدةٍ أخرى لتنجيمِه أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٠١).

(٣) فتح القدير (٤/ ٩٤).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٣-٤٠٤).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا كان تعنتُّهم بأن يُنزَّلَ عليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرًا ربما أثار في النَّفس طلَبَ إجابتِهم إلىٰ مقترَحِهم حرصًا علىٰ هدايتهم، فأومأ أولًا إلىٰ أنَّه لا فائدةَ في ذلك بأنَّ مؤازرةَ هارونَ لموسىٰ عليه السلام لم تُغْنِ عن القِبْطِ شيئًا، وثانيًا بأنَّ المدارَ في وجوبِ التَّصديق للنَّذير الإتيانُ بما يُعجِزُ، وكان ذلك موجودًا في آياتِ القرآن، المصرَّفةِ في كل زمانٍ ومكانٍ بكلِّ بيانٍ، فكانت كلُّ آيةٍ منه قائمةً مقامَ نذيرٍ؛ قال مشيرًا إلىٰ أنَّه إنَّما ترَكَ ذلك لحِكَمٍ يَعلَمها: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾[1].

لمَّا عَلِم تعالىٰ ما كابَده الرسولُ مِن أذىٰ قومِه، أعلَمَه أنَّه تعالىٰ لو أراد لبعَث في كلِّ قريةٍ نذيرًا، فيخفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجلَّك إذ جعَل إنذارَك عامًّا للناس كلِّهم، وخصَّك بذلك ليُكثِرَ ثوابَك؛ لأنَّه علىٰ كثرةِ المجاهَدة يكون الثواب، وليَجمَع لك حسناتِ مَن آمَن بك[2].

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

ولكنَّا لم نَفعَلْ؛ لِما في آياتِ القرآن مِن الكفاية في ذلك، ولِما في انفرادك بالدعوة مِن الشَّرَفِ لك، وغيرِ ذلك مِن الحِكْمة؛ ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾[3].

ثم أمَره بمقابلةِ ذلك بالاجتهاد في الدعوةِ، والثَّبات فيها، فقال: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١١٧).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٥).

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ ﴾

ولمَّا ذكَر تصريفَ الفرقان، ونَشْرَه في جميعِ البلدان، بعد إثارةِ الرياح ونَشْرِ السَّحاب، وخَلْطِ الماء بالتراب، لجَمْعِ النبات وتفريقِه؛ أتبَعه -تذكيرًا بالنِّعْمة، وتحذيرًا مِن إحلال النقمة- الحَجْزَ بَيْنَ أنواعِ الماء الذي لا أعظَمَ امتزاجًا منه، وجَمْعَ كلِّ نوعٍ منها علىٰ حِدَتِه، ومَنْعَه مِن أن يختلِطَ بالآخَرِ مع اختلاط الكلِّ بالتراب المتصِل بعضُه ببعضٍ، فقال عائدًا إلىٰ أسلوبِ الغَيْبة -تذكيرًا بالإحسان بالعطفِ علىٰ ضمير «الربِّ» في آية الظِّلِّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1].

عَوْدٌ إلىٰ الاستدلال علىٰ تفرُّده تعالىٰ بالخَلْقِ، جمَعتْ هذه الآيةُ استدلالًا وتمثيلًا، وتثبيتًا ووعدًا؛ فصريحُها استدلالٌ علىٰ شيءٍ عظيم مِن آثار القدرة الإلهيَّة؛ وهو التقاءُ الأنهارِ والأبحُرِ[2].

ثم ذكَر سبحانه دليلًا رابعًا علىٰ التَّوحيد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[3].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ ﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ قُدْرتَه في منعِ الماء مِن الاختلاط، أتبَعه القدرةَ علىٰ خَلْطِه؛ لئلا يُظَنَّ أنَّه ممتنِعٌ؛ تقريرًا للفعلِ بالاختيار، وإبطالًا للقولِ بالطبائع، فقال معبِّرًا بالضمير

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٣-٥٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٩٥).

-كما تقدَّمه- حثًّا على استحضارِ الأفعال والصفات التي تقدَّمت؛ لتُعرَفَ الحيثيَّةُ التي كرَّر الضَّميرَ لأجلها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾(١).

مناسبةُ موقعِ هذا الاستدلالِ بعد ما قبله: أنَّه استدلالٌ بدقيقِ آثار القدرة في تكوينِ المياه، وجعلِها سببَ حياةٍ مختلِفةِ الأشكال والأوضاع، ومِن أعظَمِها دقائقُ الماء الذي خُلِق منه أشرَفُ الأنواع التي على الأرض، وهو نُطْفةُ الإنسان، بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسل للبشر؛ فإنَّه يكون أوَّلَ أمرِه ماءً، ثم يَتخلَّق منه البشَرُ العظيم(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الخامس مِن دلائلِ التوحيد(٣).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا أثبَتَ له بهذه الأدلةِ القدرةَ على كلِّ شيء، قال مُعجِّبًا منهم في موضعِ الحال مِن ﴿رَبُّكَ﴾، عَوْدًا إلى تهجينِ سِيرتهم في عبادةِ غيره، مُعبِّرًا بالمضارع، إشارةً إلى أنَّهم لو فعَلوا ذلك مرةً لكان في غايةِ العجَبِ، فكيف وهو على سبيل التَّجديدِ والاستمرار؟ ومُصوِّرًا لحالهم زيادةً في تبشيعِها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾(٤).

الواوُ للحالِ، وهذا مستعمَلٌ في التعجيب مِن استمرارهم في الشرك، أُعقِبَ ذِكْرَ ما نفَع اللهُ به الناسَ مِن إلطافِه بهم في تصاريف الكائنات؛ إذ جعَل لهم الليلَ

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٧٥).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٠٩).

والنهار، وخلَق لهم الماءَ فأنبَت به الزرعَ، وسقىٰ به الناسَ والأنعام، مع ما قارَنه مِن دلائل القدرة بذِكْرِ عبادتهم ما لا يَنفَع الناسَ؛ عَوْدًا إلىٰ حكايةِ شيءٍ مِن أحوال مشركي مكَّةَ[(١)].

لمَّا ذكَر دلائلَ قُدْرتِه، وما امتَنَّ به علىٰ عباده مِن غرائبِ مصنوعاته؛ وثبَت بذلك أنَّه المستحِقُّ للعبادة؛ لنفعِه وضرِّه؛ بيَّن فسادَ عقول المشركين حيث يعبدون الأصنامَ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح دلائلَ التوحيد، عاد إلىٰ تهجينِ سِيرتهم في عبادة الأوثان[(٣)].

لمَّا ذكَر سبحانه دلائلَ التَّوحيد، عاد إلىٰ ذِكْرِ قبائحِ الكفار، وفضائحِ سِيرتهم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[(٤)].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير -تسليةً له ﷺ-: فالزَمْ ما نأمرك به، ولا يَزِدْ همُّك بردِّهم عمَّا هم فيه؛ فإنَّا ما أرسلناك عليهم وكيلًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[(٥)].

لمَّا أفضىٰ الكلامُ بأفانينِ انتقالاته إلىٰ التعجيبِ مِن استمرارهم علىٰ أن يعبدوا ما لا يضُرُّهم ولا يَنفعهم، أُعقِبَ بما يومئ إلىٰ استمرارِهم علىٰ تكذيبهم محمَّدًا ﷺ في

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٧٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٩٧).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٤١١).

دعوىٰ الرسالة بنسبةِ ما بلَّغه إليهم إلىٰ الإفكِ، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، وأنَّه سِحْرٌ، فأُبطِلتْ دعاويهم كلُّها بوصفِ النَّبيِّ بأنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، وقَصْرِه علىٰ صفتَيِ التبشير والنِّذارة. وهذا الكلامُ الوارد في الردِّ عليهم جامعٌ بَيْنَ إبطالِ إنكارهم لرسالته وبَيْنَ تأنيسِ الرسول ﷺ بأنَّه ليس بمُضِلٍّ، ولكنَّه مبشِّرٌ ونذير، وفيه تعريضٌ بألا يَحزَنَ لتكذيبِهم إيَّاه(١).

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا وقَع جوابُهم عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وكان قد بَقِي قولُهم: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾؛ أُشيرَ إلىٰ مزيدِ الاهتمام بجوابه؛ بإبرازِه في صورة الجواب لِمَن كأنَّه قال: ماذا يقال لهم إذا تظاهَروا وطعَنوا في الرسالةِ بما تقدَّم وغيره؟ فقال: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾(٢).

ثم أمَره بأن يخاطِبَهم بأنَّه غيرُ طامعٍ مِن دعوتِهم في أن يَعتزَّ باتباعِهم إيَّاه حتىٰ يَحسَبوا أنَّهم إن أعرَضوا عنه، فقد بلَغوا مِن النِّكاية به أمَلَهم؛ بل ما عليه إلا التبليغُ بالتبشير والنِّذارة لفائدتهم، لا يريد منهم الجزاءَ علىٰ عملِه ذلك(٣).

ثم أمَره تعالىٰ أن يَحتجَّ عليهم مُزيلًا لوجوه التُّهَمِ بقولِه: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤١١).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١١٩).

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ رَدَّهم عن عنادِهم، وكان ذلك في غايةِ الصُّعوبة، وكان هذا الكلامُ لا يُردُّ متعنِّتيهم -وهم الأغلَبُ- الذين تُخشَىٰ غائلتُهم؛ عطَف علىٰ ﴿قُلْ﴾ قولَه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[(١)].

لمَّا أخبَر أنَّه فطَم نفسَه عن سؤالهم شيئًا، أمَره تعالىٰ بتفويضِ أمرِه إليه، وثقتِه به واعتمادِه عليه؛ فهو المتكفِّلُ بنصرِه وإظهار دِينه[(٢)].

لمَّا بيَّن أنَّ الكفارَ متظاهِرون علىٰ إيذائه، فأمَره بألا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ؛ أمَره بأن يَتوكَّلَ عليه في دفعِ جميع المَضارِّ، وفي جلبِ جميعِ المنافع[(٣)].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾

ثم وصَفه بما يقتضي أنَّه مع ما له مِن عظيمِ القدرةِ بالمُلْكِ والاختراع متَّصِفٌ بالأناةِ، وشمولِ العلم، وحُسْنِ التَّدبير؛ ليَتأسَّىٰ به المتوكِّلُ عليه، فقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[(٤)].

أُجريت هذه الصلةُ وصفًا ثانيًا للحيِّ الذي لا يموت؛ لاقتضائها سَعةَ العلم، وسَعة القدرة، وعظيمَ المجد؛ فصاحبُها حقيقٌ بأن يُتوكَّلَ عليه، ويُفوَّضَ أمرُ الجزاء إليه، وهذا تخلُّصٌ إلىٰ العَود إلىٰ الاستدلال علىٰ تصرُّفِ الله تعالىٰ بالخَلق[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤١٢-٤١٣).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٢٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٧٦).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤١٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٦٠).

لمَّا أمَره بالتوكُّلِ والتسبيح، وذكَر صفةَ الحياة الدائمة؛ ذكَر ما دلَّ علىٰ القدرةِ التامة؛ وهو إيجادُ هذا العالَم(١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر إحسانَه إليهم، وإنعامَه عليهم؛ ذكَر ما أبدَوْهُ مِن كفرِهم في موضعِ شكرِهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾(٢).

لمَّا جرىٰ وصفُ الله تعالىٰ بالرَّحمنِ مع صفاتٍ أُخَرَ، استطرَد ذِكر كفرِ المشركين بهذا الوصفِ(٣).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر حالَ النَّذير الذي ابتدأ به السُّورةَ في دعائه إلىٰ الرَّحمنِ الذي لو لم يَدْعُ إلىٰ عبادتِه إلا رَحْمانيَّتُه لكفىٰ، فكيف بكلِّ جمالٍ وجلالٍ؟! فأنكَروه؛ اقتضىٰ الحالُ أن يوصَلَ به إثباتُه بإثباتِ ما هم عالِمون به مِن آثارِ رَحْمانيَّته، ففصَّل ما أجمَل بعد ذِكْرِ حالِ النَّذير، ثم من الملك، مُصدِّرًا له بوصفِ الحقِّ الذي جعَله مطلعَ السُّورة رادًّا لِما تضمَّن إنكارُهم مِن نفيِه، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٢٠).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤١٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٦١).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤١٦-٤١٧).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا حكىٰ عن الكفارِ مزيدَ النُّفْرةِ عن السُّجود، ذكَر ما لو تفكَّروا فيه لعرَفوا وجوبَ السُّجودِ والعبادة للرَّحمن، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الآيتينِ، ذكَر ما هما آيتاه، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[2].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر عبادَه الذين خذَلهم بتسليطِ الشَّيطان عليهم، فصاروا حِزْبَ الشَّيطان، ولم يُضِفْهم إلىٰ اسمٍ مِن أسمائه، إيذانًا بإهانتِهم لهوانِهم عنده، وهم الذين صرَّح بهم قولُه أوَّلَ السورة: ﴿ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾، وختَم بالتذكُّر والشكر إشارةً إلىٰ عبادِه الذين أخلَصهم لنفسه، وأشار إليهم سابقًا بتخصيصِ الوصف بالفُرْقان، فأتبَع ذلك ذِكْرَهم، فقال عاطفًا علىٰ جملةِ الكلام في قولِه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾، لكنَّه رفَعهم بالابتداءِ تشريفًا لهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٧٩).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤١٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤١٩-٤٢٠).

لمَّا تقدَّم ذِكْرُ الكفار وذمُّهم، وجاء ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ ذكر أحوالَ المؤمنين المتذكِّرين الشاكرين، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(١).

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مسُوقٌ لبيانِ أوصاف خُلَّصِ عباد الرَّحمن، وأحوالِهم الدُّنيويَّة والأُخْرويَّة، بعد بيانِ حال النَّافرين عن عبادتِه والسُّجود له(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما بَيْنَهم وبين الخَلق مِن القول والفعل، وكان الغالبُ على ذلك أن يكونَ جِلْوةً نهارًا؛ ذكَر ما بينهم وبين خالقهم مِن ذلك خَلْوةً ليلًا، وذكَر هذه المعطوفاتِ التي هي صفاتٌ بالواوِ تنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تستقِلُّ بالقصد؛ لعِظَمِ خطَرِها، وكِبَرِ أثرها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾(٣).

عطفُ صفةٍ أخرى على صفتَيْهم السابقتينِ(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر سِيرتَهم في النهارِ مِن وجهين: أحدهما: تركُ الإيذاء، وهو المراد مِن قولِه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، والآخَرُ: تحمُّل التأذِّي، وهو المراد مِن قولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾، فكأنَّه شرَح سِيرتَهم مع الخَلْقِ في النهار، فبيَّن في هذه الآياتِ سِيرتَهم في الليالي عند الاشتغالِ بخِدْمة الخالق(٥).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٢٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٨١).

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر تهذيبَهم لأنفسهم للخَلْقِ والخالق، أشار إلىٰ أنَّه لا إعجابَ عندهم، بل هم وَجِلون، وأنَّ الحاملَ لهم علىٰ ذلك الإيمانُ بالآخرة التي كذَّب بها الجاهلون، وقدَّموا الدُّعاءَ بالنَّجاة اهتمامًا بدَرْءِ المفسدة، وإشعارًا بأنَّهم مستحِقُّون لذلك وإنِ اجتهَدوا؛ لتقصيرِهم عن أن يقدُروه سبحانه حقَّ قَدْرِه، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ وصَفهم بإحياءِ الليل ساجدين وقائمين، ثم عقَّبه بذِكْرِ دعوتِهم هذه؛ إيذانًا بأنَّهم مع اجتهادِهم خائفون، مبتهِلون إلىٰ الله في صَرْفِ العذابِ عنهم[(٢)].

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت لها هذا الوصفُ، أنتَج قولَه: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ يجوز أن تكونَ حكايةً لكلامِ القائلين، فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأول، وأن تكونَ مِن جانبِ الله تعالىٰ دُونَ التي قبلها، فتكونَ تأييدًا لتعليل القائلين، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبلها، فتكونَ تكريرًا للاعتراض[(٤)].

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ تعليلٌ لاستدعائهم المذكورِ بسُوءِ حالها في نفسها إثْرَ تعليله بسُوءِ حال عذابها[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٢-٤٢٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٨١).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٧١).
(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾

ولمَّا ذكَر أفعالَهم وأقوالهم فيما بَيْنَهم وبين الخَلْقِ وقدَّمه، والخالقِ وأخَّره؛ لأنَّ وجوبَه يكون بعد ذلك: ذكَر أحوالَهم في أموالهم؛ نظرًا إلىٰ قولِ الكفرة: ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ ﴾، وهدايةً إلىٰ طريقِ الغنىٰ؛ لأنَّه «ما عالَ مَن اقتصَد»[1]، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ ﴾

ولمَّا ذكَر ما تحلَّوْا به مِن أصولِ الطاعات، بما لهم مِن العدلِ والإحسان بالأفعال والأقوال، في الأبدانِ والأموال؛ أتبَعه ما تخلَّوْا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفحشاء والمنكَر، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾[3].

هذا قِسْمٌ آخرُ مِن صفاتِ عبادِ الرَّحمن، وهو قسمُ التخلِّي عن المفاسدِ التي كانت ملازِمةً لقومهم مِن المشركين، فتنزَّه عبادُ الرَّحمن عنها بسببِ إيمانهم، وذكَر هنا تنزُّهَهم عن الشركِ وقتلِ النفس والزِّنا، وهذه القبائحُ الثلاث كانت غالبةً علىٰ المشركين[4].

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ شروعٌ في بيانِ اجتنابهم عن المعاصي بعد بيانِ إتيانهم بالطاعات[5].

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٢٦٩).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٣).

(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٩).

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

ثم ذكَر جزاءَ مَن فعَل ذلك، فقال: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

اعلَمْ أنَّه سبحانه وتعالى ذكَر أنَّ مِن صفةِ عباد الرَّحمن الاحترازَ عن الشركِ والقتل والزِّنا، ثم ذكَر بعد ذلك حُكْمَ مَن يفعل هذه الأشياءَ مِن العقاب[١].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه تهديدَ الفُجَّار على هذه الأوزار، أتبعه ترغيبَ الأبرار في الإقبالِ على الله العزيزِ الغفار، فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[٢].

الاستثناءُ مِن العموم الذي أفادته ﴿مَن﴾ الشَّرطيةُ في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾؛ والتَّقدير: إلا مَن تاب فلا يُضاعَفُ له العذابُ ولا يخلُدُ فيه، وهذا تطمينٌ لنفوس فريقٍ مِن المؤمنين الذين قد كانوا تلبَّسوا بخصالِ أهل الشرك، ثم تابوا عنها بسببِ توبتهم مِن الشرك، وإلا فليس في دعوتِهم مع الله إلهًا آخرَ بعد العنوان عنهم بأنَّهم عبادُ الرَّحمن ثناءٌ زائدٌ[٣].

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ ﴾

ولمَّا أشعَرتِ الفاءُ بالتَّسبيب، ودلَّ تأكيدُ الفعل بالمصدرِ على الاحتياج إلى عملٍ كثيرٍ ربما جَلَّ عن طَوْقِ البشر، وأشار إلى التَّطريقِ له بالوصفينِ العظيمين؛ أتبَع

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٨٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٥).

ذلك بيانَ الطريقِ إليه بما أجرىٰ مِن العادة، فقال: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾[1].

لمَّا ذكَر صحَّةَ التوبةِ عن تلك الخصالِ في الآية السابقة، بيَّن تعالىٰ هنا أنَّ جميعَ الذُّنوبِ بمنزلتها في صحَّةِ التوبة منها.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا وصَف عبادَه سبحانه بأنَّهم تحلَّوْا بأصولِ الفضائل، وتخلَّوْا عن أمَّهاتِ الرَّذائل، ورغَّب في التَّوبة؛ لأنَّ الإنسانَ لعَجْزِه لا ينفكُّ عن النَّقص، وكان قد مدَحهم بعد الأُولىٰ مِن صفاتهم بالحِلْمِ عن الجهلِ: مدَحهم قبل الأخرىٰ مِن أمداحهم، وعقَّب تَرْكَهم الزِّنا بالإعراض أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقدِّمات الزِّنا، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[2].

أتبَع خصالَ المؤمنين الثلاثَ التي هي قِوامُ الإيمان بخصالٍ أخرىٰ مِن خصالهم هي مِن كمالِ الإيمان، والتخلُّقِ بفضائله، ومجانَبةِ أحوالِ أهل الشرك. وتلك ثلاثُ خصالٍ: أُولاها أفصَحَ عنها قولُه هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ الآية[3].

ثم وصَف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ١٠٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ ﴾

ولمَّا ذكَر وَصْفَهم الذي فاقوا به، أشار إلىٰ وصفِ الجهلة الذي سفَلوا به، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾(١).

أريدَ تمييزُ المؤمنين بمخالَفةِ حالةٍ هي مِن حالاتِ المشركين، وتلك هي حالةُ سماعهم دعوةَ الرسول ﷺ، وما تشتمِلُ عليه مِن آياتِ القرآن، وطلبِ النظر في دلائلِ الوَحْدانيَّة؛ فلذلك جيءَ بالصلةِ منفيَّةً لتحصيلِ الثناء عليهم مع التعريضِ بتفظيعِ حال المشركين؛ فإنَّ المشركين إذا ذُكِّروا بآياتِ الله خَرُّوا صُمًّا وعميانًا؛ كحالِ مَن لا يحبُّ أن يرىٰ شيئًا، فيَجعَلُ وجهَه علىٰ الأرض(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾

ولمَّا ذكَر هذه الخَصْلةَ المثمِرة لِما يلي الخَصْلة الأُولىٰ، ختَم بما يُنتِجُ الصفةَ الأُولىٰ، فقال مؤذِنًا بأنَّ إمامةَ الدِّين ينبغي أن تُطلَبَ ويُرغَبَ فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(٣).

هذه صفةٌ ثالثةٌ للمؤمنين بأنَّهم يُعْنَوْنَ بانتشارِ الإسلام وتكثيرِ أتباعه، فيَدْعُون اللهَ أن يرزُقَهم أزواجًا وذُرِّياتٍ تَقَرُّ بهم أعيُنُهم، فالأزواجُ يُطِعْنَهم باتباعِ الإسلام وشرائعِه؛ فقد كان بعضُ أزواج المسلمين مخالِفاتٍ أزواجَهم في الدِّين، والذُّرياتُ

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٨٠).
(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٤).

إذا نشَؤوا نشَؤوا مؤمنين، وقد جُمِع ذلك لهم في صفةِ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ فإنَّها جامعةٌ للكمال في الدِّين، واستقامةِ الأحوال في الحياة؛ إذ لا تَقَرُّ عيونُ المؤمنين إلا بأزواجٍ وأبناء مؤمنين(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

ولمَّا وصَف سبحانه عبادَه المؤمنين بضدِّ أوصاف الكافرين مِن الرِّفقِ والسَّكينة، والتواضع والحِلْمِ والطُّمَأنينة، والشكر لربِّهم، والرغبة إليه، والرهبة منه، وقال الرازيُّ: فوصَف مَشْيَهم وخطابَهم، وانتصابَهم له ودعاءهم، ونفقاتِهم ونزاهتَهم، وتيقُّظَهم وانتباهَهم، وصِدْقَهم ومحبَّتَهم ونُصْحَهم؛ تشوَّف السامعُ إلىٰ ما لهم عنده بعد المعرفةِ بما للكافرين، فابتدأ الخبرَ عن ذلك بتعظيمِ شأنهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾(٢).

التصديرُ باسمِ الإشارة للتنبيهِ علىٰ أنَّ ما يردُ بعده كانوا أحرياءَ به؛ لأجلِ ما ذُكِر قبل اسمِ الإشارة، وتلك مجموعُ إحدىٰ عَشْرَةَ خَصْلةً؛ وهي: التواضعُ، والحِلم، والتهجُّد، والخوف، وتركُ الإسراف، وتركُ الإقتار، والتنزُّه عن الشرك، وتركُ الزِّنا، وتركُ قتلِ النفس، والتوبةُ، وتركُ الكذب، والعفوُ عن المُسيء، وقَبولُ دعوة الحق، وإظهارُ الاحتياج إلىٰ الله بالدعاء(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٨١).
(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٥-٤٣٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٨٤).

لمَّا كانت هِمَمُهم ومطالبهم عاليةً، كان الجزاءُ مِن جنسِ العمل، فجازاهم بالمنازلِ العاليات، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾[1].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ ﴾

ولمَّا كان هذا ناطقًا بدوامِ حياتهم سالِمين بصريحِه، وبعظيمِ شرَفِهم بلازمِه؛ دلَّ علىٰ أنَّهم لا يبرَحون عنه بقولِه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[2].

أنَّه سبحانه لمَّا وعَد بالمنافعِ أولًا وبالتعظيم ثانيًا، بيَّن أنَّ مِن صفتِهما الدوامَ؛ وهو المراد مِن قولِه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[3].

﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧ ﴾

ولمَّا ثبَت أمرُ الرَّحمانيَّة، فظهَر أمرُ الرَّحمن وما عليه عبادُه مِن الدعاء الذي هو الخضوعُ والإخلاص، وختم أوصافهم الحسنة بالدعاء الدال علىٰ الإخلاص في الخضوع، وذكَر حُسْنَ جزائهم وكريمَ مُنقلَبِهم؛ أمَر النَّذيرَ أن يقولَ لعبادِ الشيطان الذين تكبَّروا عن السُّجود للرحمن، وعن الاعتراف والإيمان، ليَرجِعوا عن العصيان، ويزدادَ المؤمنون في الطاعات والإيمان: إنَّ ربَّه لا يَعتدُّ بمَن لا يَدْعوه، فمَن ترَك دعاءه، فَلْيرتقِبِ العذابَ الدَّائم، فقال: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٨٦).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٨٨).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٣٧).

لمَّا استوعبت السُّورةُ أغراضَ التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمَّنته مِن توحيدِ الله، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدين وتعلُّلاتهم، وأحوالِ المؤمنين، وأقيمت الحُجَجُ الدامغة للمعرِضين؛ خُتِمتْ بأمرِ اللهِ رسولَه ﷺ أن يخاطِبَ المشركين بكلمةٍ جامعة يُزال بها غرورُهم وإعجابهم بأنفسِهم، وحِسْبانُهم أنَّهم قد شَفَوْا غليلَهم مِن الرسول بالإعراض عن دعوتِه، وتورُّكِهم في مجادَلتِه، فبيَّن لهم حقارتَهم عند الله تعالىٰ، وأنَّه ما بعَث إليهم رسولَه وخاطَبهم بكتابه إلا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذ كذَّبوا فسوف يحُلُّ بهم العذابُ(١).

لمَّا وصَف عبادَه العُبَّادَ، وعدَّد ما لهم مِن صالحِ الأعمال؛ أمَر رسولَه ﷺ أن يصرِّحَ للناس بأن لا اكتراثَ لهم عند ربِّهم؛ إنَّما هو العبادةُ والدعاء(٢).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا شرَح صفاتِ المتَّقِين، وشرَح حالَ ثوابهم؛ أمَر رسولَه أن يقولَ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾، فدَلَّ بذلك علىٰ أنَّه تعالىٰ غنيٌّ عن عبادتهم، وأنَّه تعالىٰ إنَّما كلَّفهم ليَنتفعوا بطاعتِهم(٣).

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٨٨).

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾

ولمَّا فرَّق سبحانه في تلك بَيْنَ الدِّينِ الحقِّ والمذهبِ الباطل، وبيَّن ذلك غايةَ البيان، وفصَل عبادَ الرَّحمن مِن عبادِ الشيطان، وأخبرَ أنَّه عَمَّ برسالته ﷺ جميعَ الخلائق، وختَم بشديدِ الإنذار لأهلِ الإدبار، وكان حينَ نزولِها لم يَسلَمْ منهم إلا القليلُ، وكان ذلك ربما أوهَم قُرْبَ إهلاكهم، وإنزالَ البطشِ بهم؛ كما كان في آخرِ سورةِ «مريمَ»، وأشارت الأحرُفُ المقطَّعة إلىٰ مثلِ ذلك، فأوجَب الأسفَ علىٰ فواتِ ما كان يُرجَىٰ مِن رحمتِهم بالإيمان، والحفظِ عن نوازلِ الحَدَثانِ، وكان ذلك أيضًا ربما أوجَب أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ عدمَ إسلامهم لنقصٍ في البيان؛ أزال ذلك سبحانه أوَّلَ هذه، فقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[1].

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان قد قدَّم في تلك أنَّه عَمَّ برسالته جميعَ الخلائق، وختَم بالإنذار علىٰ تكذيبهم في تخلُّفِهم، مع إزاحةِ جميع العِلَل، ونفىٰ كلَّ خَلَل، وكان ذلك ممَّا يقتضي شِدَّةَ أسَفِه ﷺ علىٰ المتخلِّفين؛ وذلك لِما عنده ﷺ مِن مزيدِ الشفقة، وعظيمِ

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣).

الرحمة؛ قال تعالىٰ يسلِّيه، ويُزِيل مِن أسَفِه ويعزِّيه، علىٰ سبيل الاستئناف، مشيرًا إلىٰ أنَّه لا نَقْصَ في إنذارِه ولا في كتابه الذي يُنذِر به يكون سببًا لوقوفِهم عن الإيمان؛ وإنَّما السَّببُ في ذلك محضُ إرادةِ الله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[١].

حُوِّل الخطابُ مِن توجيهه إلىٰ المعانِدين إلىٰ توجيهه للرسول ﷺ، والكلامُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عمَّا يثيرُه مضمونُ قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ مِن تساؤلِ النَّبيِّ ﷺ في نفسِه عن استمرارِ إعراض المشركين عن الإيمانِ وتصديقِ القرآن[٢].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ أنَّه بيَّن الأمورَ، قال بعده: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾، منبِّهًا بذلك علىٰ أنَّ الكتابَ وإن بلَغ في البيان كلَّ غايةٍ، فغيرُ مُدخِلٍ لهم في الإيمان؛ لِما أنَّه سبَق حُكْمُ الله بخلافه، فلا تبالِغْ في الحزنِ والأسف علىٰ ذلك؛ لأنَّك إن بالَغتَ فيه كنتَ بمنزلة مَن يقتُلُ نفسَه، ثم لا ينتفع بذلك أصلًا، فصبَّره وعزَّاه وعرَّفه أنَّ غمَّه وحُزْنَه لا نَفْعَ فيه؛ كما أنَّ وجودَ الكتاب علىٰ بيانِه ووضوحه لا نَفْعَ لهم فيه[٣].

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

ولمَّا كان المحبُّ ميَّالًا إلىٰ ما يريد حبيبُه، أعلَمَهم أنَّ كلَّ ما هم فيه بإرادته، فقال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٩٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٩٠).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٨).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾؛ لأنَّ التسليةَ على عدمِ إيمانهم تثيرُ في النفس سؤالًا عن إمهالِهم دُونَ عقوبةٍ ليؤمنوا، فأجيبَ بأنَّ الله قادرٌ على ذلك(١).

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتعليلِ ما يُفهَم مِن الكلام مِن النَّهي عن التَّحسُّر المذكور ببيانِ أنَّ إيمانَهم ليس ممَّا تعلَّقتْ به مشيئةُ الله تعالىٰ حتمًا؛ فلا وجهَ للطمعِ فيه، والتَّألم مِن فواته(٢).

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾

عطفٌ على جملة ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾؛ أي: هذه شِنْشِنَتُهم؛ فلا تأسَفْ لعدمِ إيمانهم بآياتِ الكتاب المبين، وما يَجِيئهم منها مِن بعدُ فسيُعرِضون عنه؛ لأنَّهم عُرِفوا بالإعراض(٣).

قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ مِن تمام قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم﴾، فنبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّه مع قُدْرتِه علىٰ أن يَجعَلَهم مؤمنين بالإلجاء رحيمٌ بهم مِن حيث يأتيهم حالًا بعد حالٍ بالقرآن؛ وهو الذِّكر، ويكرِّرُه عليهم، وهم مع ذلك علىٰ حدٍّ واحدٍ في الإعراضِ والتكذيب والاستهزاء(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٩٤).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٩٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٩١).

بيانٌ لشِدَّةِ شكيمتهم، وعدمِ ارعوائهم عمَّا كانوا عليه مِن الكفرِ والتَّكذيب بغير ما ذُكِر مِن الآية الملجِئة لصرفِ رسول اللهِ ﷺ عن الحرصِ على إسلامهم، وقطعِ رجائه عنه(١).

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا كان حالُ المُعرِضِ عن الشَّيء حالَ المكذِّبِ به، قال: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾(٢).

فاءُ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ فصيحةٌ؛ أي: فقد تبيَّن أنَّ إعراضَهم إعراضُ تكذيبٍ بعد الإخبار عنهم بأنَّ سُنَّتَهم الإعراضُ عن الذِّكر الآتي بعضُه عَقِبَ بعضٍ؛ فإنَّ الإعراضَ كان لأنَّهم قد كذَّبوا بالقرآن(٣).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت رؤيتُهم للآياتِ السماوية والأرضيَّة الموجِبة للانقياد والخضوع موجِبةً لإنكارِ تخلُّفهم عمَّا تدعو إليه، فضلًا عن الاستهزاء، وكان قد تقدَّم آخِرَ تلك الحثُّ على تدبُّرِ بروجِ السماء وما يَتبَعها مِن الدَّلالات، فكان التَّقديرُ: ألم يَرَوا إلى السماء كم أودَعْنا في بروجِها وغيرِها مِن آياتٍ نافعة وضارَّة؛ كالأمطارِ والصواعق؟ عطَف عليه ما ينشأ عن ذلك في الأرضِ في قولِه مُعجِّبًا منهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٩٨).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٠).

الـواوُ عاطفـةٌ علـىٰ جملـة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾؛ فالهمزةُ الاستفهامية منه مقدَّمةٌ علىٰ واوِ العطف لفظًا؛ لأنَّ للاستفهام الصدارةَ، والمقصودُ منه إقامةُ الحُجَّةِ عليهم بأنَّهم لا تُغني فيهم الآياتُ؛ لأنَّ المكابرةَ تَصرِفُهم عن التأمُّل في الآيات، والآياتُ علىٰ صحَّةِ ما يدعوهم إليه القرآنُ مِن التوحيدِ والإيمان بالبعث قائمةٌ متظاهِرة في السماواتِ والأرض، وهم قد عَمُوا عنها، فأشرَكوا بالله؛ فلا عجَبَ أن يَضِلُّوا عن آياتِ صِدْقِ الرسول ﷺ، وكونِ القرآن منزَّلًا مِن الله، فلو كان هؤلاء متطلِّعِين إلىٰ الحقِّ باحثين عنه، لكان لهم في الآياتِ التي ذكَروا بها مَقنَعٌ لهم عن الآيات التي يقترحونها(١).

بيانٌ لإعراضهم عن الآيات التَّكوينيَّة بعد بيانِ إعراضهم عن الآيات التَّنزيليَّة(٢).

ثم ذكَر سبحانه ما يدلُّ علىٰ كمالِ قُدْرتِه مِن الأمور الحسيَّة التي يحصُلُ بها للمتأمِّلِ فيها والناظر إليها والمستدِلِّ بها أعظَمُ دليلٍ وأوضَحُ برهانٍ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان ذلك باهرًا للعقل، مُنبِّهًا له في كلِّ حالٍ علىٰ عظيمِ اقتدار خالقه، وبديعِ اختياره؛ وصَل به قولَه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٠).

(٢) روح المعاني (١٠/ ٦١).

(٣) فتح القدير (٤/ ١١٠).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١١).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾

جملةُ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تذييلٌ لهذا الخبرِ: بوصفِ الله بالعِزَّة؛ أي: تمامُ القدرة، فتعلَمون أنَّه لو شاء لعجَّل لهم العقابَ، وبوصفِ الرحمة إيماءً إلىٰ أنَّ في إمهالِهم رحمةً بهم لعلَّهم يشكرون، وفي وصفِ الرحمة إيماءٌ إلىٰ أنَّه يَرحَم رُسُلَه بتأييدِه ونصره[١].

ولمَّا ذكَر أنَّ أكثَرهم لا يؤمِن، ذكَر أنَّه لا يمتنِعُ عليه شيءٌ يريده بهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ ﴾

لمَّا اقتضىٰ وصفُ العِزَّةِ الإهلاكَ، ووصفُ الرَّحمةِ الإمهالَ، وكان الأولُ مقدَّمًا، وكانت عادتهم تقديمَ ما هم به أهَمُّ، وهو لهم أعنىٰ؛ خِيفَتْ غائلتُه، فأتبَعَ ذلك أخبارَ هذه الأُمَم؛ دلالةً علىٰ الوصفينِ معًا ترغيبًا وترهيبًا، ودلالةً علىٰ أنَّ الرحمةَ سبَقتِ الغضبَ، وإن قدَّم الوصفَ اللائق به، فلا يُعذِّب إلا بعد البيانِ مع طولِ الإمهال، وأخلىٰ قِصَّةَ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام مِن ذِكْرِ الإهلاك إشارةً إلىٰ البشارة بالرِّفق ببَنِيهِ العرَبِ في الإمهال؛ كما رفَق بهم في الإنزال والإرسال، ولمَّا كان مع ذلك في هذه القِصَّةِ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ فيما يقاسيه مِن الأذىٰ والتكذيب، وكانت التسليةُ بموسىٰ وإبراهيمَ عليهما السلام أتَمَّ؛ لِما لهما مِن القُرْبِ، والمشاركةِ في الهجرة، والقصدِ إلىٰ الأرض المقدَّسة، وكان قد اختَصَّ موسىٰ عليه السلام بالكتابِ الذي ما بعد القرآنِ مِثْلُه، والآياتِ

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٢).

التي ما أتىٰ بمثلِها أحدٌ قبله، وإقرارِ عينِه بهداية قومه، وحِفْظِهم بعده بالكتاب، وسياسةِ الأنبياء المجدِّدين لشريعتِه، وعدمِ استئصالهم بالعذاب والانتقام بأيديهم مِن جميعِ أعدائهم، وفَتْحِ بلاد الكفرةِ علىٰ أيديهم بعده ﷺ، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا شابَهوا به هذه الأمَّةَ، مع مجاوَرتِهم للعرَبِ حتىٰ في دارِ الهجرة، وموطنِ النُّصرة؛ ليكونَ في إقرارهم علىٰ ما يَسمَعون مِن أخبارهم أعظَمُ معجزةٍ، وأتَمُّ دلالةٍ: قدَّمهما، مقدِّمًا لموسىٰ، عليه السلام والتحية والإكرام، فإن كان القصدُ تسكينَ ما أورَثه آخِرَ تلك مِن خوفِ الملازمة بالعذاب نظرًا إلىٰ وصفِ العِزَّة، فالتَّقدير: اذكُرْ أثَرَ رحمتِنا بطُولِ إمهالنا لقومِك -وهم علىٰ أشدِّ ما يكون مِن الكفر والضَّلال في أيام الجاهليَّة- برحمتِنا الشاملة بإرسالك إليهم وأنت أشرَفُ الرسل، وإنزالِ هذا الكتابِ الذي هو أعظَمُ الكتب، وعلىٰ تقديرِ التسلية يكون العطفُ علىٰ تلك؛ لأنَّ المرادَ بها التنبيهُ، فالتَّقدير: خُذْ آياتِ الكتاب، واذكُرْ إذ ﴿نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

شروعٌ في عَدِّ آياتٍ علىٰ صِدْقِ الرسول ﷺ بذِكْرِ عواقبِ المكذِّبين برُسلِهم؛ ليَحذَرَ المخاطَبون بالدعوة إلىٰ الإسلام مِن أن يُصيبَهم ما أصاب المكذِّبين، وفي ضِمْنِ ذلك تبيينٌ لبعضِ ما نادىٰ به الرُّسلُ مِن البراهين[2].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبله مِن إعراضهم عن كلِّ ما يأتيهم مِن الآياتِ التنزيلية، وتكذيبِهم بها، إثرَ بيانِ إعراضهم عمَّا يشاهدونه مِن الآياتِ التكوينيَّة[3].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٣-١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٥).

📖 ﴿ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان كأنَّه قيل: أيُّ قوم؟ قال مبدِلًا -إشارةً أنَّ العبارتينِ مؤدَّاهما واحدٌ؛ لأنَّهم عريقون في الظُّلم؛ لظُلْمِهم أنفسَهم بالكفرِ وغيرِه، وظُلْمِ بني إسرائيلَ وغيرِهم مِن العباد-: ﴿ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ ﴾[1].

ثم عقَّب ذلك بذِكْرِ وصفِهم الذاتي بطريقةِ البيان مِن القومِ الظالمين؛ وهو قولُه: ﴿ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ ﴾، وفي تكريرِ كلمة ﴿ قَوۡمَ ﴾ موقعٌ مِن التأكيد[2].

﴿ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ بدلٌ مِن الأول، أو عطفُ بيانٍ له، جيء به للإيذانِ بأنَّهم عَلَمٌ في الظُّلم، كأنَّ معنى القومِ الظالمين وترجمتَه قومُ فِرْعونَ[3].

📖 ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ مَن أتى الناسَ بما يُخالِف أهواءهم لم يُقبَلْ، أخبَر مَن تشوَّف إلى معرفةِ جوابه أنَّه أجاب بما يقتضي الدعاءَ بالمعونة لِما عرف مِن خطَرِ هذا المقامِ بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[4].

لمَّا كان فِرْعونُ عظيمَ النَّخوة حتى ادعى الإلهيَّةَ، كثيرَ المهابة، قد أُشرِبت القلوبُ الخوفَ منه، خصوصًا مَن كان مِن بني إسرائيلَ؛ قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٥).

(٥) البحر المحيط (٨/ ١٤٣).

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ ما مضى، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[(١)].

﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ ﴾

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى لمَّا أمَر موسى عليه السلام بالذَّهاب إلى قوم فِرْعونَ، طلَب موسى عليه السلام أن يَبعَثَ معه هارونَ إليهم، ثم ذكَر الأمورَ الداعية له إلى ذلك السؤالِ، وحاصلُها أنَّه لو لم يكُنْ هارونُ، لاختلَّتِ المصلحةُ المطلوبة مِن بَعْثةِ موسى عليه السلام[(٢)].

﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ معطوفانِ على خبر (إن)، فيفيد أنَّ فيه عليه السلام ثلاثَ عِلَلٍ: خوفُ التكذيب، وضِيقُ الصدر، وامتناعُ انطلاقِ اللسان. والظاهرُ ثبوتُ الأمرينِ الأخيرين في أنفسِهما غيرَ متفرِّعين على التكذيبِ؛ ليدخُلا تحت الخوف[(٣)].

ثم ذكَر ما ينتُجُ عن الخوفِ والتكذيب، فقال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾.

﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤ ﴾

ولمَّا ذكَر ما تؤثرُه الرسالةُ، وقدَّم الإشارةَ إلى استكشافه لأنَّه أهَمُّ؛ أتبعه ما يترتَّب على مطلَق التَّظاهر لهم، فضلًا عن مواجهتِهم بما يَكرَهون، فقال: ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٩٣).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٦٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٧).

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ ﴾

ولمَّا استشرَفت النَّفسُ إلىٰ معرفةِ جوابه عن هذه الأمورِ المهمَّة، شفىٰ عناءَها بقولِه -إعلامًا بأنَّه سبحانه استجاب له في كلِّ ما سأل-: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾[1].

﴿ كَلَّا ﴾ حرفُ إبطالٍ، وفي هذا الإبطالِ استجابةٌ لِما تضمَّنه التعريضُ بالدعاء حين قال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾[2].

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ﴾ حكايةٌ لإجابته تعالىٰ إلىٰ الطلَبينِ: الدَّفعِ المفهوم مِن الرَّدْعِ عن الخوف، وضَمِّ أخيه المفهومِ مِن توجيهِ الخطاب إليهما بطريقِ التغليب[3].

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ ﴾

ولمَّا نفىٰ سبحانه أن يكونَ شيءٌ ممَّا خافه موسىٰ عليه السلام علىٰ هذا الوجهِ المؤكَّد، وكان ظهورُ ذلك في مقارعةِ الرَّأس أدلَّ وأظهرَ؛ صرَّح به في قولِه: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾[4].

والفاءُ في قولِه تعالىٰ: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لترتيبِ ما بعدها علىٰ ما قبلها مِن الوعدِ الكريم، وليس هذا مجرَّدَ تأكيدٍ للأمر بالذَّهاب؛ لأنَّ معناه الوصولُ إلىٰ المأتيِّ، لا مجرَّدُ التَّوجُّهِ إليه كالذَّهاب[5].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٧-١٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٧).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٩).
(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٧).

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧﴾

ثم ذكَر له ما قصَد مِن الرسالةِ إليه، فقال مُعبرًا بأداةِ التَّفسير -لأنَّ الرسولَ فيه معنىٰ الرسالة التي تَتضمَّن القولَ-: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

جملةُ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسيريةٌ؛ لِما تضمَّنه رسولٌ مِن الرسالةِ التي هي في معنىٰ القول[2].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّهما امتثَلا ما أمَرهما اللهُ، فأتَياه وقالا له ما أُمِرا به؛ تشوَّفت النَّفسُ إلىٰ جوابِه لهما، ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[3].

طُوِيَ مِن الكلام ذَهابُ موسىٰ وهارونَ إلىٰ فِرْعونَ، واستئذانُهما عليه، وإبلاغُهما ما أمَرهما اللهُ أن يقولا لِفرْعونَ؛ إيجازًا للكلام، ووجَّه فِرْعونُ خطابَه إلىٰ موسىٰ وَحْدَه؛ لأنَّه عَلِم مِن تفصيلِ كلام موسىٰ وهارونَ أنَّ موسىٰ هو الرسولُ بالأصالة، وأنَّ هارونَ كان عَوْنًا له علىٰ التبليغ، فلم يشتغِلْ بالكلام مع هارونَ. وأعرَض فِرْعونُ عن الاعتناءِ بإبطال دعوةِ موسىٰ، فعدَل إلىٰ تذكيره بنِعْمةِ الفراعنةِ أسلافِه علىٰ موسىٰ، وتخويفِه مِن جنايتِه؛ حِسْبانًا بأنَّ ذلك يقتلِعُ الدعوةَ مِن جِذْمِها[4]، ويكُفُّ موسىٰ عنها. وقصدُه مِن هذا الخطابِ إفحامُ موسىٰ كي يَتلعثَمَ مِن خشيةِ فِرْعونَ؛ حيث أوجَد له سببًا يَتذرَّع به إلىٰ قتلِه، ويكون معذورًا فيه؛ حيث كفَر نِعْمةَ الوِلايةِ بالتربية، واقترَف جُرْمَ الجنايةِ علىٰ الأنفس[5].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٩-٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٠).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٠).

(٤) أي: أصلها.

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٠).

ولمَّا بادَهَه موسىٰ بأنَّه رسولُ ربِّ العالَمين، وأمَره بإرسالِ بني إسرائيلَ معه؛ أخَذ يستحقِرُه، ويُضرِبُ عن المُرسِل، وعمَّا جاء به مِن عندِه، ويذكِّرُه بحالةِ الصِّغَرِ، والمَنِّ عليه بالتربية[1].

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا ذكَّره مِنَّةً تَحمِلُه علىٰ الحياء منه، ذكَّره ذَنْبًا هو أهلٌ لأن يخافَ مِن عاقبته، فقال مُهوِّلًا له بالكناية عنه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

فكأنَّه قال: وأنتَ منَّا؛ فما لك الآن تُنكِرُ علينا وتنسُبُنا إلىٰ الكفرِ؟ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[3].

كانت رِباطةُ جأشِ موسىٰ وتوكُّلُه علىٰ ربِّه باعثةً له علىٰ الاعترافِ بالفَعْلة، وذكر ما نشأ عنها مِن خيرٍ له؛ ليدلَّ علىٰ أنَّه حَمِدَ أثَرَها، وإن كان قد اقترَفَها غيرَ مقدِّرٍ ما جرَّته إليه مِن خيرٍ؛ فابتدأ بالإقرارِ بفَعْلتِه ليَعلَمَ فِرْعونُ أنَّه لم يَجِدْ لكلامه مدخلَ تأثيرٍ في نفسِ موسىٰ، وأخَّر موسىٰ الجوابَ عن قول فِرْعونَ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؛ لأنَّه عَلِم أنَّ القصدَ منه الإقصارُ مِن مواجهته بأنَّ ربًّا أعلىٰ مِن فِرْعونَ أرسَل موسىٰ إليه، وابتدأ بالجواب عن الأهمِّ مِن كلام فِرْعونَ؛

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢١).

وهو ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾؛ لأنَّه عَلِم أنَّه أدخَلُ في قصدِ الإفحام، وليَظهَرَ لفِرْعونَ أنَّه لا يَوْجَلُ مِن أن يطالِبوه بذَحْلِ[1] ذلك القتيلِ؛ ثقةً بأنَّ اللهَ يُنجيه مِن عدوانهم[2].

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ إجابةُ موسىٰ عليه السلام عن كلامِه الأخير المتضمِّنِ للقتل؛ إذ كان الاعتذارُ فيه أهَمَّ مِن الجواب في ذِكرِ النِّعْمةِ بالتربية؛ لأنَّه فيه إزهاقُ النفس[3].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾

فتسبَّب عن فعلِها: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا اجتمَع في كلام فِرْعونَ مَنٌّ وتعييرٌ، بدأ بجوابه عن التَّعييرِ؛ لأنَّه الأخيرُ، فكان أقرَبَ، ولأنَّه أهَمُّ، ثم عطَف عليه جوابه عمَّا مَنَّ به، فقال مُوبِّخًا له، مُبكِّتًا، مُنكِرًا عليه، غيرَ أنَّه حذَف حرف الإنكار إجمالًا في القول، وإحسانًا في الخطاب: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[4].

ثم كَرَّ علىٰ ما عَدَّه عليه مِن النِّعْمة، ولم يُصرِّحْ بردِّه؛ حيث كان صدقًا غيرَ قادحٍ في دعواه، بل نبَّه علىٰ أنَّ ذلك كان في الحقيقةِ نِقْمةً، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[5].

---

(١) أي: ثأر.
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٣).
(٣) البحر المحيط (٨/ ١٤٦).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٢).
(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٨).

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كلَّم اللَّئيمُ الذَّميم الكليمَ العظيم بما رجَا أن يكُفَّه عن مواجهتِه بما يَكرَه، ويَرجِعَه إلىٰ مُداراته، فلم يَفعَلْ، وفَهِم ما في جوابه هذا الأخيرِ مِن الذَّمِّ له والتَّعجيز، وإثباتِ القدرةِ التامة والعلم الشامل لله، بما دبَّر في أمرِ موسىٰ عليه السلام، وأنَّه لا يَنهَضُ لذلك بجوابٍ، ولا يُحمَد له فيه قولٌ؛ عدَل عنه إلىٰ جوابِه عن الرسالة بما يُموِّهُ به أيضًا علىٰ قومِه؛ لئلا يَرجِعوا عنه، فأخبَر تعالىٰ عن محاوَرتِه في ذلك بقولِه علىٰ طريق الجواب لِمَن كأنَّه قال: ما قال له جوابًا لهذا الكلام، الذي كأنَّه السِّهام؟ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

لمَّا لم يَرُجْ تهويلُه علىٰ موسىٰ عليه السلام، وعَلِم أنَّه غيرُ مُقلِعٍ عن دعوتِه -تنفيذًا لِما أمَره الله-؛ ثَنَىٰ عِنانَ جدالِه إلىٰ تلك الدعوةِ، فاستفهَم عن حقيقةِ رَبِّ العالَمين الذي ذكَر موسىٰ وهارونُ أنَّهما مرسَلانِ منه إذ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، وإظهارُ اسمِ فِرْعونَ مع أنَّ طريقةَ حكاية المقاوَلات والمحاوَرة يُكتفىٰ فيها بضميرِ القائلين بطريقةِ قال قال، أو قال فقال، فعدَل عن تلك الطريقةِ إلىٰ إظهار اسمه؛ لإيضاحِ صاحبِ هذه المقالةِ؛ لبُعْدِ ما بَيْنَ قولِه هذا، وقولِه الآخَر[(٢)].

لمَّا أخبَر موسىٰ فِرْعونَ بأنَّه ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، لم يَسأَلْ إذ ذاك فيقولَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟ بل أخَذ في المداهاةِ، وتَذْكارِ التربية، والتقبيحِ لِما فعَله مِن قتلِ القِبْطيِّ، فلمَّا أجابه عن ذلك، انقطَعتْ حُجَّتُه في التربيةِ والقتل، وكان في قولِه: ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دعاءٌ إلىٰ الإقرارِ بربوبية الله، وإلىٰ طاعةِ ربِّ العالَم، فأخذ فِرْعونُ يستفهِمُ عن الذي ذكَر موسىٰ أنَّه رسولٌ مِن عندِه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٦).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).

لمَّا سَمِع منه ﷺ تلك المقالةَ المتينة، وشاهَد تصلُّبَه في أمرِه، وعدمَ تأثُّرِه بما قدَّمه مِن الإبراقِ والإرعاد؛ شرَع في الاعتراض على دَعْواه ﷺ، فبدأ بالاستفسارِ عن المُرسِل(١).

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾

ولمَّا كان تعريفُ حقيقتِه سبحانه بنفسها مُحالًا لعدمِ التركيب، فكان تعريفُها لا يصحُّ إلا بالخارج اللازم الجليِّ؛ تشوَّف السَّامعُ إلىٰ ما يجيبُ به عنه، فاستأنَف قولَه إخبارًا عنه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾(٢).

كان جوابُ موسىٰ عليه السلام بيانًا لحقيقةِ ربِّ العالَمين بما يُصيِّرُ وَصْفَه بـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نصًّا لا يحتمِلُ غيرَ ما أراده مِن ظاهرِه، فأتىٰ بشرحِ اللفظ بما هو تفصيلٌ لمعناه؛ إذ قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾، فبذِكْرِ السمواتِ والأرضِ وبعمومِ ما بينهما، حصَل بيانُ حقيقةِ المسؤول عنه بـ«ما»(٣).

لمَّا سأله فِرْعونُ، وكان السؤال بـ«ما» التي هي سؤالٌ عن الماهيَّة، ولم يمكِنِ الجوابُ بالماهية؛ أجاب بالصفاتِ التي تبيِّنُ للسامع أنَّه لا مشاركةَ لفِرْعونَ فيها؛ وهي ربوبيَّةُ السماواتِ والأرض وما بينهما(٤).

﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥﴾

أعرَض فِرْعونُ عن خطابِ موسىٰ، واستثار نفوسَ الملأ مِن حولِه، وهم أهلُ مجلسه، فاستفهَمهم استفهامَ تعجُّبٍ مِن حالهم؛ كيف لم يَستمعوا ما قاله موسىٰ؟

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٩).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٧).
(٤) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).

فنزَّلهم منزلةَ مَن لم يستمِعْهُ تهييجًا لنفوسِهم؛ كي لا تَتمكَّنَ منهم حُجَّةُ موسىٰ، فسلَّط الاستفهامَ علىٰ نفيِ استماعهم كما تقدَّم، وهذا التَّعجُّبُ مِن حالِ استماعهم وسكوتِهم يقتضي التَّعجُّبَ مِن كلام موسىٰ بطريقِ فحوىٰ الخطاب، فهو كنايةٌ عن تعجُّبٍ آخرَ، ومَرجِعُ التعجُّبَينِ أنَّ إثباتَ ربٍّ واحد لجميعِ المخلوقات مُنكَرٌ عند فِرْعونَ؛ لأنَّه كان مشركًا، فيَرىٰ توحيدَ الإله لا يصحُّ السكوتُ عليه، ولكونِ خطاب فِرْعونَ لِمَن حوله يَتضمَّن جوابًا عن كلامِ موسىٰ، حُكِي كلامُ فِرْعونَ بالصيغةِ التي اعتِيدت في القرآنِ حكايةُ المقاوَلات بها؛ كما تقدَّم غيرَ مرة؛ كأنَّه يجيب موسىٰ عن كلامِه[1].

فكأنَّه قيل: فماذا قال عند سماعِ جوابه عليه السلام؟ فقيل: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا وبَّخ اللعينَ في جوابه، وكان ربما ادَّعىٰ أنَّ الخافِقَينِ وما بينهما مِن الفضاءِ غيرُ مخلوق، فتشوَّف السامعُ إلىٰ جواب يلزمه؛ استأنَف الشفاءَ لعِيِّ هذا السؤالِ بقولِه: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2].

كلامُ موسىٰ عليه السلام هذا في مَعرِضِ الجواب عن تعجُّبِ فِرْعونَ مِن سكوتِ مَن حولِه؛ فلذلك كانت حكايتُه قولَه علىٰ الطريقةِ التي تُحكَىٰ بها المقاوَلاتُ، ولمَّا كان في كلام فِرْعونَ إعراضٌ عن مخاطبةِ موسىٰ -إذ تجاوَزه إلىٰ مخاطَبةِ مَن حوله-، وجَّه موسىٰ خطابَه إلىٰ جميعهم، وإذ رأىٰ موسىٰ أنَّهم جميعًا لم يهتدوا إلىٰ الاقتناع بالاستدلال علىٰ خَلْقِ اللهِ العوالِمَ الذي ابتدأ به؛ إذ هو أوسَعُ دلالةً علىٰ وجودِ الله

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٥).

تعالىٰ ووَحْدانيَّته؛ إذ في كلِّ شيء ممَّا في السماوات والأرض وما بينهما آيةٌ تدلُّ علىٰ أنَّه واحدٌ؛ فنزَل بهم إلىٰ الاستدلالِ بأنفسهم وبآبائهم إذ أوجَدهم اللهُ بعد العدمِ، ثم أعدَم آباءَهم بعد وجودهم؛ لأنَّ أحوالَ أنفسهم وآبائهم أقربُ إليهم، وأيسَرُ استدلالًا علىٰ خالقهم؛ فالاستدلالُ الأول يمتاز بالعموم، والاستدلالُ الثاني يمتاز بالقُرْبِ مِن الضرورة(١).

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ ﴾

فلمَّا أوضَح بذلك بطلانَ ما حمَلهم علىٰ اعتقاده مِن ربوبيَّتِه، لم يَتمالَكْ أنْ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾(٢).

احتَدَّ فِرْعونُ لمَّا ذكَر موسىٰ ما يَشمَل آباءه المقدَّسين بذِكْرٍ يُخرِجهم مِن صفةِ الإلهيَّة، زاعمًا أنَّ هذا يخالِفُ العقلَ بالضرورة، فلا يصدُرُ إلا مِن مختلِّ الإدراك، وكأنَّه رأىٰ أنَّ الاستدلالَ بخالقيَّتِهم وخالقيَّةِ آبائهم عبثٌ؛ لأنَّ فِرْعونَ وملأه يَرَون تكوينَ الآدمي بالتولُّد، وهم لا يَحسَبون التكوينَ الدال علىٰ الخالقيَّةِ إلا التكوينَ بالطَّفرة دُونَ التدريجِ بِناءً علىٰ أنَّ الأشياءَ المعتادة لا تَتفطَّن إلىٰ دقائقِها العقولُ الساذجة، فهم يَحسَبون تكوينَ الفَرْخِ مِن البيضة أقَلَّ مِن تكوينِ الرَّعد، وأنَّ تكوينَ دودةِ القَزِّ أدلُّ علىٰ الخالق مِن تكوينِ الآدميِّ مع أنَّه ليس كذلك؛ فلذلك زعَم أنَّ ادعاءَ دلالةِ تكوينِ الآباء والأبناء ودلالةِ فَناءِ الآباء علىٰ ثبوتِ الإله الواحد ربِّ الآباء والأبناء ضربًا مِن الجنون؛ إذ هو تكوينٌ لم يَشهَدوا دقائقه، والمعروفُ المألوف ولادةُ الأجنَّة، وموتُ الأموات(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٨-١١٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٩).

لمَّا واجَهه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بما ذُكِر، غاظه ذلك، وخاف مِن تأثُّر قومه منه، فأراهم أنَّ ما قاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ممَّا لا يصدُرُ عن العقلاء؛ صدًّا لهم عن قَبوله، فقال مؤكِّدًا لمقالته الشَّنعاء بحرفَيِ التَّأكيد: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[1].

﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٨﴾

ولمَّا أساء الأدبَ، فاشتَدَّ تشوُّفُ السامع إلىٰ معرفةِ جوابه عنه، استأنَف تعالىٰ الإخبارَ بذلك، فحكىٰ أنَّه ذكَر له ما لا يمكِنُه أن يَدَّعيَ طاعتَه له -وهو أكثَرُ تغيُّرًا، وأعجَبُ تنقُّلًا- بأنْ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[2].

لمَّا رأىٰ موسىٰ سُوءَ فهمِهم، وعدمَ اقتناعهم بالاستدلال علىٰ الوَحْدانيَّة بالتكوينِ المعتاد -إذ التبَس عليهم الأمرُ المعتاد بالأمرِ الذي لا صانعَ له-؛ انتقَل موسىٰ إلىٰ ما لا قِبَلَ لهم بجحدِه ولا التباسِه؛ وهو التصرُّفُ العجيب المُشاهَد كلَّ يوم مرتين[3].

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾

لمَّا لم يَجِدْ فِرْعونُ لِحِجَاجِه نجاحًا، ورأىٰ شِدَّةَ شكيمةِ موسىٰ في الحقِّ؛ عدَل عن الحِجاج إلىٰ التخويف؛ ليَقطَعَ دعوةَ موسىٰ مِن أصلها، وهذا شأنُ مَن قهرَتْهُ الحُجَّةُ وفيه كبرياءُ؛ أن ينصرِفَ عن الجدلِ إلىٰ التهديد[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢١).

لمَّا عجَز عن الحِجاج، عدَل إلىٰ التخويف[1].

لمَّا سَمِع اللَّعينُ منه عليه السلام تلك المقالاتِ المبنيَّةَ علىٰ أساسِ الحِكَمِ البالغة، وشاهَد شِدَّةَ حزمِه وقوَّةَ عزمِه علىٰ تمشيةِ أمرِه، وأنَّه ممَّن لا يُجارىٰ في حلبةِ المحاوَرة؛ ضرَب صَفْحًا عن المقاوَلة بالإنصاف، ونأىٰ بجانبِه إلىٰ عُدْوةِ الجَوْرِ والاعتساف، فقال مُظهِرًا لِما كان يُضمِره عند السُّؤال والجواب: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[2].

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

لمَّا رأىٰ موسىٰ عليه السلام مِن مكابَرةِ فِرْعونَ عن الاعتراف بدلالةِ النظر ما لا مَطمَعَ معه إلىٰ الاسترسالِ في الاستدلال؛ لأنَّه مُتعامٍ عن الحقِّ: عدَل موسىٰ إلىٰ إظهارِ آيةٍ مِن خوارقِ العادة دلالةً علىٰ صِدْقِه، وعرَض عليه ذلك قبل وقوعِه؛ ليسُدَّ عليه منافذَ ادعاءِ عدم الرضا بها، واستفهَمه استفهامًا مشُوبًا بإنكارٍ واستغراب علىٰ تقديرِ عدم اجتزاء فِرْعونَ بالشيءِ المُبين، وأنَّه ساجِنُه لا محالةَ إن لم يعترِفْ بإلهيَّة فِرْعونَ، قطعًا لمعذرتِه مِن قَبْلِ الوقوع[3].

عند ذلك ذكَر موسىٰ عليه السلام كلامًا مُجمَلًا ليعلِّقَ قلبَه به، فيَعدِلَ عن وعيده، فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾[4].

فأجابه موسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٠).

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾

لمَّا سَمِع فِرْعونُ هذا مِن موسىٰ، طَمِع أن يجدَه موضعَ معارَضةٍ، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

فلمَّا سَمِع فِرْعونُ ذلك، طلَب ما عرَضه عليه موسىٰ عليه السلام، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢﴾

فتسبَّب عن ذلك وتعقَّبه أنْ ألقىٰ ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[3].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾

لمَّا رأىٰ فِرْعونُ الآيةَ الأُولىٰ، فكأنَّه قال: هل لك غيرُها؟ فقيل: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[4].

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾

لمَّا رأىٰ فِرْعونُ أمرَ العصا واليدِ، وما ظهَر فيهما مِن الآياتِ؛ هاله ذلك، ولم يكُنْ له فيه مَدفَعٌ، غيرَ أنَّه فَزِعَ إلىٰ رميِه بالسِّحر[5].

فكأنَّه قيل: فماذا صنَع فِرْعونُ حيئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٥٢).
(٢) فتح القدير (٤/ ١١٤).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٧-٢٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤١).
(٥) البحر المحيط (٨/ ١٥٤).

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا أوقَفهم بما خيَّلهم به، أحماهم لأنفسِهم، فقال مُلقِيًا لجِلباب الأَنَفة لِما قهَره مِن سلطانِ المعجزة: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[(١)].

ثم استأمَرهم فيما يفعل معه؛ وذلك لِما حَلَّ به مِن التحيُّر والدَّهشِ، وانحطاطِه عن مرتبة ألوهيَّتِه، إلىٰ أن صار يستشيرهم في أمرِه، فيأمرونه بما يَظهَر لهم فيه، فصار مأمورًا بعد أن كان آمِرًا[(٢)].

﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فماذا قال الملأُ لفِرْعونَ؟ فقيل: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لمَّا قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾، عارَضوا بقولِه: ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾، فجاؤوا بكلمةِ الاستغراق والبناءِ الذي للمبالغة؛ ليُنفِّسوا عنه بعضَ ما لَحِقَه مِن الكَرْبِ[(٣)].

فنتَج عن إرسالِهم في المدائنِ قولُه: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

دلَّت الفاءُ علىٰ أنَّ جَمْعَ السَّحَرة وقَع في أسرعِ وقتٍ عَقِب بَعْثِ الحاشرين؛ حرصًا مِن الحاشرين والمحشورين علىٰ تنفيذِ أمرِ فِرْعونَ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٩).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٥٤).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٥).

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا أشاروا بتأخير أمرِه، وبأن يُجمَعَ له السَّحَرةُ؛ ليَظهَرَ عند حضورِهم فسادُ قول موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ رَضِي فِرْعونُ بما قالوه، وعَمِيَ عمَّا شاهَده، و«حُبُّ الشيءِ يُعمِي ويُصِمُّ»[(١)]، فجمَع السَّحَرةَ، ثم أراد أن تقعَ تلك المناظرةُ يومَ عيدٍ لهم؛ ليكونَ ذلك بمَحضَرِ الخَلْقِ العظيم، وكان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلُبُ ذلك لتَظهَرَ حُجَّتُه عليهم عند الخَلْقِ العظيم، وكان هذا أيضًا مِن لُطْفِ اللهِ تعالىٰ في ظهور أمرِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)].

فعَمِل فِرْعونُ برأيهم، فأرسَل في المدائنِ مَن يَجمَع السَّحَرةَ، واجتهَد في ذلك وجَدَّ، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[(٣)].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾

ثم أعقب ذلك أن نُودِيَ بعمومِ الناسِ بالاجتماع في ذلك اليومِ الموعودِ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾[(٤)].

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ٤٠﴾

وزيَّن لهم هذا القائلُ البقاءَ علىٰ ما كانوا عليه مِن الباطل بذِكْرِ جانبِ السَّحَرة، وإن كان شرَط فيه الغلَبةَ، ولم يَسمَحْ بذِكْرِ جانبِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ﴾[(٥)].

ثم ذكَروا السببَ الذي لأجلِه وقَع الاجتماعُ، فقالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢١٦٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٩٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٩٠).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٣١).

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فبعدَ ذلك حضر السَّحرةُ مِن المدائنِ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ثم قيل في جوابِ مَن كأنَّه سأل عن جوابه: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[(١)].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ جوابِ نبيِّ الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام، أجيبَ بقولِه: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾[(٢)].

حُكِيَ كلامُ موسىٰ في ذلك الجمعِ بإعادة فعلِ ﴿ قَالَ ﴾ مفصولًا بطريقةِ حكاية المحاوَرات؛ لأنَّه كان المقصودَ بالمحاوَرة؛ إذ هم حضَروا لأجله[(٣)].

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فتسبَّب عن قولِ موسىٰ عليه السلام وتعقُّبِه أنْ ألقَوْا ﴿ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[(٤)].

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم إضمارَ اسمِ موسىٰ عليه السلام في الإلقاء الأول؛ لأنَّ الكلامَ كان معه، فلم يكُنْ إلباسٌ في أنَّه الفاعلُ، وكان الكلامُ هنا في السَّحرة، وختَموا بذِكْرِ فِرْعونَ

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٦-١٢٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٢).

وعِزَّتِه: صرَّح باسمِ موسىٰ عليه السلام لنفيِ اللَّبس، فقال: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾(١).

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ ﴾

وتسبَّب عن إلقائِه وما وقَع منه قولُه: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾(٢).

فلمَّا رأَوْا ذلك، وشاهَدوه خارجًا عن حدِّ السِّحر؛ عَلِموا أنَّه ليس بسِحْرٍ، فعند ذلك لم يَتمالكوا أنْ رمَوْا بأنفسِهم إلىٰ الأرض ساجدين، كأنَّهم أُخِذوا فطُرِحوا طرحًا(٣).

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: هذا فعلُهم، فما كان قولُهم؟ قيل: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤).

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ ﴾

ثم خَصُّوه -كشفًا لتلبيسِ فِرْعونَ- بما لا يحتمِلُ غيرَه، فقالوا بيانًا: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٣-٣٤).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٣٤).

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا خاف فِرْعونُ اتباعَ النَّاس لهم؛ لِما يَرون ممَّا هالهم مِن أمرِهم، وكان قد تقدَّم ما يعرِّف أنَّ المُنكِرَ عليهم فِرْعونُ نفسُه؛ قال تعالىٰ مُخبِرًا عنه: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾(١).

اعلَمْ أنَّهم لمَّا آمَنوا بأجمَعِهم، لم يأمَنْ فِرْعونُ أن يقولَ الناسُ: إنَّ هؤلاء السَّحَرةَ -علىٰ كثرتِهم وتظاهُرِهم- لم يؤمِنوا إلا عن معرفةٍ بصحَّة أمرِ موسىٰ عليه السلام، فيسلُكون مِثْلَ طريقِهم، فلَبَسَ على القومِ، وبالَغ في التنفير عن موسىٰ عليه السلام(٢).

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم استأنَف تعالىٰ حكايةَ جوابهم بقولِه: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

ثم لا حُكْمَ علىٰ الرُّوحِ إلا لله الذي هو جديرٌ بأن يُثيبَنا علىٰ ذلك نعيمَ الأبد؛ وذلك معنىٰ قولِهم مُعلِّلين ما قبله: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

جملةُ ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ بيانٌ للمقصودِ مِن جملة ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٥-٣٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٨).

ثـم ذكـروا تعلـيلًا ثانيًـا لنفـي الضَّـير، فقـالوا: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا قَصَّ سبحانه مِن حالِ الدعاء ما كفىٰ في التَّسلية مِن قصدِ هذين النبيَّين بـالأذىٰ والـتَّهكُّم بمَـن دَعَـوْا إليـه، وجعَلهمـا الأعلَيَينِ، ولـم يضُـرَّهما ضـعفُهما وقلَّتُهمـا، ولا نفَع عدوَّهما قوَّتُه وكثرتُـه؛ شـرَع يُسـلِّي بمـا أوقَعـه في حـالِ السَّـير، فقـال طاويًـا ما بَقِيَ منه لأنَّ هذا ذكَّر بـه، عاطفًـا علىٰ هـذه القِصَّـةِ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[(١)].

هذه قِصَّةٌ أخرىٰ مِن أحوالِ موسىٰ في دعوة فِرْعونَ؛ فالواو لعطفِ القِصَّـة، ولا تفيـد قُرْبَ القِصَّةِ مِن القِصَّة؛ فقد لَبِث موسىٰ زمنًا يطالـب فِرْعـونَ بـإطلاقِ بنـي إسرائيلَ ليخرُجوا مِن مِصْرَ[(٢)].

لمَّا ظهَر أمرُ موسـىٰ عليه السلام بمـا شـاهَدوه مِـن الآيـة، أمَـره اللهُ تعـالىٰ بـأن يخـرُجَ ببنـي إسرائيلَ لما كان في المعلـوم مِـن تـدبيرِ الله تعـالىٰ في موسـىٰ، وتخليصِـه مِـن القـوم، وتمليكِه بلادَهم وأموالهم، ولم يأمَنْ، وقـد جـرت تلـك الغلَبَـةُ الظـاهرة أن يقـعَ مِـن فِرْعونَ ببني إسرائيلَ ما يؤدي إلىٰ الاستئصال؛ فلذلك أمَره اللهُ تعالىٰ أن يَسرِيَ ببني إسرائيلَ، وهم الذين آمَنوا وكانوا مِن قومِ موسىٰ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٥).

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأسرىٰ بهم امتثالًا للأمرِ بعد نصفِ الليل، عطَف عليه قولَه: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[1].

ظاهرُ ترتيبِ الجُمَلِ يقتضي أنَّ الفاءَ للتعقيب علىٰ جملة ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾، وأنَّ بَيْنَ الجملتينِ محذوفًا؛ تقديره: فأسرىٰ موسىٰ، وخرَج بهم، فأرسَل فِرْعونُ حاشرين؛ أي: لمَّا خرَج بنو إسرائيلَ، خَشِي فِرْعونُ أن يَنتشروا في مدائنِ مِصْرَ، فأرسَل فِرْعونُ في المدائنِ شُرَطًا يحشُرون الناسَ ليَلحَقوا بني إسرائيلَ، فيرُدُّوهم إلىٰ المدينةِ قاعدةِ المُلْكِ[2].

فلمَّا سَمِع ذلك فِرْعونُ، أرسَل في المدائنِ حاشرين[3].

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فكان هؤلاء الجندُ يقولون -تقويةً لقلوبهم، وتحريكًا لهِمَمِهم-: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[4].

ثم إنَّه قوَّىٰ نفسَه ونفسَ أصحابه بأنْ وصَف قومَ موسىٰ بوصفينِ مِن أوصاف الذمِّ، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[5].

ويقول مشجِّعًا لقومه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٥).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٥٩١).

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما يَمنَعُ الخوفَ مِن اتباعهم، ذكَر ما يُوجِب الحثَّ عليه، ويُحذِّر مِن التَّقاعس عنه، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾[1].

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان مدارُ مادَّة «شرذم» على التَّقطُّع، فكان في التعبير بها إشارةٌ إلى أنَّهم مع القلَّةِ متفرِّقون، ليسوا على قلبٍ واحدٍ، وذكَر أنَّ في اتباعِهم شفاءَ الغُلَلِ؛ أتبَعه ما يَنفي عن المتقاعِدِ العِلَلَ، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾[2].

قوله: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ حثٌّ لأهلِ المدائن على أن يكونوا حَذِرين على أبلَغِ وجهٍ؛ إذ جعَل نفسَه معهم في ذلك بقولِه: ﴿ لَجَمِيعٌ ﴾؛ وذلك كنايةٌ عن وجوبِ الاقتداء به في سياسةِ المملكة[3].

وبعد أن ذمَّ موسى وقومَه، مدَح نفسَه وقومه، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فأطاعوا أمرَه، ونفَروا على كلِّ صعبٍ وذَلولٍ؛ عطَف عليه قولَه مُعلِمًا بما آل إليه أمرُهم: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٩-٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣١).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤١).

الفاء في ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم ﴾ تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾؛ والتَّقدير: فأسرىٰ موسىٰ ببني إسرائيلَ، فأخرَجْنا فِرْعونَ وجندَه مِن بلادهم في طلبِ بني إسرائيلَ، فاتبَعوا بني إسرائيلَ[1].

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

فلمَّا ذكَر الثَّرواتِ الزراعية، ذكَر الثَّرواتِ المَعدِنية، فقال: ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

ولمَّا كان الخروجُ عن مثلِ هذا ممَّا يُستنكر، أشار إلىٰ عظَمةِ القدرة عليه بقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2].

ثم ذكَر لِمَن آلت إليه هذه الجنَّاتُ والعيون والكنوزُ والمنازل، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

ولمَّا وصَف الإخراجَ، وصَف أثرَه، فقال مُرتِّبًا عليه بالفعلِ وعلىٰ الإيراثِ بالقوَّة: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[3].

جملةُ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ مفرَّعةٌ علىٰ جملة ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم ﴾، وما بينهما اعتراضٌ؛ والتَّقدير: فأخرَجْناهم فأتبَعوهم[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤١-٤٢).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢).

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾

لمَّا بلَغ فِرْعونُ وجنوده قريبًا مِن مكانِ جموع بني إسرائيلَ بحيث يرىٰ كلُّ فريقٍ منهما الفريقَ الآخر، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾(١).

فلمَّا طلَبهم فِرْعونُ ورأَوا جنودَه، خافوا جدًّا، ولامُوا موسىٰ عليه السلام، وقال ﴿أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾(٢).

لمَّا لَحِق فِرْعونُ بجَمْعِه جَمْعَ موسىٰ وقرُبَ منهم، ورأت بنو إسرائيلَ العدوَّ القويَّ والبحرَ أمامهم؛ ساءت ظنونُهم، وقالوا لموسىٰ علىٰ جهةِ التَّوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾(٣).

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

ثم زجَرهم موسىٰ عليه السلام، وردَعهم بحرفِ الرَّدع؛ ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(٤).

فعند ذلك، قال لهم موسىٰ عليه السلام: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(٥).

فردَّ عليهم قولَهم، وزجَرهم، وذكَّرهم وَعْدَ الله سبحانه له بالهدايةِ والظَّفَر(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٤).
(٢) روح المعاني (١٠/ ٨٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٠٦).
(٤) البحر المحيط (٨/ ١٦٠).
(٥) فتح القدير (٤/ ١١٨).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٠٦).

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

فتسبَّب عن كلامِه الدالِّ على معيَّة الله ومراقبته: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكى عن موسى عليه السلام قولَه: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، بيَّن تعالى بعده كيف هَداه ونجَّاه، وأهلَكَ أعداءه بذلك التدبيرِ الجامع لنِعَمِ الدِّين والدُّنيا، فقال: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢).

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فأدخَلْنا كلَّ شَعْبٍ منهم في طريقٍ مِن تلك الطُّرقِ، عطَف عليه: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾(٣).

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ثم بيَّن عاقبةَ الجَمْعِ الأول جمعِ موسى عليه السلام؛ حيث نجَّاهم مِن الهلاك في أيدي أعدائهم، ومِن الغرقِ في البحر؛ بحفظِه على تلك الهيئةِ إلى أن خرجوا إلى البَرِّ، فقال: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٤).

(٤) روح المعاني (١٠/ ٨٨).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ٦٦﴾

ولمَّا كان الإغراقُ بما به الإنجاءُ -مع كونِه أمرًا هائلًا- عجيبًا وبعيدًا، عبَّر بأداةِ البُعْدِ، فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾[(١)].

ثم بيَّن عاقبةَ الجَمْعِ الثاني جمعِ فِرْعونَ؛ حيث أطبق عليهم البحر بعد خروجِ موسىٰ عليه السلام ومَن معه، فلم يُفلِتْ منهم أحدٌ، فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ٦٧﴾

ولمَّا قام عُذْرُ موسىٰ عليه السلام فيما استدفَعه أوَّلَ القِصَّة مِن كيدِ فِرْعونَ بما ثبَت له مِن العظَمةِ والمُكْنةِ في كثرةِ الجند، وعظيمِ الطاعة منهم له في سرعةِ الاجتماع الدالَّة علىٰ مُكْنتِهم في أنفسهم، وعظَمتِه في قلوبهم، رغبةً ورهبةً، وظهَر مجدُ الله في تحقيقِ ما وعَد به سبحانه مِن الحراسة، وزاد ما أقَرَّ به العيونَ، وشرَح به الصدورَ، وكان ذلك أمرًا يهُزُّ القُوَىٰ سماعُه، ويروِّعُ الأسماعَ تصوُّرُه وذِكْرُه؛ قال مُنبِّهًا علىٰ ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[(٢)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾

قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعلُّقُه بما قبله أنَّ القومَ مع مشاهدة هذه الآيةِ الباهرة كفَروا، ثم إنَّه تعالىٰ كان عزيزًا قادرًا علىٰ أن يُهلِكَهم، ثم إنَّه تعالىٰ ما أهلَكَهم، بل أفاض عليهم أنواعَ رحمتِه؛ فدلَّ ذلك علىٰ كمالِ رحمته، وسَعةِ جوده وفضله[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٩).

ثم بيَّن سبحانه في ختام هذه القِصَّةِ أنَّه الغالب علىٰ كلِّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتِها الانتقامُ مِن المكذِّبين، وأنَّه المبالِغُ في الرحمةِ؛ ولذلك يُمهِلُهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبة، مع استحقاقِهم لذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ما أراد مِن قِصَّةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أتبَعه دلالةً علىٰ رَحِيميَّتِه قِصَّةَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِما تقدَّم أنَّه شارَكه فيه ممَّا يسلِّي عمَّا وقَع ذِكْرُه عنهم مِن التَّعنُّتات في الفرقان، ولِما اختَصَّ به مِن مقارعةِ أبيه وقومِه في الأوثان، وهو أعظَمُ آباءِ العرَبِ؛ ليكونَ ذلك حاملًا لهم علىٰ تقليدِه في التوحيد إن كانوا لا ينفكُّون عن التقليد، وزاجرًا عن استعظامِ تسفيه آبائهم في عبادتها، بقولِه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

عُقِّبَتْ قِصَّةُ موسىٰ مع فِرْعونَ وقومه بقِصَّةِ رسالة إبراهيم، وقُدِّمت هنا علىٰ قِصَّةِ نوحٍ علىٰ خلافِ المعتاد في ترتيبِ قِصَصِهم في القرآن؛ لشِدَّةِ الشَّبه بَيْنَ قومِ إبراهيمَ وبين مشركي العرَبِ في عبادةِ الأصنام التي لا تَسمَع ولا تُبصِر، وفي تمسُّكِهم بضَلال آبائهم، وأنَّ إبراهيمَ دعاهم إلىٰ الاستدلالِ علىٰ انحطاطِ الأصنام عن مرتبةِ استحقاق العبادة؛ ليكونَ إيمانُ الناس مستنِدًا لدليلِ الفِطرة، وفي أنَّ قومَ إبراهيمَ لم يُسلَّطْ عليهم مِن عذابِ الدُّنيا مِثْلُ ما سُلِّط علىٰ قومِ نوحٍ، وعلىٰ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وأهلِ مَدْيَنَ، فأشبَهوا قُرَيشًا في إمهالهم[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في أوَّلِ السُّورة شِدَّةَ حُزْنِ محمَّدٍ ﷺ بسبب كفرِ قومه، ثم إنَّه ذكَر قِصَّةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليَعرِفَ محمَّدٌ ﷺ أنَّ مِثْلَ تلك المحنةِ كانت حاصلةً لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ذكَر عَقِبَها قِصَّةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليَعرِفَ محمَّدٌ ﷺ أيضًا أنَّ حُزْنَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٦-٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٧).

السببِ كان أشَدَّ مِن حزنِه؛ لأنَّ مِن عظيمِ المحنة على إبراهيمَ عليه السلام أن يرى أباه وقومَه في النار وهو لا يَتمكَّنُ مِن إنقاذِهم إلا بقدر الدعاءِ والتنبيه[(١)].

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ ﴾

﴿ إِذۡ قَالَ ﴾ ظرفٌ؛ أي: حينَ قال، والجملةُ بيانٌ للنبأ؛ لأنَّ الخبرَ عن قِصَّةٍ مضَتْ، فناسَب أن تُبيَّنَ باسمِ زمانٍ مضاف إلى ما يفيد القِصَّةَ[(٢)].

ولذلك قيَّده بالظَّرف، فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾[(٣)].

ثم بيَّن نبأَه، فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ ﴾

الظاهر أنَّه ألقى عليهم السؤالَ حينَ تلبُّسِهم بعبادةِ الأصنام، فما فَهِم قومُه مِن كلامه إلا الاستفسارَ، فأجابوا: ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[(٤)].

كان إبراهيمُ عليه السلام يَعلَمُ أنَّهم عبدَةُ أصنامٍ، ولكن سألهم ليُرِيَهم أنَّ ما كانوا يعبدونه ليس مستحِقًّا للعبادة؛ لِما ترتَّب على جوابهم مِن أوصافِ معبوداتهم التي هي منافيةٌ للعبادة. ولمَّا سألهم عن الذي يعبُدونه، ولم يقتصروا على ذِكْرِه فقط، بل أجابوا بالفعلِ ومتعلَّقِه وما عُطِف عليه مِن تمام صفتِهم مع معبودهم، فقالوا: ﴿ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٩).

(٥) البحر المحيط (٨/ ١٦٢).

ثم أجابوه مبتهِجين بسؤاله، مُظهِرين الافتخارَ في جوابهم؛ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾.

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ ﴾

ولمَّا فَهِم عنهم هذه الرغبةَ، أخَذ يزهِّدُهم فيها بطريقِ الاستفهام الذي لا أنصَفَ منه عن أوصافٍ يُلجِئهم السؤالُ إلىٰ الاعتراف بسَلْبِها عنهم مع كل عاقلٍ، إذا تعقَّل أنَّه لا تصحُّ رتبةُ الإلهيَّة مع فَقْدِ واحدةٍ منها، فكيف مع فَقْدِها كلِّها؟ فقال تعالىٰ مُخبِرًا عنه: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾(١).

لمَّا أجابوا إبراهيمَ عليه السلام، أخذ يوقِفُهم علىٰ قلَّةِ عقولهم باستفهامه عن أوصافٍ مسلوبة عنهم، لا يكون ثبوتُها إلا لله تعالىٰ(٢).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن تفصيلِ جوابهم(٣).

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ ﴾

ولمَّا كان الإنسان قد يعكُفُ علىٰ الشيء وهو غيرُ سامعٍ، لكن لنفعِه له في نفسه، أو ضرِّه لعدوِّه؛ كالنارِ مثلًا، وكان محَطُّ حالِ العابد والداعي بالقصدِ الأول بالذات جَلْبَ النفعِ؛ قال: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٦٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٩).

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

و﴿بَلْ﴾ في حكايةِ جواب القوم لإضرابِ الانتقال مِن مقامِ إثبات صفاتهم إلىٰ مقامٍ قاطع للمجادلة في نظَرِهم؛ وهو أنَّهم وَرِثوا عبادةَ هذه الأصنام، فلمَّا طَوَوْا بساطَ المجادلة في صفاتِ آلهتهم، انتقَلوا إلىٰ دليلِ التقليد تفاديًا مِن كُلْفةِ النظَرِ والاستدلال بالمصير إلىٰ الاستدلالِ بالاقتداء بالسَّلَفِ(١).

فعند هذه الحُجَّةِ القاهرة، لم يَجِدْ أبوه وقومُه ما يدفعون به هذه الحُجَّةَ، فعدَلوا إلىٰ أن ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾؛ وهذا مِن أقوىٰ الدلائلِ علىٰ فساد التقليد، ووجوبِ التمسُّك بالاستدلال(٢).

ثم أضرَبوا عن أن يكونَ لهم سَمْعٌ أو نفعٌ أو ضرٌّ؛ اعترافًا بما لا سبيلَ لهم إلىٰ إنكاره، واضطُرُّوا إلىٰ إظهارِ أن لا سنَدَ لهم سِوىٰ التَّقليد، فكأنَّهم قالوا: لا يَسمَعون ولا يَنفَعوننا ولا يضُرُّون؛ وإنَّما وجَدْنا آباءنا يفعلون مِثْلَ فعلِنا، ويعبُدونهم مثلَ عبادتنا؛ فاقتدَيْنا بهم(٣).

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا وصَلوا إلىٰ التَّقليدِ المحض الخالي عن أدنىٰ نظَرٍ -كما تفعل البهائمُ والطَّير في تبعِها لأولها-، ﴿ قَالَ ﴾ معرِضًا عن جوابِ كلامهم بنقصٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٠).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٠).

جملةُ ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ مفرَّعةٌ علىٰ جُمَلِ كلام القوم المتضمِّنةِ عبادتَهم الأصنامَ، وأنَّهم مقتدون في ذلك بآبائهم[(١)].

ثم أجابهم إبراهيمُ عليه السلام بقولِه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾[(٢)].

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) ﴾

ولمَّا أجابوه بالتَّقليد، قال لهم ما معناه، رَقُّوا تقليدَكم هذا إلىٰ أقصىٰ غاياتِه؛ فإنَّ التَّقدُّمَ والأولويَّة لا تكون برهانًا علىٰ الصحَّة، والباطلُ لا ينقلب حقًّا بالقِدَمِ[(٣)].

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ﴾

فتسبَّب عن رؤيتِكم ووصفِكم لهم بما ذكرتم أنِّي أُخبِرُكم إخبارًا مُؤكَّدًا أنَّهم ﴿ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٤)].

الفاء في قولِه: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾ للتفريع علىٰ ما اقتضته جملةُ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ مِن التعجيبِ مِن شأن عبادتهم إيَّاها[(٥)].

بيانٌ لحالِ ما يعبدونه بعد التَّنبيه علىٰ عدمِ علمِهم بذلك[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٠).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٥٠).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٠-٥١).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤١).

(٦) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤٨).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

ثم شرَع يصفُه بما هم به عالِمون مِن أنَّه على الضدِّ الأقصى مِن كلِّ ما عليه أصنامهم، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكى عنه أنَّه استثنى ربَّ العالَمين، حكى عنه أيضًا ما وصَفه به ممَّا يستحِقُّ العبادةَ لأجلِه[(٢)].

ثم وصَف رَبَّ العالمين بقولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[(٣)].

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾

ثم ذكَر بعد نِعْمةِ الخَلق والهداية ما تدوم به الحياةُ، ويستمِرُّ به نظامُ الخَلْقِ؛ وهو الغذاءُ والشُّرب[(٤)].

ثم خصَّص منها بعضَ الضَّروريات، فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[(٥)].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾

ولمَّا كان المرضُ ضررًا، نزَّهه عن نسبتِه إليه أدبًا، وإن كانت نسبةُ الكلِّ إليه سبحانه معلومةً، بقولِه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١١).

(٣) فتح القدير (٤/ ١٢٢).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١٦٥).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٩٢).

(٦) نظم الدرر (١٤/ ٥٢).

عطفٌ علىٰ ﴿ يُطْعِمُنِى ﴾، ﴿وَيَسْقِينِ﴾، نُظِم معهما في سِلْكِ الصلة لموصولٍ واحدٍ؛ لِما أنَّ الصحَّةَ والمرض مِن متفرِّعات الأكل والشُّرب غالبًا[(١)].

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ ﴾

ولـمَّا كان الإنسان مطبوعًا علىٰ الاجتهاد في حفظِ حياته وبقاءِ مُهْجتِه، نسَب فِعْلَ الموتِ إليه إعظامًا للقدرة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[(٢)].

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾

ولـمَّا ذكَر البعثَ، ذكَر ما يترتَّب عليه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[(٣)].

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ ﴾

ولـمَّا أثنىٰ علىٰ اللهِ تعالىٰ بما هو أهلُه، وختَم بذِكْرِ هذا اليومِ العظيم؛ دعا بما يُنجِّي عن هولِه، فدلَّ صنيعُه علىٰ أنَّ تقديمَ الثناءِ علىٰ السؤال أمرٌ مهمٌّ، وله في الإجابةِ أثرٌ عظيمٌ، فقال ملتفتًا إلىٰ مقامِ المشاهَدة -إشارةً إلىٰ أنَّ الأمرَ مَهُولٌ، وأنَّه لا يُنقِذ مِن خطَرِه إلا عظيمُ القدرة؛ لِما طُبِعت عليه النفسُ مِن النقائص-: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٥٣).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٥٣).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٤).

لمَّا كان آخِرُ مقالِه في الدعوة إلىٰ الدِّين الحقِّ متضمِّنًا دعاءً بطلبِ المغفرة، تخلَّص منه إلىٰ الدعاء بما فيه جَمْعُ الكمالِ النَّفْساني بالرسالة، وتبليغِ دعوة الخَلْقِ إلىٰ الله؛ فإنَّ الحُجَّةَ التي قام بها في قومِه بوَحْيٍ مِن الله، فكان حينئذٍ في حالِ قُرْبٍ مِن الله، وجهَر بذلك في ذلك الجمعِ؛ لأنَّه عَقِب الانتهاء مِن أقدَسِ واجبٍ؛ وهو الدعوةُ إلىٰ الدِّين(١).

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام ثناءه علىٰ الله تعالىٰ، ذكَر بعد ذلك دعاءه ومسألتَه؛ وذلك تنبيهٌ علىٰ أنَّ تقديمَ الثناء علىٰ الدعاء مِن المهمَّات(٢).

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ لمَّا ذكَر لهم مِن صفاته عز وجل ممَّا يدلُّ علىٰ كمالِ لُطْفِه تعالىٰ به ما ذكَر، حمَله ذلك علىٰ مناجاتِه تعالىٰ ودعائه؛ لربطِ العتيد، وجلبِ المزيد(٣).

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

ولمَّا كان الصالحُ قد لا يَظهَر عملُه، وكان إظهارُ اللهِ له مجلبةً للدعاء وزيادةً في الأجر؛ قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾(٤).

ثم سأل بقاءَ ذِكْرٍ له حسَنٍ في الأُمَمِ والأجيال الآتيةِ مِن بعدِه، وهذا يَتضمَّن سؤالَ الدوام والختام علىٰ الكمال، وطلَبَ نشرِ الثناء عليه؛ وهذا ما تتغذىٰ به الرُّوحُ مِن بعدِ موته؛ لأنَّ الثناءَ عليه يستدعي دعاءَ الناس له، والصَّلاةَ عليه، والتسليمَ؛ جزاءً علىٰ ما عرَفوه مِن زكاءِ نفسه(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٤).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٩٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٥-١٤٦).

أنَّه عليه السلام ابتدأ بطلبِ ما هو الكمالُ الذاتي للإنسان في الدُّنيا والآخرة، وهو طلبُ الحُكْمِ الذي هو العلمُ، ثم طلَب بعده كمالاتِ الدُّنيا[١].

﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥﴾

ولمَّا طلَب سعادةَ الدُّنيا، وكانت لا نَفْعَ لها إلا باتصالها بسعادةِ الآخرة التي هي الجَنَّةُ، وكانت الجَنَّةُ لا تُنال إلا بمَنِّه، لا بشيءٍ مِن ذلك؛ ولذلك شبَّه إدخالَها بالإرث الذي يحصُلُ بغيرِ اكتسابٍ مِن الوارث، وهو أقوىٰ أسباب المِلْكِ؛ قال: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢].

اعلَمْ أنَّه لمَّا طلَب سعادةَ الدُّنيا، طلَب بعدها سعادةَ الآخرة؛ وهي جَنَّةُ النعيم، وشبَّهها بما يورَّثُ؛ لأنَّه الذي يُغتنم في الدُّنيا، فشبَّه غنيمةَ الآخرة بغنيمة الدُّنيا[٣].

ثم طلَب بعد كمالات الدُّنيا كمالاتِ الآخرة، فقال: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾

ولمَّا دعا لنفسه، ثنَّىٰ بأحقِّ الخَلْقِ ببِرِّه، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٤].

اعلَمْ أنَّه لمَّا فرَغ مِن طلبِ السَّعادات الدُّنيوية والأخروية لنفسِه، طلَبها لأشدِّ الناس التصاقًا به -وهو أبوه-، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٦).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٥٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٠).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٠).

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا سأل المغفرةَ لأبيه، سأل ألَّا يُخزِيَه اللهُ يوم القيامة؛ لأنَّه أراد ألا يَلحَقَه يومئذ شيءٌ ينكسر منه خاطرُه، وقد اجتهَد في العملِ المبلِّغ لذلك، واستعان اللهَ علىٰ ذلك، وما بَقِيتْ له حزازةٌ إلا حزازةُ كفرِ أبيه، فسأل المغفرةَ له؛ لأنَّه إذا جيء بأبيه مع الضالِّين، لَحِقَه انكسارٌ، ولو كان قد استُجيب له بقيَّةُ دعَواتِه، فكان هذا آخِرَ شيءٍ تخوَّف منه لَحاقَ مهانةٍ نفسية مِن جهةِ أصله، لا مِن جهةِ ذاته[(١)].

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا نبَّه علىٰ أنَّ المقصودَ هو الآخرة، صرَّح بالتَّزهيدِ في الدُّنيا بتحقيرِ أجلِّ ما فيها، فقال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾[(٢)].

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم استثنىٰ ممَّا دلَّ عليه المالُ والبنون دلالةَ الخاصِّ علىٰ العام، والكلامُ بتقديرِ مضافٍ أيضًا، كأنَّه قيل: يومَ لا يَنفَع غِنًىٰ إلا غِنَىٰ مَن أتىٰ اللهَ بقلبٍ سليم، وغِناه سلامةُ قلبه، وهو مِن الغِنىٰ الدِّيني[(٣)].

ولمَّا ذكَر الغِنىٰ الظاهرَ، ذكَر الغِنىٰ الباطنَ، فقال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ثم صوَّر لهم عاقبةَ حالَيِ التقوىٰ والغَوايةِ بذِكْرِ دارِ إجزاءِ الخير، ودار إجزاء الشَّر[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٥٦-٥٧).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٩٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٩).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الجَنَّةَ تكون قريبةً مِن موقفِ السُّعداء، ينظرون إليها، ويغتبطون بأنَّهم المحشورون إليها، فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لمَّا كان قومُه مستمِرِّينَ علىٰ الشرك، ولم يكُنْ يومئذٍ أحدٌ مؤمنًا غيرُه وغيرُ زوجِه وغيرُ لوطٍ ابنِ أخيه؛ كان المقامُ بذِكْرِ الترهيب أجدَرَ؛ فلذلك أطنَب في وصفِ حال الضالِّين يومَ البعث، وسُوءِ مصيرِهم؛ حيث يَندَمون علىٰ ما فرَّطوا في الدُّنيا مِن الإيمانِ والطاعة، ويَتمنَّون أن يعُودُوا إلىٰ الدُّنيا ليَتداركوا الإيمانَ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ[2].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ النَّارَ تكون بارزةً مكشوفةً للأشقياء بمرأىٰ منهم، يَتحسَّرون علىٰ أنَّهم المسُوقون إليها، فقال: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[3].

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ثم ذكَر ما يقال للغاوِينَ للإنحاء عليهم، وإظهارِ حقارةِ أصنامهم، فقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾، وفي الاقتصار علىٰ ذِكْرِ هذا دُونَ غيرِه ممَّا يُخاطَبون به يومئذٍ مناسبةٌ لمقامِ طلب الإقلاعِ عن عبادةِ تلك الأصنام، وأسنَد فِعْلَ القول إلىٰ غيرِ معلومٍ؛ لأنَّ الغرضَ تعلَّق بمعرفةِ القول، لا بمعرفةِ القائل[4].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٤٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٠-١٥١).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥١).

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾

ثم حقَّر معبوداتهم بقولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾(١).

﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝٩٤﴾

ولمَّا تسبَّب عن هذا التبريزِ والقولِ إظهارُ قُدْرتِه تعالىٰ وعَجْزِهم بقذفِهم فيها، قال: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾(٢).

ولمَّا كان هذا سؤالَ تقريعٍ وتبكيت لا يُتوقَّع له جوابٌ؛ فلذلك قيل: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾(٣).

﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ۝٩٥﴾

ثم عطَف عليه المسوِّلين لهم عبادةَ الأصنام، فقال: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾.

﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ۝٩٦﴾

ولمَّا عُلِم بهذا أنَّهم لم يتمكَّنوا مِن قولٍ في جوابِ استفامهم توبيخًا، وكان مِن المعلومِ أنَّ الإنسانَ مطبوعٌ علىٰ أن يقولَ في كلِّ شيءٍ ينوبُه ما يثيرُه له إدراكُه ممَّا يرىٰ أنَّه يبرِّدُ مِن غُلَّتِه، ويَنفَع مِن عِلَّتِه؛ تشوَّف السامعُ إلىٰ معرفةِ قولهم بعد الكَبْكَبة، فأُشيرَ إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٥٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٥٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٥١).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٨-٥٩).

استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ حالهم؛ كأنَّه قيل: ماذا قالوا حين فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾[١].

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾

جملةُ ﴿تَٱللَّهِ﴾ مقولُ القول، وجملةُ ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جوابُ القَسَم[٢].

ثم ذكَر قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾

ثم بيَّنوا العلَّةَ التي لأجلِها كانوا في ضَلالٍ واضح ظاهر، فقالوا: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

بيانٌ لسببِ ضَلالهم بعد اعترافِهم بصدوره عنهم[٣].

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

فتسبَّب عن ذلك أنَّه ما ﴿لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٥٩).

رتَّبوا بالفاء انتفاءَ الشافعين علىٰ جملةِ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾؛ حيث أطمَعوهم بشفاعةِ الأصنام لهم عند الله مِثْلَ المشركين مِن العرَبِ، فتبيَّن لهم أن لا شفاعةَ لها، وهذا الخبرُ مستعمَلٌ في التحسُّر والتوجُّع(١).

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

ولمَّا كان الصَّديقُ قد لا يكون أهلًا لأن يَشفَعَ، قالوا تأسُّفًا علىٰ أقلِّ ما يُمكِن: ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾(٢).

قولهم: ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ هو تتميمٌ أثارَه ما يَلقَونه مِن سُوءِ المعاملة مِن كلِّ مَن يمُرُّون به، أو يتَّصِلون، ومِن الحرمان الذي يعاملهم به كلُّ مَن يسألونه الرِّفْقَ بهم، حتىٰ عَلِموا أنَّ جميعَ الخَلق يَتبرأ منهم(٣).

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

ولمَّا وقَعوا في هذا الهلاكِ، وانتفىٰ عنهم الخلاصُ؛ تسبَّب عنه تَمنِّيهم المُحالَ، فقالوا: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

ثم فرَّعوا علىٰ هذا التحسُّرِ والندامة تَمنِّيَ أن يُعادُوا إلىٰ الدُّنيا؛ ليَتداركوا أمرَهم في الإيمانِ بالله وَحْدَه(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٤).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٥٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٥).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٠).
(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٥).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ولمَّا كان في هذه القِصَّةِ أعظَمُ زاجرٍ عن الشرك، وآمِرٍ بالإيمان؛ نبَّه على ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

تكريرٌ ثالث لهاتِه الجملة تَعْدادًا على المشركين، وتسجيلًا لتصميمِه، واسمُ الإشارة إشارةٌ إلى كلامِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فإنَّ فيه دليلًا بيِّنًا على الوَحْدانيَّةِ لله تعالى، وبطلانِ إلهيَّة الأصنام، فكما لم يَهتدِ بها قومُ إبراهيمَ، فما كان أكثَرُ المشركين بمكَّةَ بمؤمنين بها بعد سماعِها، ولكنَّ التبليغَ حقٌّ على الرسول ﷺ[2].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

ثم أخبَر سبحانه أنَّه قادرٌ على تعجيلِ الانتقام، لكنَّه رحيمٌ بالإمهال لكي يؤمِنوا، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه قِصَّةَ الأبِ الأعظم الأقرب، أتبعَها -دلالةً على وصفَي العِزَّة والرحمة- قِصَّةَ الأبِ الثاني، مقدِّمًا لها على غيرِها؛ لِما له مِن القِدَمِ في الزمان، إعلامًا بأنَّ البلاءَ قديمٌ، ولأنَّها أدَلُّ على صفتَي الرحمةِ والنِّقمة التي هي أثَرُ العِزَّة بطُولِ الإملاء لهم على طُولِ مُدَّتِهم، ثم تعميم النِّقمة مع كونهم جميعَ أهل الأرض، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥١٩).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦١).

استئنافٌ لتسليةِ الرسول ﷺ، ناشئٌ عن قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لا تأسَ عليهم، ولا يعظُمْ عليك أنَّهم كذَّبوك؛ فقد ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقد علِم العرَبُ رسالةَ نوحٍ، وكذلك شأنُ أهلِ العقول الضالَّة؛ أنَّهم يَعرِفون الأحوالَ، ويَنسَون أسبابَها[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا قَصَّ على محمَّدٍ ﷺ خبرَ موسى وإبراهيمَ تسليةً له فيما يَلْقاه مِن قومِه، قَصَّ عليه أيضًا نبأَ نوحٍ عليه السلام؛ فقد كان نبؤه أعظَمَ مِن نبأ غيره؛ لأنَّه كان يدعوهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، ومع ذلك كذَّبه قومُه[(٢)].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرفٌ للتَّكذيب على أنَّه عبارةٌ عن زمانٍ مديدٍ وقَع فيه ما وقَع مِن الجانبينِ إلى تمام الأمر، كما أنَّ تكذيبَهم عبارةٌ عمَّا صدَر عنهم مِن ابتداءِ دَعْوتِه عليه الصلاة والسلام إلى انتهائها[(٣)].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم علَّل أهليَّتَه للأمرِ عليهم بقولِه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليلٌ للإنكار، أو للتحضيض؛ أي: كيف تستمِرُّون على الشركِ وقد نهيْتُكم عنه، وأنا رسولٌ لكم أمينٌ عندكم؟![(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٢٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٥٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٨).

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ولمَّا عرَض عليهم التَّقوىٰ بالرِّفق، وعلَّل ذلك بما ثبَّت به أمرها؛ تسبَّب عنه الجزمُ بالأمر، فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[1].

قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وهو اعتراضٌ بَيْنَ الجملتَينِ المتعاطِفتَينِ[2].

لمَّا عرَض عليهم برِفْقٍ تقوىٰ الله، فقال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ انتقَل مِن العرضِ إلىٰ الأمر، فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[3].

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

ولمَّا أثبَت أمانتَه، نفىٰ تُهمتَه، فقال: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4].

ثم ذكَر انتفاءَ المانع، فقال: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾[5].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾

ولمَّا انتفت التُّهْمةُ، تسبَّب عن انتفائها أيضًا ما قدَّمه، فأعاده إعلامًا بالاهتمام بذلك زيادةً في الشَّفقةِ عليهم، وتأكيدًا له في قلوبهم؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الأمرَ في غايةِ العظَمةِ؛ لِما يَعلَم مِن قلوبهم مِن شِدَّةِ الجلافةِ، فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٩).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٧٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٢).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٩٤).

(٦) نظم الدرر (١٤/ ٦٣).

ثم أعاد جملةَ الدعوةِ في آخرِ كلامه إذ قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ مرَّةً ثانية بمنزلةِ النتيجة للدعوة، ولتعليلِها[(١)].

ثم كرَّر الأمرَ بالتقوىٰ والطاعة؛ ليؤكِّدَ عليهم، ويقرِّرَ ذلك في نفوسهم، وإنِ اختلَفَ التعليلُ؛ جُعِل الأولُ معلولًا لأمانته، والثاني لانتفاء أخذِ الأجر[(٢)].

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

ولمَّا قام الدَّليلُ علىٰ نُصْحِه وأمانته، أجابوا بما ينظُرُ إلىٰ محضِ الدُّنيا منكِرين لاتباعه؛ استنادًا إلىٰ داء الكِبْرِ الذي ينشأ منه بطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ؛ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[(٣)].

جملة ﴿قَالُوٓاْ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِما يثيرُه قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ مِن استشرافِ السامع لمعرفة ما دار بينهم وبين نوحٍ مِن حوارٍ؛ ولذلك حُكِيتْ مجادلتُهم بطريقة: قالوا، وقال[(٤)].

ثم ما كان منهم إلا أنَّهم لم ينظُروا في أمرِ رسالته، ولا تفكَّروا فيما أمَرهم به؛ لِما جُبِلوا عليه ونشَؤوا مِن حبِّ الرئاسة؛ ولذلك ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت الجواهرُ متساويةً في أنَّها مخلوقاتُ الله، وإنَّما تَتشرَّف بآثارها؛ فالآدميُّ إنَّما يشرُفُ أو يرذُلُ بحالِه مِن قالِه وفَعالِه؛ أشار إلىٰ أنَّه يعتبر ما هم عليه الآن مِن الأحوالِ الرَّفيعة، والأوصافِ البديعة؛ فلذلك ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٩).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٩).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٦٤).

جوابُ نوحٍ عن كلام قومه يحتاج إلىٰ تدقيقٍ في لفظِه ومعناه؛ فأمَّا لفظُه: فاقترانُ أوله بالواو يَجعَله في حُكْمِ المعطوف علىٰ كلام قومِه؛ تنبيهًا علىٰ اتصاله بكلامهم؛ وذلك كنايةٌ عن مبادرتِه بالجواب، وأمَّا معناه: فهو استفهامٌ مؤذِنٌ بأنَّ قومه فصَّلوا إجمالَ وصفِهم أتباعَه بالأرذلِينَ بأنْ بيَّنوا أوصافًا مِن أحوالِ أهل الحاجة الذين لا يَعبأ الناسُ بهم، فأتىٰ بالاستفهامِ عن علمِه استفهامًا مستعمَلًا في قلَّةِ الاعتناء بالمستفهَمِ عنه، وهو كنايةٌ عن قلَّةِ جَدْواه؛ لأنَّ الاستفهامَ عن الشيء يُؤذِن بالجهل به، والجهلُ تُلازِمُه قلَّةُ العناية بالمجهول، وضعفُ شأنه[1].

فأجابهم نوحٌ عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣﴾

ثم أكَّد أنَّه لا يبحثُ عن بواطنهم بقولِه: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾[2].

لمَّا قال: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، أتبعه بقولِه: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾؛ علىٰ عادةِ أهل الإرشاد في عدمِ إهمال فرصتِه[3].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾

ولمَّا أفهَمَ قولُه رَدَّ ما أفهَمَه قولُهم مِن طردِهم، صرَّح به في قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٠).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦١).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٥).

عطف قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على قوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، فبعد أن أبطَل مقتضى طردِهم، صرَّح بأنَّه لا يفعله(١).

﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

جملة ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليل(٣).

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾

ولمَّا أيأسهم ممَّا أرادوا مِن طردِ أتباعه -لِما أوهَموا مِن اتباعِه لو طرَدهم خِداعًا-، أقبَلوا على التَّهديد، فاستأنَف سبحانه الإخبارَ عن ذلك بقولِه: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾(٤).

لمَّا أعياهم الاستدلالُ، صاروا إلى سلاح المُبطِلين؛ وهو المناضلةُ بالأذى(٥).

ثم إنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا تمَّم هذا الجوابَ، لم يكُنْ منهم إلا التَّهديدُ، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٢).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٦٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٢).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٥).
(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٣).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٢١).

📖 ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ﴾ 📖

ولمَّا أَيِسَ منهم بما سَمِع مِن المبالغة بالتَّأكيد في قولِهم، ورأىٰ ما يُصدِّقه مِن فعلِهم؛ قال تعالىٰ مُخبِرًا عنه جوابًا لسؤالِ مَن يريد تعرُّفَ حاله بعد ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ (١).

خوَّفوه بأن يُقتَلَ بالحجارة؛ فعند ذلك حصَل اليأسُ لنوحٍ عليه السلام مِن فلاحِهم، و﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ (٢).

فلمَّا سَمِع نوحٌ قولَهم هذا، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ (٣).

📖 ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ 📖

ولمَّا مهَّد للدعاء عليهم، أنتج عن ذلك قولَه: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

📖 ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان في إهلاكهم وإنجائه مِن بديعِ الصُّنع ما يَجِلُّ عن الوصفِ، أبرزه في مظهرِ العظمةِ، فقال: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (٤).

فلمَّا دعا ربَّه بهذا الدُّعاءِ، استجاب له، فقال: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٢١).
(٣) فتح القدير (٤/ ١٢٧).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٧).
(٥) فتح القدير (٤/ ١٢٧).

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان إغراقُهم كلِّهم مِن الغرائبِ، عظَّمه بأداةِ البُعْدِ ومظهرِ العظَمةِ، فقال: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[(١)].

﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرُّتبي في الإخبار؛ لأنَّ إغراقَ أمَّةٍ كاملة أعظَمُ دلالةً علىٰ عظيمِ القدرة مِن إنجاء طائفةٍ مِن الناس[(٢)].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك أمرًا باهرًا، عظَّمه بقولِه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾[(٣)].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ثم بيَّن سبحانه أنَّه قادرٌ علىٰ تعجيلِ الانتقام، لكنَّه رحيمٌ بالإمهال لكي يؤمنوا، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: إنَّ هذا لَأمرٌ هائلٌ، في مِثْلِه موعظةٌ، فما فعل مَن جاء بعدهم؟ هل اتَّعَظ؟ أُجيبَ بقولِه دلالةً علىٰ الوصفينِ معًا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٣).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٦٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٦٨).

جملـــةٌ مســـتأنَفة اســـتئناف تَعْـــدادٍ لأخبـــارِ التســـلية للرســـول، وتكريـــرِ الموعظة للمكذِّبين(١).

📖 ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ 📖

ثم سلَّىٰ هذا النَّبيَّ الكريم ﷺ بقولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢).

📖 ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ 📖

ثم علَّل بقولِه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٣).

📖 ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ 📖

ولمَّا عرَض عليهم التَّقوىٰ بالرفق، وعلَّل ذلك بما ثبَّت به أمرها؛ تسبَّب عنه الجزمُ بالأمر، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

📖 ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ 📖

ولمَّـــا أثبَـــتَ أمانتَـــه، نفـــىٰ تُهمتَـــه، فقـــال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم ذكَر انتفاءَ المانع، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٤).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٦٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٦٨).

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن الدُّعاء إلىٰ الأصل -وهو الإيمانُ بالرسول والمُرسِل-، أتبَعه إنكارَ بعضِ ما هم عليه ممَّا أوجَبه الكفرُ، وأوجَب الاشتغالُ به الثَّباتَ علىٰ الغَيِّ، واعظًا لهم بما كان لِمَن قبلهم مِن الهلاك، مقدمةً علىٰ زيادةِ التَّأكيد في التقوىٰ والطاعة؛ لأنَّ حالَهم حالُ الناسي لذلك الطُّوفان، الذي أهلَكَ الحيوان، وهدَم البنيان، فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾(١).

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولمَّا كان مَن يموت لا ينبغي له إنكارُ الموت بفعلٍ ولا قولٍ، قال: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾(٢).

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ عمَلَهم عمَلُ مَن لا يخاف الموتَ، أتبَعه ما يدلُّ علىٰ أنَّهم لا يظنُّون الجزاءَ، فقال: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾(٣).

قولُه: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أعقَب به موعظتَهم علىٰ اللهوِ واللَّعب والحرصِ علىٰ الدُّنيا بأنْ وعَظهم علىٰ الشِّدة علىٰ الخَلْقِ في العقوبة، وهذا مِن عدمِ التوازن في العقول؛ فهم يَبنون العلاماتِ لإرشاد السابلة(٤)، ويَصطنعون المصانعَ

(١) نظم الدرر (١٤/ ٦٩).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧٠).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٠).
(٤) أي: أبناء السبيل.

لإغاثة العِطاش، فكيف يلاقي هذا التفكيرُ تفكيرًا بالإفراطِ في الشِّدة على الناسِ في البطشِ بهم؟!(١).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾

ولمَّا خوَّفهم لهذا الإنكارِ عقابَ الجبَّار، تسبَّب عنه أن قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٢).

لمَّا أفاد الاستفهامُ في قولِه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً ﴾ معنى الإنكارِ على ما قارَن بناءهم الآياتِ واتخاذَهم المصانعَ، وعلى شِدَّتهم على الناس عند الغضب؛ فرَّع عليه أمرَهم باتقاءِ الله، وحصَل مع ذلك التفريعِ تكريرُ جملةِ الأمر بالتقوى والطاعة(٣).

لمَّا نبَّههم ووبَّخهم على أفعالِهم القبيحة، أمَرهم ثانيًا بتقوى الله، وطاعةِ نبيِّه(٤).

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان ادِّكارُ الإحسان مُوجِبًا للإذعان، قال مُرغِّبًا في الزيادة، ومُرهِّبًا مِن الحرمان: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١٧٩).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٧٠).

ثم أمَرهم ثالثًا بالتقوىٰ تنبيهًا لهم علىٰ إحسانِه تعالىٰ إليهم، وسُبُوغِ نِعْمتِه عليهم، وأبرَز صلةَ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ متعلِّقةً بعِلْمِهم؛ تنبيهًا لهم، وتحريضًا علىٰ الطاعة والتقوىٰ؛ إذ شُكْرُ المحسِنِ واجبٌ، وطاعتُه متعيِّنة، ومشيرًا إليهم بأنَّ مَن أمَدَّ بالإحسان هو قادرٌ علىٰ سَلْبِه، وعلىٰ تعذيب مَن لم يَتَّقِهِ؛ إذ هذا الإمدادُ ليس مِن جهتكم، وإنَّما هو مِن تفضُّلِه تعالىٰ عليكم، بحيث أتبَعَكم إحسانَه شيئًا بعد شيء[(١)].

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ١٣٣﴾

ولمَّا أجمَل، فصَّل ليكونَ أكمَل، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ﴾[(٢)].

لمَّا أتىٰ بذِكرِ ما أمَدَّهم به مُجمَلًا مُحالًا علىٰ علمِهم، أتىٰ به مفصَّلًا؛ فبدأ بالأنعام، وهي التي تحصُلُ بها الرئاسةُ في الدُّنيا، والقوَّةُ علىٰ مَن عاداهم، والغِنىٰ هو السببُ في حصول الذُّرية غالبًا لوُجْدِه، وبحصولِ القوَّة أيضًا بالبنينَ؛ فلذلك قرَنهم بالأنعام، ولأنَّهم يستعينون بهم في حفظِها، والقيام عليها[(٣)].

ثم فصَّلها بقولِه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ﴾[(٤)].

﴿وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾

ثم أتبَعه ما يحصِّلُ كمالَ العيش، فقال: ﴿وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٧٩).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧١).
(٣) البحر المحيط (٨/ ١٧٩).
(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٥٧).
(٥) نظم الدرر (١٤/ ٧١).

عطَـف الجنَّـاتِ والعيـونَ؛ لأنَّهـا بهـا رفاهيَـةُ حـالهم، واتسـاعُ رزقِهـم، وعيشُ أنعامهم(١).

وأتبَع ذلك بالبساتينِ والمياه المُطَّردة؛ إذ الإمدادُ بذلك مِن إتمام النِّعْمة(٢).

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾

ولمَّا كانوا في إعراضِهم كأنَّهم يقولون: ما الذي تُبقِيه منه؟ قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

جملـةُ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليـلٌ لإنكـارِ عـدم تقْـواهم، وللأمر بالتقوىٰ(٤).

ثم وعَظهم وحذَّرهم، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٥).

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾

أجابوا بتأييسِه مِن أن يَقبَلوا إرشادَه، فجعَلوا وَعْظَه وعدَمَه سواءً؛ أي: هما سواءٌ في انتفاءِ ما قصَده مِن وعظِه؛ وهو امتثالهم(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٠).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧١).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٠).

(٥) فتح القدير (٤/ ١٢٨).

(٦) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٠).

ولمَّا حذَّرهم عذابَ الله، وأبرَز ذلك في صورةِ الخوف، لا على سبيلِ الجزمِ؛ إذ كان راجيًا لإيمانهم: فكان مِن جوابِهم أنْ ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾(١).

فأجابوا معانِدين للحقِّ، مكذِّبين لنبيِّهم؛ ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾(٢).

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾

ثم علَّلوا ذلك بقولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٣).

لمَّا لم يُبالوا بما أمَرهم به، وبما ذكَّرهم مِن نِعَمِ الله وتخويفِه الانتقامَ منهم؛ أجابوه بأن قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٤).

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾

ثم أظهَروا تقويةَ نفوسهم فيما تمسَّكوا به مِن إنكار المَعاد؛ حيث قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

ثم أنكَروا ما وعَدهم هودٌ عليه السلام مِن العذاب، فقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٨٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٢).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١٨٠).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّن هذا التَّكذيبَ، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾[1].

الفاء في ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فصيحةٌ؛ أي: فتبيَّن أنَّهم بقولِهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ ﴾ ذلك ﴿أَوَعَظْتَ ﴾ إلخ قد كذَّبوه، فأهلَكْناهم[2].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

ثم بيَّن سبحانه في ختامِ هذه القِصَّة أنَّه الغالبُ على كلِّ ما يريده مِن الأمور، التي مِن جملتِها الانتقامُ مِن المكذِّبين، وأنَّه المُبالِغُ في الرحمةِ؛ ولذلك يُمهِلُهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبةِ، مع استحقاقهم لذلك، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

ولمَّا كان لا يُهلِك إلا بعد الإعذارِ بأبلَغِ الإنذار، دلَّ على ذلك لِمَن قد ينسى -إذ كان الإنسانُ مجبولًا على النسيانِ- بقولِه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾[3].

ثم لمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكرِ قِصَّةِ هودٍ وقومه، ذكَر قِصَّةَ صالحٍ وقومه، وكانوا يسكُنون الحِجْرَ، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ١٢٩).

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ ﴾

وأشار إلىٰ زيادةِ التَّسلية بمفاجأتهم بالتَّكذيبِ مِن غير تأمُّلٍ ولا توقُّفٍ بقولِه: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾(١).

﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ ﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾(٢).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ ﴾

ولمَّا قدَّم ذِكْرَ الرسالةِ، فصار له عُذْرٌ في المواجهةِ بالأمر؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٣).

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ ﴾

ولمَّا أثبتَ ما يوجِب الإقبالَ عليه، نفىٰ ما يستلزِمُ عادةَ الإدبارَ عنه، فقال: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٤).

﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ ﴾

ولمَّا ثبَتتِ الأمانة، وانتفىٰ موجِبُ الخيانة؛ شرَع يُنكِر عليهم أكلَ خيرِه وعبادةَ غيرِه، فقال مُخوِّفًا لهم مِن سطَواته، ومُرغِّبًا في المزيد مِن خيراتِه، مُنكِرًا عليهم إخلادَهم

(١) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).

إلىٰ شهوةِ البطن، واستنادَهم إلىٰ الرفاهيَةِ والرِّضا بالفاني: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾[1].

كانوا قد أعرَضوا عن عبادةِ الله تعالىٰ، وأنكَروا البعث، وغرَّهم أئمَّةُ كفرِهم في ذلك، فجاءهم صالحٌ عليه السلام رسولًا يذكِّرُهم بنِعْمةِ الله عليهم بما مُكِّنَ لهم مِن خيراتٍ، وما سُخِّر لهم مِن أعمالٍ عظيمة، ونُزِّل حالُهم منزلةَ مَن يظُنُّ الخلودَ ودوام النِّعْمة، فخاطَبهم بالاستفهامِ الإنكاري التوبيخي، وهو في المعنىٰ إنكارٌ علىٰ ظنِّهم ذلك، وسلَّط الإنكارَ علىٰ فعلِ التَّرك؛ لأنَّ تَرْكَهم علىٰ تلك النِّعم لا يكون، فكان إنكارُ حصوله مستلزمًا إنكارَ اعتقاده، وهذا الكلامُ تعليلٌ للإنكارِ الذي في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢﴾؛ لأنَّ الإنكارَ عليهم دوامَ حالهم يقتضي أنَّهم مفارِقون هذه الحياة، وصائرون إلىٰ الله[2].

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧﴾

ولمَّا كان للتَّفسير بعد الإجمال شأنٌ، بيَّن ما أجمَل بقولِه مُذكِّرًا لهم بنِعْمةِ الله ليشكروها: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[3].

قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ ينبغي أن يُعلَّق بـ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ ليكونَ مجموعُ ذلك تفصيلًا لإجمالِ اسم الإشارة؛ أي: اجتمَع لهم الأمنُ، ورفاهيَة العيش[4].

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨﴾

ثم ذكَر ما ينتُجُ عن العيون، فقال: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٥).

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾

ولمَّا ذكَر اللَّطيفَ مِن أحوالهم، أتبَعه الكثيفَ مِن أفعالهم، فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[1].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠﴾

فتسبَّب عن ذلك أنِّي أقول لكم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٥١﴾

وبعد أن أمَر بطاعتِه التي فيها النجاةُ، نهىٰ عن طاعةِ مَن بطاعتِه الهلاكُ، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢﴾

ثم وصَفهم بما بيَّن إسرافَهم؛ وهو ارتكابُ الفساد الخالص المُصمَت، الذي لا صلاحَ معه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[3].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾

ولمَّا دعا إلىٰ الله تعالىٰ بما لا خَلَلَ فيه، فعَلِموا أنَّهم عاجزون عن الطَّعْنِ في شيءٍ منه؛ عدَلوا إلىٰ التَّخييلِ علىٰ عقولِ الضُّعفاء بأنْ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٧٥).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٧٦).

أجابوا موعظتَه بالبُهْتان، فزعَموه فقدَ رُشْدَه وتغيَّر حالُه، واختلَقوا أنَّ ذلك مِن أثرِ سِحْرٍ شديدٍ(١).

📖 ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ 📖

ولمَّا تضمَّن قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ تكذيبَهم إيَّاه، أيَّدوا تكذيبَه بأنَّه بشَرٌ مِثْلُهم؛ وذلك -في زعمِهم- يُنافي أن يكونَ رسولًا مِن الله؛ لأنَّ الرسولَ -في زعمِهم- لا يكون إلا مخلوقًا خارقًا للعادة؛ كأن يكونَ مَلَكًا أو جِنيًّا؛ فجملةُ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في حُكْمِ التَّأكيد بجملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ باعتبارِ مضمون الجملتين(٢).

📖 ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ 📖

ولمَّا أسرَع اللهُ تعالىٰ في إجابتِه حين دعا أن يُعطِيَهم ما اقترَحوا، أشار إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٣).

📖 ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ 📖

ولمَّا أرشَد السياقُ إرشادًا بيِّنًا إلىٰ أنَّ المعنىٰ: فخُذُوا شِرْبَكم، واترُكوا لها شِرْبَها؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٧٨).

ثم حذَّرهم مِن إلحاقِ الأذىٰ بها، فقال: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ ﴾

ثم أشار إلىٰ سرعةِ عصيانهم بفاء التعقيب في قولِه: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾(١).

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ ﴾

وأشار إلىٰ أنَّ ذلك النَّدمَ لا علىٰ وجهِ التوبة، أو أنَّه عند رؤيةِ البأس؛ فلم يَنفَعْ، أو أنَّ ذلك كنايةٌ عن أنَّ حالَهم صار حالَ النَّادم، لا أنَّه وُجِد منهم نَدَمٌ علىٰ شيءٍ ما؛ فإنَّه نُقِل عنهم أنَّه أتاهم العذابُ وهم يحاولون أن يقتُلوا صالحًا عليه السلام، بقولِه: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾(٢).

فتسبَّب عن ذلك العَقْرِ قولُه: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩ ﴾

ولمَّا كان ربما تُوُهِّمَ أنَّه سبحانه غيرُ متصِفٍ بالعِزَّةِ -لعدم قَسْرِهم علىٰ الإيمان-، أو بالرَّحمةِ -لإهلاكهم-؛ قال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٣).

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ ﴾

ثم انتقَل إلىٰ القِصَّةِ السادسة قِصَّةِ قوم لوطٍ، فقال: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٧٨-٧٩).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٧٨-٧٩).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٧٩).

ثم لمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ قِصَّةِ صالحٍ وقومه، ذكَر قِصَّةَ لوطٍ وقومه، وكانوا يسكُنون أرضَ سَدُومَ، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾

ولمَّا صرَّحتِ الآيةُ السابقة بكفرِهم بالتكذيب، بيَّن هنا إسراعَهم في الضَّلال بقولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[١].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾

ولمَّا كان مضمونُ هذا الدُّعاء لهم والإنكارِ عليهم في عدم التَّقوىٰ، علَّل ذلك بقولِه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٢].

﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾

ولذلك سبَّب عنه قولَه: ﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٣].

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

ولمَّا أثبتَ الدَّاعيَ إلىٰ طاعته، نفىٰ النَّاهيَ عنها، فقال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨٠).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٨٠).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٨٠).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٨١).

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾

فلمَّا وجَدوا المقتضيَ لاتباعِه وانتفىٰ المانعُ، أنكَر عليهم ما يوجِبُ عذابَهم مِن إيثارِهم شهوةَ الفَرْجِ المُخرِجِ لهم إلىٰ ما صاروا به سُبَّةً في الخَلْقِ، فقال موبِّخًا مقرِّعًا بيانًا لتفاحُشِ فِعْلِهم وعِظَمِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾

ولمَّا نهاهم نبيُّ الله عن إتيانهم الفواحشَ، وغِشْيانهم الذُّكورَ؛ أنكَر عليهم عدمَ إتيانِ نسائهم اللاتي خلقَهنَّ اللهُ لهم، فقال: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾

فلمَّا اتضَح الحقُّ، وعُرِف المراد، وكان غريبًا عندهم، وتشوَّف السامعُ إلىٰ جوابهم؛ استُؤنِف الإخبارُ عنه، فقيل -إعلامًا بانقطاعِهم، وأنَّهم عارفون أنَّه لا وجهَ لهم في ذلك أصلًا؛ لعدولِهم إلىٰ الفُحْشِ-: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[2].

لمَّا نهاهم عن هذا الفعلِ القبيح، توعَّدوه بالإخراجِ؛ وهو النفيُ مِن بلَدِه الذي نشأ فيه[3].

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾

فكأنَّه قيل: فبماذا أجابهم لوطٌ عليه السلام بعد أن هدَّدوه بالنفيِ؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨١).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٨٢).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٨٤).

فلمَّا رأىٰ أنَّهم لا يَرتدعون عمَّا هم فيه، وأنَّهم مستمِرُّون علىٰ ضَلالتهم؛ تبرأ منهم، فقال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾(١).

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾

ولمَّا بادأهم بمِثْلِ هذا الذي مِن شأنِه الإفضاءُ إلىٰ الشَّر، أقبَلَ علىٰ مَن يفعل ذلك لأجلِه، وهو القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، العالِمُ بكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

لمَّا توعَّدوه بالإخراج، أخبرَهم ببُغْضِ عمَلِهم، ثم دعا ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

ولعلَّه عليه الصلاة والسلام أراد إظهارَ الكراهة في مُساكَنتِهم، والرَّغبةِ في الخلاص مِن سُوءِ جِوارهم؛ ولذلك أعرَض عن محاوَرتِهم، وتوجَّه إلىٰ الله تعالىٰ قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾

ولمَّا قَبِل سبحانه وتعالى دعاءه، أشار إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾(٥).

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١﴾

ثم استثنىٰ مِن النَّجاةِ مَن لم تُتابِعْهُ في الدِّين، وكان هواها مع قومها، فقال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٥٨).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٨٣).
(٣) البحر المحيط (٨/ ١٨٤).
(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦١).
(٥) نظم الدرر (١٤/ ٨٣).

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ١٧٢ ﴾

ولمَّا ذكَر نجاتَه المُفهِمةَ لهلاكهم، صرَّح به على وجهٍ هوَّله بأداةِ التراخي، لِما عُلِم غيرَ مرَّةٍ أنَّه كان عَقِب خروجه، لم يَتخلَّلْ بينهما مهلةٌ، فقال: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾(١).

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ ﴾

ولمَّا كان معنى ﴿ دَمَّرْنَا ﴾: حكَمْنا بتدميرهم، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾(٢).

ثم بيَّن الطريقةَ التي تم تدميرُهم بها، فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ ﴾

ولمَّا كان في جَرْيِ المكذِّبين والمصدِّقين على نظامٍ واحدٍ مِن الهلاك والنَّجاة أعظَمُ عِبْرةٍ وأكبَرُ موعظةٍ، أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥ ﴾

ولمَّا كان في ذلك إشارةٌ إلى الإنذار بمِثْلِ ما حَلَّ بهم مِن الدَّمار، أتبَعه التَّصريحَ بالتَّخويف والإطماع، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨٤).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٨٤).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٨٤).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٨٥).

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾

استئنافُ تَعْدادٍ وتكرير كما تقدَّم[(١)].

ثم انتقَل إلىٰ القِصَّةِ السابعة قِصَّةِ قوم شُعَيبٍ، فقال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ثم لمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ قِصَّةِ لوطٍ وقومه، ذكَر قِصَّةَ شُعَيبٍ وقومه، وكانوا يسكُنون أرضَ مَدْيَنَ، فقال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾

ولمَّا صرَّحتِ الآيةُ السابقة بكفرِهم بالتكذيب، بيَّن هنا إسراعَهم في الضَّلال بقولِه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما لك ولهذا؟ قال: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾[(٢)].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾

ولذلك سبَّب عنه قولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[(٣)].

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾

ولمَّا أثبَتَ ما يُوجِبُ الإقبالَ عليه، نفىٰ ما يستلزِمُ عادةً الإدبارَ عنه، فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٨٦).

﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما الذي تَنعَىٰ فيه؟ قال -مبيِّنًا أنَّ داءَهم حبُّ المال، المفضي لهم إلىٰ سُوءِ الحال-: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾(١).

استئنافٌ مِن كلامه، انتقَل به مِن غرضِ الدعوة الأصلية بقولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ إلىٰ آخرِه إلىٰ الدعوةِ التفصيلية؛ بوضعِ قوانينِ المعاملة بينهم؛ فقد كانوا -مع شِرْكِهم بالله- يُطفِّفون المِكْيالَ والميزان، ويَبخَسون أشياءَ الناس إذا ابتاعوها منهم، ويُفسِدون في الأرض(٢).

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ولمَّا أمَر بوفاءِ الكيل، أتبَعه بمِثْلِ ذلك في الوزن، ولم يَجمَعْهما؛ لِما للتَّفريق مِن التَّعريف بمزيدِ الاهتمام، فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾(٣).

ثم لمَّا أمَر بالإيفاء، بيَّن أنَّه كيف يُفعَل، فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾(٤).

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

ولمَّا أمَر بالوفاءِ في الوزن، أتبَعه نهيًا عن تَرْكِه عامًّا -كما فعَل في الكيلِ- ليكونَ آكَدَ، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨٦-٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٨٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٢٨).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٨٧).

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

ولمَّا وعَظهم فأبلَغ في وعظِهم بما ختَمه بالنَّهي عن الفساد، خوَّفهم مِن سطَواتِ الله تعالىٰ ما أحَلَّ بمَن هو أعظَمُ منهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾[(١)].

أكَّد قولَه في صدرِ خطابه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بقولِه هنا: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، وزاد فيه دليلَ استحقاقِه التقوىٰ بأنَّ اللهَ خلَقهم وخلَق الأُمَمَ مِن قَبْلِهم، وباعتبارِ هذه الزيادةِ أُدخِلَ حرفُ العطف علىٰ فعلِ «اتَّقُوا»، ولو كان مجردَ تأكيدٍ لم يَصِحَّ عطفُه، وفي قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إيماءٌ إلىٰ نَبْذِ اتقاءِ غيره مِن شركائهم[(٢)].

لمَّا تقدَّم أمرُه عليه السلام إيَّاهم بتقوىٰ الله، أمَرهم ثانيًا بتقوىٰ مَن أوجَدهم وأوجَد مَن قَبْلَهم؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن أوجَدهم قادرٌ علىٰ أن يعذِّبَهم ويُهلِكَهم[(٣)].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾

ولمَّا كان حاصلُ ما مضىٰ الإعلامَ بالرسالة، والتَّحذيرَ مِن المخالفة؛ لأنَّها تؤدي إلىٰ الضَّلالة، إلىٰ أن ختَم ذلك بالإشارة بالتَّعبير بالجِبلَّة إلىٰ أنَّ عذابَه تعالىٰ عظيمٌ، لا يستعصي عليه صغيرٌ ولا كبيرٌ: أجابوه بالقَدْحِ في الرسالة أولًا، وباستصغارِ الوعيد ثانيًا، بأنْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[(٤)].

﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

ثم أشاروا إلىٰ عدمِ صلاحية البشَرِ مطلقًا لها، ولو كانوا أعقَلَ الناسِ وأبعَدَهم عن الآفةِ بقولِهم -عاطفين بالواوِ إشارةً إلىٰ عراقتِه فيما وصَفوه به مِن

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٥).
(٣) البحر المحيط (٨/ ١٨٦-١٨٧).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٨٨-٨٩).

جهةِ السِّحر والسَّحر، وأنَّه لا فَرْقَ بينه وبينهم-: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(١).

وبعد أن نفَوْا رسالتَه عن الله كنايةً فزعَموه مسحورًا، نفَوْا رسالتَه عن الله تصريحًا بكونِه بشَرًا، والبشَرُ لا يصلُحُ للرسالة بزعمِهم.

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

إنَّ شُعَيبًا عليه السلام كان يَتوعَّدهم بالعذاب إن استمَرُّوا علىٰ التَّكذيب، فقالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢).

أرادوا في الآية السابقة المبالغةَ في نفيِ إرساله بتَعداد ما ينافيه، فيكونُ مرادُهم أنه ليس لنا ظنٌّ يتوجَّهُ إلىٰ غير الكذب، وهو أبلغُ من إثبات الظنِّ به، ويؤيدُه تسبيبُهم عنه سؤالَه -استهزاءً به وتعجيزًا له- إنزالَ العذاب، فقالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ولمَّا كان عذابُ العاصي يَتوقَّف علىٰ العلمِ المحيط بأعماله، والقدرةِ علىٰ نكالِه؛ استأنَف تعالىٰ الحكايةَ عنه في تنبيهِه لهم علىٰ ذلك بقولِه: ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٩٠).

لمَّا طلَبوا منه ما طلبوا، أحال عِلْمَ ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، وأنَّه هو العالِمُ بأعمالكم، وبما تستوجبون عليها مِن العقاب؛ فهو يعاقِبُكم بما شاء(١).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

ولمَّا كان محَطُّ كلامِهم كلِّه علىٰ تكذيبهم له مِن غيرِ قَدْحٍ في قدرةِ الخالق، سبَّب العذابَ عن تكذيبهم، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

ولمَّا كان لتَوالي الإخبارِ بإهلاك هذه القرون، وإبادةِ مَن ذُكِر مِن تلك الأُمَم، مِن الرُّعْبِ ما لا يُبلَغُ وَصْفُه، ولا يمكِنُ لغيره سبحانه شرحُه؛ قال تعالىٰ مشيرًا إليه تحذيرًا مِن مثلِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

كرَّر ما كرَّر في أوائلِ هذه القِصَص؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ طريقةَ الأنبياء واحدةٌ لا اختلافَ فيها؛ وهي الدعاءُ إلىٰ توحيدِ الله وعبادته، ورفضِ ما سِواه، وأنَّهم ورسولَ اللهِ ﷺ مشتركون في ذلك، وأنَّ ما جاء به ﷺ هو ما جاءت به الرُّسلُ قبله، وتلك عادةُ الأنبياء(٤).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٨٧).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٩١).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٩٢).
(٤) البحر المحيط (٨/ ١٨٧-١٨٨).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١ ﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه تأسيةً للدَّاعي ﷺ، وتهديدًا لِمَن تمادىٰ علىٰ تكذيبه، وترجيةً لِمَن رجَع عن ذنوبِه؛ أشار إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(١)].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ ﴾

ولمَّا كانت آثارُ هذه القِصَصِ آياتٍ مرئيَّاتٍ، والإخبارُ بها آياتٍ مسموعاتٍ، وكان في اطِّرادِ إهلاك العاصي وإنجاءِ الطائع في كلٍّ منهما، علىٰ تباعُدِ الأعصار، وتناهي الأقطار، واختلافِ الديار، أعظَمُ دليلٍ علىٰ صِدْقِ الرسل، وتقريرِ الرسالات؛ لتَوافُقِهم في الدَّعوة إلىٰ الله، وتوارُدِهم علىٰ التوحيد، والعدلِ مع العزوفِ عن الدُّنيا التي هي شرٌّ محضٌ، والإقبالِ علىٰ الآخرة التي هي خيرٌ صرفٌ، والتحلي بما أطبَق العبادُ علىٰ أنَّه معالي الأخلاق، ومحاسنُ الأعمال، والتخلي عن جميع الدنايا، والتنزُّهِ عن كلِّ نقصٍ؛ عطَف علىٰ قولِه أوَّلَ السورة: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ الآية الإخبارَ برسالة محمَّدٍ ﷺ؛ إشارةً إلىٰ ما في الإخبارِ عن آثار هذه القِصَصِ بالآيات المسموعات مِن عظيمِ الدَّلالات علىٰ رسالتِه ﷺ بما فيها مِن الإعجاز مِن جهةِ التركيب والترتيب، وغيرِ ذلك مِن عجيبِ الأساليب، الذي لم تُؤتَهُ أمَّةٌ مِن الأُمَمِ السالفات، ومِن جهةِ أنَّ الآتيَ بتلك القِصَصِ الغريبة، والأنباءِ البديعة العجيبة، أُمِّيٌّ لم يخالِطْ عالِمًا، مع شِدَّةِ ملاءمة القرآنِ لخصوص ما في قِصَّةِ شُعَيبٍ عليه السلام مِن العدل في الكيلِ والوزن الذي هو مدارُ القرآن، ومِن أنَّه الظُّلَّةُ الجامعة للخير، والفُسْطاطُ الدافع لكلِّ ضيرٍ، فقال ردًّا للمقطعِ علىٰ المطلعِ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٩٤-٩٥).

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ختَم ما اقتَصَّه مِن خبَرِ الأنبياء، ذكَر بعد ذلك ما يدلُّ علىٰ نبوَّته ﷺ(١).

لمَّا ذكَر قصصَ الأنبياء مع أُمَمهم، وكيف دَعَوْهم، وما رَدُّوا عليهم به، وكيف أهلَكَ اللهُ أعداءهم، وصارت لهم العاقبةُ؛ ذكَر هذا الرسولَ الكريم، والنبيَّ المصطفىٰ العظيم، وما جاء به مِن الكتاب، الذي فيه هدايةٌ لأُولي الألباب، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾

ولمَّا كان الحالُ مُقتضِيًا لأن يقالَ: مَن أتىٰ بهذا المقالِ، عن ذي الجلالِ؟ قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾(٣).

جملةُ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ بيانٌ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

ثم ذكَر الموضعَ الذي نزَل عليه، فقال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

ولمَّا كان القصدُ مِن السورة التَّسليةَ عن عدمِ إيمانهم بأنَّه لسُفولِ شأنهم، لا لخَلَلٍ في بيانه، ولا لنقصٍ في شأنه؛ قال تعالىٰ مُوضِّحًا لتمكُّنِه مِن قلبِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٨).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٩٧).

ثم ذكَر اللسانَ الذي نزَل به، فقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦ ﴾

ولمَّا كان الاستكثارُ مِن الأدلة ممَّا يسكِّنُ النُّفوسَ، وتطمئنُّ به القلوبُ؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، والضميرُ للقرآن كضمير ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهذا تنويهٌ آخَرُ بالقرآن؛ بأنَّه تصدِّقُه كُتُبُ الأنبياء الأوَّلين[2].

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: ألم يكُنْ لهم أَمَارةٌ علىٰ صِدْقِ ذلك أن يطلُبوا تلك الزُّبُرَ فينظُروا فيذُوقُوا ذلك منها ليَصِلُوا إلىٰ حقِّ اليقين؟ عطَف عليه قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[3].

قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ تنويهٌ ثالثٌ بالقرآن، وحُجَّةٌ علىٰ التنويه الثاني به، الذي هو شَهادةُ كُتُبِ الأنبياء له بالصدق؛ بأنَّ علماءَ بني إسرائيلَ يَعلَمون ما في القرآن ممَّا يَختصُّ بعِلْمِهم، فباعتبار كونِ هذه الجملة تنويهًا آخَرَ بالقرآن، عُطِفتْ علىٰ الجملةِ التي قبلها، ولولا ذلك لكان مقتضىٰ كونِها حُجَّةً علىٰ صِدْقِ القرآن ألا تُعطَفَ[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٩٨-٩٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٠).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٩٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٢).

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨﴾

ولمَّا كان التَّقدير: لم يَرَوا شيئًا مِن ذلك آيةً ولا آمَنوا، عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾[1].

لمَّا بيَّن بما تقدَّم مِن أنَّ هذا القرآنَ في كُتُبِ الأوَّلين، وأنَّ علماءَ بني إسرائيلَ يَعلَمون ذلك، وكان ذلك دليلينِ علىٰ صِدْقِ نبوَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ بيَّن أنَّ هؤلاء الكفارَ لا تُجدي فيهم الدَّلائلُ[2].

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾

وقد أظهَر اللهُ بهتانَهم في هذه الآيةِ بأنَّهم إنَّما قالوا ذلك حيث جاءهم بالقرآن رسولٌ عربي، وأنَّه لو جاءهم بهذا القرآنِ رسولٌ أعجمي لا يَعرِف العربية بأنْ أوحىٰ اللهُ بهذه الألفاظِ إلىٰ رسولٍ لا يَفهَمها، ولا يُحسِن تأليفها، ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾، وفي قراءتِه -وهو لا يُحسِنُ اللُّغةَ أيضًا- خارقُ عادةٍ؛ لو كان ذلك، لَمَا آمَنوا بأنَّه رسولٌ، مع أنَّ ذلك خارقٌ للعادة؛ فزيادةُ قوله: ﴿عَلَيۡهِم﴾ زيادةُ بيانٍ في خرقِ العادة. يعني: أنَّ المشركين لا يريدون ممَّا يُلقُونه مِن المطاعنِ البحثَ عن الحقِّ، ولكنَّهم أصَرُّوا علىٰ التكذيب، وطَفِقوا يَتحمَّلون أعذارًا لتكذيبِهم جحودًا للحق، وتستُّرًا مِن اللائمين[3].

ثم بيَّن تَماديَهم في المكابَرةِ، والعناد، واستنكافهم عن اتباعِ المُرسَلِ، ولو كان أعجميًّا، فقال: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠٠).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٩١).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٣).

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ ﴾

ولمَّا كان ذلك محَلَّ عجَبٍ، وكان ربما ظنَّ له أنَّ الأمرَ علىٰ غيرِ حقيقته؛ قرَّر مضمونَه وحقَّقه بقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾(١).

جملة ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ ﴾ إلخ مستأنفةٌ بيانيَّةٌ؛ أي: إن سألتَ عن استمرار تكذيبهم بالقرآن في حينِ أنَّه نزَل بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فلا تَعجَبْ؛ فكذلك السُّلوكِ سلَكْناه في قلوبِ المشركين(٢).

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ ﴾

ولمَّا كان هذا المعنىٰ خفيًّا، بيَّنه بقولِه: ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾(٣).

جملةٌ مستأنَفةٌ، مسُوقةٌ لبيانِ أنَّهم لا يتأثَّرون بأمثالِ تلك الأمور الدَّاعية إلىٰ الإيمانِ به؛ بل يستمِرُّون علىٰ ما هم عليه ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾(٤).

﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ ﴾

ولمَّا كان إتيانُ الشَّرِّ فُجاءةً أشدَّ، وكان أخذُه لهم عَقِب رؤيتهم له مِن غيرِ مهلةٍ يحصُلُ فيها نوعُ استعدادٍ أصلًا؛ دلَّ علىٰ ذلك مُصوِّرًا لحاله بقولِه دالًّا بالفاء علىٰ الأشَدِّيَّة والتَّعقيب: ﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٠٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦٥).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٠٢).

﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّهم لا يؤمنون به حتىٰ يَرَوا العذابَ الأليم، وأنَّه يأتيهم العذابُ بَغْتةً، أتبعه بما يكونُ منهم عند ذلك علىٰ وجهِ الحسرة، فقال: ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾[(١)].

والفاء عاطفةٌ للتَّعقيب الرُّتبي؛ كأنَّه قيل: حتىٰ يكونَ رؤيتُهم للعذابِ الأليم فما هو أشَدُّ منها؛ وهو مفاجأتُه، فما هو أشَدُّ منه؛ وهو سؤالُهم النَّظِرةَ[(٢)].

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

ولمَّا حقَّق أنَّ حالَهم عند الأخذِ الجُؤَارُ بالذُّلِّ والصَّغار به، تسبَّب عنه ما يستحِقُّون باستعجاله مِن الإنكار في قولِه -مُنبِّهًا علىٰ أنَّ قَدْرَه يفُوقُ الوصفَ بنونِ العظَمةِ-: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾[(٣)].

نشأ عن قوله: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ تقديرُ جوابٍ عن تكرُّرِ سؤالهم عن وقوعِ العذاب؛ حيث جعَلوا تأخُّرَ حصولِ العذاب دليلًا علىٰ انتفاءِ وقوعه[(٤)].

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

ولمَّا تصوَّرتْ حالةُ مآبهم، في أخذِهم بعذابهم، وكان استعجالُهم به يتضمَّن الاستخفافَ والتَّكذيب والوثوقَ بأنَّهم ممتَّعون، وتعلُّقَ آمالهم بأنَّ تمتيعَهم يطول

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٤).

(٢) روح المعاني (١٠/ ١٢٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٦).

زمانه، وكان مَن يؤذونه يَتمنَّىٰ لو عُجِّل لهم؛ سبَّب عن ذلك سبحانه سؤالَ داعيهم مسلِّيًا ومؤسِّيًا ومعزِّيًا، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾(١).

ولمَّا كان استعجالُهم بالعذاب مقتضيًا أنَّهم في مهلةٍ منه ومتعةٍ بالسَّلامة، وأنَّ ذلك يغُرُّهم بأنَّهم في مَنْجاةٍ مِن الوعيدِ الذي جاءهم علىٰ لسانِ الرسول ﷺ؛ جابَهَهم بجملةِ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾(٢).

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم ﴾ معطوفٌ علىٰ جملةِ الشرط المعترِضة، و﴿ ثُمَّ ﴾ فيه للترتيبِ والمُهْلة؛ أي: جاءهم بعد سنين(٣).

ثم أخبَر بمجيء العذابِ بعد هذه السنين، فقال: ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

ثم بيَّن أنَّ تمتيعَهم تلك الأيَّامَ القلائل لا يُغنِي عنهم شيئًا، فقال: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: لم يُغْنِ عنهم شيئًا؛ لأنَّهم ما أُخِذوا إلا بعد إنذارِ المنذِرين؛ لمُشافَهتِك إيَّاهم به، وسماعِهم لمِثْلِ ذلك عمَّن مضىٰ قبلهم مِن الرُّسلِ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٠٥).

تذكيرٌ لقُرَيشٍ بأنَّ القُرَىٰ التي أهلكها اللهُ والتي تقدَّم ذِكْرُها في هذه السُّورةِ قد كان لها رُسُلٌ يُنذِرونها عذابَ الله؛ ليَقِيسوا حالتَهم علىٰ أحوالِ الأُمَم التي قبلهم[(١)].

ثم أخبَر تعالىٰ أنَّه لم يُهلِكْ قريةً مِن القرىٰ إلا وقد أرسَل إليها مَن يُنذِرُها عذابَ الله إن هي عصَتْ ولم تؤمِنْ[(٢)].

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

ثم علَّل الإنذارَ بقولِه: ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[(٣)].

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه أنَّ غايةَ إنزال هذا القرآنِ كونُه ﷺ مِن المنذِرين، وأتبَع ذلك ما لاءَمه حتَّىٰ ختَم بإهلاكِ مَن كذَّب المنذِرين؛ عطَف علىٰ قولِه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ﴾ قولَه إعلامًا بأنَّ العنايةَ شديدةٌ في هذا السِّياق بالقرآن لتقريرِ أنَّه مِن عندِ الله، ونفَىٰ اللَّبْسَ عنه بقولِه: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾، وما بيْنَهما اعتراضٌ استدعاه تناسُبُ المعاني، وأخذُ بعضِها بحُجَزِ بعضٍ؛ تفنُّنًا في الغرضِ[(٥)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا احتجَّ علىٰ صِدْقِ محمَّدٍ ﷺ بكونِ القرآن تنزيلَ ربِّ العالمين، وإنَّما يُعرَف ذلك لوقوعِه مِن الفصاحة في النهايةِ القصوىٰ، ولأنَّه مشتمِلٌ علىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٧).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٩٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٠٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٨).

قصصِ المتقدِّمين مِن غيرِ تفاوُتٍ، مع أنَّه ﷺ لم يشتغِلْ بالتعلُّم والاستفادة، فكان الكفارُ يقولون: لِمَ لا يجوز أن يكونَ هذا مِن إلقاءِ الجِنِّ والشياطين كسائرِ ما يَنزِلُ علىٰ الكهنةِ؟ فأجاب اللهُ تعالىٰ عنه بأنَّ ذلك لا يَتسهَّلُ للشياطينِ؛ لأنَّهم مرجومون بالشُّهُب، معزولون عن استماعِ كلامِ أهل السماء[1].

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ رَدٌّ لِما زعَمه الكفرةُ في حقِّ القرآنِ الكريم مِن أنَّه مِن قبيلِ ما يُلقِيه الشَّيطانُ علىٰ الكهنةِ بعد تحقيق الحقِّ ببيانِ أنَّه نزَل به الرُّوحُ الأمين[2].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ كمالَ القرآنِ وجلالتَه، نزَّهه عن كلِّ صفةِ نقصٍ، وحمَاه -وقتَ نزوله، وبعد نزوله- مِن شياطينِ الجِنِّ والإنس، فقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾[3].

﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾

ولمَّا كان لا يَلزمُ مِن عدمِ التَّلبُّس بالفعل عدمُ الصَّلاحيةِ له، قال: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾[4].

ما أحسَنَ ما ترتَّب نَفْيُ هذه الجُمَلِ! نفىٰ أولًا تنزيلَ الشياطين به، والنفيُ في الغالب يكون في الممكنِ، وإن كان هنا لا يمكِنُ مِن الشياطينِ التنزُّلُ بالقرآن، ثم نفىٰ انبغاءَ ذلك والصلاحيةَ؛ أي: ولو فُرِض الإمكانُ لم يكونوا أهلًا له، ثم نفىٰ قُدْرتَهم علىٰ ذلك، وأنَّه مستحيلٌ في حقِّهم التنزُّلُ به؛ فارتقىٰ مِن نفيِ الإمكان إلىٰ نفيِ الصلاحية إلىٰ نفيِ القدرة والاستطاعة؛ وذلك مبالَغةٌ مترتِّبة في نفيِ تنزيلِهم به[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٩٨).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٠٥).

(٥) البحر المحيط (٨/ ١٩٦).

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ٢١٢ ﴾

ثم علَّل هذا بقولِه: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾[1].

استؤنف بـ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾، فكان ذلك كالفَذْلكة لِما قبله، وهو بعمومه يَتنزَّل منزلةَ التذييل[2].

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣ ﴾

ولمَّا كان تقديرُه أنَّهم إلىٰ الطواغيتِ الباطلة يَدْعُون، والقرآنُ داعٍ إلىٰ الله الحقِّ المُبين؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[3].

لمَّا وجَّه الخطابَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ مِن قولِه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إلىٰ هنا، في آياتٍ أشادت بنزولِ القرآن مِن عندِ الله تعالىٰ، وحقَّقت صِدْقَه بأنَّه مذكورٌ في كُتُبِ الأنبياء السَّالفين، وشَهِد به علماءُ بني إسرائيلَ، وأنحىٰ علىٰ المشركين بإبطالِ ما ألصَقوه بالقرآن مِن بهتانِهم؛ لا جرَمَ اقتضىٰ ذلك ثبوتَ ما جاء به القرآنُ، وأصلُ ذلك هو إبطالُ دِينِ الشرك الذي تقلَّدته قُرَيشٌ وغيرُها، وناضلت عليه بالأكاذيب؛ فناسَب أن يَتفرَّعَ عليه النَّهيُ عن الإشراك بالله، والتَّحذيرُ منه[4].

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤ ﴾

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ ﴾؛ فهو تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ للاهتمام بهذا الخاصِّ[5].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٠٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٠).

ثم إنَّه بعد أن بدأ بالرسول ﷺ فتوعَّده إن دعا مع الله إلهًا آخرَ، أمَره بدعوةِ الأقربِ فالأقرب؛ وذلك لأنَّه إذا تشدَّد على نفسه أولًا، ثم بالأقربِ فالأقرب ثانيًا؛ لم يكُنْ لأحدٍ فيه طعنٌ البتَّةَ، وكان قولُه أنفعَ، وكلامُه أنجعَ(١).

ثم أمَره تعالى بإنذارِ عشيرته، ونبَّه على العشيرة، وإن كان مأمورًا بإنذارِ الناس كافَّةً؛ لأنَّ في إنذارِهم -وهم عشيرتُه- عدمَ محاباةٍ ولُطْفٍ بهم، وأنَّهم والناسَ في ذلك شرعٌ واحد في التخويف والإنذار، فإذا كانت القرابةُ قد خُوِّفوا وأُنذِروا مع ما يَلحَق الإنسانَ في حقِّهم مِن الرأفةِ، كان غيرُهم في ذلك أوكَدَ وأدخَلَ(٢).

ولمَّا أمَره بما فيه كمالُ نفسه، أمَره بتكميلِ غيره، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٣).

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾

ولمَّا كانت النِّذارةُ إنَّما هي للمتولِّين، أمَر بضدِّها لأضدادهم، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

معترِضٌ بَيْنَ الجملتينِ ابتدارًا لكرامةِ المؤمنين قبل الأمر بالتبرُّؤ مِن الذين لا يؤمنون، وبعد الأمرِ بالإنذار الذي لا يخلو مِن وقعٍ أليم في النفوس(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٩٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٩٨).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٢).

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ ذلك أنَّ هذا الحُكْمَ عامٌّ في جميع أحوالهم، فصَّل بقولِه: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

لمَّا كان الإنذارُ يَترتَّب عليه إمَّا الطاعةُ وإما العصيان، جاء التقسيمُ عليهما، فكأنَّ المعنىٰ: أنَّ مَن اتبَعك مؤمنًا فتواضَعْ له؛ فلذلك جاء قسيمُه: فإن عصَوْك فتبرأْ منهم ومِن أعمالهم(٢).

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾

ولمَّا أعلَمتْ هذه الآيةُ بمنابَذة مَن عصىٰ، كائنًا مَن كان، ولو كان ممَّن ظهَر منه الرُّسوخُ في الإيمان؛ لِما يُرىٰ منه مِن عظيمِ الإذعان؛ أتبعه قولَه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(٣).

ولمَّا كان التَّبرُّؤُ يُؤذِن بحدوثِ مجافاةٍ وعداوةٍ بَيْنَه وبينهم، ثبَّت اللهُ جأشَ رسولِه بألَّا يَعبأَ بهم، وأن يَتوكَّلَ علىٰ ربِّه(٤).

ثم بيَّن له ما يُعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠٩).
(٢) البحر المحيط (٨/ ١٩٧).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٠٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٣).
(٥) فتح القدير (٤/ ١٣٨-١٣٩).

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾

ثم أتبَع الأمرَ بالتَّوكل الوصفَ بما يقتضي الكفايةَ في كلِّ ما ينُوبُ مِن دفعِ الضُّرِّ وجلبِ النَّفع؛ وذلك هو العلمُ المحيط المقتضي لجميعِ أوصاف الكمال، فقال: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾(١).

ثم نبَّهه علىٰ الاستعانة باستحضارِ قُرْبِ الله، والنزولِ في منزلِ الإحسان، فقال: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾(٢).

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

وبعد أن ذكَر صلاةَ المنفرِدِ، ذكَر صلاةَ الجماعة، فقال: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الأحوالُ مشتمِلةً علىٰ الأقوال، وكان قد قدَّم الرُّؤيةَ المتضمِّنة للعلم؛ علَّل ذلك بالتَّصريح به مقرونًا بالسمع، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٣).

موقعُ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ موقعُ التعليلِ للأمر في قولِه: ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾، وللأمر في قولِه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾؛ فصفةُ السميع مناسِبةٌ للقول، وصفةُ العليم مناسِبةٌ للتوكل؛ أي: إنَّه يَسمَع قولَك، ويَعلَم عَزْمَك(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٠٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٩٩).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١١٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٤).

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّ القرآنَ مُنافٍ لأقوال الشياطين، وبيَّن أنَّ حالَ النَّبيِّ ﷺ وحالَ أتباعه منافيةٌ لأحوالهم وأحوالِ مَن يأتونه مِن الكهَّان، بما ذكَره سبحانه مِن فعلِه ﷺ وفعلِ أشياعه رضي الله عنهم؛ مِن الإقبال علىٰ الله، والإعراض عمَّا سواه، فعُلِم أنَّ بيْنَهم وبينهم بونًا بعيدًا، وفَرْقًا كبيرًا شديدًا، وأنَّ حالَ النَّبيِّ ﷺ موافقٌ لحالِ الرُّوح الأمين، النازلِ عليه بالذِّكر الحكيم: تشوَّفت النَّفسُ إلىٰ معرفةِ أحوال إخوانِ الشياطين، فقال محرِّكًا لِمَن يريد ذلك، متمِّمًا لدفعِ اللَّبس عن كونِ القرآن مِن عندِ الله، وفرقَ بَيْنَ الآياتِ المتكفِّلة بذلك تطريةً لِذكْرِها، وتنبيهًا علىٰ تأكيدِ أمرها: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾[(١)].

لمَّا سفَّه قولهم في القرآن: إنَّه قولُ كاهنٍ، فردَّ عليهم بقولِه: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾، وأنَّه لا ينبغي للشياطينِ، ولا يستطيعون مِثْلَه، وأنَّهم حِيلَ بينهم وبين أخبارِ أوليائهم؛ عاد الكلامُ إلىٰ وصفِ حال كهَّانِهم؛ ليُعلَمَ أنَّ الذي رمَوْا به القرآنَ لا ينبغي أن يَلتبِسَ بحالِ أوليائهم[(٢)].

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ استحالة تنزُّل الشَّياطين علىٰ رسول اللهِ ﷺ بعد بيانِ امتناع تنزُّلهم بالقرآن[(٣)].

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: نعم أنبِئْنا، قال: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦٨).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١١٢).

لمَّا كان المعنىٰ هذا، جاء الإخبارُ بعده بقولِه: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾؛ كأنَّه لمَّا قال: هل أُخبِرُكم بكذا؟ قيل له: أخبِرْ، فقال: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (١).

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

استئنافٌ، فلا يكون له محَلٌّ؛ كأنَّه قيل: لِمَ تَنزَّلُ علىٰ الأفَّاكِينَ؟ فقيل: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

ولمَّا بطَل -بإبعاده عن درَكاتِ الشَّياطين، وإصعادِه إلىٰ درجات الرُّوحانيين، مِن الملائكة المقرَّبين، الآتِينَ عن ربِّ العالَمِين- كونُه سِحْرًا، وكونُه أضغاثًا ومفترًىٰ؛ نفىٰ سبحانه كونَه شِعْرًا بقولِه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (٣).

كان ممَّا حوته كِنانةُ بهتانِ المشركين أنْ قالوا في النَّبيِّ ﷺ: هو شاعرٌ، فلمَّا نثَلَتِ الآياتُ السابقة سهامَ كنانتِهم، وكسَرتْها، وكان منها قولُهم: هو كاهنٌ؛ لم يَبقَ إلا إبطالُ قولهم: هو شاعرٌ، وكان بَيْنَ الكِهانة والشِّعر جامعٌ في خيالِ المشركين؛ إذ كانوا يزعُمون أنَّ للشاعر شيطانًا يُملِي عليه الشِّعر، وربما سمَّوْهُ الرَّئِيَّ، فناسَب أن يُقارَنَ بَيْنَ تزييفِ قولهم في القرآن: هو شِعْرٌ، وقولهم في النَّبيِّ ﷺ: هو شاعرٌ، وبين قولهم: هو قولُ كاهنٍ؛ فعُطِف هنا قولُه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ علىٰ جملةِ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٤).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٩٩).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١١٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٧).

اعلَمْ أنَّ الكفار لمَّا قالوا: لِمَ لا يجوز أن يقالَ: إنَّ الشياطينَ تَنزِلُ بالقرآن على محمَّدٍ كما أنَّهم يَنزِلون بالكِهانة على الكهنة وبالشِّعر على الشعراء؟ ثم إنَّه سبحانه فرَّق بَيْنَ محمَّدٍ ﷺ وبين الكهنةِ؛ فذكَر ههنا ما يدلُّ على الفَرْقِ بينه ﷺ وبين الشعراء[١].

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لإبطالِ ما قالوا في حقِّ القرآن العظيم مِن أنَّه مِن قَبيلِ الشِّعر، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مِن الشعراء؛ ببيانِ حال الشعراء المنافيةِ لحاله ﷺ، بعد إبطالِ ما قالوا: إنَّه مِن قَبيلِ ما يُلقِي الشياطينُ على الكهنة مِن الأباطيل، بما مرَّ مِن بيانِ أحوالهم المضادَّة لأحوالِه ﷺ[٢].

فلمَّا نزَّهه عن نزولِ الشياطين عليه، برَّأه أيضًا مِن الشِّعر، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾

ولمَّا قرَّر حالَ أتباعهم، فعُلِم منه أنَّهم هم أغوى منهم؛ لتهتُّكِهم في شهوةِ اللَّقلقة باللسان، حتى حسُنَ لهم الزُّورُ والبهتان؛ دلَّ على ذلك بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[٤].

جملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وما عُطِف عليها مؤكِّدةٌ لِما اقتضته جملةُ ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ مِن ذمِّ الشعراء بطريقِ فحوى الخطاب[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٩٩).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١١٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٩).

ثم بيَّن سبحانه قبائحَ شعراءِ الباطل، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[(١)].

استشهادٌ على أنَّ الشُّعراءَ إنَّما يتَّبِعُهم الغاوون، وتقريرٌ له[(٢)].

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

شفَع مَذمَّتَهم السابقةَ بمذمَّةِ الكذبِ، فقال: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[(٣)].

ثم وصَف الشعراءَ بأنَّ أقوالَهم تخالِفُ أفعالَهم، فقال: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن الشِّعر -كما قال النَّبيُّ ﷺ[(٤)]- حِكْمةٌ، وكان -كما قالت عائشةُ رضي الله تعالى عنها[(٥)]- بمنزلةِ الكلام؛ منه حسَنٌ، ومنه قبيحٌ، وكان مِن الشعراء مَن يَمدَح الإسلامَ والمسلمين، ويهجو الشركَ والمشركين، ويُزهِّد في الدُّنيا، ويُرغِّب في الآخرة، ويحُثُّ على مكارمِ الأخلاق، ويُنفِّر عن مَساوئها، وكان الفيصلُ بيْنَ قَبيلَيْ حسَنه وقبيحِه كثرةَ ذِكْرِ الله؛ قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾[(٦)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٤٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

(٥) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٨٦٦).

(٦) نظم الدرر (١٤/ ١١٥).

استثناءٌ مِن عموم الشُّعراء، وبهذا الاستثناءِ تعيَّن أنَّ المذمومِينَ هم شعراءُ المشركين الذين شغَلهم الشِّعْرُ عن سماعِ القرآن، والدخولِ في الإسلام(١).

إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا وصَف الشعراءَ بهذه الأوصافِ الذميمة بيانًا لهذا الفَرْقِ، استثنىٰ عنهم الموصوفين بأمورٍ أربعة(٢).

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٨).

سورة النمل

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

ولمَّا عظَّم سبحانه آياتِ الكتاب بما فيها مِن الجمعِ مِن النَّشر مع الإبانة، ذكَر حالَه، فقال: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾ حالانِ مِن (كِتَابٍ) بعد وصفِه بـ﴿ مُّبِينٍ ﴾، وجعلَ الحال مصدرًا للمبالغة بقوَّة تسبُّبه في الهدىٰ، وتبليغِه البشرىٰ للمؤمنين (٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان وصفُ الإيمان خفيًّا، وصَفهم بما يُصدِّقه مِن الأمورِ الظاهرة، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣).

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ صفةٌ مادحةٌ لهم، وتخصيصُهما بالذِّكر لأنَّهما قرينتا الإيمانِ، وقُطْرَا العباداتِ البدَنيَّة والمالية، مستتبِعانِ لسائرِ الأعمال الصالحة (٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٢٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧٢).

ثم وصَف المؤمنين الذين لهم الهدىٰ والبشرىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾

ولمَّا أفهَمَ التَّخصيصُ أنَّ ثَمَّ مَن يُكذِّب بها، وكان أمرُها مركوزًا في الطباع؛ لِما عليها مِن الأدلةِ الباهرة في العقل والسماع: تشوَّفتْ نفسُ السامع -علىٰ سبيل التَّعجُّب- إلىٰ حالهم، فقال مجيبًا له مؤكِّدًا تعجيبًا ممَّن يُنكِر ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[2].

لا محالةَ يثيرُ كونُ الكتاب المُبين هُدًىٰ وبُشْرَىٰ للذين يوقِنون بالآخرة سؤالًا في نفسِ السامع عن حالِ أضدادهم الذين لا يوقِنون بالآخرة: لماذا لا يهتدون بهَدْيِ هذا الكتابِ البالغ حدًّا عظيمًا في التبيُّن والوضوح؟ فلا جرَمَ أن يصلُحَ المقامُ للإخبار عمَّا صرَف هؤلاء الأضدادَ عن الإيمانِ بالحياة الآخرة، فوقَع هذا الاستئنافُ البياني لبيانِ سببِ استمرارهم علىٰ ضَلالهم[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما للمؤمنين مِن البشرىٰ، أتبَعه بما علىٰ الكفار مِن سُوءِ العذاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالىٰ المؤمنين الموقِنين بالبعث، ذكَر المُنكِرين ومَن جرىٰ مجراهم في إنكارِ البعث[5].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٤١).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٢٠٨).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ بيانٌ لأحوالِ الكفرة بعد بيانِ أحوال المؤمنين[(١)].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ ﴾

ولمَّا خَصَّ المؤمنين بما عُلِم منه أنَّ لهم حُسْنَ الثواب، وأنَّهم في الآخرةِ هم الفائزون، ذكَر ما يَختصُّ به هؤلاء مِن ضدِّ ذلك، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾[(٢)].

قُصِد باسمِ الإشارة زيادةُ تمييزهم؛ فضحًا لسُوءِ حالهم، مع ما ينبِّهُ إليه اسمُ الإشارة في مثل هذا المقامِ مِن أنَّ استحقاقَهم ما يُخبرُ به عنهم ناشئٌ عمَّا تقدَّم اسمَ الإشارة[(٣)].

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾

ولمَّا وصَف القرآنَ مِن الجمع والفرقان، بما اقتضىٰ بيانَ أهلِ الفوز والخسران، وكان حاصلُ حالِ الكفرة أنَّهم يتلقَّون كُفْرَهم -الذي هو في غايةِ السَّفه- إمَّا عن الشياطينِ الذين هم في غاية الشرِّ، وإما عن آبائهم الذين هم في غاية الجهل؛ وصَف النَّبيَّ ﷺ بضدِّ حالهم، فذكَر جلالةَ المُنزِّلِ عليه والمُنزِّلِ؛ ليكونَ أدعىٰ إلىٰ قَبوله، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾، انتقالٌ مِن التنويهِ بالقرآن إلىٰ التنويهِ بالذي أُنزِلَ عليه؛ بأنَّ القرآنَ آياتٌ دالة علىٰ أنَّه كتابٌ مُبين[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٣).

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، قد سِيقَ بعد بيانِ بعضِ شؤون القرآن الكريم؛ تمهيدًا لِما يعقُبُه مِن الأقاصيص[1].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾

ولمَّا كان تعلُّق ﴿إِذْ﴾ بـ«اذكُرْ» مِن الوضوح في حدٍّ لا يَخفَىٰ علىٰ أحدٍ، قال دالًّا علىٰ حِكْمتِه وعِلْمِه: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2].

الجملة استئنافٌ ابتدائيٌّ، ومناسبةُ موقعها إفادةُ تنظيرِ تَلقِّي النَّبيِّ ﷺ القرآنَ بتلقِّي موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامَ الله[3].

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾

فسار موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ تلك النارِ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

ولمَّا تشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ تحقُّق الأمر تصريحًا، قال معظِّمًا له -تمهيدًا لِما أراد سبحانه إظهارَه علىٰ يدِه مِن المُعجِزات الباهرات-: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٣٣).

لمَّا آنسه تعالىٰ، ناداه وأقبَل عليه، فقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(١).

ثم إنَّ موسىٰ عليه السلام أعلَمَه تعالىٰ بأنَّه هو الذي يُكلِّمه ويناجيه، لا مَلَكٌ ولا خَلْقٌ آخرُ؛ بل ذاتُه العليَّةُ المستحِقَّة للألوهيَّة، والنُّعوت القدسيَّة، فقال سبحانه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٢).

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فافعَلْ جميعَ ما آمُرُك به؛ فإنَّه لا بدَّ منه، ولا تَخَفْ مِن شيءٍ؛ فإنَّه لا يُوصَلُ إليك بسُوءٍ؛ لأنَّه مُتقَنٌ بقانونِ الحِكْمة، محروسٌ بسُورِ العِزَّةِ؛ دلَّ عليه بالعطفِ في قولِه: ﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ ﴾(٣).

وتقديمُ هذا بَيْنَ يَدَيْ ما سيُلقىٰ إليه مِن الأمرِ لإحداثِ رباطةِ جأشٍ لموسىٰ؛ ليَعلَمَ أنَّه خُلِعتْ عليه النُّبوءة؛ إذ أُلقِيَ إليه الوحيُ، ويَعلَمَ أنَّه سيَتعرَّض إلىٰ أذًىٰ وتألُّبٍ عليه؛ وذلك كنايةٌ عن كونِه سيَصِير رسولًا، وأنَّ اللهَ يؤيده وينصُرُه علىٰ كلِّ قويٍّ، وليَعلَمَ أنَّ ما شاهَد مِن النار وما تَلقَّاه مِن الوحيِ وما سيُشاهده مِن قلبِ العصا حيَّةً ليس بعجيبٍ في جانبِ حِكْمةِ الله تعالىٰ؛ فتلك ثلاثُ كناياتٍ؛ فلذلك أتبَع هذا بقولِه: ﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَ ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢١٢).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٤٨٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٨).

ثم أمَره تعالىٰ أن يُلقِيَ عصاه مِن يدِه ليُريَه دليلًا واضحًا علىٰ أنَّه القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ بقولِه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا دلَّ أوَّلُ الكلامِ وآخِرُه علىٰ أنَّ التَّقديرَ ما ذكَرتُه، وعُلِم منه أنَّ مَن ظلَم خاف، وكان المرسَلون -بل الأنبياءُ- معصومينَ عن صدورِ ظُلْمٍ، ولكنَّهم لعُلُوِّ مقامِهم وعظيمِ شأنِهم يُعَدُّ عليهم خلافَ الأَوْلىٰ، بل بعضُ المباحاتِ المستوية، بل أخصُّ مِن ذلك؛ كما قالوا: «حسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين»؛ استدرَك سبحانه مِن ذلك بأداةِ الاستثناء ما يُرغِّبُ المُرهَّبينَ مِن عواقبِ الظُّلْمِ آخِرَ تلك في التوبةِ، ويُنبِّه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ غفرانِ وَكْزةِ القِبْطيِّ له، وأنَّه لا خوفَ عليه بسببه، وإن كان قتلُه مباحًا لكونِه خطأً، مع أنَّه كافرٌ، لكنَّ علوَّ المقام يوجِبُ التَّوقُّفَ عن الإقدامِ إلا بإذنٍ خاصٍّ؛ ولذلك سمَّاه هو ظُلْمًا، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾، وهو مِن التَّعريضات التي يلطُفُ مأخذُها، فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

والمقصودُ مِن هذا الاستثناءِ علىٰ هذا الوجهِ تسكينُ خاطر موسىٰ، وتبشيرُه بأنَّ الله غفَر له ما كان فرط فيه، وأنَّه قَبِل توبتَه[3].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٤٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٣٥-١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٩).

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا أراه سبحانه هذه الخارقةَ فيما كان في يدِه، بقلبِ جوهرها إلىٰ جوهرِ شيءٍ آخرَ حيوانيٍّ؛ أراه آيةً أخرىٰ في يدِه نفسِها، بقلبِ عَرَضِها الذي كانت عليه إلىٰ عَرَضٍ آخرَ نُورانيٍّ، فقال: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾، وما بَيْنَهما اعتراضٌ، بعد أن أراه آيةَ انقلابِ العصا ثعبانًا، أراه آيةً أخرىٰ ليَطمئنَّ قلبُه بالتأييد[2].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ آيةٍ خارقة غيرِ العصا، آتاه إيَّاها، بقولِه: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾[3].

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فأتاهم كما أمَرْناهم، فعانَدوا أمرَنا؛ قال مُنبِّهًا علىٰ ذلك، دالًّا بالفاء علىٰ سرعةِ إتيانه إليهم امتثالًا لِما أُمِر به: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[4].

أوجَز بقيَّةَ القِصَّة، وانتقَل إلىٰ العِبْرة بتكذيب فِرْعونَ وقومِه الآياتِ؛ ليُعتبَرَ بذلك حالُ الذين كذَّبوا بآياتِ محمَّدٍ ﷺ، وقُصِد مِن هذا الإيجازِ طَيُّ بساطِ القِصَّة،

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٣٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣١).
(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤٨٨).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٣٧).

لينتقِلَ منها إلىٰ قِصَّةِ داودَ، ثم قِصَّةِ سليمانَ المبسوطةِ في هذه السُّورة. والمرادُ بمجيء الآيات حصولُها واحدةً بعد أخرىٰ؛ وهي الآياتُ الثَّمان التي قَبْلَ الغَرَق(١).

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

فتسبَّب عن قولِهم هذا كفرُهم بها؛ ولذلك قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾

ولمَّا تمَّ بهذه القِصَّةِ الدَّليلُ علىٰ حِكْمتِه، توقَّع السامعُ الدَّلالةَ علىٰ عِلْمِه سبحانه، فقال مُبتدِئًا بحرفِ التَّوقُّع، مشيرًا إلىٰ أنَّه لا نكيرَ في فضلِ الآخِرِ علىٰ الأوَّلِ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلقد آتينا موسىٰ وأخاه هارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِكْمةً وهدًىٰ وعلمًا ونصرًا علىٰ مَن خالَفهما وعِزًّا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

كما كان في قِصَّةِ موسىٰ وإرساله إلىٰ فِرْعونَ آياتُ عِبْرةٍ ومَثَلٌ للذين جحَدوا برسالةِ محمَّدٍ ﷺ، كذلك في قِصَّةِ سليمان وملكةِ سبأٍ وما رأته مِن آياتِه وإيمانِها به مَثَلٌ لعِلْمِ النَّبيِّ ﷺ، وإظهارٌ لفضيلةِ ملكةِ سبأٍ؛ إذ لم يصُدَّها مُلْكُها عن الاعترافِ بآيات سليمانَ فآمنَتْ به، وفي ذلك مَثَلٌ للذين اهتدَوْا مِن المؤمنين، وتقديمُ ذِكْرِ داودَ ليُبنىٰ

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٣٨-١٣٩).

عليه ذِكْرُ سليمانَ؛ إذ كان مُلْكُه وَرِثه مِن أبيه داودَ، ولأنَّ في ذِكْرِ داودَ مَثَلًا لإفاضةِ الحِكْمة علىٰ مَن لم يكُنْ متصدِّيًا لها[(١)].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مسُوقٌ لتقريرِ ما سبَق مِن أنَّه ﷺ يُلقَّىٰ القرآنَ مِن لدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ قِصَّتَهما عليهما الصَّلاة والسلام مِن جملةِ القرآن الكريم، لُقِّيَهُ ﷺ مِن لدُنْهُ تعالىٰ كقِصَّةِ موسىٰ عليه الصلاة والسلام[(٢)].

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان كلٌّ منهما عليه السلام قد أُوتي ما ذكَر، أشار إلىٰ فضل سليمانَ عليه السلام بأنَّه جمَع إلىٰ ما آتاه ما كان منَح به أباه، فقال: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[(٣)].

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ طوىٰ خبرَ مُلْكِ داودَ وبعضِ أحواله إلىٰ وفاتِه؛ لأنَّ المقصودَ هو قِصَّةُ سليمانَ -كما قدَّمْناه آنفًا-، وقد كان داودُ مَلِكًا علىٰ بني إسرائيلَ، ودام مُلْكُه أربعين سنةً، وتُوفِّيَ وهو ابنُ سبعين سنةً[(٤)].

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مجرَّدَ خبرٍ، أتبعَه ما يُصدِّقه، فقال: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٥).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٤١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فساروا -لأنَّ الوَزْعَ[1] لا يكون إلا عن سَيْرٍ-، غيَّاه[2] بقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾[3].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا مُعجِّبًا -لِما فيه مِن جزالةِ الألفاظ، وجلالةِ المعاني-، تسبَّب عنه قولُه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾[4].

وإنَّما ضَحِك لأمرينِ: أحدهما: إعجابُه بما دلَّ مِن قولِها على ظهورِ رَحْمتِه ورحمةِ جنوده، وعلى شهرةِ حاله وحالهم في بابِ التقوى؛ وذلك قولُها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾. والثاني: سرورُه بما آتاه اللهُ ممَّا لم يؤتِ أحدًا؛ مِن سماعِه لكلام النَّملة، وإحاطتِه بمعناه[5].

تفريعٌ على ما تقدَّم؛ فلا حاجةَ إلى تقدير معطوفٍ عليه؛ أي: فسَمِعها فتبسَّم، وجَعْلِ الفاء فصيحةً -كما قيل- ولعلَّه عليه السلام إنَّما تبسَّم مِن ذلك سرورًا بما أُلهِمتْ مِن حُسْنِ حالِه وحالِ جنوده في بابِ التَّقوى والشَّفقة، وابتهاجًا بما خَصَّه اللهُ تعالى به مِن إدراكِ ما هو هَمْسٌ بالنسبة إلى البشر، وفهمِ مرادها منه[6].

---

(١) أي: تنظيم الصفوف.

(٢) أي: جعل له غاية.

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٤٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٤٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٤٩).

(٦) روح المعاني (١٠/ ١٧٥).

ففهم ذلك سليمانُ عليه السلام منها، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[(١)].

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فوصَل إلىٰ المنزل الذي قصَده، فنزَله، وتفقَّد أحوالَ جنودِه؛ كما يقتضيه العنايةُ بأمور المُلْكِ؛ أي: تجنَّب فَقْدَهم؛ بأنْ تعرَّف مَن هو منهم موجودٌ، ومَن هو منهم مفقودٌ، الذي يَلزمه ألا يَغِيبَ أحدٌ منهم: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[(٢)].

ثم شرَع سبحانه في ذِكْرِ قِصَّةِ بِلْقِيسَ، وما جرىٰ بينها وبين سليمانَ؛ وذلك بدلالةِ الهُدْهدِ، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[(٣)].

ثم ذكَر نموذجًا آخَرَ مِن مخاطَبتِه للطيرِ، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[(٤)].

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال -علىٰ سبيلِ الاستئناف- إقامةً لسياسةِ المُلْكِ ما يدلُّ أيضًا علىٰ عظَمتِه، قالوا: إنَّه يرىٰ الماءَ في الأرض كما يرىٰ الإنسانُ الماءَ مِن داخلِ الزُّجاج، فينقُرُ الأرضَ، فتأتي الشَّياطينُ فتستخرجه: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[(٥)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٣).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٤٩).
(٣) فتح القدير (٤/ ١٥٢).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).
(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٤٩).

فحينئذٍ تغيَّظ عليه وتوعَّده، فقال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

فكأنَّه قال: واللهِ ليُقيمَنَّ عُذْرَه، أو لأفعَلَنَّ معه أحدَ الأمرينِ، فترتَّب على ذلك أنَّه مكَث بعد الحَلِفِ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[2].

الفاءُ لتفريعِ الحكاية، عطَفتْ جملةً على جملةٍ، وضميرُ ﴿ فَمَكَثَ ﴾ للهدهد[3].

فكأنَّه قيل: ما مضى مِن غَيْبتِه بعد التَّهديد؟ فقيل: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[4].

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: ما هو؟ فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[5].

لمَّا أبهَم الهُدْهدُ أولًا، ثم أبهَم ثانيًا دُونَ ذلك الإبهامِ؛ صرَّح بما كان أبهَمه، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[6].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٤٨).

(٤) روح المعاني (١٠/ ١٨١).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٥١).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٢٢٧).

ثـــم فسَّـــر هـــذا النبـــأ، فقـــال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾[1].

استئنافٌ ببيانِ ما جاء به مِن النَّبأِ، وتفصيلٌ له إثْرَ الإجمال[2].

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾

ولمَّا كان في الخدمةِ أقرَبَ أهلِ ذلك الزَّمان إلىٰ الله، فحصَل له مِن النُّورانيَّةِ ما هالَـه لأجلِه إعراضُـهم عـن الله؛ قـال مستأنِفًا تعجيبًا: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾[3].

ولمَّا كان سليمانُ عليه السلام قد آتاه اللهُ مِن كل شيءٍ لا يكون لغيرِه، وكان له عرشٌ عظيم؛ أخبَره بهذا النَّبأِ العظيم؛ حيث كان في الدُّنيا مَن يشارِكُه فيما يقرُبُ مِن ذلك، ولم يلتفِتْ سليمانُ عليه السلام لذلك؛ إذ كان مُعرِضًا عن أمورِ الدُّنيا، فانتقَل الهدهدُ إلىٰ الإخبار بما يَتعلَّق بأمورِ الدِّين. وما أحسَنَ انتقالاتِ هذه الأخبار بعد تهدُّد الهدهدِ وعِلْمِه بذلك؛ أخبَر أولًا باطِّلاعه علىٰ ما لم يطَّلِعْ عليه سليمانُ عليه السلام، تحصُّنًا مِن العقوبة بزينةِ العلم الذي حصَل له، فتشوَّف السامعُ إلىٰ علمِ ذلك، ثم أخبَر ثانيًا بتعلُّق ذلك العلمِ؛ وهو أنَّه مِن سبأٍ، وأنَّه أمرٌ متيقَّنٌ لا شكَّ فيه، فزاد تشوُّفُ السامع إلىٰ سماعِ ذلك النبأِ، ثم أخبَر ثالثًا عن المُلْكِ الذي أُوتِيَتْهُ امرأةٌ، وكان سليمانُ عليه السلام قد سأل اللهَ أن يؤتيَه مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدِه، ثم أخبَر رابعًا ما ظاهرُه الاشتراك

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٥١-١٥٢).

بينه وبين هذه المرأةِ، التي ليس مِن شأنِها ولا شأن النساء أن تَملِكَ فحولَ الرِّجال. ولمَّا لم يَتأثَّرْ سليمانُ عليه السلام للإخبار بهذا كلِّه، إذ هو أمرٌ دنياويٌّ؛ أخبَره خامسًا بما يهُزُّه لطلبِ هذه الملكةِ، ودعائها إلىٰ الإيمانِ بالله، وإفرادِه بالعبادة، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١).

فلمَّا قال الهدهدُ لسليمانَ ما قال، قال له سليمانُ: وما ذاك؟ فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾(٢).

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا الضَّلالُ عجبًا في نفسه، فضلًا عن أن يكونَ مِن قومٍ يَجمَعهم جامعُ مُلْكٍ مَبْناه السياسةُ التي محَطُّها العقلُ الذي هو نورُ الهداية، ودواءُ الغواية؛ علَّله بانتفاءِ أعظَمِ مقرِّبٍ إلىٰ الله: السُّجودِ، تعظيمًا له وتنويهًا به، فقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا الكلام الردُّ علىٰ مَن يعبُدُ الشمسَ، وتحريرُ الدلالةِ هكذا: الإلهُ يجب أن يكونَ قادرًا علىٰ إخراجِ الخَبْءِ، وعالِمًا بالخفيَّات، والشمسُ ليست كذلك؛ فهي لا تكون إلهًا، وإذا لم تكُنْ إلهًا لم يجُزِ السجودُ لها(٤).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٢٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٥٣).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٢).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الوصفُ مُوجِبًا لأن يُعبَدَ سبحانه وَحْدَه، صرَّح بما يقتضيه في قولِه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(1).

مجيءُ جملة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ عَقِب ذلك استئنافٌ هو بمنزلةِ النتيجة للصفات التي أُجريت على اسمِ الجلالة، وهو المقصودُ مِن هذا التَّذييل؛ أي: ليس لغيرِ الله شُبْهةُ إلهيَّةٍ(2).

لمَّا بيَّن افتقارَ السماوات والأرض وما بينهما إلى المدبِّر، ذكَر بعد ذلك أنَّ ما هو أعظَمُ الأجسام فهي مخلوقةٌ ومربوبة؛ وذلك يدلُّ على أنَّه سبحانه هو المنتهى في القدرةِ والرُّبوبيَّة إلى ما لا مزيدَ عليه، واللهُ أعلم(3).

لمَّا ذكَر الهدهدُ عرشَ بِلْقِيسَ، ووصَفه بالعِظَم؛ ردَّ اللهُ ﷻ عليه، وبيَّن أنَّ عرشَه تعالى هو الموصوفُ بهذه الصفةِ على الحقيقة؛ إذ لا يستحِقُّ عرشٌ دُونَه أن يوصَفَ بالعظَمة. وقيل: إنَّه مِن تمامِ كلام الهدهدِ؛ كأنَّه استدرَك وردَّ العظمةَ مِن عرشِ بِلْقِيسَ إلى عرشِ الله(4).

ثم بعدما وصَف الربَّ سبحانه بما تقدَّم ممَّا يدلُّ على عظيمِ قُدْرتِه وجليلِ سلطانه ووجوبِ توحيدِه وتخصيصِه بالعبادة، قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(5).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٣).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٢٣٢).

(٥) فتح القدير (٤/ ١٥٥).

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا صحَّ قولُه في كونِ هذا خبرًا عظيمًا، وخَطْبًا جسيمًا؛ حصَل التَّشوُّقُ إلىٰ جوابه، فقيل: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(١).

لمَّا فرَغ الهدهدُ مِن كلامه، وأبدىٰ عُذْرَه في غَيْبتِه؛ أخَّر سليمانُ عليه السلام أمرَه إلىٰ أن يَتبيَّنَ له صِدْقُه مِن كذبِه، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٢).

استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ كلام الهدهد؛ كأنَّه قيل: فماذا فعَل سليمانُ عليه السلام عند ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٣).

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثم شرَع فيما يختبِرُه به، فكتَب له كتابًا علىٰ الفورِ في غايةِ الوجازة؛ قصدًا للإسراع في إزالة المُنكَر، علىٰ تقديرِ صِدْقِ الهدهدِ بحسَبِ الاستطاعة، ودلَّ علىٰ إسراعِه في كتابته بقولِه جوابًا له: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾(٤).

الجملةُ مبيِّنةٌ لجملة ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾؛ لأنَّ فيما سينكشِفُ بعد توجيهِ كتابه إلىٰ ملكةِ سبأٍ ما يُصدِّق خبرَ الهدهدِ إن جاء مِن الملكة جوابٌ عن كتابه، أو يُكذِّب خبرَ الهدهد إن لم يَجِئْ منها جوابٌ(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٥٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٣٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٥٦).

في الكلام حذفٌ؛ تقديرُه: فأمَر بكتابةِ كتابٍ إليهم، وبذَهابِ الهدهد رسولًا إليهم بالكتاب، فقال: ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾(١).

استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيَّة النَّظرِ الذي وعَدَه ﷺ، وقد قاله ﷺ بعدما كتَب كتابَه في ذلك المجلسِ أو بعده، وتخصيصُه ﷺ إيَّاه بالرسالة دُونَ سائرِ ما تحت مُلْكِه مِن أُمَناءِ الجِنِّ الأقوياء علىٰ التَّصرُّف والتَّعرُّف؛ لِما عايَنَ فيه مِن مخايلِ العلم والحِكْمة، وصحَّةِ الفِراسة، ولئلا يَبقَىٰ له عُذْرٌ أصلًا(٢).

ثم بيَّن سليمانُ ﷺ هذا النَّظَرَ الذي وعَدَ به، فقال: ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾(٣).

﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ ﴾

ولَمَّا كان العلمُ واقعًا بأنَّه يفعل ما أُمِر به لا محالةَ، وأنَّه لا يَدفَعه إلا إلىٰ الملكةِ التي بالَغ في وصفِها؛ تشوَّفت النَّفسُ إلىٰ قولها عند ذلك، فكان كأنَّه قيل: فأخَذ الكتابَ وذهَب به، فلمَّا ألقاه إليها وقرأته، وكانت قارئةً كاتبةً مِن قومِ تُبَّعٍ؛ ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾(٤).

طُوِيتْ أخبارٌ كثيرةٌ، دلَّ عليها ما بَيْنَ الخبرَينِ المذكورين مِن اقتضاءِ عِدَّةِ أحداث؛ إذ التَّقدير: فذهَب الهدهدُ إلىٰ سبأٍ، فرمىٰ بالكتاب، فأبلَغ الكتابَ إلىٰ الملكة

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٣٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ١٥٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٥٦-١٥٧).

وهي في مجلسِ مُلْكِها، فقرأته، ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾، وهي جملةٌ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ غرابةَ قِصَّةِ إلقاء الكتاب إليها يُثير سؤالًا عن شأنها حين بلَغها الكتابُ[1].

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم بيَّنت كَرَمَه، أو استأنَفتْ جوابًا لِمَن يقول: ممَّن هو؟ وما هو؟ فقالت: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2].

ثم قصَّتْ عليهم الكتابَ حين قالت: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فيحتمِلُ أن يكونَ قد تُرجِمَ لها قبل أن تخرُجَ إلىٰ مجلسِ مشورتها، ويحتمل أن تكونَ عارفةً بالعبرانيَّة، ويحتمل أن يكونَ الكتابُ مكتوبًا بالعربيَّة القحطانيَّة؛ فإنَّ عظَمةَ مُلْكِ سليمانَ لا تخلو مِن كُتَّابٍ عارفين بلُغاتِ الأُمَمِ المجاوِرة لمملكته، وكونُه بلُغَتِه أظهَرُ وأنسَبُ بشعارِ الملوك[3].

استئنافٌ وقَع جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ؛ كأنَّه قيل: ممَّن هو؟ وماذا مضمونُه؟ فقالت: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[4].

ثم بيَّنتْ مضمونَه، فقالت: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٥٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٥٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٣).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولما كان في كتابه مِن الدَّلالة على نبوَّته، فسَّر مراده بأمرٍ قاهرٍ، فقال: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾[1].

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّفت النَّفسُ إلى جوابهم، أعلَمَ سبحانه بأنَّهم بُهِتوا، فقال: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[2].

ثم سألَتْهم إبداءَ آرائهم: ماذا تَعمَل تجاهَ دعوةِ سليمانَ؟ والجملةُ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا مِثْلَ التي قبلها[3].

لمَّا قرأَتْ على الملأِ الكتابَ، ورأت ما فيه مِن الانتقال إلى سليمانَ؛ استشارَتْهم في أمرِها[4].

لمَّا قرأت عليهم كتابَ سليمانَ، استشارَتْهم في أمرِها، وما قد نزَل بها؛ ولهذا قالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[5].

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فاستأنَف تعالى الإخبارَ عن جوابهم بقولِه: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٢).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٢٣٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٩).

(٦) نظم الدرر (١٤/ ١٥٩).

جـوابٌ بأسـلوبِ المحـاوَرة؛ فلـذلك فُصِـلَ ولـم يُعطَـفْ؛ كمـا هـي طريقةُ المحاوَرات[1].

فراجَعها الملأُ بما أقرَّ عينَها مِن قولِهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2].

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا عَلِمتْ أنَّ مَن سُخِّر له الطَّيرُ على هذا الوجهِ لا يُعجِزه شيءٌ يريده، ولا أحدَ يَكيده؛ مالت إلى المسالَمة، فاستأنَف ﷻ الإخبارَ عنها بقولِه: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[3].

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾ جوابُ محاوَرةٍ؛ فلذلك فُصِل، أبدت لهم رأيَها مفضِّلةً جانِبَ السلمِ على جانبِ الحرب، وحاذرةً مِن الدُّخول تحت سلطةِ سليمانَ اختيارًا؛ لأنَّ نهايةَ الحرب فيها احتمالُ أن ينتصِرَ سليمانُ، فتَصِيرَ مملكةُ سبأٍ إليه، وفي الدُّخول تحت سلطةِ سليمانَ إلقاءٌ للمملكة في تصرُّفه، وفي كِلا الحالينِ يحصُلُ تصرُّفُ مَلِكٍ جديدٍ في مدينتها، فعَلِمتْ بقياسِ شواهدِ التاريخ وبخبرة طبائعِ الملوك إذا تصرَّفوا في مملكةِ غيرهم أن يَقلِبوا نظامها إلى ما يُسايِرُ مصالحَهم، واطمئنان نفوسهم مِن انقلاب الأمَّة المغلوبة عليهم في فُرَصِ الضَّعف أو لوائحِ الاشتغال بحوادثَ مهمَّة، فأولُ ما يفعلونه إقصاءُ الذين كانوا في الحُكْمِ؛ لأنَّ الخطَرَ يُتوقَّع مِن

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٥٩).

جانبِهم؛ حيث زال سلطانُهم بالسُّلطان الجديد، ثم يُبدِّلون القوانينَ والنُّظم التي كانت تَسِيرُ عليها الدولةُ، فأمَّا إذا أخذوها عَنْوةً، فلا يخلو الأخذُ مِن تخريبٍ وسَبْيٍ ومغانمَ؛ وذلك أشَدُّ فسادًا، وقد اندرَج الحالانِ في قولِها: ﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾(١).

اعلَمْ أنَّها لمَّا عرَضتِ الواقعةُ على أكابرِ قومها، وقالوا ما تقدَّم؛ أظهَرتْ رأيَها؛ وهو أنَّ الملوكَ إذا دخَلوا قريةً بالقهرِ، خرَّبوها، وأذَلُّوا أعِزَّتَها، فذكَرتْ لهم عاقبةَ الحرب(٢).

لمَّا وصَل إليها كتابُ سليمانَ عليه السلام، لا على يدِ رجُلٍ، بل على طائرٍ؛ استعظَمتْ مُلْكَ سليمانَ عليه السلام، وعَلِمتْ أنَّ مَن سُخِّرَ له الطيرُ حتى يُرسِلَه بأمرٍ خاص إلى شخصٍ خاص مُغلَقٍ عليه الأبوابُ: غيرُ ممتنِعٍ عليه تدويخُ الأرضِ وملوكِها، فأخبَرتْ بحالِ الملوك، ومالت إلى المهاداة والصُّلح، فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٣).

فلمَّا أحسَّتْ منهم الميلَ إلى الحِراب، والعدولَ عن سَنَنِ الصَّواب؛ شرَعتْ في تزييفِ مقالتِهم المبنيَّةِ على الغفلة عن شأنِ سليمانَ عليه السلام؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

فلمَّا سَمِعتْ تفويضَهم الأمرَ إليها، ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٥).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٢٣٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٤).

(٥) فتح القدير (٤/ ١٥٨).

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا بيَّنتْ ما في المصادمةِ مِن الخطر، أتبعَتْهُ ما عزَمتْ عليه مِن المسالَمة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(١).

فدبَّرتْ أن تَتفادىٰ مِن الحربِ ومِن الإلقاءِ باليد بطريقةِ المصانَعة والتزَلُّف إلىٰ سليمانَ بإرسالِ هديَّةٍ إليه، وقد عزَمتْ علىٰ ذلك، ولم تستطلِعْ رأيَ أهل مشورتها؛ لأنَّهم فوَّضوا الرَّأيَ إليها، ولأنَّ سُكوتَهم علىٰ ما تُخبرهم به يُعَدُّ موافقةً ورضًا(٢).

لمَّا كانت عادةُ الملوك قَبولَ الهدايا، وأنَّ قَبولَها يدلُّ علىٰ الرضا والأُلْفة؛ قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(٣).

ثم لمَّا قدَّمتْ لهم هذه المقدمةَ، وبيَّنتْ لهم ما في دخول الملوك إلىٰ أرضهم مِن المَفسدَة؛ أوضَحتْ لهم وجهَ الرَّأي عندها، وصرَّحتْ لهم بصوابه، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فأرسَلتْ بالهدية، رتَّب عليه قولَه مُشيرًا بالفاء إلىٰ سرعةِ الإرسال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٦).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٢٣٦).
(٤) فتح القدير (٤/ ١٥٩).
(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٦٠-١٦١).

وقد أبىٰ سليمانُ قَبولَ الهديَّة؛ لأنَّ الملكةَ أرسلتها بعد بلوغ كتابه، ولعلَّها سكَتتْ عن الجواب عمَّا تضمَّنه كتابُه مِن قولِه: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فتبيَّن له قصدُها مِن الهديَّة؛ أن تَصرِفَه عن محاولةِ ما تضمَّنه الكتابُ، فكانت الهديَّةُ رِشْوةً لتصرِفَه عن بثِّ سلطانِه علىٰ مملكة سبأٍ[1].

في الكلام حذفٌ؛ تقديره: فأرسَلتِ الهديةَ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[2].

ثم ردَّ الهديَّةَ؛ وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[3].

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم أفرَدَ الرسولَ إرادةً لكبيرِهم بقولِه: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[4].

ثم توعَّدهم وهدَّدهم بأنَّه مُرسِلٌ إليهم جيشًا لا قِبَلَ لهم بحَرْبِه[5].

ثم أوصىٰ الرسولَ مِن غيرِ كتاب لِما رأىٰ مِن عقلِه، وأنَّه سينقُلُ كلامَه علىٰ وجهه، فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٧).
(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٣٧).
(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٥).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٦٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦٩).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾

ولمَّا ذهَب الرُّسلُ، وعَلِم عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّا رأىٰ مِن تصاغُرِهم -لِما رأَوْا مِن هيبتِهِ وجلاله الذي حباه به ربُّه وعظَمتِه- أنَّهم يأتون بها مُذعِنةً؛ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لذِكْرِ بعضِ أجزاء القِصَّة، طُوِيَ خبرُ رجوع الرُّسل والهدية، وعَلِم سليمانُ أنَّ ملكةَ سبأٍ لا يسعُها إلا طاعتُه ومجيئُها إليه، أو ورَدَ له منها أنَّها عزَمتْ علىٰ الحضور عنده(٢).

اعلَمْ أنَّ في قولِه تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ دلالةً علىٰ أنَّها عزَمتْ علىٰ اللُّحوقِ بسليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودلالةً علىٰ أنَّ أمرَ ذلك العرشِ كان مشهورًا، فأحَبَّ أن يحصلَ عنده قبل حضورِها(٣).

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾

جملةُ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ واقعةٌ موقعَ جوابِ المحاوَرة، ففُصِلتْ علىٰ أسلوب المحاوَرات(٤).

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

ولمَّا كانت القِصَّةُ لإظهارِ فضل العلم المستلزِمِ للحكمة دلالةً علىٰ أنَّه تعالىٰ حكيمٌ عليمٌ، ترغيبًا في القرآن، وحثًّا علىٰ ما أفاده مِن البيان؛ قال حاكيًا لذلك استئنافًا جوابًا

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٠).

لاستشرافه ﷺ لأقربَ مِن ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾(١).

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فُصِل عمَّا قبله للإيذانِ بما بَيْنَ القائلَين ومقالَيْهما وكيفيَّتَي قُدْرتِهما على الإتيانِ به مِن كمال التَّباين(٢).

فلمَّا قال سليمانُ عليه السلام: أريد أعجَلَ مِن ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾(٣).

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾

ولمَّا قدَّم -كما هو دأبُ الصالحين- الشُّكْرَ، وعَلِم أنَّه يفعلُ في العرش ما لأجلِه أحضَره؛ تشوَّفت النَّفسُ إليه، فأُجيبت بقولِه: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾(٤).

هذا مِن جملةِ المحاوَرة التي جرَتْ بَيْنَ سليمانَ عليه السلام وبين ملَئِه؛ ولذلك لم يُعطَفْ؛ لأنَّه جرى على طريقةِ المقاوَلة والمحاوَرة(٥).

لمَّا جيءَ سليمانُ عليه السلام بعرشِ بِلْقِيسَ قبل قدومها، أمَر به أن يُغيَّرَ بعضُ صفاته؛ ليَختبِرَ معرفتَها وثباتَها عند رؤيته: هل تُقدِمُ على أنَّه عرشُها أو أنَّه ليس به؟ فقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٦٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٦٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٢).

(٦) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾

وأشار إلى سرعةِ مجيئها -إشارةً إلى خضوعها- بالتَّعبيرِ بالفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾(١).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شروعٌ في حكايةِ التَّجربة التي قصدها سليمانُ عليه السلام(٢).

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾

ولمَّا كان المعنى: وأمَّا هي فإنَّها وإن أُوتيتْ علمًا، فلم يكُنْ ثابتًا، ولا كان معه دِينٌ؛ ترجمه بقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾(٣).

بيانٌ مِن جهتِه تعالى لِما كان يَمنَعها مِن إظهارِ ما ادَّعته مِن الإسلام إلى الآن(٤).

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، كان كأنَّه قيل: هل كان بعد ذلك اختبارٌ؟ فقيل: نعم! ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾(٥).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكى إقامتَها على الكفر مع كلِّ ما تقدَّم مِن الدَّلائل، ذكَر أنَّ سليمانَ عليه السلام أظهَرَ مِن الأمر ما صار داعيًا لها إلى الإسلام(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٦٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٨).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٧٠).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٩).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنَّه قيل: فماذا قيل لها بعد الامتحانِ المذكور؟ فقيل: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾[(١)].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه هذه القِصَّةَ المؤسَّسة على العلمِ المشيَّد بالحِكْمة المنبِئة عن أنَّ المدعوِّين فيها أطبَقوا على الاستسلام للدخول في الإسلام، مع إبالةِ[(٢)] المُلْكِ ورئاسة العِزِّ، والقهرِ على يدِ غريبٍ عنهم بعيدٍ منهم؛ أتبَعها قِصَّةً انقسم أهلُها مع الذلِّ والفقر فريقينِ مع أنَّ الداعيَ منهم لا يزُولُ باتباعه شيءٌ مِن العِزِّ عنهم، مع ما فيها مِن الحِكْمةِ، وإظهارِ دقيق العلم بإبطال المكرِ، بعد طُولِ الأناة والحِلْمِ، فقال تعالى مُفتتِحًا بحرفِ التَّوقُّع والتَّحقيق لِمَن ظَنَّ أنَّ هذا شأنُ كلِّ رسولٍ مع مَن يَدْعوهم، عاطفًا على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[(٣)].

هذا مثَلٌ ثالث ضرَبه اللهُ لحال المشركين مع المؤمنين، وجعَله تسليةً لرسوله ﷺ؛ بأنَّ له أسوةً بالرُّسلِ والأنبياء مِن قَبْلِه.

والانتقالُ مِن ذِكْرِ مُلْكِ سليمانَ وقِصَّة ملكة سبأٍ إلى ذِكْرِ ثمودَ ورسولهم دُونَ ذِكْرِ عادٍ؛ لمناسبةِ جِوار البلاد؛ لأنَّ ديارَ ثمودَ كانت على تُخُومِ مملكة سليمانَ، وكانت في طريقِ السائر مِن سبأٍ إلى فِلَسْطِينَ[(٤)].

(١) روح المعاني (١٠/ ٢٠٢).

(٢) أي: سياسة.

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٧).

لمَّا ذكَر قِصَّةَ موسىٰ وداودَ وسليمانَ، وهم مِن بني إسرائيلَ، ذكَر قِصَّةَ مَن هو مِن العرَبِ، يذكِّرُ بها قُريشًا والعرَبَ، وينبِّهُهم أنَّ مَن تقدَّم مِن الأنبياء مِن العرَبِ كان يدعو إلىٰ إفرادِ الله تعالىٰ بالعبادة؛ ليَعلَموا أنَّهم في عبادةِ الأصنام علىٰ ضَلالةٍ، وأنَّ شأنَ الأنبياءِ عرَبِهم وعجَمِهم هو الدعاءُ إلىٰ عبادة الله[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾

ثم استأنَف بما أشار إليه حرفُ التَّوقُّع مِن شِدَّةِ التَّشوُّف قائلًا: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[2].

لمَّا كان الاختصامُ بَيْنَ الفريقينِ في شأن صالحٍ ابتداءً، جيءَ بجوابِ صالحٍ عمَّا تضمَّنه اختصامُهم مِن محاولتِهم إفحامَه بطلبِ نزول العذاب، فمقولُ صالحٍ هذا ليس هو ابتداءَ دعوتِه؛ فإنَّه تقدَّم قولُه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولكنَّه جوابٌ عمَّا تضمَّنه اختصامُهم معه؛ ولذلك جاءت جملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مفصولةً؛ جريًا علىٰ طريقة المحاوَرة؛ لأنَّها حكايةُ جوابٍ عمَّا تضمَّنه اختصامُهم[3].

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾

ثم استأنَف حكايةَ جوابِهم، فقال: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[4].

هذا مِن محاوَرتِهم مع صالحٍ؛ فلذلك لم يُعطَفْ فِعْلَا القولِ، وجاء علىٰ سَنَنِ حكايةِ أقوال المحاوَرات[5].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٧٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٠).

لمَّا لاطَفهم في الخطاب، أغلَظوا له، و﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾(١).

فكان جوابُهم عليه بعد هذا الإرشادِ الصحيح والكلامِ الليِّن أنَّهم ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾(٢).

﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن عامَّةِ هذا الفريق بالشَّرِّ، أخبَر عن شرِّهم بقولِه: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾(٣).

عطَف جزءَ القِصَّة علىٰ جزءٍ منها(٤).

ثم أخبَر تعالىٰ عن طغاةِ ثمودَ ورؤسائهم الذين كانوا دعاةَ قومهم إلىٰ الضَّلال والكفر، وتكذيبِ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما آلَ بهم الأمرُ، بقولِه سبحانه: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾(٥).

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا اقتضىٰ السِّياقُ السُّؤالَ عن بيانِ بعض حالهم، أجاب بقولِه: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾(٦).

استئنافٌ ببيانِ بعضِ ما فعَلوا مِن الفساد(٧).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٤٩).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٦٥).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٧٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٢).
(٥) محاسن التأويل (٧/ ٤٩٦).
(٦) نظم الدرر (١٤/ ١٧٦).
(٧) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٠).

فلم يَزالوا بهذه الحالِ الشَّنيعة، حتىٰ إنَّهم مِن عداوتهم ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[1].

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ ﴾

ولمَّا كان هذا منهم عمَلَ مَن لا يظُنُّ أنَّ اللهَ عالمٌ به، قال تعالىٰ مُحذِّرًا أمثالَهم عن أمثالِ ذلك: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا الإبهامِ تهويلُ الأمر، سبَّب عنه سبحانه زيادةً في تهويلِه قولَه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3].

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ شروعٌ في بيانِ ما ترتَّب علىٰ ما باشَروه مِن المكر[4].

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ ﴾

ولمَّا كان يَتسبَّب عن دمارِهم زيادةُ الهولِ والرُّعبِ بالإشارةِ إلىٰ ديارهم، لاستحضارِ أحوالهم، واستعظامِهم بعظيم أعمالهم؛ قال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٧٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩١).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٧٩-١٨٠).

تفريعُ قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ على جملةِ ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ لتفريعِ الإخبار[١].

لمَّا أمَر تعالىٰ بالنظرِ فيما جرىٰ لهم مِن الهلاكِ في أنفسهم، بيَّن ذلك بالإشارة إلىٰ منازِلهم، وكيف خلَتْ منهم، وخرابِ البيوت وخُلُوِّها مِن أهلها، حتىٰ لا يَبقَىٰ منهم أحدٌ، ممَّا يعاقَبُ به الظَّلَمةُ؛ إذ يدُلُّ ذلك علىٰ استئصالِهم[٢].

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا كان ذلك ربما أوهَم أنَّ الهلاكَ عَمَّ الفريقينِ، قال: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٣].

في تأخيرِ جملة ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ عن جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ طَمْأنةٌ لقلوبِ المؤمنين بأنَّ الله ينجيهم ممَّا توعَّد به المشركين[٤].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا فرَغ مِن قِصَّةِ القريب الذي دعا قومَه فإذا هم قِسْمانِ، بعد الغريب الذي لم يختلِفْ عليه ممَّن دعاهم اثنانِ؛ أتبَعها بغريبٍ لم يتَّبِعْهُ ممَّن دعاهم إنسانٌ، فقال دالًّا علىٰ أنَّه له سبحانه الاختيار، فتارةً يُجري الأمورَ علىٰ القياس، وأخرىٰ علىٰ خلافِ الأساس، الذي تقتضيه عقولُ الناس، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٥٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٧).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٨١).

وتعقيبُ قِصَّةِ ثمودَ بقِصَّة قومِ لوطٍ جارٍ علىٰ معتادِ القرآن في ترتيبِ قصصِ هذه الأُمَمِ؛ فإنَّ قومَ لوطٍ كانوا متأخِّرين في الزمنِ عن ثمودَ[1].

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ثم أتبَع هذا الإنكارَ إنكارًا آخرَ لمضمونِ جملةٍ مؤكَّدةٍ أتمَّ التَّأكيد؛ إشارةً إلىٰ أنَّ فَعْلتَهم هذه ممَّا يَعِي الواصفُ، ولا يبلُغُ كُنْهَ قُبْحِها ولا يُصدِّق ذو عقلٍ أنَّ أحدًا يفعلُها، فقال مُعيِّنًا لِما أبهَمَ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[2].

بيانٌ لِما يأتونه مِن الفاحشة بطريقِ التَّصريح بعد الإبهام[3].

ثم فسَّر تلك الفاحشةَ، فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾[4].

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وأشار إلىٰ تَغالِيهم في الجهل وافتخارِهم به بما سبَّبوا عن ذلك بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٧).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٨١-١٨٢).
(٣) روح المعاني (١٠/ ٢٠٩).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٠٦).
(٥) نظم الدرر (١٤/ ١٨٢).

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن جهلَهم بأن حكىٰ عنهم أنَّهم أجابوا عن هذا الكلامِ بما لا يصلُحُ أن يكـون جوابًـا لـه، فقـال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(1).

لمَّا أنكَر عليهم ونسَبهم إلىٰ الجهل، ولم تكُنْ لهم حُجَّةٌ فيما يأتونه مِن الفاحشةِ؛ عدَلوا إلىٰ المغالَبةِ والإيذاء(2).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧﴾

فلمَّا وصَلوا في الخُبْثِ إلىٰ هذا الحدِّ، سبَّب سبحانه عن قولِهم وفعلِهم قولَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(3).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨﴾

ثم بيَّن كيفيَّةَ العذاب الذي كانت فيه مِن الباقين، فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾

ولمَّا تَمَّ بهذه القِصَصِ استنتاجُ ما أراد سبحانه مِن الدَّليل علىٰ حِكْمتِه وعِلْمِه ومبايَنتِه للأصنام في قُدْرتِه وحِلْمِه، أمَر نبيَّه ﷺ بأن يَحمَدَه شكرًا علىٰ ما علم، ويقرِّرُهم بعَجْزِ أصنامهم ردًّا لهم عن الجهل بأوضحِ طريقٍ وأقربِ متناولٍ، فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(4).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٢).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٨٣).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٨٤).

لمَّا استوفىٰ غرضُ الاعتبارِ والإنذار حقَّه بذِكْرِ عواقبِ بعض الأُمَم التي كذَّبتِ الرُّسلَ، وهي أشبَهُ أحوالًا بأحوال المكذِّبين بمحمَّدٍ ﷺ وبالكتاب الذي أُنزِلَ عليه، وفي خلالِ ذلك وحِفَافَيْهِ[1] تسليةُ النَّبيِّ ﷺ علىٰ ما يَلقَاه مِن قومِه؛ أقبَل اللهُ بالخطاب إلىٰ الرسول ﷺ يُلقِّنُه ماذا يقوله عَقِب القِصَصِ والمواعظ السالفة استخلاصًا واستنتاجًا منها، وشُكْرًا للهِ علىٰ المقصود منها[2].

في هذه الآيةِ قولان: الأول: أنَّه متعلِّقٌ بما قبله مِن القصص؛ والمعنىٰ: الحمدُ لله علىٰ إهلاكهم، وسلامٌ علىٰ عباده الذين اصطفىٰ بأنْ أرسَلهم ونجَّاهم. الثاني: أنَّه مبتدأٌ؛ فإنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أحوالَ الأنبياء ﷺ، وكان محمَّدٌ ﷺ كالمخالِفِ لِمَن قبله في أمرِ العذاب؛ لأنَّ عذابَ الاستئصال مرتفِعٌ عن قومه؛ أمَره تعالىٰ بأن يشكُرَ ربَّه علىٰ ما خصَّه بهذه النِّعَمِ، وبأن يسلِّمَ علىٰ الأنبياء ﷺ الذين صبَروا علىٰ مَشاقِّ الرسالة[3].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ولمَّا كان مع هذا البيانِ مِن الأمرِ الواضح أنَّ التَّقديرَ زيادةً في توبيخِ المشركين وتقريرِ المنكِرين: مَن فعَل هذه الأفعالَ البالغة في الحِكْمةِ المتناهية في العلم أم مَن سمَّيتموه إلهًا ولا أثرَ له أصلًا؟ عادَله بقولِه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[4].

---

(١) أي: جانبيه.

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ١٨٦).

«أم» منقطِعةٌ بمعنىٰ «بل» للإضرابِ الانتقالي مِن غرضٍ إلىٰ غرضٍ مع مراعاةِ وجود معنىٰ الاستفهامِ أو لفظِه بعدها؛ لأنَّ (أم) لا تفارِقُ معنىٰ الاستفهام، انتقلَ بهذا الإضرابِ مِن الاستفهام الحقيقيِّ التهكُّمي إلىٰ الاستفهام التقريريِّ، ومِن المقدِّمةِ الإجمالية، وهي قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾، إلىٰ الغرضِ المقصود، وهو الاستدلال، عدَّد اللهُ الخيراتِ والمنافعَ مِن آثارِ رحمتِه، ومِن آثار قُدْرتِه[1].

ثم شرَع تعالىٰ يُبيِّن أنَّه المنفرِدُ بالخَلْقِ والرزق والتَّدبير دُونَ غيره، فقال: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾[2].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾

ولمَّا فرَغ مِن آيةٍ اشترَك فيها الخافقان، ذكَر ما تَتفرَّد به الأرضُ؛ لأنَّها أقرَبُ إليهم، وهم بحقيقتِها وما لابَسوه مِن أحوالها أعلَمُ منهم بالأمور السَّماويَّة، تعديدًا للبراهينِ الدالة علىٰ تفرُّده بالفعل الدالِّ علىٰ تفرُّده بالإلهيَّة، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

«أم» للإضرابِ الانتقالي، مثلُ أختِها السابقة، وهذا انتقالٌ مِن الاستدلال المَشُوبِ بالامتنان إلىٰ الاستدلال المجرَّد بدلائلِ قُدْرتِه وعِلْمِه بأنْ خلَق المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتدبيرِه نظامَها حتىٰ لا يَطغَىٰ بعضُها علىٰ بعضٍ، فيَختلَّ نظامُ الجميع[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٠١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٨٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣).

ثـم شـرَع في الاسـتدلالِ بـأحوالِ الأرض ومـا عليهـا، فقـال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ولمَّا دلَّهم بآياتِ الآفاق، وكانت كلُّها مِن أحوالِ السَّراء، وكانت بمَعرِضِ الغفلةِ عن الإله؛ ذكَّرهم بما في أنفسِهم ممَّا يُوجِبه تغيُّرُ الأحوالِ الدالة بمجرَّدِها علىٰ الإله، ويقتضي لكلِّ عاقلٍ صِدْقَ التَّوجُّهِ إليه، وإخلاصَ النِّية لديه، والإقبالَ عليه، علىٰ ذلك رُكِزَتِ الطِّباعُ، وانعقَد الإجماعُ؛ فلم يقَعْ فيه نزاعٌ، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

ارتقىٰ الاستدلالُ مِن التذكيرِ بالتصرُّف الرَّباني في ذواتِ المخلوقات إلىٰ التذكيرِ بتصرُّفه في أحوالِ الناس التي لا يخلو عنها أحدٌ في بعضِ شؤون الحياة، وذلك حالُ الاضطرارِ إلىٰ تحصيلِ الخير، وحالُ انتياب السُّوء، وحالُ التصرُّف في الأرض ومنافعِها؛ فهذه ثلاثةُ الأنواعِ لأحوال البشر؛ وهي: حالةُ الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع[3].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٦٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ١٩٠-١٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤).

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّـا ذكَـر آيـاتِ الأرض، وختَـم بالمضـطرِّ، وكـان المضـطرُّ قـد لا يهتـدي لوجـهِ حيلـةٍ؛ أتبَعهـا آيـاتِ السَّـماء ذاكـرًا مـا هـو مِـن أعظَـمِ صُـوَرِ الاضـطرار، فقـال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

فيه الانتقالُ من نوعِ دلائل التصرُّف في أحوالِ عامَّة الناس إلىٰ دلائلِ التصرُّف في أحوالِ المسافرين منهم في البَرِّ والبحر؛ فإنَّهم أدرىٰ بهذه الأحوالِ، وأقدَرُ لِما في خلالها مِن النِّعْمةِ والامتنان(٢).

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ولمَّا رتَّب سبحانه هذه الأدلةَ علىٰ هذا الوجهِ ترَقِّيًا مِن أعَمَّ إلىٰ أخَصَّ، ومِن أرضٍ إلىٰ سماءٍ؛ ختَمها بما يعُمُّها وغيرَها؛ إرشادًا إلىٰ قياسِ ما غاب منها علىٰ ما شُوهِد، فلَزِم مِن ذلك قطعًا القدرةُ علىٰ الإعادة، فساقها لذلك سياقَ المُشاهَد المسلَّم، وعَدَّ مَن أنكره في عدادِ مَن لا يُلتفت إليه، فقال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦-١٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ١٩٩).

هذا انتقالٌ إلىٰ الاستدلال بتصرُّفِ الله تعالىٰ بالحياةِ الأُولىٰ والثانية، وبإعطاء المَدَدِ لدوام الحياة الأُولىٰ مُدَّةً مقدَّرة، وفيه تذكيرٌ بنِعْمةِ الإيجاد، ونعمةِ الإمداد، والاستفهامُ تقريريٌّ؛ لأنَّهم لا يُنكِرون أنَّه يَبدأُ الخَلْقَ، وأنَّه يَرزُقُهم (١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عدَّد نِعَمَ الدُّنيا، أتبَع ذلك بنِعَمِ الآخرة بقولِه: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (٢).

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾

ولمَّا كانت مضموناتُ هذه البراهينِ متوقِّفةً علىٰ علمِ الغيب؛ لأنَّه لا يخرُجُ الخَبْءُ -باختراعِ الخَلْقِ وكشفِ الضرِّ وإحكامِ التَّدبير- إلا به؛ لأنَّه لا قدرةَ أصلًا لِمَن لا عِلْمَ له، ولا تمامَ لقدرةِ مَن لا تمامَ لعِلْمِه، وطالَبهم سبحانه آخِرَ هذه البراهينِ بالبرهان علىٰ الشرك، وكانوا ربما قالوا: سنأتي به؛ أمَر أن يَعلَموا أنَّه لا برهانَ لهم عليه، بل البرهانُ قائمٌ علىٰ خلافه، فقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ (٣).

لمَّا أبطَلَتِ الآياتُ السابقة إلهيَّةَ أصنامِ المشركين بالأدلةِ المتظاهِرة، فانقطَع دابرُ عقيدةِ الإشراك؛ ثُنِيَ عِنانُ الإبطال إلىٰ أثرٍ مِن آثارِ الشرك؛ وهو ادعاءُ علمِ الغيب بالكِهانة وإخبار الجِنِّ؛ كما كان يزعُمُه الكهَّانُ والعرَّافون وسَدَنةُ الأصنام، ويؤمن بذلك المشركون؛ فأبطَلَتِ الآيةُ هذه المزاعمَ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٠١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّه المختصُّ بالقدرة، فكذلك بيَّن أنَّه هو المختصُّ بعلمِ الغيب، وإذا ثبَت ذلك، ثبَت أنَّه هو الإلهُ المعبود(١).

بعدما حقَّق تفرُّدَه تعالىٰ بالألوهيَّة ببيانِ اختصاصِه بالقدرة الكاملة التَّامة والرَّحمة الشاملة العامة، عقَّبه بذِكرِ ما هو مِن لوازمِه؛ وهو اختصاصُه بعلمِ الغيب؛ تكميلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده مِن أمرِ البعث(٢).

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾

ولمَّا كان النَّبيُّ ﷺ قد بُعِث، والكفرُ قد عَمَّ الأرضَ، وكانوا قد أكثَروا في التَّكذيبِ بالساعة والقطعِ بالإنكار لها: بعضُهم صريحًا، وبعضُهم لزومًا، لضَلالِه عن منهاج الرُّسل، وكان الذي ينبغي للعالِمِ الحكيم ألا يَقطَعَ بالشَّيء إلا بعد إحاطةِ عِلْمِه به؛ قال مُتهكِّمًا بهم -كما تقول لأجهَلِ الناس: ما أعلَمَك! استهزاءً به-، مُستدرِكًا لنَفْيِ شعورِهم بها؛ بيانًا لكذِبهم باضطرابِ قولهم: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾(٣).

﴿ بَلِ ﴾ للإضرابِ الانتقالي مِن الإخبارِ عنهم بما ﴿يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾، وهو ارتقاءٌ إلىٰ ما هو أغرَبُ، وأشَدُّ ارتقاءً مِن تعييرِهم بعدم شعورهم بوقتِ بَعْثِهم إلىٰ وصفِ عِلْمِهم بالآخرة التي البعثُ مِن أوَّلِ أحوالها، وهو الواسطةُ بَيْنَها وبين الدُّنيا، بأنَّه عِلْمٌ مُتدارَكٌ أو مُدرَكٌ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠).

لمَّا نفىٰ عنهم علمَ الغيبِ، وأكَّد ذلك بنَفْيِ شعورهم بوقتِ ما هو مصيرُهم لا محالةَ بُولِغَ في تأكيدِه وتقريره بأنْ أضرَبَ عنه، وبيَّن أنَّهم في جهلٍ أفحَشَ مِن جهلهم بوقتِ بَعْثِهم حيث لا يَعلَمون أحوالَ الآخرة مُطلَقًا مع تعاضُدِ أسبابِ معرفتها[(١)].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ لحكاية كلامهم الذي يُشعِر ببلوغِ العلم، فقالوا مُقسِمين جَهْدَ أَيْمانِهم: لا تأتينا الساعةُ؛ عطَف عليه ما يدلُّ علىٰ الشَّك والعمىٰ، وكان الأصل: وقالوا، ولكنَّه قال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴾[(٢)].

أُعقِبَ وصفُ عَمايةِ الزاعمين عِلْمَ الغيب بذِكْرِ شُبْهتِهم التي أرَتْهم البعثَ مستحيلَ الوقوع؛ ولذلك أُسنِدَ القولُ هنا إلىٰ جميع الذين كفَروا دُونَ خصوصِ الذين يزعمون عِلْمَ الغيب؛ ولذلك عُطِفت الجملةُ؛ لأنَّها غايَرتِ التي قبلها بأنَّها أعَمُّ[(٣)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا تكلَّم في حالِ المبدأ، تكلَّم بعده في حالِ المَعاد؛ وذلك لأنَّ الشكَّ في المَعاد لا يَنشأ إلا مِن الشكِّ في كمالِ القدرة، أو في كمالِ العلم، فإذا ثبَت كونُه تعالىٰ قادرًا علىٰ كلِّ الممكِنات، وعالِمًا بكلِّ المعلومات؛ ثبَت أنَّه تعالىٰ يمكِنُه تمييزُ أجزاءِ بَدَنِ كلِّ واحد مِن المكلَّفين عن أجزاء بَدَنِ غيره، وثبَت أنَّه قادرٌ علىٰ أن يُعِيدَ التركيبَ والحياة إليها، وإذا ثبَت إمكانُ ذلك ثبَت صحَّةُ القول بالحشر، فلمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ هذين الأصلينِ فيما قبل هذه الآيةِ، لا جرَمَ لم يَحكِهِ في هذه الآيةِ، فحكىٰ عنهم أنَّهم تعجَّبوا مِن إخراجهم أحياءً وقد صاروا ترابًا[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٩).

لمَّا تقدَّم أنَّه تعالىٰ منفرِدٌ بعلمِ الغيب، ومِن جملتها وقتُ الساعة، وأنَّهم لا شعورَ لهم بوقتها، وأنَّ الكفارَ في شكٍّ منها عَمُونَ؛ ناسَب ذِكْرُ مقالاتهم في استبعادها، وأنَّ ما وُعِدوا به مِن ذلك ليس بصحيحٍ؛ إنَّما ذلك ما سطرَ الأوَّلون مِن غيرِ إخبارٍ بذلك عن حقيقةٍ(١).

لمَّا ذكَر سبحانه أنَّ المشركين في شكٍّ مِن البعث، وأنَّهم عَمُون عن النَّظرِ في دلائله؛ أراد أن يُبيِّنَ غايةَ شُبَهِهم؛ وهي مُجرَّدُ استبعادِ إحياء الأموات بعد صَيْرورتهم ترابًا، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴾(٢).

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ ﴾

ثم أقاموا الدَّليلَ -في زعمِهم- علىٰ ذلك، فقالوا تعليلًا لاستبعادهم: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾(٣).

ثم أكَّدوا ذلك الاستبعادَ بما هو تكذيبٌ للبعث، فقالوا: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾(٤).

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩ ﴾

ولمَّا لم يَبقَ هذا الذي أقامه مِن دلائلِ القدرة علىٰ كلِّ شيءٍ عمومًا، وعلىٰ البعث خصوصًا، مقالٌ يرُدُّ عن الغيِّ إلا التَّهديدُ بالنَّكال، وكان كلامهم هذه موجِبًا

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٦٤-٢٦٥).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٧٢).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٠٦).
(٤) فتح القدير (٤/ ١٧٢).

للنبيِّ ﷺ مِن الغمِّ والكَرْبِ ما لا يَعلَمه إلا اللهُ تعالىٰ؛ قال سبحانه ملقِّنًا له، ومرشِدًا لهم في صورةِ التَّهديد: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

إنَّه سبحانه لمَّا كان قد بيَّن الدلالةَ علىٰ هذين الأصلينِ، ومِن الظاهر أنَّ كلَّ مَن أحاط بهما فقد عرَف صحَّةَ الحشرِ والنَّشر؛ ثبَت أنَّهم أعرَضوا عنها ولم يَتأمَّلوها، وكان سببَ ذلك الإعراضِ حُبُّ الدُّنيا، وحبُّ الرياسة والجاهِ، وعدمُ الانقيادِ للغير؛ لا جرَمَ اقتصَر علىٰ بيانِ أنَّ الدُّنيا فانيةٌ زائلة، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[2].

ثم نبَّههم علىٰ صِدْقِ ما أخبرَتْ به الرُّسلُ، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[3].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا دَهِمَ[4] النَّبيَّ ﷺ مِن الأسفِ علىٰ جلافتِهم في عَماهم عن السَّبيل، الذي هدىٰ إليه الدَّليلُ، ما لا يَعلَمه إلا اللهُ؛ قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[5].

ثم سلَّىٰ نبيَّه، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٠٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٦٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٠٨).

(٤) أي: أصابه.

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٢٠٨).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٢٦٥).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٧١﴾

ولمَّا أشار إلىٰ أنَّهم لم يُبقُوا في المبالغةِ في التَّكذيب بالساعة وجهًا، أشار إلىٰ أنَّهم بالوعيدِ بالساعة وغيرِها مِن عذاب الله أشَدُّ مبالغةً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ٧٢﴾

فأجابهم بجوابِ الواسع القادر الذي لا يعتريه ضِيقٌ، ولا تنوبُه عجَلةٌ، مُشيرًا إلىٰ الاستعدادِ للدفاع أو الاستسلامِ لذي الجلال والإكرام، كما فعَلتْ بِلْقِيسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال مخاطِبًا الرأسَ الذي لا يَقدِرُ علىٰ هذه التُّؤَدةِ حقَّ القدرة غيرُه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٢).

لمَّا استعجَلتْ قُرَيشٌ بأمرِ الساعة، أو بالعذابِ الموعود به هم، وسألوا عن وقتِ الموعود به علىٰ سبيلِ الاستهزاء؛ قيل له: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٣).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾

ولمَّا كان التَّقدير قطعًا: فإنَّ ربَّك لا يَعجَلُ علىٰ أهلِ المعاصي بالانتقام مع القطعِ بتمام قُدْرتِه، عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢١٠).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٢٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢١١).

ثـم ذكـر سـبحانه فضلَه في تـأخيرِ العـذاب، فقـال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[١].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الإمهالُ قد يكون مِن الجهلِ بذُنوبِ الأعداء، قال نافيًا لذلك: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[٢].

موقـعُ هـذا موقـعُ الاسـتئناف البيـانيِّ؛ لأنَّ قولَـه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ يثيـر سؤالًا في نفوسِ المؤمنين أن يقولوا: إنَّ هؤلاء المكذِّبين قد أضمَروا المكرَ، وأعلَنوا الاستهزاء، فحالُهم لا يقتضي إمهالَهم؟ فيُجاب بأنَّ الذي أمهَلهم مطَّلِعٌ على ما في صدورِهم وما أعلَنوه، وأنَّه أمهَلَهم مع علمِه بهم لحِكْمةٍ يَعلَمها[٣].

ثـم أخبَـر تعالى بسَعةِ علمـه، فبـدأ بمـا يخُصُّ الإنسانَ، ثـم عَـمَّ كـلَّ غائبـةٍ، وعبَّـر بالصُّدور؛ وهي محَلُّ القلوبِ التي لها الفكر والتعقُّل[٤].

ثـم بـيَّن أنَّـه مطَّلِـعٌ علـى مـا في صـدورهم، فقـال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[٥].

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّـا كـان ثباتُ علَّةِ النـاس -في الغالـب- مُقيَّدًا بالكتـاب، قـال تقريبًـا لأفهـامِهم: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٦].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٧٣).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٨).
(٤) البحر المحيط (٨/ ٢٦٦).
(٥) فتح القدير (٤/ ١٧٣).
(٦) نظم الدرر (١٤/ ٢١٢).

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، وهو في معنى التَّذييلِ للجملة المذكورة؛ لأنَّها ذُكِرَ منها علمُ الله بضمائرهم، فذيَّل ذلك بأنَّ اللهَ يَعلَم كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرض[(١)].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ثم دلَّ على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[(٢)].

إبطالٌ لقولِ الذين كفَروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وله مناسبةٌ بقولِه: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾؛ فإنَّ القرآنَ وحيٌ مِن عندِ الله إلى رسوله محمَّدٍ ﷺ، فكلُّ ما فيه فهو مِن آثارِ عِلْمِ الله تعالى، فإذا أراد اللهُ تعليمَ المسلمين شيئًا ممَّا يشتمِلُ عليه القرآنُ، فهو العلمُ الحقُّ إذا بلَغتِ الأفهامُ إلى إدراكِ المراد منه على حسَبِ مراتبِ الدلالة التي أصولُها في علمِ العربية، وفي علمِ أصول الفقه[(٣)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا تمَّم الكلامَ في إثبات المبدأ والمَعاد، ذكَر بعد ذلك ما يَتعلَّق بالنبوَّة، ولمَّا كانت العمدةُ الكبرى في إثباتِ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ هو القرآنَ، لا جرَمَ بيَّن اللهُ تعالى أولًا كونَه معجزةً[(٤)].

لمَّا ذكَر سبحانه ما يَتعلَّق بالمبدأ والمَعاد، ذكَر تعالى ما يَتعلَّق بالنُّبُّوة؛ فإنَّ القرآنَ أعظَمُ ما تثبُتُ به نبوَّةُ نبيِّنا ﷺ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٧٠).

(٥) روح المعاني (١٠/ ٢٢٩).

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾

ولمَّا بان بهذا دليلُ علمِه، أتبَعه دليلَ فضله وحِلْمِه، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾

ولمَّا ذكَر دليلَ فضلِه، أتبَعه دليلَ عدلِه، فقال مُستأنِفًا لجوابِ مَن ظنَّ أنَّ فضلَه دائمُ العموم على الفريقينِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٢].

لمَّا سبَق ذِكْرُ المشركين بطعنِهم في القرآن، وتكذيبِهم بوعيده، وذكَر بني إسرائيلَ بما يقتضي طَعْنَهم فيه بأنَّه لمخالَفةِ ما في كتبهم، وذكَر المؤمنين بأنَّهم اهتدَوْا به، وكان لهم رحمةً، فهم موقِنون بما فيه؛ تمخَّض الكلامُ عن خلاصةٍ هي افتراقُ الناس في القرآن فريقينِ: فريقٌ طاعن، وفريقٌ موقِن؛ فلا جرَمَ اقتضى ذلك حدوثَ تدافُعٍ بَيْنَ الفريقينِ، وهو ممَّا يثير في نفوس المؤمنين سؤالًا عن مدى هذا التدافعِ والتخالفِ بَيْنَ الفريقينِ، ومتى ينكشفُ الحقُّ، فجاء قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦ﴾ استئنافًا بيانيًّا، فيُعلَمُ أنَّ القضاءَ يقتضي مختلِفينِ، وأنَّ كلمةَ «بَيْنَ» تقتضي متعدِّدًا، فأفاد أنَّ اللهَ يَقضي بَيْنَ المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاءً يبيِّنُ المُحِقَّ مِن المُبطِل[٣].

﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾

فلمَّا ثبَت له العلمُ والحِكْمة، والعظمةُ والقدرة؛ تسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢١٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢١٣).

فرّعتِ الفاءُ علىٰ الإخبار بأنَّ رَبَّ الرسول ﷺ يقضي بَيْنَ المختلِفين في شأنِ القرآن: أمرًا للرسول بأن يَطمئنَّ بالًا، ويَتوكَّل علىٰ ربِّه فيما يَقضي به؛ فإنَّه يَقضي له بحقِّه، وعلىٰ معانِدِه بما يستحِقُّه؛ فالأمرُ بالتوكُّل مستعمَل في كنايتِه وصريحِه؛ فإنَّ مِن لازمِه أنَّه أدىٰ رسالةَ ربِّه، وأنَّ إعراضَ المُعرِضين عن أمرِ الله ليس تقصيرًا مِن الرسول ﷺ[(١)].

الفاءُ في قولِه تعالىٰ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لترتيبِ الأمر علىٰ ما ذُكِر مِن شؤونه ﷻ؛ فإنها مُوجِبةٌ للتَّوكُّل عليه، وداعيةٌ إلىٰ الأمر به[(٢)].

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ثم علَّل هذا الذي أرشَد السِّياقُ إلىٰ تقديره، أو استأنَف لِمَن يَسأل مُتعجِّبًا عن وقوفِهم عن الحقِّ الواضح بقولِه: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾[(٣)].

استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عمَّا يخطُرُ في بالِ السامع عَقِب قولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ مِن التساؤلِ عن إعراض أهلِ الشرك لِما عليه الرسولُ مِن الحقِّ المُبين. وهو أيضًا تعليلٌ آخَرُ للأمر بالتوكُّلِ علىٰ الله بالنظرِ إلىٰ مدلوله الكِنائيِّ؛ فموقعُ حرفِ التوكيد فيه كموقعِه في التعليل بالجملة التي قبله. وهذا عُذْرٌ للرسولِ ﷺ وتسليةٌ له، ولكونِه تعليلًا لجانبٍ مِن التركيب، وهو الجانبُ الكِنائي، غيرِ الذي علَلَ بجملةِ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾، لم تُعطَفْ هذه الجملةُ علىٰ التي قبلها تنبيهًا علىٰ استقلالِها بالتعليل[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٩).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢١٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٤).

لمَّا كان القرآنُ وما قصَّ اللهُ فيه لا يكاد يجدي عندهم، أخبَر تعالىٰ عنهم أنَّهم موتىٰ القلوب، أو شُبِّهوا بالموتىٰ، وإن كانوا أحياءً صِحاحَ الأبصار؛ لأنَّهم إذا تُلِيَ عليهم لا تَعِيه آذانُهم، فكانت حالُهم -لانتفاءِ جدوىٰ السماع- كحالِ الموتىٰ[(١)].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ولمَّا شبَّههم بالصُّمِّ في كونهم لا يَسمَعون إلا مع الإقبال، مثَّلهم بالعُمْيِ في أنَّهم لا يهتدون في غيرِ عِوَجٍ أصلًا إلا بِرَاعٍ لا تَشغَله عنهم فترةٌ ولا مَلَالٌ، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٢)].

كُرِّر تشبيهُ المشركين في إعراضهم عن الحقِّ بأنْ شُبِّهوا في ذلك بالعُمْيِ بعد أن شُبِّهوا بالموتىٰ وبالصُّمِّ علىٰ طريقة الاستعارة؛ إطنابًا في تشنيعِ حالهم الموصوفةِ؛ علىٰ ما هو المعروفُ عند البُلَغاء في تكريرِ التشبيه[(٣)].

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ولمَّا فرَغ مِن عظيم زَجْرِهم بتسليته ﷺ في أمرِهم، وختَم بالإسلام؛ عطَف عليه ذِكْرَ ما يُوعَدون ممَّا تقدَّم استعجالُهم له استهزاءً به، وبدأ منه بالدابَّةِ التي تُميِّز المسلمَ مِن غيره، فقال مُحققًا بأداةِ التَّحقيق: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٢٦٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢١٤-٢١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢١٥-٢١٦).

هذا انتقالٌ إلىٰ التذكيرِ بالقيامة، وما ادُّخِرَ لهم مِن الوعيد؛ فهذه الجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجُمَلِ قبلها عَطْفَ قِصَّةٍ علىٰ قِصَّة، ومناسبةُ ذِكْرِها ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، والضمير عائدٌ إلىٰ الموتىٰ والصُّمِّ والعُمْيِ؛ وهم المشركون(١).

ثم هدَّد العبادَ بذِكْرِ طَرَفٍ مِن أشراطِ الساعة وأهوالها، فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾(٢).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ولمَّا كان مِن فعلِ الدابَّة التَّمييزُ بَيْنَ المؤمن والكافر بما لا يستطيعون دَفْعَه، تلاه بتمييزِ كلِّ فريقٍ منهما عن صاحبه؛ بجمعهم يومَ القيامة في ناحيةٍ، وسَوْقِهم مِن غيرِ اختلاط بالفريق الآخر، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٣).

بيانٌ إجماليٌّ لحالِ المكذِّبين عند قيامِ الساعة بعد بيانِ بعض مبادئها(٤).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وبعد حَشْرِهم، ذكَر مجيئَهم إلىٰ موقفِ الحساب، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢١٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٠٢).

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾

ولمَّا كان التَّقدير بما أرشَد إليه السِّياقُ: فأجابوا بما تبيَّن به أنَّهم ظالمون، عطَف عليه قولَه: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾[1].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾

ولمَّا ذكَر الحشرَ، استدلَّ عليه بحشرِهم كلَّ ليلةٍ إلى المبيت، والختمِ على مشاعرهم، وبعثِهم مِن المنام، وإظهارِ الظَّلام الذي هو كالموتِ بعد النُّور، وبعثِ النُّور بعد إفنائه بالظَّلام، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

ثم بعد أن خوَّفهم بأهوالِ القيامة، ذكَر سبحانه ما يصلُحُ أن يكونَ دليلًا على التَّوحيد، وعلى الحشرِ، وعلى النُّبوَّةِ -مبالغةً في الإرشاد، وإبلاءً[3] للمعذرة-، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[4].

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾

ولمَّا ذكَر هذا الحشر الخاصَّ، والدَّليلَ على مطلق الحشر والنَّشر؛ ذكَر الحشرَ العام؛ لئلا يُظَنَّ أنَّه إنَّما يحشُرُ الكافرَ، فقال مشيرًا إلى عمومِهم بالموت كما عمَّهم

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٢١).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٢١).

(٣) أي: اختبارًا.

(٤) فتح القدير (٤/ ١٧٨).

بـالنَّوم، وعمـومِهم بالإحيـاء كمـا عمَّهـم بالإيقـاظ: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[١].

عطفٌ على ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾، عـاد بـه السِّياقُ إلى الموعظـة والوعيـد؛ فإنَّهم لمَّا ذُكِّروا بيوم يُحشَرون إلى النار، ذُكِّروا أيضًا بما قبل ذلك؛ وهو ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾؛ تسجيلًا عليهم بإثباتِ وقوع البعث، وإنذارًا بما يعقُبُه[٢].

ثم ذكَر سبحانه علامـةً أُخرى للقيامـة، فقـال: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾، هـو معطـوفٌ على ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ﴾[٣].

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر دُخُورَهم[٤]، تلاه بدُخُورِ مـا هـو أعظَـمُ مـنهم خَلْقًـا، وأهـوَلُ أمـرًا، فقـال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[٥].

وهذه الحالُ للجبال عَقِيب النَّفخ في الصور، وهي أوَّلُ أحوال الجبال، تمُوجُ وتُسيَّرُ، ثم يَنسِفُها اللهُ فتَصِيرُ كالعِهْنِ، ثم تكون هباءً مُنبثًّا في آخرِ الأمر[٦].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٤٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ١٧٨).

(٤) أي: ذلتهم.

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٢٧٢).

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾

فكأنَّه قال: ماذا يكون حالُ أهلِ الحشر مع الدُّخور عند النَّاقد البصير؟ فقال: مِن إتقانه للأشياء أنَّه رتَّب الجزاءَ أحسَنَ ترتيبٍ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[1].

هذه الجملة بيانٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ الفزَعَ مُقتضٍ الحشرَ والحضور للحساب[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا تكلَّم في علاماتِ القيامة، شرَح بعد ذلك أحوالَ المكلَّفين بعد قيام القيامة، والمكلَّفُ إمَّا أن يكونَ مطيعًا أو عاصيًا؛ أمَّا المطيعُ فهو الذي جاء بالحسنةِ[3].

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ بيانٌ لِما أُشيرَ إليه بإحاطةِ عِلْمِه تعالىٰ بأفعالهم مِن ترتيبِ أَجْزِيَتِها عليها[4].

استئنافٌ وقَع جوابًا لقولِ مَن يَسأل: فماذا يكون بعد هذه القوارعِ؟ فقيل: إنَّ اللهَ خبيرٌ بعملِ العاملين، فيُجازيهم علىٰ أعمالهم، وفصَّل ذلك بقولِه سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[5].

ثم بيَّن كيفيَّةَ جزائه، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٥٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٧٤).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٠٥).

(٥) روح المعاني (١٠/ ٢٤٦).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٦١٠).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾

ولمَّا شرَح حالَ المطيعين، شرَح حالَ العصاةِ، فقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(١).

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾

ولمَّا أتَمَّ الدِّينَ بذِكْرِ الأصول الثَّلاثة: المبدأِ والمَعادِ والنُّبوَّة، ومقدِّماتِ القيامة وأحوالها، وبعضِ صفتها وما يكون مِن أهوالها؛ وذلك كمالُ ما يَتعلَّق بأصول الدِّين، علىٰ وجوهٍ مرغِّبةٍ أتَمَّ ترغيبٍ، مرهِّبةٍ أعظَمَ ترهيبٍ؛ أوجَب هذا التَّرغيبُ والتَّرهيب لكلِّ سامعٍ أن يقولَ: فما الذي نعمل؟ ومَن نعبُدُ؟ فأجابه المخاطَبُ بهذا الوحيِ، المأمورُ بإبلاغِ هذه الجوامع، الداعي لِمَن سَمِعه، الهادي لِمَن اتبعه، بأنَّه يَرضَىٰ له ما رَضِيَ لنفسه، وهو ما أمَره به ربُّه، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾(٢).

استؤنف الكلامُ استئنافًا يكون فَذْلكةَ الحساب، وختامًا للسُّورةِ وفصلِ الخطاب، أفسَد به علىٰ المشركين ازدهاءَهم بما يَحسَبون أنَّهم أفحَموا الرسولَ ﷺ بما ألْقَوْهُ عليه، ويُطِيرُ غرابَ غرورهم بما نظَموه مِن سَفْسطةٍ، وجاؤوا به مِن خَلْبطةٍ، ويَزيد

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٧٥).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٢٧).

الرسولَ تثبيتًا وتطمينًا بأنَّه أرضىٰ ربَّه بأداء أمانةِ التبليغ؛ وذلك بأنْ أمر الرسول ﷺ أن يقولَ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فهذا تلقين للرسول ﷺ[(١)].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا بيَّن المبدأ والمَعاد والنبوَّة ومقدِّماتِ القيامة وصفةَ أهلِ القيامة مِن الثواب والعقاب، وذلك كمالُ ما يَتعلَّق ببيانِ أصول الدِّين؛ ختَم الكلامَ بهذه الخاتمةِ اللطيفة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(٢)].

لمَّا فرَغ سبحانه مِن بيانِ أحوال المبدأ والمَعاد، أمَر رسولَه ﷺ أن يقولَ لهم هذه المقالةَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(٣)].

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن ما أُمِر به في نفسه، أتبَعه ما تعُمُّ فائدتُه غيرَه، فقال: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٧٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ١٧٩).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٢٩).

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

كان ما أُمِر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه للمعانِدِين مشتمِلًا علىٰ أنَّ اللهَ هَداه للدِّين الحقِّ مِن التَّوحيدِ وشرائعِ الإسلام، وأنَّ اللهَ هَدىٰ به الناسَ بما أنزَل اللهُ عليه مِن القرآن المتلوِّ، وأنَّه جعَله في عدادِ الرُّسلِ المنذِرين، فكان ذلك مِن أعظَمِ النِّعم عليه في الدُّنيا، وأبشَرِها بأعظَمِ درجةٍ في الآخرة؛ مِن أجلِ ذلك أُمِر بأن يَحمَدَ اللهَ بالكلمة التي حَمِدَ اللهُ بها نفسَه؛ وهي كلمةُ «الحمدُ لله»، الجامعةُ لِمَعانٍ مِن المحامد[(١)].

ثم أمَره أن يَحمَدَ اللهَ علىٰ ما خوَّله مِن نِعْمةِ النبوَّة التي لا تُوازيها نعمةٌ، وأن يُهدِّدَ أعداءه بما سيُريهم اللهُ مِن آياتِه في الآخرة[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٥٨).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٦٢٥).

سُورَةُ القَصَصِ

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾

ولمَّا كانت هذه إشاراتٍ عاليةً، وما بعدها لزومُ نظومٍ لأوضَحِ الدَّلالاتِ حاويةً؛ قال مشيرًا إلى عظَمتِها: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[1].

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾

ثم أقام الدَّليلَ على إبانتِه، وأنَّه يقُصُّ على بني إسرائيلَ أكثَرَ الذي هم فيه يختلفون، بما أورَد هنا في قصَّةِ موسى عليه الصلاة والسلام مِن الدَّقائقِ التي قلَّ مَن يَعلَمها مِن حُذَّاقهم، على وجهٍ مُعلِمٍ بما انتقَم به مِن فِرْعونَ وآلِه، ومَن لَحِق بهم؛ كقارونَ، وأنعَم به على موسى عليه الصلاة والسلام وأتباعِه؛ ولذلك بسَط فيها مِن أمورِ القصَّة ما لم يبسُطْ في غيرها، فقال: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

ومِن جملةِ ما أبانَ قصَّةُ موسى وفِرْعونَ؛ فإنَّه أبداها وأعادها في عدةِ مواضعَ، وبسَطها في هذا الموضعِ، فقال: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦١١).

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما هذا المقصوصُ مِن هذا النَّبأ؟ قال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

هذه الجملةُ وما عُطِف عليها بيانٌ لجملةِ ﴿ نَتْلُوا ﴾، أو بيانٌ لـ ﴿ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾، فقُدِّم له الإجمالُ للدَّلالةِ على أنَّه نبأٌ له شأنٌ عظيمٌ وخطرٌ، بما فيه مِن شتَّى العِبَر، وابتُدِئت القصَّةُ بذِكْرِ أسبابها؛ لتكونَ عبرةً للمؤمنين، يتَّخِذون منها سُنَنًا يَعلَمون بها عِلَلَ الأشياءِ ومعلولاتِها، ويَسيرون في شؤونِهم على طرائقها؛ فلولا تجبُّرُ فِرْعونَ وهو مِن قبيحِ الخِلال، ما حلَّ به وبقومِه الاستئصال، ولَما خرَج بنو إسرائيلَ مِن ذُلِّ العبوديَّة[2].

ثم استأنف ما يَجري مجرى التَّفسير للمُجمَل الموعود، بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ - كما أرشَد إليه السِّياقُ لِمَن يَسأل عن سببِ فعلِهِ هذا العجيبِ -: يريد بذلك -زعَمَ- دوامَ مُلْكِه؛ بألا يسلُبَه إيَّاه واحدٌ منهم، أخبَره بعضُ علمائه أنَّه

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٦).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥١٤).

يَغلِبُه عليه، ويستنقِذُ شَعْبَه مِن العبوديَّة: عطَف عليه قولَه يحكي تلك الحالَ الماضية: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(١).

عُطِفت جملةُ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ على جملةِ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لمناسبةِ ما في تلك الجملةِ مِن نبأ تذبيحِ الأبناء، واستحياءِ النساء؛ فذلك مِن علوِّ فِرْعونَ في الأرضِ، وهو بيانٌ لنبأِ موسى وفِرْعونَ؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ الخيرَ بالذين استضعَفهم فِرْعونُ مِن تمام نبأِ موسى وفِرْعونَ، وهو موقعُ عِبْرةٍ عظيمة مِن عِبَرِ هذه القصَّة(٢).

ثم أشار تعالى إلى فرَجِه الذي جعَله لتلك الطائفةِ، بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(٣).

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا بشَّر بتمليكِهم في سياقٍ دالٍّ على مُكْنتِهم، صرَّح بها فقال: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٤).

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فكان ما أرَدْناه، وطاحَ ما أراد غيرُنا، فأولَدْنا مِن بني إسرائيلَ الولدَ الذي كان يَحذَرُه فِرْعونُ على مُلْكِه، وكان يَذبَح أبناءَ بني إسرائيلَ لأجلِه، وقضَيْنا

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٠).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥١٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٢).

بأن يُسمَّىٰ موسىٰ؛ بسببِ أنَّه يوجَدُ بَيْنَ ماءٍ وشجَرٍ، ونربِّيه في بيتِ الذي يَحذَره ويحتاطُ لأجله: عطَف علىٰ هذا المعلومِ التَّقديرِ أولَ نعمةٍ مَنَّ بها علىٰ الذين استُضعِفوا، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾؛ إذ الكلُّ مِن أجزاءِ النبأ، وتتضمَّن هذه الجملةُ تفصيلًا لمُجمَلِ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾؛ فإنَّ الإرادةَ لمَّا تعلَّقتْ بإنقاذ بني إسرائيلَ مِن الذُّلِّ، خلَق اللهُ المنقِذَ لهم[٢].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا كان الوحيُ إليها بهذا سببًا لإلقائه في البحرِ، وإلقاؤه سببًا لالتقاطِه؛ قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾[٣].

الفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحةٌ؛ والتَّقديرُ: ففعَلتْ ما أُمِرتْ به؛ مِن إرضاعِه، وإلقائه في اليمِّ لمَّا خافت عليه، وحُذِف ما حُذِف؛ تعويلًا علىٰ دَلالةِ الحال، وإيذانًا بكمالِ سرعةِ الامتثال[٤].

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن آخِرِ أمرِهم معه - تخفيفًا علىٰ السامعِ بجَمْعِ طرَفَيِ القصَّة إجمالًا، وتشويقًا إلىٰ تفصيلِ ذلك الإجمال، وتعجيلًا بالتَّعريفِ بخطئهم؛

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٣).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٥).

(٤) روح المعاني (١٠/ ٢٥٦).

ليكونَ جهلُهم الذي هو أصلُ شقائهم مُكتنِفًا لأولِ الكلام وآخرِه -: أخبَر عمَّا قيل عند التقاطِه، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾(١).

يدلُّ الكلامُ علىٰ أنَّ الذين انتشَلوه جعَلوه بَيْنَ أيدي فِرْعونَ وامرأتِه، فرَقَّتْ له امرأةُ فِرْعونَ، وصرَفتْ فِرْعونَ عن قتلِه بعد أن هَمَّ به؛ لأنَّه عَلِم أنَّ الطفلَ ليس مِن أبناءِ القِبْطِ بلَوْنِ جِلْوتِه(٢)، وملامحِ وجهه، وعَلِم أنَّه لم يكُنْ حمَلَه النيلُ مِن مكانٍ بعيد؛ لظهورِه أنَّه لم يطُلْ مكثُ تابوتِه في الماءِ، ولا اضطرابُه بكثرةِ التنقل؛ فعَلِم أنَّ وَقْعَه في التابوت لقصدِ إنجائه مِن الذَّبح(٣).

لمَّا التقَطوه، هَمُّوا بقتلِه، وخافوا أن يكونَ المولودَ الذي يَحذَرون زوالَ مُلْكِهم علىٰ يديه، فألقىٰ اللهُ محبَّتَه في قلبِ آسيةَ امرأةِ فِرْعونَ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾(٤).

فلمَّا التقَطه آلُ فِرْعونَ، حنَّن اللهُ عليه امرأةَ فِرْعونَ الفاضلةَ الجليلةَ المؤمنة آسيةَ بنتَ مُزاحِمٍ، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾(٥).

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾

ولمَّا أخبَر عن حالِ مَن لَقِيه، أخبَر عن حالِ مَن فارَقه، فقال: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٧).
(٢) أي: منظره.
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٧).
(٤) البحر المحيط (٨/ ٢٨٨).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٦١٢).
(٦) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٨).

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا أخبرَ عن كَتْمِها، أتبعه الخبرَ عن فعلِها في تعرُّفِ خبرِه الذي أطار خفاؤُه عليها عقْلَها، فقال: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[(١)].

ظاهرُ ترتيبِ الأخبار أنَّها علىٰ وَفْقِ ترتيبِ مضامينِها في الحصول، وهذا يرجِّحُ أن يكونَ حصولُ مضمونِ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ﴾ سابقًا علىٰ حصولِ مضمون ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾؛ أي: قالت لأختِه ذلك بعد أن اطمأنَّ قلبُها لِما أُلهِمَتْهُ مِن إلقائه في اليمِّ؛ أي: لمَّا ألقَتْهُ في اليمِّ، قالت لأختِه: انظُري أين يُلقِيه اليمُّ؟ ومتىٰ يُستخرج منه؟ وقد عَلِمتْ أنَّ اليمَّ لا يُلقِيه بعيدًا عنها؛ لأنَّ ذلك مقتضىٰ وعدِ الله بردِّهِ إليها[(٢)].

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك أحدَ الأسبابِ في ردِّه، ذكَر في جملةٍ حاليَّةٍ سببًا آخرَ قريبًا منه، فقال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾[(٣)].

﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

فلمَّا سكَنوا إليها، طلَبوا أن تدُلَّهم، فأتت بأمِّها، فأحلَلْنا له رَضاعَها، فأخذ ثَدْيَها، فقالوا: أقيمي عندنا، فقالت: لا أقدِرُ علىٰ فِراقِ بيتي، إن رَضِيتم أن أكفُلَه في بيتي، وإلا فلا حاجةَ لي، وأظهَرتِ التَّزهُّدَ فيه نفيًا للتُّهمةِ، فرَضُوا بذلك، فرجَعتْ به إلىٰ

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٤٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٢).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٠).

بيتِها، والآيةُ مِن الاحتباكِ: ذكَر التَّحريمَ أولًا دليلًا على الإحلالِ ثانيًا، واستفهامَ أختِه ثانيًا دليلًا على استفهامِهم لها أولًا، وسِرُّه أنَّ ذكرَ الأغرَب مِن أمرِه أدَلُّ على القدرة؛ ولذلك سبَّب عمَّا مضى قولَه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1).

وفي الكلامِ حذفٌ؛ والتَّقديرُ: فقالوا لها: مَن هُمْ؟ فقالت: أمِّي، فقيل لها: وهل لأمِّكِ لبَنٌ؟ قالت: نَعم، لبَنُ أخي هارونَ، فدلَّتْهم على أمِّ موسى، فدفَعوه إليها، فقَبِل ثَدْيَها، ورضَع منه؛ وذلك معنى قولِه سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾(2).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا استقرَّ الحالُ على هذا المنوالِ، عُلِم أنَّه ليس بعده إلا الخيرُ والإقبال، والعِزُّ بتبنِّي فِرْعونَ له والجلال، فترَكَ ما بَيْنَه وبين السِّنِّ الصالح للإرسال، وقال مخبرًا عمَّا بعد ذلك مِن الأحوال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(3).

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا أخبَر بتهيُّئِه لنبوَّتِه، أخبَر بما هو سببٌ لهِجْرتِه، وكأنَّها سُنَّتْ بعد إبراهيمَ عليه السلام، فقال: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾(4).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٥١-٢٥٢).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٨٦).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٣).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٥).

طُويتْ أخبارٌ كثيرةٌ تُنبِئُ عنها القصَّةُ؛ وذلك أنَّ موسىٰ يفَعَ وشَبَّ في قصرِ فِرْعونَ، فكان معدودًا مِن أهلِ بيتِ فِرْعونَ، وجملةُ ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ عَطْفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ عَطفَ جزءِ القصَّة علىٰ جزءٍ آخَرَ منها[(١)].

ثم ذكَر تعالىٰ سببَ وصولِه إلىٰ ما كان تعالىٰ قدَّر له مِن النُّبوَّةِ والتَّكليم؛ قضيةَ قتلِه ذلك القِبْطيَّ، الذي كان سببَ خروجِه مِن الديارِ المِصْرية إلىٰ بلادِ مَدْيَنَ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ مِن نبيِّه عليه السلام ما تدرَّج به إلىٰ ما قُدِّر له مِن الرسالةِ بقولِه سبحانه: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[(٣)].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الكافرُ ليس فيه شيءٌ غيرُ النَّدَمِ؛ لكونِه عليه السلام لم يأتِه في قتلِه إذنٌ خاصٌّ، وكان قد أخبَر عنه بالنَّدم: تشوَّفتْ أنفُسُ البُصَراءِ إلىٰ الاستغفارِ عنه، عِلمًا منهم بأنَّ عادةَ الأنبياءِ وأهلِ الدَّرجاتِ العليَّةِ استعظامُ الهفَواتِ؛ فأُجِيبوا بالإخبارِ عن مبادَرتِه إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٥).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥١٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٧).

بدَلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأنَّ الجزمَ بكونِ ما صدَر منه عملًا مِن عملِ الشيطان وتغريرِه، يشتمِلُ علىٰ أنَّ ذلك ظُلْمٌ لنفسه، وأن يتوجَّهَ إلىٰ اللهِ بالاعترافِ بخطئه، ويُفرَّع عليه طلبُ غفرانِه[(١)].

ثم طلَب مِن اللهِ سبحانه أن يَغفِرَ له ما وقَع منه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٢)].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا أنعَم عليه سبحانه بالإجابةِ إلىٰ سُؤْلِه، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ شُكْرِه عليها؛ فأُجِيبَ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(٣)].

ثم لمَّا أجاب اللهُ سؤالَه، وغفَر له ما طلَب منه مغفرتَه، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(٤)].

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر القتلَ وأتبَعه ما هو الأهمُّ مِن أمرِه بالنَّظَرِ إلىٰ الآخرة، ذكَر ما تسبَّب عنه مِن أحوالِ الدنيا، فقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[(٥)].

اعلَمْ أنَّ عند موتِ ذلك الرجُلِ مِن الوَكْزِ، أصبَح موسىٰ عليه السلام مِن غدِ ذلك اليومِ خائفًا مِن أن يَظهَرَ أنَّه هو القاتلُ، فيُطلَبَ به، وخرَج علىٰ استتارٍ[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩١).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٨٩).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ١٨٩).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٩).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٨٦).

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم دنَا منهما لينصُرَه، ثم قال مشيرًا بالفاءِ إلىٰ المبادَرةِ إلىٰ إصراخه: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾(١).

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان تقديرُ الكلامِ الذي أرشَد إليه السِّياقُ: فلمَّا سَمِع الفِرْعونيُّ قولَ الإسرائيليِّ، ترَكه، ثم رَقِيَ الكلامُ إلىٰ أن بلَغ فِرْعونَ، فوقَع الكلامُ في الأمرِ بقتلِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾(٢).

ظاهرُ النَّظْمِ أنَّ الرجُلَ جاء علىٰ حينِ محاوَرةِ القِبْطيِّ مع موسىٰ؛ فلذلك انطوىٰ أمرُ محاوَرتِهما؛ إذ حدَث في خلالِه ما هو أهَمُّ منه وأجدىٰ في القصَّة(٣).

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا دعَا بهذا الدعاءِ، أعلَمَ اللهُ تعالىٰ باستجابتِه منه، مخبرًا بجهةِ قصدِه؛ زيادةً في الإفادةِ، فقال: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٦٣).

قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ عطفٌ علىٰ جُمَلٍ محذوفة؛ إذ التَّقديرُ: ولمَّا خرَج مِن المدينةِ هائمًا علىٰ وجهِه، فاتفَق أن كان مسيرُه في طريقٍ يؤدِّي إلىٰ أرضِ مَدْيَنَ حينئذٍ، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فوصَل إلىٰ المدينةِ، بنىٰ عليه قولَه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[(٢)].

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

فتسبَّب عن استعطافِهما لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في إعانتِهما قولُه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾.

فَرَقَّ لهما موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ورَحِمَهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[(٣)].

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان سماعُهما لقولِه هذا مع إحسانِه إليهما سببًا لدعاءِ شُعَيبٍ له، قال بانيًا علىٰ ما تقديرُه: فذهَبتِ المرأتانِ إلىٰ أبيهما، فحدَّثتاه بخبَرِهما، وبإحسانِه إليهما، فأمَر

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٦٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦١٤).

بدعائه ليكافئَهُ: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾(١).

عرَفْتَ أنَّ الفاءَ تُؤذِنُ بأنَّ اللهَ استجاب له، فقيَّض شُعَيبًا أن يرسِلَ وراء موسىٰ ليُضيِّفه ويُزوِّجه بِنْتَه؛ فذلك يَضمَن له أُنْسًا في دارِ غُرْبةٍ، ومأوًىٰ وعشيرًا صالحًا، وتُؤذِنُ الفاءُ أيضًا بأنَّ شُعَيبًا لم يتريَّثْ في الإرسالِ وراءه، فأرسَل إحدىٰ البِنْتَينِ اللَّتين سقىٰ لهما، فجاءته وهو لم يزُلْ عن مكانِه في الظِّلِّ(٢).

فأرسَل أبوهما إحداهما إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾(٣).

لمَّا رجَعتِ المرأتانِ سِراعًا بالغنَمِ إلىٰ أبيهما، أنكَر حالَهما ومجيئَهما سريعًا، فسألهما عن خبَرِهما، فقصَّتا عليه ما فعَل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعَث إحداهما إليه لتدعُوَه إلىٰ أبيها، ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾(٤).

📖 ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ ﴾ 📖

ولمَّا اقتضىٰ هذا القولُ أنَّه آواه إليه، علمت ابنتاه مضمونه، وكانتا قد رأتا مِن كِفايتِه ودِيانتِه ما يرغِّبُ في عِشْرتِه، فتشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ حالِهما حينئذٍ، فقال مستأنِفًا لذلك: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠٣).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٨).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٢٦٩).

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾

استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنَّه قيل: فما قال أبوها بعد أن سَمِع كلامَها؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾[1].

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾

جملةُ ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ ﴾ حكايةٌ لجوابِ موسىٰ عن كلامِ شُعَيبٍ، وهذا قَبولُ موسىٰ لِما أوجَبه شُعَيبٌ، وبه تَمَّ التعاقدُ علىٰ النكاحِ، وعلىٰ الإجارةِ[2].

لمَّا فرَغ شُعَيبٌ ممَّا حاوَر به موسىٰ عليه السلام، قال موسىٰ عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾[3].

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ التَّقديرَ: فلمَّا التزَم موسىٰ عليه السلام، زوَّجه ابنتَه كما شرَط، واستمَرَّ عنده حتىٰ قضىٰ ما عليه: بنىٰ عليه قولَه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا ﴾[4].

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٢٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠٩).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٠٠).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

لمَّا قضىٰ الأجلَ الذي تعاقَد مع صِهْرِه شُعَيبٍ، وقد أتَمَّ خيرَ الأجلَين وأوفاهما؛ وهو العَشْرُ حِجَجٍ: قفَل ماشيًا بأهلِه - زوجتِه وولدِه - في طريقِه إلىٰ مِصْرَ لزيارةِ والدتِه وإخوتِه؛ حدَث أن ضَلَّ الطريقَ ليلًا، وكان الفصلُ شتاءً، والبردُ شديدٌ، فإذا به ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾(1).

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾

فسارَ موسىٰ عليه السلام إلىٰ النارِ التي أبصرَها، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾

ثم أمَره أن يُلقِيَ عصاه مِن يدِه؛ ليُرِيَه دليلًا علىٰ أنَّه اللهُ ربُّ العالَمين، بقولِه: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾

ثم زاد طُمَأنينتَه بقولِه: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾(2).

---

(1) أيسر التفاسير (٤/ ٧٠).

(2) نظم الدرر (١٤/ ٢٨٠).

لمَّا انقَلبتِ العصا حيَّةً، فَزِع موسىٰ واضطرَب، فاتَّقاها بيدِه؛ كما يَفعَلُ الخائفُ مِن الشيء، فقيل له: ﴿ اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾(١).

ثم أراه الآيةَ الأخرىٰ، فقال: ﴿ اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾(٢).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما فعَل بعد رؤيةِ هذه الخوارقِ؟ قيل: ثبَت؛ عِلْمًا منه بصعوبةِ المقامِ، وخطَرِ الأمر، فاشترَط لنفسِه حتَّىٰ رَضِي، وتلك كانت عادتَه؛ ثباتًا وحزمًا، وحِلْمًا وعلمًا، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾، تضمَّن ذلك أن يَذهَبَ موسىٰ بهذينِ البرهانينِ إلىٰ فِرْعونَ وقومِه، فعند ذلك طلَب مِن اللهِ تعالىٰ ما يقوِّي قلبَه، ويزيلُ خوفَه، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾(٤).

لمَّا أمَره اللهُ تعالىٰ بالذَّهابِ إلىٰ فِرْعونَ، الذي إنَّما خرَج مِن ديارِ مِصْرَ فرارًا منه، وخوفًا مِن سطوتِه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٠٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦١٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٨٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٩٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٣٦).

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن ذلك طلَبُ الإعانةِ بشخصٍ فيه كفايةٌ، وله عليه شفَقةٌ، وكان أخوه هارونُ أحَقَّ النَّاسِ بهذا الوصفِ: كان التَّقديرُ: فأرسِلْ معي أخي هارون - إلىٰ آخرِه، غيرَ أنَّه قدَّم ذِكْرَه اهتمامًا بشأنِه، فقال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[١].

وهذا سؤالٌ صريح يدلُّ علىٰ أنَّ موسىٰ عليه السلام لا يريدُ بالأولِ التنصُّلَ مِن التبليغِ، ولكنَّه أراد تأييدَه بأخيه، وإنَّما عيَّنه ولم يَسأَلْ مؤيِّدًا ما؛ لعِلْمِه بأمانتِه، وإخلاصِه للهِ ولأخيه، وعِلْمِه بفصاحةِ لسانه[٢].

ولمَّا ذكَر مخافتَه مِن القتلِ، ذكَر مخافتَه مِن التكذيبِ، فقال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا أكَّد أمرَ الطلبِ بهارونَ عليه السلام، أكَّد له سبحانه أمرَ الإجابةِ بقولِه مستأنِفًا: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾[٣].

استجابَ اللهُ له دعوتَيْهِ، وزاده تفضُّلًا بما لم يَسأَلْهُ؛ فاستجابةُ الدَّعوةِ الثَّانية بقولِه: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾، واستجابةُ الأُولىٰ بقوله: ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾، والتَّفضُّلُ

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٨٥).

بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾؛ فأعطى موسى عليه السلام ما يماثِلُ ما لهارونَ عليه السلام مِن المقدرةِ على إقامةِ الحُجَّة[1].

فأجابه اللهُ إلى سؤالِه ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[2].

📖 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ 📖

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأتاهم كما أمَر اللهُ، وعاضده أخوه كما أخبَر اللهُ، ودعَواهم إلى اللهِ تعالى، وأظهرا ما أُمِرا به مِن الآياتِ: بنى قولَه مبيِّنًا بالفاءِ سرعة امتثالِه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[3].

طُوِي ما بَيْنَ نداءِ الله إيَّاه وبين حضورِه عند فِرْعونَ مِن الأحداثِ؛ لعدمِ تعلُّقِ العِبْرةِ به، وأُسنِدَ المجيءُ بالآيات إلى موسى عليه السلام وَحْدَه دُونَ هارونَ؛ لأنَّه الرسولُ الأصليُّ الذي تأتي المعجِزاتُ على يديه[4].

فذهَب موسى عليه السلام برسالةِ ربِّه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦١٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٨-١١٩).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦١٦).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ بقولِهم، عطَف عليه الإخبارَ بقولِ موسىٰ عليه السلام؛ ليوازِنَ السامعُ بين الكلامينِ، ويتبصَّرَ بعقلِه ما الفاسدُ منهما؛ «فبضِدِّها تتبينُ الأشياءُ»؛ هذا علىٰ قراءةِ الجماعة بالواوِ، واستأنَف جوابًا لِمَن كأنَّه سأل عن جوابِه علىٰ قراءةِ ابن كثيرٍ بحذفِها؛ فإنَّ الموضعَ موضعُ بحثٍ عمَّا أجابهم به عند تسميتِهم الآياتِ الباهرات سحرًا؛ استعظامًا لذلك، فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

لمَّا قالوا قولًا صريحًا في تكذيبِه، واستظهَروا علىٰ قولِهم بأنَّ ما جاء به موسىٰ شيءٌ ما عَلِمه آباؤهم: أجاب موسىٰ كلامَهم بمثلِه في تأييدِ صِدْقِه؛ فإنَّه يَعلَمُه اللهُ؛ فما علمُ آبائهم في جانبِ علمِ اللهِ بشيءٍ! فلمَّا تمسَّكوا بعلمِ آبائهم، تمسَّك موسىٰ بعلمِ الله تعالىٰ؛ فقد احتجَّ موسىٰ بنفسِه، ولم يَكِلْ ذلك إلىٰ هارونَ(٢).

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ ﴾

كلامُ فِرْعونَ المَحْكيُّ هنا واقعٌ في مقامٍ غيرِ مقامِ المحاوَرةِ مع موسىٰ؛ فهو كلامٌ أقبَلَ به علىٰ خطابِ أهلِ مجلسه إثرَ المحاوَرةِ مع موسىٰ؛ فلذلك حُكِيَ بحرفِ العطفِ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصةِ، فهذه قصَّةُ محاوَرةٍ بَيْنَ فِرْعونَ وملَئِه في شأنِ دعوةِ موسىٰ؛ فهي حقيقةٌ بحرفِ العطفِ كما لا يَخفَىٰ(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢١).

فكأنَّه قيل: فما كان جوابُ فِرْعونَ؟ فقيل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا قال هذا مريدًا به إيقافَ قومِهِ عن اتِّباعِ الحقِّ، أتبَعه تعالىٰ الإشارةَ إلىٰ أنَّهم فعَلوا ما أراد، وإن كان ذلك هو الكِبْرَ عن الحقِّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1].

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا تسبَّب عن ذلك إهلاكُهم، قال: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان «مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً كان له أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها إلىٰ يومِ القيامة، ومَن سَنَّ سُنَّةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِل بها إلىٰ يومِ القيامة»[3]، وكانوا أولَ مَن أصرَّ وأطبَق في ذلك الزَّمانِ علىٰ تكذيبِ الآيات، وإخفاءِ الدَّلالات النَّيرات،

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧).

علىٰ تَواليها وكثرتِها، وطُولِ زمانها وعظَمتِها، وكانت منابَذةُ العقلِ واتِّباعُ الضَّلالِ في غايةِ الاستبعاد، لا سيَّما إن كانت ضامنةً للهلاكِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخرةِ: قال تعالىٰ في مظهرِ العظَمةِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ أي: استكبَروا فكانوا ينصُرون الضَّلالَ ويبُثُّونه؛ أي: جعَلْناه وجنودَه أئمَّةً للضَّلالةِ المفضيةِ إلىٰ النار، فكأنَّهم يَدْعون إلىٰ النارِ؛ فكلٌّ يدعو بما تصلُ إليه يده؛ فدعوةُ فِرْعونَ: أمرُه، ودعوةُ كهنتِه: باختراعِ قواعدِ الضَّلالة وأوهامها، ودعوةُ جنودِه: بتنفيذِ ذلك، والانتصارِ له[(٢)].

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا أخبَر عن هذا الحالِ، أخبَر عن ثمرتِه، فقال في مظهرِ العظَمةِ - لأنَّ السِّياقَ لبيانِ عُلُوِّ فِرْعونَ وآلِه، وأنَّهم مع ذلك طوعُ المشيئةِ -: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[(٣)].

ولمَّا كانوا أئمَّةً يَدْعون إلىٰ النارِ، شرَع اللهُ لَعْنَهم في هذه الدنيا علىٰ ألسنةِ المؤمنين، فقال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٩٩).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا وعَد سبحانه بإمامةِ بني إسرائيلَ، وقصَّ القَصَصَ حتىٰ ختَم بإمامةِ آلِ فِرْعونَ في الدُّعاءِ إلىٰ النار؛ إعلامًا بأنَّ ما كانوا عليه تجبُ مجانَبتُه ومنابَذته ومباعَدته، وكان مِن المعلومِ أنَّه لا بد لكلِّ إمامةٍ مِن دعامةٍ: تشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ أساسِ إمامةِ بني إسرائيلَ التي يجب العكوفُ في ذلك الزَّمانِ عليها، والتَّمسُّكُ بها، والمبادرةُ إليها؛ فأخبَر سبحانه عن ذلك مُقسِمًا عليه مع الافتتاحِ بحرفِ التَّوقُّعِ؛ لأنَّ العربَ وإن كانوا مصدِّقين لِما وقَع مِن المنَّةِ علىٰ بني إسرائيلَ بإنقاذِهم مِن يدِ فِرْعونَ، وتمكينِهم بعده، وإنزالِ الكتاب عليهم: فحالُهم بإنكارِ التَّمكينِ لأهلِ الإسلام والتَّكذيبِ بكتابِهم حالُ المكذِّبِ بأمرِ بني إسرائيلَ؛ لأنَّه لا فرقَ بَيْنَ نبيٍّ ونبيٍّ، وكتابٍ وكتابٍ، وناسٍ وناسٍ؛ لأنَّ ربَّ الكلِّ واحدٌ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

المقصودُ مِن الآياتِ السابقة الاعتبارُ بعاقبةِ المكذِّبين القائلين: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾؛ ليقاسَ النَّظيرُ علىٰ النَّظير؛ فقد كان المشركون يقولون مثلَ ذلك، يريدون إفحامَ الرسولِ ﷺ بأنَّه لو كان اللهُ أرسَله حقًّا، لكان أُرسِلَ إلىٰ الأجيالِ مِن قبلِه، ولَمَا كان اللهُ يترُكُ الأجيالَ التي قبلهم بدُونِ رسالةِ رسولٍ، ثم يُرسِلُ إلىٰ الجيلِ الأخير؛ فكان قولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ إتمامًا لتنظيرِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ برسالةِ موسىٰ عليه السلام في أنَّها

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٠-٣٠١).

جاءت بعد فترةٍ طويلةٍ لا رسالةَ فيها، مع الإشارةِ إلىٰ أنَّ سَبْقَ إرسالِ الرُّسلِ إلىٰ الأُمَمِ شيءٌ واقعٌ بشَهادةِ التَّواترِ، وأنَّه قد ترتَّب علىٰ تكذيبِ الأُمَمِ رُسُلَهم إهلاكُ القرون الأُولىٰ؛ فلم يكُنْ ذلك موجِبًا لاستمرارِ إرسال الرُّسلِ متعاقِبِينَ، بل كانوا يَجيئون في أزمنةٍ متفرِّقةٍ، فإذا كان المشركون يحاوِلون بقولِهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ٣٦﴾ إبطالَ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ بعلَّةِ تأخُّرِ زمانها سفسطةً ووهَمًا، فإنَّ دليلَهم مقدوحٌ فيه بقادحِ القلبِ بأنَّ الرُّسلَ قد جاؤوا إلىٰ الأُمَمِ مِن قبلُ، ثم جاء موسىٰ بعد فترةٍ مِن الرُّسلِ(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما آلَ إليه فِرْعونُ وقومُه مِن غضبِ الله عليهم وإغراقِه، ذكَر ما امتنَّ به علىٰ رسولِه موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ وهو التوراةُ، وهو أولُ كتابٍ أُنزِلتْ فيه الفرائضُ والأحكام(٢).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه في هذه السورةِ مِن غرائبِ أمرِ موسىٰ عليه السلام وخَفِيِّ أحوالِه ما بيَّن، وكانت هذه الأخبارُ لا يَقدِرُ أهلُ الكتاب علىٰ إنكارِها نوعًا مِن الإنكارِ، وكان مِن المشهورِ أيَّ اشتهارٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَعرِفْها ولا سِواها مِن غيرِ الواحدِ القهَّار: أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٢).

لمَّا بطَلَتْ شُبْهتُهم التي حاوَلوا بها إحالةَ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، نقَل الكلامَ إلىٰ إثباتِ رسالتِه بالحُجَّةِ الدامغةِ؛ وذلك بما أعلَمَه اللهُ به مِن أخبارِ رسالة موسىٰ ممَّا لا قِبَلَ له بعلمِه لولا أنَّ ذلك وحيٌ إليه مِن اللهِ تعالىٰ؛ فهذا تخلُّصٌ مِن الاعتبارِ بدلالةِ الالتزام في قصَّةِ موسىٰ إلىٰ الصَّريحِ مِن إثباتِ نُبوءةِ محمَّدٍ ﷺ(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ كونِ التَّنزيل وحيًا مِن علامِ الغيوبِ؛ ببيانِ أنَّه ما فُصِّل مِن هذه الأنباءِ لا يَتسنَّىٰ إلا بالمشاهَدةِ، أو التَّعلُّم، وكلاهما معلومُ الانتفاءِ؛ فتحقَّقَ صِدْقُ الإيحاءِ؛ وذلك قولُه سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٢).

ولمَّا قَصَّ اللهُ علىٰ رسولِه ﷺ ما قصَّ مِن هذه الأخبارِ الغيبيَّة، نبَّه العبادَ علىٰ أنَّ هذا خبَرٌ إلهيٌّ محضٌ، ليس للرسولِ طريقٌ إلىٰ علمِه إلا مِن جهةِ الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٣).

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: وما كنتَ مِن أهلِ ذلك الزَّمانِ الحاضرين لذلك الأمرِ، وامتَدَّ عُمُرُك إلىٰ هذا الزَّمانِ حتىٰ أخبرتَ بما كنتَ حاضِرَه: استدرَك ضدَّ ذلك، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٥٢٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦١٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٣-٣٠٤).

خَفِيَ اتصالُ هذا الاستدراكِ بالكلامِ الذي قبله، وكيف يكونُ استدراكًا وتعقيبًا للكلامِ الأول برَفْعِ ما يُتوهَّمُ ثبوتُه؛ فبيانُه أنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مسُوقٌ مساقَ إبطالِ تعجُّبِ المشركين مِن رسالةِ محمَّدٍ ﷺ حين لم يَسبِقْها رسالةُ رسولٍ إلىٰ آبائهم الأوَّلين، فذكَّرهم بأنَّ اللهَ أرسَل موسىٰ كذلك بعد فترةٍ عظيمة، وأنَّ الذين أُرسِلَ إليهم موسىٰ أثاروا مثلَ هذه الشُّبْهةِ، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾؛ فكما كانت رسالةُ موسىٰ عليه السلام بعد فترةٍ مِن الرُّسل، كذلك كانت رسالةُ محمَّدٍ ﷺ[1].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾

ولمَّا نفَىٰ السَّببَ المبدئيَّ للعلمِ بذلك الإجمالِ، ثم الغائيَّ للعلمِ بتفصيل تلك الوقائعِ والأعمال: نفىٰ السَّببَ الغائيَّ للعلمِ بالأحكام، ونصَب الشَّريعةَ بما فيها مِن القِصَصِ والمواعظِ والحلال والحرامِ والآصار والأغلال، بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

ولمَّا نفَىٰ حضورَه جانبَ المكان الغربيِّ إذ أرسَلَ موسىٰ إلىٰ فِرْعونَ، فكذلك نفَىٰ حضورَه هنا جانبَ الطُّورِ إذ نادىٰ موسىٰ لمَّا أتىٰ الميقاتَ مع السَّبعين.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣١).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٥).

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

ولمَّـا كـان انتفـاءُ إنـذارِهم قبلـه ﷺ نافيًـا للحُجَّـةِ في عـذابِهم بمـا أوجَبـه اللهُ - وله الحُجَّةُ البالغةُ، لا يُسأل عمَّا يَفعَل - علىٰ نفسِه الشَّريفة، فضـلًا منه ورحمـةً: ذكَـر أنَّ إرسـالَه ممَّـا لا بُـدَّ منه لـذلك، فقـال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(1).

هذا متصِلٌ بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ يكونُ بَيْنَ يدَيْ عذابٍ(2).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾

ولمَّـا كـان التَّقـديرُ: ولكنَّـا أرسَلْناك بـالحقِّ لقَطْعِ حُجَّتِهم هـذه، بنـىٰ عليـه قولَـه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾(3).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم عند الخوفِ قالوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، بيَّن أيضًـا أنَّـه بعـد الإرسـالِ ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾؛ فهؤلاء قبل البعثةِ يَتعلَّقون بشُبْهةٍ، وبعد البعثةِ يتعلقون بأخرىٰ؛ فظهَر أنَّـه لا مقصـودَ لهم سِوىٰ الزيغِ والعناد(4).

---

(1) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٧).

(2) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٥).

(3) نظم الدرر (١٤/ ٣٠٨).

(4) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٥).

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا قالوا ذلك، كان كأنَّه قيل: فماذا فعَل؟ قال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

لمَّا أجاب اللهُ تعالىٰ عن شُبَهِهم، ذكَر الحُجَّةَ الدالةَ علىٰ صِدْقِ محمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

ثم أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه أن يقولَ لهم قولًا يَظهَرُ به عَجْزُهم، فقال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا كان شرطَ صِدْقِهم، بيَّن كَذِبَهم علىٰ تقديرِ عدمِ الجزاء، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[4].

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا أبلَغَ في هذه الأساليبِ في إظهارِ الخفايا، وأكثَرَ مِن نَصْبِ الأدلَّةِ علىٰ الحقِّ، وإقامةِ البراهينِ علىٰ وجوبِ اتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ، وكانوا بإعراضِهم عن ذلك كلِّه كأنَّهم منكِرون لأن يكونَ جاءهم شيءٌ مِن ذلك: قال ناسقًا علىٰ ما تقديرُه: فلقد

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣١١).

آتيناك في هذه الآياتِ بأعظَمِ البيِّنات، منبِّهًا بحرفِ التَّوقُّع المقترنِ بأداة القسَمِ على أنَّه ممَّا يُتوقَّعُ هنا أن يقالَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ بهذه الدَّلالة، قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وتوصيلُ القولِ هو إتيانُ بيانٍ بعد بيان(٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا كان مِن التَّذكُّرِ ما دلَّ عليه مجرَّدُ العقلِ، ومنه ما انضمَّ إليه مع ذلك العقلُ، وكان صاحبُ هذا القسمِ أجدَرَ بأن يتبصَّرَ، وكان كأنَّه قيل: هل تذكَّروا؟ قيل: نعم، أهلُ الكتاب الذين هم أهلُه حقًّا تذكَّروا حقًّا؛ وذلك معنىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

لمَّا أفهَمَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّهم لم يَفعلوا، ولم يكونوا عند رجاءِ الراجي: عقَّب ذلك بهذه الجملةِ المستأنَفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها جوابٌ لسؤالِ مَن يَسأَلُ: هل تذكَّرَ غيرُهم بالقرآنِ، أو استوىٰ الناسُ في عدمِ التَّذكُّر به؟ فأُجِيبَ بأنَّ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلِ نزولِ القرآن يؤمنون به إيمانًا ثابتًا(٤).

إنَّه تعالىٰ لمَّا أقام الدَّلالةَ علىٰ النبوَّةِ، أكَّد ذلك بأن قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣١٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٧).

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ثم أكَّد هذا المعنىٰ بقولِه: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[1].

ثم حكَىٰ عنهم ما يدلُّ علىٰ تأكيدِ إيمانهم؛ وهو قولُهم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[2].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فكانت النتيجةُ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[3].

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا مدَحهم بهذا المدحِ العظيم، قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[4].

ثم ذكَر جزاءَهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أنَّ السَّماحَ بما تَضِنُّ النُّفوسُ به مِن فضولِ الأموال مِن أماراتِ الإيمان، أتبعَه أنَّ خَزْنَ ما تبذُلُه الألسُنُ مِن فضولِ الأقوال مِن علاماتِ العِرْفان،

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣١٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٧).

فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

لمَّا بيَّن كيفيةَ اشتغالِهم بالطاعاتِ والأفعال الحسَنة، بيَّن كيفيةَ إعراضِهم عن الجهَّالِ، فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢).

ثم مدَحهم سبحانه بإعراضِهم عن اللَّغوِ، فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ نفسَ النبيِّ ﷺ - لِما جُبلتْ عليه مِن الخيرِ والمحبَّةِ لنفعِ جميعِ العباد، لا سيَّما العربُ؛ لقُرْبِهم منه ﷺ، لا سيَّما أقربُهم منه صلةً للرَّحِمِ - تتأثَّرُ بسَبْقِ أهلِ الكتاب لقومِه، وكان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ عدمَ هدايتِهم لتقصيرٍ في دعائه أو إرادتِه لذلك، وأنَّه لو أراد هدايتَهم وأحبَّها، وعلَّق همَّتَه العليَّةَ بها؛ لاهتَدْوا: أُجيبَ عن هذا بقولِه تعالى في سياقِ التَّأكيد - إظهارًا لصفةِ القُدْرةِ والكِبْرياء والعظَمة -: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٠٦).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣١٧).

لمَّا ذكَر معاذيرَ المشركين وكُفْرَهم بالقرآنِ، وأعلَمَ رسولَه أنَّهم يتَّبِعون أهواءَهم، وأنَّهم مجرَّدون عن هُدَىٰ الله، ثم أثنىٰ علىٰ فريقٍ مِن أهلِ الكتاب أنَّهم يؤمنون بالقرآنِ، وكان ذلك يحزُنُ النبيَّ ﷺ؛ أن يُعرِضَ قُرَيشٌ - وهم أخَصُّ الناسِ به - عن دَعْوتِه: أقبَل اللهُ علىٰ خطابِ نبيِّه ﷺ بما يسلِّي نفسَه، ويزيلُ كمَدَه؛ بأن ذكَّره بأنَّ الهُدَىٰ بيدِ الله[(١)].

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا عجَّب مِن حالِ قُرَيشٍ في طلبِهم مِن الآياتِ مثلَ ما أُوتيَ موسىٰ عليه السلام، ثم كُفْرِهم به، وبما هو أعظَمُ منه، وختَم بأنَّه أعلَمُ بأهلِ الخيرِ وأهل الشر، إشارةً إلىٰ الإعراضِ عن الأسَفِ علىٰ أحدٍ، والإقبالِ علىٰ عمومِ الدعاء للقريبِ والبعيد علىٰ حدٍّ سواءٍ: قال دليلًا علىٰ ذلك - لأنَّهم إنَّما يتَّبِعون أهواءَهم -: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٢)].

هذه بعضُ معاذيرِهم؛ قالها فريقٌ منهم، ممَّن غلَبه الحياءُ علىٰ أن يكابِرَ ويجاهِرَ بالتَّكذيبِ، وغلَبه إلفُ ما هو عليه مِن حالِ الكفرِ علىٰ الاعترافِ بالحق، فاعتذَروا بهذه[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٧-١٤٨).

ثـم إنَّـه سبحانه بعـد أن ذكَـر شُبَهَهم، وأجـاب عنهـا بالأجوبـةِ الواضـحة، وبيَّـن أنَّ وضوحَ الدلائلِ لا يكفي، ما لم ينضَّمَ إليه هدايةُ اللهِ تعالىٰ: حكىٰ عنهم شُبْهةً أخرىٰ متعلِّقةً بأحوالِ الدنيا؛ وهي قولُهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾

ولـمَّـا أخبَـر تعـالىٰ أنَّـه قـادرٌ علـىٰ التَّـأمينِ والإنجـاءِ والتَّمكـين مـع الضَّـعَفة، أتبعـه الإعلامَ بقُدْرتِه علىٰ الإخافةِ والإهلاك مع القـوة؛ ترغيبًـا لهـم - إن آمَنـوا - بـإهلاكِ أضـدادهم، وترهيبًـا - إن أصَـرُّوا - مِـن المعاملـةِ بعكـسِ مـرادهم، فقـال في مظهـرِ العظَمـةِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾، باعتبـارِ مـا تضـمَّنَتْهُ مِـن الإنكـارِ والتَّوبيخ؛ فإنَّ ذلك يقتضي التَّعرُّضَ للانتقامِ، شأنَ الأُمَمِ التي كفرتْ بنِعَمِ اللهِ؛ فهـو تخويفٌ لقُرَيشٍ مِن سُوءِ عاقبةِ أقوامٍ كانوا في مثلِ حالهم مِن الأمنِ والرِّزق؛ فغَمِطُوا النِّعْمةَ، وقابَلوها بالبطَرِ[3].

ثم إنَّـه تعالىٰ بعـد أن ردَّ عليهم خَـوْفَهم مِـن النـاسِ، بيَّـن أنَّهـم أحِقَّـاء بـالخوفِ مِـن بـأسِ الله تعـالىٰ بقولـه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٠).

(٤) روح المعاني (١٠/ ٣٠٥).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا أظهَر سبحانه سَوْطَ العذابِ بيدِ القدرةِ، دلَّ على وطاء[1] العدل بثمرةِ الغِنى، ولكونِه في سياقِ الرَّحمةِ بالإرسال عبَّر بالرُّبوبيَّةِ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾[2].

أعقَب الاعتبارَ بالقُرَى المُهلَكة ببيانِ أشراطِ هلاكها وسببِه؛ استقصاءً للإعذارِ لمشركي العرب؛ فبيَّن لهم أنْ ليس مِن عادةِ الله تعالى أن يُهلِكَ القُرَى المستأهِلةَ الإهلاكِ حتى يَبعَثَ رسولًا في القريةِ الكبرى منها؛ لأنَّ القريةَ الكبرى هي مَهبِطُ أهلِ القُرَى والبوادي المجاوِرة لها؛ فلا تَخفَى دعوةُ الرسول فيها، ولأنَّ أهلَها قدوةٌ لغيرِهم في الخيرِ والشر؛ فهُمْ أكثَرُ استعدادًا لإدراكِ الأمور على وجهِها؛ فهذا بيانُ أشراطِ الإهلاك[3].

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا اعتلُّوا في الوقوفِ عن الإيمانِ بخوفِ التَّخطُّفِ، فذكَّرهم نِعْمتَه عليهم بإقامةِ أسبابِ الأمن وإدرارِ الرزق، وعرَّفهم أنَّه هو وَحْدَه الذي تُخشَى سطَواتُه، ويُتَّقَى أخذُه لِمَن خالَفه وبطَشاتُه، وكان خوفُهم مِن عواقبِ المتابَعة إمَّا على أنفسِهم، وإمَّا على ما بأيديهم مِن المتاعِ: عُلِم مِن ذلك كلِّه قطعًا أنَّ التَّقديرَ: بما سبَّب التَّخويفَ

(١) أي: تمهيد وتيسير.

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٢).

مِن عواقبِ الظُّلْمِ بمثلِ مَصارِعِ الأوَّلينَ، فأنفسُكم في خطَرٍ مِن خوفِ الهلاك مِن القادرِ عليكم كقُدْرتِه علىٰ مَن قبلكم بسببِ التَّوقُّفِ عن المتابَعةِ أشَدَّ مِن خطَرِ الخوف مِن التَّخطُّفِ بسبب المتابَعة، أو يكونُ التَّقدير: فما خِفْتُم منه التَّخطُّفَ غيرُ ضائرِكم، وكَفُّكم عن المتابَعةِ لأجلِه غيرُ مخلِّدِكم؛ فما إهلاكُكم علىٰ اللهِ - بأيِّ وجهٍ كان - بعزيزٍ؛ فعطَف علىٰ هذا الذي أرشَد السياقُ إلىٰ تقديرِه قولَه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1].

لمَّا ذكَّرهم اللهُ بنِعَمِه عليهم تذكيرًا أُدمِجَ في خلالِ الردِّ علىٰ قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ بقوله: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، أعقبه بأنَّ كلَّ ما أُوتُوه مِن نِعْمةٍ هو مِن متاعِ الحياة الدنيا؛ كالأمنِ والرِّزق، ومِن زينتِها؛ كاللِّباس والأنعام والمال، وأمَّا ما عند اللهِ مِن نعيمِ الآخرة مِن ذلك، فأبقَىٰ؛ لئلا يَحسَبوا أنَّ ما هم فيه مِن الأمنِ والرِّزق هو الغايةُ المطلوبة؛ فلا يَتطلَّبوا ما به تحصيلُ النعيمِ العظيم الأبديِّ، وتحصيلُه بالإيمانِ، ولا يَجعَلوا ذلك موازِنًا لاتِّباع الهدىٰ، وإن كان في اتِّباع الهدىٰ تفويتُ ما هم فيه مِن أرضِهم وخيراتِها لو سُلِّمَ ذلك؛ هذا وجهُ مناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها[2].

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾

ولمَّا كان هذا سببًا لأن ظهَر كالشَّمسِ بونٌ عظيمٌ بَيْنَ حالِ المخالِف والمؤالِف، سبَّب عنه وأنتج قولَه - مقرِّرًا لِما ذكر مِن الأمرينِ، موضِّحًا لِما لهما مِن المبايَنةِ،

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٣).

منكِرًا علىٰ مَن سوَّىٰ بينهما، فكيف بمَن ظنَّ أنَّ حالَ المخالِفِ أَوْلىٰ -: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[1].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ولَمَّا كان اليومُ - وإن كان واحدًا؛ يتعدَّدُ بتعدُّدِ أوصافه، بما يقعُ في أثنائه وأضعافِه- عطَف علىٰ يوم القيامة -تهويلًا لأمرِه، وتعظيمًا لخطَرِه وشرِّه- قولَه مقرِّرًا لعَجْزِ العبادِ عن شيءٍ مِن الإباءِ في يومِ العباد: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[2].

تخلُّصٌ مِن إثباتِ بعثةِ الرُّسلِ وبعثة محمَّدٍ ﷺ إلىٰ إبطالِ الشُّركاءِ لله؛ فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾، مفيدةٌ سببَ كونِهم مِن المُحضَرين؛ أي: لأنَّهم اتخَذوا مِن دُونِ الله شركاءَ، وزعَموا أنَّهم يَشفَعون لهم، فإذا هم لا يَجِدونهم يومَ يُحضَرون للعذابِ[3].

لمَّا ذكَر أنَّ الممتَّعِين في الدنيا يُحضَرون إلىٰ النار، ذكَر شيئًا مِن أحوالِ يومِ القيامة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٦).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣١٨).

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ ﴾

ولمَّا كان اسمُ الشَّريكِ يقعُ علىٰ مَن سوَّاه الإنسانُ بآخَرَ في شيءٍ مِن الأشياءِ، وكان الأتباعُ قد سوَّوُا المتبوعينَ الذين عبَدوهم مِن الشياطينِ وغيرِهم باللهِ تعالىٰ في الخضوعِ لهم، والطواعيةِ في عبادةِ الأوثان، ومعانَدةِ الهُدَاةِ ومعاداتِهم، والصدِّ عن اتِّباعِهم، فكان اسمُ الشَّريك متناوِلًا لهم، وكان بطشُ مَن وقَع الإشراكُ به يكونُ أولًا بمَن عَدَّ نفسَه شريكًا، ثم بمَن أنزَله تلك المنزلةَ، فتشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ مبادَرةِ الرؤساءِ بالجواب؛ خوفًا مِن حلولِ العقابِ بهم، وزيادتِهم بقيادتِهم عليهم، فقيل: قالوا. هكذا الأصلُ، ولكنَّه أظهَرَ إعلامًا بالوصفِ الذي أوجَب لهم القولَ، فقال: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾[1].

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ حكايةِ السؤال، كأنَّه قيل: فماذا صدَر عنهم حينئذٍ؟ فقيل: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾[2].

﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ ﴾

ولمَّا لم يلتفِتْ إلىٰ هذا الكلامِ منهم، بل عُدَّ عدمًا -لأنَّه لا طائلَ تحتَه-: أُشِيرَ إلىٰ الإعراضِ عنه -لأنَّه لا يستحِقُّ جوابًا- بقولِه: ﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٥).

هذا موجَّهٌ إلىٰ جميعِ الذين نُودُوا بقولِه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾؛ فإنَّ ذلك النداءَ كان توبيخًا لهم علىٰ اتخاذِهم آلهةً شُركاءَ للهِ تعالىٰ، فلمَّا شعَروا بالمقصدِ مِن ندائهم، وتصدَّىٰ كُبَراؤهم للاعتذارِ عن اتخاذِهم: أتبَع ذلك بهذا القولِ(١).

لمَّا سُئِلوا ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وأجابوا بغيرِ جوابٍ، سُئلوا ثانيًا، فقيل: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾(٢).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾

ولمَّا أشار إلىٰ أنَّه لا خلاصَ مِن ذلك الرَّدىٰ إلا بالهدىٰ، أتبَعه الإعلامَ بأنَّه لا يمكِنُ أحدًا هناك أن يفعلَ ما قد يرُوجُ علىٰ سائلِه كما يفعلُ في هذه الدارِ مِن إظهارِ ما لم يكُنْ، مكرِّرًا لتهويلِ ذلك اليومِ وتبشيعِه، وتعظيمِه وتفظيعِه، سائلًا عن حقِّ رُسُلِه عليهم الصلاة والسلام بعد السؤالِ عن حقِّهِ سبحانه، مناديًا بعَجْزِ الشُّركاءِ في الأخرىٰ كما كانوا عاجزين في الأولىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

حكَىٰ أولًا ما يوبِّخُهم مِن اتخاذِهم له شُركاءَ، ثم ما يقولُه رؤوسُ الكفرِ عند توبيخِهم، ثم استعانتَهم بشركائِهم، وخِذْلانَهم لهم، وعَجْزَهم عن نُصْرتِهم، ثم ما يُبكَّتون به مِن الاحتجاجِ عليهم بإرسالِ الرُّسل، وإزالةِ العِلَل(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٠).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣١٩).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٦).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣١٩-٣٢٠).

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا لم يكُنْ لهم قَدَمُ صِدْقٍ، ولا سابقُ حقٍّ بما أتتهم الرُّسلُ به مِن الحُجَجِ، وتابَعتْ عليهم مِن الأدلَّةِ: لم يكُنْ لهم جوابٌ إلا السُّكوتُ؛ وهو المرادُ بقوله: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1].

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم بهذه الآياتِ حالُ مَن أصرَّ علىٰ كُفْرِه، وعَمِل سيئًا بطريقِ العبارة، وأُشِيرَ -إلىٰ حالِ مَن تاب، فوُعِد الوعدَ الحسَنَ- ألطفَ إشارة: تسبَّبَ عن ذلك التَّشوُّفُ إلىٰ التَّصريحِ بحالهم، فقال مفصِّلًا مرتِّبًا علىٰ ما تقديرُه: هذا حالُ مَن أصرَّ علىٰ كفرِه، ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾[2].

تخلَّل بَيْنَ حالِ المشركين ذِكْرُ حالِ الفريقِ المقابِل -وهو فريقُ المؤمنين- علىٰ طريقةِ الاعتراض؛ لأنَّ الأحوالَ تزداد تميُّزًا بذِكْرِ أضدادها[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ المعذَّبين مِن الكفارِ، وما يَجري عليهم مِن التوبيخِ: أتبَعه بذِكْرِ مَن يتوبُ منهم في الدنيا -ترغيبًا في التوبةِ، وزجرًا عن الثباتِ علىٰ الكفرِ-، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالىٰ سؤالَ الخَلْقِ عن معبودِهم وعن رُسلِهم، ذكَر الطريقَ الذي ينجو به العبدُ مِن عقابِ الله تعالىٰ، وأنَّه لا نجاةَ إلا لِمَن اتصَف بالتوبةِ مِن الشِّرك

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠).

والمعاصي، وآمَن باللهِ فعبَده، وآمَن برُسلِه فصدَّقهم، وعَمِل صالحًا متَّبِعًا فيه للرُّسل[(١)].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما لأهلِ القسمِ الأول لا يَتوخَّون النَّجا، مِن ضِيقِ ذلك البَلا إلى رُحْبِ هذا الرَّجَا، وكان الجوابُ: ربُّك منَعهم مِن ذلك، أو ما له لم يَقطَعْ لأهلِ هذا القِسْمِ بالفلاحِ كما قطَع لأهلِ القسم الأول بالشَّقاء؟ وكان الجوابُ: إنَّ ربَّك لا يجبُ عليه شيءٌ: عطَف عليه إشارةً إليه قولَه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[(٢)].

هذا مِن تمامِ الاعتراض؛ وهي جملةُ ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وظاهرُ عطفِه على ما قبله: أنَّ معناه آيلٌ إلى التفويضِ إلى حكمةِ الله تعالى في خَلْقِ قلوبٍ منفتحة للاهتداء، ولو بمراحلَ، وقلوبٍ غيرِ منفتحة له؛ فهي قاسيةٌ صمَّاءُ، وأنَّه الذي اختار فريقًا على فريقٍ[(٣)].

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩)﴾

ولمَّا كانت القدرةُ لا تتمُّ إلا بالعلمِ، قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٢٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٠).

عطفٌ على ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾؛ أي: هو خالِقُهم ومركِّبُهم على النظامِ الذي تصدُرُ عنه الأفعالُ والاعتقادات، فيكونون مستعِدِّين لقَبولِ الخيرِ والشر، وتغليبِ أحدهما على الآخَرِ؛ اعتقادًا وعملًا، وهو يَعلَمُ ما تُخفِيه صدورُهم وما يُعلِنونه مِن أقوالِهم وأفعالهم، فبحسَبِ ما يَعلَمُ منهم يختارُهم ويجازيهم، فحصَل بهذا إيماءٌ إلى علَّةِ الاختيار، وإلى الوعدِ والوعيد؛ وهذا منتهى الإيجازِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا كان عِلْمُه بذلك إنَّما هو لكونِه إلهًا، وكان غيرُه لا يَعلَمُ مِن علمِه إلا ما علَّمه: عبَّر عن ذلك بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٢)].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا قامت على القُدْرةِ الشاملة، والعلمِ التامِّ، وأنَّه الإلهُ وَحْدَه؛ إن وحَّدوا أو ألحَدوا هذه الأعلامَ على هذا النظامِ: أقام دليلًا دالًّا على ذلك كلِّه بما اجتمَع فيه مِن العلمِ والحِكْمةِ وتمام القدرة، مُنبِّهًا على وجوبِ حَمْدِه، مفصِّلًا لبعضِ ما يُحمَدُ عليه، فقال مقدِّمًا الليلَ - لأنَّ آيتَهُ عدميَّةٌ، وهي أسبَقُ -: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٤١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٢).

انتقالٌ مِن الاستدلالِ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ بصفاتِ ذاتِه، إلى الاستدلالِ على ذلك ببديعِ مصنوعاتِه، وفي ضمنِ هذا الاستدلالِ إدماجُ الامتنانِ على الناس، وللتعريضِ بكفرِ المشركين جلائلَ نِعَمِه[١].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن مِن قبلُ استحقاقَه للحمدِ على وجهِ الإجمال بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فصَّل عقيب ذلك ببعضِ ما يجبُ أن يُحمَدَ عليه ممَّا لا يَقدِرُ عليه سِواه، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾[٢].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾

ثم لمَّا فرَغ مِن الامتنانِ عليهم بوجودِ النَّهار، امتَنَّ عليهم بوجودِ الليل، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٣].

﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فمِن حِكْمتِهِ جعَل لكم السمعَ والأبصار لتتدبَّروا آياتِه، وتَتبصَّروا في مصنوعاتِه: عطَف عليه: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢١٣).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٤).

تصريحُ بنعمةِ تعاقُبِ الليلِ والنهار على الناسِ بقوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ وذلك ممَّا دلَّتْ عليه الآيةُ السابقة بطريقِ الإدماج[1].

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٧٤﴾

ولمَّا ذكَر ما للمفلحِ مِن الرَّجاءِ في يوم الجزاء، وأتبعه الإعلامَ بأنَّ الهدايةَ إلى الفلاح إنَّما هي به، ودلَّ على ذلك إلى أن ذكَر أيامَ الدُّنيا المشتمِلة على الليلِ والنهار على وجهٍ دالٍّ على وَحْدانيَّته، مُعلِمٍ بالقدرةِ على البعثِ بعد الموت بتكريرِ إيجادِ كلٍّ مِن الملَوَين[2] بعد إعدامِه، وتكريرِ إماتةِ الناسِ بالنوم، ثم نَشْرِهم باليقظةِ، وختَم ذلك بالشُّكر؛ إشارةً إلى أنَّه سببُ الفلاح: عاد إلى يومِ الجزاءِ الذي تَظهَرُ فيه ثمرةُ ذلك كلِّه، مُقرِّعًا على الإشراكِ مع ظهورِ هذه الدَّلائلِ على التَّوحيد، وعدمِ شُبْهةٍ قائمةٍ على الشركِ غيرِ محضِ التَّقليد، فقال منبِّهًا على عَجْزِهم عن البرهانِ عند استحقاقِ البرهان في يوم التَّنادِ، لمَحضَرٍ مِن الأشهادِ، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ للتَّهويل بالتَّكرير، والتَّأطيدِ[3] للتَّهليل والتَّقرير: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[4].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا هجَّن طريقةَ المشركين أولًا، ثم ذكَر التوحيدَ ودلائلَه ثانيًا: عاد إلى تهجينِ طريقتِهم مرةً أخرى، وشرَح حالَهم في الآخرةِ، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٧١).

(٢) أي: الليل والنهار.

(٣) أي: التثبيت.

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٣).

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الدَّليلَ الأول مِن الدَّليلِ علىٰ إبطالِ الشَّركة أنَّ الشُّركاءَ لم يَستجيبوا لهم، ولا كانت لهم قدرةٌ علىٰ نَصْرِهم، ولا نصرِ أنفسِهم، وكان ربما قيل: إنَّ ذلك لشيء غيرِ المُعجز: دلَّ هنا علىٰ أنه لا دليلَ علىٰ الإشراكِ ولا شبهةَ دليلٍ، فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(١).

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ عَجْزِهم في تلك الدارِ، وعلَّمهم أنَّ المتصرِّفَ في جميعِ الأقدار إنَّما هو الواحدُ القهَّار: دلَّ ذلك علىٰ أنَّ ذلك له أيضًا في هذه الدارِ بوقوع العلم به بإهلاكِ أُولي البَطَر، والمرَحِ والأَثر، مِن غيرِ أن يُغنُوا عمَّن أضَلُّوا، أو يُغنِيَ عنهم مَن أضَلَّهم؛ تخويفًا لِمَن كذَّب النبيَّ ﷺ، لا سيَّما مَن نسَبه إلىٰ السِّحر، وإعلامًا بأنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام يقاطِعون الأشقياءَ، وإن كانوا أقربَ الأقرباء؛ لأنَّه سبحانه عذَّب قارونَ ومَن كان معه بعذابٍ لم يَسبِقْهم فيه أحدٌ، وهُمْ مِن بني إسرائيلَ، ومِن أقرَبِ بني إسرائيلَ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام؛ فعَلِم كلُّ مَن كان اغترَّ بما أُوتِيَه أنَّ الحقَّ للهِ في كلِّ ما دعَتْ إليه رُسلُه، ونطَقتْ به كُتبُه، وضَلَّ عنهم ما كانوا يَفترُون، ولم يُغنِ عنهم شيئًا ما اعتمَدوا عليه، فكان معبودُهم في الحقيقةِ ممَّا جمَعوه

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٦).

مِن حُطَامِ الدنيا، فاعتقَدوا أنَّهم نالوا به السعادةَ الدائمة، والعِزَّ الباقيَ، فكان مثلُه - كما يأتي في التي بعده - كمثَلِ العنكبوتِ اتخَذتْ بيتًا، وكلُّ ذلك بمرأىٰ مِن موسىٰ عليه السلام حين كذَّبه، ونسَبه إلىٰ السِّحر، وتكبَّرَ عليه، فلم يَسألِ اللهَ تعالىٰ فيه؛ لخروجِه باستكبارِه مِن الوعدِ بالمِنَّةِ علىٰ الذين استُضعِفوا في الأرضِ، وكان ذلك العذابُ الذي عُذِّبوا به مِن جنسِ ما عذَّب به فِرْعونَ في الصورةِ؛ مِن حيث إنَّه تغييبٌ، وإن كان ذلك في مائعٍ، وهذا صُلْبٌ جامد؛ ليُعلِمَ أنَّه قادرٌ علىٰ ما يريدُ؛ ليدومَ منه الحذَرُ فيما سبَق منه القضاءُ والقَدَر، فقال: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[1].

ثم عقَّب سبحانه حديثَ أهلِ الضَّلال بقصَّةِ قارونَ؛ لِما اشتَملَتْ عليه مِن بديعِ القدرة، وعجيبِ الصُّنْعِ، فقال: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[2].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

ولمَّا كان تركُ الفرحِ سببًا للزُّهدِ، وهو سببُ القُرْبِ إلىٰ اللهِ، كان كأنَّه قيل: وازهَدْ فيه؛ إنَّ اللهَ يُحبُّ الزاهدين، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٢).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾

ولمَّا كان ممَّا قالوه أنَّ الذي أعطاه ذلك إنَّما هو اللهُ، وكان قد أبطرَتْهُ النِّعمةُ حتىٰ علىٰ خالقِه حتىٰ حصَل التَّشوُّفُ إلىٰ جوابِه، فقيل في أسلوبِ التَّأكيدِ - لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعلَم مِن نفسِه العَجْزَ، وأنَّ غيرَه يُنكِرُ عليه فيما يدَّعي أنَّه حصَّله بقوَّته -: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[1].

جوابٌ عن موعظةِ واعظيه مِن قومِه، وقد جاء علىٰ أسلوبِ حكاية المحاوَرات، فلم يُعطَفْ، وهو جوابٌ متصلِّفٍ، حاوَل به إفحامَهم، وأن يَقطَعوا موعظتَهم؛ لأنَّها أمَرَّتْ بطَرَه وازدهاءَه[2].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾

فلمَّا أفاد أنَّ الموجِبَ للإهلاكِ الإجرامُ؛ وهو قطعُ ما ينبغي وصلُه بوصلِ ما ينبغي قطعُه؛ ولهذا سبَّب وعقَّب عن وعظِهم الحسَنِ وجوابِه الخشِنِ قولَه سبحانه دليلًا علىٰ إجرامِه، وطغيانِه في آثامِه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ إلىٰ آخرِها مع ما عُطِف عليها وتعلَّق بها؛ فدلَّتِ الفاءُ علىٰ أنَّ خروجَه بَيْنَ قومِه في زينتِه بعد ذلك كلِّه كان مِن أجلِ أنَّه لم يقصِّرْ عن شيءٍ مِن سيرتِه، ولم يتَّعِظْ بتلك المواعظِ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعقبَها بخروجِه هذه الخِرْجةَ المليئةَ صلَفًا وازدهاءً[4].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٣-٣٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ قارونَ ونعتَه، وما آتاه مِن الكنوزِ، وفرَحه بذلك فرَحَ البَطِرِينَ، وادِّعاءَه أنَّ ما أُوتيَ مِن ذلك إنَّما أُوتيَه علىٰ عِلْمٍ: ذكَر ما هو ناشئٌ عن التكبُّرِ والسرور بما أُوتيَ، فقال: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾[1].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ قارونَ لم يعتبِرْ بذلك، ولا بنصيحةِ قومِه، بقولِه سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾[2].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ ﴾

ودَلَّ علىٰ جهلِهم، وفضلِ العلمِ الرَّبانيِّ، وحقارةِ ما أُوتيَ قارونُ مِن المالِ والعلمِ الظاهر الذي أدَّىٰ إليه باتِّباعِه: قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾؛ فهي مشارِكةٌ لها في معناها؛ لأنَّ ما تشتمِلُ عليه خِرْجةُ قارونَ وما تدلُّ عليه ملامحُه مِن فتنةٍ ببَهْرجتِه وبِزَّتِه: دالةٌ علىٰ قلةِ اعتدادِه بثوابِ الله، وعلىٰ تمحُّضِه للإقبالِ علىٰ لذائذِ الدنيا ومفاخرِها الباطلةِ؛ ففي كلامِ الذين أوتوا العلمَ تنبيهٌ علىٰ ذلك، وإزالةٌ لِما تستجلِبُه حالةُ قارونَ مِن نفوسِ المبتلَيْنَ بزخارفِ الدُّنيا[4].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٢٧).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٥٣٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٤).

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن نظرِه هذا الذي أوصَله إلىٰ الكفرِ بربِّه أخذُه بالعذابِ، أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقولِه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾(١).

دلَّتِ الفاءُ علىٰ تعقيبِ ساعةِ خروج قارونَ في ازدهائِه، وما جرىٰ فيها مِن تمنِّي قومٍ أن يكونوا مثلَه، وما أنكَر عليهم علماؤُهم مِن غَفْلتِهم عن التنافسِ في ثوابِ الآخرة بتعجيلِ عقابِه في الدنيا بمرأىٰ مِن الذين تمنَّوْا أن يكونوا مثلَه(٢).

فلمَّا انتهَتْ بقارونَ حالةُ البَغْيِ والفخر، وازَّيَّنتِ الدنيا عنده، وكثُر بها إعجابُه: بغتَه العذابُ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾(٣).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا خُسِف به، فاستبصَر الجُهَّالُ الذين هم كالبهائمِ لا يرَوْنَ إلا المحسوساتِ: عبَّر عن حالِهم بقوله: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٢٣).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٥٩).

اعلَمْ أنَّ القومَ الذين شاهَدوا قارونَ في زينتِه لمَّا شاهَدوا ما نزَل به مِن الخَسْفِ، صار ذلك زاجرًا لهم عن حبِّ الدنيا ومخالَفةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وداعيًا إلىٰ الرضا بقضاءِ الله تعالىٰ وقِسْمتِه، وإلىٰ إظهارِ الطاعة، والانقيادِ لأنبياءِ الله ورُسلِه[1].

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّ المفلِحَ مَن تاب وآمَن وعَمِل صالحًا، وهو الذي أشار أهلُ العلمِ إلىٰ أنَّ له ثوابَ الله، وكان ذلك للآخرةِ سببًا ومسببًا، ومرَّ فيما لا بد منه حتىٰ ذكَر قصَّةَ قارونَ المعرِّفةَ - ولا بد - بأنَّ هذه الدارَ للزوالِ، لا يُغنِي فيها رجالٌ ولا مال، وأنَّ الآخرةَ للدوام، وأمَر فيها بأن يُحسَنَ الابتغاءُ في أمرِ الدنيا، وختَم بأنَّ هذا الفلاحَ مسلوبٌ عن الكافرين؛ فكان موضعَ استحضارِ الآخرة، مع أنَّه قدَّم قريبًا مِن ذِكْرِها وذكرِ موافقتِها ما ملأ به الأسماعَ، فصيَّرها حاضرةً لكلِّ ذي فهمٍ، معظَّمةً عند كلِّ ذي علمٍ: أشار إليها سبحانه فقال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

انتهَتْ قصَّةُ قارونَ بما فيها مِن العِبَرِ مِن خيرٍ وشرٍّ، فأُعقِبتْ باستئنافِ كلامٍ عن الجزاءِ علىٰ الخيرِ، وضِدِّه في الحياةِ الأبديَّة، وأنَّها مُعدَّةٌ للذين حالُهم بضدِّ حالِ قارونَ، مع مناسبةِ ذِكْرِ الجنَّةِ بعنوانِ الدار لذِكْرِ الخَسْفِ بدارِ قارونَ؛ للمقابَلةِ بَيْنَ دارٍ زائلةٍ، ودارٍ خالدةٍ[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٧١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٩).

لمَّا كان مِن قولِ أهلِ العلم والإيمان: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، ذكر محلَّ الثوابِ؛ وهو الدارُ الآخرة[١].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ مقابِلِ حالِ قارونَ مِن حالِ خُلَّصِ عبادِه بقولِه سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ قارونَ وما أُوتيَه مِن الدنيا، وما صار إليه عاقبةُ أمرِه، وأنَّ أهلَ العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: رغَّب تعالىٰ في الدارِ الآخرة، وأخبَر بالسببِ الموصِّلِ إليها، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ولمَّا تحرَّر الفرقُ بَيْنَ أهلِ الدَّارين، وكان لا بد مِن إتيانِ الآخرة، وعُلِم أنَّ الآخرةَ إنَّما هي جزاءُ الأعمال، وتقرَّر مِن كونِها للخائفين أنَّها علىٰ الآمِنين، فاستُؤنِف تفصيلُ ذلك جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما لِمَن أحسَنَ ومَن أساءَ عند القدومِ؟ بقولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[٤].

تَتنزَّلُ جملةُ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ منزلةَ بدلِ الاشتمالِ لجملةِ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقبةَ ذاتُ أحوالٍ مِن الخير، ودرجاتٍ مِن النعيم، وهي علىٰ حسَبِ ما يَجيءُ به المتَّقون مِن الحسناتِ؛ فتفاوتُ درجاتِهم بتفاوتِها[٥].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٣٠).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٥٣٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٢٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٧٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الدارَ الآخرة ليست لِمَن يريدُ علوًّا في الأرض ولا فسادًا، بل هي للمتَّقِين: بيَّن بعد ذلك ما يحصُلُ لهم، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾(١).

📖 ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ 📖

ولمَّا قرَّر ذِكْرَ الآخرةِ التي هي المَرجِعُ وكرَّره، وأثبَت الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمتَّقِين: أتبَعه ما هو في بيانِ ذلك كالعلَّةِ، فقال مستأنِفًا مقرِّرًا مؤكِّدًا لِما تقرَّر في أذهانِهم مِن إنكارِ الآخرة، وما يقتضيه حالُ خروجِه ﷺ مِن مكَّةَ المشرَّفةِ مِن استبعادِ رَدِّهِ إليها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(٢).

ابتداءُ كلامٍ للتَّنويهِ بشأنِ محمَّدٍ ﷺ، وتثبيتِ فؤاده، ووعدِهِ بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلال رسالتَهُ لا يَضِيرُه؛ لأنَّ اللهَ أعلَمَ بأنَّه علىٰ هُدًىٰ وأنَّهم علىٰ ضلالٍ بعد أن قدَّم لذلك مِن أحوالِ رسالةِ موسىٰ عليه السلام ما فيه عِبْرةٌ بالمقارنةِ بَيْنَ حالَي الرَّسولَين، وما لَقِيَاه مِن المُعرِضين(٣).

ثم إنَّه سبحانه لمَّا شرَح لرسولِه ﷺ أمرَ القيامةِ، واستقصىٰ في ذلك: شرَح له ما يتصلُ بأحوالِه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٧٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩).

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ لكلِّ مَن أنصَف: هم في ضلالٍ مبينٍ؛ لأنَّهم يَنحِتون مِن عندِ أنفسِهم ما لا دليلَ عليه، وأنت جئتَ بالهدىٰ؛ لأنَّك أتيتَ به عن اللهِ: بُنِيَ عليه قولُه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ باعتبارِ ما تضمَّنتْهُ مِن الوعدِ بالثَّواب الجزيلِ، أو بالنَّصر المبين[2].

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّواني في النَّهي عن المنكرِ إعراضًا عن الأوامرِ، وإن كان المتواني مجتهدًا في العملِ: قال مؤكِّدًا -تنبيهًا علىٰ شدَّةِ الأمرِ؛ لكثرةِ الأعداء، وتتابُعِ الإيذاءِ والاعتداء-: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، وما عُطِف عليها، وما تخلَّل بينهما ممَّا اقتضىٰ جميعُه الوعدَ بنصرِه، وظهورِ أمرِه، وفوزِه في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّه جاءَ مِن اللهِ إلىٰ قومٍ هم في ضلالٍ مبينٍ، وأنَّ الذي رَحِمه فآتاه الكتابَ علىٰ غيرِ ترقُّبٍ منه لا يَجعَلُ أمرَه سُدًىٰ؛ فأعقَب ذلك بتحذيرِه مِن أدنىٰ مظاهَرةٍ للمشركين؛

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٨٠).

فإنَّ فِعْلَ الكونِ لمَّا وقَع في سياقِ النَّهي، وكان سياقُ النَّهيِ مثلَ سياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ النَّهيَ أخو النَّفيِ في سائرِ تصاريفِ الكلام: كان وقوعُ فعلِ الكونِ في سياقِه مفيدًا تعميمَ النَّهيِ عن كلِّ كونٍ مِن أكوانِ المظاهَرة للمشركين(١).

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا كان الكائنُ مِن قومٍ موصوفًا بما اتَّصَف به كلٌّ منهم، وكانت مشارَكتُهم بالفعلِ أبعَدَ مِن مشاركتِهم بالسُّكوت: قال مِن غيرِ تأكيدٍ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

هذا النهيُ موجَّهٌ إلى النبيِّ ﷺ في الظاهر، والمقصودُ به إبطالُ الشِّرك، وإظهارُ ضَلالِ أهلِه إذ يزعُمون أنَّهم معترفون بإلهيَّةِ اللهِ تعالى، وأنَّهم إنَّما اتخذوا له شركاءَ وشفعاءَ؛ فبيَّن لهم أنَّ اللهَ لا إلهَ غيرُه، وأنَّ انفرادَه بالإلهيَّةِ في نفسِ الأمر يَقضِي ببطلانِ الإشراكِ في الاعتقادِ، ولو أضعَفَ إشراكٍ؛ فجملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في معنى العلةِ للنهيِ الذي في الجملةِ قبلها(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤-١٩٥).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٨١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٦-١٩٧).

سورة العنكبوت

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③﴾

ولمَّا كان التَّأسِّي مِن سُنَنِ الآدميِّين، توقَّع المخاطبُ بهذا الأمرِ الخبرَ عن حالِهم في ذلك، فقال مؤكِّدًا لِمَن يظنُّ أنَّ الابتلاءَ لا يكونُ؛ لأنَّ اللهَ غنيٌّ عنه فلا فائدةَ فيه، جاهلًا بما فيه مِن الحِكْمةِ بإقامةِ الحجَّةِ علىٰ مقتضىٰ عوائدِ الخَلْقِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(1)].

انتقالٌ إلىٰ التَّنويهِ بالفتونِ لأجلِ الإيمان بالله بأنَّه سُنَّةُ اللهِ في سالفِ أهلِ الإيمان، وتأكيدُ الجملةِ بلامِ القَسَمِ وحرفِ التَّحقيق لتنزيلِ المؤمنين حين استعظَموا ما نالهم مِن الفتنةِ مِن المشركين، واستبطَؤوا النَّصرَ علىٰ الظالمين، وذهولهم عن سُنَّةِ الكونِ في تلك الحالةِ: منزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ مَن يخالِفُ الدَّهْماءَ في ضَلالِهم ويَتجافىٰ عن أخلاقِهم ورُذَالتِهم لا بد أن تَلحَقَه منهم فتنةٌ؛ والمقصودُ التَّذكيرُ بما لَحِق صالحِي الأُمَمِ السَّالفة مِن الأذىٰ والاضطهادِ[(2)].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حالٌ مِن النَّاسِ، أو مِن ضميرِ ﴿يُفْتَنُونَ﴾، وعلىٰ الأولِ يكون علَّةً لإنكارِ الحِسْبانِ؛ أي: أحَسِبوا ذلك وقد عَلِموا أنَّ سُنَّةَ الله تعالىٰ علىٰ

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠٤).

خلافِه، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تعالىٰ تبديلًا، وعلىٰ الثاني بيانًا لأنَّه لا وجهَ لتخصيصِهم بعدمِ الافتتان؛ وحاصلُه أنَّه علىٰ الأولِ تنبيهٌ علىٰ الخطأِ، وعلىٰ الثاني تخطئةٌ[(١)].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا أثبَت سبحانه بهذا عِلْمَه الشاملَ، وقُدْرتَه التَّامةَ في الدُّنيا: عادَله بما يستلزِمُ مثلَ ذلك في الآخرةِ؛ فكان حاصلُ ما مضىٰ مِن الاستفهامِ: أحَسِبَ الناسُ أنَّا لا نَقدِرُ عليهم ولا نَعلَم أحوالَهم في الدُّنيا، أم حَسِبوا أنَّ ذلك لا يكونُ في الأخرىٰ؛ فيَذهَبَ ظُلْمُهم في الدُّنيا وتَرْكُهم لأمرِ الله وتكبُّرُهم علىٰ عبادِه مجَّانًا، فيكونَ خَلْقُنا لهم عبثًا لا حِكْمةَ فيه، بل الحكمةُ في تَرْكِه؟! وهذا الثاني هو معنىٰ قولِه منكِرًا: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾، أو يكون المعنىٰ: أنَّه لمَّا أنكَر علىٰ الناس عمومًا ظَنَّهم الإهمالَ، عُلِم أنَّ أهلَ السَّيئاتِ أَوْلىٰ بهذا الحكمِ؛ فكان الإنكارُ عليهم أشدَّ، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[(٢)].

أُعقِبَ تثبيتُ المؤمنين علىٰ ما يُصِيبُهم مِن فتونِ المشركين وما في ذلك مِن الوعدِ والوعيد بزَجْرِ المشركين علىٰ ما يَعمَلونه مِن السيئاتِ في جانبِ المؤمنين، وأعظَمُ تلك السيِّئاتِ فُتُونُهم المسلمين؛ فالمرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: الفاتنون للمؤمنين، وهذا ووعيدهم بأنَّ اللهَ لا يُفلِتُهم، وفي هذا أيضًا زيادةُ تثبيتٍ للمؤمنين بأنَّ اللهَ ينصُرُهم مِن أعدائهم[(٣)].

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٣٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٩١-٣٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠٦).

لمَّا بيَّن حُسْنَ التكليفِ بقوله: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ ﴾، بيَّن أنَّ مَن كُلِّف بشيءٍ ولم يأتِ به يُعذَّب، وإن لم يُعذَّبْ في الحالِ، فسيُعذَّب في الاستقبالِ، ولا يفُوتُ اللهَ شيءٌ في الحال، ولا في المآل(١).

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ ﴾

ولمَّا خوَّف عبادَه المحسِنين والمسِيئين، وضرَبهم بسَوْطِ القهرِ أجمعين: أشار إلىٰ التَّلويحِ بتهديدِ الكاذبين في التَّصريحِ بتشويقِ الصَّادقين، فقال علىٰ سبيل الاستنتاجِ ممَّا مضىٰ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢).

هذا مسُوقٌ للمؤمنين خاصَّةً؛ لأنَّهم الذين يرجون لقاءَ الله؛ فالجملةُ مفيدةُ التَّصريحَ بما أومأ إليه قولُه: ﴿أَن يَسْبِقُونَا ﴾ مِن الوعدِ بنَصْرِ المؤمنين علىٰ عدوِّهم، مبيِّنةٌ لها؛ ولذلك فُصِلت، ولولا هذا الوقعُ، لكان حقُّ الإخبارِ بها أن يَجيءَ بواسطةِ حرفِ العطف؛ والمقصودُ الاهتمامُ بالتَّحريضِ علىٰ الاستعداد(٣).

لمَّا بيَّن بقولِه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾ أنَّ العبدَ لا يُتركُ في الدُّنيا سُدًىٰ، وبيَّن في قولِه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أنَّ مَن ترَك ما كُلِّف به يُعذَّب كذا: بيَّن أنَّ مَن يعترِفُ بالآخرةِ ويَعمَلُ لها لا يَضِيعُ عمَلُه، ولا يَخِيبُ أمَلُه(٤).

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

ولمَّا حَثَّ علىٰ العملِ، بيَّن أنَّه ليس إلا لنفعِ العاملِ؛ لئلا يخطُرَ في خاطرٍ ما يوجِبُ تعَبَ الدُّنيا وشقاءَ الآخرة؛ مِن اعتقادِ ما لا يَلِيقُ بجلالِه تعالىٰ، فقال عاطفًا علىٰ ما

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٧).

تقديرُه: فمَن أراح نفسَه في الدنيا، فإنَّما ضَرَّ نفسَه، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

لمَّا بيَّن أنَّ التَّكليفَ حسَنٌ واقعٌ، وأنَّ عليه وعدًا وإيعادًا ليس لهما دافعٌ: بيَّن أنَّ طلَبَ اللهِ ذلك مِن المكلَّفِ ليس لنفعٍ يعودُ إليه؛ فإنَّه غنيٌّ مطلقًا، ليس شيءٌ غيرُه يتوقَّفُ كمالُه عليه[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فالذين كفَروا وعَمِلوا السَّيئاتِ لنَجْزِيَنَّهم أجمعين، ولكنَّه طَواه؛ لأنَّ السِّياقَ لأهلِ الرَّجاء: عطَف عليه قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(٣)].

يجوز أن يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾؛ لِما تضمَّنتْهُ الجملةُ المعطوفُ عليها مِن التَّهديدِ والوعيد، فعطَف عليها ما هو وعدٌ وبِشارةٌ للذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ مع ما أفضى إلى ذِكْرِ هذا الوعدِ مِن قولِه قَبْلَه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾؛ فإنَّ مضمونَ جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ يفيدُ بيانَ كونِ جهادِ مَن جاهَد لنفسِه، ويجوز أن تكونَ عطفًا على جملةِ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾، وسُلِك بها طريقُ العطف باعتبارِ ما أومأ إليه الموصولُ وصِلتُه؛ مِن أنَّ سببَ هذا الجزاءِ الحسَنِ هو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصالحات، وهو على الوجهِ إظهارٌ في مقامِ الإضمار لنُكْتةِ هذا الإيماءِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢١١).

لمَّا بيَّن إجمالًا أنَّ مَن يعمَل صالحًا فلنفسِه، بيَّن مفصلًا بعضَ التفصيل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أنَّه لا بد مِن الفتنةِ، وحذَّر مَن كفَر، وبشَّر مَن صبَر: قال عاطفًا على ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ مشيرًا إلى تعظيمِ حُرْمةِ الوالدِ؛ حيث جعَلها في سياقِ تعظيم الخالق، وإلى أنَّها أعظَمُ فتنةٍ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

لم يترُكِ القرآنُ فاذَّةً مِن أحوالِ علائقِ المسلمين بالمشركين إلا بيَّن واجبَهم فيها المناسِبَ لإيمانهم، ومِن أشدِّ تلك العلائقِ علاقةُ النَّسَب؛ فالنَّسبُ بَيْنَ المشركِ والمؤمن يستدعي الإحسانَ، وطِيبَ المعاشرة، ولكنَّ اختلافَ الدِّين يستدعي المناوأةَ والمغاضَبة، ولا سيَّما إذا كان المشركون متصلِّبين في شِرْكِهم، ومُشفِقِين مِن أن تأتيَ دعوةُ الإسلامِ على أساسِ دِينِهم؛ فهُمْ يُلحِقون الأذى بالمسلمين؛ ليُقلِعوا عن متابعةِ الإسلام؛ فبيَّن اللهُ بهذه الآيةِ ما على المسلمِ في معاملةِ أنسبائه مِن المشركين، وخَصَّ بالذِّكرِ منها نسَبَ الوالدَينِ؛ لأنَّه أقربُ نَسَبٍ، فيكونُ ما هو دُونَه أَوْلى بالحُكْمِ الذي يُشرَع له(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢١٢).

لمَّا بيَّن اللهُ حُسْنَ التَّكاليفِ ووقوعَها، وبيَّن ثوابَ مَن حقَّق التَّكاليفَ أصولَها وفروعَها -تحريضًا للمكلَّفِ على الطاعةِ-: ذكَر المانعَ، ومنَعه مِن أن يختارَ اتِّباعَه، فقال: الإنسانُ إنِ انقادَ لأحدٍ ينبغي أن ينقادَ لأبويه، ومع هذا لو أمَرَاه بالمعصيةِ، لا يجوز اتِّباعُهما، فضلًا عن غيرِهما؛ فلا يَمنَعَنَّ أحدَكم شيءٌ مِن طاعةِ الله، ولا يتَّبِعَنَّ أحدٌ مَن يأمُرُ بمعصيةِ الله(١).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فالذين أشرَكوا وعَمِلوا السيئات لنُدخِلَنَّهم في المفسِدين، ولكنَّه طوَاه؛ لدَلالةِ السِّياق عليه: عطَف عليه -زيادةً في الحثِّ على الإحسانِ إلى الوالدَينِ- قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢).

جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تصريحٌ ببعضِ ما أفادته الكنايةُ التي في قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ اهتمامًا بجانبِ جزاءِ المؤمنين، وقد أُشِيرَ إلى شرَفِ هذا الجزاءِ بأنَّه جزاءُ الصالحين الكاملين(٣).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾

ولمَّا كانت ترجمةُ ما مضى مِن قِسْمِ الرَّاجي والمجاهِدِ والعاملِ للصالح؛ فمِن الناسِ - كما أُشِيرَ إليه - مَن يؤمنُ بالله، فإذا أُوذيَ في اللهِ صبَر واحتسَب انتظارًا للجزاءِ مِن العليِّ الأعلى، ولكنَّه حذَف مِن كلِّ جملةٍ ما دلَّ عليه بما ذكَر في

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣١).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢١٥).

الأخرىٰ: عطف عليه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾(١).

أقسامُ المكلَّفين ثلاثةٌ: مؤمنٌ ظاهر بحُسْنِ اعتقادِه، وكافرٌ مجاهِر بكفرِه وعنادِه، ومذبذَبٌ بينهما يُظهِرُ الإيمانَ بلسانِه ويُضمِرُ الكفرَ في فؤادِه، واللهُ تعالىٰ لمَّا بيَّن القِسْمَينِ وبيَّن أحوالَهما، بيَّن القسمَ الثالث، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه لا بد أن يمتحِنَ مَن ادَّعىٰ الإيمانَ؛ ليَظهَرَ الصادقُ مِن الكاذبِ: بيَّن تعالىٰ أنَّ مِن الناس فريقًا لا صبرَ لهم علىٰ المِحَنِ، ولا ثباتَ لهم علىٰ بعضِ الزلازلِ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾(٣).

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١ ﴾

ولمَّا أنكَر عدمَ العلمِ، صرَّح بالعلمِ، فقال واعدًا متوعِّدًا، عاطفًا علىٰ ما أفهَمَه السِّياقُ مِن نحوِ: فقد علِم اللهُ جميعَ ما أخفَوْا وما أعلَنوا: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾(٤).

لمَّا بيَّن أنَّه أعلَمُ بما في قلوبِ العالَمين، بيَّن أنَّه يَعلَمُ المؤمنَ المُحِقَّ وإن لم يَتكلَّمْ، والمنافِقَ وإن تكلَّم، فقال: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٣).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٢٧).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٥).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للفتنةِ والأذىٰ في اللهِ، وكان الكفارُ يَفتِنون مَن أسلَمَ في أولِ الأمرِ: ذكَر سبحانه بعضَ ما كانوا يقولون لهم عند الفتنةِ جهلًا بالله وغرورًا، فقال معجِّبًا منهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾(١).

هذا غرَضٌ آخَرُ مِن أغراضِ مخالَطةِ المشركين مع المؤمنين؛ وهو محاولةُ المشركين ارتدادَ المسلمين بمحاوَلاتِ فتنةٍ بالشَّك والمغالَطةِ لِلَّذين لم يَقدِروا علىٰ فتنتِهم بالأذىٰ والعذابِ: إمَّا لعِزَّتِهم وخشيةِ بأسِهم؛ مثل عمرَ بن الخطاب، فقد قيل: إنَّ هذه المقالةَ قِيلَتْ له، وإمَّا لكثرتِهم حين كثُرَ المسلمون، وأعيَتِ المشركين حِيَلُ الصدِّ عن الإسلام(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ الفِرَقَ الثلاثة وأحوالَهم، وذكَر أنَّ الكافرَ يدعو مَن يقولُ: «آمنتُ» إلىٰ الكفرِ بالفتنة، وبيَّن أنَّ عذابَ اللهِ فوقَها، وكان الكافرُ يقولُ للمؤمن: تَصبِرُ في الذلِّ وعلىٰ الإيذاءِ لأيِّ شيءٍ؟ ولِمَ لا تَدفَعُ عن نفسِك الذلَّ والعذابَ بموافَقتِنا؟ فكان جوابَ المؤمنِ أن يقول: خوفًا مِن عذابِ الله علىٰ خطيئةِ مذهبكم، فقالوا: لا خطيئةَ فيه، وإن كان فيه خطيئةٌ، فعلينا(٣).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ بيانٌ لحَمْلِهم للمؤمنين علىٰ الكفرِ بالاستمالةِ بعد بيانِ حَمْلِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيد(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٠-٤٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٢).

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان كلُّ مَن أسلَكَ أحدًا طريقًا، كان شريكَه في عمَلِه فيها؛ فكان عليه مثلُ وِزْرِه إن كانت طريقَ رَدًى، وله مثلُ أجرِه إن كانت سبيلَ هُدًى: قال تعالى مؤكِّدًا لإنكارِهم الآخرةَ وكلَّ ما فيها: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[(١)].

بعد أن كذَّبهم في قولِهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، وكشَف كيدَهم بالمسلمين: عطَف عليه ما أفاد أنَّهم غيرُ ناجين مِن حَمْلِ تَبِعاتٍ لأقوامٍ آخَرين؛ وهم الأقوامُ الذين أضَلُّوهم، وسوَّلوا لهم الشركَ والبهتانَ على وجهِ التَّأكيد بحَمْلِهم ذلك[(٢)].

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بيانٌ لِما يستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرةِ مِن المَضرَّةِ لأنفسِهم بعد بيانِ عدمِ منفعتِه لمخاطَبِيهم أصلًا[(٣)].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للبلاءِ والامتحان، والصبرِ على الهوان، وإثباتِ عِلْمِ اللهِ وقُدْرتِه على إنجاءِ الطائع وتعذيبِ العاصي: ذكَر مِن الرُّسلِ الكرام عليهم الصلاة والسلام مَن طالَ صبرُه على البلاءِ، ولم يفتُرْ عزمُه عن نصيحةِ العباد على ما يعامِلونه به مِن الأذى؛ تسليةً لرسولِه ﷺ ولتابعيه رضي اللهُ تعالى عنهم، وتثبيتًا لهم، وتهديدًا

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢١).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٣).

لقُـريش، فقـال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[١].

سِيقَتْ هذه القصَّةُ واللاتي بعدها شواهدَ علىٰ ما لَقِيَ الرُّسلُ والذين آمَنوا معهم مِن تكذيبِ المشركين[٢].

وجهُ تعلُّقِ الآيةِ بما قبلها: هو أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن التَّكليفَ، وذكَر أقسامَ المكلَّفين، ووعَد المؤمنَ الصادق بالثوابِ العظيم، وأوعَد الكافرَ والمنافق بالعذابِ الأليم، وكان قد ذكَر أنَّ هذا التكليفَ ليس مختصًّا بالنبي ﷺ وأصحابِه وأمَّتِه حتىٰ صعُبَ عليهم ذلك، بل قَبْلَه كان كذلك؛ فذكَر مِن جملةِ مَن كُلِّف جماعةً؛ منهم: نوحٌ النبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومُه، ومنهم: إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيرُهما[٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ شروعٌ في بيانِ افتتانِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأذيَّةِ أُمَمِهم إثرَ بيانِ افتتانِ المؤمنين بأذيَّةِ الكفار؛ تأكيدًا للإنكارِ علىٰ الذين يَحسَبون أن يُتركوا بمجرَّدِ الإيمانِ بلا ابتلاءٍ، وحثًّا لهم علىٰ الصبرِ[٤].

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

ودلَّ عليهم مسببًا عن ذلك بقولِه: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٣).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٥).

فـاءُ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ عطـفٌ علـىٰ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾؛ وهـذا إيمـاءٌ إلـىٰ أنَّ اللهَ منجي المؤمنين مِن العذابِ[١].

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾

ولمَّا كان بلاءُ إبراهيمَ عليه السلام عظيمًا في قَذْفِه في النارِ وإخراجِه مِن بلادِه، أتبَعه به، فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٢].

انتقَل مِن خبَرِ نـوحٍ عليه السلام إلـىٰ خبَـرِ إبـراهيمَ عليه السلام؛ لمناسَبةِ إنجاءِ إبراهيمَ مِن النار كإنجاءِ نوحٍ مِن الماء، وفيه تنبيهٌ إلىٰ عِظَمِ القدرةِ؛ إذ أنجَتْ مِن الماءِ، ومِن النار[٣].

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾

ولمَّا أمَرهم بما تقدَّم، ونفىٰ العلمَ عمَّن جهِل خيريَّتَه: دلَّ عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾[٤].

جملةُ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ تعليلٌ لجملة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٤).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٤).

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ بيانٌ لبطلانِ دِينِهم وشَرِّيَّته في نفسِه بعد بيانِ شَرِّيَّته بالنسبةِ إلىٰ الدِّينِ الحق(١).

فلمَّا أمَرهم بعبادةِ الله وتَقْواه، نهاهم عن عبادةِ الأصنام، وبيَّن لهم نقصَها وعدمَ استحقاقِها للعبوديةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(٢).

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فإن تصدِّقوا، فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرةِ: عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾(٣).

يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ مِن بقيَّةِ مقالةِ إبراهيمَ عليه السلام بأن يكونَ رأىٰ منهم مخائلَ التَّكذيبِ، ففرَض وقوعَه، أو يكونَ سبَق تكذيبُهم إيَّاه مقالتَه هذه، فيكونَ الغرَضُ مِن هذه الجملةِ لازِمَ الخبَرِ؛ وهو أنَّ تكذيبَهم إيَّاه ليس بعجيبٍ، فلا يَضيرُه، ولا يَحسَبوا أنَّهم يَضِيرونه به، ويَتشفَّوْنَ منه؛ فإنَّ ذلك قد انتاب الرُّسلَ قبله مِن أُمَمِهم(٤).

لمَّا فرَغ مِن بيانِ التَّوحيدِ، أتىٰ بعده بالتَّهديدِ، فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤١٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٩).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ألم ترَوْا إلىٰ مَصارِعِهم، واتِّساق الحالِ في أمرِهم؛ فيكفيكم ذلك زاجرًا؟!: عطَف عليه -للدَّلالةِ علىٰ الرُّجوعِ إليه منكرًا- قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(١).

يَجري هذا الكلامُ علىٰ الوجهَينِ المذكورين في قولِه: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾، ويَترجَّحُ أنَّ هذا مسُوقٌ مِن جانبِ الله تعالىٰ إلىٰ المشركين، ومناسَبةُ التعرُّضِ لهذا هو ما جرَىٰ مِن الإشارةِ إلىٰ البعث في قولِه: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾؛ تنظيرًا لحالِ مشركي العربِ بحالِ قومِ إبراهيمَ(٢).

لمَّا بيَّن الأصلَ الأول -وهو التَّوحيدُ-، وأشار إلىٰ الأصلِ الثاني -وهو الرسالةُ- بقولِه: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٨ ﴾: شرَع في بيانِ الأصلِ الثالث؛ وهو الحشرُ(٣).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ مِن جهتِه تعالىٰ للإنكارِ علىٰ تكذيبهم بالبعثِ مع وضوحِ دليلِه، وسُنُوحِ(٤) سبيلِه(٥).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ ﴾

ولمَّا ساق العزيزُ الجليل هذا الدَّليلَ عمَّا حاجَّ به قومَه الخليلُ، انتُهِزت الفرصةُ في إرشادِ نبيِّه إسماعيلَ عليهما الصلاةُ والسلام والتَّحيَّةُ والإكرام؛ وذلك أنَّه لمَّا استدَلَّ

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٣٩).

(٤) أي: ظهور ومرور.

(٥) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٥).

عليه السلام على الوَحْدانيَّة المستلزِمة للقدرةِ على المَعاد بإبطالِ إلهيَّةِ معبوداتهم المستلزِمِ لإبطالِ كلِّ ما شاكَلها، فحصَل الاستعدادُ للتَّصريحِ بأمر المَعاد، فصرَّح به: كان ذلك فخرًا عظيمًا، ومفصلًا بيِّنًا جسيمًا؛ لإقامةِ الحجَّةِ على قُرَيشٍ وسائرِ العرب، فانتُهِزت فرصتُه، واقتُحِمت لُجَّتُه؛ كما هي عادةُ البلغاء، ودأبُ الفُصَحاء الحُكَماء؛ لأنَّ ذلك كلَّه إنَّما سِيقَ تسليةً للنبي ﷺ، ووعظًا لقومِه، فقيل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

اعتراضٌ انتقاليٌّ مِن الإنكارِ عليهم تَرْكَ الاستدلالِ بما هو بمرأىً منهم، إلى إرشادِهم للاستدلال بما هو بعيدٌ عنهم مِن أحوالِ إيجادِ المخلوقات، وتعاقُبِ الأُمَمِ، وخَلْفِ بعضِها عن بعضٍ؛ فإنَّ تعوُّدَ الناسِ بما بَيْنَ أيديهم يَصرِفُ عقولَهم عن التَّأمُّلِ فيما وراء ذلك مِن دلائلِ دقائقِها على ما تدلُّ عليه؛ فلذلك أمَر اللهُ رسولَه أن يدعوَهم إلى السَّيرِ في الأرض؛ ليشاهِدوا آثارَ خَلْقِ اللهِ الأشياءَ مِن عدمٍ، فيُوقِنوا أنَّ إعادتَها بعد زوالِها ليس بأعجَبَ مِن ابتداءِ صُنْعِها(٢).

ثم أمَر سبحانه إبراهيمَ عليه السلام أن يأمرَ قومَه بالمسيرِ في الأرضِ؛ ليَتفكَّروا ويَعتبِروا، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾

ولمَّا ثبَت ذلك، أنتَج لا محالةَ قولَه - مهدِّدًا بعد البيانِ الذي ليس بعده إلا العنادُ -: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤١٥-٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤١٨).

لمَّا ذكَر النَّشأة الآخِرةَ، أتبَع ذِكْرَها بذِكْرِ أهمِّ ما تشتمِلُ عليه، وما أُوجِدتْ لأجلِه؛ وهو الثوابُ، والعقاب(١).

جملةٌ مستأنَفةٌ لبيانِ ما بعد النَّشأةِ الآخِرة(٢).

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ ﴾

ولمَّا لم يَبقَ للقدرةِ على إعادتهم مانعٌ يُدَّعى إلا ممانَعتُهم منها، أبطَلها على تقديرِ ادِّعائهم لها، فقال: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾(٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ باعتبارِ ما تضمَّنَتْهُ مِن الوعيد(٤).

لمَّا ذكَر اللهُ التَّعذيبَ والرحمة، وهما قد يكونانِ عاجلَينِ، فقال تعالى: فإن تأخَّر عنكم ذلك، فلا تظنُّوا أنَّه فاتَ؛ فإنَّ إليه إيابَكم، وعليه حسابَكم، وعنده يُدَّخَرُ ثوابُكم وعقابُكم؛ ولهذا قال بعدها: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾(٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فالذين آمَنوا بآياتِ ربِّهم ولقائه أولئك يَرجُون رحمتي، وأولئك لهم نعيمٌ مقيمٌ، وكان قد أمَرهم بالاستدلال، وهدَّدهم ليَرجِعوا عن الضَّلال،

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣١).
(٢) روح المعاني (١٠/ ٣٥٣).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤١٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٢).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٤٢).

بما أبقىٰ للرجاء بعضَ المحال: أتبَعه ما قطَعه، فقال عاطفًا علىٰ ذلك المقدَّر: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(١).

بيانٌ لِما في قوله: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾، وإنَّما عُطِف لِما فيه مِن زيادةِ الإخبار بأنَّهم لا ينالُهم اللهُ برحمةٍ، وأنَّه يُصِيبُهم بعذابٍ أليم(٢).

لمَّا بيَّن الأصلَينِ التَّوحيدَ والإعادة، وقرَّرهما بالبرهانِ، وهدَّد مَن خالَفه علىٰ سبيلِ التَّفصيل، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(٣).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾

ولمَّا ختَم سبحانه هذه الجملةَ الاعتراضيَّة بما ابتدأها به، وبما ختَم به ما قبلها مِن كلامِ الخليل عليه السلام، وزاد هذا ما ترىٰ مِن التَّهديدِ الشَّديد: شرَع في إكمالِ قصَّتِه عليه السلام دالًّا علىٰ أنَّه لا أحدَ يُعجِزُه، ولا يَقدِرُ علىٰ نصرِ أحدٍ مِن عذابِه الأليم، مشيرًا إلىٰ أنَّهم سبَّبوا عن قولِه ضدَّ ما يقتضيه إيذانًا بالعنادِ، والإصرارِ علىٰ سُوءِ الاعتقاد، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٤).

لمَّا تمَّ الاعتراضُ الواقع في خلالِ قصَّة إبراهيمَ عليه السلام، عاد الكلامُ إلىٰ بقيَّةِ القصَّةِ بذِكْرِ ما أجابه به قومُه(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٤٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٤).

لمَّا أتىٰ إبراهيمُ عليه السلام ببيانِ الأصولِ الثلاثة، وأقام البرهانَ عليه: بَقِيَ الأمرُ مِن جانبِهم: إمَّا الإجابة، أو الإتيان بما يصلُحُ أن يكونَ جوابَه، فلم يأتوا إلا بقولِهم: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾[(١)].

لمَّا أمَرهم بعبادةِ الله، وبيَّن سَفَهَهم في عبادةِ الأوثان، وظهَرتْ حُجَّتُه عليهم: رجَعوا إلىٰ الغلَبةِ، فجعَلوا القائمَ مقامَ جوابِه فيما أمَرهم به قولَهم: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾، والآمِرون بذلك: إمَّا بعضُهم لبعض، أو كُبَراؤهم قالوا لأتباعهم: اقتُلوه، فتَستريحوا منه عاجلًا، أو حرِّقوه بالنارِ، فإمَّا أن يَرجِعَ إلىٰ دِينِكم إذا أمضَتْهُ النارُ، وإمَّا أن يموتَ بها إن أصَرَّ علىٰ قولِه ودِينِه[(٢)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ ما أجاب به قومُ إبراهيمَ بعد دَعْوتِه إيَّاهم، وعِظاتِه البالغةِ، بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[(٣)].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾

ولمَّا تقدَّم سَلْبُه النَّفعَ عن هذه الأوثانِ، أشار هنا إلىٰ نفعٍ يُعقِبُ مِن الضُّرِّ ما لا نسبةَ له منه، فليس حينئذٍ بنفعٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٤٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٥١).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥٥١).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٢).

يجوز أن تكونَ مقالتُه هذه سابقةً على إلقائِه في النار، وأن تكونَ بعد أن أنجاه اللهُ مِن النار، والأظهَرُ مِن ترتيبِ الكلام أنَّها كانت بعد أن أنجاه اللهُ مِن النار، أراد به إعلانَ مكابَرتِهم الحقَّ، وإصرارِهم على عبادةِ الأوثان بعد وضوحِ الحُجَّةِ عليهم بمعجزةِ سلامتِه مِن حرقِ النار(١).

لمَّا خرَج إبراهيمُ مِن النارِ، عادَ إلى عَذْلِ الكفارِ، وبيانِ فسادِ ما هم عليه، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٢).

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا كان في سياقِ الابتلاء، وذكَر مِن الأنبياءِ مَن طال ابتلاؤه: بيَّن أنَّه لم يكُنْ لهم مِن أُمَمِهم تابعٌ يَقدِرُ على نصرِهم، وأنَّ اللهَ سبحانه تولَّى كِفايتَهم؛ فلم يَقدِرْ واحدٌ على إهلاكِهم، وأهلَكَ أعداءَهم؛ فلم يكُنْ لهم مِن ناصرينَ، فقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣).

جملةٌ معترِضة بَيْنَ الإخبارِ عن إبراهيمَ عليه السلام اعتراضَ التفريعِ، وأفادت الفاءُ مبادرةَ لوطٍ عليه السلام بتصديقِ إبراهيمَ عليه السلام(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٧).

ثم إنَّ لوطًا لمَّا رأىٰ معجزتَه، آمَن برسالتِه، وأمَّا بالوحدانيَّةِ، فآمَن حيث سَمِع حُسْنَ مقالتِه، وإليه أشار بقولِه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[(١)].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأعزَزْناه كما ظَنَّ بنا إعزازًا أحكَمْناه حتىٰ استمَرَّ في عَقِبِه إلىٰ القيامةِ، عطَف عليه قولَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٢)].

هذا الكلامُ عُقِّبتْ به قصَّةُ إبراهيمَ عليه السلام؛ تِبْيانًا لفضلِه؛ إذ لا عَلاقةَ له بالقصَّة[(٣)].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان - كما مضىٰ - السِّياقُ للابتلاءِ، خُصَّ بالبَسْطِ في القصَّةِ مَن لم يكُنْ له ناصرٌ مِن قومِه، أو كان غريبًا منها؛ ولذلك أتبَعَ الخليلَ عليه الصلاة والسلام ابنَ أخيه، الذي أرسَله اللهُ إلىٰ أهلِ سَدُومَ: ناسٍ لا قرابةَ له فيهم، ولا عشيرةَ، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٤)].

الانتقالُ مِن رسالةِ إبراهيمَ عليه السلام إلىٰ قومِه إلىٰ رسالةِ لوطٍ عليه السلام؛ لمناسبةِ أنَّه شابَهَ إبراهيمَ عليه السلام في أن أنجاه اللهُ مِن عذابِ الرِّجْزِ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٩).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٩).

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾

ثم كرَّر الإنكارَ تأكيدًا لتجاوُزِ قُبْحِها الذي يُنكِرونه، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[1].

واستفهَمَ أولًا وثانيًا استفهامَ إنكارٍ وتوبيخ وتقريع، وبيَّن ما تلك الفاحشةُ المُبهمَة في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بقولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[2].

ثم بيَّن سبحانه هذه الفاحشةَ، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[3].

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ٣٠﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: بِمَ أجابهم؟ قيل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[4].

ثم استنصَر لوطٌ عليه السلام ربَّه عليهم؛ فبعَث ملائكةً لعذابِهم، ورجَمَهم بالحاصبِ. وإفسادُهم بحَمْلِ الناسِ على ما كانوا عليه مِن المعاصي طوعًا وكَرْهًا، وخصوصًا تلك المعصيةَ المبتدَعة[5].

فأَيِسَ منهم نبيُّهم، وعَلِم استحقاقَهم العذابَ، وجَزِع مِن شدَّةِ تكذيبِهم له؛ فدعَا عليهم، و﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٥٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٩).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٥٤).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٦٣٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فاستجَبْنا له، فأرسَلْنا رُسُلَنا بُشْرَىٰ لعمِّه إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام، ولإهلاكِ قومِ لوطٍ عليه السلام؛ تحقيقًا لانتقامِنا مِن المجرِمين، وإنعامِنا على الصالحين، ولابتلائِنا لِمَن نريدُ مِن عبادِنا؛ حيث جعَلْنا النِّذارةَ مقارِنةً للبِشارة: عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[(1)].

لمَّا دعَا لوطٌ عليه السلام على قومِه بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، استجاب اللهُ دعاءَه، وأمَر ملائكتَه بإهلاكِهم، وأرسَلهم مبشِّرين ومنذِرين، فجاؤوا إبراهيمَ وبشَّروه بذُرِّيةٍ طيِّبة، وقالوا: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[(2)].

فأرسَل اللهُ الملائكةَ لإهلاكهم، فمَرُّوا بإبراهيمَ قبلُ، ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[(3)].

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾

ولمَّا كان السامعُ بحيث يتشوَّفُ إلىٰ معرفةِ ما كان بعد ذلك، كان كأنَّه قيل: لَمْ يَقنَعِ الخليلُ عليه السلام لخطَرِ المقامِ بهذا التلويحِ، بل ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾[(4)].

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٣٠).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٢٩).

قولُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التذكيرِ بسُنَّةِ اللهِ مع رسلِه مِن الإنجاءِ مِن العذابِ الذي يحُلُّ بأقوامهم؛ فهو مِن التعريضِ للملائكة بتخصيصِ لوطٍ ممَّن شَمِلتْهم القريةُ في حُكْمِ الإهلاك، ولوطٌ وإن لم يكُنْ مِن أهلِ القرية بالأصالة، إلا أنَّ كونَهُ بينهم يقتضي الخشيةَ عليه مِن أن يَشمَلَه الإهلاكُ؛ ولهذا ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾(١).

أمَّا إبراهيمُ عليه السلام، فلمَّا سَمِع قولَ الملائكةِ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾، أظهَرَ الإشفاقَ علىٰ لوطٍ، ونَسِيَ نفسَه وما بشَّروه، ولم يُظهِرْ بها فرَحًا، و﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٢).

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٣﴾

ولمَّا لم يَبقَ بعد هذا إلا خبرُ الرُّسلِ مع لوطٍ عليه السلام، قال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: ثم فارَقوه ومضَوْا إلىٰ المدينةِ التي فيها لوطٌ عليه السلام، مُفهِمًا بالعدولِ عن الفاءِ إلىٰ الواو أنَّ بَيْنَ المكانَين بُعْدًا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٣).

قد أشعَرَ قولُه: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أنَّ الملائكةَ يحُلُّون بالقريةِ، واقتضىٰ ذلك أن يُخبِروا لوطًا بحلولِهم بالقريةِ، وأنَّهم مرسَلون مِن عندِ اللهِ استجابةً لطلبِ لوطٍ النصرَ علىٰ قومِه، فكان هذا المجيءُ مقدَّرًا حصولُه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥١).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٤).

ثم مضوا حتى أتوا لوطًا، ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(١).

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾

ولمَّا أفهمتِ العبارةُ -كما مضى- إهلاكَهم، صرَّحوا به، فقالوا معيِّنين لنوعِه، معلِّلينَ لِما أخبَروه به، مؤكِّدين إعلامًا بأنَّ الأمرَ قد فُرِغ منه؛ قطعًا لأن يشفعَ فيهم -جريًا على عادةِ الأنبياءِ في الشَّفقةِ على أُمَمِهم-: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(٢).

جملةٌ مستأنَفة وقَعتْ بيانًا لِما في جملةِ ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ مِن الإيذانِ بأنَّ ثمة حادثًا يُخافُ منه، ويُحزَن له(٣).

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما أُشيرَ إليه بوعدِ التَّنجيةِ مِن نزولِ العذاب عليهم(٤).

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ففعَلتْ رُسُلُنا ما وعَدوه به مِن إنجائِه، وإهلاكِ جميعِ قُراهم، فترَكْناها كأن لم يسكُنْ بها أحدٌ قطُّ: عطَف عليه قولَه مؤكدًا -إشارةً إلى فضيلةِ المخاطَبين بهذه القصَّةِ مِن العربِ وغيرِهم، وأنَّه ليس بينهم وبين الهدى

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٣٩).

إلا تفكُّرُهم في أمرِهم، مع الانخلاعِ مِن الهوىٰ-: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ عَطْفَ آيةٍ علىٰ آية؛ لأنَّ قصَّةَ لوطٍ آيةٌ بما تضمَّنَتْهُ مِن الخبَرِ، وآثارُ قريةِ قومِه آيةٌ أخرىٰ بما يمكِنُ مشاهدتُه لأهلِ البصر، ويجوز أن تكونَ جملةً معترِضة في آخرِ القصَّة(٢).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كان السِّياقُ لإثباتِ يوم الدِّين، وإهلاكِ المفسدين، ولِمَن طال ابتلاؤه مِن الصالحين ولم يَجِدْ له ناصرًا مِن قومِه؛ إمَّا لغُرْبتِه عنهم، وإمَّا لقلَّةِ عشيرتِه وعدمِ أتباعِه، وكان شُعَيبٌ عليه السلام ممَّن استضعَفه قومُه، واستقلُّوا عشيرتَهُ؛ لتَسْميتِهم لهم رَهْطًا، والرهطُ ما دُونَ العشَرةِ، أو مِن سبعةٍ إلىٰ عشرةٍ، وما دُونَ السَّبعةِ إلىٰ الثلاثةِ نفرٌ، فكان عليه السلام كذلك في هذا العِدَادِ: عقَّب قصَّةَ لوطٍ بقصَّتِه عليهما السلام، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٣).

والمناسبةُ في الانتقالِ مِن قصَّةِ لوطٍ وقومِه إلىٰ قصَّةِ مَدْيَنَ ورسولِهم: أنَّ مَدْيَنَ كان مِن أبناءِ إبراهيمَ، وأنَّ اللهَ أنجاه مِن العذابِ كما أنجىٰ لوطًا(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٦).

لمَّا أتَمَّ الحكايةَ الثانيةَ علىٰ وجهِ الاختصار لفائدةِ الاعتبار، شرَع في الثالثةِ، وقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن هذا النُّصْحُ، وتعقَّبه تكذيبُهم؛ فتسبَّب عنه وتعقَّبه إهلاكُهم؛ تحقيقًا لأنَّ أهلَ السَّيئاتِ لا يَسبِقون؛ قال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[2].

ثم إنَّ قومَه كذَّبوه بعدما بلَّغ وبيَّن، فحكىٰ اللهُ عنهم ذلك بقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[3].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المقاصدِ العظيمةِ الدَّلالةِ علىٰ اتِّباع بعضِ هذه الأُمَم بعضًا في الخيرِ والشرِّ علىٰ نسَقٍ، والجري بهم في إهلاكِ المكذِّبين وإنجاءِ المصدِّقين طبقًا عن طبقٍ، وكان إهلاكُ عادٍ وثمودَ - لِما اشتهَروا به مِن قوَّةِ الأبدان، ومتانةِ الأركان - في غايةِ الغرابةِ، وكان معنىٰ ختامِ قصَّةِ مَدْيَنَ «فأهلَكْناهم»: عطَف عليه علىٰ ذلك المعنىٰ قولَه: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥٤).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥٥).
(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٦-٤٣٧).

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ أهلِ مَدْينَ وقومِ لوطٍ، أُكمِلتِ القِصَصُ بالإشارةِ إلىٰ عادٍ وثمودَ؛ إذ قد عُرِف في القرآنِ اقترانُ هذه الأُمَمِ في نسَقِ القصص، والواوُ عاطفةٌ قصَّةً علىٰ قصَّة[1].

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ٣٩﴾

ولمَّا كان فِرْعونُ ومَن ذُكِر معه مِن العُتُوِّ بمكانٍ لا يَخفَىٰ -لِما أُوتوا مِن القوةِ بالأموال والرجال-، قال: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ﴾[2].

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾

فتسبَّب عن تكذيبِهم وعصيانِهم أنَّ كلًّا منهم ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[3].

أفادتِ الفاءُ التفريعَ علىٰ الكلامِ السابق؛ لِما اشتمَل عليه مِن أنَّ الشيطانَ زيَّن لهم أعمالَهم، ومِن استكبارِ الآخَرين؛ أي: فكان مِن عاقبةِ ذلك أن أخَذهم اللهُ بذنوبِهم العظيمةِ، الناشئةِ عن تزيينِ الشيطانِ لهم أعمالَهم، وعن استكبارِهم في الأرض[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥١).

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ هذا وما بعده كالفَذْلكةِ للآيات المتضمِّنةِ تعذيبَ مَن كفَر ولم يمتثِلْ أمرَ مَن أُرسِلَ إليه(١).

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

ولكونِ شيءٍ منه لم يُغْنِ عن أحدٍ منهم شيئًا، فلم تختلَّ سُنَّةُ اللهِ في أوليائه وأعدائه في قرنٍ مِن القرون، ولا عصرٍ مِن العصور، بل جرَتْ علىٰ أقوَمِ نظامٍ، وأتقَنِ إحكامٍ: وصَل بذلك قولَهُ تعالىٰ علىٰ وجهِ الاستنتاج: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

لمَّا بُيِّنَتْ لهم الأشباهُ والأمثال مِن الأُمَم التي اتخَذتِ الأصنامَ مِن دُونِ اللهِ، فما أغنَتْ عنهم أصنامُهم لمَّا جاءهم عذابُ الله: أعقَب ذلك بضربِ المثَلِ لحالِ جميعِ أولئك، وحالِ مَن ماثَلهم مِن مشركي قُرَيش في اتخاذِهم ما يَحسَبونه دافعًا عنهم، وهو أضعَفُ مِن أن يَدفَعَ عن نفسِه؛ بحالِ العنكبوتِ: تتَّخِذُ لنفسِها بيتًا تَحسَبُ أنَّها تعتصِمُ به مِن المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمُدُ ولا يثبُتُ لأضعَفِ تحريكٍ، فيسقُطُ ويتمزَّق(٣).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه أهلَكَ مَن أشرَكَ عاجلًا، وعذَّب مَن كذَّب آجلًا، ولم يَنفَعْه في الدارينِ معبودُه، ولم يَدفَعْ ذلك عنه ركوعُه وسجودُه: مثَّل اتخاذَه ذلك معبودًا باتخاذِ العنكبوتِ بيتًا لا يُجِيرُ آويًا، ولا يُريحُ ثاويًا(٤).

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٣٦٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٤١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥٧).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ ﴾

ولمَّا كان ضربُ المثَلِ للشَّيءِ لا يصحُّ إلا مِن العالِمِ بذلك الشيءِ، وكان النَّصيرُ علىٰ شيءٍ لا يمكِنُ أن يَتوجَّهَ إلىٰ معارضتِه إلا أن يَعلَمَه ويَعلَمَ مقدارَ قُدْرتِه، وعِدَّةَ جنودِه: وصَل بذلك أنَّ هذا شأنُه سبحانه، وأنَّ شركاءَهم في غايةِ البُعْدِ عن ذلك، فكيف يعلِّقون بنصرِهم آمالَهم؟! وزاد ذلك حُسْنًا تعقيبُه لنفيِ العلم عنهم، فقال إشارةً إلىٰ جهلِهم في إنكارِهم أن يَقدِرَ أحدٌ علىٰ إهلاكِ آلهتِهم التي هي أوهىٰ الأشياءِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1].

لمَّا نفىٰ عنهم العلمَ بما تضمَّنه التَّمثيلُ مِن حقارةِ أصنامهم التي يعبُدونها، وقلَّةِ جَدْواها، بقولِه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ المفيدِ أنَّهم لا يَعلَمون: أعقبه بإعلامِهم بعلمِهِ بدقائقِ أحوالِ تلك الأصنامِ علىٰ اختلافِها، واختلافِ معتقَداتِ القبائلِ التي عبدَتْها، وأنَّ مِن آثارِ علمِه بها ضَرْبَ ذلك المثَلِ لحالِ مَن عبدوها، وحالِها أيضًا؛ دفعًا بهم إلىٰ أن يتَّهِموا عقولَهم، وأنَّ عليهم النَّظرَ في حقائقِ الأشياء؛ تعريضًا بقصورِ علمِهم، فهذا توقيفٌ لهم علىٰ تفريطِهم في علمِ حقائقِ الأمور التي عَلِمها اللهُ، وأبلَغَهم دلائلَها النظرية، ونظائرَها التاريخية، وقرَّبها إليهم بالتَّمثيلاتِ الحسية، فعَمُوا وصَمُّوا عن هذا وذاك[2].

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن مثَلِهم، وممَّا تتوقَّفُ صحَّتُه عليه: كان كأنَّه قيل علىٰ وجهِ التَّعظيم لهذا المثَلِ: هذا مثَلُهم، فعطَف عليه قولَه -إشارةً إلىٰ أمثالِ القرآن كلِّها؛ تعظيمًا لها،

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٣).

وتنبيهًا علىٰ جليلِ قَدْرِها، وعليِّ شأنها-: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾(١).

بعد أن بيَّن اللهُ لهم فسادَ معتقَدِهم في الأصنامِ، وأعقَبه بتوقيفِهم علىٰ جهلِهم بذلك: نعَىٰ عليهم هنا أنَّهم ليسوا بأهلٍ لتفهُّمِ تلك الدَّلائلِ التي قُرِّبت إليهم بطريقةِ التَّمثيل(٢).

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم أنَّه لا مُعجِزَ له سبحانه، ولا ناصرَ لِمَن أخذ، وصحَّح ذلك بالمشاهدةِ في القرونِ البائدة، وقرَّبه إلىٰ الأذهانِ بالمثَلِ المستولي علىٰ غايةِ البيان، وختَم ذلك أنَّه حجَب فَهْمَه عن أكثرِ خَلْقِه: دلَّ علىٰ ذلك كلِّه بقولِه -مُظهِرًا لقوَّتِه، وسائرِ صفاتِ كماله، بعدما حقَّق أنَّ أولياءَهم في أنزَلِ مراتبِ الضَّعف-: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

بعد أن بيَّن اللهُ تعالىٰ عدمَ انتفاعِ المشركين بالحُجَّةِ ومقدِّماتِها ونتائجِها الموصلةِ إلىٰ بطلانِ إلهيَّةِ الأصنام مستوفاةً مُغْنيةً لِمَن يريد التَّأمُّلَ والتَّدبُّر في صحةِ مقدِّماتها بإنصافٍ: نقَل الكلامَ إلىٰ مخاطبةِ المؤمنين؛ لإفادةِ التَّنويه بشأنِ المؤمنين؛ إذ انتفَعوا بما هو أدقُّ مِن ذلك؛ وهو حالةُ النَّظرِ والفكر في دلالةِ الكائنات علىٰ أنَّ خالِقَها هو اللهُ، وأنْ لا شيءَ غيرُه حقيقًا بمشارَكتِه في إلهيَّته، فأفاد أنَّ المؤمنين قد اهتدَوْا إلىٰ العلمِ ببطلانِ إلهيَّة الأصنام، خلافًا للمشركين الذين لم يَهتدوا بذلك(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٤٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٦).

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا أمَرَ الخَلْقَ بالإيمان، وأظهَرَ الحقَّ بالبرهان، ولم يأتِ الكفارُ بما أمَرهم به، وقَصَّ عليهم قِصَصًا فيها عِبَر، وأنذَرهم على كفرِهم بإهلاكِ مَن غَبَر، وبيَّن ضَعْفَ دليلِهم بالتمثيل، ولم يَهتدوا بذلك إلىٰ سواءِ السبيل، وحصَل يأسُ الناسِ عنهم: سلَّى المؤمنين بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا أفاد هذا الخيرَ كلَّه القرآنَ الكريمَ الذي لا حقَّ أحَقُّ منه، ودلَّ على أنَّ فَهْمَ أمثالِه يحتاجُ إلىٰ مزيدِ علمٍ، وأنَّ مفتاحَ العلمِ به سبحانه رسوخُ الإيمانِ: خاطَب رأسَ أهلِ الإيمان؛ لأنَّه أعظَمُ الفاهمين له؛ ليقتديَ به الأتباعُ، فقال: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2].

بعد أن ضرَب اللهُ للنَّاسِ المثَلَ بالأُمَمِ السالفة، جاء بالحجَّةِ المبيِّنةِ فسادَ معتقَدِ المشركين، ونوَّه بصحةِ عقائدِ المؤمنين بمنتهىٰ البيانِ الذي ليس وراءه مَطلَبٌ؛ أقبَل علىٰ رسولِه ﷺ بالخطاب الذي يَزيدُ تثبيتَه علىٰ نشرِ الدعوةِ، وملازمةِ الشرائع، وإعلانِ كلمةِ الله بذلك، وما فيه زيادةُ صلاحِ المؤمنين الذين انتفَعوا بدلائلِ الوَحْدانيَّة[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٧).

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا انتهىٰ الكلامُ إلىٰ رُوحِ الدِّين، وسِرِّ اليقين، ممَّا لا يَعلَمه حقَّ علمِه إلا العلماءُ بالكتبِ السَّماويَّة، والأخبارِ الإلهيَّة، وكان العالِمُ يَقدِرُ علىٰ إيرادِ الشُّكوك، وترويجِ الشُّبَه؛ فربما أَضَلَّ بالشُّبهةِ الواحدةِ الفئام مِن الناس، بما له عندهم مِن القَبول، وبما للنفوسِ مِن النُّزوعِ إلىٰ الأباطيل، وبما للشيطانِ في ذلك مِن التَّزيين، وكان الجدالُ يُورِثُ الإِحَن، ويَفتَح أبوابَ المِحَن، فيَحمِل علىٰ الضَّلالِ: قال تعالىٰ مخاطبًا لِمَن ختَم الآيةَ بخطابِهم -تنزيهًا لمَقامِه ﷺ عن المواجهةِ بمثلِ ذلك؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه لا يصوِّبُ هِمَّتَه الشريفةَ إلىٰ مثلِ ذلك؛ لأنَّه ليس في طَبْعِه المجادَلة، والمماراةُ والمغالَبة-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾(١).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ طريقةَ إرشادِ المشركين، ونَفْعَ مَن انتفَع، وحصولَ اليأس ممَّن امتنَع: بيَّن طريقةَ إرشادِ أهلِ الكتاب بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن
يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ -تعليلًا للأمرِ بهذا القول-: إنَّا أنزَلْنا كُتُبَهم إلىٰ رُسُلِهم: عطَف عليه قولَه مُخاطِبًا للرأسِ تخصيصًا له لئلا يَتطرَّقَ لمتعنِّتٍ طعنٌ إلىٰ عمومٍ أو اتهامٍ

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٤٩-٤٥٠).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ٥٥٧).

في المُنزَل عليه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١).

هذا عَوْدٌ إلىٰ مجادَلةِ المشركين في إثباتِ أنَّ القرآنَ منزلٌ مِن اللهِ علىٰ رسولِه ﷺ(٢).

ثم بعد ذلك ذكَر دليلًا قياسيًّا، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣).

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا أشار إلىٰ أنَّ المنكِرَ لأصلِ الوحيِ متوغِّلٌ في الكفرِ، دلَّ علىٰ ذلك بحالِ المنزلِ إليه ﷺ، فقال مسلِّيًا له: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٤).

هذا استدلالٌ بصفةِ الأُمِّيَّةِ المعروفِ بها الرسول ﷺ، ودلالتُها علىٰ أنَّه مُوحًىٰ إليه مِن اللهِ أعظَمُ دلالةٍ، وقد ورَد الاستدلالُ بها في القرآنِ في مواضعَ(٥).

لمَّا ذكَر إنزالَ الكتابِ عليه، متضمِّنًا مِن البلاغةِ والفصاحة والإخبارِ عن الأُمَمِ السابقة والأمورِ المغيَّبة ما أعجَزَ البشرَ أن يأتوا بسورةٍ مثلِه: أخَذ يحقِّقُ كونَه نازلًا مِن عندِ الله؛ بأنَّه ظهَر عن رجُلٍ أُمِّيٍّ، لا يقرأُ ولا يكتُبُ، ولا يخالِطُ أهلَ العلم(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٥٠-٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٣).

(٤) نظم الدرر (١٤/ ٤٥٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٣٦١).

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ولكنَّهم لا رِيبةَ لهم أصلًا ولا شُبْهةَ لقولِهم: إنَّه باطلٌ؛ قال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

﴿ بَلْ ﴾ إبطالٌ لِما اقتضاه الفرضُ مِن قولِه: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: بل القرآنُ لا ريبَ يَتطرَّقُه في أنَّه مِن عندِ الله؛ فهو كلُّه آياتٌ دالةٌ على صدقِ الرسول ﷺ، وأنَّه مِن عندِ الله؛ لِما اشتمَل عليه مِن الإعجازِ في لفظِه ومعناه(٢).

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فجحَدوها بما لهم مِن الرُّسوخِ في الظُّلم أصلًا ورأسًا، ولم يُعِدُّوها آياتٍ، فضلًا عن كونِها بيِّناتٍ: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

لمَّا ذكَر الجاحدين لآيةِ القرآن ثلاثَ مراتٍ، ووصَفهم بالكافرين والمُبطِلين والظالمين: انتقَل الكلامُ إلى مقالتِهم النَّاشئةِ عن جحودِهم؛ وذلك طلَبُهم أن يأتيَ النبيُّ ﷺ بآياتٍ مرئيةٍ خارقةٍ للعادة، تدلُّ على أنَّ الله خلَقها تصديقًا للرسولِ؛ كما خلَق ناقةَ صالحٍ وعصَا موسى؛ وهذا مِن جَلافتِهم ألا يَتأثَّروا إلا للأمورِ المشاهَدة، وهم يَحسَبون أنَّ الرسولَ عليه السلام ينتصبُ للمعاندةِ معهم، فهم يقترحون عليه ما

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١١-١٢).
(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٥٥).

يَرغَبونه؛ ليَجعَلوا ما يسألونه مِن الخوارقِ حديثَ النَّوادي؛ حتىٰ يكونَ مَحضَرُ الرسولِ ﷺ فيهم كمَحضَرِ المشعوذين، وأصحابِ الخنقطرات[(١)].

لمَّا فرَغ مِن ذِكرِ دليلِ مَن جانَبَ النبيَّ ﷺ، ذكَر شُبْهتَهم؛ وهي بذِكْرِ الفرقِ بَيْنَ المَقِيسِ عليه والمَقِيس، فقالوا: إنَّك تقول: إنَّه أُنزِلَ إليك كتابٌ كما أُنزِلَ إلىٰ موسىٰ وعيسىٰ، وليس كذلك؛ لأنَّ موسىٰ أوتيَ تسعَ آياتٍ عَلِم بها كونَ الكتابِ مِن عندِ الله، وأنت ما أُوتيتَ شيئًا منها[(٢)].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا أفرَحهم بما كأنَّه تسليمٌ لمُدَّعاهم، وكان مِن البيِّنِ أنَّ لسانَ الحالِ يقول: ألم يَكفِهم ما جئتَهم به مِن الآياتِ المرئيَّات والمسموعات، وعجَزوا عن الإتيانِ بشيءٍ منها: عطَف علىٰ ذلك قولَه منكِرًا علىٰ جهلِهم وعنادهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهو ارتقاءٌ في المجادَلة[(٤)].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، واردٌ مِن جهتِه تعالىٰ ردًّا علىٰ اقتراحِهم، وبيانًا لبطلانِه[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣). والخنقطرات: من أشكال السحر.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤).

(٥) إرشاد العقل السليم (٧/ ٤٣).

ولمَّا كان المقصودُ بيانَ الحقِّ، ذكَر تعالىٰ طريقَه، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّهم يقولون: نحن لا نصدِّقُ أنَّ هذا الكتابَ مِن عندِ الله، فضلًا عن أن نكتفيَ به؛ قال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢).

بعد أن ألقَمَهم حجَرَ الحجَّةِ الدامغة، أُمِر بأن يَجعَلَ اللهَ حكَمًا بَيْنَه وبينهم لمَّا استمَرَّ تكذيبُهم بعد الدَّلائلِ القاطعة؛ وهذا مِن الكلامِ المُنصِف، المقصودِ منه استدراجُ المخاطَب(٣).

لمَّا ظهَرتْ رسالتُه، وبهَرتْ دَلالتُه، ولم يؤمِنْ به المعانِدون مِن أهلِ الكتاب: قال كما يقولُ الصادقُ إذا كُذِّب، وأتىٰ بكلِّ ما يدلُّ علىٰ صِدْقِه ولم يُصدَّقْ: اللهُ يَعلَم صِدْقي وتكذيبَك أيُّها المعانِدُ، وهو علىٰ ما أقولُ شهيدٌ، يحكُمُ بيني وبينكم؛ كلُّ ذلك إنذارٌ وتهديد يفيدُه تقريرًا وتأكيدًا(٤).

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا كان قولُهم مرةً واحدةً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ عجبًا، أتىٰ بعد إخبارِه بخَسارتِهم بأعجَبَ منه؛ وهو استمرارُ استعجالِهم بما لا قدرةَ لهم علىٰ شيءٍ منه

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٣٣).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٦١).
(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٦).

مِن عذابِ الله، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

عطفٌ على جملة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ استقصاءً في الردِّ على شُبُهاتِهم، وإبطالًا لتعِلَّاتِ[2] إعراضِهم الناشئِ عن المكابَرة، وهم يُخيِّلون أنَّهم إنَّما أعرَضوا لعدمِ اقتناعهم بآيةِ صِدْقِ الرسول ﷺ، ومناسبةُ وقوعِه هذا أنَّه لمَّا ذكَر كفرَهم بالله، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام يُنذِرُهم على ذلك بالعذابِ، وكانوا يَستعجلونه به: ذكَر تورُّكَهم[3] عليه عَقِبَ ذِكْرِ الكفر، وقصدُهم مِن ذلك الاستخفافُ بالوعيدِ[4].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)﴾

ثم زاد في التَّعجُّبِ مِن جهلِهم بقولِه مبدلًا: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[5].

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه دليلًا على إنكارِهم، قال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٢).

(٢) أي: أعذارهم المصطنعة.

(٣) أي: إنكارهم.

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨).

(٥) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٣).

(٦) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٣).

ثم ذكَر سبحانه كيفيَّةَ إحاطةِ العذاب بهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

﴿يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

ولمَّا أبلَغ في الإنذارِ، وحذَّر مِن الأمورِ الكبار، ولم يُهمِلِ الإشارةَ إلى الصِّغار، وكانت هذه الآياتُ في المتعنِّتين مِن الكفار، وكان قد كرَّر أنَّ هذه المواعظَ إنَّما هي للمؤمنين: قال مخاطِبًا لهم، مُعرِضًا عن سِواهم -إذ كانت أسماعُهم لبليغِ هذه المواعظِ قد أصغَتْ، وقلوبُهم لجليلِ هذه الإنذاراتِ قد استيقَظت، التفاتًا على قراءةِ الجمهورِ إلى التَّلذيذ في المناجاةِ بالإفراد، والإبعادِ مِن مداخلِ التَّعنُّتِ-: ﴿يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ (٢).

أنَّ اللهَ تعالى لمَّا ذكَر حالَ المشركين على حِدَةٍ، وحالَ أهلِ الكتاب على حِدَةٍ، وجمَعهما في الإنذارِ، وجعَلهما مِن أهلِ النار: اشتَدَّ عنادُهم، وزاد فسادُهم، وسعَوْا في إيذاءِ المؤمنين، ومنَعوهم مِن العبادةِ، فقال مخاطِبًا للمؤمنين: ﴿يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ (٣).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ولمَّا كانت الهجرةُ شديدةَ المرارة؛ لأنَّها مرَّت في المعنى مِن حيث كونُها مفارَقةَ المألوفِ المحبوب مِن العشيرِ والبلدِ والمال، وكان في الموتِ ذلك كلُّه بزيادةٍ: قال

(١) فتح القدير (٤/ ٢٤٠).
(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٤-٤٦٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٩).

مؤكِّدًا بذلك، مذكِّرًا به، مرهِّبًا مِن تركِ الهجرةِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

لمَّا أمَر اللهُ تعالىٰ المؤمنين بالمهاجَرة، صعُبَ عليهم تركُ الأوطان، ومفارَقةُ الإخوان، فقال لهم: إنَّ ما تكرَهون لا بد مِن وقوعِه؛ فإنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢).

لمَّا أخبَر تعالىٰ بسَعةِ أرضِه، وكان ذلك إشارةً إلىٰ الهجرةِ، وأمَر بعبادتِه، فكان قد يَتوهَّمُ متوهِّمٌ أنَّه إذا خرَج مِن أرضِه التي نشأ فيها لأجلِ مَن حَلَّها مِن أهلِ الكفرِ إلىٰ دارِ الإسلام، لا يستقيمُ له فيها ما كان يستقيمُ له في أرضِه، وربما أدَّىٰ ذلك إلىٰ هلاكِه: أخبَر أنَّ كلَّ نفسٍ لها أجَلٌ تبلُغُه، وتموتُ في أيِّ مكانٍ حَلَّ، وأنَّ رجوعَ الجمعِ إلىٰ جزائِه يومَ القيامة(٣).

ثم خوَّفهم سبحانه بالموتِ ليُهوِّنَ عليهم أمرَ الهجرةِ، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٤).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، جِيءَ بها حثًّا علىٰ إخلاصِ العبادةِ والهجرة لله تعالىٰ؛ حيث أفادت أنَّ الدنيا ليست دارَ بقاءٍ، وأنَّ وراءَها دارَ الجزاء(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٧٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٦٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٢٤٢).

(٥) روح المعاني (١١/ ١١).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فالذين آمنوا فلَبَسُوا إيمانَهم بنوعِ نقصٍ لننقُصَنَّهم في جزائِهم، والذين كفَروا لنُركِسَنَّهم[1] في جهنَّم دركاتٍ تحت دركاتٍ؛ فبئس مثوىٰ الظالمين، ولكنَّه لمَّا تقدَّم ذِكْرُ العذابِ قريبًا، وكان القصدُ هنا الترغيبَ في الإيمانِ كيفما كان: طوَاه ودلَّ عليه بأن عطَف عليه قولَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[2].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ثم وصَفهم بما يرغِّبُ في الهجرةِ، فقال معرِّفًا بجماعِ الخيرِ كلِّه: الصَّبْرِ، وكونِه علىٰ جهةِ التَّفويض لله، منبِّهًا علىٰ أنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ عن أمرٍ شاقٍّ ينبغي الصبرُ عليه: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا أشار بالتَّوكُّلِ إلىٰ أنَّه الكافي في أمرِ الرِّزْقِ في الوطنِ والغُرْبةِ، لا مالٌ ولا أهلٌ: قال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فكأيٍّ مِن متوكِّلٍ عليه كفَاه، ولم يُحوِجْهُ إلىٰ أحدٍ سِواه؛

---

(١) أي: لنرُدَّنهم.

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٧-٤٦٨).

فليبادِرْ مَن أنقَذه مِن الكفرِ وهدَاه، إلىٰ الهجرةِ طالبًا لرِضَاه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾؛ فإنَّ اللهَ لمَّا هوَّن بها أمرَ الموتِ في مرضاةِ الله، وكانوا ممَّن لا يَعبأُ بالموت: عَلِم أنَّهم يقولون في أنفسِهم: إنَّا لا نخافُ الموتَ، ولكنَّا نخافُ الفقرَ والضَّيعة، واستخفافُ العربِ بالموت سجيَّةٌ فيهم؛ كما أنَّ خشيةَ المَعرَّةِ مِن سجاياهم: فأعقَب ذلك بأن ذكَّرهم بأنَّ رِزْقَهم علىٰ اللهِ، وأنَّه لا يضيِّعُهم، وضرَب لهم المثَلَ برِزْقِ الدوابِّ، وللمناسبةِ في قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾ مِن توقُّعِ الذين يهاجِرون مِن مكَّةَ ألا يَجِدوا رزقًا في البلادِ التي يهاجِرون إليها، وهو أيضًا مناسِبٌ لوقوعِه عَقِبَ ذِكْرِ التوكلِ في قولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[(٢)].

لمَّا أمَر رسولُ الله ﷺ مَن أسلَم بمكَّةَ بالهجرة، خافوا الفقرَ، فقالوا: غُرْبةٌ في بلادٍ لا دارَ لنا فيها، ولا عَقَارَ، ولا مَن يُطعِمُ؛ فمثَّل لهم بأكثَرِ الدوابِّ التي تَتقوَّتُ ولا تدَّخِرُ، ولا تَرَوَّىٰ في رزقِها، ولا تَحمِلُ رزقَها، ولا تنظُرُ في ادخارٍ[(٣)].

ثم ذكَر سبحانه ما يُعِينُ علىٰ الصَّبرِ والتَّوكُّل؛ وهو النَّظرُ في حالِ الدَّوابِّ، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٦٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٢٤٣).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا هوَّن سبحانه أمرَ الرزقِ بخطابِه مع المؤمنين بعد أن كان قد أبلَغ في تنبيهِ الكافرين بإيضاحِ المقال، وضَرْبِ الأمثال، ولِينِ المحاوَرةِ في الجدال، ولمَّا كان المَلِكُ لا يَتمكَّن غايةَ التَّمكُّنِ مِن ترزيقِ[1] مَن في غيرِ بلده ومملكتِه: قال عاطفًا على نحوِ: فلئن سألتَهم عن ذلك ليَصْدُقُنَّك، عائدًا إلى استعطافِ المعرِضين، واللُّطف بالغافلين، ناهجًا في تفنينِ الوعظِ أَنْهَى[2] طرقِ الحِكْمة؛ فإنَّ السيدَ إذا كان له عبدانِ: مُصلِحٌ، ومُفسِد، يَنصَح المفسدَ، فإن لم يَسمَعِ، التفَتَ إلى المصلحِ إعراضًا عنه قائلًا: هذا لا يستحِقُّ الخطابَ؛ فاسمَعْ أنتَ ولا تكُنْ مثلَه، فكان قولُه متضمِّنًا نُصْحَ المصلِحِ، وزَجْرَ المفسِدِ، ثم إذا سَمِع وَعْظَ أخيه، كان ذلك محرِّكًا منه، بعد التَّحريك بالإعراض والذَّمِّ بسُوءِ النَّظرِ لنفسِه، وقلَّة الفِطْنة، فإذا خاطَبه بعد هذا، وجَده متهيِّئًا للقبول، نازعًا إلى الوِفاقِ، مستهجِنًا للخلافِ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[3].

هذا الكلامُ عائدٌ إلى قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ تعجيبًا مِن نقائضِ كفرِهم؛ أي: هم كفَروا بالله، وإن سألهم سائلٌ عمَّن خلَق السماواتِ والأرضَ، يعترفوا بأنَّ اللهَ هو خالِقُ ذلك، ولا يُثبِتون لأصنامهم شيئًا مِن الخَلْقِ؛ فكيف يلتقي هذا مع ادعائِهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم؟![4].

---

(١) أي: إيصال الرزق.

(٢) أي: أعلى وأقوى.

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٦).

ثم إنَّه سبحانه ذكَر حالَ المشركين مِن أهلِ مكَّةِ وغيرِهم، وعجَّب السامعَ مِن كونِهم يُقِرُّون بأنَّه خالقُهم ورازقُهم، ولا يوحِّدونه ويتركون عبادةَ غيرِه، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)﴾

ولمَّا كان قد يُشكِلُ على ذلك التَّفاوتُ في الرزقِ عند كلِّ مَن لم يتأمَّلْ حقَّ التَّأمُّل، فيقال بكلِّ الخَلْقِ والرزقِ له، فما بالُهم متفاوِتين في الرزقِ؟ قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

هذا إلزامٌ آخَرُ لهم بإبطالِ شِرْكِهم، وافتضاحِ تناقُضِهم؛ فإنهم كانوا معترفين بأنَّ الرازقَ هو اللهُ تعالى[3].

لمَّا بيَّن الخَلْقَ، ذكَر الرزقَ؛ لأنَّ كمالَ الخلقِ ببقائه، وبقاءُ الإنسانِ بالرزق، فقال: المعبودُ إمَّا أن يُعبَدَ لاستحقاقِه العبادةَ، وهذه الأصنامُ ليست كذلك، واللهُ مستحِقُّها، وإمَّا لكونِه على الشأنِ، واللهُ الذي خلَق السماواتِ على الشأنِ جَلِيُّ البرهانِ؛ فله العبادةُ، وإمَّا لكونِه وليَّ الإحسانِ، واللهُ يرزُقُ الخَلْقَ؛ فله الطَّوْلُ والإحسان، والفضلُ والامتنان؛ فله العبادةُ مِن هذا الوجهِ أيضًا[4].

ثم أعقَب تعالى ذلك بإقرارِهم بأنَّ مُبدِعَ العالَمِ ومسخِّرَ النَّيِّرَينِ هو اللهُ، وأتبَع ذلك ببَسْطِ الرزقِ وضِيقِه، فقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٤٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٧١).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٧٤).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٦٥).

ولمَّا قال المشركون لبعضِ المؤمنين: لو كنتم على حقٍّ، لم تكونوا فقراءَ؛ دفع سبحانه ذلك بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾(١).

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذا شمولُ علمِه، لَزِم تمامُ قُدْرتِه، فقال مشيرًا إلى ذلك، ذاكرًا السَّببَ القريب في التَّرزيقِ بعدما ذكَر البعيدَ؛ فإنَّ الاعترافَ بأنَّ هذا السَّببَ منه يستلزِمُ الاعترافَ بأنَّ المسبَّبَ أيضًا منه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾(٢).

أُعيدَ أسلوبُ السُّؤالِ والجواب؛ ليتَّصلَ ربطُ الأدلةِ بعضِها ببعضٍ على قُرْبٍ؛ فقد كان المشركون لا يدَّعُون أنَّ الأصنامَ تُنزِلُ المطرَ؛ كما صرَّحتْ به الآيةُ؛ فقامت الحجَّةُ عليهم، ولم يُنكِروها وهي تقرِّعُ أسماعَهم(٣).

لمَّا أخبَر بأنَّهم مُقِرُّون بأنَّ موجِدَ العالَمِ، ومسخِّرَ النَّيِّرَينِ، ومُحْيِيَ الأرضِ بعد موتِها هو اللهُ: كان ذلك الإقرارُ ملزِمًا لهم أنَّ رزقَ العبادِ إنَّما اللهُ هو المتكفِّلُ به، وأمَرَ رسولَه ﷺ بالحمدِ له تعالى؛ لأنَّ في إقرارِهم توحيدَ اللهِ بالإبداعِ، ونفيَ الشركاءِ عنه في ذلك، وكان ذلك حُجَّةً عليهم؛ حيث أسنَدوا ذلك إلى اللهِ، وعبَدوا الأصنامَ(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٤٣).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٨).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٦٦).

📖 ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ 📖

ولمَّا تبيَّن بهذا الآياتِ أنَّ الدُّنيا مبنيَّةٌ علىٰ الفَناءِ والزوال، والقُلْعة[(١)] والارتحال، وصحَّ أنَّ السُّرورَ بها في غيرِ موضعِه؛ فلذلك قال تعالىٰ مشيرًا بعد سَلْبِ العقلِ عنهم إلىٰ أنَّهم فيها كالبهائمِ يتهارجون: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

هذا الكلام مُبلَّغٌ إلىٰ الفريقينِ اللَّذين تضمَّنَهما قولُه تعالىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾؛ فإنَّ عقلاءَهم آثَروا باطلَ الدُّنيا علىٰ الحقِّ الذي وضَح لهم، ودَهْماءَهم لم يشعُروا بغيرِ أمور الدُّنيا، وجميعُهم أنكَروا البعثَ: فأعقَب اللهُ ما أوضَحه لهم مِن الدَّلائلِ بأن نبَّههم علىٰ أنَّ الحياةَ الدُّنيا كالخيالِ، وأنَّ الحياةَ الثانية هي الحياةُ الحقُّ[(٣)].

لمَّا بيَّن أنَّهم يعترفون بكونِ اللهِ هو الخالقَ، وكونِه هو الرزاقَ، وهم يتركُون عبادتَهُ، ولا يتركُونها إلا لزينةِ الحياةِ الدُّنيا: بيَّن أنَّ ما يَميلون إليه ليس بشيءٍ، بقولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) أي: انقلاع وانقضاء.

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٧٥).

ثم أشار سبحانه إلىٰ تحقيرِ الدُّنيا، وأنَّها مِن جنسِ اللَّعِبِ واللَّهو، وأنَّ الدارَ علىٰ الحقيقةِ هي دارُ الآخرةِ، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ولمَّا ختَم هذه الآيةَ بما أفهَم أنَّهم لا يَعلَمون، والتي قبلها بأنَّ أكثَرهم لا يَعقِلون: سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

أفادت الفاءُ تفريعَ ما بعدها علىٰ ما قبلها، والمفرَّعُ عليه محذوفٌ، ليس هو واحدًا مِن الأخبارِ المتقدِّمة بخصوصه، ولكنَّه مجموعُ ما تدلُّ عليه قوةُ الحديثِ عنهم، وما تقتضيه الفاءُ؛ والتَّقدير: هم -أي المشرِكون- علىٰ ما وُصِفوا به مِن الغفلةِ عن دلائلِ الوَحْدانيَّة، وإلغائهم ما في أحوالِهم مِن دلائلِ الاعترافِ لله بها: لا يضَّرَّعون إلا إلىٰ اللهِ؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّهم مُقِرُّون باللهِ إذا سُئلوا: مَن خلَق العالَمَ؟ ومَن نزَّل مِن السماءِ ماءً؟: ذكَر أيضًا حالةً أخرىٰ يَرجِعون فيها إلىٰ اللهِ، ويُقِرُّون بأنَّه هو الفاعلُ لِما يريدُ، وذلك حينَ ركوبِ البحرِ، واضطرابِ أمواجِه، واختلافِ رياحِه(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٤٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٢).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٦٦).

ثـم بـيَّن سبحانه أنَّـه لـيس المـانعُ لهـم مِـن الإيمـانِ إلا مجـرَّدَ تـأثيرِ الحيـاةِ، فقـال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾(1).

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا كانوا مع هذا الفعلِ - الذي لا يَفعلُه إلا مسلوبُ العقلِ - يدَّعُون أنَّهم أعقَلُ النَّاسِ وأبصَرُهم بلوازمِ الأفعال، وما يَشِينُ الرجالَ، وكان فِعْلُهم هذا كفرًا للنِّعْمةِ، مع ادعائهم أنَّهم أشكَرُ الناس للمعروف: قال مبيِّنًا أنَّ عادتَهم مخالِفةٌ لعادةِ المؤمنين في جعلِهم نعمةَ النَّجاة سببًا لزيادةِ طاعاتهم؛ فعُلِم أنَّه ما كان إخلاصُهم في البحرِ إلا صورةً لا حقيقةَ لها: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(2).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا كان قد فعَل بهم سبحانه مِن الأمنِ الشَّديد المديد في البرِّ دُونَ سائرِ العربِ عكسَ ما ذُكِرَ مِن حالِ خوفِهم الشَّديد في البحرِ، وكان قادرًا على إخافتِهم في البرِّ كما قدَرَ على إخافتِهم في البحرِ؛ ليدومَ إخلاصُهم، وكان كفرُهم عند الأمنِ بعد الإخلاصِ عند الخوف - مع أنَّه أعظَمُ النَّقائصِ - هَزْلًا لا يفعلُه إلا مَن أَمِن مثلَ تلك المصيبةِ في البرِّ: توجَّهَ الإنكارُ في نحوِ أن يقالَ: ألم يرَوْا أنَّا قادرون على إخافتِهم وإهلاكِهم في البرِّ كما نحن قادرون على ذلك في البحرِ؛ كما فعَلْنا بغيرهم؟! فعطَف عليه قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾(3).

---

(1) فتح القدير (٤/ ٢٤٤).

(2) نظم الدرر (١٤/ ٤٧٧).

(3) نظم الدرر (١٤/ ٤٧٨).

هذا تذكيرٌ خاصٌّ لأهلِ مكَّةَ، وإنَّما خُصُّوا مِن بَيْنِ المشركين مِن العربِ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ قدوةٌ لجميعِ القبائل، ألا ترىٰ أنَّ أكثرَ قبائلِ العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون مِن أهلِ مكَّةَ؟ فلمَّا أسلَم أهلُ مكَّةَ يومَ الفتحِ، أقبلَتْ وفودُ القبائلِ معلِنةً إسلامَهم، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾، باعتبارِ ما اشتمَلتْ عليه تلك الجملةُ مِن تقريعِهم علىٰ كفرانِ نِعَمِ الله تعالىٰ؛ ولذلك عُقِّبتْ هذه الجملةُ بقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[1].

ثم ذكَّرهم تعالىٰ بنِعَمِه؛ حيث أسكَنهم بَلْدةً أَمِنوا فيها، لا يغزوهم أحدٌ، ولا يستلِبُ منهم، مع كونِهم قليلي العددِ، قارِّينَ في مكانٍ لا زَرْعَ فيه؛ وهذه مِن أعظَمِ النِّعْمةِ التي كفَروها، وهي نعمةٌ لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ تعالىٰ[2].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٦٨) ﴾

ولمَّا كان الظُّلْمُ وضعُ الشَّيءِ في غيرِ محَلِّه، وكان وضعُ الشَّيء في موضعٍ لا يمكِنُ أن يَقبلَه أظلَمَ الظُّلْمِ: كان فعلُهم هذا -الذي هو إنزالُ ما لا يَعلَمُ شيئًا ولا يَقدِرُ علىٰ شيءٍ في منزلةِ مَن يَعلَم كلَّ شيءٍ ويَقدِرُ علىٰ كلِّ مقدورٍ- أظلَمَ الظُّلْمِ، فكان التَّقديرُ: فمَن أظلَمُ منهم في ذلك؟!: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٣-٣٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٨٧).

لمَّا أوفاهم ما يَستأهلونه مِن تشنيعِ أحوالِهم، وسُوءِ انتظامِ شؤونهم: جاء في عَقِبه بتذييلٍ يَجمَعُها في أنَّها افتراءٌ على الله، وتكذيبٌ بالحق، ثم جزَاهم الجزاءَ الأوفى اللائقَ بحالهم؛ وهو أنَّ النارَ مثواهم(١).

لمَّا بيَّن اللهُ الأمورَ على الوجهِ المذكور، ولم يؤمِنْ به أحدٌ: بيَّن أنَّهم أظلَمُ مَن يكونُ؛ لأنَّ الظُّلْمَ -على ما بُيِّنَ- وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه في الذين فُتِنوا فلم يجاهِدوا أنفسَهم، كان المعنى: فالذين فتنَّاهم فوُجِدوا كاذبين، ضلُّوا، فصاروا لا يَعقِلون ولا يَعلَمون؛ لكونِهم لم يكونوا مِن المجاهِدين؛ فعطَف عليه قولَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٣).

ختَم توبيخَ المشركين وذَمَّهم بالتنويهِ بالمؤمنين؛ إظهارًا لمزيدِ العناية بهم؛ فلا يخلو مقامُ ذمِّ أعدائهم عن الثناءِ عليهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ الأعداءَ غيظًا وتحقيرًا(٤).

لمَّا فرَغ مِن التَّقريرِ والتَّقريع، ولم يؤمِنِ الكفارُ: سلَّى قلوبَ المؤمنين بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٧٧).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٤٨١).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٧٧).

ثم لمَّا ذكَر حالَ المشركين الجاحدين للتَّوحيدِ، الكافرين بنِعَمِ الله: أردَفه بحالِ عبادِه الصَّالحين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

(١) فتح القدير (٤/ ٢٤٥).

سُورَةُ الرُّومِ

📖 ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ 📖

لمَّا أُشِيرَ في آخرِ تلك بأمرِ الحَرَمِ إلىٰ أنَّه سبحانه يُعِزُّ مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء، وختَم بمدحِ المجاهِدين فيه، وأنَّه سبحانه لا يزالُ مع المحسِنين، وكانت قد افتُتِحت بأمرِ المفتونين: فكان كأنَّه قيل: ليفتِنَنَّكم، ولَنُعْمِيَنَّ المفتَّنين، ولَنَهدِيَنَّ المجاهِدين، وكان أهلُ فارسَ قد انتصَروا علىٰ الرُّوم؛ ففَرِح المشركون، وقالوا للمسلمين: قد انتصَر إخوانُنا الأُمِّيُّون علىٰ إخوانِكم أهلِ الكتاب؛ فلَنُنصَرَنَّ عليكم؛ فأخبَر اللهُ تعالىٰ بأنَّ الأمرَ يكونُ علىٰ خلافِ ما زعَموا؛ فصدَّق مصدِّقٌ، وكذَّب مكذِّبٌ، فكان في كلٍّ مِن ذلك - مِن نصرِ أهلِ فارسَ، وإخبارِ اللهِ تعالىٰ بإدالةِ الرُّومِ - فتنةٌ، يُعرَفُ بها الثابتُ مِن المُزلزَلِ، وكان مَن له كتابٌ أحسَنَ حالًا في الجملةِ ممَّن لا كتابَ له: افتُتِحتْ هذه بتفصيلِ ذلك تصريحًا، بعد أن أشار إليه بالأحرُفِ المقطَّعة تلويحًا، غَيْبًا وشَهادةً، دلالةً علىٰ وَحْدانيَّتِه، وإبطالِ الشرك؛ فأثبَت سبحانه أنَّ له جميعَ الأمرِ، وأنَّه يسُرُّ المؤمنين بنُصْرةِ مَن له دِينٌ صحيحُ الأصل، وخِذْلانِ أهلِ العَراقةِ في الباطلِ والجهل، وجعَل ذلك علىٰ وجهٍ يفيدُ نصرَ المؤمنين علىٰ المشركين، فقال مبتدِئًا بما أفهَمَه كونُه مع المحسِنين مِن أنَّه ليس مع المسيئين: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾[1].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢).

﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ ﴾

ثم ذكَر المكانَ الذي غُلِبتْ فيه الرُّومُ، فقال: ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ ﴾

ثم ذكَر المُدَّة، فقال: ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾.

﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾

ثم ذكَر ما لأجلِه فَرِح المؤمنون، فقال: ﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ ﴾

ولمَّا نزَل هذا على قومٍ أكثَرُهم له منكِرٌ، أكَّده سبحانه بما يُقوِّي قلوبَ أصفيائه بتبيينِ المراد، ويرُدُّ ألسنةَ أعدائه عن كثيرٍ مِن العناد، ويُعرِّفهم أنَّه كما صدَق في هذا الوعدِ لأجلِ تفريح أوليائه، فهو يصدُقُ في وعدِ الآخرة ليحكُمَ بالعدلِ، ويأخُذَ لهم حقَّهم ممَّن عاداهم، ويفضل عليهم بعد ذلك بما يريدُ، فقال: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١).

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ ﴾

ولمَّا كان مِن المشاهدةِ أنَّ لهم عقولًا راجحةً، وأفكارًا صافيةً، وأنظارًا صائبةً، فكانوا بصددِ أن يقولوا: إنَّ عِلْمَنا أكبرُ مِن علمِكم، كان كأنَّه قيل بيانًا لأنَّه يصحُّ سَلْبُ ما يَنفَعُ مِن العلمِ بتأديتِه إلى السَّعادةِ الباقية، وتنبيهًا على أنَّه لا فرقَ بَيْنَ عدمِ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٣-٤٤).

العلم الذي هو الجهلُ وبَيْنَ وجودِ العلمِ الذي لا يتجاوزُ الدنيا؛ نعم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾(١).

لمَّا نفىٰ عنهم العلمَ النافع للآخرةِ، أثبَت لهم العلمَ بأحوالِ الدنيا، فقال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: أفلم يَتدبَّروا القرآنَ، وما كُشِفَ لهم عنه مِن الحِكَمِ والأمورِ التي وعَد اللهُ بها علىٰ لسانِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ فيه، أو في السُّنةِ، فكانت علىٰ حسَبِ ما وعَد؟! أو لم يَتأمَّلوا مصنوعاتِ الله عمومًا؛ فتدُلَّهم عقولُهم منها علىٰ أنَّه لا يصلُحُ للإلهيَّةِ إلا مَن كان حكيمًا، ولا يكونُ حكيمًا إلا مَن صدَق في وعدِه، وأنَّه لا تتمُّ الحِكْمةُ إلا بإيجادِ الآخرةِ؟!: عطَف عليه قولَه منكِرًا عليهم، موبِّخًا لهم: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾؛ لأنَّهم نفَوُا الحياةَ الآخرة، فسِيقَ إليهم هذا الدَّليلُ علىٰ أنَّها مِن مقتضىٰ الحِكْمة(٣).

لمَّا صدَر مِن الكفارِ الإنكارُ باللهِ عند إنكارِ وعدِ الله، وعدمِ الخُلْفِ فيه، والإنكارِ بالحشرِ: بيَّن أنَّ الغفلةَ وعدمَ العلمِ منهم بتقديرِ الله، وإلا فأسبابُ التذكُّر حاصلةٌ؛ وهو أنَّ أنفسَهم لو تفكَّروا فيها، لعَلِموا وَحْدانيَّةَ اللهِ، وصدَّقوا بالحشر(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٥١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨١).

ثم أنكر عليهم قِصَرَ نظَرِهم على ما ذُكِر مِن ظاهرِ الحياة الدُّنيا، مع الغفلةِ عن الآخرةِ، بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[1].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا أقام عليهم الدَّليلَ، أتبعه التَّهديدَ والتَّهويل، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[2].

عطفٌ على جملةِ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾، وهو مثلُ الذي عُطِفَ هو عليه، متصِلٌ بما يتضمَّنُه قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ مِن أسبابِ عدمِ علمِهم تكذيبَهم الرسولَ ﷺ الذي أنبأهم بالبعثِ، فلمَّا سِيقَ إليهم دليلُ حِكْمةِ البعثِ والجزاء بالحق، أعقَب بإنذارِهم؛ موعظةً لهم بعواقبِ الأُمَم الذين كذَّبوا رُسُلَهم؛ لأنَّ المقصودَ هو عاقبةُ تكذيبِهم رُسُلَ الله[3].

ثم نبَّههم على صدقِ رُسُلِه فيما جاؤوا به عنه؛ بما أيَّدهم به مِن المعجِزات، والدَّلائلِ الواضحات؛ مِن إهلاكِ مَن كفَر بهم، ونجاةِ مَن صدَّقهم، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[4].

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٦).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٥٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٥).

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا كان انتكاسُهم بعد هذا الأسبابِ المُسعِدة بعيدًا، أشار إليه بأداةِ التَّراخي، أو هي إشارةٌ إلى تطاوُلِ دعاءِ الرُّسل لهم، واحتمالِهم إيَّاهم، فقال: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾(١).

﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ هذه العاقبةَ أعظَمُ رُتْبةً في السُّوءِ مِن عذابِ الدنيا، فيجوز أن يكونَ هذا الكلامُ تذييلًا لحكايةِ ما حَلَّ بالأُمَمِ السالفة مِن قوله: ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، ويجوز أن يكونَ إنذارًا لمشركي العربِ المتحدَّثِ عنهم مِن قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٢).

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ ﴾

ولمَّا كان حاصلُ ما مضى أنَّه سبحانه وتعالى قادرٌ على الإعادةِ كما قدَر على الابتداءِ، وكان للتَّصريحِ مع النَّفسِ حالةٌ ليست لغيرِه، قال ذاكرًا نتيجةَ ما مضى ومحصِّلَه تصريحًا بالمقصودِ، وتلخيصًا للدَّليلِ: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾(٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو شروعٌ فيما أُقيمت عليه هذه السورةُ مِن بَسْطِ دلائلِ انفرادِ الله تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاس بإيجادِهم وإعدامِهم، وبإمدادِهم وأطوارِ حياتهم؛ لإبطالِ أن يكونَ لشركائهم شيءٌ مِن التَّصرُّفِ في ذلك؛ فهي دلائلُ ساطعةٌ على ثبوتِ الوَحْدانيَّة التي عَمُوا عنها(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٥٩).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٠).

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الرُّجوعَ، أتبَعه بعضَ أحوالِه، فقال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ تبيينًا لحالِ المشركين في وقتِ ذلك الإرجاع، كأنَّه قيل: ثم إليه ترجَعون، ويومئذٍ يُبلِسُ المجرمون(٢).

ثم بيَّن ما يكون وقت الرُّجوعِ إليه، فقال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(٣).

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الساكتُ ربما أغناه عن الكلامِ غيرُه، نفى ذلك بقولِه محققًا له بجعلِه ماضيًا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾(٤).

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت النَّفسُ ربما تشوَّفتْ إلى أنَّه هل يكونُ بعد إبلاسِهم شيءٌ آخَرُ؟ قال مفيدًا له، مهوِّلًا بإعادةِ ما مضى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾(٥).

ولمَّا ذكَر إبلاسَ المشركين المُشعِرَ بتوقُّعِهم السُّوءَ والعذاب، أعقَب بتفصيلِ أحوالِ الناس يومئذٍ، مع بيانِ مَغبَّةِ إبلاسِ الفريق الكافرين(٦).

ثم بيَّن أمرًا آخَرَ يكونُ في ذلك اليومِ؛ وهو الافتراق(٧).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥٥).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٥٧).

(٦) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٣).

(٧) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٥).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝١٥ ﴾

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّةَ تفرُّقِهم، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴾(١).

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝١٦ ﴾

بدأ بذِكْرِ حالِ الذين آمنوا، مع أنَّ الموضعَ موضعُ ذِكْرِ المجرمين؛ وذلك لأنَّ المؤمنَ يوصَلُ إليه الثوابُ قبل أن يوصَلَ إلىٰ الكافرِ العقابُ؛ حتىٰ يَرىٰ ويَتحقَّقَ أنَّ المؤمنَ وصَل إلىٰ الثوابِ؛ فيكونَ أنكىٰ، ولو أُدخِلَ الكافرُ النارَ أولًا، لكان يظُنُّ أنَّ الكلَّ في العذابِ مشتركون؛ فقدَّم ذلك زيادةً في إيلامِهم(٢).

ثم ذكَر الفريقَ الثانيَ بعد ذِكْرِ الفريقِ الأول، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾.

﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه المبدأَ بخَلْقِ السَّماواتِ والأرض، والمَعادِ بالجنَّةِ والنار، وأنَّهم كذَّبوا به، وكان تكذيبُهم به مستلزِمًا لاعتقادِ نقائصَ كثيرة -منها: العَجْزُ، وإخلافُ الوعدِ، وتركُ الحِكْمة-: كان ذلك سببًا لأن يُنزِّهَ سبحانه نفسَه المقدَّسة، ويأمرَ بتنزيهها؛ لأنَّ ذلك يَدفعُ عن المنزِّهِ مَضارَّ الوعيد، ويَرفَعُه إلىٰ مَسارِّ الوعدِ، فقال ذاكرًا مِن أفعالِه العاليةِ التي لا مَطمَعَ لغيرِه في القدرةِ علىٰ شيءٍ منها ما يدلُّ علىٰ

(١) فتح القدير (٤/ ٢٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٥).

خلافِ ذلك الذي يلزم اعتقادهم، لافتًا الكلامَ عن صيغةِ العظمةِ إلىٰ أعظَمَ منها بذِكْرِ الاسمِ الأعظم: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾(١).

الفاءُ تقتضي اتصالَ ما بعدها بما قبلها، وهي فاءٌ فصيحة؛ فيكونُ المقصودُ مِن ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ إنشاءَ تنزيهِ الله تعالىٰ عمَّا نسَبوه إليه مِن العَجْزِ عن إحياءِ الناسِ بعد موتِهم، وإنشاءَ ثناءٍ عليه(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ عظَمتَهُ في الابتداءِ والانتهاء، أمَر بتنزيهِه عن كلِّ سُوءٍ، فقال: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾(٣).

لمَّا ذكَر الوعدَ والوعيد، تأثَّرَهُ بما هو وسيلةٌ للفوزِ والنَّجاة؛ مِن تنزيهِه تعالىٰ عمَّا لا يَليقُ به، فقال: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾(٤).

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما يدلُّ علىٰ خصوصِ التَّنزيهِ، أتبَعه ما يعرِّفُ بعمومِ الكمال، فقال ذاكرًا لوقتِ كمالِ النَّهار، وكمالِ الظَّلام، وتذكيرًا بما يحدُثُ عندهما للآدميِّ مِن النَّقصِ بالفتورِ والنوم اعتراضًا بَيْنَ الأوقاتِ للاهتمامِ بضمِّ التَّحميدِ إلىٰ التَّسبيح: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾(٥).

جملةُ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معترضةٌ مسُوقةٌ للإرشادِ إلىٰ الحمدِ، والإيذانِ بمشروعية الجمعِ بينه وبين التَّسبيح(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٦).
(٤) محاسن التأويل (٨/ ٧-٨).
(٥) نظم الدرر (١٥/ ٦٠).
(٦) فتح القدير (٤/ ٢٥٢).

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر دلالةً على البعثِ المستلزِمِ للوَحْدانيَّةِ مُطلَقَ التَّحويلِ الذي هو إحياءٌ في المعنى بعد إماتةٍ، أتبَعه الإحياءَ والإماتة حقيقةً، صاعدًا مِن ذِكرِ البعثِ تصريحًا بما كان ألقاه تلويحًا، فقال: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[1].

هذه الجملةُ بدلٌ مِن جملةِ ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، ويجوز أيضًا أن تكونَ موقعَ العلَّةِ لجملةِ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وما عُطِف عليها؛ أي: هو مستحِقٌّ للتسبيحِ والحمد؛ لتصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإيجادِ العجيب، وبالإحياءِ بعد الموت، واختِيرَ مِن تصرُّفاتِه العظيمةِ تصرُّفُ الإحياءِ والإماتةِ في الحيوانِ والنباتِ؛ لأنَّه تخلُّصٌ للغرضِ المقصود مِن إثباتِ البعث ردًّا للكلامِ على ما تقدَّمَ مِن قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

وجهُ تعلُّقِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ والميِّتِ مِن الحيِّ بما تقدَّم عليه: أنَّ عند الإصباحِ يخرُجُ الإنسانُ مِن شِبْهِ الموت -وهو النومُ- إلى شِبْهِ الوجودِ -وهو اليقظةُ-، وعند العِشاءِ يخرُجُ الإنسانُ مِن اليقظةِ إلى النوم[3].

لمَّا ذكَر الإبداءَ والإعادةَ، ناسَب ذِكْرُه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٨١).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: هذا مِن آياتِ الله التي تشاهِدونها كلَّ حينٍ دلالةً علىٰ بَعْثِكم، عطَف عليه التَّذكيرَ بما هو أصعَبُ منه في مَجاري العاداتِ، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(١).

لمَّا كان الاستدلالُ علىٰ البعثِ متضمِّنًا آياتٍ علىٰ تفرُّدِه تعالىٰ بالتصرُّفِ، ودلالته علىٰ الوَحْدانيَّةِ: انتقَل مِن ذلك الاستدلالِ إلىٰ آياتٍ علىٰ ذلك التصرُّفِ العظيم، غيرَ ما فيه إثباتُ البعث؛ تثبيتًا للمؤمنين، وإعذارًا لِمَن أشرَكوا في الإلهيَّةِ(٢).

لمَّا أمَر اللهُ تعالىٰ بالتَّسبيحِ عن الأسواءِ، وذكَر أنَّ الحمدَ له علىٰ خَلْقِ جميعِ الأشياء، وبيَّن قُدْرتَه علىٰ الإماتةِ والإحياء: ذكَر ما هو حُجَّةٌ ظاهرة وآية باهرة علىٰ ذلك؛ ومِن جملتِها: خَلْقُ الإنسانِ مِن تراب(٣).

ثم ذكَر تعالىٰ آياتِه مِن بَدْءِ خَلْقِ الإنسان، آيةً آيةً، إلىٰ حينِ بَعْثِه مِن القبرِ، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(٤).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾

ولمَّا كان أعجَبُ مِن ذلك أنَّ هذا الذي خلَقه مِن الترابِ ذكَرًا خلَق منه أنثىٰ، وجعَلهما شِبْهَي السَّماءِ والأرضِ ماءً ونَبْتًا، وطهارةً وفضلًا؛ قال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٨٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٨١).

أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

هذه آيةٌ ثانية، فيها عِظَةٌ وتذكير بنظامِ الناس العامِّ؛ وهو نظامُ الازدواجِ، وكينونةِ العائلة، وأساسِ التناسل، وهو نظامٌ عجيب، جعَله اللهُ مرتكزًا في الجِبِلَّةِ، لا يَشِذُّ عنه إلا الشُّذَّاذُ(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ خَلْقَ الإنسانِ، بيَّن أنَّه لمَّا خلَق الإنسانَ، ولم يكُنْ مِن الأشياءِ التي تبقَىٰ وتدُومُ سِنينَ متطاوِلةً: أبقىٰ نوعَه بالأشخاصِ، وجعَله بحيث يتوالدُ؛ فإذا مات الأبُ، يقومُ الابنُ مقامَه؛ لئلا يوجِبَ فَقْدُ الواحدِ ثُلْمةً في العمارةِ لا تَنسدُّ(٣).

وبدأ أولًا مِن الآياتِ بالنشأةِ الأُولىٰ؛ وهي خَلْقُ الإنسانِ مِن التراب، ثم كونِه بشَرًا منتشِرًا؛ وهو خَلْقُ حيٍّ مِن جمادٍ، ثم أتبَعه بأن خلَق له مِن نفسِه زوجًا، وجُعِل بينهما تَوَادٌّ ورحمةٌ؛ وذلك خَلْقُ حيٍّ مِن عضوٍ حيٍّ(٤).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الذَّكَرَ والأنثىٰ المخلوقَينِ مِن الأرض، وكانت السَّماءُ كالذَّكَرِ للأرض التي خُلِق منها الإنسانُ، وكان خَلْقُهما مع كونِهما مخلوقَينِ مِن غيرِ شيءٍ أعجَبَ مِن خَلْقِه؛ فهو أدَلُّ علىٰ القدرةِ، وكان خَلْقُ الأرضِ التي هي كالأنثىٰ متقدِّمًا علىٰ عكسِ ما كان في الإنسانِ: أتبَعه ذِكْرَهما بادئًا بما هو كالذَّكَرِ، فقال مشيرًا

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٦٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٧١).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩١).
(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٨٤).

- بعد ما ذكر مِن آياتِ الأنفسِ - إلىٰ آياتِ الآفاق: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[1].

هذه الآيةُ الثالثة، وهي آيةُ النظامِ الأرضيِّ في خَلْقِ الأرضِ بمجموعها وسكَّانِها؛ فخَلْقُ السماواتِ والأرض آيةٌ عظيمة مشهودة بما فيها مِن تصاريفِ الأجرامِ السماوية والأرضية، وما هو محَلُّ العِبْرةِ مِن أحوالِهما المتقاربةِ المتلازِمة؛ كالليلِ والنهار والفصول، والمتضادَّةِ؛ كالعلوِّ والانخفاض[2].

ثم أتبَعه بما هو مُشاهَدٌ للعالَمِ كلِّهم؛ وهو خَلْقُ السماواتِ والأرضِ، واختلافُ اللغاتِ والألوان، والاختلافُ مِن لوازمِ الإنسان لا يفارِقُه[3].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر المُقِلَّةَ والمُظِلَّة ومَن فيهما، وبعضَ صفاتِهم اللازمة: ذكَر ما يَنشأُ عن كلٍّ مِن ذلك مِن الصفاتِ المفارِقة، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[4].

هذه آيةٌ رابعةٌ، وهي كائنةٌ في أعراضٍ مِن أعراضِ الناس، لا يخلو عنها أحدٌ مِن أفرادِهم، إلا أنَّها أعراضٌ مفارِقةٌ غيرُ ملازمةٍ، فكانت دُونَ الأعراضِ التي أُقيمت عليها الآيةُ الثالثة؛ ولذلك ذُكِرتْ هذه الآيةُ بعدها[5].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٢-٧٣).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٨٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٧١).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٥-٧٦).

لمَّا ذكَر بعضَ العرضيَّاتِ اللازمة -وهو الاختلافُ-، ذكَر الأعراضَ المفارِقةَ؛ ومِن جملتِها: النومُ بالليل، والحركةُ طلبًا للرزقِ بالنهار؛ فذكَر مِن اللوازمِ أمرَين، ومِن المفارِقة أمرين[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا ختَم بالسَّمعِ آيةً جمَعتْ آياتِ الأنفسِ والآفاق؛ لكونِها نشأت مِن أحوالِ البشَرِ والخافقين: افتتَح بالرؤيةِ آيةً أُخرىٰ جامعةً لهما؛ لكونِها ناشئةً عنهما، مع كونِها أدَلَّ علىٰ المقصودِ، جامعةً بَيْنَ الترغيبِ والترهيب، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

تلك آيةٌ خامسة، وهي متعلِّقةٌ بالإنسان، وليست متصلةً به[3].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان جميعُ ما مضىٰ مِن الآياتِ المرئيَّات ناشئًا عن هذينِ الخَلْقَينِ العظيمين المحيطين بمَن أُنزِلتْ عليهم هذه الآياتُ المسموعات بيانًا لِمَن أشكَل عليه أمرُ الآياتِ المرئيَّات، ذكَر أمرًا جامعًا للكلِّ، وهو مِن الوضوحِ بحيث لا يَحتاجُ إلىٰ

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٧٢-٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٧).

أكثَرَ مِن العقلِ المختومِ به ما قبلُ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾(١).

خُتِمتِ الآياتُ بهذه الآيةِ السادسة، وهي التي دلَّتْ على عظيمِ القُدْرةِ على حفظِ نظامِ المخلوقاتِ العظيمةِ بعد خَلْقِها؛ فخَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ آيةٌ مستقلةٌ تقدَّمتْ، وبقاءُ نظامِهما على مَمَرِّ القرونِ آيةٌ أخرى، وموقعُ العِبْرةِ مِن هاته الآيةِ هو أولُها؛ وهو أن تقومَ السَّماءُ والأرض هذا القيامَ المتقَنَ بأمرِ الله دُونَ غيره(٢).

لمَّا ذكَر مِن العوارضِ التي للسماءِ والأرض بعضَها، ذكَر مِن لوازمِها البعضَ؛ وهي قيامُها؛ فإنَّ الأرضَ لثِقَلِها يَتعجَّبُ الإنسانُ مِن وقوفِها وعدمِ نزولِها، وكونُ السماءِ يُتعجَّبُ مِن علوِّها وثباتِها مِن غيرِ عَمَدٍ، وهذا مِن اللوازمِ؛ فإنَّ الأرضَ لا تخرُجُ عن مكانِها الذي هي فيه، والسماءُ كذلك لا تخرُجُ عن مكانِها الذي هي فيه(٣).

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾

ولمَّا ذكَر تصرُّفَه في الظرفِ، وبعضِ المظروفِ مِن الإنس والجِنِّ؛ ذكَر قَهْرَه للكلِّ، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾(٤).

أتبَع ذِكْرَ إقامةِ الله تعالى السَّماواتِ والأرضَ بالتَّذكير بأنَّ كلَّ العقلاءِ في السَّماواتِ والأرض عبيدٌ لله تعالى، فعُطِفتْ عليها هذه الجملةُ زيادةً لبيانِ معنى إقامتِه السَّماءَ والأرض(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٩-٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٧٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ٨١-٨٢).

لمَّا ذكَر الآياتِ، وكان مدلولُها القدرةَ على الحشرِ التي هي الأصلُ الآخِرُ، والوَحْدانيَّةَ التي هي الأصلُ الأول: أشارَ إليها بقولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[1].

📖 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ 📖

ولمَّا كان هذا معنًى يشاهِدُه كلُّ أحدٍ في نفسِه مع ما جلَّى سبحانه مِن عرائسِ الآياتِ الماضيات، فوصَل الأمرُ في الوضوحِ إلى حدٍّ عظيمٍ؛ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2].

ثم ذكَر المدلولَ الآخَرَ، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾[3].

📖 ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ 📖

ولمَّا بانَ مِن هذا أنَّه المتفرِّدُ في المُلْكِ بشمولِ العلمِ وتمامِ القدرة وكمالِ الحِكْمة، اتَّصَل بحُسْنِ أمثالِه وإحكامِ مَقالِه وفعالِه قولُه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩٦).

﴿أَنفُسِكُمْۚ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(١)].

أتبع ضَرْبَ المثَلِ لإمكانِ إعادة الخَلْقِ عَقِبَ دليل بَدْئِه بضَرْبِ مثَلٍ لإبطالِ الشرك عَقِبَ دليلَيهِ المتقدِّمَين في قولِه تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، وقولِه: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لينتظِمَ الدَّليلُ علىٰ هذينِ الأصلَينِ المهمَّينِ: أصلِ الوَحْدانيَّة، وأصلِ البعث، وينكشِفَ بالتمثيلِ والتقريب بعد نهوضِه بدليلِ العقل[(٢)].

لمَّا بيَّن الإعادةَ والقدرة عليها بالمثَلِ بعد الدليلين، بيَّن الوَحْدانيَّةَ أيضًا بالمثَلِ بعد الدليل[(٣)].

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان جوابُهم قطعًا: ليس لنا شُركاءُ بهذا الوصفِ، كان التَّقديرُ: فلَمْ تتَّبِعوا في الإشراكِ بالله دليلًا، فنسَقَ عليه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[(٤)].

إضرابٌ إبطاليٌّ لِما تضمَّنَه التَّعريضُ الذي في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ إذ اقتضىٰ أنَّ الشَّأنَ أن ينتفِعَ الناسُ بمثلِ هذا المثَلِ، فيُقلِعَ المشركون منهم عن إشراكِهم، ويَلِجوا حظيرةَ الإيمان، ولكنَّهم اتبعوا أهواءَهم وما تُسوِّلُه لهم

(١) نظم الدرر (١٥/ ٧٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٨٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩٧).
(٤) نظم الدرر (١٥/ ٨١).

نفوسُهم، ولم يطلُبوا الحقَّ، ويَتفهَّموا دلائلَه؛ فهُمْ عن العلمِ بمنأىٰ؛ فالتَّقدير: فما نفعَتْهم الآياتُ المفصَّلة، بل اتبَعوا أهواءَهم(١).

إعراضٌ عن مخاطَبتِهم ومحاولةِ إرشادِهم إلىٰ الحقِّ بضربِ المثَلِ، وتفصيلِ الآيات، واستعمالِ المقدِّماتِ الحقَّةِ المعقولة، وبيانٌ لاستحالةِ تبعيَّتِهم للحقِّ، كأنَّه قيل: لم يَعقِلوا شيئًا مِن الآياتِ المفصَّلة، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٢).

ثم أضرَب سبحانه عن مخاطَبةِ المشركين وإرشادِهم إلىٰ الحقِّ بما ضرَبه لهم مِن المثَلِ، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٣).

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾

ولمَّا تحرَّرتِ الأدلَّةُ، وانتصَبتِ الأعلامُ، واتَّضَحت الخفايا، وصرَّحتِ الإشاراتُ، وأفصَحتْ ألسُنُ العباراتِ: أقبَلَ علىٰ خلاصةِ الخَلْقِ؛ إيذانًا بأنَّه لا يَفهَمُ ذلك حقَّ فهمِه غيرُه، فقال مسبِّبًا عن ذلك، ممثِّلًا لإقبالِه واستقامتِه وثباتِه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾(٤).

الفاءُ فصيحةٌ؛ والتَّقديرُ: إذا عَلِمتَ أحوالَ المعرِضين عن دلائلِ الحقِّ، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٨٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٥٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٥٨).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٨٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ٨٨).

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بتوحيده وعبادته كما أمره، فقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(1).

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن الناسِ مَن مَنَّ اللهُ عليه بأن كان في هذا الميدانِ، وسَمَتْ همَّتُه إلى مسابقةِ الفُرْسان، فلمَّا رأى أنَّه لم يلتفِتْ إليه، ولم يعوِّلْ أصلًا عليه: كادت نفسُه تطير، وكانت عادةُ القومِ أن يخاطِبوا القومَ لمخاطَبةِ رئيسِهم -تعظيمًا له، وحثًّا لهم على التَّحلِّي بما خُصَّ به-: جُبِرتْ قلوبُهم، وشُرِحتْ صدورُهم، فبُيِّنتْ لهم حالٌ مِن ضميرِ «أقم»، أو مِن العاملِ في «فطرت»؛ إعلامًا بأنَّهم مُرادون بالخطابِ، مشارٌ إليهم بالصَّوابِ، فقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(2).

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كانوا يظنُّون أنَّهم على صوابٍ، نصَب لهم دليلًا على بطلانِه بما لا أوضَحَ منه، ولا يمكِنُ أحدًا التَّوقُّفُ فيه؛ وذلك أنَّه لا يمكِنُ أن يكونَ الشَّيءُ مُتَّصفًا بنفيِ شيءٍ وإثباتِه في حالةٍ واحدةٍ، فقال مُبدِلًا: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(3).

ثم ذكَر حالةَ المشركين مهجِّنًا لها ومقبِّحًا، فقال: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(4).

---

(1) فتح القدير (٤/ ٢٥٨).
(2) نظم الدرر (١٥/ ٨٩).
(3) نظم الدرر (١٥/ ٩٠).
(4) تفسير السعدي (ص: ٦٤٠).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

ولمَّا حصَل مِن هذا القطعِ مِن كلِّ عاقلٍ أنَّ أكثَرَ الخَلْقِ ضالٌّ، فكان الحالُ جديرًا بالسُّؤالِ عن وجهِ الخلاص مِن هذا الضَّلال: أُشِيرَ إليه أنَّه لزومُ الاجتماع، وبيَّن ذلك في جملةٍ حاليَّةٍ مِن فاعلِ ﴿فَرِحُونَ﴾، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[1].

لمَّا بيَّن التوحيدَ بالدَّليلِ وبالمثَلِ، بيَّن أنَّ لهم حالةً يُعرَفون بها، وإن كانوا يُنكِرونها في وقتٍ؛ وهي حالةُ الشِّدة؛ فإنَّ عند انقطاعِ رجائِه عن الكلِّ يَرجِعُ إلىٰ الله، ويجدُ نفسَه محتاجةً إلىٰ شيءٍ ليس كهذه الأشياءِ طالبةً به النجاةَ[2].

ثم احتجَّ عليهم برجوعِهم إليه عند الشَّدائدِ، ممَّا يَحمِلُ أن يَرجِعَ إليه بعبادتِه دائمًا، بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[3].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾

ولمَّا كان هذا الفعلُ ممَّا لا يَفعَلُه إلا شديدُ الغباوةِ أو العناد، وكانوا يدَّعُون أنَّهم أعقَلُ النَّاسِ: رَبَأَ[4] بهم عن منزلةِ البُلْهِ إلىٰ ما الجنونُ خيرٌ منه؛ تهكُّمًا بهم، فقال: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٩١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٠).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ١٤).

(٤) أي: رفعهم.

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٩٣).

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا بكَّتهم بقولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾، ووصَل به ما تقدَّم أنَّه في غايةِ التَّواصل: عادَ له ملتفِتًا؛ إيذانًا بالتَّهاونِ بهم إلىٰ مقامِ الغَيْبةِ؛ إبعادًا لهم عن جَنابِه؛ حيث جلَّىٰ لهم هذه الأدلةَ، واستمَرُّوا في خطَرِ إغضابِه، بقوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾[١].

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ التفاتٌ مِن الخطابِ إلىٰ الغَيْبةِ؛ إيذانًا بالإعراضِ عنهم، وتعديدًا لجناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المُباثَّة[٢].

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا بانَ بهذينِ المتعادلينِ أنَّه لم يضطَرَّهم إلىٰ الإشراكِ عُرْفٌ في أنفسِهم مستمِرٌّ دائمٌ، ولا دليلٌ عقليٌّ ظاهرٌ، ولا أمرٌ مِن الله قاهرٌ؛ فبانَ أنَّهم لم يتَّبِعوا عقلًا ولا نقلًا، بل هم أسرىٰ الهوىٰ المبنيِّ علىٰ محضِ الجهلِ، وكان قد صرَّح بذلك عَقِبَ العديلِ الأول: لمَّح هنا، وترَكَ التَّصريحَ به؛ لإغناءِ الأول عنه، واستدَلَّ عليه بدليلٍ خالَفوا فيه العادةَ المستمِرَّة، والدَّلالةَ الشُّهوديَّة المستقِرَّة، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَإِذَا مَسَّ ﴾، دالًّا علىٰ خفَّةِ أحلامِهم مِن وجهٍ آخَرَ غيرِ الأول: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٩٤).

(٢) روح المعاني (١١/ ٤٣). والمباثة: أي المواساة؛ من البث؛ وهو إظهار الحزن.

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٩٤).

أُعِيدَ الكلامُ علىٰ أحوالِ المشركين زيادةً في بسطِ الحالةِ التي يتلقَّوْنَ بها الرَّحمةَ وضدَّها تلقِّيًا يستوون فيه بعد أن مُيِّز فيما تقدَّمَ حالُ تَلقِّي المشركين للرَّحمةِ بالكفرانِ المقتضي أنَّ المؤمنين لا يتلقَّوْنها بالكفران، فأُرِيدَ تنبيهُهم هنا إلىٰ حالةِ تَلقِّيهم ضدَّ الرَّحمةِ بالقُنوطِ؛ ليَحذَروا ذلك، ويرتاضُوا برجاءِ الفرَجِ والابتهالِ إلىٰ الله في ذلك، والأخذِ في أسبابِ انكشافها[1].

لمَّا بيَّن حالَ المشركِ الظاهرِ شِرْكُه، بيَّن حالَ المشركِ الذي دُونَه؛ وهو مَن تكونُ عبادتُه اللهَ للدُّنيا؛ فإذا آتاه رَضِيَ، وإذا منَعه سَخِطَ وقنَطَ، ولا ينبغي أن يكونَ العبدُ كذلك؛ بل ينبغي أن يعبُدَ اللهَ في الشِّدَّةِ والرَّخاء[2].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثم أنكَر عليهم إهمالَ التَّأمُّلِ في سُنَّةِ الله الشائعةِ في الناس: مِن لَحاقِ الضُّرِّ وانفراجِه، ومِن قسمةِ الحظوظِ في الرزق بَيْنَ بسطٍ وتقتيرٍ؛ فإنَّه كثيرُ الوقوعِ كلَّ حينٍ، فكما أنَّهم لم يَقنَطوا مِن بسطِ الرزقِ عليهم في حينِ تقتيرِه، فكدَحوا في طلبِ الرزقِ بالأسباب والدُّعاءِ، فكذلك كان حقُّهم أن يتلقَّوُا السُّوءَ النادر بمثلِ ما يتلقَّوْنَ به ضِيقَ الرزق، فيَسعَوْا في كشفِ السيئةِ بالتَّوبةِ والابتهال إلىٰ الله، وبتَعاطي أسبابِ زوالها مِن الأسبابِ التي نصَبها اللهُ تعالىٰ؛ فجملةُ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ ﴾ إلخ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠١).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠١).

ثـم ذكَـر تعـالىٰ الأمـرَ الـذي مَـن اعتبَـره لـم يَيْئَـسْ مِـن رَوْحِ اللهِ؛ وهـو أنَّـه تعـالىٰ هـو الباسطُ القابض؛ فينبغي ألا يقنَطَ، وأن يَتلقَّىٰ ما يَرِدُ مِن قِبَلِ اللهِ بالصبرِ في البلاء، والشُّكْرِ في النَّعْماءِ، وأن يُقلِعَ عن المعصيةِ التي أصابته السيِّئةُ بسببِها؛ حتىٰ تعُودَ إليه رحمةُ ربِّه(١).

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ ذلك عدمَ الاكتراثِ بالدُّنيا؛ لأنَّ الاكتراثَ بها لا يَزيدُها، والتَّهاونَ بها لا ينقُصُها، فصار ذلك لا يُفيد إلا تعجيلَ النَّكدِ بالكَدِّ والنَّصَبِ، وكان ممَّا تقدَّم أنَّ السَّيئةَ مِن أسبابِ المَحْقِ، سبَّب عنه الإقبالَ علىٰ إنفاقِها في حقوقِها؛ إعراضًا عنها، وإيذانًا بإهانتِها، وإيقانًا بأنَّ ذلك هو استيفاؤُها واستثمارُها واستنماؤها، فقال خاصًّا بالخطابِ أعظَمَ المتأهِّلينَ لتنفيذِ أوامره -لأنَّ ذلك أوقَعُ في نفوسِ الأتباع، وأجدَرُ بحُسْنِ القَبولِ منهم والسَّماع-: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

فاءُ التَّفريعِ تُفيد أنَّ الكلامَ بعدها مترتِّبٌ علىٰ الكلامِ الذي قبلها، وقد اشتمَل الكلامُ قبلها علىٰ لَحاقِ آثارِ رحمةِ اللهِ بالناس، وإصابةِ السُّوءِ إيَّاهم، وعلىٰ أنَّ ما يُصِيبُهم مِن السُّوءِ بما قدَّمتْ أيدي الناسِ، وذكَر بَسْطَ الرزقِ وتقديرَه، وتضمَّن ذلك أنَّ الفرَحَ يُلهيهم عن الشُّكرِ، وأنَّ القُنوطَ يُلهِيهم عن المحاسَبةِ في الأسباب؛ فكان الأمرُ بإيتاءِ الضُّعفاءِ والمنكوبين إرشادًا إلىٰ وسائلِ شُكرِ النِّعْمةِ عند حصولِها شكرًا مِن

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٩٨).

نوعِها، واستكشافِ الضُّرِّ عند نزولِه، وإلىٰ أنَّ مِن الحقِّ التَّوسعةَ علىٰ المضيَّقِ عليهم الرزقُ، كما يحبُّ أن يُوسَّعَ عليه رِزْقُه[1].

لمَّا ذكَر أنَّه تعالىٰ هو الباسطُ القابض، وجعَل في ذلك آيةً للمؤمنِ، ثم نبَّه بالإحسانِ لِمَن به فاقةٌ واحتياج؛ لأنَّ مِن الإيمانِ الشَّفقةَ علىٰ خَلْقِ الله، فخاطَب مَن بسَط له الرِّزْقَ بأداءِ حقِّ اللهِ مِن المال[2].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ السَّيئةَ أصابتهم بما قدَّمتْ أيديهم، أتبَعه ذِكْرَ ما يجبُ أن يُفعَلَ، وما يجب أن يُترَكَ، بقولِه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

لمَّا بيَّن سبحانه كيفيَّةَ التَّعظيمِ لأمرِ الله، أشار إلىٰ ما ينبغي مِن مواساةِ القَرابةِ وأهلِ الحاجات ممَّن بسَط اللهُ له في رزقِه، فقال: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وأمَّا مَن أنفَق علىٰ وجهِ الرياءِ الحقيقي، فقد صرَّح به تعريفًا بعظيمِ فُحْشِه، صارفًا الخطابَ عن المقامِ الشَّريفِ الذي كان مقبلًا عليه، تعريفًا بتنزُّهِ جَنابِه عنه، وبُعْدِ تلك الهمَّةِ العليَّة والسَّجايا الطاهرةِ النَّقيَّة منه، إلىٰ جهةِ مَن يمكِنُ ذلك منهم، فقال:

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٢).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٩٣).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ١٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٢٦١).

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[1].

لمَّا جرىٰ الترغيبُ والأمر ببذلِ المال لذوي الحاجةِ، وصلةِ الرَّحِمِ، وما في ذلك مِن الفلاحِ: أعقبَ بالتزهيدِ في ضربٍ آخَرَ مِن إعطاءِ المالِ لا يَرضَىٰ اللهُ تعالىٰ به، وكان الرِّبا فاشيًا في زمنِ الجاهليَّةِ وصدرِ الإسلام، وخاصَّةً في ثَقِيفٍ وقُريشٍ، فلمَّا أرشَد اللهُ المسلمين إلىٰ مواساةِ أغنيائِهم فقراءَهم، أتبَع ذلك بتهيئةِ نفوسهم للكفِّ عن المعاملةِ بالرِّبا للمقترِضين منهم؛ فإنَّ المعاملةَ بالرِّبا تُنافي المواساةَ؛ لأنَّ شأنَ المقترِضِ أنَّه ذو خَلَّةٍ[2]، وشأنَ المقرِضِ أنَّه ذو جِدَةٍ[3]؛ فمعاملتُه المقترِضَ منه بالرِّبا افتراصٌ لحاجتِه، واستغلالٌ لاضطرارِه؛ وذلك لا يَلِيقُ بالمؤمنين[4].

ولمَّا ذكَر العملَ الذي يُقصَدُ به وجهُه مِن النفقات، ذكَر العملَ الذي يُقصَدُ به مقصدٌ دُنيويٌّ، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[5].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٖۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا وضَّح بهذا أنَّه لا زيادةَ إلا فيما يَزيدُه الله، ولا خيرَ إلا فيما يختاره اللهُ؛ فكان ذلك مُزهِّدًا في زيادةِ الاعتناء بطلبِ الدُّنيا: بيَّن ذلك بطريقٍ لا أوضَحَ منه،

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٩٩-١٠٠).

(٢) أي: فقر.

(٣) أي: غنىٰ.

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٥).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٤٢).

فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

هذا الاستئنافُ الثاني مِن الأربعةِ التي أُقيمت عليها دلائلُ انفرادِ الله تعالىٰ بالتَّصرُّفِ في النَّاس، وإبطالِ ما زعَموه مِن الإشراكِ في الإلهيَّةِ؛ كما أنبأ عنه قولُه: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾، وإدماجًا للاستدلالِ علىٰ وقوعِ البعث، وقد جاء هذا الاستئنافُ علىٰ طريقةِ قولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، واطَّرد الافتتاحُ بمثلِه في الآياتِ التي أُريدَ بها إثباتُ البعثِ[2].

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن لهم سبحانه مِن حقارةِ شركائِهم ما كان حقُّهم به أن يَرجِعوا، فلم يَفعَلوا: أتبَعه ما أصابهم به علىٰ غيرِ ما كان في أسلافِهم عقوبةً لهم علىٰ قبيحِ ما ارتكَبوا؛ استعطافًا للتَّوبةِ، فقال: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3].

مَوقِعُ هذه الآيةِ ومعناها صالحٌ لعِدَّةِ وجوهٍ مِن الموعظةِ، وهي مِن جوامعِ كَلِمِ القرآنِ، والمقصدُ منها هو الموعظةُ بالحوادثِ -ماضيها وحاضرِها- للإقلاعِ عن الإشراك، وعن تكذيبِ الرسول ﷺ، فأمَّا موقعُها فيجوز أن تكونَ متصلةً بقولِه قبلها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآياتِ، فلمَّا

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٠٤).

طُولِبوا بالإقرارِ علىٰ ما رأَوْه مِن آثارِ الأُمَمِ الخالية، أو أنكَر عليهم عدمَ النَّظرِ في تلك الآثارِ: أتبَع ذلك بما أدَّىٰ إليه طريقُ الموعظةِ مِن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ومِن ذِكْرِ الإنذارِ بعذابِ الآخرة، والتَّذكيرِ بدلائلِ الوَحْدانيَّة ونِعَمِ الله تعالىٰ، وتفريعِ استحقاقِه تعالىٰ الشُّكْرَ لذاتِه ولأجلِ إنعامِه استحقاقًا مستقِرًّا إدراكُه في الفطرةِ البشرية، وما تخلَّل ذلك مِن الإرشادِ والموعظة: عادَ الكلامُ إلىٰ التَّذكيرِ بأنَّ ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضية مِن المصائبِ ما كان إلا بما كَسَبتْ أيديهم، فيوشِكُ أن يحُلَّ مثلُ ما حَلَّ بهم بالمخاطَبِينَ الذين كسَبتْ أيديهم مثلَ ما كسَبتْ أيدي أولئك؛ فموقعُ هذه الجملةِ علىٰ هذا الوجهِ موقعُ النَّتيجةِ مِن مجموعِ الاستدلال، أو موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ بتقديرِ سؤالٍ عن سببِ ما حلَّ بأولئك الأُمَمِ[١].

وجهُ تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها هو أنَّ الشركَ سببُ الفساد[٢].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كان الإنسانُ - لنقصِه في تقيُّدِه بالجزئيات - شديدَ الوقوفِ مع العقلِ التَّجربي، وكان علمُهم بأيامِ الماضين ووقائعِ الأوَّلين كافيًا لهم في العِظَةِ للرُّجوعِ عن اعتقادهم، والتَّبرِّي مِن عنادِهم، وكانوا لمَّا لم يرَوْا آثارَهم رؤيةَ اعتبارٍ، وتأمُّلٍ وادِّكارٍ، عُدُّوا ممَّن لم يَرَها: فنبَّه سبحانه علىٰ ذلك بالاحتجابِ عنهم بحجابِ العِزَّة؛ أمرًا له ﷺ بأن يأمرَهم بالسَّيرِ للنَّظر، فقال تأكيدًا لمعنىٰ الكلامِ السابق

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٥).

-نصحًا لهم، ورفقًا بهم-: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(١).

لمَّا بيَّن حالَهم بظهورِ الفسادِ في أحوالهم بسببِ فسادِ أقوالهم، بيَّن لهم هلاكَ أمثالِهم وأشكالِهم الذين كانت أفعالُهم كأفعالِهم، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(٢).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ مسُوقٌ لتأكيدِ تسبُّبِ المعاصي لغضَبِ اللهِ تعالىٰ، ونكالِه؛ حيث أُمِروا بأن يَسيروا فينظُروا كيف أهلَكَ اللهُ تعالىٰ الأُمَمَ، وأذاقهم سُوءَ العاقبةِ بمعاصيهم، ويَتحقَّقوا صِدْقَ ما تقدَّم(٣).

لمَّا بيَّن سبحانه ظهورَ الفسادِ بما كسَبتْ أيدي المشركين والعُصاةِ، بيَّن لهم ضلالَ أمثالِهم مِن أهلِ الزَّمنِ الأول(٤).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كانوا مع كثرةِ مرورِهم علىٰ ديارِهم، ونظَرِهم لآثارِهم، وسماعِهم لأخبارِهم، لم يتَّعِظوا: أُشِيرَ إلىٰ أنَّهم عدَمٌ؛ بصرفِ الخطابِ عنهم، وتوجيهِه إلىٰ السامعِ المطيعِ، فقال مسبِّبًا عمَّا مضىٰ مِن إقامةِ الأدلةِ والوعظ والتَّخويف: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٠٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٥).
(٣) روح المعاني (١١/ ٤٩).
(٤) فتح القدير (٤/ ٢٦٣).
(٥) نظم الدرر (١٥/ ١٠٧-١٠٨).

تفرَّعَ على الإنذارِ والتحذير مِن عواقبِ الشركِ تثبيتُ الرسولِ ﷺ على شريعتِه، ووعدٌ بأن يأتيَه النصرُ، مع التعريضِ بالإرشادِ إلى الخلاص مِن الشركِ باتِّباع الدِّينِ الحق(١).

لمَّا نهى الكافرَ عمَّا هو عليه، أمَر المؤمنَ بما هو عليه، وخاطَب النبيَّ ﷺ ليَعلَمَ المؤمنُ فضيلةَ ما هو مكلَّفٌ به؛ فإنَّه أُمِر به أشرَفُ الأنبياءِ(٢).

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا كان المعنى: أنَّهم فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السَّعير، بيَّن ذلك ببيانِ عاقبةِ سببه في جوابِ مَن كأنَّه قال: إلى أين يَتفرَّقون؟ قائلًا: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(٣).

هذه الجملةُ تَتنزَّلُ منزلةَ البيانِ لإجمالِ الجملة التي قبلها؛ وهي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾؛ إذ التثبيتُ على الدِّينِ بعد ذِكْرِ ما أصاب المشركين مِن الفسادِ بسببِ شِرْكِهم يَتضمَّنُ تحقيرَ شأنِهم عند الرسولِ ﷺ والمؤمنين، فبيَّن ذلك بأنَّهم لا يضُرُّون بكفرِهم إلا أنفسَهم، وابتُدِئ بذِكْرِ حالِ ﴿مَن كَفَرَ﴾، ثم ذُكِر بعده ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، واقتضى حرفُ الاستعلاءِ أنَّ في الكفرِ تَبِعةً وشِدَّةً وضُرًّا على الكافرِ(٤).

ثم ذكَر حالتَيِ المتفرِّقين: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٦).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٠٧-١٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١١٦).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٩٦).

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾

ولمَّا فرَغ مِن بيانِ تصدُّعِهم، ذكَر عِلَّتَه، فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

ذكَر زيادةَ تفصيلٍ لِما يمهِّدُه المؤمنُ لفعلِه الخيرَ، وعمله الصالح؛ وهو الجزاءُ الذي يجازيه به اللهُ(٢).

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦﴾

ولمَّا ختَم في أولِ السُّورةِ الآياتِ الدالَّةَ علىٰ الوَحْدانيَّةِ المستلزِمة للبعثِ؛ لأنَّ به تمامَ ظهورِ الحِكْمة، وانكشافَ غطاءِ القلوبِ عن صفاتِ العظَمة، بأنَّ قيامَ السَّماءِ والأرض بأمرِه، وأتبَع ذلك ما اشتَدَّ التحامُه به، وختَمه ببغضِ الكافرين بعد ذِكْرِ يومِ البعث: أتبَعه ذِكْرَ ما حَفِظ به قيامَ الوجود؛ وهو الرياحُ، يَجعَلُها سببًا في إدرارِ النِّعَمِ التي منها ما هو أعظَمُ أدلةِ البعث؛ وهو النباتُ، وهي بجملتِها دليلُ ذلك، وسببُ القرارِ في البرِّ، والسَّيْرِ في البحرِ الموصِّلِ لمنافعِ بعضِ البلاد إلىٰ بعضٍ، وبذلك انتظَم الأمرُ لأهلِ الأرض، فاستعمَل المؤمنُ منهم ما رزَقه سبحانه مِن العقلِ في النَّظرِ في ذلك حتىٰ أدَّاه إلىٰ شُكْرِه، فأحَبَّه، واقتصَر الكافرُ علىٰ الدَّأَبِ فيما يستجلِبُ به تلك النِّعَمَ ويستكثِرُها، فأبطَرَه ذلك، فأوصَله إلىٰ كُفْرِه، فأبغَضَه، والرياحُ أيضًا أشبَهُ شيءٍ بالنَّاسِ؛ منها النافعُ نفعًا كبيرًا، ومنها الضارُّ ضرًّا كثيرًا، فقال:

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١١١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٦).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

عَوْدٌ إلىٰ تَعْدادِ الآياتِ الدالَّةِ علىٰ تفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ فهو عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾، وما تخلَّل بينهما مِن أفانينِ الاستدلالِ علىٰ الوَحْدانيَّةِ والبعث، ومِن طرائقِ الموعظة كان لتطريةِ نشاطِ السامعين لهذه الدَّلائلِ الموضِّحة المبيِّنة[2].

لمَّا ذكَر أنَّ ظهورَ الفسادِ والهلاك بسببِ الشركِ، ذكَر ظهورَ الصلاح، ولم يذكُرْ أنَّه بسببِ العملِ الصالح؛ لِما ذكَرْنا غيرَ مرةٍ أنَّ الكريمَ لا يذكُرُ لإحسانِه عِوَضًا، ويذكُرُ لأضرارِه سببًا؛ لئلا يُتوهَّمَ به الظُّلْمُ[3].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فمَن شكَر أذاقه مِن رحمتِه، ومَن كفَر أنزَل عليه مِن نِقْمتِه، وكان السِّياقُ كلُّه لنصرِ أوليائِه، وقهرِ أعدائِه، وكانت الرِّياحُ مبشِّراتٍ ومنذِراتٍ كالرُّسلِ، وكانت موصوفةً بالخيرِ؛ كما في الصحيحِ عن عائشةَ رضي الله عنها: «فلَرسولُ اللهِ ﷺ حين يَلْقاه جِبْريلُ عليه السلام أجوَدُ بالخيرِ مِن الرِّيحِ المُرسَلة»[4]، وكانت في كثرةِ منافعِها وعمومِها إن كانت نافعةً، ومَضارِّها إن كانت ضارَّةً، أشبَهَ شيءٍ بالرُّسلِ في إنعاشِ قومٍ، وإهلاكِ آخَرين، وما يَنشأُ عنها كما ينشأ عنهم؛ فلما كان الأمر كذلك، قال:

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١١٢-١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

هذه جملةٌ معترضةٌ مستطرَدةٌ، أثارَها ذِكْرُ سير الفُلْكِ في عِدادِ النِّعَم؛ فعُقِّبَ ذلك بما كان سير الفُلْكِ فيه تذكير بنِقْمةِ الطُّوفانِ لقومِ نوحٍ، وبجَعْلِ اللهِ الفُلْكَ لنجاةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وصالحِي قومِه مِن نِقْمةِ الطوفان، فأُريدَ تحذيرُ المكذِّبين مِن قُرَيشٍ أن يُصِيبَهم ما أصاب المكذِّبينَ قبلهم، وكان في تلك النِّقْمةِ نَصْرُ المؤمنين[٢].

لمَّا بيَّن الأصلينِ ببراهينَ، ذكَر الأصلَ الثالث؛ وهو النبوَّةُ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

اعتراضٌ لتسليته ﷺ بمَن قبْلَه على وجهٍ يَتضمَّن الوعدَ له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والوعيدَ لِمَن عصَاه، وفي ذلك أيضًا تحذيرٌ عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّكرِ[٤].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أقام سبحانه الدَّليلَ على البعثِ وإقامةِ الوجودِ بتصريفه الرياحَ كيف يشاء، وأتبَعه آيةَ التَّسليةِ والتَّهديد، وكان عذابُ المذكورين فيها بالرِّيحِ أو ما هي سببُه، أو

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١١٦-١١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٨).

(٤) روح المعاني (١١/ ٥٢).

لها مَدخَلٌ فيه: أتبَع ذلك الإعلامَ بأنَّه مختصٌّ بذلك سبحانه؛ تنبيهًا على عظيمِ آيةِ الرِّياحِ؛ للحَضِّ على تدبُّرها، مؤكِّدًا لأمرِ البعث ومصرِّحًا به، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾(١).

وجاءت المناسبةُ هنا لذِكرِ الاستدلالِ بإرسالِ الرِّياح في قوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾؛ استدلالًا على التَّفرُّدِ بالتَّصرُّف، وتصويرِ الصُّنْعِ الحكيم الدالِّ على سَعةِ العلمِ، ثم أُعقِبَ بالاستدلالِ بإرسالِ الرِّياح توسُّلًا إلى ذِكْرِ إحياءِ الأرض بعد موتِها المستدَلِّ به على البعثِ؛ فقد أفادت صيغةُ الحصرِ بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ أنَّه هو المتصرِّفُ في هذا الشأنِ العجيب دُونَ غيرِه، وكفى بهذا إبطالًا لإلهيَّةِ الأصنام؛ لأنَّها لا تستطيعُ مثلَ هذا الصُّنْعِ الذي هو أقربُ التَّصرُّفاتِ في شؤونِ نفعِ البشر(٢).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما أُجمِلَ فيما سبَق مِن أحوالِ الرِّياح(٣).

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ثم بيَّن طيشَهم وعَجْزَهم بقوله: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٢١).

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾

ولمَّا انكشَف بذلك الغطاءُ، وزاحت الشُّبَهُ: أعرَض سبحانه عنهم؛ على تقديرِ أن يكونَ «ترىٰ» لِمَن فيه أهليَّةُ الرُّؤية؛ إيذانًا بأنَّه لا فَهْمَ لهم، ملتفِتًا إلىٰ خلاصةِ الخَلْقِ الصالحِ للتَّلقِّي عنه، قائلًا مسبِّبًا عن ذلك: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

رُتِّب علىٰ ما تقرَّر مِن استحضارِ صورةِ تكوين أسبابِ المطر، واستبشارِ النَّاس بنزولِه بعد الإبلاسِ: أنِ اعترِض بذِكْرِ الأمرِ بالنَّظر إلىٰ أثرِ الرَّحمة، وإغاثةِ اللهِ عبادَه حين يُحيِي لهم الأرضَ بعد موتِها بالجفافِ، والأمرُ بالنَّظرِ للاعتبارِ والاستدلال[(٢)].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾

ولمَّا كان تكْرارُ مشاهَدتِهم لمثلِ هذا الاقتدارِ لا يُفيدهم علمًا باللهِ تعالىٰ، دلَّ علىٰ ذلك بقولِه -لافتًا الكلامَ إلىٰ سياقِ العظَمة؛ تنبيهًا علىٰ عظيمِ عفوِه سبحانه مع تمامِ القدرة، مؤكِّدًا له غايةَ التَّأكيد؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه ليس مِن شأنِ العقلاء عدمُ الاستفادةِ بالمواعظ، معبِّرًا بأداةِ الشَّك؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ إنعامَه أكثرُ مِن انتقامه، مؤكِّدًا بالقَسَمِ لإنكارِهم الكفرَ-: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾[(٣)].

لمَّا بيَّن أنَّهم عند توقُّفِ الخيرِ يكونون مُبْلِسينَ آيِسينَ، وعند ظهورِه يكونون مستبشِرين: بيَّن أن تلك الحالةَ أيضًا لا يدُومُون عليها؛ بل لو أصاب زَرْعَهم رِيحٌ مصفَرٌّ، لكفَروا؛ فهم منقلِبون غيرُ ثابتين؛ لنظرِهم إلىٰ الحالِ، لا إلىٰ المآل[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٣).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٢٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٠٩).

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه مِن حالِهم في سرعةِ الحُزْنِ والفرَحِ في حالتَي الشِّدَّةِ والرَّخاء وإصرارِهم علىٰ تجديدِ الكفر دليلًا علىٰ خفَّةِ أحلامهم، وسوءِ تدبُّرهم؛ فإنهم لا للآياتِ المرئيَّة يعُونَ، ولا للمتلوَّةِ عليهم يَسمَعون: سبَّب عن ذلك التَّعريفَ بأنَّ أمرَهم ليس لأحدٍ غيرِه سبحانه، وهو قد جعَلهم أمواتَ المعاني، فقال ممثِّلًا لهم بثلاثةِ أصنافٍ مِن النَّاس، وأكَّده؛ لأنَّهم يُنكِرون أن يكونَ حالُهم كذلك، والنبيُّ ﷺ شديدُ السَّعيِ في إسماعِهم والجُهْدِ في ذلك: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾(١).

الفاءُ للتَّرتيبِ علىٰ قوله: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾، المفيدِ أنَّ الكفرَ غالبُ أحوالِهم؛ لأنَّهم بَيْنَ كفرٍ بالله، وبين إعراضٍ عن شُكْرِه(٢).

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا علَّم رسولَه ﷺ أنواعَ الأدلةِ، وأصنافَ الأمثلة، ووعَد وأوعَد، ولم يَزِدْهم دعاؤه إلا فرارًا، وإنباؤه إلا كفرًا وإصرارًا؛ قال له: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾(٣).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ مَن أنكَر قُدْرتَهُ علىٰ إحياءِ الزَّرعِ بعد اصفرارِه، وقد رأىٰ قُدْرتَهُ علىٰ إحياءِ الأرضِ بعد موتها: فهو ميِّتٌ، لا يُمكِنُ إسماعُه خبرَ إحياءِ الموتىٰ، بقوله سبحانه: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾(٤).

تعليلٌ لِما يُفهَمُ مِن الكلامِ السابق، كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ لعدمِ اهتدائهم بتذكيرِك؛ ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٥-١٢٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١١٠).

(٤) محاسن التأويل (٨/ ٢٠).

(٥) روح المعاني (١١/ ٥٤).

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا بدأ بفاقدِ حاسَّةِ السَّمع؛ لأنَّها أنفعُ مِن حيث إنَّ الإنسانَ إنَّما يفارِقُ غيرَه مِن البهائمِ بالكلام: أتبَعها حاسَّةَ البصرِ، مشيرًا بتقديمِ الضَّمير إلىٰ أنَّه رسولُ الله ﷺ، يجتهدُ في هدايتِهم اجتهادَ مَن كأنَّه يفعلُه بنفسِه تدريبًا لغيرِه في الاقتصادِ في الأمور، فقال: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

ثم وصَفهم بالعُمْي، فقال: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه علىٰ قُدْرتِهِ علىٰ البعثِ بوجوهٍ مِن الدَّلالاتِ؛ تارةً في الأجسام، وتارةً في القُوَىٰ، وأكثَرَ علىٰ ذلك في هذه السُّورةِ مِن الحُجَجِ البيِّنات، وختَم بأنَّه لا يُبصِرُ هذه البراهينَ إلا مَن حسُنتْ طويَّتُه، فلانَتْ للأدلَّةِ عريكتُه[3]، وطارت في فَيافي المقاديرِ بأجنحةِ العلوم فِكْرتُه ورَوِيَّتُه: وصَل بذلك دليلًا جامعًا بين القدرةِ علىٰ الأعيانِ والمعاني إبداءً وإعادةً؛ ولذلك لفَتَ الكلامَ إلىٰ الاسمِ الجامع، ولَفْتُه إلىٰ الخطابِ للتَّعميمِ والاستعطاف بالتَّشريف، فقال مؤكِّدًا إشارةً إلىٰ أنَّ ذلك دالٌّ علىٰ قُدْرتِه علىٰ البعثِ ولا بدَّ وهُمْ يُنكِرونها، فكأنَّهم يُنكِرونه؛ فإنَّه لا انفكاكَ

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٢٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٦٧).

(٣) أي: طبيعته، والمعنىٰ: صار سلسًا منقادًا.

لأحدِهما عن الآخر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(١).

هذا رابعُ استئنافٍ مِن الأربعةِ المتقدِّمة؛ رجوعٌ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ عظيمِ القدرة في مختلِفِ المصنوعاتِ مِن العوالَمِ؛ لتقريرِ إمكانيةِ البعثِ، وتقريبِ حصوله إلىٰ عقولِ منكِريه؛ لأنَّ تعدُّدَ صُوَرِ إيجادِ المخلوقات وكيفيَّاتِه مِن ابتدائِها عن عدَمٍ، أو مِن إعادتِها بعد انعدامِها، وبتطوُّرٍ، وبدُونِه: ممَّا يَزيدُ إمكانَ البعثِ وضوحًا عند منكِريه(٢).

لمَّا أعاد مِن الدَّلائلِ التي مضَتْ دليلًا مِن دلائلِ الآفاق؛ وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، وذكَر أحوالَ الرِّيح مِن أوَّلِه إلىٰ آخِره: أعاد دليلًا مِن دلائلِ الأنفُسِ؛ وهو خَلْقُ الآدميِّ، وذكَر أحوالَه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(٣).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾

ولمَّا ثبَتتْ قُدْرتُه علىٰ البعثِ وغيرِه، عطَف علىٰ قولِه أولَ السُّورةِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أو علىٰ ما تقديرُه: فيومَ يريدُ موتكم تموتون، لا تَستأخرون عن لحظةِ الأجلِ ولا تَستقدمون، قولَه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٢٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٧).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١١١).
(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٣٠).

لمَّا ذكَر عدمَ انتفاعِ المشركين بآياتِ القرآن، وشُبِّهوا بالأمواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ؛ فظهَرتْ فظاعةُ حالِهم في العاجلة: أتبَع ذلك بوصفِ حالِهم حينَ تقومُ الساعة في استصحابِ مكابَرتِهم التي عاشوا عليها في الدُّنيا[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا وصَف الجاهلين، أتبَعه صفةَ العلماءِ، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

جعَل اللهُ منكِري البعثِ هدفًا لسهامِ التَّغليظِ والافتضاح في وقتِ النُّشور، فلمَّا سَمِع المؤمنون الذين أُوتُوا علمَ القرآنِ، وأشرَقتْ عقولُهم في الحياةِ الدُّنيا بالعقائدِ الصحيحةِ وآثارِ الحِكْمةِ: لم يتمالكوا ألا يرُدُّوا عليهم غلَطَهم ردًّا يكونُ عليهم حسراتٍ ألا يكونوا قَبِلوا دعوةَ الحقِّ كما قَبِلَها المؤمنون، وهذه الجملةُ معترِضةٌ[3].

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا كان قولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في أشكالِها مِن الآياتِ دالًّا على أنَّ هذه الدُّنيا دارُ العمل، وأنَّ دارَ الآخرة دارُ الجزاء، وأنَّ البَرْزخَ هو حائلٌ بينهما؛ فلا يكون في واحدةٍ منهما ما للأخرى: سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ١٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٠-١٣١).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٣٢).

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا أبانت هذه السُّورةُ طُرُقَ الإيمانِ أيَّ بيانٍ، وألقَتْ على وجوهِ أهلِ الطُّغيان غايةَ الخِزْيِ والهوان، وكان التَّقديرُ: لقد أتَيْنا في هذه السُّورةِ خاصةً بعد عمومِ ما في سائرِ القرآن بكلِّ حُجَّةٍ لا تقومُ لها الأمثالُ، ولم نُبقِ لأحدٍ عذرًا ولا شيئًا مِن إشكالٍ؛ لكونِها ليس لها في وضوحِها مثالٌ: عطَف عليه قولَه صارفًا الكلامَ إلى مقامِ العظمةِ؛ تقبيحًا لمخالَفتِهم لِما يأتي مِن قِبَلِه وترهيبًا مِن الأخذِ، مؤكِّدًا لأنَّهم يُنكِرون أن يكونَ في القرآن دلالةٌ، ومَن أقرَّ منهم مع الكفرِ، فكفرُه قائمٌ مقامَ إنكارِه: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾(١).

لمَّا انتهى ما أقيمت عليه السُّورةُ مِن دلائلِ الوَحْدانيَّةِ، وإثباتِ البعثِ: عقَّب ذلك بالتَّنويهِ بالقرآنِ، وبلوغِه الغايةَ القُصْوى في البيانِ والهدى(٢).

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أعجَبِ العجَبِ أنَّ مَن يدَّعي العقلَ يُصِرُّ على التَّكذيب بالحقِّ، ولا يُصغِي لدليلٍ، ولا يهتدي لسبيلٍ؛ قال مستأنِفًا في جوابِ مَن سأله: هل يكونُ مثلُ هذا الطَّبْعِ؟ ومرغِّبًا في العلمِ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٣٤-١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٣٦).

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مذكِّرًا بعظيمِ قُدْرتِه بعد الإياسِ مِن إيمانهم، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(١).

ثم أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ بالصَّبرِ معلِّلًا لذلك بحَقِّيَّةِ وعدِ الله، وعدمِ الخُلْفِ فيه، فقال: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٣٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٦٨).

سورة لقمان

📖 ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ 📖

ولمَّا كان الإحسانُ ما دعَتْ إليه سورةُ «الرُّومِ» مِن الإيمانِ بلقاءِ الله، منزَّهًا عن شوائبِ النقصِ، موصوفًا بأوصافِ الكمال، معبودًا بما شرَعه على وجهِ الإخلاص، والانقيادِ مع الدَّليلِ كيفما توجَّهَ، والدَّورانِ معه كيفما دارَ، وكان ذلك هو عينَ الحِكْمةِ؛ قال تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

📖 ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ 📖

ثم وصَفهم في سياقِ الرَّحمةِ والحِكْمةِ والبيان بالعدلِ؛ بيانًا لهم بما دعَتْ إليه سورةُ «الرُّومِ» مِن كمالِ الإحسانِ في معاملة الحقِّ والخَلْقِ اعتقادًا وعملًا، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٢).

ثم بيَّن عمَلَ المحسنين، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٤٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ١٤٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٦٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

ولمَّا كانت هذه الخِلالُ أمَّهاتِ الأفعال الموجِبة للكمال، وكانت مساويةً مِن وجهٍ لآيةِ «البقرةِ»: ختَمها بختامِها، بعد أن زَمَّها بزِمامِها، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

ثم بعد أن وصَفهم، ذكَر ثوابَهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ ﴾

ولمَّا كان فَطْمُ النَّفسِ عن الشَّهواتِ أعظَمَ هدًىٰ قائدٍ إلىٰ حصولِ المرادات، وكان اتِّباعُها الشَّهواتِ أعظَمَ قاطعٍ عن الكمالات، وكان في ختامِ «الرُّومِ» أنَّ مَن وقَف مع الموهوماتِ عن طلبِ المعلومات مطبوعٌ علىٰ قلبِه، وكان ما دعا إليه الكتابُ هو الحِكْمةَ التي نتيجتُها الفوزُ، وما دعا إليه اللَّهوُ هو السَّفَهَ المضادَّ للحِكْمة، بوضعِ الأشياءِ في غيرِ مواضعِها، المثمِرِ للعطَبِ؛ قال تعالىٰ معجِّبًا ممَّن يترُكُ الجِدَّ إلىٰ اللَّهوِ، ويَعدِلُ عن جوهرِ العلم إلىٰ صِدْقِ السَّهْوِ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فمِن النَّاسِ مَن يتحلىٰ بهذا الحال، فيرقَىٰ إلىٰ حلبةِ أهلِ الكمال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّ حالَ الكتابِ الحكيم هُدًىٰ ورحمةٌ للمحسِنين، وأنَّ مِن الناس مُعرِضين عنه يؤثِرون لَهْوَ الحديثِ؛

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ١٤٥-١٤٦).

ليُضِلُّوا عن سبيلِ الله الذي يَهدِي إليه الكتابُ، وهذا مِن مقابلةِ الثناءِ على آياتِ الكتاب الحكيم بضدِّ ذلك في ذَمِّ ما يأتي به بعضُ الناس، وهذا تخلُّصٌ مِن المقدِّمةِ إلى مدخلٍ للمقصود(١).

لمَّا بيَّن أنَّ القرآنَ كتابٌ حكيم يشتمِلُ على آياتٍ حكيمة، بيَّن مِن حالِ الكفَّارِ أنَّهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيرِه(٢).

لمَّا ذكَر مِن صفاتِ القرآنِ الحِكْمةَ، وأنَّه هُدًى ورحمةٌ، وأنَّ متَّبِعَه فائزٌ: ذكَر حالَ مَن بدَّل بطلَبِ الحِكْمةِ اللَّهْوَ، وذكَر مبالغتَه في ارتكابِه حتى جعَله مشتريًا له، وباذلًا فيه رأسَ عقلِه، وذكَر عِلَّتَهُ، وأنَّها الإضلالُ عن طريقِ الله(٣).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ قد يكون غافلًا، فإذا نُبِّه انتبَه: دلَّ سبحانه على أنَّ هذا الإنسانَ المنهمِك في أسبابِ الخسرانِ لا يزدادُ على مَرِّ الزَّمانِ إلا مفاجأةً لكلِّ ما يَرِدُ عليه مِن البيانِ بالبَغْيِ والطُّغيان، فقال -مُفرِدًا للضميرِ حملًا على اللفظِ أيضًا؛ لئلا يَتعلَّقَ متمحِّلٌ بأنَّ المذمومَ إنَّما هو الجمعُ، صارفًا الكلامَ إلى مظهرِ العظَمةِ؛ لِما اقتضاه الحالُ مِن الترهيبِ-: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١١٥).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٠٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٤٩-١٥٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا كانت معرفةُ ما لأحدِ الجزأينِ باعثةً علىٰ السُّؤالِ عمَّا للحزبِ الآخر، وكانت إجابةُ السُّؤالِ عن ذلك مِن أتمِّ الحِكْمةِ: استأنف تعالىٰ قولَه مؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ الكفرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

لمَّا ذكَر عذابَ مَن يُضِلُّ عن سبيلِ الله، أتبَع ببشارةِ المحسِنين[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لحالِ المؤمنين بآياتِه تعالىٰ إثرَ بيانِ حالِ الكافرين بها[3].

ثم لمَّا بيَّن سبحانه حالَ مَن يُعرِضُ عن الآياتِ، بيَّن حالَ مَن يُقبِلُ عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[4].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا كان ذلك قد لا يكونُ دائمًا، وكان لا سرورَ بشيءٍ منقطِعٍ؛ قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[5].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا ختَم بصفتَي العِزَّةِ -وهي غايةُ القدرةِ- والحِكْمةِ -وهي ثمرةُ العلمِ-: دلَّ عليها بإتقانِ أفعالِه وإحكامِها، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٦٩).

(٤) فتح القدير (٤/ ٢٧١).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ١٥٢).

ﭐلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[1].

استئنافٌ للاستدلالِ على الذين دأبُهم الإعراضُ عن آياتِ الله بأنَّ اللهَ هو خالِقُ المخلوقاتِ؛ فلا يستحِقُّ غيرُه أن تُثبَتَ له الإلهيَّةُ؛ فكان ادعاءُ الإلهيَّةِ لغيرِ الله هو العلَّةَ للإعراضِ عن آياتِ الكتاب الحكيم، فهُمْ لمَّا أثبَتوا الإلهيَّةَ لِما لا يخلُقُ شيئًا، كانوا كمَنْ يزعُمُ أنَّ الأصنامَ مماثِلةٌ للهِ تعالى في أوصافِه؛ فذلك يقتضي انتفاءَ وصفِ الحِكْمةِ عنه كما هو مُنتفٍ عنها؛ ولذا فإنَّ موقعَ هذه الآياتِ موقعُ دليلِ الدَّليل، وهو المقامُ المُعبَّرُ عنه في علمِ الاستدلالِ بالتَّدقيقِ؛ وهو ذِكْرُ الشيءِ بدليلِه، ودليلِ دليلِه[2].

ثم بيَّن سبحانه عِزَّتَه وحِكْمتَه بقولِه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[3].

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذا الخَلْقِ العظيم على هذا الوجهِ المُحكَمِ عِزَّتُه وحِكْمتُه، ثبَتَتْ ألوهيَّتُه؛ فألزَمهم وجوبَ توحيدِه في العبادةِ كما توحَّدَ بالخَلْقِ؛ لأنَّ ذلك عينُ الحِكْمةِ، كما

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٧١).

كان خَلْقُه لهذا الخَلْقِ على هذا النظامِ ليدُلَّ عليه سبحانه سِرّ الحِكْمةِ، فقال ملقِّنًا للمحسِنين مِن حِزْبه ما ينبِّهون به المخالِفين، موبِّخًا لهم، مقبِّحًا لحالِهم في عدولِهم عنه مع علمِهم بما له مِن التَّفرُّدِ بهذه الصَّنائعِ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

جملةُ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخرِها نتيجةُ الاستدلالِ بخَلْقِ السماءِ والأرض، والجبالِ والدوابِّ، وإنزالِ المطر(٢).

إشارةٌ إلى ما ذكَر مِن مخلوقاتِه، وبَّخ بذلك الكفَّارَ، وأظهَرَ حُجَّتَه(٣).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتتْ حِكْمتُه سبحانه، وأنَّه أبعَدَهم عنها بما قضى عليهم مِن الجهلِ وغباوةِ العقل، وآتاها مَن تاب، واعتصَم بآياتِ الكتاب: توقَّع السامعُ الإخبارَ عن بعضِ مَن آتاه الحِكْمةَ مِن المتقدِّمين الذين كانوا مِن المحسِنين، فوضَعوا الأشياءَ في مواضعِها، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾(٤).

لمَّا بيَّن اللهُ فسادَ اعتقادِهم بسببِ عنادِهم بإشراكِ مَن لا يخلُقُ شيئًا بمَن خلَق كلَّ شيء، وبيَّن أنَّ المشركَ ظالمٌ ضالٌّ: ذكَر ما يدلُّ على أنَّ ضلالَهم وظُلْمَهم بمقتضى

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٥٣-١٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤٧).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٤١١).
(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٥٦-١٥٧).

الحِكْمةِ، وإن لم يكُنْ هناك نبوَّةٌ، وهـذا إشارةٌ إلى معنًى؛ وهـو أنَّ اتِّباعَ النبيِّ ﷺ لازِمٌ فيما لا يُعقَلُ معناه إظهارًا للتعبُّدِ، فكيف ما لا يَختَصُّ بالنبوَّةِ، بل يُدرَكُ بالعقلِ معناه، وما جاء به النبيُّ ﷺ مُدرَكٌ بالحِكْمةِ، وذكَر حكايةَ لُقمانَ، وأنَّه أدرَكَه بالحِكْمةِ(١).

ثم أشار تعالى إلى أنَّ بطلانَ الشركِ مقُولٌ على لسانِ ذَوِي الحِكْمةِ، كيف لا؟ والتَّوحيدُ أساسُ الحكمةِ، بقولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان الإنسانُ لا يَعرِفُ حِكْمةَ الحكيمِ إلا بأقوالِه وأفعالِه، ولا صِدْقَ الكلامِ وحِكْمتَه إلا بمطابقتِه للواقعِ، فكان التَّقديرُ: اذكُرْ ما وصَفْنا به لُقمانَ لِتُنزِّلَ عليه ما تَسمَعُ مِن أحوالِه وأفعالِه في توفيةِ حقِّ اللهِ وحقِّ الخَلْقِ الذي هو مدارُ الحِكْمةِ؛ عطَفَ عليه قولَه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ فمضمونُ هذه الجملةِ يفسِّرُ بعضَ الحِكْمةِ التي أوتيَها لُقمانُ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١١٨).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٢٧).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١٥٣).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه وتعالىٰ ما أوصىٰ به ولَدَه مِن شُكْرِ المُنعِمِ الأولِ الذي لم يَشرَكْهُ في إيجادِه أحدٌ، وذكَر ما عليه الشركُ مِن الفظاعةِ والشَّناعة والبشاعة: أتبَعه سبحانه وصيَّتَه للولدِ بالوالد؛ لكونِه المنعِمَ الثانيَ المتفرِّدَ سبحانه بكونِه جعَله سببَ وجودِ الولدِ؛ اعترافًا بالحقِّ -وإن صغُرَ- لأهلِه، وإيذانًا بأنَّه لا يشكُرُ اللهَ مَن لا يشكُرُ الناسَ، وتفخيمًا لحقِّ الوالدَينِ؛ لكونِه قرَن عقوقَهما بالشركِ، وإعلامًا بأنَّ الوفاءَ شيءٌ واحد، متىٰ نقَص شيءٌ منه، تَداعىٰ سائرُه؛ ولذلك قال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(1).

إذا درَجْنا علىٰ أنَّ لُقمانَ لم يكُنْ نبيًّا مبلِّغًا عن الله، وإنَّما كان حكيمًا مرشِدًا: كان هذا الكلامُ اعتراضًا بَيْنَ كلامَيْ لُقْمانَ؛ لأنَّ صيغةَ هذا الكلامِ مصُوغةٌ علىٰ أسلوبِ الإبلاغِ والحكاية لقولٍ مِن أقوالِ الله، والضمائرُ ضمائرُ العظمةِ جرَّتْهُ مناسبةُ حكايةِ نَهْيِ لُقْمانَ لابنِه عن الإشراكِ، وتفظيعِه بأنَّه ظُلْمٌ عظيم، فذكَر اللهُ هذا لتأكيدِ ما في وصيَّةِ لُقْمانَ مِن النهيِ عن الشركِ بتعميمِ النهيِ في الأشخاصِ والأحوال؛ لئلا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ النَّهْيَ خاصٌّ بابنِ لُقْمانَ، أو ببعضِ الأحوال، فحكَىٰ اللهُ أنَّ اللهَ أوصىٰ بذلك كلَّ إنسانٍ، وأنْ لا هوادةَ فيه، ولو في أحرَجِ الأحوالِ؛ وهي حالُ مجاهَدةِ الوالدَينِ أولادَهم علىٰ الإشراكِ، وأحسَنُ مِن هذه المناسبةِ أن تَجعَلَ مناسبةَ هذا الكلامِ أنَّه لمَّا حكىٰ وصايةَ لُقمانَ لابنِه بما هو شكرُ اللهِ بتنزيهِه عن الشركِ في الإلهيَّةِ، بيَّن اللهُ أنَّه تعالىٰ أسبَقُ مِنَّةً علىٰ عبادِه؛ إذ أوصىٰ الأبناءَ ببِرِّ الآباء، فدخَل في العمومِ المِنَّةُ علىٰ لُقْمانَ جزاءً علىٰ رَعْيِه لحقِّ الله في ابتداءِ موعظةِ ابنِه؛ فاللهُ أسبَقُ

---

(1) نظم الدرر (١٥/ ١٦٢-١٦٣).

بالإحسانِ إلىٰ الذين أحسَنوا برَعْيِ حقِّه، ويقوِّي هذا التفسيرَ اقترانُ شُكْرِ اللهِ وشكرِ الوالدَينِ في الأمرِ(١).

لمَّا بيَّن لُقْمانُ لابنِه أنَّ الشركَ ظُلْمٌ، ونهَاه عنه: كان ذلك حثًّا علىٰ طاعةِ الله، ثم بيَّن أنَّ الطاعةَ تكونُ للأبوَينِ، وبيَّن السببَ في ذلك؛ فهو مِن كلامِ لُقْمانَ ممَّا وصَّىٰ به ابنَه، أخبَر اللهُ عنه بذلك(٢).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ اعترِض به علىٰ نهجِ الاستطراد في أثناءِ وصيَّةِ لُقْمانَ؛ تأكيدًا لِما فيها مِن النَّهيِ عن الشرك(٣).

ولمَّا أمَر بالقيامِ بحقِّه؛ بتركِ الشركِ الذي مِن لوازمِه القيامُ بالتوحيد: أمَر بالقيامِ بحقِّ الوالدَينِ، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٤).

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه وصيَّتَه بهما، وأكَّد حقَّهما: أتبَعه الدَّليلَ علىٰ ما ذكَر لُقْمانُ مِن قباحةِ الشركِ، فقال: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٥٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤١٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٧١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٤٨).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ١٦٦).

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن تأكيدِ ما قاله لُقمانُ في الشُّكْرِ والشركِ، فعُلِم ما أُوتيَ مِن الحِكْمةِ، وختَمه بعد الوصيَّةِ بطاعةِ الوالد؛ بذِكْرِ دقيقِ الأعمال وجليلِها، وأنَّها في علمِ الله سواءٌ: حسُنَ جدًّا الرجوعُ إلى تمامِ بيانِ حِكْمتِه، فقال بادئًا بما يناسِبُ ذلك مِن دقيقِ العلم ومحيطِه المكمِّلِ لمَقامِ التَّوحيدِ، وعبَّر بمثقالِ الحَبَّةِ؛ لأنَّه أقَلُّ ما يخطُرُ غالبًا بالبالِ، وهي مِن أعظَمِ حاثٍّ على التَّوحيدِ الذي مضى تأسيسُه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

لمَّا قال: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وقَع لابنِه أنَّ ما يَفعَلُ في خُفْيةٍ يَخفَى، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[2].

لمَّا نهى لُقْمانُ ابنَه عن الشركِ، نبَّهه على قدرةِ الله، وأنَّه لا يمكِنُ أن يتأخَّرَ عن مقدورِه شيءٌ، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[3].

شروعٌ في حكايةِ بقيَّةِ وصايا لُقمانَ إثرَ تقريرِ ما في مَطلَعِها مِن النَّهيِ عن الشركِ، وتأكيدِه بالاعتراض[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤١٤).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٧٢).

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾

ولمَّا نبَّهه علىٰ إحاطةِ علمِه سبحانه، وإقامتِه للحساب: أمَره بما يدَّخِرُه لذلك توسُّلًا إليه، وتخضُّعًا لديه؛ وهو رأسُ ما يصلُحُ به العملُ، ويصحِّحُ التَّوحيدَ ويصدِّقُه، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾(١).

انتقَل مِن تعليمِه أصولَ العقيدةِ إلىٰ تعليمِه أصولَ الأعمالِ الصالحة؛ فابتدأها بإقامةِ الصلاةِ، والصلاةُ التوجُّهُ إلىٰ اللهِ بالخضوعِ والتسبيح والدعاء في أوقاتٍ معيَّنةٍ في الشريعة التي يَدِينُ بها لُقْمانُ، والصلاةُ عمادُ الأعمال؛ لاشتمالِها علىٰ الاعترافِ بطاعةِ الله، وطلبِ الاهتداءِ للعملِ الصالح(٢).

لمَّا منَعه مِن الشركِ، وخوَّفه بعلمِ الله وقُدْرتِه: أمَره بما يَلزمه مِن التَّوحيدِ؛ وهو الصلاةُ؛ وهي: العبادةُ لوجهِ الله مخلِصًا، وبهذا يُعلَمُ أنَّ الصلاةَ كانت في سائرِ المِلَلِ، غيرَ أنَّ هيئتَها اختلَفتْ(٣).

﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ ﴾

ولمَّا كان مِن آفاتِ العبادةِ -لا سيَّما الأمرُ والنَّهيُ؛ لتصوُّرِهما بصورةِ الاستعلاء- الإعجابُ الداعي إلىٰ الكِبْرِ، قال مُحذِّرًا مِن ذلك، مُعبِّرًا عن الكِبْرِ بلازِمِه؛ لأنَّ النَّفْيَ الأعمَّ نفيٌ للأخصِّ، مُنبِّهًا علىٰ أنَّ المطلوبَ في الأمرِ والنَّهيِ اللِّينُ، لا

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٧٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٤).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢١).

الفظاظةُ والغِلْظة الحاملانِ على النُّفورِ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(١).

انتقَل لُقْمانُ بابنِه إلى الآدابِ في معاملةِ الناس؛ فنهاه عن احتقارِ الناس، وعن التَّفخُّرِ عليهم؛ وهذا يقتضي أمرَه بإظهارِ مساواتِه مع الناس، وعَدِّ نفسِه كواحدٍ منهم(٢).

لمَّا أمَره بأن يكونَ كاملًا في نفسِه، مكمِّلًا لغيره، وكان يَخشَى بعدهما مِن أمرَينِ؛ أحدهما: التكبُّرُ على الغيرِ بسبب كونِه مكمِّلًا له، والثاني: التبختُرُ في النَّفسِ بسبب كونِه كاملًا في نفسِه، قال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٣).

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا كان النَّهْيُ عن ذلك أمرًا بأضدادِه، وكان الأمرُ بإطلاقِ الوجهِ يَلزَمُ منه الإنصافُ في الكلام، وكان الإنصافُ في الكلامِ والمشي لا على طريقِ المرَحِ والفخرِ ربما دعا إلى الاستماتةِ في المشيِ والحديث، أو الإسراعِ في المشيِ، والسِّرِّ والجهرِ بالصَّوتِ فوق الحدِّ؛ قال محترِسًا في الأمرِ بالخُلُقِ الكريم عمَّا يقارِبُ الحالَ الذَّميم: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾(٤).

بعد أن بيَّن له آدابَ حُسْنِ المعاملةِ مع الناس، قفَّاها بحُسْنِ الآدابِ في حالتِه الخاصة، وتلك حالَتَا المشيِ والتَّكلُّم، وهما أظهَرُ ما يلُوحُ على المرءِ مِن آدابه(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٧٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٨).

لمَّا نهاه عن الخُلُقِ الذَّميم، أمَره بالخُلُقِ الكريم؛ وهو القصدُ في المشيِ، بحيث لا يُبطِئُ؛ كما يَفعَلُ المتنامِسون والمتعاجِبون، يَتباطؤون في نقلِ خُطُواتِهم، المتنامِسين[(١)] للرياء، والمتعاجِب[(٢)] للترفُّع، ولا يُسرِعُ؛ كما يَفعَلُ الخَرِقُ المتهوِّرُ[(٣)].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا انقضتْ هذه الجُمَلُ رافعةً أعناقَها علىٰ المشتري وزُحَل، قابلةً لِمَن يريدُ عمَلَها مع الكسل، والضَّجَرِ في الفِكْرِ والمَلَل، وأين الثُّريا مِن يدِ المتناوِل؟ وكان قد أخبَر سبحانه وتعالىٰ في أولِ السُّورةِ أنَّ الآياتِ المسموعةَ هدًىٰ لقومٍ، وضلالٌ لآخرين، وكان مِن الغرائبِ أنَّ شيئًا واحدًا يؤثِّر شيئَينِ متضادَّين، وأتبَع ذلك ما دلَّ علىٰ أنَّه مِن بالغِ الحِكْمةِ بوجوهٍ مَرْضيَّةٍ مُشرِقة مُضيئة، لكنَّها بمسالِكَ دقيقة، وإشاراتٍ خفيَّةٍ، إلىٰ أن ختَم بالنَّهْيِ عن التكبُّر، ورفعِ الصوتِ فوق الحاجة؛ إشارةً إلىٰ أنَّ فاعِلَ ما لا حاجةَ إليه غيرُ حكيمٍ، وكان التكبُّرُ علىٰ الناسِ والتعالي عليهم مِن آثارِ الفضلِ في النِّعْمة، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ المَلِكَ يُخضَعُ له تارةً لمجرَّدِ عظَمتِه، وتارةً خوفًا مِن سطوتِه، وتارةً رجاءً لنِعْمتِه: أبرَز سبحانه وتعالىٰ غيبَ ما وصَف به الآياتِ المسموعةَ مِن تأثيرِ الضِّدَّينِ في حالةٍ واحدة في شاهِدِ الآياتِ المرئية علىٰ وجهٍ يدلُّ علىٰ استحقاقِه لِما أمَر به لُقْمانُ مِن العبادةِ والتذلُّلِ، وأنَّ إليه المرجعَ، وهو عالم بكلِّ شيءٍ، قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ ما ترىٰ خلقه مذكِّرًا بأنَّ النِّعْمةَ

(١) أي: الذي يخفض صوته تكلفًا.

(٢) أي: الذي يتفاخر تكلفًا.

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤١٦).

إنَّما هي منه؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَفخَرَ بما آتاه غيرُه، ولو وُكِل فيه إلىٰ نفسِه لم يَقدِرْ علىٰ شيءٍ منه، محذِّرًا مِن سَلْبِها عن المتكبِّر، وإعطائِها للذليلِ المُحتقَر، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[١].

رجوعٌ إلىٰ تَعْدادِ دلائلِ الوَحْدانيَّةِ، وما صَحِب ذلك مِن مِنَّةٍ علىٰ الخَلْقِ؛ فالكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ عن الكلامِ السابق، ورجوعٌ إلىٰ ما سلَف في أولِ السورةِ في قولِه تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾؛ فإنَّه بعد الاستدلالِ بخَلْقِ السماواتِ والأرض والحيوانِ والأمطار عادَ هنا الاستدلالُ والامتنان بأن سخَّر لنا ما في السماواتِ وما في الأرض[٢].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رجوعٌ إلىٰ سَنَنِ ما سلَف قبل قصَّةِ لُقْمانَ مِن خطابِ المشركين، وتوبيخٌ لهم علىٰ إصرارِهم علىٰ ما هم عليه مع مشاهَدتِهم لدلائلِ التَّوحيد[٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا كان المجادِلُ بغيرِ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ تابعًا هواه، مقلِّدًا مثلَه قطعًا، وكان حالُ المجادِلِينَ هذا لظهورِ أدلَّةِ الوحدانيَّة عجبًا: عجَّب منهم تعجيبًا آخَرَ بإقامتِهم علىٰ الضَّلالِ مع إيضاحِ الأدلةِ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٧٣-١٧٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٨٧).

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فمَن جادَل في اللهِ، فلا مُتمسَّكَ له: عطَف عليه قولَه في شرحِ حالِ أضدادِهم: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

هذا مقابِلُ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ فأولئك الذين اتَّبَعوا ما وجَدوا آباءهم عليه مِن الشركِ علىٰ غيرِ بصيرةٍ؛ فوقَعوا في العذابِ، وهؤلاء الذين لم يَتمسَّكوا بدِينِ آبائهم، وأسلَموا للهِ لمَّا دعَاهم إلىٰ الإسلامِ؛ فلم يصُدَّهم عن اتِّباعِ الحقِّ إلفٌ، ولا تقديسُ آباءٍ؛ فأولئك تعلَّقوا بالأوهامِ، واستمسَكوا بها لإرضاءِ أهوائهم، وهؤلاء استمسَكوا بالحقِّ إرضاءً للدَّليل، وأولئك أرضَوُا الشيطانَ، وهؤلاء اتَّبَعوا رِضا اللهِ[2].

لمَّا بيَّن حالَ المشركِ والمجادِلِ في الله، بيَّن حالَ المسلِمِ المستسلِمِ لأمرِ الله[3].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر المسلمَ، ذكَر الكافرَ، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ١٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٥).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٨٩-١٩٠).

لمَّا خَلَا ذمُّ الذين كفَروا عن الوعيدِ، وانتُقِل منه إلىٰ مدحِ المسلمين ووعدِهم: عُطِف عِنانُ الكلامِ إلىٰ تسليةِ الرسول ﷺ بتهوينِ كفرِهم عليه تسليةً له، وتعريضًا بقلةِ العبءِ بهم؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلىٰ الله، فيُرِيهم الجزاءَ المناسِب لكفرِهم؛ فهو تعريضٌ لهم بالوعيدِ[1].

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف المسلمُ إلىٰ إهلاكِ مَن هذا شأنُه، وإلىٰ العلمِ بمدَّةِ ذلك، وكان مِن طبعِ الإنسانِ العجَلةُ: أجاب مَن يستعجِلُ بقولِه عائدًا إلىٰ مظهرِ العظَمةِ التي يتقاضاها إذلالُ العدوِّ، وإعزازُ الوليِّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ يُثِيرُ في نفوسِ السامعين سؤالًا عن عدمِ تعجيلِ الجزاء إليهم؛ فبيَّن بأنَّ اللهَ يُمهِلُهم زمنًا، ثم يوقِعُهم في عذابٍ لا يجدون منه مَنجًىٰ[3].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أعجَبِ العجَبِ مجادلتُهم مع إقرارِهم بما يَلزمُهم به قطعًا التَّسليمُ في أنَّه الواحدُ لا شريكَ له، وأنَّ له جميعَ صفاتِ الكمال؛ فله الحمدُ كلُّه؛ قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ١٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/١٧٨-١٧٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ١٩٢-١٩٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ باعتبارِ أنَّ ما وجَدوا عليه آباءَهم هو الإشراكُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، وإن سألهم سائلٌ: مَن خلَق السماواتِ والأرضَ؟ يقولوا: خلَقهنَّ اللهُ؛ وذلك تسخيفٌ لعقولهم التي تَجمَعُ بَيْنَ الإقرارِ للهِ بالخَلْقِ وبين اعتقادِ إلهيَّةِ غيرِه(١).

الآيةُ متعلِّقةٌ بما قبلها مِن وجهَين: أحدهما: أنَّه تعالىٰ لمَّا استدلَّ بخَلْقِ السماواتِ بغيرِ عَمَدٍ، وبنِعَمِه الظاهرةِ والباطنة: بيَّن أنَّهم معترِفون بذلك، غيرُ منكِرين له؛ وهذا يقتضي أن يكونَ الحمدُ كلُّه للهِ؛ لأنَّ خالِقَ السماواتِ والأرضِ يَحتاجُ إليه كلُّ ما في السماواتِ والأرض، وكونُ الحمدِ كلِّه للهِ يقتضي ألا يُعبَدَ غيرُه، لكنَّهم لا يَعلمون هذا. والثاني: أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا سلَّىٰ قلبَ النبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾؛ أي: لا تَحزَنْ علىٰ تكذيبِهم؛ فإنَّ صِدْقَك وكَذِبَهم يَتبيَّنُ عن قريبٍ عند رجوعِهم إلينا؛ قال: وليس لا يَتبيَّنُ إلا ذلك اليومَ؛ بل هو يَتبيَّنُ قبل يومِ القيامة؛ لأنَّهم معترفون بأنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ مِن الله، وهذا يصدِّقُك في دعوىٰ الوَحْدانيَّةِ، ويبيِّنُ كَذِبَهم في الإشراكِ(٢).

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ٢٦ ﴾

ولمَّا أثبَت لنفسِه سبحانه الإحاطةَ بأوصافِ الكمال، شرَع يستدِلُّ علىٰ ذلك، فقال مبيِّنًا أنَّ ما أخبَر أنَّه صُنْعُه فهو له: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٧٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٦).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٩٥).

مَوقِعُ هذه الجملةِ مِن التي قبلها موقعُ النتيجةِ مِن الدليل؛ فإنَّه لمَّا تقرَّر إقرارُهم للهِ بخَلْقِ السماواتِ والأرض، لَزِمهم إنتاجُ أنَّ ما في السماواتِ والأرض مِلْكٌ للهِ، ومِن جملةِ ذلك أصنامُهم، والتصريحُ بهذه النتيجةِ؛ لقصدِ التهاونِ بهم في كفرِهم بأنَّ اللهَ يَملِكُهم، ويَملِكُ ما في السماواتِ والأرض؛ فهو غنيٌّ عن عبادتِهم، محمودٌ مِن غيرهم[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الغنيُّ قد يكون مالُه محصورًا كما في السَّماواتِ والأرض الذي قدَّم أنَّه له، والمحمودُ قد يكون ما يُحمَدُ عليه مضبوطًا مقصورًا: أثبَت أنَّه علىٰ غيرِ ذلك؛ بل لا حَدَّ لغِناه، ولا ضبطَ لمعلوماتِه ومقدوراتِه الموجِبةِ لحمدِه ولا تَناه[2]، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ ما في السماواتِ والأرضِ مِلْكٌ له، وكان ذلك متناهيًا: بيَّن أنَّ في قُدْرتِه وعلمِه عجائبَ لا نهايةَ لها، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٠).

(٢) أي: لا انتهاء.

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٩٦).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٤١٩).

ثم أخبَر عن سَعةِ كلامِه وعظمةِ قولِه بشرحٍ يبلُغُ مِن القلوبِ كلَّ مَبلَغٍ، وتنبهِرُ له العقولُ، وتَحَيَّرُ فيه الأفئدةُ، وتَسِيحُ في معرفتِه أولو الألبابِ والبصائر، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(1).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه أنَّ له ما في السَّماواتِ والأرض، أتبَعه بما يدلُّ علىٰ أنَّ له وراء ذلك ما لا يحيطُ به عددٌ، ولا يُحصَرُ بحدٍّ، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2).

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

ولمَّا ختَم بهاتينِ الصِّفتينِ بعد إثباتِ القدرةِ علىٰ الإبداع مِن غيرِ انتهاءٍ، ذكَر بعضَ آثارِهما في البعثِ الذي تقدَّم أولَ السورةِ وأثناءها، فقال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(3).

استئنافٌ بيانيٌّ متعلِّقٌ بقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ لأنَّه كلَّما ذكَر أمرَ البعثِ، هجَس في نفوسِ المشركين استحالةُ إعادةِ الأجسام بعد اضمحلالِها، فيكثُرُ في القرآنِ تعقيبُ ذِكْرِ البعثِ بالإشارة إلىٰ إمكانِه وتقريبه(4).

لمَّا بيَّن كمالَ قُدْرتِه وعلمِه، ذكَر ما يُبطِلُ استبعادَهم للحشرِ، وقال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(5).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٥٠).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ١٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٩).

ثم ذكَر عظمةَ قُدْرتِه وكمالَها، وأنَّه لا يمكِنُ أن يتصوَّرَها العقلُ، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا قرَّر هذه الآيةَ الخارقة، دلَّ عليها بأمرٍ محسوس يشاهَدُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، مع دلالتِه علىٰ تسخيرِ ما في السَّماواتِ والأرض، وإبطالِ قولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ بأنَّه هو الذي أوجَد الزَّمانَ بتحريكِ الأفلاك، خاصًّا بالخطابِ مَن لا يَفهَمُ ذلك حقَّ فَهْمِه غيرُه، أو عامًّا كلَّ عاقلٍ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه في دلالتِه علىٰ البعثِ في غايةِ الوضوح، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

استدلالٌ علىٰ ما تضمَّنته الآيةُ قبلها مِن كونِ الخَلْقِ الثاني -وهو البعثُ- في متناوَلِ قدرةِ الله تعالىٰ؛ بأنَّه قادرٌ علىٰ تغييرِ أحوالِ ما هو أعظَمُ حالًا مِن الإنسانِ؛ وذلك بتغييرِ أحوالِ الأرض وأُفُقِها بَيْنَ ليلٍ ونهار في كلِّ يومٍ وليلة تغييرًا يُشبِهُ طُرُوَّ الموتِ علىٰ الحياةِ في دخولِ الليل في النهار، وطُرُوَّ الحياةِ علىٰ الموتِ في دخولِ النهار علىٰ الليل، وبأنَّه قادرٌ علىٰ أعظَمَ مِن ذلك بما سخَّره مِن سَيْرِ الشمسِ والقمرِ[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٥٠).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٤).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذه الأوصافِ الحُسْنىٰ والأفعالِ العُلَىٰ أنَّه لا مُوجِدَ بالحقيقةِ إلا اللهُ، قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1].

مَوقِعُ هذه الجملةِ موقعُ النتيجة مِن الدَّليلِ؛ فلها حُكْمُ بدَلِ الاشتمال؛ ولذلك فُصِلتْ ولم تُعطَفْ؛ فإنَّهم معترِفون بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ ذلك؛ فلَزِمهم الدَّليلُ ونتيجته[2].

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّنتِ الآيةُ ثلاثةَ أشياءَ، أتبَعها دليلَها، فقال مُنبِّهًا علىٰ أنَّ سَيْرَنا في الفلَكِ مثلُ سيرِ النُّجومِ في الفَلَكِ، وسيرَ أعمارِنا في فَلَكِ الأيام حتىٰ يولِجَنا في بحرِ الموت مثلُ سيرِ كلٍّ مِن الليلِ والنهارِ في فَلَكِ الشمسِ حتىٰ يولِجَه في الآخرِ، فيذهَبَ حتىٰ كأنَّه ما كان، ولولا تفرُّدُه بالحَقِّيَّةِ والعلوِّ والكِبْرِ، ما استقام ذلك، خاصًّا بالخطابِ أعلىٰ النَّاسِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ هذه الآيةَ لكثرةِ الإلفِ لها أُعرِضَ عن تأمُّلِها؛ فهو في الحقيقةِ حَثٌّ علىٰ تدبُّرِها، ويؤيِّدُه الإقبالُ علىٰ الكلِّ عند تعليلِها: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾[3].

استئنافٌ جاء علىٰ سَنَنِ الاستئنافينِ اللَّذينِ قبله في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، وقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ ﴾، وجِيءَ بها غيرَ متعاطفةٍ لئلا يَتوهَّمَ السامعُ أنَّ العطفَ علىٰ ما تخلَّل بينها، وجاء هذا

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٠٤).

الاستئنافُ الثالث دليلًا ثالثًا على عظيمِ حِكْمةِ الله في نظامِ هذا العالَمِ، وتوفيقِ البشرِ للانتفاع بما هيَّأه اللهُ لانتفاعِهم به، فلمَّا أتى الاستئنافانِ الأوَّلانِ على دلائلِ صُنْعِ اللهِ في السَّماواتِ والأرض، جاء في هذا الثالثِ دليلٌ على بديعِ صُنْعِ اللهِ بخَلْقِ البحرِ، وتيسيرِ الانتفاع به(١).

لمَّا ذكَر تعالى تسخيرَ النَّيِّرينِ، وامتنانَه بذلك علينا: ذكَر أيضًا مَن سخَّر الفُلْكَ مِن العالَمِ الأرضيِّ؛ بجامعِ ما اشتركَا فيه مِن الجَرَيانِ(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ استشهادٌ آخَرُ على باهرِ قُدْرتِه جَلَّ وَعَلَا، وغايةِ حِكْمتِه عَزَّ وَجَلَّ، وشمولِ إنعامِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ(٣).

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا كانوا يسارِعون إلى الكفرِ بعد انفصالهم مِن هذه الآيةِ العظمية، وإلباسِهم هذه النِّعْمةَ الجسيمة، التي عرَّفتْهم ما تضمَّنتْه الآيةُ السالفة مِن حَقِّيَّتِه وَحْدَه، وعُلُوِّه وكِبْرِه، وبطلانِ شركائِهم: أعرَض عنهم وجه الخطاب؛ لأنَّهم لم يَرجِعوا بعد الوضوحِ إيذانًا باستحقاقِ شديدِ الغضبِ والعذاب، فقال معجِّبًا عاطفًا على ما تقديرُه: وأمَّا غيرُ الصَّبارِ الشَّكور، فلا يرَوْنَ ما في ذلك مِن الآياتِ في حالِ رخائهم: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٢٣).

(٣) روح المعاني (١١/ ١٠٣).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٢٠٦-٢٠٧).

عطفٌ على آياتِ سَيْرِ الفُلْكِ؛ إشارةً إلى أنَّ الناسَ يذكُرون اللهَ عند تلك الآياتِ عند الاضطرارِ، وغفلتِهم عنها في حالِ السلامة(١).

لمَّا ذكَر اللهُ أنَّ في ذلك لآياتٍ، ذكَر أنَّ الكلَّ معترفون به، غيرَ أنَّ البصيرَ يُدرِكُه أولًا، ومَن في بصَرِه ضَعْفٌ لا يُدرِكُه أولًا، فإذا غَشِيَه موجٌ ووقَع في شِدَّةٍ، اعترَف بأنَّ الكلَّ مِن الله، ودعَاه مخلِصًا(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا ظهَرتْ بما ذُكِر في هذه السُّورةِ دقائقُ الحِكْمة، وانتشَرتْ في الخافِقَينِ ألويةُ العظمةِ ونفوذُ الكلمة، وأعربَتْ ألسُنُ القدرةِ عن دلائلِ الوَحْدانيَّة؛ فلم تَدَعْ شيئًا مِن العُجْمة؛ فظهَر كالشمسِ أنَّه لا بد مِن الصيرورةِ إلى يومِ الفصل، وختَم بالمكذِّبِ: أمَر سبحانه عبادَه عامَّةً -عاصيَهم ومطيعَهم- بالإقبالِ عليه، وخوَّفهم ما هم صائرون إليه، مناديًا لهم بأدنى أوصافِهم لِما لهم مِن الذَّبذبةِ، كما عُرف به الحال الذي شرح آنفًا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾(٣).

لمَّا ذكَر الدَّلائلَ مِن أولِ السورة إلى آخرِها، وعَظ بالتقوى؛ لأنَّه تعالى لمَّا كان واحدًا، أوجَب التقوى البالغةَ؛ فإنَّ مَن يَعلَمُ أنَّ الأمرَ بيدِ اثنينِ، لا يَخافُ أحدَهما

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢١٠).

مثلَ ما يخافُ لو كان الأمرُ بيدِ أحدِهما لا غيرُ، ثم أكَّد الخوفَ بذِكْرِ اليومِ الذي يحكُمُ اللهُ فيه بَيْنَ العباد[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن الأمرِ الواضح أنَّ لسانَ حالِهم بعد السُّؤال عن تحقُّقِ ذلك اليومِ يَسألُ عن وقتِه؛ كما مضىٰ في غيرِ آيةٍ، ويأتي في آخرِ التي بعدها؛ إمَّا تعنُّتًا واستهزاءً، وإمَّا حقيقةً: أجاب عن ذلك ضامًّا إليه أخواتِه مِن مفاتيحِ الغيب؛ لِما في ذلك مِن الحِكْمةِ التي سِيقَتْ لها السورةُ، مرتِّبًا لها علىٰ الأبعَدِ فالأبعَدِ عن علمِ الخَلْقِ، فقال مؤكِّدًا لِما يعتقدون في كُهَّانِهم، مُظهِرًا الاسمَ الأعظمَ غيرَ مُضمَرٍ لشِدَّةِ اقتضاءِ المَقامِ له: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[٢].

كان مِن جملةِ غُرورِهم في نَفْيِ البعثِ أنَّهم يَجعَلون عدمَ إعلامِ الناس بتعيينِ وقتِه أمارةً علىٰ أنَّه غيرُ واقعٍ، فلمَّا جرَىٰ في الآياتِ قبلها ذِكْرُ يومِ القيامة، أُعقِبَتْ بأنَّ وقتَ الساعةِ لا يَعلَمُه إلا اللهُ؛ فجملةُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لوقوعِها جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ في نفوسِ الناس، والجُمَلُ الأربع التي بعدها إدماجٌ لجَمْعِ نظائرِها تعليمًا للأُمَّة[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٩٦).

سورة السجدة

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

ولمَّا كان المقصودُ في التي قبلها إثباتُ الحِكْمةِ لمنزِّلِ هذا الكتابِ، الذي هو بيانُ كلِّ شيءٍ الملزوم لتمامِ العلم وكمالِ الخبرة الذي خُتِمتْ به بعد أن أخبَر أنَّه سبحانه مختصٌّ بعلمِ المفاتيح بعد أن أنذَر بأمرِ الساعة، فثبَت بذلك وما قَبْلَه أنَّه ما أثبَت شيئًا فقدَرَ غيرُه مِن أهلِ الكتابِ وغيرِهم علىٰ نَفْيِه، ولا نفىٰ شيئًا فقدَر غيرُه علىٰ إثباتِه ولا إثباتِ شيءٍ منه: كانت نتيجةُ ذلك أنَّه لا يكونُ شيءٌ مِن الأشياءِ -دقيقِها وجليلِها- إلا يَعلَمُه سبحانه وتعالىٰ، وأجلُّ ذلك إنزالًا هذا الذِّكْرُ الحكيم الذي فيه إثباتُ هذه العلومِ مع شَهادةِ العَجْزِ عن معارَضتِه له بأنَّه مِن عندِ الله؛ فلذلك قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

ولمَّا كان هذا الذي قدَّمه أولَ السُّورةِ علىٰ هذا الوجهِ برهانًا ساطعًا ودليلًا قاطعًا علىٰ أنَّ هذا الكتابَ مِن عندِ الله، كان كأنَّه قيل: هل آمَنوا به؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٢٧).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بما سبَق في التي قَبْلِها مِن اتصافِه تعالىٰ بكمالِ العلم أنَّه مِن عندِه وبعلمِه لا محالةَ، وكان هذا أمرًا يُهتَمُّ بشأنِه، ويُعتنىٰ بأمرِه؛ لأنَّه عينُ المقصودِ الذي ينبني عليه أمرُ الدِّين، وختَم ما ذكَره مِن أمرِه ههنا بإقامةِ اهتدائهم مقامَ الترجِّي بإنذارِه ﷺ: أتبَعه بيانَ ذلك بإيجادِ عالَمِ الأشباحِ والخَلْقِ، ثم عالَمِ الأرواحِ والأمر، وإحاطةِ العلم بذلك كلِّه علىٰ وجهٍ يقودُ تأمُّلُه إلىٰ الهدىٰ، فقال مستأنِفًا شارحًا لأمرٍ يندرجُ فيه إنزالُه معبِّرًا بالاسمِ الأعظم لاقتضاءِ الإيجادِ والتَّدبير علىٰ وجهِ الانفراد له: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

لمَّا كان الركنُ الأعظم مِن أركانِ هُدَىٰ الكتابِ هو إثباتَ الوَحْدانيَّةِ للإلهِ وإبطالَ الشركِ، عقَّب الثناءَ علىٰ الكتابِ بإثباتِ هذا الركن، وجِيءَ باسمِ الجلالة مبتدأً؛ لإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المختصِّ به؛ قطعًا لدابرِ عقيدةِ الشريك في الإلهيَّة[2].

لمَّا ذكَر الرسالةَ، بيَّن ما علىٰ الرسولِ مِن الدعاءِ إلىٰ التَّوحيدِ، وإقامةِ الدَّليل، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢١١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٣٦).

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾

ولمَّا نفى أن يكونَ له شريكٌ أو وزيرٌ في الخَلْقِ، ذكَر كيف يفعلُ في هذا المُلْكِ العظيم الذي أبدَعه في ستَّةِ أيَّامٍ، فقال مستأنِفًا: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(١).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالى الخَلْقَ، بيَّن الأمرَ(٢).

لمَّا بيَّن سبحانه خَلْقَ السَّماواتِ والأرض وما بينهما، بيَّن تدبيرَه لأمرِها، فقال: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٣).

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾

ولمَّا تقرَّر هذا مِن عالَمِ الأشباحِ والخَلْقِ، ثم عالَمِ الأرواحِ والأمرِ، فدلَّ ذلك على شمولِ القدرة، وكان شاملُ القدرة لا بد وأن يكونَ محيطَ العلمِ: كانت نتيجتُه لا محالةَ: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٤).

جِيءَ بالإشارةِ إلى اسمِ الجلالة بعدما أُجرِيَ عليه مِن أوصافِ التَّصرُّف بخَلْقِ الكائناتِ وتدبيرِ أمورها؛ للتَّنبيه على أنَّ المشارَ إليه باسمِ الإشارة حقيقٌ بما يَرِدُ بعد اسمِ الإشارة مِن أجلِ تلك الصفاتِ المتقدِّمة، لا جرَمَ أنَّ المتصرِّفَ بذلك

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٤٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٨٦).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٢-٢٤٣).

الخَلْقِ والتدبير عالِمٌ بجميعِ مخلوقاته، ومحيطٌ بجميعِ شؤونها؛ فهو عالِمُ الغيبِ، وعالِمُ الشَّهادة(١).

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾

ولمَّا ذكَر صفةَ الرَّحيميَّةِ صريحًا لاقتضاءِ المقامِ إيَّاها، أشار إلىٰ صفةِ الرَّحمانيَّةِ، فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾(٢).

لمَّا بيَّن الدليلَ الدالَّ علىٰ الوَحْدانيَّةِ مِن الآفاقِ، وأتمَّهُ بتوابعِه ومكمِّلاتِه: ذكَر الدَّليلَ الدالَّ عليها مِن الأنفُسِ بقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾(٣).

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان قلبُ الطِّينِ إلىٰ هذا الهيكلِ علىٰ هذه الصُّورةِ بهذه المعاني أمرًا هائلًا، أشار إليه بأداةِ البُعْدِ في قولِه: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾(٤).

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾

وأشار إلىٰ عظَمةِ ما بعد ذلك مِن خَلْقِه وتطويره بقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢١٤).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٤٠).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٤).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٤).

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا كانوا قد قالوا: محمَّدٌ ليس برسولٍ، والإلهُ ليس بواحدٍ، والبعثُ ليس بممكنٍ، فدلَّ علىٰ صحَّةِ الرسالةِ بنفْيِ الرَّيبِ عن الكتابِ، ثم علىٰ الوَحْدانيَّةِ بشمولِ القدرةِ وإحاطةِ العلم بإبداعِ الخَلْقِ علىٰ وجهٍ هو نعمةٌ لهم، وختَم بالتَّعجيبِ مِن كفرِهم، وكان استبعادُهم للبعثِ - الذي هو الأصلُ الثالث - مِن أعظَمِ كفرِهم؛ قال مُعجِّبًا منهم في إنكارِه بعد التَّعجيبِ في قوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ ﴾ لافتًا عنهم الخطابَ إيذانًا بالغضبِ مِن قولهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾(١).

لمَّا قال: ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾، بيَّن عدمَ شكرِهم بإتيانِهم بضدِّه؛ وهو الكفرُ، وإنكارُ قُدْرتِه علىٰ إحياءِ الموتىٰ(٢).

كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ أباطيلِهم بطريقِ الالتفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ما ذُكِر مِن عدمِ شكرهم بتلك النِّعَمِ مُوجِبٌ للإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرِهم بطريقِ المُباثَّة(٣).

﴿ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١ ﴾

ولمَّا ذكَر استبعادَهم، وأتبَعه عنادَهم، وكان إنكارُهم إنَّما هو بسببِ اختلاطِ الأجزاء بالتُّراب بعد انقلابِها ترابًا، فكان عندهم مِن المُحالِ تمييزُها مِن بقيَّةِ الترابِ: دلَّ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٤٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٢).

علىٰ أنَّ ذلك عليه هيِّنٌ بأن نبَّههم علىٰ ما هو مقرونٌ به ممَّا هو مثلُ ذلك، بل أدقُّ، فقال مستأنِفًا: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ جارٍ علىٰ طريقةِ حكايةِ المقاوَلات؛ لأنَّ جملةَ (قل) في معنىٰ جوابٍ لقولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أُمِر الرسولُ ﷺ أن يُعِيدَ إعلامَهم بأنَّهم مبعوثون بعد الموتِ؛ فالمقصودُ مِن الجملة هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ إذ هو مناطُ إنكارِهم، وأمَّا أنَّهم يَتوفَّاهم مَلَكُ الموتِ، فذكَره لتذكيرِهم بالموتِ، وهم لا يُنكِرون ذلك، ولكنَّهم ألهَتْهم الحياةُ الدُّنيا عن النَّظرِ في إمكانِ البعثِ والاستعداد له، فذُكِّروا به، ثم أُدمِجَ فيه ذِكْرُ مَلَكِ الموتِ لزيادةِ التَّخويف مِن الموتِ، والتَّعريضِ بالوعيد(٢).

ثم أمَر سبحانه رسولَه صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن يُبيِّنَ لهم الحقَّ، ويرُدَّ عليهم ما زعَموه مِن الباطلِ، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا تقرَّر دليلُ البعثِ بما لا خَفاءَ فيه ولا لَبْسَ، شرَع يقُصُّ بعضَ أحوالِهم عند ذلك، فقال -عادلًا عن خطابِهم استهانةً بهم وإيذانًا بالغضبِ، وخطابًا للنبيِّ ﷺ تسليةً له، أو لكلِّ مَن يصحُّ خطابُه، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلو رأيتَهم وقد بُعثِرَتِ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٨٩).

القبورُ، وحُصِّل ما في الصُّدورِ، وهناك أمورٌ أيُّ أمورٍ، مُوقِعًا المضارعَ في حيِّزِ ما مِن شأنِه الدُّخولُ علىٰ الماضي؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه كأنَّه قد كان، واختِير التَّعبيرُ به لترويحِ النفس بترقُّبِ رؤيتِه حالَ سماعه، تعجيلًا للسُّرورِ بترقُّبِ المحذورِ لأهلِ الشُّرور-: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[(١)].

أُردِف ذِكْرُ إنكارِهم البعثَ بتصويرِ حالِ المنكِرين أثَرَ البعثِ؛ وذلك عند حشرِهم إلىٰ الحساب، وجِيءَ في تصويرِ حالِهم بطريقةِ حذفِ جوابِ «لو» حذفًا يرادِفُه أن تَذهَبَ نفسُ السامعِ كلَّ مذهبٍ مِن تصويرِ فظاعةِ حالِهم، وهولِ موقفِهم بَيْنَ يَدَيْ ربِّهم، وبتوجيهِ الخطاب إلىٰ غيرِ معيَّنٍ؛ لإفادةِ تَناهي حالِهم في الظُّهورِ؛ حتىٰ لا يَختصَّ به مخاطَبٌ[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ رجوعَهم إليه يومَ القيامة، ذكَر حالَهم في مقامِهم بَيْنَ يديه، فقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[(٣)].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾

ولمَّا كان ربما وقَع في وَهْمٍ أنَّ ضلالَهم مع الإمعانِ في البيانِ لعَجْزٍ عن هدايتِهم أو توانٍ، قال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: إنِّي لا أرُدُّكم لأنِّي لم أُضِلَّكم في الدُّنيا للعَجزِ عن

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٥٤).

هدايتِكم فيها؛ بل لأنِّي لم أُرِدْ إسعادَكم، ولو شئتُ لهدَيْتُكم، صارفًا القولَ إلىٰ مظهرِ العظمةِ لاقتضاءِ المقام لها: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

اعتراضٌ بَيْنَ القولِ المقدَّرِ قبل قوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾، وبَيْنَ الجوابِ عنه بقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾؛ فالواوُ التي في صدرِ الجملة اعتراضيةٌ، وهي مِن قَبيلِ واوِ الحال[2].

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

ولمَّا تسبَّب عن هذا القولِ الصادق أنَّه لا مَحِيصَ عن عذابِهم، قال مجيبًا لترقُّقِهم إذ ذاك، نافيًا لِما قد يُفهِمُه كلامُهم مِن أنَّه محتاجٌ إلىٰ العبادةِ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

هذا جوابٌ عن قولِهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، الذي هو إقرارٌ بصِدْقِ ما كانوا يكذِّبون به، المؤذِنِ به قولُهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ فالفاءُ لتفريعِ جوابٍ عن إقرارِهم إلزامًا لهم بموجَبِ إقرارِهم؛ أي: فيَتفرَّعُ علىٰ اعترافِكم بحَقِّيَّةِ ما كان الرسولُ يَدْعوكم إليه أن يَلحَقَكم عذابُ النار[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٢).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٥).

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان قولُه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ قد أشار إلىٰ أنَّ الحاملَ لهم علىٰ الكفرِ الكِبْرُ، وذكَر سبحانه أنَّه قسَّم الناسَ قِسْمَين لأجلِ الدارَين: تشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ ذِكْرِ علامةِ أهلِ الإيمان؛ كما ذُكِرتْ علامةُ أهلِ الكفران، فقال مُعرِّفًا أنَّ المجرمين لا سبيلَ إلىٰ إيمانهم: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1].

استئنافٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ الآيةَ، تفرَّغ المقامُ له بعد أن أنحىٰ بالتَّقريعِ والوعيد للكافرين علىٰ كفرِهم بلقاءِ الله، بما أفادت اسميَّةُ جملةِ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ مِن أنَّهم ثابتون علىٰ الكفرِ بلقاءِ الله، دائمون عليه، وهو ممَّا أنذَرتْهم به آياتُ القرآن؛ فالتَّكذيبُ بلقاءِ الله تكذيبٌ بما جاء به القرآنُ؛ فهُمْ لا يؤمنون، وإنَّما يؤمِنُ بآياتِ الله الذين ذُكِرتْ أوصافُهم هنا[2].

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ عدم استحقاقِهم لإيتاء الهُدَىٰ، والإشعارِ بعدم إيمانِهم لو أُوتُوه بتعيينِ مَن يستحِقُّه بطريقِ القصر[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ الكافرين بآياتِه، وما أعَدَّ لهم مِن العذابِ: ذكَر المؤمنين بها، ووَصْفَهم، وما أعَدَّ لهم مِن الثوابِ، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٥٥).

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان المتواضِعُ ربما نُسِب إلىٰ الكسلِ، نفىٰ ذلك عنهم بقولِه مبيِّنًا بما تضمَّنَتْهُ الآيةُ السالفة مِن خوفِهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(١).

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لبيانِ بقيَّةِ محاسنهم(٢).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر جزاءَ المستكبِرين، فتشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ جزاءِ المتواضِعين: أشار إلىٰ جزائهم بفاءِ السَّببِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه هو الذي وفَّقهم لهذه الأعمالِ برحمتِه، وجعَلها سببًا إلىٰ دخولِ جنَّتِه، ولو شاء لكان غيرُ ذلك، فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

ثم عظَّم اللهُ جزاءَهم إذ قال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كانوا أهلَ بلاغةٍ ولَسَنٍ، وبراعةٍ وجدَلٍ، فكان ربما قال متعنِّتُهم: ما له إذا كان ما تزعُمون مِن أنَّه لا يُبالي بشيءٍ ولا ينقُصُ مِن خزائنِه شيءٌ وهو العزيزُ الرحيم لا

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٤).

(٢) روح المعاني (١١/ ١٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٩).

يُسوِّي بَيْنَ الكلِّ في إدخالِ الجنَّةِ، والمَنِّ بالنعيمِ، فيعُمَّهم بالرَّحمةِ الظاهرة كما عَمَّهم بها في الدُّنيا؛ كما هو دأبُ المحسِنين؟ تسبَّب عن ذلك أن قال منكِرًا لذلك، مشيرًا إلىٰ أنَّ المانعَ منه خروجُه عن الحِكْمةِ؛ فإنَّ تلك دارُ الجزاءِ، وهذه دارُ العمل؛ فبَيْنَهما بَوْنٌ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾[(١)].

فُرِّعَ بالفاءِ علىٰ ما تقدَّمَ مِن الآيات مِن الوعدِ للمؤمنين والوعيدِ للكافرين استفهامٌ بالهمزةِ مستعمَلٌ في إنكارِ المساواة بَيْنَ المؤمنِ والكافر؛ وهو إنكارٌ بتنزيلِ السامع منزلةَ المتعجِّبِ مِن البَوْنِ بَيْنَ جزاءِ الفريقينِ في ذلك اليومِ، فكان الإنكارُ موجَّهًا إلىٰ ذلك التعجُّبِ في معنَىٰ الاستئنافِ البياني[(٢)].

لمَّا بيَّن حالَ المجرمِ والمؤمن، قال للعاقل: هل يستوي الفريقانِ؟ ثم بيَّن أنَّهما لا يستويانِ[(٣)].

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ ﴾

ولمَّا نفىٰ استواءَهم، أتبَعه حالَ كلٍّ علىٰ سبيلِ التَّفصيل مُعبِّرًا بالجمعِ؛ لأنَّ الحُكْمَ بإرضائه وإسخاطِه يُفهِمُ الحُكْمَ علىٰ الواحدِ منه مِن بابِ الأَوْلىٰ، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[(٤)].

ثم بيَّن عدمَ الاستواءِ علىٰ سبيلِ التفصيل، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٤٧).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٢٥٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٤٧).

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتبِ الفريقَينِ في الآخرةِ بعد ذِكْرِ أحوالِهما في الدُّنيا[1].

ثم بيَّن سبحانه عاقبةَ حالِ الطائفتَينِ، وبدأ بالمؤمنين، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم ذكَر الفريقَ الآخَرَ، فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[3].

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان المؤمنون الآن يتمنَّوْنَ إصابتَهم بشيءٍ مِن الهوانِ في هذه الدارِ؛ لأنَّ نفوسَ البشَرِ مطبوعةٌ على العجَلةِ: بشَّرهم بذلك على وجهٍ يَشمَلُ عذابَ القبرِ، فقال مؤكِّدًا له لِما عندهم مِن الإنكارِ لعذابِ ما بعد الموتِ، وللإصابةِ في الدُّنيا بما لهم مِن الكثرةِ والقوَّةِ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٩٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٩٣).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٢٦١).

إخبارٌ بأنَّ لهم عذابًا آخَرَ لا يبلُغُ مبلغَ عذابِ النار الموعودينَ به في الآخرةِ؛ فتعيَّن أنَّ العذابَ الأدنىٰ عذابُ الدنيا؛ والمقصودُ مِن هذا: التَّعريضُ بتهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعون هذا الكلامَ، أو يُبلَّغُ إليهم، وهذا إنذارٌ بما لَحِقهم بعد نزولِ الآية؛ وهو ما مُحِنوا به مِن الجوعِ والخوفِ، وكانوا في أمنٍ منهما، وما يُصِيبُهم يومَ بَدْرٍ مِن القتلِ والأَسْرِ، ويومَ الفتحِ مِن الذُّلِّ(١).

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: يَرجِعون عن ظُلْمِهم فإنَّهم ظالمون، عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ إلىٰ آخِرِها؛ حيث اقتضت أنَّ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ ليسوا كأولئك؛ فانتقل إلىٰ الإخبارِ عنهم بأنَّهم أشدُّ النَّاسِ ظلمًا؛ لأنَّهم يُذكَّرون بآياتِ الله حين يُتلَىٰ عليهم القرآنُ فيُعرِضون عن تدبُّرِها، ويَلغُون فيها؛ فآياتُ اللهِ مرادٌ بها القرآنُ(٣).

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحالِ مَن قابَل آياتِ اللهِ تعالىٰ بالإعراضِ بعد بيانِ حالِ مَن قابَلها بالسُّجودِ والتَّسبيحِ والتَّحميد(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٦).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان مقصودُ السُّورةِ نَفْيَ الرَّيبِ عن تنزيلِ هذا الكتاب المُبِينِ في أنَّه مِن عندِ رَبِّ العالَمين، ودَلَّ علىٰ أنَّ الإعراضَ عنه إنَّما هو ظُلْمٌ وعِنادٌ بما ختَمه بالتَّهديدِ علىٰ الإعراض عن الآياتِ بالانتقام، وكان قد انتقَم سبحانه ممَّن استخَفَّ بموسىٰ عليه السلام قبل إنزالِ الكتابِ عليه، وبعد إنزالِه، وكان أوَّلَ مَن أُنزِلَ عليه كتابٌ مِن بني إسرائيلَ بعد فترةٍ كبيرةٍ مِن الأنبياءِ بَيْنَه وبَيْنَ يوسُفَ عليهما السلام، وآمَن به جميعُهم، وألَّفهم اللهُ به، وأنقَذهم مِن أَسْرِ القِبْطِ علىٰ يدِه: ذكَّر بحالِه تسليةً وتأسيةً لِمَن أقبَل، وتهديدًا لِمَن أعرَض، وبِشارةً بإيمانِ العرَبِ كلِّهم، وتأليفِهم به، وخلاصِ أهلِ اليمَنِ منهم مِن أَسْرِ الفُرْسِ بسببِه، فقال مؤكِّدًا -تنبيهًا لِمَن يظنُّ أنَّ العظيمَ لا يُرَدُّ شيءٌ مِن أمرِه-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[(١)].

لمَّا جرَىٰ ذِكْرُ إعراضِ المشركين عن آياتِ الله، استطرَد إلىٰ تسليةِ النبيِّ ﷺ بأنَّ ما لَقِي مِن قومِه هو نظيرُ ما لَقِيَه موسىٰ عليه السلام مِن قومِ فِرْعونَ الذين أُرسِلَ إليهم[(٢)].

لمَّا قرَّر الأصولَ الثلاثة: الرسالةَ، وبَدْءَ الخَلْقِ، والمَعاد: عادَ إلىٰ الأصلِ الذي بدأ به؛ وهو الرسالةُ؛ أي: لستَ بِدْعًا في الرسالةِ؛ إذ قد سبَق قَبْلَك رسلٌ، وذكَر موسىٰ عليه السلام؛ لقُرْبِ زمانِه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٤).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٤٠).

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وأشار إلى اختلافِهم فيه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(١).

أُشِيرَ إلى ما مَنَّ اللهُ به على بني إسرائيلَ؛ إذ جعَل منهم أئمَّةً يَهدون بأمرِ الله، والأمرُ يَشمَلُ الوحيَ بالشَّريعة؛ لأنَّه أمرٌ بها، ويشمَلُ الانتصابَ للإرشاد؛ فإنَّ اللهَ أمَر العلماءَ أن يُبيِّنوا الكتابَ، ويُرشِدوا إليه، فإذا هُدُوا، فإنَّما هُدُوا بأمره، وبالعلمِ الذي أتاهم به أنبياؤهم وأحبارُهم، فأنعَم اللهُ عليهم بذلك لَمَّا صبَروا وأيقَنوا لِما جاءهم مِن كتابِ الله، ومعجِزات رسولهم(٢).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ أنَّه كان منهم مَن يُضِلُّ عن أمرِ الله ويصُدُّ عنه، جاء قولُه تسليةً للمؤمنين وتوعُّدًا للكافرين، استئنافًا مؤكدًا؛ تنبيهًا لِمَن يظنُّ أنَّه لا بَعْثَ، ولفَت القول إلى صفةِ الإحسان؛ إشارةً إلى ما يَظهَرُ مِن شرَفِه ﷺ في ذلك اليومِ مِن المقامِ المحمودِ وغيرِه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يُثيرُ سؤالًا في نفسِ السامع مِن المؤمنين الذين سَمِعوا ما في القرآن مِن وصفِ اختلافِ بني

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٧).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٦٦).

إسرائيلَ، وانحرافِهم عن دِينِهم، وشاهَد كثيرٌ منهم بني إسرائيلَ في زمانِه غيرَ مُتحلِّين بما يناسبُ ما قامت به أئمَّتُهم مِن الهدايةِ، فيَوَدُّ أن يَعلَمَ سببَ ذلك؛ فكان في هذه الآيةِ جوابُ ذلك؛ تعليمًا للنبي ﷺ وللمؤمنين، والخطابُ للنبي ﷺ، والمرادُ أمَّتُه؛ تحذيرًا مِن ذلك، وإيماءً إلىٰ وجوبِ تجنُّبِ الاختلافِ الذي لا يدعو إليه داعٍ في مصلحةِ الأمَّة، وفَهْمِ الدِّين[1].

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾

ولمَّا كان قد تقدَّم عن الكفارِ في هذه السُّورةِ قولانِ: أحدُهما: في التَّكذيبِ بالقرآن، والثاني: في إنكارِ البعث، ودلَّ سبحانه علىٰ فسادِهما، إلىٰ أن ختَم بذِكْرِ الآياتِ والبعثِ والفَصْلِ بَيْنَ المُحِقِّ والمُبطِلِ: أتبعَه استفهامينِ إنكاريَّينِ منشورينِ علىٰ القولين، وخُتِمتْ آيةُ كلٍّ منهما بآخَرَ، فتَصِيرُ الاستفهاماتُ أربعةً، وفي مدخولِ الأولِ الفصلُ بَيْنَ الفريقَينِ في الدنيا، فقال مهدِّدًا: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾[2].

لمَّا أعاد ذِكْرَ الرسالةِ، أعاد ذِكْرَ التَّوحيد، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٨).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٦٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٥١).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عطفٌ على ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾، ونيطَ الاستدلالُ هنا بالرُّؤيةِ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ بعد موتها ثم إخراجَ النَّبْتِ منها دَلالةٌ مشاهَدةٌ(١).

لمَّا بيَّن الإهلاكَ -وهو الإماتةُ- بيَّن الإحياءَ؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ بيدِ الله(٢).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الآيةُ أدلَّ دليلٍ - كما مضى - على البعثِ، وكان يومًا يَظهَرُ فيه عِزُّ الأولياء وذُلُّ الأعداء: أتبَعها قولَه تعجيبًا منهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣).

يجوز أن يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾؛ أي: أعرَضوا عن سماعِ الآياتِ والتَّدبُّرِ فيها، وتجاوَزوا ذلك إلى التَّكذيبِ والتَّهكُّم بها، ومناسبةُ ذِكْرِ ذلك هنا: أنَّه وقَع عَقِبَ الإشارةِ إلى دليلِ وقوعِ البعث؛ وهو يومُ الفصلِ، ويجوز أن يُعطَفَ على جملةِ ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٤).

لمَّا بيَّن الرسالةَ والتَّوحيد، بيَّن الحشرَ بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤٢).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٥١).

﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾

ولمَّا أسفر حالُهم بهذا السُّؤالِ الذي مُحصِّلُه الاستعجالُ علىٰ وجهِ الاستهزاء عن أنَّهم لا يزدادون مع البيانِ إلا عنادًا، أمَرهم بجوابٍ فيه أبلَغُ تهديدٍ، فقال فاعلًا فِعْلَ القادرِ في الإعراضِ عن إجابتِهم عن تعيينِ اليومِ إلىٰ ذِكْرِ حالِه: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾(1).

ثم أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يُجِيبَ عليهم، فقال: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾(2).

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾

ولمَّا كانت نتيجةُ سماعِهم لهذه الأدلَّةِ استهزاءَهم، حتىٰ بسؤالِهم عن يومِ الفتح، وأجابهم سبحانه عن تعيينِه بذِكْرِ حاله، وكان ﷺ لشدَّةِ حرصِه علىٰ نفعِهم ربما أحَبَّ إعلامَهم بما طلَبوا -وإن كان يَعلَمُ أنَّ ذلك منهم استهزاءٌ- رجاءَ أن يَنفَعَهم نفعًا ما: سبَّب سبحانه عن إعراضِه عن إجابتِهم أَمْرَه لهذا الدَّاعي الرَّفيقِ والهادي الشَّفيق بالإعراضِ عنهم أيضًا، فقال مُسلِّيًا له، مُهدِّدًا لهم: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾(3).

ثم فُرِّع علىٰ جميعِ هذه المجادَلاتِ والدَّلالات توجيهُ اللهِ خطابَه إلىٰ رسولِ الله ﷺ بأن يُعرِضَ عن هؤلاء القائلين المكذِّبين، وألا يَزيدَ في الإلحاحِ عليهم؛ تأييسًا مِن إيمانِ المجادِلين منهم، المتصدِّين للتَّمويهِ علىٰ دَهْمائهم؛ وهذا إعراضُ مُتارَكةٍ عن

(1) نظم الدرر (15/ 270).
(2) فتح القدير (4/ 298).
(3) نظم الدرر (15/ 271).

الجدالِ وقتيًّا، لا إعراضٌ مستمرٌّ، ولا عن الدَّعوةِ إلىٰ الله، ولا علاقةَ له بأحكامِ الجهادِ المشروعِ في غيرِ هذه الآية[١].

لمَّا بيَّن المسائل، وأتقَن الدَّلائل، ولم ينفَعْهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾[٢].

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٥١).

سُورَةُ الأَحزَابِ

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ ﴾

ولمَّا كان ذلك مُفهِمًا لمخالفةِ كلِّ ما يدعو إليه كافرٌ، وكان الكافرُ ربما دعا إلىٰ شيءٍ مِن مكارمِ الأخلاق؛ قيَّده بقوله: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[1].

هذا تمهيدٌ لِما يَرِدُ مِن الوحي في شأنِ أحكامِ التَّبنِّي، وما يتَّصلُ بها؛ ولذلك جِيءَ بالفعلِ المضارعِ الصالحِ للاستقبال، وجُرِّد مِن علامةِ الاستقبال؛ لأنَّه قريبٌ مِن زمنِ الحال، والمقصودُ مِن الأمرِ باتِّباعه أنَّه أمرٌ باتِّباعٍ خاصٍّ؛ تأكيدًا للأمرِ العام باتِّباعِ الوحي، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما سيُوحىٰ إليه قريبًا هو ممَّا يشُقُّ عليه وعلىٰ المسلمين مِن إبطالِ حُكْمِ التَّبنِّي؛ لأنَّهم أَلِفوه، واستقرَّ في عوائدِهم، وعامَلوا المتبنَّيْنَ معاملةَ الأبناءِ الحقِّ[2].

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣ ﴾

ولمَّا كان الآدميُّ موضعَ الحاجةِ إلىٰ تعظيمِ التَّرجيةِ، قال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٢٨٣).

زيادةُ تمهيدٍ وتوطئةٍ لتَلقِّي تكليفٍ يترقَّبُ منه أذًى مِن المنافقين؛ مثلُ قولِهم: إنَّ محمَّدًا نهىٰ عن تزوُّجِ نساءِ الأبناء، وتزوَّجَ امرأةَ ابنِه زيدِ بن حارثة؛ فأمَره بتقوىٰ ربِّه دُونَ غيرِه، وأتبَعه بالأمرِ باتِّباعِ وحيِه، وعزَّزه بالأمرِ بما فيه تأييدُه؛ وهو أن يُفوِّضَ أمورَه إلىٰ الله(١).

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كان النازعُ إلىٰ جِهتَينِ والمعالِجُ لأمرينِ متبايِنَينِ كأنَّه يتصرَّفُ بقلبَينِ، أكَّد أمرَ الإخلاصِ في جعلِ الهمِّ همًّا واحدًا فيما يكونُ مِن أمورِ الدِّين والدُّنيا، وفي المُظاهَرةِ والتَّبنِّي، وكلِّ ما شابَهها بضربِ المثلِ بالقلبَينِ، فقال مُعلِّلًا لِما قبله بما فيه مِن الإشارةِ إلىٰ أنَّ الآدميَّ مع قطعِ النَّظرِ عن رتبةِ النُّبوَّةِ موضعٌ لخفاءِ الأمورِ عليه: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ ابتداءَ المقدِّمةِ للغرضِ بعد التَّمهيدِ له بما قبله، والمقدمةُ أخَصُّ مِن التَّمهيد؛ لأنَّها تشتملُ علىٰ ما يُوضِّح المَقصِدَ، بخلافِ التَّمهيد؛ فهذا مقدِّمةٌ لِما أُمِر النبيُّ ﷺ باتِّباعه ممَّا يُوحَىٰ إليه، وهو تشريعُ الاعتبارِ بحقائقِ الأشياء ومعانيها، وأنَّ مَواهِي(٣) الأمورِ لا تتغيَّرُ بما يُلصَق بها مِن الأقوالِ المنافية للحقائق، وأنَّ تلك الملصقاتِ بالحقائق هي التي تحجُبُ العقولَ عن التَّفهُّمِ في الحقائقِ الحقِّ، وهي التي تَرينُ علىٰ القلوبِ بتلبيسِ الأشياء(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٨٣).

(٣) أي: ماهيَّات، وهي حقائق الأشياء.

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥٤).

ثم ذكَر سبحانه مثَلًا توطئةً وتمهيدًا لِما يَتعقَّبُه مِن الأحكامِ القرآنيَّة التي هي مِن الوحيِ الذي أمَره اللهُ باتِّباعه، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1].

﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما تقولُ؟ اهدِنا إلى سبيلِ الحقِّ في ذلك؛ أرشَد إلى أمرِ التَّبنِّي إشارةً إلى أنَّه هو المقصودُ في هذه السُّورةِ لِما يأتي بعدُ مِن آثارِه التي هي المقصودةُ بالذَّات بقولِه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

استئنافٌ بالشُّروعِ في المقصودِ مِن التَّشريع لإبطالِ التَّبنِّي، وتفصيلٌ لِما يَحِقُّ أن يُجرِيَه المسلمون في شأنِه[3].

ثم صرَّح لهم بتركِ الحالةِ الأُولى، المتضمِّنةِ للقولِ الباطلِ، فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٠٠).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٦١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٥٨).

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا نهىٰ سبحانه عن التَّبنِّي، وكان النبيُّ ﷺ قد تبنَّىٰ زيدَ بن حارثة مولاه لمَّا اختاره علىٰ أبيه وأمِّه: علَّل سبحانه النَّهْيَ فيه بالخصوصِ بقولِه دالًّا علىٰ أنَّ الأمرَ أعظَمُ مِن ذلك: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ أنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾، وقولَه: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ كان قد شَمِل في أولِ ما شَمِله إبطالَ بُنوَّةِ زيدِ بن حارثة للنبيِّ ﷺ، فكان بحيث يُثيرُ سؤالًا في نفوسِ النَّاس عن مدَىٰ صلةِ المؤمنين بنبيِّهم ﷺ، وهل هي وعُلْقةُ الأجانبِ مِن المؤمنين بعضِهم ببعضٍ سواءٌ؟ فلأجلِ تعليمِ المؤمنين حقوقَ النبيِّ وحُرْمتَه جاءت هذه الآيةُ مبيِّنةً أنَّ النبيَّ أولىٰ بالمؤمنين مِن أنفسهم(٢).

ثم ذكَر سبحانه لرسولِه ﷺ مزيَّةً عظيمةً وخصوصيَّةً جليلةً لا يشارِكُه فيها أحدٌ مِن العبادِ، فقال: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾(٣).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان نقضُ العوائدِ وتغييرُ المألوفات ممَّا يشُقُّ كثيرًا علىٰ النُّفوس، ويُفرِّق المجتمِعين، ويَقطَعُ بَيْنَ المتواصِلين، ويباعد بَيْنَ المتقاربين: قال مُذكِّرًا له ﷺ بما

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٦٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٠١).

أُخِذ على مَن قَبْلَه مِن نَسْخِ أديانِهم بدِينِه، وتغييرِ مألوفاتهم بإلفِه، ومِن نصيحةِ قومهم بإبلاغهم كلَّ ما أُرسِلوا به، صارفًا القولَ إلى مظهرِ العظمةِ؛ لأنَّه أدعى إلى قَبولِ الأوامر: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].

عطفٌ على قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾؛ فلذلك تضمَّنَ الأمرَ بإقامةِ الدِّين على ما أراده اللهُ تعالى، وأوحى به إلى رسولِه ﷺ، وعلى نَبْذِ سُنَنِ الكافرين الصُّرحاءِ والمنافقين مِن أحكامِ الهوى والأوهام، فلمَّا ذكَر ذلك وعقَّب بمثلِ ثلاثةٍ مِن أحكامِ جاهليَّتهم الضالَّةِ بما طال مِن الكلامِ إلى هنا، ثُنِي عِنانُ الكلامِ إلى الإعلامِ بأنَّ الذي أمَره اللهُ به هو مِن عهودٍ أخَذها اللهُ على النبيِّين والمرسَلين مِن أولِ عهودِ الشَّرائع، وتَربطُ هذا الكلامَ بالكلامِ الذي عُطِف هو عليه مناسبةُ قولِه: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾، وبهذا الارتباطِ بَيْنَ الكلامينِ لم يُحتَجْ إلى بيانِ الميثاق الذي أخَذه اللهُ تعالى على النبيِّين؛ فعُلم أنَّ المعنى: وإذ أخَذنا مِن النبيِّين ميثاقَهم بتقوى اللهِ، وبنَبْذِ طاعةِ الكافرين والمنافقين، وباتِّباع ما أوحى اللهُ به[2].

ولمَّا كان ما سبَق أحكام[3] عن اللهِ تعالى، وكان فيها أشياءُ ممَّا كانت في الجاهليةِ، وأشياءُ في الإسلام نُسِختْ؛ أتبَعه بقولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ في تبليغِ الشرائعِ والدعاء إلى الله؛ فلستَ بِدْعًا في تبليغِك عن الله[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٩٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٧٣).
(٣) كذا في المطبوع.
(٤) البحر المحيط (٨/ ٤٥٥).

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾

ولمَّا كان الأخذُ على النَّبيين في ذلك أخذًا على أُمَمِهم، وكان الكفرُ معذَّبًا عليه مِن غيرِ شرطٍ، والطاعةُ مثابًا عليها بشرطِ الإخلاص: علَّله مُعبِّرًا بما هو مقصودُ السورة، فقال مُلتفتًا إلى مقامِ الغَيْبةِ لتعظيمِ الهَيْبة؛ لأنَّ الخطابَ إذا طال استأنس المخاطَبُ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(١)].

ثم ذكَر الغايةَ التي لأجلِها أخذ الميثاق، فقال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾

ولمَّا أكَّد سبحانه وجوبَ الصَّدْعِ بكلِّ أمرِه، وإن عظُمتْ مشقَّتُه، وزادت حُرْقتُه مِن غيرِ ركونٍ إلى مؤالفٍ موافقٍ، ولا اهتمامٍ بمخالفٍ مشاقٍّ؛ اعتمادًا على تدبيرِه، وعظيمِ أمرِه في تقديرِه: ذكَّرهم بدليلٍ شهوديٍّ هو أعظَمُ وقائعِهم في حروبهم، وأشَدُّ ما دَهِمَتْهم مِن كُروبِهم، فقال مُعلِمًا أنَّ المقصودَ بالذَّاتِ بما مضى مِن الأوامرِ الأمَّةُ، وإنَّما وجَّه الأمرَ إلى الإمامِ ليكونَ أدعى لهم إلى الامتثال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[(٢)].

ابتداءٌ لغرضٍ عظيمٍ مِن أغراضِ نزولِ هذه السُّورةِ، والذي حُفَّ بآياتٍ وعِبَرٍ مِن ابتدائه ومِن عواقبِه؛ تعليمًا للمؤمنين وتذكيرًا؛ ليَزيدَهم يقينًا وتبصيرًا، فافتُتِح الكلامُ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٢٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٢٩٥-٢٥٦).

بتوجيهِ الخطاب إليهم؛ لأنَّهم أهلُه، وأحِقَّاء به، ولأنَّ فيه تخليدَ كرامتِهم ويقينِهم وعنايةِ الله بهم ولُطْفِه لهم، وتحقيرًا لعدوِّهم ومَن يَكِيدُ لهم، وأُمِروا أن يذكُروا هذه النِّعْمةَ ولا يَنسَوْها؛ لأنَّ في ذِكْرِها تجديدًا للاعتزازِ بدِينهم، والثقةِ بربهم، والتَّصديق لنبيِّهم ﷺ، واختيرت للتَّذكيرِ بهذا اليومِ مناسبةُ الأمرِ بعدم طاعةِ الكافرين والمنافقين؛ لأنَّ مِن النِّعَمِ التي حَفَّتْ بالمؤمنين في يومِ الأحزاب أنَّ اللهَ رَدَّ كيدَ الكافرين والمنافقين؛ فذُكِّر المؤمنون بسابقِ كيدِ المنافقين في تلك الأزمةِ؛ ليَحذَروا مكائدَهم وأراجيفَهم في قضيةِ التَّبنِّي، وتزوُّجِ النبيِّ ﷺ مطلَّقةَ مُتبَنَّاه(١).

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾

ثم ذكَّرهم الشِّدَّةَ التي حصَلتْ بتمالُئِهم، فقال: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾(٢).

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كانت الشِّدَّةُ في الحقيقة إنَّما هي للثابتِ؛ لأنَّه ما عنده إلا الهلاكُ أو النُّصرة، وأمَّا المنافقُ فيُلقِي السَّلَمَ، ويدخُلُ دارَه الذُّلُّ بالموافقةِ على جميعِ ما يُراد منه: ترجَم حالَ المؤمنين قاصرًا الخطابَ على الرأسِ؛ لئلا يدخُلَ في مضمونِ الخبرِ؛ إعلامًا بأنَّ منصبَه الشَّريفَ أجَلُّ مِن أن يُبتلى، فقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٧٦).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٣).

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم بهذا أنَّ الحالَ المزلزِلَ لهم كان في غايةِ الهَوْلِ، أشار إلىٰ أنَّه لم يُزلزِلْهم بأن حكىٰ أقوالَ المزلزَلين، ولم يذكُرْ أقوالَهم، وسيذكُرُها بعدُ؛ ليكونَ الثَّناءُ عليهم بالثَّباتِ مع عظيمِ الزلزال مذكورًا مرتين إشارةً وعبارةً، فقال: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾(١).

عطفٌ علىٰ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ فإنَّ ذلك كلَّه ممَّا أُلحِق بالمسلمين ابتلاءً؛ فبعضُه مِن حالِ الحربِ، وبعضُه مِن أذىٰ المنافقين؛ ليَحذَروا المنافقين فيما يحدُثُ مِن بعدُ، ولئلا يَخشَوْا كيدَهم؛ فإنَّ اللهَ يَصرِفه كما صرَف أشَدَّه يومَ الأحزاب(٢).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ ما ظهَر مِن المنافقين في تلك الشِّدَّةِ بقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٣).

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما هو الأصلُ في نفاقِهم -وهو التَّكذيبُ-، أتبعه ما تفرَّع عليه، ولمَّا كان تخذيلُهم بالتَّرجيع مرَّةً، عبَّر عنه بالماضي، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٨٣).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٥٥).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٦).

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت عنايتُهم مشتدَّةً بملازمةِ دُورِهم، فأظهَروا اشتدادَ العنايةِ بحمايتها زورًا: بيَّن اللهُ ذلك، ودلَّ عليه بالإسنادِ إلىٰ الدُّورِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّها ربَّةُ الحمايةِ والعمدة، فقال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾(١).

موقعُ هذه الآيةِ زيادةُ تقريرٍ لمضمونِ جملة ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾؛ فإنَّها لتكذيبِهم في إظهارِهم التَّخوُّفَ علىٰ بيوتِهم، ومرادُهم خَذْلُ المسلمين(٢).

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا منهم لا يَقصِدون به إلا الفرارَ، لا حِفْظَ البيوتِ مِن المَضارِّ: أتبعه بقولِه مُؤكِّدًا لأجل ما هم عليه مِن الإنكارِ والحَلِفِ بالكذب: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾(٣).

ثم حكىٰ سبحانه عنهم ما قد كان وقَع منهم مِن قبلُ مِن المعاهَدةِ للهِ ولرسوله بالثَّباتِ في الحرب، وعدمِ الفرارِ عنه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٩).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٠٧).

ثم ذكَّرهم تعالىٰ بما كانوا عاهدوه مِن قبلُ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾[(١)].

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما أخبَر به رسولَه ﷺ؛ كما دلَّ عليه التَّعبيرُ بالنبيِّ: استأنَف أمرَه بجوابِهم جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ماذا يقال لهم؟ وإجراءً للنصيحةِ علىٰ لسانِه لِما هو مجبولٌ عليه مِن الشَّفقةِ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[(٢)].

جوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾؛ ولذلك فُصِلتْ؛ لأنَّها جرَتْ علىٰ أسلوبِ التقاوُلِ والتجاوُبِ[(٣)].

﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾

ولمَّا كانوا لِما عندهم مِن التَّقيُّدِ بالوَهْمِ والدَّورانِ مع الحِسِّ -دَأْبَ البَهْمِ- جديرين بأن يقولوا: بلىٰ يَنفَعُنا؛ لأنَّا طالما رأَيْنا مَن هرَب فسَلِم، ومَن ثبَت فاصطُلِم[(٤)]؛ أمَره بالجوابِ عن هذا بقولِه: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٥٦).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣١٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٩٠). والتقاول والتجاوب: أي تناوب القول والجواب.
(٤) أي: أُبيد واستُؤصل.
(٥) نظم الدرر (١٥/ ٣١٢).

يَظهَرُ أنَّ هذه الجملةَ واقعةٌ موقعَ التَّعليل لجملة ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم﴾ الآيةَ، فكأنَّه قيل: فمَن ذا الذي يَعصِمُكم مِن اللهِ؟! أي: فلا عاصمَ لكم مِن نفوذِ مراده فيكم، وإعادةُ فعلِ ﴿قُلْ﴾ تكريرٌ لأجلِ الاهتمامِ بمضمون الجملة[1].

ثم بيَّن أنَّ الأسبابَ كلَّها لا تُغنِي عن العبدِ شيئًا إذا أراده الله بسُوءٍ، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[2].

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا أخبَرهم سبحانه بما عَلِم ممَّا أوقعوه مِن أسرارِهم، وأمَره ﷺ بوَعْظِهم: حذَّرهم بدوامِ علمِه لِمَن يخونُ منهم، فقال مُحقِّقًا مُقرِّبًا مِن الماضي، ومؤذِنًا بدوامِ هذا الوصفِ له: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سؤالًا يَهجِسُ في نفوسِهم أنَّهم يُخفُون مقاصدَهم عن رسولِ الله ﷺ، فلا يشعُرُ بمرادِهم مِن الاستئذان، فأُمِر أن يقولَ لهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، وقد جُعِل هذا الاستئنافُ تخلُّصًا لذِكرِ فريقٍ آخَرَ مِن المعوِّقين[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٩١-٢٩٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٦٠).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٩٣).

ثم توعَّد تعالىٰ المخذِّلين المعوِّقين، وتهدَّدهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾

ولمَّا كانوا يُوجِّهون لكلٍّ مِن أفعالِهم هذه وجهًا صالحًا، بيَّن فسادَ قصدِهم بقوله ذامًّا غايةَ الذَّمِّ بالتَّعبيرِ بلفظِ الشُّحِّ، الذي هو التَّناهي في البخلِ؛ فهو بخلٌ بما في اليدِ، وأمرٌ للغيرِ بالبخلِ؛ فهو بخلٌ إلىٰ بخلٍ خبيثٍ قَذِرٍ مُتمادًىٰ فيه مُسارَعٍ إليه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

انتقالٌ مِن القولِ الذي أُمِر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه لهم إلىٰ كشفِ أحوالهم للرسولِ ﷺ والمسلمين[3].

ثم بعد أن وصَفهم بالجبنِ، وصَفهم بالبخلِ والخوف، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

وكأنَّهم لمَّا ذهَب، استمَرُّوا خاضعين، لم يُطلِقوا ألسنتَهم، ولا أعلَوْا كلمتَهم؛ فأخبَر تعالىٰ تحقيقًا لقولِه الماضي في جُبْنِهم أنَّ المانعَ الذي ذكَره لم يزُلْ مِن عندِهم؛ لفَرْطِ جُبْنِهم، فقال -تحقيقًا لذلك، وجوابًا لِمَن ربما قال: قد ذهَب الخوفُ؛ فما

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٦٠).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٩٥).

لهم ما سلقُوا؟-: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١).

لمَّا ذُكِر حالُ المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ مِن فتنتِهم في المسلمين، وأذاهم حين مجيءِ جنودِ الأحزاب، وحين زاغتِ الأبصارُ وبلَغتِ القلوبُ الحناجرَ: ثُنِي عِنانُ الكلامِ الآن إلىٰ حالِهم حين أنعَمَ اللهُ علىٰ المسلمين بانكشافِ جنودِ الأحزاب عنهم، فأفاد بأنَّ انكشافَ الأحزابِ حصَل علىٰ حينِ غفلةٍ مِن المنافقين؛ فلذلك كانوا يشتدُّون في مَلامِ المسلمين، ويَسلِقونهم بألسنةٍ حِدادٍ علىٰ أن تعرَّضوا للعدوِّ الكثير، وكان اللهُ ساعتئذٍ قد هزَم الأحزابَ، فانصرَفوا، وكفىٰ اللهُ المؤمنين شرَّهم، وليس للمنافقين وساطةٌ في ذلك(٢).

ثم وصَفهم أيضًا بقوله: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عنهم بهذه الأحوالِ التي هي غايةٌ في الدناءةِ، أقبَل عليهم إقبالًا يدلُّهم علىٰ تَناهِي الغضبِ، فقال مؤكِّدًا محقِّقًا لأجلِ إنكارهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٢٢).

بعد توبيخِ المنافقين والذين في قلوبِهم مرضٌ، أقبَل الكلامُ علىٰ خطابِ المؤمنين في عمومِ جماعتِهم؛ ثناءً علىٰ ثباتِهم، وتأسِّيهم بالرسولِ ﷺ؛ علىٰ تفاوُتِ درجاتِهم في ذلك الائتساءِ[(١)].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا أخبَر عمَّا حصَل في هذه الوَقْعةِ مِن الشَّدائدِ الناشئة عن الرُّعبِ لعامَّةِ الناس، وخصَّ مِن بينهم المنافقين بما ختَمه بالمَلامةِ في تَرْكِ التَّآسي بمَن أعطاه اللهُ قِيادَهم، وأعلاه عليهم في الثَّباتِ والذِّكر، وختَم هذا الخَتْمَ بما يُثمِرُ الرسوخَ في الدِّين: ذكَر حالَ الراسخين في أوصافِ الكمال، المتأسِّين بالداعي، المقتفِين للهادي، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[(٢)].

لمَّا ذُكِرتْ أقوالُ المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ، المؤذِنةُ بما يداخِلُ قلوبَهم مِن الخوفِ، وقلَّةِ الإيمانِ والشكِّ فيما وعَد اللهُ به رسولَه ﷺ والمؤمنين مِن النصرِ: قوبِلتْ أقوالُ أولئك بأقوالِ المؤمنين حينما نزَلتْ بهم الأحزابُ، ورأَوْا كثرتَهم وعدَدَهم، وكانوا علىٰ بصيرةٍ مِن تفوُّقِهم عليهم في القوَّةِ والعدد أضعافًا، وعَلِموا أنَّهم قد ابتُلُوا وزُلزِلوا؛ كلُّ ذلك لم يُخِرْ[(٣)] عزائمَهم، ولا أدخَلَ عليهم شكًّا فيما وعَدهم اللهُ مِن النَّصرِ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٢٤).

(٣) أي: يُضعف.

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٤).

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيانٌ لِما صدَر عن خُلَّصِ المؤمنين عند اشتباهِ الشُّؤون، واختلافِ الظُّنون، بعد حكايةِ ما صدَر عن غيرهم(١).

لمَّا ذكَر حالةَ المنافقين عند الخوفِ، ذكَر حالَ المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢).

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان كلُّ مَن آمَن بائعًا نفسَه ومالَه لله؛ لأنَّ اللهَ اشترىٰ مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالهم، وكان بعضُ الراسخين في الإيمانِ لم يُعطِ الإيمانَ حقَّه في القتالِ في نفسِه وماله كما فعَل أبو بكرٍ رضي الله عنه؛ أمَّا في مالِه فبالخروج عنه كلِّه، وأمَّا في نفسِه فبما كان يُقحِمُها مِن الأهوال، حتىٰ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقولُ له في بعضِ المواطن: «الزَمْ مكانَك، وأمتِعْنا بنفسِك»(٣)، ويقولُ له ولعُمَرَ رضي الله عنهما: «إنَّهما مِن الدِّين بمنزلةِ السمعِ والبصرِ»(٤)، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه في ليلةِ الغارِ يذكُرُ الطلَبَ فيتأخَّرُ، والرَّصَدَ فيتقدَّمُ، وما عن الجوانبِ فيَصِيرُ إليها(٥)، ومنهم مَن وفَىٰ هذه الغزوةَ وما قبلها؛ فأرادَ اللهُ التَّنويهَ بذِكْرِهم، والثناءَ عليهم؛ توفيةً لِما يفضلُ به في حقِّهم، وترغيبًا لغيرِهم؛ فأظهَر ولم يُضمِرْ لئلا يتقيَّدَ بالمذكورين سابقًا، فيخُصَّ هذه الغزوةَ، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(٦).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٩٧).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٦١).
(٣) أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٣/ ٤٧٤).
(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (١٢٢٢).
(٥) أخرجه أبو بكر الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم" (٢٢٣٨).
(٦) نظم الدرر (١٥/ ٣٢٦-٣٢٧).

أعقَب الثَّناءَ علىٰ جميعِ المؤمنين الخلَّصِ علىٰ ثباتِهم ويقينِهم واستعدادهم للقاءِ العدوِّ الكثير يومئذٍ، وعزمِهم علىٰ بذلِ أنفسهم، ولم يُقدَّرْ لهم لقاؤه: بالثَّناءِ علىٰ فريقٍ منهم كانوا وفَّوا بما عاهَدوا اللهَ عليه وفاءً بالعملِ والنية؛ ليحصُلَ بالثَّناء عليهم بذلك ثناءٌ علىٰ إخوانِهم الذين لم يتمكَّنوا مِن لقاءِ العدوِّ يومئذٍ؛ ليُعلَمَ أنَّ صِدْقَ أولئك يُؤذِنُ بصدقِ هؤلاء؛ لأنَّ المؤمنين يدٌ واحدةٌ[(١)].

ولمَّا ذكَر أنَّ المنافقين عاهَدوا اللهَ لا يولُّون الأدبارَ، ونقَضوا ذلك العهدَ: ذكَر وفاءَ المؤمنين به، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[(٢)].

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: قد فُهِم مِن سياقِ هذه القصَّةِ أنَّ القصدَ الإقبالُ عليه سبحانه، وقطعُ جميعِ العلائقِ مِن غيره؛ لأنَّه قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ؛ فهو يكفي مَن أقبَلَ عليه كلَّ مهمٍّ، وإن كان في غايةِ العجزِ عنه؛ تارةً بسببٍ ظاهرٍ، وتارةً بغيرِه: فما له لم يحكُمْ بالاتفاقِ علىٰ كلمةِ السَّلامِ؛ لتحصُلَ الراحةُ مِن هذا العناءِ كلِّه؟ فأُجيب بأنَّ هذا لتَظهَرَ صفةُ العِزِّ والعظمة والعدل وغيرها ظهورًا تامًّا، إلىٰ غيرِ ذلك مِن حِكَمٍ ينكشفُ عنها الحجابُ، وتُرفَعُ لتجلِّيها غايةَ التَّجلي سُتُورُ الأسبابِ، فقال تعالىٰ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٦١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٣٠).

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ متعلِّقٌ بمُضمَرٍ مستأنَفٌ مسُوقٌ بطريقِ الفذلكة؛ لبيانِ ما هو داعٍ إلىٰ وقوعِ ما حُكِي مِن الأحوالِ والأقوال علىٰ التَّفصيل(١).

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم سبحانه نِعْمتَه بما أرسَل علىٰ أعدائهم مِن جنودِه، وبيَّن أحوالَ المنافقين والصَّادقين، وما له في ذلك مِن الأسرارِ، وختَم بهاتين الصِّفتين: قال مُذكِّرًا بأثرِهما فيما خرَقه مِن العادةِ بصرفِ الأعداء -علىٰ كثرتِهم وقوَّتِهم- علىٰ حالةٍ لا يرضاها لنفسِه عاقلٌ، عاطفًا علىٰ قولِه في أولِ السُّورة والقصَّة: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(٢).

ثم رجَع سبحانه إلىٰ حكايةِ بقيَّةِ القصَّة، وما امتنَّ به علىٰ رسولِه والمؤمنين مِن النِّعْمة، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(٣).

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ أمرَ الأحزاب، أتبَعه حالَ الذين ألَّبوهم، وكانوا سببًا في إيتانِهم؛ كحُيَيِّ بن أخطَبَ، والذين مالؤُوهم علىٰ ذلك، ونقَضُوا ما كان لهم مِن عهدٍ، فقال:

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٩٩).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٣١).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣١٤).

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[(١)].

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر النَّاطقَ بقِسْمَيهِ، ذكَر الصَّامتَ، فقال: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[(٢)].

فيه ترتيبٌ علىٰ ما كان؛ فإنَّ المؤمنين بعد قَتْلِهم وأَسْرِ فريقٍ منهم أولًا تملَّكوا أرضَهم بالنزولِ فيها، والاستيلاءِ عليها، ثم تملَّكوا ديارَهم بالدخولِ عليهم، وأخذِ قِلاعِهم، ثم أموالِهم التي كانت في بيوتهم[(٣)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بهذه الوقائعِ - التي نصَر فيها سبحانه وَحْدَه بأسبابٍ باطنةٍ سبَّبها، وأمورٍ خفيَّةٍ رتَّبها، تَعجِزُ عنها الجيوشُ المتخيِّرةُ المستكثِرة، والملوكُ المتجبِّرة المستكبِرة - ما قدَّم مِن أنَّه كافٍ مَن توكَّل عليه، وأقبَل بكلِّيَّتِه إليه، وختَم بصفةِ القدرةِ العامة الدائمة: تحرَّر أنَّه قادرٌ علىٰ كلِّ ما يريدُه، وأنَّه لو شاء أجرىٰ مع وليِّه كنوزَ الأرض، وأنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يُراعِيَ غيرَه، ولا أن يرمُقَ بوجهٍ ما سِواه، وعُلِم أنَّ مَن أقبَل إلىٰ هذا الدِّينِ، فإنَّما نفَع نفسَه، والفضلُ لصاحبِ الدِّين عليه، ومَن

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦٤).

أعرَض عنه، فإنَّما وبالُ إعراضِه علىٰ نفسه، ولا ضرَرَ علىٰ الدِّينِ بإعراضِ هذا المُعرِضِ، كما أنَّه لا نَفْعَ له بإقبالِ ذلك المُقبِلِ، وكان قد قضىٰ سبحانه أنَّ مَن انقطَع إليه، حمَاه مِن الدُّنيا؛ إكرامًا له، ورفعًا لمنزلتِه عن خسيسِها إلىٰ نفيسِ ما عنده؛ لأنَّ كلَّ أمرِها إلىٰ زوالٍ وتلاشٍ واضمحلالٍ، ولا يُعلِّقُ همَّتَه بذلك إلا قاصرٌ ضالٌّ؛ فأخَذ سبحانه يأمرُ أحبَّ الخَلْقِ إليه، وأعَزَّهم منزلةً لديه، المعلومَ امتثالُه للأمرِ بالتَّوكُّلِ والإعراضِ عن كلِّ ما سِواه سبحانه، وأنَّه لا يختار مِن الدُّنيا غيرَ الكَفاف، والقناعةِ والعفاف: بتخييرِ ألصَقِ الناسِ به؛ تأديبًا لكافَّةِ النَّاس، فقال علىٰ طريقِ الاستنتاج ممَّا تقدَّم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[(١)].

وجهُ اتصالِ هذه الآياتِ بما قبلها: أنَّه لمَّا فُتِحتْ علىٰ المسلمين أرضُ قُرَيظةَ، وغَنِموا أموالَهم، وكانت أرضُ النَّضيرِ قُبَيلَ ذلك فَيْئًا للنبيِّ ﷺ: حَسِبَ أزواجُ رسولِ الله أنَّ مَثَلَه مَثَلُ أحدٍ مِن الرجالِ؛ إذا وُسِّع عليهم الرزقُ، توسَّعوا فيه هم وعيالُهم، فلم يكُنْ أزواجُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام يَسأَلْنَهُ توسعةً قبل أن يُفِيءَ اللهُ عليه مِن أهلِ النَّضير، وقبل أن يكونَ له الخُمُسُ مِن الغنائمِ، فلمَّا رأَيْنَ النبيَّ ﷺ جعَل لنفسِه ولأزواجه أقواتَهم مِن مالِ الله، ورأينَ وَفْرَةَ ما أفاء اللهُ عليه مِن المالِ: حَسِبْنَ أنَّه يوسِّعُ في الإنفاقِ، فصار بعضُهن يستكثِرْنَهُ مِن النفقةِ؛ كما دلَّ عليه قولُ عُمَرَ لحَفْصةَ ابنتِه أمِّ المؤمنين: «لا تستكثري النبيَّ، ولا تُراجعيه في شيءٍ، وسَلِيني ما بدا لكِ»[(٢)]، ولكنَّ اللهَ أقام رسولَه ﷺ مقامًا عظيمًا؛ فلا يَتعلَّقُ قلبُه بمتاعِ الدُّنيا إلا بما يقتضيه قِوَامُ الحياة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣١٤).

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

ثم ذكَر الخيارَ الثانيَ، فقال: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كان اللهُ سبحانه قد أمضىٰ حِكْمتَه في هذه الدارِ في أنَّه لا يُقبَلُ قولٌ إلا ببيانٍ، قال سبحانه متهدِّدًا علىٰ ما قد أعاذهنَّ اللهُ منه؛ فالمراد منه بيانُ أنَّه رفَع مقاديرَهنَّ؛ ولذلك ذكَر الأفعالَ المسنَدة إليهنَّ اعتبارًا بلفظِ «مَن»، والتَّنبيهُ علىٰ غلَطِ مَن جعَل صُحْبةَ الأشرافِ دافعةً للعقابِ علىٰ الإسراف، ومُعلِمةً بأنَّها إنَّما تكونُ سببًا للإضعاف: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[١].

تولَّىٰ اللهُ خطابهنَّ بعد أن أمَر رسولَه بتخييرِهنَّ، فخيَّرهنَّ، فاختَرْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فخاطَبهنَّ ربُّهنَّ خطابًا؛ لأنهنَّ أصبَحْنَ علىٰ عهدٍ مع اللهِ تعالىٰ أن يؤتيَهنَّ أجرًا عظيمًا، وقد سمَّاه عُمَرُ عهدًا؛ فإنَّه كان كثيرًا ما يقرأُ في صلاةِ الصُّبْحِ سورةَ الأحزاب، فإذا بلَغ هذه الآيةَ، رفَع بها صوتَه، فقيل له في ذلك، فقال: «أذكِّرُهنَّ العهدَ»[٢]، ولمَّا كان الأجرُ الموعود منُوطًا بالإحسان، أُريدَ تحذيرُهنَّ مِن المعاصي؛ بلوغًا بهنَّ إلىٰ مرتبةِ الملَكيَّةِ؛ مبالَغةً في التَّحذيرِ؛ إذ جعَل عذابَ المعصيةِ -علىٰ فرضِ أن تأتيَها إحداهنَّ- عذابًا مضاعَفًا[٣].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) أخرجه الثعلبي في "الكشف والبيان" (٨/ ٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣١٨).

لمَّا خيَّرهنَّ النبيُّ ﷺ واخترْنَ اللهَ ورسوله، أدَّبهنَّ اللهُ وهدَّدهنَّ؛ للتوقِّي عمَّا يسُوءُ النبيَّ ﷺ، ويقبُحُ بهنَّ مِن الفاحشةِ التي هي أصعَبُ على الزوجِ مِن كلِّ ما تأتي به زوجتُه، وأوعَدهنَّ بتضعيفِ العذابِ(١).

ثم لمَّا اختار نساءُ النبيِّ رسولَ الله ﷺ، أنزل فيهنَّ هذه الآياتِ تكرمةً لهنَّ، وتعظيمًا لحقِّهنَّ، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٢).

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا قدَّم دَرْءَ المفاسدِ الذي هو مِن بابِ التَّخلي، أتبَعه جَلْبَ المصالحِ الذي هو مِن طرازِ التَّحلي، فقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾(٣).

أعقَب الوعيدَ بالوعدِ جَرْيًا على سُنَّةِ القرآن(٤).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا كان لكلِّ حقٍّ حقيقةٌ، ولكلِّ قولٍ صادقٍ بيانٌ، قال مؤذِنًا بفضلِهنَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٣١٨).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٤١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٥).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٣٤٣).

أُعيدَ خطابُهنَّ مِن جانبِ ربِّهنَّ، وأُعيدَ نداؤهنَّ؛ للاهتمامِ بهذا الخبرِ اهتمامًا يخُصُّه(١).

لمَّا ذكَر أنَّ عذابَهنَّ ضِعْفُ عذابِ غيرِهنَّ، وأجرَهنَّ مِثْلَا أجرِ غيرِهنَّ: صِرْنَ كالحرائرِ بالنسبةِ إلىٰ الإماءِ، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾(٢).

ثم أظهَرَ سبحانه فضيلتَهنَّ علىٰ سائرِ النساءِ تصريحًا، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾(٣).

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾

ولمَّا تقدَّم إليهنَّ في القولِ وقدَّمه لعمومِه، أتبَعه الفعلَ، فقال: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾(٤).

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾

ولمَّا ذكَر ذلك إلىٰ أن ختَم بالتَّطهيرِ، أتبَعه التَّذكيرَ بما أنعَمَ سبحانه به ممَّا أثَرُه التَّطهيرُ مِن التَّأهيلِ لمشاهدةِ ما يتكرَّرُ مِن تردُّدِ الملائكة بنزولِ الوحيِ الذي هو

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣١٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٣٤٤).

السَّببُ في كلِّ طُهْرٍ ظاهرٍ وباطنٍ، فقال مخصِّصًا مِن السِّياقِ لأجلِهنَّ رضي الله عنهن، منبِّهًا لهنَّ علىٰ أنَّ بيوتَهنَّ مَهابِطُ الوحيِ، ومعادنُ الأسرارِ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(١).

لمَّا ضَمِن اللهُ لهنَّ العظمةَ، أمَرهنَّ بالتَّحلِّي بأسبابها، والتَّملِّي مِن آثارها، والتَّزوُّدِ مِن علمِ الشَّريعةِ بدراسةِ القرآنِ؛ ليَجمَعَ ذلك اهتداءَهنَّ في أنفسِهنَّ ازديادًا في الكمالِ والعلمِ، وإرشادَهنَّ الأمَّةَ إلىٰ ما فيه صلاحٌ لها مِن علمِ النبي ﷺ(٢).

ولمَّا أمَرهنَّ بالعملِ الذي هو فِعْلٌ وتَرْكٌ، أمَرهن بالعلمِ، وبيَّن لهنَّ طريقَه، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ٣٥﴾

ولمَّا حثَّ سبحانه علىٰ المكارمِ والأخلاقِ الزاكيةِ، وختَم بالتَّذكيرِ بالآياتِ والحِكْمةِ: أتبَعه ما لِمَن تلبَّس مِن أهلِ البيتِ بما يدعو إليه ذلك مِن صفاتِ الكمالِ، ولكنَّه ذكَره علىٰ وجهٍ يعُمُّ غيرَهم مِن ذكرٍ وأنثىٰ؛ مشاكَلةً لعمومِ الدَّعوةِ، وشمولِ الرسالةِ، فقال جوابًا لقولِ النساءِ: يا رسولَ اللهِ، ذكَر اللهُ الرجالَ ولم يذكرِ

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٦٤).

النساءَ بخيرٍ؛ فما فينا خيرٌ نُذكَرُ به؛ إنَّا نخافُ ألا يُقبَلَ منا طاعةٌ؟![١] بادئًا الوصفَ الأول الأعمَّ الأشهر مِن أوصافِ أهلِ هذا الدِّينِ، مُؤكِّدًا لأجلِ كثرةِ المنافقين المكذِّبين بمضمونِ هذا الخبرِ وغيرِهم مِن المصارِحين: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ بعد قولِه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُثيرُ في نفوسِ المسلماتِ أن يَسأَلْنَ: أهُنَّ مأجوراتٌ على ما يَعمَلْنَ مِن الحسناتِ؟ وأهُنَّ مأموراتٌ بمثلِ ما أُمِرتْ به أزواجُ النبيِّ ﷺ، أم تلك خصائصُ لنساءِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام؟ فكان في هذه الآيةِ ما هو جوابٌ لهذا السُّؤالِ؛ على عادةِ القرآن فيما إذا ذكَر مأموراتٍ، يُعقِبُها بالتَّذكيرِ بحالِ أمثالها، أو بحالِ أضدادها، ويجوز أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، ورَد بمناسبةِ ما ذُكِر مِن فضائلِ أزواجِ النبي ﷺ[٣].

لمَّا أمَرهنَّ ونهاهنَّ، وبيَّن ما يكونُ لهنَّ: ذكَر لهنَّ عَشرَ مراتبَ[٤].

لمَّا ذكَر تعالى ثوابَ زوجاتِ الرسول ﷺ، وعقابَهن لو قُدِّر عدمُ الامتثالِ، وأنَّه ليس مِثْلَهنَّ أحدٌ مِن النساءِ: ذكَر بقيَّةَ النساءِ غيرِهن، ولمَّا كان حُكمُهنَّ والرجالِ واحدًا،

---

(١) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (١١٣٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦٨).

جعَلَ الحُكْمَ مشتركًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كان اللهُ سبحانه قد قدَّم قولَه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيةَ، فعُلِم قطعًا أنَّه تسبَّب عنها ما تقديرُه: وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ لأن يكونَ له وليٌّ غيرُ النبي ﷺ، فطوىٰ ذلك للعلمِ به، واستدلَّ علىٰ مضمونِ الآيةِ وما قبلها بقصَّةِ الأحزاب، وأتبَعها نتيجةَ ذلك ممَّا ذكَر تأديبَ الأزواجِ له ﷺ، وتهذيبَهنَّ لأجلِه، وتطهيرَ أهلِ بيته وتكريمَهم حتىٰ ختَم سبحانه بالصفاتِ العَشْرِ التي بدأها بالإسلامِ الذي ليس معه شيءٌ مِن الإباءِ، وختَمها بأنَّ ذِكْرَ اللهِ يكونُ مِلْءَ القلبِ والفمِ، وهو داعٍ إلىٰ مثلِ ذلك؛ لأنَّه سببُ الإسلامِ: عطَف علىٰ مُسبَّبِ آيةِ الوَلايةِ ما يقتضيه كثرةُ الذِّكْرِ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

والمناسبةُ تعقيبُ الثَّناءِ علىٰ أهلِ خصالٍ هي مِن طاعةِ الله بإيجابِ طاعةِ الله والرسول ﷺ، فلمَّا أعقَب ذلك بما في الاتصافِ بما هو مِن أمرِ الله ممَّا يُكسِبُ موعودَه مِن المغفرةِ والأجر، وسوَّىٰ في ذلك بَيْنَ النساءِ والرجال: أعقَبه ببيانِ أنَّ طاعةَ الرسول ﷺ فيما يأمرُ به ويعتزمُ الأمرَ هي طاعةٌ واجبةٌ، وأنَّها مُلحَقةٌ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٦٥).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٥٤).

بطاعةِ الله، وأنَّ صِنفَي النَّاسِ -الذكورَ والنساءَ- في ذلك سواءٌ؛ كما كانا سواءً في الأحكامِ الماضية(١).

لمَّا ذكَر تلك الأوصافَ السابقة مِن الإسلامِ فما بعده، عقَّب ذلك بما صدَر مِن بعضِ المسلمين؛ إذ أشار الرسولُ ﷺ بأمرٍ وقَع منهم الإباءُ له؛ فأنكَر عليهم؛ إذ طاعتُه ﷺ مِن طاعةِ اللهِ، وأمرُه مِن أمرِه(٢).

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان قد أخبَره سبحانه أنَّ زينبَ رضي الله عنها ستكونُ مِن أزواجِه، وأنَّ زيدًا سيطلِّقُها، وأخفىٰ في نفسِه ذلك؛ تكرُّمًا وخشيةً مِن قالةِ الناسِ أنَّه يريدُ نكاحَ زوجةِ ابنِه، وكان في إظهارِ ذلك أعلامٌ مِن أعلامِ النبوَّة، وكان مبنىٰ أمرِ الرسالةِ علىٰ إبلاغِ الناسِ ما أعلَمَ اللهُ به، أحَبُّوه أو كَرِهوه، وألا يُراعىٰ غيرُه، ولا يُلتفتَ إلىٰ سِواه، وإن كان في ذلك خوفُ ذَهابِ النفس؛ فإنَّه كافٍ مَن أراد بعِزَّتِه، ومُتقِنٌ ما أراد بحِكْمتِه، فقال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٨٠-٤٨١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٥٦-٣٥٧).

لمَّا زوَّج رسولُ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم زيدَ بنَ حارثةَ بزينبَ بنتِ جَحْشٍ -كما مرَّ في الآيةِ التي قبل هذه-، أنزَل اللهُ سبحانه قولَه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1].

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾

ولـمَّا أنتج هذا التَّسهيلَ لِما كان استصعَبه ﷺ، والتَّأمينَ ممَّا كان خافَه: عبَّر عن ذلك بقولِه مُؤكِّدًا -ردًّا علىٰ مَن يظُنُّ خلافَ ذلك-: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2].

استئنافٌ لزيادةِ بيانِ مساواة النبيِّ ﷺ للأمَّةِ في إباحةِ تزوُّجِ مطلَّقةِ دَعِيِّه، وبيانِ أنَّ ذلك لا يُخِلُّ بصفةِ النبوَّة؛ لأنَّ تناوُلَ المباحاتِ مِن سُنَّةِ الأنبياء، وأنَّ النبيَّ إذا رام الانتفاعَ بمباحٍ -لمَيْلِ نفسِه إليه- ينبغي له أن يَتناوَلَه؛ لئلا يجاهِدَ نفسَه فيما لم يؤمَرْ بمجاهَدةِ النَّفس فيه؛ لأنَّ الأليَقَ به أن يستبقيَ عزيمتَه ومجاهَدتَه لدفعِ ما أُمِر بتجنُّبِه، وفي هذا الاستئنافِ ابتداءٌ لنقضِ أقوالِ المنافقين: إنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّج امرأةَ ابنِه[3].

لـمَّا نفَىٰ الحرَجَ عن المؤمنين فيما ذُكِر، واندرَج الرسولُ فيهم؛ إذ هو سيِّدُ المؤمنين: نفَىٰ عنه الحرَجَ بخصوصِه؛ وذلك علىٰ سبيلِ التَّكريم والتَّشريف، ونفَىٰ الحرَجَ عنه مرَّتين؛ إحداهما: بالاندراجِ في العمومِ، والأخرىٰ بالخصوص[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٠).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٤٨٤).

ثم بيَّن سبحانه أنَّه لم يكُنْ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم حرَجٌ في هذا النِّكاحِ، فقال: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

ثم وصَف شأنَهم بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[2].

ثم ذكَر مَن هم الذين مِن قبلُ قد خَلَوْا، وهذه سُنَّتُهم وعادتهم، وأنَّهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[3].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا أفاد هذا كلُّه أنَّ الدَّعِيَّ ليس ابنًا، وكانوا قد قالوا لمَّا تزوَّج زينبَ -كما رواه التِّرمِذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها: «تزوَّجَ حليلةَ ابنِه»[4]-: أخبَر به سبحانه على وجهٍ هو مِن أعلامِ النُّبوَّة، وأعظَمِ دلائلِ الرسالة، فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٢٨).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٨٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٠٧).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٣٦٣).

استئنافٌ للتَّصريحِ بإبطالِ أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ، وما يُلقِيه اليهودُ في نفوسِهم مِن الشَّك[١].

لمَّا بيَّن اللهُ ما في تزوُّجِ النبيِّ ﷺ بزينبَ مِن الفوائدِ، بيَّن أنَّه كان خاليًا مِن وجوهِ المفاسدِ؛ وذلك لأنَّ ما كان يُتوهَّمُ مِن المفسدةِ كان منحصِرًا في التَّزوُّجِ بزوجةِ الابن؛ فإنَّه غيرُ جائزٍ، فقال الله تعالىٰ: إنَّ زيدًا لم يكُنِ ابنًا له، لا بل أحدُ الرجالِ لم يكُنِ ابنَ محمَّدٍ[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان ما أثبَتَه لنفسِه سبحانه مِن إحاطةِ العلم مستلزِمًا للإحاطةِ بأوصاف الكمال، وكان قد وعَد مَن توكَّل عليه بأن يَكفِيَه كلَّ مهمٍّ، ودلَّ علىٰ ذلك بقصَّةِ الأحزابِ وغيرها، وأمَر بطاعةِ نبيِّه ﷺ، وتقدَّم بالوصيةِ التامةِ في تعظيمِه إلىٰ أن أنهىٰ الأمرَ في إجلاله، وكانت طاعةُ العبدِ لرسولِ الله ﷺ مِن كلِّ وجهٍ حتىٰ يكونَ مسلوبَ الاختيار معه، فيكونَ بذلك مسلِمًا، لا يَحمِلُ عليه إلا طاعةُ اللهِ، وكانت طاعةُ اللهِ كذلك لا يَحمِلُ عليها إلا دوامُ ذِكْرِه: قال بعد تأكيدِ زواجِه ﷺ لزينبَ رضي الله عنها بأنَّه هو سبحانه زوَّجه إيَّاها؛ لأنَّه قضىٰ أنْ لا بنوَّةَ بَيْنَه وبَيْنَ أحدٍ مِن رجالِ أمَّتِه توجِبُ حُرْمةَ زوجِ الولدِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٣].

إقبالٌ علىٰ مخاطَبةِ المؤمنين بأن يَشغَلوا ألسنَتَهم بذِكْرِ الله وتسبيحِه؛ أي: أن يُمسِكوا عن مماراةِ المنافقين، أو عن سَبِّهم فيما يُرجِفون به في قضيةِ تزوُّجِ زينبَ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٦٨-٣٦٩).

فأمَر المؤمنين أن يعتاضوا عن ذلك بذِكْرِ الله وتسبيحِه خيرًا لهم؛ فذلك أنفَعُ لهم وأبعَدُ عن أن تثُورَ بَيْنَ المسلمين والمنافقين ثائرةُ فتنةٍ في المدينةِ، فأُمِروا بتشغيلِ ألسنتِهم وأوقاتهم بما يعودُ بنفعِهم، وتجنُّبِ ما عسىٰ أن يُوقِعَ في مَضرَّةٍ، وفيه تسجيلٌ علىٰ المنافقين بأنَّ خوضَهم في ذلك بعد هذه الآيةِ علامةٌ علىٰ النفاقِ؛ لأنَّ المؤمنين لا يخالِفون أمرَ ربِّهم[(١)].

وجهُ تعلُّقِ الآيةِ بما قبلها هو أنَّ السورةَ أصلُها ومَبْناها علىٰ تأديبِ النبيِّ ﷺ، وقد ذكَرْنا أنَّ اللهَ تعالىٰ بدأ بذِكْرِ ما ينبغي أن يكونَ عليه النبيُّ ﷺ مع اللهِ؛ وهو التقوىٰ، وذكَر ما ينبغي أن يكونَ عليه النبيُّ ﷺ مع أهلِه وأقاربه، واللهُ تعالىٰ يأمر عبادَه المؤمنين بما يأمر به أنبياءَه المرسلين، فأرشَد عبادَه كما أدَّب نبيَّه، وبدأ بما يَتعلَّقُ بجانبِه مِن التعظيمِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[(٢)].

ثم أمَر تعالىٰ بكثرةِ ذِكْرِه، والعنايةِ بشُكْرِه؛ لِما مَنَّ به مِن هدايتِه، إلىٰ نورِ شريعتِه، حتىٰ يُنسَىٰ عارُ الكفرِ وجاهليَّتُه، بقولِه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[(٣)].

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

ولـمَّا كان ثبوتُ البنوَّةِ بَيْنَه وبين أحدٍ مِن الرجالِ خارمًا لإحاطةِ العلمِ، وجَب تنزيهُه سبحانه عن ذلك، فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧١).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٨٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٣٦٩).

ثم خصَّ مِن الذِّكْرِ التسبيحَ بقوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾

والبُكْرةُ والعَشِيُّ مشهودانِ بالملائكة، ودالَّانِ على الساعةِ؛ الثاني: قربها بزوالِ الدُّنيا كلِّها، والأولُ: على البعثِ بعد الموتِ، ويجوز أن يكونَ ذلك إشارةً إلى صلاتَي الصُّبْحِ والعصرِ؛ لأنَّ المواظَبَةَ عليهما - لِما أُشِيرَ إليه مِن صعوبتِهما بما يعتري في وقتَيْهما مِن الشغلِ بالراحةِ وغيرها - دالَّةٌ على غايةِ المحبَّةِ للمثولِ بالحضَراتِ الربانيَّة، حاملةٌ على المواظبةِ على غيرِهما مِن الصَّلواتِ وجميعِ الطاعاتِ بطريقِ الأَوْلى، ويؤكِّدَ هذا الثانيَ تعبيرُه بلفظِ الصَّلاة في تعليلِ ذلك بدوامِ ذِكْرِه لنا سبحانه بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[1].

تعليلٌ للأمرِ بذِكْرِ الله وتسبيحِه بأنَّ ذلك مَجلَبةٌ لانتفاعِ المؤمنين بجزاءِ الله على ذلك بأفضَلَ منه مِن جنسِه؛ وهو صلاتُه، وصلاةُ ملائكتِه[2].

لمَّا أمَرهم بالذِّكْرِ والتسبيح، ذكَر إحسانَه تعالى بصلاتِه عليهم هو وملائكتُه[3].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التَّعليلِ لِما قبله مِن الأمرَينِ؛ فإنَّ صلاتَه تعالى عليهم مع عدمِ استحقاقِهم لها وغِناهُ عن العالَمين ممَّا يوجِبُ عليهم المداوَمةَ على ما يستوجِبُه تعالى عليهم مِن ذِكْرِه تعالى وتسبيحِه[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٩).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٨٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٠٧).

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾

ولمَّا كان أظهَرَ الأوقاتَ في ثمرةِ هذا الوصفِ ما بعد الموت، قال تعالىٰ مُبيِّنًا لرحمتِهم: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾(١).

أعقَب الجزاءَ العاجل الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بذِكرِ جزاءٍ آجلٍ؛ وهو ظهورُ أثرِ الأعمال التي عَمِلوها في الدُّنيا، وأثرِ الجزاء الذي عُجِّل لهم عليها مِن اللهِ في كرامتِهم يومَ يلقَوْنَ ربَّهم؛ فالجملةُ تكملةٌ للتي قبلها؛ لإفادة أنَّ صلاةَ اللهِ وملائكتِه واقعةٌ في الحياةِ الدُّنيا، وفي الدارِ الآخرة(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ عنايتَه في الأُولىٰ، بيَّن عنايتَه في الآخرةِ(٣).

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ بيانٌ للأحكامِ الآجلة لرحمةِ الله تعالىٰ بهم بعد بيانِ آثارِها العاجلةِ، التي هي الاعتناءُ بأمرِهم، وهدايتُهم إلىٰ الطاعة(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾

ولمَّا وعَظ المؤمنين فيه ﷺ، وهذَّبهم له بما أقبَلَ بأسماعِهم وقلوبِهم إليه، وختَم بما يوجِبُ لهم الفوزَ بما عنده سبحانه، وكان معظَمُ ذلك له ﷺ؛ فإنَّه رأسُ المؤمنين: أقبَلَ بالخطابِ عليه، ووجَّهه إليه، فقال مُنوِّهًا عن ذِكْرِه، ومُشِيدًا مِن قَدْرِه بما ينتظمُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، وما جرَّها مِن العتابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٧١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٥٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧٢).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٠٧).
(٥) نظم الدرر (١٥/ ٣٧١).

هذا النداءُ الثالث للنبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الله لمَّا أبلَغه بالنداءِ الأول ما هو متعلِّقٌ بذاتِه، وبالنداءِ الثاني ما هو متعلقٌ بأزواجِه، وما تخلَّل ذلك مِن التَّكليفِ والتَّذكير: ناداه بأوصافٍ أودَعها سبحانه فيه؛ للتَّنويهِ بشأنِه، وزيادةِ رِفْعةِ مقدارِه، وبيَّن له أركانَ رسالتِه؛ فهذا الغرضُ هو وصفُ تعلُّقاتِ رسالتِه بأحوالِ أُمَّتِه، وأحوالِ الأُمَم السالفة(١).

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ ﴾

ثم ذكَر ما يَشمَلُ البِشارةَ والنِّذارةَ، فقال: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾.

ثم ذكَر صفةً أخرىٰ مِن صفاتِ الرسول ﷺ التي أُرسِلَ بها، فقال: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ ﴾

ولمَّا تقدَّمتْ هذه الأوصافُ الحسنىٰ، وكان تطبيقُ ثمراتِها عليها في الذِّرْوةِ مِن العُلُوِّ، وكان الشاهدُ هو البيِّنةَ، فكان كأنَّه قيل: فأقِمِ الأدلةَ النَّيِّرة، وادعُ وأنذِرْ كلَّ مَن خالَف أمرَك، وكان المَقامُ لخطابِ المقبِلين: طوىٰ هذا المقدَّرَ؛ لأنَّه للمعرِضين، ودلَّ عليه بقولِه عاطفًا عليه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ عَطْفَ الإنشاءِ علىٰ الخبَرِ؛ فالجملةُ المعطوف عليها إخبارٌ عن النبيِّ ﷺ بأنَّه أرسَله متلبِّسًا بتلك الصفاتِ الخَمْسِ، وهذا أمرٌ له بالعملِ بصفةِ المبشِّرِ؛ فلاختلافِ مضمون الجملتَينِ عُطِفتْ هذه علىٰ الأُولىٰ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٥٢).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٥٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه أرسَل نبيَّه شاهدًا إلىٰ آخرِه، تضمَّن ذلك الأمرَ بتلك الأحوالِ، فكأنَّه قال: فاشهَدْ، وبشِّرْ، وأنذِرْ، وادعُ، وَانْهَ، ثم قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾؛ فهذا متصِلٌ بما قبله مِن جهةِ المعنىٰ، وإن كان يَظهَرُ أنَّه منقطِعٌ مِن الذي قَبْلَه[1].

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾

ولمَّا أمَره سبحانه بما يسُرُّ، نهاه عمَّا يضُرُّ، فقال ذاكرًا ثمرةَ النِّذارةِ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[2].

جاءَ في مقابلةِ قولِه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بقولِه: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾؛ تحذيرًا له مِن موافقتِهم فيما يَسألون منه، وتأييدًا لفِعْلِه معهم حين استأذنه المنافقون في الرجوعِ عن الأحزابِ فلم يأذَنْ لهم، فنُهِيَ عن الإصغاءِ إلىٰ ما يرغبونه، فيترُكُ ما أُحِلَّ له مِن التزوُّج، أو فيُعطِي الكافرين مِن الأحزابِ ثمَرَ النَّخلِ صُلْحًا، أو نحو ذلك، والنهيُ مستعمَلٌ في معنىٰ الدوامِ علىٰ الانتهاء[3].

ثم نهاه سبحانه عن طاعةِ أعداءِ الدِّينِ، فقال: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[4].

ولمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ مِن الناسِ مستعِدَّة للقيامِ بصدِّ الداعين إلىٰ اللهِ، مِن الرُّسلِ وأتباعِهم؛ وهم المنافقون الذين أظهَروا الموافقةَ في الإيمان، وهم كفَرةٌ فجَرةٌ في

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٨٨).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٥٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٣١).

الباطنِ، والكفارُ ظاهرًا وباطنًا: نهىٰ اللهُ رسولَه عن طاعتِهم، وحذَّره ذلك، فقال: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا أمَر سبحانه بإبلاغِ أوامرِه مِن غيرِ التفاتٍ إلىٰ أحدٍ غيرِه، وكان مِن المعلومِ أنَّه لا بد في ذلك مِن محاوَلاتٍ ومنازَعاتٍ لا يقومُ بها إلا مَن أعرَض عن الخلائقِ؛ لِما هو مُشاهَدٌ له مِن عظمةِ الخالقِ: أمَر سبحانه بالتوكُّلِ عليه، وأقام الدَّليلَ الشُّهوديَّ بقصَّةِ الأحزابِ وقُرَيظةَ علىٰ كفايةٍ لِمَن أخلَص له، فلمَّا تمَّ الدَّليلُ، رجَع إلىٰ بيانِ ما افتتَح به السُّورةَ مِن الأحكامِ بعد إعادةِ الأمرِ بالتوكلِ؛ فذكَر أقرَبَ الطلاقِ إلىٰ معنىٰ المظاهَرةِ المذكورة أوَّلَ السورةِ بعد الأمرِ بالتوكلِ التي محَطُّ قصدِها عدمُ قربانِ المُظاهِرِ عنها بعد أن كان أبطَلَ المظاهَرةَ، فقال ناهيًا لِمَن هو في أدنىٰ أسنانِ الإيمانِ بعد بشارةِ المؤمنين، قاطعًا لهم عمَّا كانوا يشتدُّون به في التَّحجُّرِ علىٰ المرأةِ المطلَّقة لقَصْدِ مضاجَرتِها، أو تمامِ التَّمكُّنِ مِن التَّحكُّمِ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[2].

وجهُ تعلُّقِ الآيةِ بما قبلها هو أنَّ اللهَ تعالىٰ في هذه السُّورةِ ذكَر مكارمَ الأخلاقِ، وأدَّب نبيَّه ﷺ علىٰ ما ذكَرْناه، لكنَّ اللهَ تعالىٰ أمَر عبادَه المؤمنين بما أمَر به نبيَّه المرسَلَ، فكلَّما ذكَر للنبيِّ ﷺ مكرُمةً، وعلَّمه أدبًا: ذكَر للمؤمنين ما يناسِبُه[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٦٨).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٧٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧٥).

لمَّا ذكَر سبحانه قصَّة زيدٍ وطلاقِه لزينبَ، وكان قد دخَل بها، وخطَبها النبيُّ - صلىٰ الله عليه وآله وسلم - بعد انقضاءِ عِدَّتِها؛ كما تقدَّم: خاطَب المؤمنين مُبيِّنًا لهم حُكْمَ الزوجةِ إذا طلَّقها زوجُها قبل الدُّخولِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ أَوْلىٰ بالمؤمنين مِن أنفسِهم، وكان المرادُ الأعظم في هذه الآياتِ بيانَ ما شرَّفه اللهُ به مِن ذلك: أتبَع ما بيَّن أنَّه لا عِدَّةَ فيه مِن نكاحِ المؤمنين، وما حرَّمه عليهم مِن التَّضييقِ علىٰ الزوجاتِ المطلَّقاتِ: بعضَ ما شرَّفه اللهُ تعالىٰ به وخصَّه مِن أمرِ التَّوسعة في النكاح، وختَمه بأنَّ أزواجَه لا تَحِلُّ بعده؛ فهُنَّ كمَنْ عِدَّتُهنَّ ثابتةٌ لا تنقضي أبدًا، أو كمَنْ زوجُها غائبٌ عنها وهو حيٌّ؛ لأنَّه ﷺ حيٌّ في قبره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾[2].

لعلَّ المناسبةَ لورودِها عَقِبَ الآياتِ التي قبلها: أنَّه لمَّا خاض المنافقون في تزوُّجِ النبيِّ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، وقالوا: تزوَّج مَن كانت حليلةَ مُتبنَّاه: أراد اللهُ

(١) فتح القدير (٤/ ٣٣٣).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٧٧-٣٧٨).

أن يَجمَعَ في هذه الآيةِ مَن يَحِلُّ للنبيِّ تزوُّجُهنَّ؛ حتىٰ لا يقعَ الناسُ في تردُّدٍ، ولا يَفتِنَهم المرجِفون[(١)].

لمَّا بيَّن تعالىٰ بعضَ أحكامِ أنكحةِ المؤمنين، أتبَعه بذِكرِ طَرَفٍ مِن نساءِ النبي ﷺ[(٢)].

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا ذكَر هاتين الصِّفتَينِ، أتبَعهما ما خفَّفه عنه مِن أمرِهنَّ؛ إكرامًا له ﷺ ممَّا كان مِن شأنِه أن يَتحمَّلَ فيه، ويَتحرَّجَ عن فعلِه، فقال في موضعِ الاستئنافِ، أو الحالِ مِن معنىٰ التَّخفيفِ في الجُمَلِ السابقة: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾[(٣)].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قولِه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾؛ فإنَّه يُثيرُ في النَّفسِ تطلُّبًا لبيانِ مدىٰ هذا التَّحليلِ[(٤)].

لمَّا بيَّن أنَّه أُحِلَّ له ما ذكَرْنا مِن الأزواجِ، بيَّن أنَّه أُحِلَّ له وجوهُ المعاشَرة بهنَّ؛ حتىٰ يجتمعَ كيف يشاءُ، ولا يجبَ عليه القَسْمُ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٦٣).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٩١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٧٢).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧٦).

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢ ﴾

ولمَّا أمَره بما يشُقُّ مِن تغيُّرِ العوائد في أمرِ العِدَّة، ثم بما قد يشُقُّ عليه ﷺ مِن تخصيصِه بما ذُكِر؛ خشيةً مِن طعنِ بعضِ مَن لم يَرسَخْ إيمانُه، وختَم بما يسُرُّ أزواجَه، وصَل به ما يَزيدُ سرورَهنَّ مِن تحريمِ غيرِهنَّ عليه؛ شكرًا لهنَّ علىٰ إعراضِهنَّ عن الدُّنيا، واختيارِهنَّ اللهَ ورسولَه، فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾(١).

موقعُ هذه الآيةِ في المصحَفِ عَقِبَ التي قبْلَها يدلُّ علىٰ أنَّها كذلك نزلَتْ، وأنَّ الكلامَ متصِلٌ بعضُه ببعضٍ، ومنتظِمٌ هذا النَّظْمَ البديع(٢).

لمَّا لم يوجِبِ اللهُ علىٰ نبيِّه ﷺ القَسْمَ، وأمَره بتخييرِهنَّ؛ فاختَرْنَ اللهَ ورسولَه: ذكَر لهنَّ ما جازاهنَّ به؛ مِن تحريمِ غيرِهنَّ علىٰ النبيِّ ﷺ، ومنعِه مِن طلاقِهنَّ(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ ﴾

ولمَّا قصَره ﷺ عليهنَّ، وكان قد تقدَّم إليهنَّ بلزومِ البيوت، وتَرْكِ ما كان عليه الجاهليَّةُ مِن التَّبرُّجِ: أرخىٰ عليهنَّ الحجابَ في البيوتِ، ومنَع غيرَه ﷺ -ممَّا كانت

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٧٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧٧).

العرَبُ عليه- مِن الدُّخولِ علىٰ النساءِ لِما عندهم مِن الأمانةِ في ذلك، فقال مخاطِبًا لأدنىٰ أسنانِ أهلِ هذا الدِّينِ؛ لِما ذُكِر في سببِ نزولها، ولأنَّ المؤمنين كانوا منتهِين عن ذلك بغيرِ ناهٍ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ ﴾(١).

لمَّا بيَّن اللهُ في الآياتِ السابقة آدابَ النبيِّ ﷺ مع أزواجِه، قفَّاه في هذه الآيةِ بآدابِ الأمَّةِ معهنَّ(٢).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ في النداءِ الثالث: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا ﴾؛ بيانًا لحالِه مع أمَّتِه العامة؛ قال للمؤمنين في هذا النداءِ: لا تدخُلوا؛ إرشادًا لهم، وبيانًا لحالِهم مع النبيِّ ﷺ مِن الاحترام(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ شروعٌ في بيانِ ما يجب مراعاتُه علىٰ الناسِ مِن حقوقِ نساء النبيِّ ﷺ، إثرَ بيانِ ما يجبُ مراعاتُه عليه ﷺ مِن الحقوقِ المتعلِّقة بهنَّ(٤).

﴿ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤ ﴾

ولمَّا كان بعضُ الدالِّ علىٰ الكلامِ - كما مرَّ - أصرحَ مِن بعضٍ، فكان الإنسانُ قد يُضمِرُ أن يَفعَلَ ما يؤذِي إذا تمكَّن، وقد يؤذي بفعلٍ يَفعَلُه، ويدَّعي أنَّه قصَد شيئًا آخرَ ممَّا لا يؤذي؛ قال تعالىٰ حاملًا لهم علىٰ التَّفطُّنِ والتَّنبُّه في الأقوالِ وغيرِها، والمقاصدِ الحسنة ظاهرًا وباطنًا، علىٰ طريقِ الاستئناف في جوابِ مَن ربما انتهىٰ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٣٩٠-٣٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٨١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٧٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١١٢).

بظاهرِه، وهو عازمٌ علىٰ أن يَفعَلَ الأذىٰ عند التَّمكُّنِ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

كلامٌ جامعٌ -تحريضًا وتحذيرًا- ومنبِئٌ عن وعدٍ ووعيد؛ فإنَّ ما قَبْلَه قد حوىٰ أمرًا ونهيًا، وإذ كان الامتثالُ متفاوِتًا في الظاهرِ والباطن، وبخاصَّةٍ في النوايا والمضمَرات: كان المقامُ مناسبًا لتنبيهِهم وتذكيرهم بأنَّ اللهَ مطَّلِعٌ علىٰ كلِّ حالٍ مِن أحوالهم في ذلك، وعلىٰ كل شيءٍ[2].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا كان المقصودُ تغليظَ الحجابِ علىٰ ذواتِ الخدور، وكان قد ذكَر في هذه السُّورةِ خصائصَ وتغييرَ أحكامٍ للنبيِّ ﷺ ولأزواجِه رضي الله عنهن، ولغيرِهم: كان ربما ظُنَّ أنَّ الحجابَ تغيَّرَ أو شيءٌ منه بالنسبةِ إلىٰ الدُّخولِ أو غيرِه، فاستثنىٰ مَن عَمَّه النَّهيُ السابق عن الدُّخولِ علىٰ وجهٍ يعُمُّ جميعَ النساءِ، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾[3].

تخصيصٌ مِن عمومِ الأمرِ بالحجابِ الذي اقتضاه قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤٠٢-٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٩٥).

ثم يبيِّنُ تعالىٰ مَن لا يجبُ الاحتجابُ منهم مِن الأقاربِ بقولِه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾(١).

لمَّا ذكَر أنهنَّ لا يُسألْنَ متاعًا إلا مِن وراءِ حجابٍ، وكان اللفظُ عامًّا لكلِّ أحدٍ: احتِيجَ أن يُستثنىٰ منه هؤلاء المذكورون مِن المحارمِ، وأنَّه ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾

ولمَّا كانت هذه الآياتُ وما قبلها وما بعدها في إظهارِ شرَفِ النبيِّ ﷺ وبيانِ مناقبِه، علَّل الأوامرَ فيها والنَّواهيَ وغيرَها بقولِه -مُؤكِّدًا لاقتضاءِ الحال ذلك؛ أمَّا ممَّن آذاه بالجلوس في غيرِ حِينِه فواضحٌ، وأمَّا غيرُه فكان مِن حقِّهم ألا يفارِقوا المجلسَ حتىٰ يعلِّموا مَن لا يَعرِفُ الأدبَ؛ فكان تهاوُنُهم في ذلك فِعْلَ مَن لا يريدُ إظهارَ شرَفِه ﷺ؛ فهو تأديبٌ وترهيبٌ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٣).

أُعقِبتْ أحكامُ معاملةِ أزواجِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بالثَّناء عليه، وتشريفِ مقامِه؛ إيماءً إلىٰ أنَّ تلك الأحكامَ جاريةٌ علىٰ مناسبةِ عظمةِ مقامِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام عند اللهِ تعالىٰ، وإلىٰ أنَّ لأزواجِه مِن ذلك التَّشريفِ حظًّا عظيمًا؛ ولذلك كانت صيغةُ الصلاةِ عليه التي

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ١٠٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٧١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤٠٥-٤٠٦).

علَّمها للمسلِمين مشتمِلةً على ذِكْرِ أزواجِه، وليَجعَلَ ذلك تمهيدًا لأمرِ المؤمنين بتكريرِ ذِكْرِ النبيِّ ﷺ بالثَّناءِ، والدُّعاء، والتَّعظيم، وذكَر صلاةَ الملائكةِ مع صلاةِ الله ليكونَ مثالًا مِن صلاةِ أشرَفِ المخلوقاتِ على الرسول؛ لتقريبِ درجةِ صلاةِ المؤمنين التي يؤمَرون بها عَقِبَ ذلك[١].

لمَّا أمَر اللهُ المؤمنين بالاستئذانِ وعدمِ النَّظر إلى وجوهِ نسائه احترامًا، كمَّل بيانَ حُرْمتِه؛ وذلك لأنَّ حالتَه منحصِرةٌ في اثنتَينِ: حالةِ خَلْوتِه، وذكَر ما يدلُّ على احترامِه في تلك الحالةِ بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾، وحالةٍ يكون في ملأٍ، والملأُ إمَّا الملأُ الأعلى، وإمَّا الملأ الأدنى؛ أمَّا في الملأِ الأعلى فهو محترَمٌ؛ فإنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون عليه، وأمَّا في الملأِ الأدنى فذلك واجبُ الاحترامِ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)﴾

ولمَّا نهى سبحانه عن أذاه ﷺ، وحضَّ على إدخالِ السُّرور عليه: توعَّد على أذاه، فقال على طريقِ الاستئناف أو التَّعليل، إشارةً إلى أنَّ التَّهاون بشيءٍ مِن الصلاةِ والسلام مِن الأذى، وأكَّد ذلك إظهارًا لأنَّه ممَّا يَحِقُّ له أن يُؤكَّدَ، وأن يكونَ لكلِّ مَن يتكلَّمُ به غايةُ الرَّغبةِ في تقريرِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤٠٩).

لمَّا أرشَد اللهُ المؤمنين إلىٰ تَناهي مراتبِ حُرْمةِ النبيِّ ﷺ وتكريمِه، وحذَّرهم ممَّا قد يَخفَىٰ علىٰ بعضِهم مِن خَفِيِّ الأذىٰ في جانبِه، وعلَّمهم كيف يعامِلونه معاملةَ التَّوقيرِ والتَّكريم، وعَلِم أنَّهم قد امتثَلوا، أو تعلَّموا: أردَف ذلك بوعيدِ قومٍ اتَّسَمُوا بسماتِ المؤمنين، وكان مِن دأبِهم السَّعيُ فيما يؤذي الرسولَ عليه الصلاة والسلام، فأعلَمَ اللهُ المؤمنين بأنَّ أولئك ملعونون في الدُّنيا والآخرة؛ ليَعلَمَ المؤمنون أنَّ أولئك ليسوا مِن الإيمانِ في شيءٍ، وأنَّهم منافقون؛ لأنَّ مِثْلَ هذا الوعيدِ لا يُعهَدُ إلا للكافرين(١).

فصَّل الأشياءَ بتبيينِ بعضِ أضدادها؛ فبيَّن حالَ مؤذي النبيِّ ﷺ ليبيِّنَ فضيلةَ المسلِّمِ عليه(٢).

ولمَّا أمَر تعالىٰ بالصَّلاةِ علىٰ نبيِّه ﷺ، التي هي الثناءُ عليه، وتمجيدُه، وتعظيمه: بيَّن وعيدَ مَن لا يَرعاها -بأن يجرؤَ علىٰ ضدِّها- بقولِه سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ أذاه ﷺ أذىٰ مَن تابَعه، وكان الأتباعُ لكونِهم غيرَ معصومين يُتصوَّر أن يُؤذَوْا بالحقِّ: قال مقيِّدًا للكلامِ بما يُفهَمُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٠٣-١٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٢).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ١١٠).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤١٠).

أُلحِقتْ حُرْمةُ المؤمنين بحرمةِ الرسول ﷺ تنويهًا بشأنهم، وذُكِروا علىٰ حِدَةٍ؛ للإشارةِ إلىٰ نزولِ رُتْبتِهم عن رتبةِ الرسول ﵊، وهذا مِن الاستطرادِ معترِضٌ بَيْنَ أحكامِ حُرْمةِ النبيِّ ﷺ وآدابِ أزواجِه وبناتِه والمؤمنات، وعطفُ (المؤمنات) علىٰ (المؤمنين)؛ للتَّصريحِ بمساواة الحُكْمِ، وإن كان ذلك معلومًا مِن الشريعةِ؛ لوَزْعِ المؤذِين عن أذىٰ المؤمناتِ؛ لأنهنَّ جانبٌ ضعيفٌ، بخلافِ الرجال؛ فقد يَزَعُهم عنهم اتقاءُ غضَبِهم وثأرِهم لأنفسهم[(١)].

لمَّا كان اللهُ تعالىٰ مُصلِّيًا علىٰ نبيِّه ﷺ، لم يَنفكَّ إيذاءُ اللهِ عن إيذائه؛ فإنَّ مَن آذىٰ اللهَ فقد آذىٰ الرسولَ؛ فبيَّن اللهُ للمؤمنين أنَّكم إن أتيتم بما أمَرتُكم، وصلَّيتم علىٰ النبيِّ كما صلَّيتُ عليه: لا يَنفكُّ إيذاؤكم عن إيذاءِ الرسول، فيأثمُ مَن يؤذيكم؛ لكونِ إيذائِكم إيذاءَ الرسولِ ﷺ[(٢)].

ثم لمَّا فرَغ مِن الذَّمِّ لِمَن آذىٰ اللهَ ورسوله، ذكَر الأذيَّةَ لصالِحي عبادِه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[(٣)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا نهىٰ سبحانه عن أذىٰ المؤمنات، وكانت الحرائرُ بعيداتٍ عن طمَعِ المفسِدين؛ لِما لهنَّ في أنفسِهنَّ مِن الصيانةِ، وللرجالِ بهنَّ مِن العنايةِ، وكان جماعةٌ مِن أهلِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٠٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٤٨).

الرِّيبةِ يتَّبِعون الإماءَ إذا خرَجْنَ يَتعرَّضون لهنَّ للفسادِ، وكان الحرائرُ يخرُجْنَ لحاجتِهنَّ ليلًا، فكان ربما تَبِعَ المرأةَ منهنَّ أحدٌ مِن أهلِ الرَّيْبِ يظُنُّها أمَةً، أو يَعرِفُ أنَّها حُرَّةٌ ويَعتلُّ بأنَّه ظنَّها أمَةً، فيَتعرَّض لها، وربما رجَع فقال لأصحابِه: فعَلتُ بها، وهو كاذبٌ، وفي القومِ مَن يَعرِفُ أنَّها فلانةٌ، فيحصُلُ بذلك مِن الأذىٰ ما يقصُرُ عنه الوصفُ، ولم يكُنْ إذ ذاك -كما نُقِلَ عن مُقاتِلٍ- فرقٌ بَيْنَ الحُرَّةِ والأمَةِ، كُنَّ يخرُجْنَ في درعٍ وخمارٍ، وكان اتسامُ الحرائر بأمارةٍ يُعرَفْنَ بها ليُهَبْنَ ويَحتشِمْنَ يخفِّفُ هذا الشرَّ؛ قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

أُتبِعَ النَّهيُ عن أذىٰ المؤمناتِ بأن أُمِرْنَ باتقاءِ أسبابِ الأذىٰ؛ لأنَّ مِن شأنِ المطالبِ السَّعيَ في تذليلِ وسائلِها، وهذا يَرجِعُ إلىٰ قاعدةِ التَّعاون علىٰ إقامةِ المصالح، وإماتةِ المفاسد، وابتُدئ بأزواجِ النبيِّ ﷺ وبناتِه؛ لأنَّهنَّ أكمَلُ النساءِ؛ فذِكْرُهنَّ مِن ذِكْرِ بعضِ أفرادِ العام؛ للاهتمامِ به(٢).

لمَّا ذكَر أنَّ مَن يؤذي المؤمنين يحتمِلُ بهتانًا، وكان فيه منعُ المكلَّفِ عن إيذاءِ المؤمنِ: أمَر المؤمنَ باجتنابِ المواضع التي فيها التُّهَمُ الموجِبةُ للتأذي؛ لئلا يحصُلَ الإيذاءُ الممنوع منه(٣).

بعدما بيَّن سُوءَ حالِ المؤذين زجرًا لهم عن الإيذاءِ، أمَر النبيَّ ﷺ بأن يأمرَ بعضَ المتأذِّين منهم بما يَدفَعُ إيذاءَهم في الجملةِ؛ مِن السَّتر، والتَّميُّز عن مواقعِ الإيذاء(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤١٠-٤١١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٠٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١١٥).

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) ﴾

ولمَّا كان المؤذون بما مضىٰ وغيره أهلَ النفاقِ ومَن داناهم، حذَّرهم بقولِه مُؤكِّدًا دفعًا لظنِّهم الحِلْمَ عنهم: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١)].

انتقالٌ مِن زَجْرِ قومٍ عُرِفوا بأذىٰ الرسولِ ﷺ والمؤمنين والمؤمنات، ومِن توعُّدِهم بغضَبِ اللهِ عليهم في الدُّنيا والآخرة إلىٰ تهديدِهم بعقابٍ في الدُّنيا يَشرَعُه اللهُ لهم إنْ هُمْ لم يُقلِعوا عن ذلك؛ للعلمِ بأنْ لا يَنفَعُ في أولئك وعيدُ الآخرة؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالبعث، وأولئك هم المنافقون[(٢)].

لمَّا ذكَر حالَ المشركِ الذي يؤذي اللهَ ورسوله، والمجاهِرَ الذي يؤذي المؤمنين: ذكَر حالَ المُسِرِّ الذي يُظهِرُ الحقَّ، ويُضمِرُ الباطلَ؛ وهو المنافقُ[(٣)].

ثم توعَّد سبحانه أهلَ النفاقِ والإرجاف، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٤)].

﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) ﴾

ولمَّا كان معنىٰ الكلام أنَّهم يُنفَوْنَ؛ لأنَّه ﷺ يُؤمَرُ بنفيِهم وإبعادِهم وقتلِهم: بيَّن حالَهم في نفيِهم، أو نَصْبه علىٰ الشَّتمِ، فقال: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٥٠).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٤١٤).

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا سَنَّ لهم هذا العذابَ الهائل في الدُّنيا، بيَّن أنَّ تلك عادتُه في أوليائِه وأعدائه، فقال مُؤَكِّدًا بالإقامةِ في موضعِ المصدر؛ لِما لهم مِن استبعادِ ذلك؛ لكونِهم لم يَعهَدوا مِثْلَه، مع ما لهم مِن الاشتباكِ بالأهل والعشائر، فقال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[(١)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ ذلك ليس ببِدْعٍ، بقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[(٢)].

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ ما أعَدَّ لأعداءِ دِينِه في الدُّنيا، وبيَّن أنَّ طريقتَه جادَّةٌ لا تنخرِمُ؛ لِما لها مِن قوانينِ الحِكْمةِ، وأفانينِ الإتقانِ والعظمة، وكان مِن أعظَمِ الطُّرقِ الحُكْميَّةِ والمغيَّباتِ العلميَّةِ الساعةُ، وكان قد قدَّم ما يحرِّكُ إلىٰ السُّؤالِ عنها في قوله: ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾؛ قال تعالىٰ مهدِّدًا أيضًا علىٰ ذلك، مبيِّنًا ما لأعداءِ الدِّين المستهزئين في الآخرة: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[(٣)].

لمَّا كان تهديدُ المنافقين بعذابِ الدُّنيا يذكِّرُ بالخوضِ في عذابِ الآخرة: خوضِ المكذِّبين الساخرين، وخوضِ المؤمنين الخائفين، وأهلِ الكتاب؛ أتبَع ذلك بهذا،

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤١٤).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ١١٤).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤١٥).

وتكرَّر في القرآنِ ذِكْرُ سؤالِ الناسِ عن الساعة، والسائلون أصنافٌ؛ منهم: المكذِّبون بها، وهم أكثرُ السائلين، وسؤالُهم تهكُّمٌ، واستدلالٌ بإبطائِها على عدَمِ وجودِها في أنظارِهم السقيمة، وصِنْفٌ مؤمنون، يَسألون عنها محبَّةً لمعرفةِ المغيَّبات، وهؤلاء نُهُوا عن الاشتغالِ بذلك، وصِنْفٌ يَسأل اختبارًا للنبيِّ ﷺ، لعلَّه يجيبُ بما يخالِفُ ما في عِلْمِهم، فيَجعَلونه حُجَّةً بَيْنَهم على انتفاءِ نبوَّتِه، ويَلعَنونه في دَهْمائِهم؛ ليَقتلعوا مِن نفوسِهم ما عسى أن يخالِطَها مِن النظرِ في صِدْقِ الدعوةِ المحمَّدية؛ وهؤلاء هم اليهودُ[1].

لمَّا بيَّن حالَهم في الدُّنيا أنَّهم يُلعَنون ويُهانون ويُقتَلون، أراد أن يبيِّنَ حالَهم في الآخرةِ؛ فذكَّرهم بالقيامةِ، وذكَر ما يكونُ لهم فيها، فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾

ثم استأنَف الإخبارَ بحالِ السائلين عنها بقولِه مُؤكِّدًا في مقابَلةِ إنكارِ الكفَّارِ أن يكونَ في حالِهم شيءٌ مِن نقصٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[3].

هذا حظُّ الكافرين مِن وعيدِ الساعة، وهذه لعنةُ الآخرةِ، قُفِّيَتْ بها لعنةُ الدُّنيا في قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾؛ ولذلك عُطِف عليها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، فكانت لعنةُ الدُّنيا مقترنةً بالأخذِ والتقتيلِ، ولعنةُ الآخرةِ مقترنة بالسَّعير، والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ جملةَ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ تُثِيرُ في نفوسِ السامعين التساؤلَ عن الاقتصارِ على لَعْنِهم وتقتيلِهم

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٥).
(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤١٦).

في الدُّنيا، وهل ذلك منتهَىٰ ما عُوقِبوا به، أو لهم مِن ورائه عذابٌ؟ فكان قولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ جوابًا عن ذلك[1].

لمَّا ذكَر حالَهم في الدنيا أنَّهم ملعونون مهانون مقتولون، بيَّن حالَهم في الآخرة[2].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان العذابُ ربما استهانه بعضُ الناس إذا كان ينقطِعُ ولو كان شديدًا، قال مُبيِّنًا لحالِهم: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[3].

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر حالَيْهم هذينِ، أتبَعه حالًا لهم قوليًّا علىٰ وجهٍ بيَّن حالًا فعليًّا، فقال: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[4].

لمَّا بيَّن أنَّه لا شفيعَ لهم يَدفَعُ عنهم العذابَ، بيَّن أنَّ بعضَ أعضائِهم أيضًا لا يَدفَعُ العذابَ عن البعضِ[5].

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ يَقُولُونَ ﴾؛ فهي حالٌ، وجِيءَ بها في صيغةِ الماضي؛ لأنَّ هذا القولَ كان متقدِّمًا علىٰ قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾، فذلك التَّمنِّي نشأ لهم وقتَ أن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٠٦).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤١٧).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤١٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٨٥).

مسَّهم العذابُ، وهذا التَّنصُّلُ والدُّعاء اعتذَروا به حينَ مشاهَدةِ العذابِ، وحَشْرِهم مع رؤسائهم إلىٰ جهنَّمَ(١).

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ يَقُولُونَ ﴾، والعدولُ إلىٰ صيغةِ الماضي؛ للإشعارِ بأنَّ قولَهم هذا ليس مستمرًّا كقولِهم السابق؛ بل هو ضربُ اعتذارٍ أرادوا به ضربًا مِن التَّشفِّي بمضاعَفةِ عذابِ الذين ألقَوْهم في تلك الوَرْطةِ، وإن عَلِموا عدمَ قَبولِه في حقِّ خلاصِهم منها(٢).

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما تريدون لهم؟ قالوا مبالِغين في الرِّقَّةِ والاستعطاف بإعادةِ الرَّبِّ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾(٣).

لمَّا لم يُجْدِ تَمنِّيهم الإيمانَ بطاعةِ اللهِ ورسوله، ولا قام لهم عُذْرٌ في تَشكِّيهم ممَّن أضَلَّهم: دعَوْا علىٰ ساداتِهم(٤).

ولمَّا عَلِموا أنَّهم هم وكُبَراءَهم مستحِقُّون للعقابِ، أرادوا أن يَشتفُوا ممَّن أضَلُّوهم، فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾(٥).

ثم دعَوْا عليهم في ذلك الموقفِ، فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١١٦-١١٧).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤١٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٥٠٨).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٧٣).

(٦) فتح القدير (٤/ ٣٥٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ ﴾

ولمَّا كان السَّببُ في هذا التَّهديدِ كلِّه ما كانوا يتعمَّدونه مِن أذىٰ رسولِ الله ﷺ بقولهم: تزوَّج امرأةَ ابنِه، وغير ذلك، إلىٰ أن ختَمه بما يكون سببًا لتمنِّيهم طاعتَه، وكان سماعُ هذا لُطْفًا لِمَن صدَّق به: أتبَعه ما هو كالنَّتيجةِ له، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾(١).

لمَّا تقضَّىٰ وعيدُ الذين يؤذون الرسولَ عليه السلام بالتَّكذيبِ ونحوِه مِن الأذىٰ المنبعِثِ عن كفرِهم مِن المشركين والمنافقين، حذَّر المؤمنين ممَّا يؤذي الرسولَ ﷺ؛ بتنزيهِهم عن أن يكونوا مثلَ قومٍ نسَبوا إلىٰ رسولِهم ما هو أذًىٰ له وهم لا يَعبؤون بما في ذلك مِن إغضابِه الذي فيه غضَبُ الله تعالىٰ(٢).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ المنافقين والكفَّارَ الذين آذَوْا رسولَ اللهِ ﷺ والمؤمنين، حذَّر المؤمنين مِن التَّعرُّضِ للإيذاء، ونهاهم عن التَّشبُّهِ ببني إسرائيلَ في أذيَّتِهم نبيَّهم موسىٰ(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ ﴾

ولمَّا نهاهم عن الأذىٰ، أمَر بالنَّفعِ؛ ليَصيروا وُجَهاءَ عنده سبحانه، مُكرِّرًا للنِّداءِ استعطافًا وإظهارًا للاهتمامِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٥٠).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٢١).

بعد أن نهىٰ اللهُ المسلمين عمَّا يؤذي النبيَّ ﷺ، وربأ بهم عن أن يكونوا مثلَ الذين آذَوْا رسولَهم: وجَّه إليهم بعد ذلك نداءً بأن يتَّسِموا بالتَّقوىٰ، وسَدادِ القولِ؛ لأنَّ فائدةَ النَّهيِ عن المَناكرِ التَّلبُّسُ بالمَحامدِ، والتَّقوىٰ جماعُ الخيرِ في العملِ والقول، والقولُ السَّديد مَبَثُّ[1] الفضائلِ[2].

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾

ولِما في التَّقوىٰ والقولِ السَّديد مِن وسائلِ الصَّلاح، جعَل للآتي بهما جزاءً بإصلاحِ الأعمال، ومغفرةِ الذُّنوب؛ وهو نشرٌ علىٰ عكسِ اللَّفِّ[3]؛ فإصلاحُ الأعمالِ جزاءٌ علىٰ القولِ السَّديد؛ لأنَّ أكثَرَ ما يفيدُه القولُ السَّديد إرشادُ الناسِ إلىٰ الصَّلاح، أو اقتداءُ النَّاسِ بصاحبِ القول السَّديد، وغفرانُ الذُّنوبِ جزاءٌ علىٰ التَّقوىٰ؛ لأنَّ عمودَ التَّقوىٰ اجتنابُ الكبائرِ، وقد غفَر اللهُ للناسِ الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائرِ، وغفَر لهم الكبائرَ بالتَّوبةِ، والتَّحوُّلُ عن المعاصي بعد الهَمِّ بها ضَربٌ مِن مغفرتِها[4].

ثم ذكَر ما لهؤلاء الذين امتثَلوا الأمرَ بالتَّقوىٰ والقولِ السديد مِن الأجرِ، فقال: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[5].

ثم ذكَر ما يترتَّبُ علىٰ تَقواه، وقولِ القولِ السديد، فقال: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[6].

---

(١) أي: سبب نشرها.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٢١-١٢٢).

(٣) يعني: جاء ذكر الثواب عكس ترتيب ذكر الأعمال قبلها.

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٢٣).

(٥) فتح القدير (٤/ ٣٥٣).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٦٧٣).

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ومَن لم يُطِعْ فقد خَسِر خسرانًا مُبينًا، وكان كلُّ شيءٍ عُرِض على شيء؛ فالمعروضُ عليه متمكِّنٌ مِن المعروضِ، قادرٌ عليه، وكان كلُّ شيءٍ أودَعه اللهُ شيئًا فحَفِظه ورعَاه وبذَله لأهلِه وآتاه باذلًا للأمانةِ غيرَ حاملٍ لها، وكلُّ مَن أودَعه شيئًا فضيَّعه وضَنَّ به عن أهلِه ومنَعه عن مستحِقِّه خائنٌ فيه حاملٌ له، وكان اللهُ تعالى قد أودَع الناسَ مِن العقول ما يميِّزون به بَيْنَ الصحيحِ والفاسد، ومِن القُوَى الظاهرةِ ما يَصرِفونه فيما أرادوا مِن المعصيةِ والطاعة؛ فمنهم مَن استدَلَّ بعقلِه على كلٍّ مِن المُحِقِّ والمُبطِلِ، فبذَل له مِن قُوَاه ما يستحِقُّه؛ فكان باذلًا للأمانةِ غيرَ حاملٍ لها، ومنهم مَن عكَس ذلك، وهم الأكثرُ؛ فكان حاملًا لها، خائنًا فيما أُمِر به مِن بذلِها، وأودَعَ سبحانه الأكوانَ ما فيها مِن المنافعِ مِن المياهِ والمعادنِ والنباتات، فبذَلَتْهُ، ولم تَمنَعْهُ مِن أحدٍ طلَبَه، مع أنَّ مَنْعَها له في حيِّزِ الإمكانِ: قال تعالى معلِّلًا للأمرِ بالتقوى، أو مستأنِفًا مؤكِّدًا؛ تنبيهًا على أنَّ هذا الأمرَ ممَّا يَحِقُّ أن يؤكَّد؛ تنبيهًا على دِقَّتِه، وأنَّه ممَّا لا يكادُ أن يَفطَنَ له كثيرٌ مِن الناسِ، فضلًا عن أن يصدِّقوه، لافتًا القولَ إلى مظهرِ العظمةِ؛ دَلالةً على عظيمِ جرأةِ الإنسان: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ أفاد الإنباءَ على سُنَّةٍ عظيمة مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في تكوينِ العالَمِ وما فيه، وبخاصَّةٍ الإنسانُ؛ ليرقُبَ الناسَ في تصرفاتِهم ومعاملاتِهم مع ربِّهم، ومعاملاتِ بعضِهم مع بعضٍ بمقدار جَرْيِهم على هذه السُّنةِ، ورَعْيِهم تطبيقَها،

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٢٢-٤٢٣).

فيكون عَرْضُهم أعمالَهم على معيارِها مُشعِرًا لهم بمصيرِهم، ومبيِّنًا سببَ تفضيلِ بعضِهم على بعضٍ، واصطفاءِ بعضِهم مِن بَيْنِ بعضٍ، وموقعُ هذه الآيةِ عَقِبَ ما قَبْلَها، وفي آخرِ هذه السُّورةِ؛ يقتضي أنَّ لمضمونِها ارتباطًا بمضمونِ ما قبلها، ويصلُحُ عونًا لاكتشافِ دقيقِ معناها، وإزالةِ سُتُورِ الرمزِ عن المرادِ منها، ولو بتقليلِ الاحتمال[(١)].

لمَّا أرشَد المؤمنين إلى ما أرشَد مِن تَرْكِ الأذى واتقاءِ الله وسَدادِ القول، ورتَّب على الطاعةِ ما رتَّب: بيَّن أنَّ ما كُلِّفَه الإنسانُ أمرٌ عظيم، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن عِظَمَ شأنِ طاعةِ الله ورسوله ببيانِ مآلِ الخارجين عنها مِن العذابِ الأليم، ومنالِ المراعين لها مِن الفوزِ العظيم: عقَّب ذلك ببيانِ عِظَمِ شأنِ ما يوجِبُها مِن التَّكاليفِ الشرعية، وصعوبةِ أمرِها بطريقِ التَّمثيل[(٣)].

ثم لمَّا فرَغ سبحانه مِن بيانِ ما لأهلِ الطاعة مِن الخيرِ بعد بيانِ ما لأهلِ المعصية مِن العذابِ، بيَّن عِظَمَ شأنِ التَّكاليفِ الشرعية، وصعوبةِ أمرِها، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٢٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١١٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٥٤).

📖 ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ 📖

متعلِّقٌ بقولِه: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾؛ لأنَّ المنافقين والمشركين والمؤمنين مِن أصنافِ الإنسان، وهذه اللامُ للتعليلِ المَجازيِّ، المسمَّاةُ لامَ العاقبةِ(١).

ثم ذكَر اللهُ تعالىٰ أعمالَ هؤلاء الأقسامِ الثلاثة، وما لهم مِن الثوابِ والعقاب، فقال: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

ثم ذكَر جزاءَ مَن خانَ الأمانةَ، ومَن وفَىٰ بها، فقال: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٧٣).

سورة سبأ

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا ختَم بصفةِ الخبَرِ، أتبَع ذلك ما يدُلُّ عليه، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾[1].

بيانٌ لجملةِ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾؛ لأنَّ العلمَ بما ذُكِر هنا هو العلمُ بذواتِها وخصائصِها، وأسبابِها وعِلَلِها؛ وذلك عينُ الحِكْمةِ والخبرة؛ فإنَّ العلمَ يقتضي العملَ، وإتقانَ العملِ بالعلم[2].

تفصيلٌ لبعضِ ما يحيطُ به عِلْمُه مِن الأمورِ التي نِيطَتْ بها مصالحُهم الدُّنيويَّة والدِّينيَّة[3].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَتْ حِكْمتُهُ بما نشاهِدُ مِن مُحكَمِ الأفعالِ وصائبِ الأقوال، فثبَت بذلك عِلْمُه؛ لأنَّ الحِكْمةَ لا تكونُ إلا بالعلمِ، وكان الربُّ الرحيمُ العليم لا تكمُلُ ربوبيَّته

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٤٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣٧).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٢١).

إلا بالـمُلْكِ الظاهرِ، والإيالةِ[1] القاهرةِ التي لا شَوْبَ فيها: ثبَت البعثُ الذي هو محَطُّ الحِكْمةِ، وموضعُ ظهورِ العدلِ؛ فكانت نتيجةُ ذلك: فاللهُ يأتي بالساعةِ؛ لِما ثبَت مِن برهانِها كما ترَوْنَ، فعطَف عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[2].

كان ذِكْرُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرُجُ منها مُشعِرًا بحالِ الموتىٰ عند ولوجِهم القبورَ وعند نَشْرِهم منها، وكان ذِكْرُ ما يَنزِلُ مِن السماءِ وما يعرُجُ فيها مُومِيًا إلىٰ عُروجِ الأرواحِ عند مفارَقةِ الأجسادِ ونزولِ الأرواح لتُرَدَّ إلىٰ الأجسادِ التي تُعادُ يومَ القيامة؛ فكان ذلك مع ما تقدَّمَ مناسَبةً للتخلُّصِ إلىٰ ذِكْرِ إنكارِ المشركين الحَشْرَ؛ لأنَّ إبطالَ زعمِهم مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ[3].

لمَّا بيَّن تعالىٰ عظَمتَهُ بما وصَف به نفسَه، وكان هذا موجِبًا لتعظيمِه، وتقديسِه، والإيمانِ به: ذكَر أنَّ مِن أصنافِ الناس طائفةً لم تقدُرْ ربَّها حقَّ قدرِه، ولم تعظِّمْهُ حقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدْرتَه علىٰ إعادةِ الأموات، وقيامِ الساعة، وعارَضوا بذلك رُسُلَه، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[4].

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾

ثم بيَّن علَّةَ ذلك كلِّه دليلًا علىٰ صِدْقِ القَسَمِ، فقال: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾[5].

---

(١) أي: الإصلاح والسياسة.

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٧٤).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٤٤٧).

ثم لمَّا بيَّن عِلْمَه بالصَّغائرِ والكبائر، ذكَر أنَّ جَمْعَ ذلك وإثباتَه للجزاءِ، فقال: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾[1].

ثم ذكَر المقصودَ مِن البعثِ، فقال: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥ ﴾

ولمَّا كانت أدلَّةُ الساعةِ قد اتَّضحتْ حتى لم يَبقَ مانعٌ مِن التَّصديقِ بها إلا العنادُ، وكان السِّياقُ لتهديدِ مَن جحَدها: قال مُعبِّرًا بالماضي: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾[3].

لمَّا بيَّن حالَ المؤمنين يومَ القيامة، بيَّن حالَ الكافرين[4].

ثم ذكَر فريقَ الكافرين الذين يُعاقَبون عند إتيانِ السَّاعة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾[5].

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾

ولمَّا ذَمَّ الكفرةَ، وعجَّب منهم في إنكارِهم الساعةَ، وأقام الدَّليلَ على إتيانها: عطَف على ذلك مَدْحَ المؤمنين، فقال واصفًا لهم بالعلمِ -إعلامًا بأنَّ الذي أورث

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٢).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٧٥).
(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤٤٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٣).
(٥) فتح القدير (٤/ ٣٥٩).

الكفرةَ التَّكذيبَ الجهلُ-: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ إنكارَ مَن أنكر البعثَ، وأنَّهم يرَوْن ما أُنزِلَ علىٰ رسولِه ليس بحقٍّ: ذكَر حالةَ الموفَّقِين مِن العبادِ؛ وهم أهلُ العلم، وأنَّهم يرَون ما أنزَلَ اللهُ علىٰ رسولِه مِن الكتاب وما اشتمَل عليه مِن الأخبارِ هو الحَقَّ(٢).

لمَّا ذكَر الذين سعَوْا في إبطالِ آياتِ الله، ذكَر الذين يؤمِنون بها(٣).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧ ﴾

ولمَّا عجَّب سبحانه مِن الذين كفَروا في قولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، المتضمِّنِ لتكذيبِهم، وختَم بتصديقِ الذين أُوتوا العلمَ مُشيرًا إلىٰ أنَّ سببَ تكذيبِ الكفرةِ الجهلُ الذي سببُه الكِبْرُ: عجَّب منهم تعجيبًا آخَرَ أشَدَّ مِن الأولِ؛ لتصريحِهم بالتَّكذيبِ علىٰ وجهٍ عجيبٍ، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٤).

انتقالٌ إلىٰ قَوْلةٍ أخرىٰ مِن شناعةِ أهلِ الشرك معطوفةٍ علىٰ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾، وهذا القولُ قائمٌ مقامَ الاستدلالِ علىٰ القولِ الأول؛ لأنَّ قولَهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ دَعْوَىٰ، وقولُهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٧٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٥٠).

جَـدِيدٍ ﴾ مستنَدُ تلك الدَّعوىٰ؛ ولذلك حُكِي بمثلِ الأسلوبِ الذي حُكِيتْ به الدَّعوىٰ في المسنَدِ والمسنَدِ إليه[١].

وجهُ الترتيبِ: هو أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّهم أنكَروا الساعةَ وردَّ عليهم، وبيَّن ما يكونُ بعد إتيانها مِن جزاءِ المؤمن علىٰ عمَلِه الصالح، وجزاءِ الساعي في تكذيبِ الآيات بالتَّعذيبِ علىٰ السَّيئات: بيَّن حالَ المؤمنِ والكافر بعد قولِه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، فقال: المؤمنُ هو الذي يقولُ: الذي أُنزِل إليك الحقُّ، وهو يَهدي، وقال: الكافرُ هو الذي يقولُ: هو باطلٌ، ومِن غايةِ اعتقادِهم وعنادهم في إبطالِ ذلك قالوا علىٰ سبيلِ التَّعجُّب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢].

لمَّا كان البعثُ عندهم مِن المُحالِ، جعَلوا مَن يُخبِرُ عن وقوعِه في حيِّزِ مَن يُتعجَّبُ منه، وأتَوْا باسمِه ﷺ نكرةً في قولِه: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾، وكان اسمُه أشهرَ علَمٍ في قُرَيشٍ؛ بل في الدنيا، وإخبارُه بالبعثِ أشهَرُ خبَرٍ؛ لأنَّهم أخرَجوا ذلك مُخرَجَ الاستهزاءِ، والتحلِّي ببعضِ الأحاجي المعمولةِ؛ للتلهِّي والتعميةِ؛ فلذلك نكَّروا اسمَه[٣].

ثم ذكَر سبحانه نوعًا آخَرَ مِن كلامِ مُنكِري البعث، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٤).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٥٢١).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٥٩).

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾

ولمَّا نفَّروا عنه بهذا الإخبارِ المحيِّر في الحاملِ له عليه، خيَّلُوا بتقسيمِ القولِ فيه في استفهامٍ مردَّدٍ بَيْنَ الاستعجامِ تعجيبًا والإنكارِ، فقالوا جوابًا لِمَن سأل عن سببِ إخبارِه بإسقاطِ همزة الوصل؛ لعدمِ الإلباس هنا، بخلاف ما يَصحَبُ لامَ التَّعريف؛ فإنَّها لفتحِها تُلبِسُ بالخبَرِ: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾(1).

ثم حكَىٰ سبحانه عن هؤلاء الكفارِ أنَّهم ردَّدوا ما وعَدهم به رسولُ الله ﷺ مِن البعثِ بَيْنَ أمرينِ، فقالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾(2).

﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبۡدٍ مُّنِيبٍ ٩﴾

ولمَّا كانوا قد أنكَروا الساعةَ؛ لقَطْعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كلَّ ممزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطَعوا جهلًا بأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقولُ ذلك، فنسَبوا الصادقَ ﷺ في الإخبارِ بذلك إلىٰ أحدِ أمرينِ: تعمُّدِ الكذبِ، أو الجنونِ؛ شرَع سبحانه يدلُّ علىٰ صِدْقِه في جميعِ ما أخبَر به؛ فبدأ بإثباتِ قُدْرتِه علىٰ ذلك مُستنِدًا إلىٰ ضلالِهم بسببِ غفلتِهم عن تدبُّرِ الآيات؛ فكان المعنىٰ: ضَلُّوا فلم يرَوْا؛ فدلَّ عليه مُنكِرًا عليهم مُهدِّدًا لهم مُقرِّرًا لذوي العقول مِن السامعين بقولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(1) نظم الدرر (١٥/ ٤٥١-٤٥٢).

(2) فتح القدير (٤/ ٣٦٠).

وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(١).

لمَّا ذكَر الدَّليلَ بكونِه عالِمَ الغيبِ، وكونِه جازيًا على السيئاتِ والحسنات: ذكَر دليلًا آخرَ، وذكَر فيه تهديدًا(٢).

استئنافٌ مسُوقٌ لتهويلِ ما اجترَؤوا عليه مِن تكذيبِ آياتِ الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقِّه ﷺ، وأنَّه مِن العظائمِ الموجِبة لنزولِ أشدِّ العقاب، وحلولِ أفظَعِ العذاب مِن غيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ(٣).

ثم نبَّههم على الدليلِ العقليِّ، الدالِّ على عدمِ استبعادِ البعثِ الذي استبعَدوه، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(٤).

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ١٠ ﴾

ولمَّا أشار سبحانه بهذا الكلامِ الذي دَلَّ فيه على نفوذِ الأمر إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يفضُلُ، وكان الفضلُ أكثرَ استجلابًا لذوي الهِمَمِ العليَّة، والأنفُسِ الأبيَّة: بدأ به في عبدٍ مِن رؤوسِ المُنيبينَ على وجهٍ دالٍّ على البعثِ بكمالِ التَّصرُّف في الخافِقَينِ وما فيهما بأمورٍ شُوهدت لبعضِ عبيدِه تارةً بالعِيان، وتارةً بالآذان: أمَّا عند أهلِ الكتاب فواضحٌ، وأمَّا عند العرَبِ فبتمكينِهم مِن سؤالِهم؛ فقد كانوا يَسألونهم عنه ﷺ، فقال تعالى مُقسِمًا -تنبيهًا على أنَّ إنكارَهم للبعث إنكارٌ لِما يُخبِرُ به مِن المعجزاتِ،

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٥٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٥).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٢٣).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٧٦).

عاطفًا على ما تقديرُه: فلقد آتَيْنا هذا الرجُلَ الذي نسَبْتموه إلىٰ الكذبِ أو الجنون منَّا فضلًا بهذه الأخبارِ المدلولِ عليها بمُعجزِ القرآن؛ فيا بُعْدَ ما بيْنَه وبيْنَ ما نسَبْتموه إليه-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[1].

ثم أخبَر تعالىٰ عمَّا آتىٰ داودَ وسليمان مِن الفضلِ، والمُلْكِ، وسَعةِ السُّلطان، ووَفْرةِ الجندِ، وكثرةِ العَدَدِ والعُدَدِ؛ ببركةِ إنابتِهما، وقيامِهما بشُكْرِ الربِّ تعالىٰ؛ عِدَةً للنبيِّ ﷺ وأتباعِه المُنيبينَ الشاكرين بنَيْلِ مثلِ ذلك، وتذكيرًا بقُدْرتِه علىٰ كلِّ شيءٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[2].

لمَّا خُتِمتِ الآيةُ السابقة بالمُنيب، وكان داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن أشهَرِ المُنيبين المتفكِّرين في آياتِ الله، فانقلَب حالُه بعد أن كان راعيًا غليظًا إلىٰ أنِ اصطفاه اللهُ نبيًّا ومَلِكًا صالحًا مصلِحًا لأمَّةٍ عظيمة، وفي ذِكْرِ فضلِه عِبْرةٌ للنَّاسِ بحُسْنِ عنايةِ الله بالمُنيبين؛ تعريضًا بضدِّ ذلك للذين لم يَعتبروا بآياتِ الله، وفي هذا إيماءٌ إلىٰ بِشارةِ النبيِّ ﷺ بأنَّه بعد تكذيبِ قومِه وضِيقِ حاله منهم سيؤُولُ شأنُه إلىٰ عِزَّةٍ عظيمة، وتأسيسِ مُلْكِ أمَّة عظيمة؛ كما آلت حالُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ثم ذكَر علَّةَ الإلانةِ بصيغةِ الأمر إشارةً إلىٰ أنَّ عمَلَه كان لله، فقال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ١٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٥٥).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٥٨).

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ما أراد مِن آياتِ داودَ عليه السلام، وختَمها بالحديدِ: أتبَعه ابنَه سليمانَ عليه السلام؛ لمشاركتِه له في الإنابةِ، وبدأ مِن آياتِه بما هو مِن أسبابِ تكوينِه سبحانه للحديدِ، فقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[(١)].

عطفُ فضيلةِ سليمانَ عليه السلام على فضيلةِ داودَ عليه السلام؛ للاعتبارِ بما أُوتيَه سليمانُ مِن فضلٍ كرامةً لأبيه على إنابتِه، ولسليمانَ على نشأتِه الصالحةِ عندَ أبيه، والمناسبةُ مثلُ مناسبةِ ذِكْرِ داودَ؛ فإنَّ سليمانَ كان موصوفًا بالإنابة[(٢)].

لمَّا ذكَر فضلَه على داودَ عليه السلام، ذكَر فضلَه على ابنِه سليمانَ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[(٣)].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالى أنَّه سخَّر له الجِنَّ، ذكَر حالَهم في أعمالِهم؛ دَلالةً على أنَّه سبحانه يَتصرَّف في السَّماءِ والأرض وما فيهما بما يشاءُ، فقال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٧٦).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٦٧).

ثـم فصَّـل مـا ذُكِـر مِـن عمَلِهـم بقولِـه تعـالىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[1].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا كان ربما استُبعِد موتُ مَن هو علىٰ هذه الصفةِ مِن ضخامةِ المُلْكِ بنفوذِ الأمر، وسَعةِ الحال، وكثرةِ الجنود: أشار إلىٰ سهولتِه بقُرْبِ زمَنِه وسرعةِ إيقاعه علىٰ وجهٍ دالٍّ علىٰ بطلانِ تعظيمِهم للجِنِّ بالإخبار بالمغيَّباتِ بعد تنبيهِهم علىٰ مثلِ ذلك باستخدامِه لهم بقولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[2].

لمَّا بيَّن عظَمةَ سليمانَ عليه السلام، وتسخيرَ الرِّيحِ والرُّوحِ له: بيَّن أنَّه لم ينجُ مِن الموتِ، وأنَّه قضَىٰ عليه الموتَ؛ تنبيهًا للخَلْقِ علىٰ أنَّ الموتَ لا بد منه، ولو نجَا منه أحدٌ، لكان سليمانُ عليه السلام أَوْلىٰ بالنجاةِ منه[3].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم أتبَعه بقومٍ كان تمامُ صلاحِهم بسليمانَ عليه السلام، فاختَلَّ بعده أمرُهم، وصار مِن عجائبِ الكونِ ذِكْرُهم حين ضاعَ شُكْرُهم؛ فكان مِن ترجمةِ اتِّباعِ قصَّتِهم لِما قبلها أنَّ آلَ داودَ عليه السلام شكَروا، فسخَّر لهم مِن الجبالِ والطَّير والمعادن وغيرِها ما لم يكُنْ غيرُهم يَطمَعُ فيه، وهم أضاعوا الشُّكْرَ، فأعصىٰ عليهم، وأضاع منهم ما لم يكونوا

(١) محاسن التأويل (٨/ ١٣٦).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٦٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٩).

يَخافون فواتَهُ مِن مياهِهم وأشجارِهم وغيرها، فقال تعالىٰ مُشيرًا بتأكيدِه إلىٰ تعظيمِ ما كانوا فيه، وأنَّه في غايةِ الدَّلالة علىٰ القدرةِ، وسائرِ صفاتِ الكمالِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[١].

جَرَّ خبرُ سليمانَ عليه السلام إلىٰ ذِكْرِ سَبَأٍ؛ لِما بَيْنَ مُلْكِ سليمانَ وبين مملكةِ سبأٍ مِن الاتصالِ بسببِ قصَّةِ «بِلْقِيسَ»، ولأنَّ في حالِ أهلِ سبأٍ مُضادَّةً لأحوالِ داودَ وسليمانَ؛ إذ كان هذان مثَلًا في إسباغِ النِّعْمة علىٰ الشاكرين، وكان أولئك مثَلًا لسَلْبِ النِّعْمةِ عن الكافرين، وفيهم موعظةٌ للمشركين؛ إذ كانوا في بُحبُوحةٍ مِن النعمةِ، فلمَّا جاءهم رسولٌ مِن المُنعِمِ عليهم يُذكِّرهم بربِّهم، ويُوقِظهم بأنَّهم خاطئون إذ عبَدوا غيرَه: كذَّبوه، وأعرَضوا عن النَّظرِ في دَلالةِ تلك النعمةِ علىٰ المُنعِمِ المتفرِّدِ بالإلهيَّة[٢].

لمَّا بيَّن اللهُ حالَ الشاكرين لنِعَمِه بذِكْرِ داودَ وسليمانَ، بيَّن حالَ الكافرين بأنعُمِه بحكايةِ أهلِ سبأٍ[٣].

﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا تسبَّب عن هذا الإنعامِ بَطَرُهم الموجِبُ لإعراضِهم عن الشُّكر، دلَّ علىٰ ذلك بقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٧٤-٤٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٦٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٠).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٧٨).

لمَّا بيَّن ما كان مِن جانبِه، ذكَر ما كان مِن جانبِهم، فقال: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن هذا المَحْقِ والتَّقتيرِ بعد ما كانوا فيه مِن ذلك المُلْكِ الكبير، هوَّل أمرَه مُقدِّمًا للمفعولِ؛ دَلالةً على أنَّه ممَّا يُهتمُّ غايةَ الاهتمام بتعرُّفِه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾؛ فهو مِن تمامِ الاعتراض[3].

ثم بيَّن اللهُ أنَّ ذلك كان مجازاةً لهم على كفرانِهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[4].

فكما بدَّلوا الشُّكْرَ الحسَنَ بالكفرِ القبيح، بدَّلوا تلك النِّعمةَ بما ذُكِر؛ ولهذا قال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[5].

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ الخبَرَ عن الجِنانِ التي بها القِوامُ نِعْمةً ونِقْمةً، أتبعه مواضعَ السُّكانِ، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾[6].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٠).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٨٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٧٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠١).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٧٧).
(٦) نظم الدرر (١٥/ ٤٨٥).

تكملةُ القصَّة بذِكْرِ نعمةٍ بعد نعمة؛ فإنَّ ما تقدَّم: لنِعْمةِ الرخاءِ والبهجة وطِيبِ الإقامة، وما هنا: لنِعْمةِ الأمن وتيسيرِ الأسفار وعُمْرانِ بلادهم(١).

لمَّا ذكَر ما أنعَم به عليهم مِن جنَّتَيْهم، وذكَر تبديلَهما بالخَمْطِ والأَثْلِ والسِّدْرِ: ذكَر ما كان أنعَمَ به عليهم مِن اتصالِ قُرَاهم، وذكَر تبديلَها بالمَفاوزِ والبراري(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ ما كانوا فيه مِن النِّعْمةِ، والغِبْطة، والعيشِ الهَنِيِّ، والبلادِ الآمنة، والقُرَىٰ المتواصلة، بقولِه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾(٣).

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ الخبَرُ عن هذه الأوصافِ التي تستدعي غايةَ الشُّكرِ؛ لِما فيها مِن الألطافِ، دلَّ علىٰ بَطَرِهم للنِّعْمةِ بها بأنَّهم جعَلوها سببًا للتَّضجُّرِ والمَلَالِ بقولِه: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٤).

الفاءُ مِن قوله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا ﴾ لتعقيبِ قولِهم هذا إثرَ إتمامِ النِّعْمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، والتعقيبُ في كلِّ شيءٍ بحسَبِه، فلمَّا تمَّتِ النِّعْمةُ، بَطِرُوها؛ فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٧٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٣٧).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ١٣٩).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٤٨٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٧٦).

لمَّا طالت بهم مدةُ النِّعْمةِ، بَطِروا، ومَلُّوا العافيةَ، وطلَبوا استبدالَ الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيرٌ؛ كما فعلَتْ بنو إسرائيلَ، وقالوا: لو كان جَنْيُ ثمارِنا أبعَدَ، لكان أشهىٰ، وأغلىٰ قيمةً، فتمنَّوْا أن يَجعَلَ اللهُ بَيْنَهم وبين الشامِ مَفاوِزَ؛ ليَركَبوا الرواحلَ فيها، ويتزوَّدوا الأزوادَ ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[(١)].

ثم ذكَر سبحانه أنَّهم لم يشكُروا النِّعْمةَ؛ بل طلَبوا التَّعَبَ والكَدَّ ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[(٢)].

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا كان المعنىٰ: فيما سبق آيات في أن يُخالِفوا إبليسَ؛ فلا يُصدِّقوا ظنَّه في احتناكِه؛ حيث قال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ قال مُؤكِّدًا لإنكارِ كلِّ أحدٍ أن يكونَ صُدِّقَ ظنُّ إبليسَ فيه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

الأظهَرُ أنَّ هذا عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ الآيةَ، وأنَّ ما بَيْنَهما مِن الأخبارِ المسُوقةِ للاعتبارِ -كما تقدَّم- واقعٌ موقعَ الاستطرادِ والاعتراض، فيكونُ ضميرُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائدًا إلىٰ الذين كفروا[(٤)].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ قصَّةَ سبأٍ وما كان مِن أمرِهم في اتِّباعِهم الهوىٰ والشيطانَ، أخبَر عنهم وعن أمثالِهم ممَّن اتَّبَع إبليسَ والهوىٰ، وخالَف الرَّشادَ والهدىٰ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٥٣٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٦٩).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٤٨٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٨٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٢).

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ ﴾

ولمَّا كان ذلك ربما أوهَم أنَّ لإبليس أمرًا بنفسِه، نفَاه بقِوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾[(١)].

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ ﴾

ولمَّـا أثبَـت سـبحانه لنفسِـه ولذاتِـه الأقـدَسِ مِـن المُلْـكِ في السَّـماواتِ والأرض وغيرِهما ما رأيتَ، واستدَلَّ عليه مِن الأدلةِ التي لا يمكِنُ التَّصويبُ إليها بطعنٍ بما سَمِعتَ، وكان المقصودُ الأعظم التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ ينبني عليه كلُّ خيرٍ؛ قال: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾[(٢)].

كانت قصَّةُ سبأٍ قد ضُربتْ مثَلًا وعِبْرةً للمشركين مِن قُريشٍ، وكان في أحوالِهم مثيلٌ لأحوالِ المشركين في أمنِ بلادهم، وتيسيرِ أرزاقهم، وتأمينِ سُبُلِهم في أسفارِهم، ثم فيما قابَلوا به نِعْمةَ اللهِ بالإشراكِ به، وكفرانِ نِعْمتِه، وإفحامِهم دعاةَ الخيرِ المُلهَمِينَ مِن لَدُنْهُ إلىٰ دَعْوتِهم، فلمَّا تقضَّىٰ خبَرُهم لينتقِلَ منه إلىٰ تطبيقِ العبرةِ علىٰ مَن قصَد اعتبارَهم انتقالًا مناسبتُه بيِّنةٌ، وهو أيضًا عَوْدٌ إلىٰ إبطالِ أقوال المشركين، وسِيقَ لهم مِن الكلامِ ما هو فيه توقيفٌ علىٰ أخطائهم، وأيضًا فلمَّا جرَىٰ مِن استهواءِ الشيطانِ أهلَ سبأٍ فاتَّبَعوه، وكان الشيطانُ مصدرَ الضَّلالِ، وعنصرَ الإشراكِ: أعقَب ذِكْرَه بذِكْرِ فروعِه وأوليائه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٩١).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٨٥).

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان قد بَقِيَ مِن أقسامِ النفعِ الشفاعةُ، وكان المقصودُ منها أثَرَها، لا عينَها؛ نفَاه بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[1].

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا سلَب عن شركائهم أن يَملِكوا شيئًا مِن الأكوانِ، وأثبَت جميعَ المُلْكِ له وَحْده: أمَره ﷺ بأن يُقرِّرَهم بما يَلزَمُ منه ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

انتقالٌ مِن دَمْغِ المشركين بضَعْفِ آلهتِهم وانتفاءِ جَدْواها عليهم في الدُّنيا والآخرةِ إلى إلزامِهم بطلانَ عبادتِها بأنَّها لا تستحِقُّ العبادةَ؛ لأنَّ مستحِقَّ العبادة هو الذي يرزُقُ عبادَه؛ فإنَّ العبادةَ شُكْرٌ، ولا يستحِقُّ الشُّكْرَ إلا المُنعِمُ؛ وهذا احتجاجٌ بالدَّليلِ النَّظري؛ لأنَّ الاعترافَ بأنَّ اللهَ هو الرزاقُ يستلزمُ انفرادَه بإلهيَّتِه؛ إذ لا يجوز أن ينفرِدَ ببعضِ صفاتِ الإلهيَّة ويشارِكَ في بعضٍ آخَرَ؛ فإنَّ الإلهيَّةَ حقيقةٌ لا تقبَلُ التجزئةَ والتبعيض[3].

ثم أمَر اللهُ سبحانه رسولَه أن يُبكِّتَ المشركين ويُوبِّخَهم، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩١-١٩٢).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٧٣).

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كانوا بَيْنَ أمرينِ: إمَّا أن يسكُتوا، فيَعلَمَ كلُّ سامعٍ أنَّ الحجَّةَ لَزِمتْهم، وإمَّا أن يقولوا بوقاحةٍ ومكابرةٍ: أنتم في الضَّلالِ ونحن على الهدى، وكان الضالُّ لا يَزالُ يَقطَعُ ما ينبغي وصلُه بوصلِ ما يجبُ قطعُه؛ أمَره أن يُجيبَهم -على هذا التَّقديرِ- بما هو أبلَغُ في الإنصافِ مِن الأولِ بقولِه: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

أُعيدَ الأمرُ بأن يقولَ لهم مقالًا آخَرَ إعادةً لزيادةِ الاهتمام -كما تقدَّم آنفًا-، واستدعاءً لأسماءِ المخاطَبين بالإصغاءِ إليه، ولمَّا كان هذا القولُ يَتضمَّنُ بيانًا للقول الذي قَبْلَه، فُصِلتْ جملةُ الأمرِ بالقول عن أختِها؛ إذ لا يُعطَفُ البيانُ على المُبيَّنِ بحرفِ النَّسَقِ؛ فإنَّه لمَّا ردَّد أمرَ الفريقينِ بَيْنَ أن يكونَ أحدُهما على هُدًى، والآخرُ في ضلالٍ، وكان الضَّلال يأتي بالإجرامِ: اتُّسِع في المُحاجَّةِ، فقيل لهم: إذا نحن أجرَمْنا فأنتم غيرُ مؤاخَذين بجُرْمِنا، وإذا عَمِلتم عملًا فنحن غيرُ مؤاخَذين به؛ أي: إنَّ كلَّ فريقٍ مؤاخَذٌ وحده بعمَلِه؛ فالأجدى بكِلا الفريقينِ أن ينظُرَ كلٌّ في أعمالِه وأعمالِ ضِدِّه؛ ليَعلَمَ أيُّ الفريقينِ أحَقُّ بالفوزِ والنجاة عند الله![2].

ثم أردَف سبحانه هذا الكلامَ المنصِفَ بكلامٍ أبلَغَ منه في الإنصافِ، وأبعَدَ مِن الجدَلِ والمُشاغَبةِ، فقال: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٠-٥٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/١٩٣-١٩٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٧٤).

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كانوا إمَّا أن يُجيبوا إلىٰ المتارَكةِ فيُحصِّلوا بها المقصودَ عن قريبٍ، وإمَّا أن يقولوا: لا نترُكُكم، وكان هذا الاحتمالُ أرجَحَ؛ أمَره أن يُجيبَهم علىٰ تقديرِه بقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (١).

إعادةُ فعلِ ﴿ قُلْ ﴾؛ لِما عرَفتَ في الجملةِ التي قَبْلها مِن زيادةِ الاهتمامِ بهذه المُحاجَّاتِ؛ لتكونَ كلُّ مجادَلةٍ مستقلَّةً غيرَ معطوفة؛ فتكونَ هذه الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، وأيضًا فهي بمنزلةِ البيان للتي قَبْلها؛ لأنَّ نَفْيَ سؤالِ كلِّ فريقٍ عن عملِ غيره يقتضي أنَّ هنالك سؤالًا عن عمَلِ نفسِه، فبيَّن بأنَّ الذي يَسألُ الناسَ عن أعمالهم هو اللهُ تعالىٰ، وأنَّه الذي يَفصِلُ بَيْنَ الفريقينِ بالحقِّ حين يَجمَعُهم يومَ القيامة الذي هم مُنكِروه، فما ظنُّك بحالِهم يومَ تحقُّقِ ما أنكَروه، وهنا تدرَّجَ الجدَلُ مِن الإيماءِ إلىٰ الإشارةِ القريبة مِن التَّصريح؛ لِما في إثباتِ يومِ الحساب والسُّؤال مِن المصارَحةِ بأنَّهم الضالُّون، ويُسمَّىٰ هذا التدرُّجُ عند أهلِ الجدَلِ بالترقِّي (٢).

ثم أمَره سبحانه بأن يُهدِّدَهم بعذابِ الآخرة، لكن علىٰ وجهٍ لا تصريحَ فيه، فقال: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣).

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا كانوا قد أنكَروا البعثَ علىٰ ذلك الوجهِ الذي تقدَّم، ودلَّ علىٰ قُدْرتِه عليه بما نصَب مِن الأدلةِ التي شاهَدوها مِن أفعاله بالبصرِ أو البصيرةِ إيجادًا وإعدامًا، وأقام

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٧٤).

الحجَّةَ علىٰ صحَّة الدعوةِ، وبطلانِ ما هم عليه، ثم تهدَّدهم بالفصلِ يومَ الجمع، وختَم بصفةِ العلمِ المحيط المستلزِم للقدرةِ الشاملة، وكانت القدرةُ لا تكون شاملةً إلا عند الوحدانيَّةِ: أمَره بما يُوجِبُ لهم القطعَ بوحدانيَّتِه وشمولِ قُدْرتِه بقوله: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

أُعِيدَ الأمرُ بالقول رابعَ مرةٍ لمزيدِ الاهتمام؛ وهو رجوعٌ إلىٰ مَهْيَعِ الاحتجاجِ علىٰ بطلانِ الشرك؛ فهو كالنتيجةِ لجملة ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

لمَّا بيَّن أنَّه لا يُعبَدُ غيرُ الله لدفعِ الضَّررِ؛ إذ لا دافعَ للضررِ غيرُه، وبيَّن أنَّه لا يُعبَدُ غيرُ الله لتوقُّعِ المنفعةِ: بيَّن ههنا أنَّه لا يُعبَدُ أحدٌ لاستحقاقِه العبادةَ غيرُ الله[3].

ثم أمَره سبحانه أن يُورِدَ عليهم حجَّةً أُخرىٰ يَظهَرُ بها ما هم عليه مِن الخطأِ، فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا ختَم بوصفِ الحِكْمةِ، فتَمَّ برهانُ القدرة التي كان أوجَب اعتقادُهم لعدمِ البعثِ ما يقتضي نقصًا فيها، ولَزِم عن ذلك التَّوحيدُ، وبطَل الشركُ: لم يَبقَ إلا إثباتُ الرسالة الذي أوجَب ترديدُهم أخبارَه ﷺ بَيْنَ الكذبِ والجنون الطعنَ فيها؛ فعُلِم أنَّ التَّقدير: أرسَلَ إليكم رسولَه بعِزَّته، مؤيِّدًا له بإعجازِ هذا القرآنِ بحِكْمتِه، دليلًا علىٰ صِدْقِه وكماله في جِبِلَّتِه، وتأهُّلِه لبدائعِ نِعْمته ومَعالي رحمتِه، وكان في ذلك

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٦).
(٤) فتح القدير (٤/ ٣٧٤).

دليلُ الصدقِ في الرسالة؛ فنسَق به قولَه مُعْليًا لشأنِه بالخطاب في مظهرِ العظمة، إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن يَتدرَّع جلابيبَ الصَّبرِ على جميعِ المكارهِ الصادرة مِن أنواعِ الخَلْقِ في أداءِ الرسالة بقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١).

انتقالٌ مِن إبطالِ ضلالِ المشركين في أمرِ الربوبيَّة إلى إبطالِ ضلالِهم في شأنِ صِدْقِ الرسولِ ﷺ، وغيَّر أسلوبَ الكلام مِن الأمرِ بمُحاجَّةِ المشركين إلى الإخبارِ برسالة النبي ﷺ تشريفًا له بتوجيهِ هذا الإخبارِ بالنِّعْمةِ العظيمة إليه، ويحصُلُ إبطالُ مزاعمِ المشركين بطريقِ التَّعريض(٢).

لمَّا بيَّن مسألةَ التَّوحيد، شرَع في الرسالةِ، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٣).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ ﴾

ولمَّا سلَب عنهم العلمَ، أتبَعه دليلَه، فقال مُعبِّرًا بصيغةِ المضارعة الدالِّ على ملازَمةِ التَّكريرِ؛ للإعلامِ بأنَّه على سبيلِ الاستهزاءِ، لا الاسترشادِ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

كان مِن أعظَمِ ما أنكَروه ممَّا جاء به الرسولُ ﷺ القيامةُ والبعثُ؛ ولذلك عقَّب إبطالَ قولِهم في إنكارِ الرسالة بإبطالِ قولِهم في إنكارِ البعث(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٦).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٩).

لمَّا ذكَر الرسالةَ، بيَّن الحشرَ(١).

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾

ولمَّا تبيَّن مِن سؤالِهم أنَّه لم يكُنْ للاسترشاد، وإن هم بالَغوا به في التَّكذيبِ والاستهزاء بعد الإبلاغِ في إقامةِ الأدلة: أمَره بأن يُجيبَهم بما يصلُحُ للمعانِدِ مِن صادعِ التَّهديد بقوله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾(٢).

جملةُ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ إلىٰ آخرِها مسُوقةٌ مساقَ الجوابِ عن مقالتِهم؛ ولذلك فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ؛ علىٰ طريقةِ حكايةِ المحاوَراتِ في القرآن، وهذا الجوابُ جرَىٰ علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيم؛ أي إنَّ الأهمَّ للعقلاءِ أن تتوجَّهَ هِمَمُهم إلىٰ تحقُّقِ وقوعِ الوعد في الوقتِ الذي عيَّنه اللهُ له، وأنَّه لا يُؤخِّرُه شيءٌ ولا يُقدِّمه، وحسَّن هذا الأسلوبَ أنَّ سؤالَهم إنَّما أرادوا به الكنايةَ عن انتفاءِ وقوعه، وفي هذا الجوابِ تعريضٌ بالتَّهديدِ، فكان مطابِقًا للمقصودِ مِن الاستفهامِ؛ ولذلك زِيدَ في الجوابِ كلمةُ ﴿لَّكُم﴾؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هذا الميعادَ مُنصرِفٌ إليهم ابتداءً(٣).

ثم حكَىٰ تعالىٰ مقالتَهم في الاستهزاءِ بالبعثِ، واستعجالَهم علىٰ سبيلِ التكذيب، ولم يجابوا بتعيينِ الزمان؛ إذ ذاك ممَّا انفرَد تعالىٰ بعلمِه، بل أُجيبوا بأنَّ ما وُعِدوا به لا بد مِن وقوعِه؛ وهو ميعادُ يومِ القيامة(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٠٠).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٥٥٠).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه بملازمتِهم للاستهزاءِ بهذا الإنذارِ علىٰ أنَّهم غيرُ مُنفكِّين عن مذاهبِ الكفار، ذكَر تصريحَهم بذلك، وحالَهم في بعضِ الأوقاتِ المنطبقة عليها الآيةُ السالفة في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(١).

لمَّا بيَّن الأمورَ الثلاثة مِن التوحيدِ والرسالة والحشر، وكانوا بالكلِّ كافرين: بيَّن كُفْرَهم العامَّ بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٢).

ثم ذكَر سبحانه طرَفًا مِن قبائحِ الكفار، ونوعًا مِن أنواعِ كفرِهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ ميعادَ المستعجِلين بالعذابِ لا بد مِن وقوعِه عند حلولِ أجلِه، ذكَر هنا حالَهم في ذلك اليومِ(٤).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا لم يَتضمَّنْ كلامُهم سِوىٰ قضيةٍ واحدةٍ، ذكَر الجوابَ بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٧٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٨٠).

(٥) نظم الدرر (١٥/ ٥١٠).

جُرِّد فعلُ (قال) عن العاطفِ؛ لأنَّه جاء على طريقةِ المجاوَبةِ[١]، والشَّأنُ فيه حكايةُ القولِ بدونِ عطفٍ؛ كما بيَّناه غيرَ مرةٍ، وهذا الإنكارُ بهتانٌ، وإنكارٌ للواقعِ، بعَثه فيهم خوفُ إلقاءِ التَّبِعة عليهم، وفَرْطُ الغضَبِ والحسرة مِن انتقاضِ أتباعِهم عليهم، وزوالِ حُرْمتِهم بينهم، فلم يَتمالكوا ألا يُكذِّبوهم، ويذيِّلوا بتوريطِهم[٢].

استئنافٌ مبنيٌّ على السؤالِ، كأنَّه قيل: فماذا قال الذين استكبَروا في الجوابِ؟ فقيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾[٣].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾

ولمَّا تضمَّن قولُهم أمرينِ: ادعاءَ عراقتِهم في الإجرامِ، وإنكارَ كونِهم سببًا فيه: أشار إلى ردِّهم للثاني بالعاطفِ على غيرِ معطوفٍ عليه؛ إعلامًا بأنَّ التَّقديرَ: قال الذين استُضعِفوا: كذَبْتم فيما ادَّعيتم مِن عراقتِنا في الإجرام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾[٤].

لم تَجرِ حكايةُ هذا القولِ على طريقةِ حكايةِ المقاوَلاتِ التي تُحكَى بدونِ عطفٍ على حُسْنِ الاستعمالِ في حكاية المقاوَلات؛ كما استقرَيْناه مِن استعمالِ الكتاب

(١) أي: تناوب الجواب.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٣٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥١٠).

المَجيد، فجِيءَ بحرفِ العطف في حكايةِ هذه المقالة مع أنَّ المستضعَفين جاوَبوا بها قولَ الذين استكبَروا لنُكْتةٍ دقيقةٍ؛ وهي التَّنبيهُ علىٰ أنَّ مقالةَ المستضعَفين هذه هي في المعنىٰ تكملةٌ لمقالتِهم المحكيَّةِ بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ مقالتَهم تلقَّفَها الذين استكبَروا، فابتدَروها بالجوابِ؛ للوجهِ الذي ذكَرْناه هنالك، بحيث لو انتظَروا تمامَ كلامِهم، وأبلَعوهم رِيقَهم: لحصَل ما فيه إبطالُ كلامِهم، ولكنَّهم قاطَعوا كلامَهم مِن فَرْطِ الجزعِ أن يؤاخَذوا بما يقوله المستضعَفون(١).

لمَّا أنكَر رؤساؤهم أنَّهم السببُ في كفرِهم، وأثبَتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنَّ كُفْرَهم هو مِن قِبَلِ أنفسِهم؛ قابَلوا إضرابًا بإضرابٍ، فقال الأتباعُ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كان إجرامُنا مِن جهتِنا، بل مكرُكم لنا دائمًا ومخادَعتُكم لنا ليلًا ونهارًا، إذ تأمروننا ونحن أتباعٌ لا نَقدِرُ علىٰ مخالَفتِكم(٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا كان في هذا تسليةٌ أُخْرويةٌ، أتبَعه التَّسليةَ الدُّنيويَّة، فقال عطفًا علىٰ ما تقديرُه: وما أرسَلْنا غيرَك إلا إرسالًا خاصًّا لأمَّتِه، عطفًا علىٰ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، وساقَه مُؤكَّدًا؛ لأنَّ مضمونَه - لكونِه في غايةِ الغرابة - ممَّا لا يكادُ يُصدَّقُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٥٢).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥١٢).

اعتراضٌ للانتقالِ إلىٰ تسليةِ النبيِّ ﷺ ممَّا مُنِيَ به مِن المشركين مِن أهلِ مكَّةَ، وبخاصَّةٍ ما قابَله به سادتُهم وكُبَراؤهم مِن التَّأليبِ عليه؛ بتذكيرِه أنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسلِ مِن قَبْلِه؛ فليس في ذلك غضاضةٌ عليه[١].

لمَّا قَصَّ سبحانه حالَ مَن تقدَّم مِن الكفارِ، أتبَعه بما فيه التَّسليةُ لرسولِه، وبيانِ أنَّ كُفْرَ الأُمَمِ السابقة بمَن أُرسِلَ إليهم مِن الرُّسلِ هو كائنٌ مستمرٌّ في الأعصُرِ الأُوَلِ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[٢].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

وإذا قال المنعَّمون ذلك، تَبِعهم المستضعَفون، فإذا وقَفُوا عندنا، تقاوَلُوا بما تقدَّم، ثم لم يَنفَعْهم ذلك ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[٣].

قفَّوْا علىٰ صريحِ كفرِهم بالقرآنِ وغيرِه مِن الشَّرائع بكلامٍ كنَّوْا به عن إبطالِ حقيقةِ الإسلام بدليلٍ سفسطائيٍّ؛ فجعَلوا كثرةَ أموالِهم وأولادهم حجَّةً علىٰ أنَّهم أهلُ حظٍّ عند اللهِ تعالىٰ، وهذا مِن تمويهِ الحقائق بما يحُفُّ بها مِن العوارضِ؛ فجعَلوا ما حَفَّ بحالِهم في كفرِهم مِن وَفْرةِ المالِ والولدِ حجَّةً علىٰ أنَّهم مظنَّةُ العنايةِ عند الله، وأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ، وهذا تعريضٌ منهم بعكسِ حالِ المسلمين؛ بأنَّ حالَ ضَعْفِ المسلمين، وقلَّةِ عددهم، وشَظَفِ عيشِهم: حجَّةٌ علىٰ أنَّهم غيرُ محظوظين عند اللهِ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢١١-٢١٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢١٢).

ثم ذكَر ما افتخَروا به مِن الأموالِ والأولاد، وقاسُوا حالَهم في الدارِ الآخرة علىٰ حالِهم في هذه الدارِ؛ علىٰ تقديرِ صحَّةِ ما أنذَرهم به الرُّسلُ، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كانت لشُبْهتِهم هذه شُعْبتانِ، تتعلَّقُ إحداهما بالذات، والأخرىٰ بالثَّمرات: بدأ بالأُولىٰ؛ لأنَّها أهَمُّ، فقال مُؤكِّدًا -تكذيبًا لِمَن يظُنُّ أنَّ سعيَه يُفِيدُ في الرزقِ شيئًا لولا السَّعيُ ما كان-: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

فأمَر اللهُ نبيَّه ﷺ بأن يُجِيبَ عنهم، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا هدَم ما بالذاتِ، أتبَعه ما بالثَّمراتِ، فقال مُؤكِّدًا تكذيبًا لدعواهم: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٧٨).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥١٤).
(٣) فتح القدير (٤/ ٣٧٨).
(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥١٥).

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ ﴾ عطفًا على جملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾، فيكونَ كلامًا موجَّهًا مِن جانبِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ الذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾، فتكونَ ضمائرُ الخطابِ موجَّهةً إلىٰ الذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾، ويجوز أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، فيكونَ ممَّا أُمِر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه لهم، ويُبلِّغَه عن اللهِ تعالىٰ، وهو ارتقاءٌ مِن إبطالِ الملازمة إلىٰ الاستدلالِ علىٰ أنَّهم ليسوا بمحَلِّ الرضا مِن اللهِ تعالىٰ؛ علىٰ طريقةِ النَّقْضِ التفصيليِّ، المسمَّىٰ بالمناقَضةِ أيضًا في علمِ المناظَرة، وهو مقامُ الانتقالِ مِن المنعِ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إبطال دعوىٰ الخَصْمِ؛ فقد أبطَلَتِ الآيةُ أن تكونَ أموالُهم وأولادهم مقرِّبةً عند اللهِ تعالىٰ، وأنَّه لا يُقرِّب إلىٰ اللهِ إلا الإيمانُ والعمل الصالح[(1)].

ثم بيَّن فسادَ استدلالِهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[(2)].

ثم زاد هذا الجوابَ تأييدًا وتأكيدًا، فقال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كان في سياقِ التَّرغيبِ في الإيمان بعد الإخبارِ بأنَّه بشيرٌ ونذيرٌ، قال مُعبِّرًا بالمضارعِ بيانًا لحالِ مَن يُبعِدُه مالُه وولَدُه مِن اللهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾[(3)].

---

(1) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢١٤).

(2) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٩).

(3) نظم الدرر (١٥/ ٥١٦).

جرَىٰ الكلامُ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ الترغيبِ بالترهيبِ، وعكسه؛ فكان هذا بمنزلةِ الاعتراضِ بَيْنَ الثناءِ علىٰ المؤمنين الصالحين وبَيْنَ إرشادِهم إلىٰ الانتفاعِ بأموالهم؛ للقُرْبِ عند اللهِ تعالىٰ[١].

لمَّا ذكَر جزاءَ مَن آمَن، ذكَر عقابَ مَن كفَر؛ ليَظهَرَ تبايُنُ الجزأينِ[٢].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا أبطَل شُبْهتَهم بشُعْبتَيْها بالنسبةِ إلىٰ الأشخاصِ المختلفة، قرَّب ذلك بدليلٍ واحدٍ في شخصٍ واحدٍ، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٣].

أتبَع إبطالَ أن تكونَ الأموالُ والأولاد بذاتِهما وسيلةَ قُرْبٍ لدىٰ اللهِ تعالىٰ -ردًّا علىٰ مزاعمِ المشركين- بما يُشبِهُ معنىٰ الاستدراكِ علىٰ ذلك الإبطالِ مِن إثباتِ انتفاعٍ بالمالِ للتَّقرُّبِ إلىٰ رضا الله إن استُعمِل في طلبِ مرضاةِ الله تفضيلًا لِما أُشِيرَ إليه إجمالًا مِن أنَّ ذلك قد يكونُ فيه قُرْبةٌ إلىٰ اللهِ بقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾؛ كما تقدَّم، فالذي تقدَّم ردٌّ علىٰ المشركين، والمذكورُ هنا ترغيبٌ للمؤمنين، والعباراتُ واحدةٌ، والمقاصدُ مختلِفةٌ؛ وهذا مِن وجوهِ الإعجاز أن يكونَ الكلامُ الواحد صالحًا لغرَضَينِ، وأن يتوجَّهَ إلىٰ طائفتينِ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢١٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢١٩).

ثم كرَّر سبحانه ما تقدَّم لقصدِ التَّأكيدِ للحجَّةِ، والدَّفعِ لِما قاله الكفَرةُ، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(١).

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾

ولمَّا أبطَل شُبْهتَهم، فعُلِم بذلك أنَّ الأمرَ كلَّه له، وأنَّهم في محَلِّ الخطَرِ، وكان قد بَقِيَ مِن شُبَهِهم أنَّهم يقولون: نحن نعبُدُ الملائكةَ؛ فهم يَشفَعون لنا، وكان الأنبياءُ عليهم السلام لا يُنكِرون أنَّ الملائكةَ مقرَّبون؛ أبطَلَ ما يَتعلَّقون به منهم، وبيَّن أنَّه لا أمرَ لهم، وأنَّهم بريئون منهم، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾(٢).

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ الآيةَ؛ استكمالًا لتصويرِ فظاعةِ حالهم يومَ الوعدِ الذي أنكَروه تبعًا لِما وصَف مِن حالِ مراجَعةِ المستكبِرين منهم والمستضعَفين، فوصَف هنا افتضاحَهم بتبرُّؤِ الملائكةِ منهم، وشَهادتِهم عليهم بأنَّهم يعبُدون الجِنَّ(٣).

لمَّا بيَّن أنَّ حالَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كحالِ مَن تقدَّمه مِن الأنبياءِ، وحالَ قومِه كحالِ مَن تقدَّم مِن الكفارِ، وبيَّن بطلانَ استدلالِهم بكثرةِ أموالِهم وأولادهم: بيَّن ما يكونُ مِن عاقبةِ حالِهم، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٧٩).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥١٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٢١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢١١).

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

حُكِيَ قولُ الملائكةِ بدونِ عاطفٍ؛ لوقوعِه في المحاوَرةِ؛ كما تقدَّم غيرَ مرةٍ؛ ولذلك جِيءَ فيه بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ ذلك هو الغالبُ في الحكايةِ، وجوابُ الملائكةِ يتضمَّن إقرارًا مع التَّنزُّهِ عن لفظِ كونِهم معبودين، كما يَتنزَّهُ مَن يحكي كُفْرَ أحدٍ، فيقول: قال: هو مشركٌ بالله، وإنَّما القائلُ قال: أنا مشركٌ بالله(١).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ سؤالِ الملائكة، كأنَّه قيل: فماذا يقولُ الملائكةُ حينئذٍ؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾(٢).

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا بطَلَتْ تمسُّكاتُهم، وتقطَّعتْ تعلُّقاتهم: تسبَّب عن ذلك تقريعُهم الناشئُ عنه تنديمُهم بقولِه بلسانِ العظمةِ: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾(٣).

الأظهَرُ أنَّ هذا مِن خطابِ الله تعالىٰ المشركين والجِنَّ، والفاءُ فصيحةٌ ناشئةٌ عن المقاوَلةِ السابقة، وهي كلامٌ موجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ الملائكةِ؛ والمقصودُ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٣٧).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥٢١).

به: التَّعريضُ بضلالِ الذين عبَدوا الملائكةَ والجِنَّ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعلَمون مضمونَ هذا الخبَرِ، فلا نَقصِدُ إفادتَهم به[(١)].

فلمَّا تبرَّؤوا منهم، قال تعالىٰ مخاطِبًا لهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾

ولمَّا أخبرَ أنَّهم أبَوُا الإيمانَ بالقرآنِ، المُخبِرِ بالغيبِ مِن أمرِ الرحمن، الذي هدَتْ إليه العقولُ، وشاهَدتْ آثارَه العيونُ، في هذا الكلامِ المُعجِزِ، فتضافَرتْ علىٰ ما أخبَرتْ به أدلةُ السمعِ والبصر والعقل، وختَم بأنَّهم آمَنوا بالجِنِّ غيبًا، وعبَدوهم مِن دُونِ اللهِ بما لم يَدْعُ إليه عقلٌ ولا نقلٌ، وصدَّقوهم مِن الإخبارِ بما إن صدَقوا في شيءٍ منه خلَطوا معه أكثَرَ مِن مائةِ كَذْبةٍ، وسلَبَ أعظَمَ مَن ادَّعَوْا أنَّهم استنَدوا إليه النَّفعَ والضُّرَّ، وأسنَد تعذيبَهم إلىٰ تكذيبِهم: أتبَعه الإخبارَ بأنَّهم لازَموا الإصرارَ علىٰ ذلك الكفرِ والتَّكذيب بما كلُّه صِدْقٌ وحكمٌ، فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٢٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٨١).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥٢٢-٥٢٣).

انتقالٌ مِن حكايةِ كفرِهم وغرورِهم وازدهائِهم بأنفسِهم وتكذيبِهم بأصولِ الديانةِ إلىٰ حكايةِ تكذيبِهم الرسولَ ﷺ، وأتبَع ذلك بحكايةِ تكذيبِهم الكتابَ والدِّينَ الذي جاء به، فكان كالفَذْلكةِ لِما تقدَّم مِن كفرِهم[1].

ثم بيَّن جملةً أُخرىٰ مِن كفرانِهم بقولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا بارَزوا بهذا القولِ مِن غيرِ أثارةٍ مِن علمٍ، ولا خبرٍ مِن سمعٍ: بيَّن ذلك مُعجِّبًا مِن شأنِهم، مُوضِّحًا لعنادِهم، بقولِه مؤكدًا -إشارةً إلىٰ أنَّ ما يجترئون عليه مِن الأقوالِ التي لا سنَدَ لها إلا التَّقليدُ لا يكونُ إلا عن كتابٍ أو رسولٍ-: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾[3].

الواوُ للحالِ، والجملةُ في موضعِ الحالِ مِن الضميرِ في قولِه: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ الآيةَ؛ تحميقًا لجهالتِهم، وتعجيبًا مِن حالِهم في أمرينِ: أحدهما: أنَّهم لم يُدرِكوا ما ينالُهم مِن المزيَّةِ بمجيءِ الحقِّ إليهم إذ هيَّأهم اللهُ به لأن يكونوا في عِدادِ الأُمَمِ ذَوِي الكتابِ، وفي بَدْءِ حالٍ يبلُغُ بهم مَبلَغَ العلمِ؛ إذ هم لم يَسبِقْ لهم أن أتاهم كتابٌ مِن عندِ اللهِ، أو رسولٌ منه. وثانيهما: أنَّهم لم يكونوا علىٰ هدًىٰ ولا دِينٍ منسوبٍ إلىٰ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يكونَ تمسُّكُهم به وخشيةُ

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٢٥).
(٢) محاسن التأويل (٨/ ١٥٣).
(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥٢٦).

الوقوعِ في الضَّلالةِ إن فرَّطوا فيه يَحمِلُهم على التردُّدِ في الحقِّ الذي جاءهم، وصِدْقِ الرسولِ الذي أتاهم به، فيكون لهم في الصَّدِّ عنهما بعضُ العذرِ (١).

ولمَّا بيَّن ما رَدُّوا به الحقَّ، وأنَّها أقوالٌ دُونَ مرتبةِ الشُّبْهةِ، فضلًا أن تكونَ حُجَّةً: ذكَر أنَّهم وإن أراد أحدٌ أن يَحتجَّ لهم، فإنَّهم لا مستنَدَ لهم، ولا لهم شيءٌ يعتمِدون عليه أصلًا، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴾(٢).

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا نفَىٰ مُوجِبَ الطعنِ، ذكَر المانعَ الموجِبَ للإذعانِ، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾(٣).

ثم خوَّفهم ما فعَل بالأُمَمِ المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾(٤).

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا أبطَل شُبَهَهم كلَّها، وليَّن مِن عريكتِهم بالتَّنبيهِ على التَّحذيرِ، فصاروا جديرين بقَبولِ الوعظِ، وكان ممَّا رمَوْهُ به - وحاشاه - الجنونُ، وتعمُّدُ الكذبِ: أمَره بالإقبالِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٢٥).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٨٢).

عليهم به، مُخففًا له لئلا ينفِروا مِن طولِه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(١).

استئنافٌ للانتقالِ مِن حكايةِ أحوالِ كفرِ المشركين، وما تخلَّل ذلك مِن النَّقضِ والاستدلالِ، والتَّسليةِ والتَّهديد، ووصفِ صُدودِهم ومكابرتِهم إلىٰ دعوتِهم للإنصافِ في النظرِ، والتأملِ في الحقائق؛ ليتَّضِحَ لهم خطؤُهم فيما ارتكبوه مِن العَسْفِ في تَلقِّي دعوةِ الإسلام، وما ألصَقوا به وبالداعي إليه، وأُرشِدوا إلىٰ كيفيةِ النظر في شأنهم، والاختلاءِ بأنفسِهم لمحاسَبتِها علىٰ سلوكِها؛ استقصاءً لهم في الحجَّةِ، وإعذارًا لهم في المجادلة(٢).

ثم أمَر سبحانه رسولَه أن يُقيمَ عليهم حُجَّةً ينقطعون عندها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٣).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا انتفىٰ عنه بهذا ما خيّلوا به، بقيَ إمكانُ أن يكونَ لغرضِ أمرٍ دنيويٍّ، فنفاه بأمرِه بقولِه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣١).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٨٢).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥٣١).

هذا استقصاءٌ لبقايا شُبَهِ التَّكذيبِ لدحضِها، سواءٌ منها ما تعلَّقوا به مِن نحوِ قولهم: كاهنٌ وشاعرٌ ومجنونٌ، وما لم يدَّعُوه ولكنَّه قد يخطُرُ ببالِ واحدٍ منهم أن يزعُموا أنَّه يريدُ بهذه الدَّعوىٰ نفعًا لنفسِه، يكونُ أجرًا له علىٰ التَّعليمِ والإرشاد، وهم لمَّا ادَّعَوْا أنَّه ساحرٌ أو أنَّه شاعرٌ أو أنَّه كاهنٌ، لَزِم مِن دَعْواهم أنَّه يتعرَّضُ لجائزةِ الشاعر، وحُلْوانِ الكاهنِ، فلمَّا نُفِيتْ عنه تلك الخلالُ، لم يَبقَ لهم في الكِنانةِ سهمُ طَعْنٍ إلا أن يزعُموا أنَّه يطلُبُ أجرًا علىٰ الإرشادِ، فقيل لهم: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(1).

ثم أمَر سبحانه أن يُخبِرَهم أنَّه لم يكُنْ له غرَضٌ في الدُّنيا، ولا رغبةٌ فيها؛ حتىٰ تنقطعَ عندهم الشُّكوكُ، ويرتفعَ الرَّيب، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(2).

وثَمَّ مانعٌ للنفوسِ آخَرُ عن اتِّباعِ الدَّاعي إلىٰ الحقِّ؛ وهو أنَّه يأخذُ أموالَ مَن يستجيبُ له، ويأخذ أجرةً علىٰ دَعْوتِه؛ فبيَّن اللهُ تعالىٰ نزاهةَ رسولِه ﷺ عن هذا الأمرِ، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(3).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا لم يَبقَ شيءٌ يَخدِشُ في أمرِ المبلِّغ، أتبَعه تصحيحَ النَّقلِ جوابًا لِمَن كأنَّه يقول: بَرِئَتْ ساحتُك، فمَن لنا بصحةِ مضامينِ ما تُخبِر؟ فقال مُؤكِّدًا لإنكارِهم أن يكونَ ما

---

(1) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(2) فتح القدير (٤/ ٣٨٣).

(3) تفسير السعدي (ص: ٦٨٢).

يأتي به حق[1] معيدًا الأمرَ بالقولِ، إشارةً إلىٰ أنَّ كلَّ كلامٍ صدَر دليلُ كافٍ مستقِلٌّ بالدَّلالةِ علىٰ ما سبَق له: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[2].

لا جرَمَ إذ انتهىٰ الاستدلالُ والمجادَلة أن ينتقِلَ إلىٰ النداءِ بَيْنَ ظَهْرانَيْهم بظهورِ الحقِّ، فيُستغنىٰ عن مجادَلتهم، وأُعيدَ فعلُ ﴿ قُلْ ﴾؛ للاهتمامِ بالمقُولِ؛ كما أشَرْنا إليه آنفًا، والتأكيدِ لتحقيقِ هذا الخبَرِ[3].

إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن رسالةَ النبيِّ ﷺ، وأكَّد ذلك، وكان مِن عادةِ المشركين استبعادُ تخصيصِ واحدٍ مِن بينِهم بإنزالِ الذِّكْرِ عليه: ذكَر ما يصلُحُ جوابًا لهم، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الأمرَ بيدِه، يَفعَلُ ما يريدُ، ويعطي ما يشاءُ، لِمَن يشاء[4].

ولمَّا بيَّن البراهينَ الدالَّة علىٰ صحَّةِ الحقِّ وبطلانِ الباطلِ، أخبَر تعالىٰ أنَّ هذه سُنَّتُه وعادتُه، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[5].

﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ ﴾

ولمَّا وصَفه بنهايةِ العلم، أتبَعه بعضَ آثاره، فقال: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[6].

---

(١) كذا في المطبوع.

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢١٦).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٨٢).

(٦) نظم الدرر (١٥/ ٥٣٣).

لمَّا ذكَر اللهُ أنَّه يَقذِفُ بالحقِّ، وكان ذلك بصيغةِ الاستقبالِ: ذكَر أنَّ ذلك الحقَّ قد جاءَ(١).

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا لم يَبقَ بعد هذا إلا أن يقولوا عنادًا: أنت ضالٌّ، ليس بك جنونٌ ولا كذبٌ، ولكنَّك قد عرَض لك ما أضلَّك عن المَحجَّةِ؛ قال: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(٢).

لمَّا جرَىٰ ذِكْرُ الحقِّ والباطل، وكانوا يزعُمون مِن مجموعِ أقوالهم أنَّ النبيَّ ﷺ غيرُ صادقٍ في دعوىٰ الرسالةِ مِن الله: كانت أقوالُهم تقتضي زَعْمَهم إيَّاه علىٰ ضلالٍ، وكان الردُّ عليهم قاطعًا بأنَّه علىٰ هُدًىٰ بقوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾؛ انتقَل هنا إلىٰ متارَكةِ جدالِهم، وتَرْكِهم وشأنَهم؛ لقلَّةِ جدوىٰ مراجعتِهم(٣).

ولمَّا تبيَّن الحقُّ بما دعا إليه الرسولُ، وكان المكذبون له يرمُونه بالضَّلالِ: أخبَرهم بالحقِّ، ووضَّحه لهم، وبيَّن لهم عَجْزَهم عن مقاوَمتِه، وأخبَرهم أنَّ رَمْيَهم له بالضَّلالِ ليس بضائرِ الحقَّ شيئًا، ولا دافعٍ ما جاء به، وأنَّه إن ضَلَّ - وحاشاه مِن ذلك، لكن علىٰ سبيلِ التنزُّلِ في المجادَلةِ -، فإنَّما يَضِلُّ علىٰ نفسِه(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢١٦).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٥٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٨٣).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ ﴾

ولمَّا أبطَل شُبَهَهم، وختَم مِن صفاتِه بما يقتضي البطشَ بمَن خالَفه؛ قال عاطفًا على ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[(١)].

لمَّا جاءهم التَّعريضُ بالتَّهديدِ مِن لازمِ المتاركةِ المدلولِ عليها بقوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾؛ للعلمِ بأنَّ الضالَّ يستحِقُّ العقابَ: أتبَع حالَهم حينَ يَحُلُّ بهم الفزَعُ مِن مشاهَدةِ ما هُدِّدوا به[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه حالًا مِن أحوالِ الكفار، فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[(٣)].

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ ﴾

وبعد أن أُخِذوا وظهَر الأمرُ حيث لا يَنفَعُ إيمانٌ حينئذٍ، ذكَر قولَهم، فقال: ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ ﴾

وكيف لهم الإيمانُ والحالُ أنَّهم قد ﴿ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾؟![(٤)].

جملةُ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ في موضعِ الحال؛ أي كيف يقولون: آمَنَّا به في وقتِ الفواتِ والحالُ أنَّهم كفَروا به مِن قبلُ في وقتِ التمكُّن؟![(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤١).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٨٤).

(٤) نظم الدرر (١٥/ ٥٣٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤٤).

ثم بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ إيمانَهم لا نفعَ فيه بسببِ أنَّهم كفروا به مِن قبلُ، فقال: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾[1].

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا أشار إلىٰ بُعْدِ الإيمانِ منهم عند إرادتِهم تناوُلَه عند فواتِ أمرِه، وعُلُوِّه عنهم عند طعنِهم فيه في دارِ العمل: ترجَم حالتَيْهم في ذلك علىٰ وجهٍ يعُمُّ ثمراتِ الإيمان -مِن دخولِ الجِنان، ورضا الرحمن- بقولِه: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾[2].

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢١٧).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٣٨-٤٣٩).

سُورَةُ فَاطِرٍ

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

لمَّا وصَف سبحانه نفسَه المقدَّسَ بالقدرةِ الكاملة، دلَّ علىٰ ذلك بما يُشاهِدُه كلُّ أحدٍ في نفسه مِن السَّعةِ والضِّيق مع العجزِ عن دفعِ شيءٍ مِن ذلك أو اقتناصِه، فقال مستأنِفًا أو معلِّلًا مستنتِجًا: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(١)].

هذا مِن بقيَّةِ تصديرِ السُّورة بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو عطفٌ علىٰ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ والتَّقدير: وفاتحُ الرحمةِ للناس وممسِكُها عنهم؛ فلا يَقدِرُ أحدٌ علىٰ إمساكِ ما فتَحه، ولا علىٰ فتحِ ما أمسَكه[(٢)].

ثم ذكَر انفرادَه تعالىٰ بالتدبيرِ والعطاء والمنع، فقال: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٨٤).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ ﴾

ولمَّا بيَّن بما يشاهِدُه كلُّ أحدٍ في نفسِه أنَّه المنعِمُ وَحْدَه، أمَرَ بذِكْرِ نِعْمتِه بالاعتراف أنَّها منه؛ فإنَّ الذِّكْرَ يقودُ إلىٰ الشُّكر، وهو قيدُ الموجود، وصيدُ المعدومِ المفقود، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(١).

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ رحمةِ الله التي تعُمُّ النَّاسَ كلَّهم، أقبَلَ علىٰ خطابِهم بأن يتذكَّروا نعمةَ الله عليهم الخاصَّة، وهي النِّعْمةُ التي تخُصُّ كلَّ واحدٍ بخاصَّتِه، فيأتلِفُ منها مجموعُ الرحمةِ العامة للنَّاس كلِّهم، وما هي إلا بعضُ رحمةِ الله بمخلوقاته، والمقصودُ مِن تذكُّرِ النِّعْمةِ شُكْرُها، وقَدْرُها قَدْرَها(٢).

لمَّا بيَّن أنَّ الحمدَ لله، وبيَّن بعضَ وجوهِ النِّعْمة التي تستوجِبُ الحمدَ علىٰ سبيل التفصيل؛ بيَّن نِعَمَه علىٰ سبيلِ الإجمال، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(٣).

وبعدما بيَّن سبحانه أنَّه الموجِدُ للمُلْكِ والملكوتِ والمتصرِّفُ فيهما علىٰ الإطلاق، أمَر الناسَ قاطبةً بشُكْرِ نِعَمِه ﷻ، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٢).

(٤) روح المعاني (١١/ ٣٣٩).

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

ولـمَّا قرَّرهم علىٰ ما تقدَّم، وختَم بالتَّوحيد الذي هو الأصلُ الأول مِن أصولِ الدِّين؛ نبَّه علىٰ أنَّه المقصودُ بالذات بذِكرِ ما يعقُبُه في الأصلِ الثاني؛ وهو الرسالةُ مِن تصديقٍ وتكذيبٍ، فقال -ناعيًا علىٰ قُريشٍ سُوءَ تَلقِّيهم لآياتِه، وطَعْنَهم في بيِّناتِه، مُسلِّيًا له ﷺ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فإن يُصدِّقوك، فهم جديرون بالتَّصديقِ لِما قام علىٰ ذلك مِن الدَّلائل، وشَهِد به مِن المقاصدِ والوسائل-: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: وإن استمَرُّوا علىٰ انصرافِهم عن قَبولِ دَعْوتَك ولم يشكُروا النِّعْمةَ ببَعْثِك، فلا عجَبَ؛ فقد كذَّب أقوامٌ مِن قبلِهم رُسُلًا مِن قبلُ، وهو انتقالٌ مِن خطابِ الناس إلىٰ خطابِ النبي ﷺ؛ لمناسبةِ جريانِ خطاب الناسِ علىٰ لسانه؛ فهو مشاهِدٌ لخطابِهم؛ فلا جرَمَ أن يوجَّهَ إليه الخطابُ بعد توجيهِه إليهم؛ إذ المقامُ واحدٌ[(٢)].

لمَّا بيَّن الأصلَ الأول -وهو التَّوحيدُ-، ذكَر الأصلَ الثاني -وهو الرسالةُ-، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[(٣)].

ثـم عـزَّىٰ اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٩-١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٨٨).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾

ولمَّا أشعَرَ هذا الختامُ باليومِ الموعود، وهو الأصلُ الثابت؛ قال مُهدِّدًا به محذِّرًا منه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[(١)].

أُعيدَ خطابُ الناس إعذارًا لهم، وإنذارًا بتحقيقِ أنَّ وَعْدَ اللهِ الذي وعَده مِن عقابِه المكذِّبينَ في يومِ البعث هو وَعْدٌ واقع لا يَتخلَّف، وذلك بعد أن قدَّم لهم التذكيرَ بدلائلِ الوحدانيَّة المشتمِلةِ عليها، مع الدَّلالةِ علىٰ نِعَمِ اللهِ عليهم؛ ليَعلَموا أنَّه لا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، وأنَّه لا يتَّصِفُ بالإلهيَّةِ الحقِّ غيرُه[(٢)].

﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾

لمَّا كان في قوله: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ إبهامٌ ما في المرادِ بالغَرُورِ، عُقِّب ذلك ببيانِه بأنَّ الغَرُورَ هو الشَّيطانُ؛ ليَتقرَّرَ المسنَدُ إليه بالبيانِ بعد الإبهام؛ فجملةُ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ ﴾ تتنزَّلُ مِن جملةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ منزلةَ البيانِ مِن المبيَّنِ؛ فلذلك فُصِلتْ ولم تُعطَفْ، وهذا مِن دلالةِ ترتيبِ الكلام علىٰ إرادةِ المتكلِّم؛ إذ يَعلَمُ السامعُ مِن وقوعِ وَصْفِ الشَّيطانِ عَقِب وَصْفِ الغَرُورِ أنَّ الغَرُورَ هو الشَّيطانُ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦٠).

لمَّا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، ذكَر ما يَمنَعُ العاقلَ مِن الاغترار، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(١).

ثم حذَّر سبحانه عبادَه مِن الشَّيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا أنهىٰ البيانَ في غرضِ الشَّيطانِ إلىٰ منتهاه، نبَّه علىٰ ما حكَمَ به هو سبحانه في أشياعِه بقولِه مُستأنِفًا: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ يُفيدُ مُفادَ الفَذْلكةِ والاستنتاج ممَّا تقدَّم، وهذا الاستئنافُ يومئُ إلىٰ أنَّ الذين كفَروا هم حزبُ الشَّيطانِ؛ لأنَّه لمَّا ذكَر أنَّ حِزْبَه مِن أصحابِ السَّعيرِ، وحكَمَ هنا بأنَّ الذين كفَروا لهم عذابٌ شديدٌ؛ عُلِم أنَّ الذين كفروا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ إذ هو العذابُ الشديد؛ فعُلِم أنَّهم حزبُ الشَّيطانِ بطريقةِ قياسٍ مَطْويٍّ، فالذين كفَروا هم حزبُ الشَّيطانِ؛ لعكوفِهم علىٰ متابَعتِه، وإن لم يُعلِنوا ذلك؛ لاقتناعِه منهم بملازمةِ ما يُملِيه عليهم(٤).

ثم ذكَر أنَّ الناسَ انقسَموا بحسَبِ طاعةِ الشَّيطان وعدَمِها إلىٰ قِسمَينِ، وذكَر جزاءَ كلٍّ منهما، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٣).
(٢) فتح القدير (٤/ ٣٨٩).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٢).
(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦٢).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٨٤).

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾

ولمَّا أبانَ هذا الكلامُ تفاوُتَ الحِزْبَينِ في المآلِ بالهلاكِ والفوز، وكان لا يُقدِم علىٰ الهلاكِ أحدٌ فيه حسٌّ، وكان الكفارُ يَدَّعون أنَّهم الفائزون قناعةً بالنَّظرِ إلىٰ ما هم فيه، ويَدَّعون أنَّهم أبصَرُ الناسِ وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومبتدِعٍ؛ كان ذلك سببًا في إنكارِ تَساويهما، فأنكَره مبيِّنًا السَّببَ في ضَلالِهم بما فيه تسليةٌ للمحسِنين، ونَدْبٌ إلىٰ الشُّكر، وحثٌّ علىٰ ملازمةِ الافتقارِ والذُّلِّ وسؤالِ العافيةِ مِن الزَّلَلِ والزَّيغ، فقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[(١)].

لمَّا جرىٰ تحذيرُ الناسِ مِن غُرورِ الشَّيطان، وإيقاظُهم إلىٰ عداوتِه للنوعِ الإنساني، وتقسيمُ الناسِ إلىٰ فريقينِ: فريقٍ انطَلَتْ عليه مكائدُ الشَّيطان واغترُّوا بغُرورِه ولم يناصِبوه العِداءَ، وفريقٍ أخَذوا حِذْرَهم منه واحترَسوا مِن كيدِه وتجنَّبوا السَّيْرَ في مسالكِه، ثم تقسيمُهم إلىٰ كافرٍ معذَّبٍ ومؤمنٍ صالحٍ مُنعَمٍ عليه؛ أعقَب ذلك بالإيماءِ إلىٰ استحقاقِ حِزْبِ الشَّيطانِ عذابَ السَّعير، وبتسليةِ النبيِّ ﷺ علىٰ مَن لم يخلُصوا مِن حبائلِ الشَّيطان مِن أمَّةِ دَعْوتِه بأسلوبِ الملاطَفةِ في التَّسلية[(٢)].

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ تقريرٌ لِما سبَق مِن التَّبايُنِ البيِّنِ بَيْنَ عاقبتَيِ الفريقينِ ببيانِ تبايُنِ حالَيْهما المؤدِّيَينِ إلىٰ تَيْنِك العاقبتَينِ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٤٤).

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه لا بد مِن إيجادِ ما وعَد به مِن البعثِ وغيرِه، وحذَّر كلَّ التَّحذير مِن التَّهاون بأمرِه، وأنكَر التَّسويةَ بَيْنَ المصدِّقِ به والمكذِّبِ، وكان السَّببُ في الضَّلالِ المميتِ للقلوب الهوىٰ الذي يَغشَىٰ سماءَ العقلِ ويعلوه بسَحابِه المُظلِمِ، فيحُولُ بَيْنَه وبين النُّفوذِ، وكان السَّببُ في السَّحابِ المغطِّي لسماءِ الأرض المحيي لميِّتِ الحبوبِ الهوىٰ، وكان الإتيانُ به في وقتٍ دُونَ آخَرَ دالًّا علىٰ القدرةِ بالاختيار؛ قال عاطفًا علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ - المَبْني علىٰ النَّظرِ، وهو الإخراجُ مِن العدَمِ - مبيِّنًا لقُدْرتِه علىٰ ما وعَد به: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾(١).

لمَّا قدَّم في أولِ السُّورةِ الاستدلالَ بأنَّ اللهَ فطَر السماواتِ والأرضَ، وما في السماواتِ مِن أهلها، وذلك أعظَمُ دليلٍ علىٰ تفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ ثنَّىٰ هنا بالاستدلالِ بتصريفِ الأحوال بَيْنَ السماءِ والأرضِ؛ وذلك بإرسالِ الرِّياح، وتكوينِ السَّحابِ، وإنزالِ المطر(٢).

لمَّا ذكَر أشياءَ مِن الأمورِ السماوية وإرسالِ الملائكة، ذكَر أشياءَ مِن الأمورِ الأرضية: الرِّياحُ وإرسالها، وفي هذا احتجاجٌ علىٰ منكِري البعثِ، دلَّهم علىٰ المثالِ الذي يعاينونه؛ وهو وإحياءُ الموتىٰ سِيَّانِ(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦٧).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٦).

ثم أخبَر سبحانه عن نوعٍ مِن أنواعِ بديعِ صُنْعِه وعظيمِ قُدْرتِه؛ ليَتفكَّروا في ذلك، وليَعتبِروا به، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ ﴾

ولمَّا قرَّر بهذا كلِّه ما أثبتَه سابقًا مِن عِزَّتِه وحِكْمتِه، وثبَت أنَّه قادرٌ على النُّشورِ، فثبَت أنَّ له العِزَّةَ في الآخرةِ كما شُوهِد ذلك في الدُّنيا، وكانت منافسةُ الناسِ - لا سيَّما الكفَرةُ - في العِزَّةِ فوق منافستِهم في الحِكْمةِ، ومَن نافَس في الحِكْمةِ فإنَّما يُنافِسُ فيها لاكتسابِ العِزَّةِ، وكان الكفَرةُ إنَّما عبَدوا الأوثانَ ليَعتزُّوا بها؛ قال مُستنتِجًا مِن ذلك: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾[2].

مضى ذِكْرُ غُرورَينِ إجمالًا في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾، فأخَذ في تفصيلِ الغرورِ الثاني مِن قولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ ﴾، وما استتبَعه مِن التنبيهِ على أحجارِ كيدِه، وانبعاثِ سُمومِ مَكْرِه، والحَذَرِ مِن مَصارِعِ متابَعتِه، وإبداءِ الفَرْقِ بَيْنَ الواقعِينَ في حبائلِه، والمُعافَيْنَ مِن أدوائِه؛ بِدارًا بتفصيلِ الأهمِّ والأصلِ، وأبقى تفصيلَ الغرورِ الأولِ إلى هنا، وإذ قد كان أعظَمُ غُرورِ المشركين في شِرْكِهم ناشئًا عن قَبولِ تعاليمِ كُبَرائِهم وسادتِهم، وكان أعظَمُ دواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهْمائِهم وصنائعِهم[3] هو ما يجدونه مِن العِزَّةِ والافتتانِ بحُبِّ

(١) فتح القدير (٤/ ٣٩٠).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٨).

(٣) الدهماء: العوام، والصنائع: جمع صنيعة، وهو الشخص الذي يُصطنع أي تُقرَّب منزلتُه.

الرئاسة؛ فالقادةُ يَجلِبون العِزَّةَ لأنفسِهم، والأتباعُ يَعتزُّون بقوَّةِ قادتِهم؛ لا جرَمَ كانت إرادةُ العِزَّةِ مِلاكَ تكاتُفِ المشركين بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم علىٰ مناوأةِ الإسلام، فوُجِّهَ الخطابُ إليهم لكشفِ اغترارهم بطلبِهم العِزَّةَ في الدُّنيا، فكلُّ مستمسِكٍ بحبلِ الشِّركِ مُعرِضٌ عن التأمُّلِ في دعوةِ الإسلام، لا يُمسِّكُه بذلك إلا إرادةُ العِزَّةِ؛ فلذلك نادىٰ عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عن الدِّينِ الحقِّ، فَلْيَعلَمْ بأنَّ العِزَّةَ الحقَّ في اتِّباعِ الإسلام، وأنَّ ما هم فيه مِن العِزَّةِ كالعدَمِ(١).

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما صيَّرهم إليه مِن المفاوَتةِ في الأخلاق، أتبَعه ما كانوا عليه مِن الوَحْدةِ في جنسِ الأصل، وأصلُه التُّرابُ المسلول منه الماءُ بعد تخميرِه فيه، وإن اختلَفتْ أصنافُه؛ فقال مُبيِّنًا لبعضِ آياتِ الأنفُسِ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾(٢).

هذا عَوْدٌ إلىٰ سَوْقِ دلائلِ الوحدانيَّة بدَلالةٍ عليها مِن أنفُسِ الناسِ بعد أن قُدِّم لهم ما هو مِن دلالةِ الآفاق بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ ﴾(٣).

ثم ذكَر سبحانه دليلًا آخَرَ علىٰ البعثِ والنُّشور، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٦٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٠-٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٧٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٩٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أحدَ أصلَيْهم: التُّرابَ المختلِفَ الأصنافِ، ذكَر الأصلَ الآخَرَ: الماءَ الذي هو أشدُّ امتزاجًا مِن التراب، ذاكرًا اختلافَ صِنْفيَّةِ اللذينِ يَتفرَّعان إلىٰ أصنافٍ كثيرةٍ، مُنبِّهًا علىٰ فعلِه بالاختيار، ومُنكِرًا علىٰ مَن سوَّىٰ بَيْنَه سبحانه وبين شيءٍ حتىٰ أشرَكَه به مع المباعَدةِ التي لا شيءَ بعدها والحالُ أنَّه يُفرِّق بَيْنَ هذه الأشياءِ المحسوسة لمباعَدةٍ ما، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[(١)].

انتقالٌ مِن الاستدلالِ بالأحوال في الأجواء بَيْنَ السماءِ والأرض علىٰ تفرُّدِ اللهِ تعالىٰ بالإلهيَّةِ إلىٰ الاستدلالِ بما علىٰ الأرض مِن بحارٍ وأنهار وما في صفاتِها مِن دلالةٍ زائدة علىٰ دلالةِ وجودِ أعيانِها علىٰ عظيمِ مخلوقاتِ الله تعالىٰ، فصِيغَ هذا الاستدلالُ علىٰ أسلوبٍ بديع؛ إذ اقتُصِرَ فيه علىٰ التَّنبيهِ علىٰ الحِكْمةِ الرَّبانيَّةِ في المخلوقاتِ، وهي ناموسُ تمايُزِها بخصائصَ مختلِفةٍ واتحادِ أنواعِها في خصائصَ متماثلةٍ استدلالًا علىٰ دقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالىٰ[(٢)].

ثم أشار تعالىٰ لآياتٍ أخرىٰ مِن آياتِ قُدرتِه ووحدانيَّتِه بقولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣-٢٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٧٩).
(٣) محاسن التأويل (٨/ ١٦٢).

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه اختلافَ الذَّواتِ الدالَّ على بديعِ صُنْعِه، أتبعه تغييرَه المعانيَ آيةً على بليغِ قُدْرتِه، فقال في موضعِ الحالِ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَكُم﴾ - إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى صوَّر آدمَ حين خلَق الأرضَ قبل أن يكونَ ليلٌ أو نهارٌ، ثم نفَخ فيه الرُّوحَ آخِرَ يومِ الجمعة بعد أن خلَق النُّورَ يومَ الأربعاءِ، فلم يأتِ على الإنسان حينٌ مِن الدَّهرِ، وهو مقدارُ حركةِ الفَلَكِ، إلا وهو شيءٌ مذكورٌ -: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ ﴾(١).

استدلالٌ عليهم بما في مَظاهرِ السَّماواتِ مِن الدَّلائل على بديعِ صُنْعِ اللهِ في أعظَمِ المخلوقات؛ ليَتذكَّروا بذلك أنَّه الإلهُ الواحد(٢).

﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨١).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٩).

جملةُ ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ ﴾ خبرٌ ثانٍ عن ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، والمقصدُ منها تنبيهُ المشركين إلىٰ عَجْزِ أصنامِهم بأنَّها لا تَسمَع، وليس ذلك استدلالًا؛ فإنَّهم كانوا يزعمون أنَّ الأصنامَ تَسمَع منهم؛ فلذلك كانوا يكلِّمونها ويوجِّهون إليها محامدَهم ومدائحَهم، ولكنَّه تمهيدٌ للجملةِ المعطوفة علىٰ الخبَرِ، وهي جملةُ ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾؛ فإنَّها معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾، وليست الواوُ اعتراضيةً؛ أي: ولو سَمِعوا علىٰ سبيلِ الفرضِ والتقديرِ ومجاراةِ مزاعمِكم حين تَدْعونها، فإنَّها لا تستجيبُ لدَعْوتِكم؛ أي: لا تَرُدُّ عليكم بقَبولٍ، وهذا استدلالٌ سنَدُه المشاهَدة، فطالما دعَوُا الأصنامَ فلم يَسمَعوا منها جوابًا، وطالما دعَوْها فلم يحصُلْ ما دعَوْها لتحصيلِه، مع أنَّها حاضرةٌ بمرأىٰ منهم غيرُ محجوبةٍ؛ فعدَمُ إجابتِها دليلٌ علىٰ أنَّها لا تَسمَع؛ لأنَّ شأنَ العظيمِ أن يستجيبَ لأوليائه الذين يسعَوْنَ في مرضاتِه، فقد لَزِمهم إمَّا عَجزُها، وإمَّا أنَّها لا تَفقَهُ؛ إذ ليس في أوليائها مَغمَزٌ بأنَّهم غيرُ مُرْضِينَ لهذا؛ وهذا مِن أبدَعِ الاستدلالِ الموطَّأِ بمقدِّمةٍ متَّفَقٍ عليها[١].

﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، كاشفٌ عن جليَّةِ حالِ ما يَدْعُونه بأنَّه جمادٌ ليس مِن شأنِه السَّماعُ[٢].

ثم بيَّن سبحانه حالَ هؤلاء الذين يَدْعُونهم مِن دُونِ الله بأنَّهم لا يَنفَعون ولا يضُرُّون، فقال: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٤٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٩٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا اختصَّ سبحانه بالمُلْكِ ونفىٰ عن شركائِهم النَّفعَ، أنتج ذلك قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

لمَّا أُشبِعَ المقامُ أدلَّةً ومواعظَ وتذكيراتٍ، ممَّا فيه مَقنَعٌ لِمَن نصَب نفسَه مَنصِبَ الانتفاعِ والاقتناعِ، ولم يَظهَرْ مع ذلك كلِّه مِن أحوالِ القوم ما يُتوسَّم منه نَزْعُهم عن ضَلالِهم، وربما أحدَثَ ذلك في نفوسِ أهلِ العِزَّةِ منهم إعجابًا بأنفسِهم، واغترارًا بأنَّهم مرغوبٌ في انضمامِهم إلىٰ جماعةِ المسلمين، فيَزيدُهم ذلك الغُرورُ قَبولًا لتسويلِ مكائدِ الشَّيطان لهم أن يَعتصموا بشِرْكِهم؛ ناسَب أن يُنبِّئَهم اللهُ بأنَّه غنيٌّ عنهم، وأنَّ دِينَه لا يَعتزُّ بأمثالِهم، وأنَّه مصيرُهم إلىٰ الفَناءِ، وآتٍ بناسٍ يَعتزُّ بهم الإسلامُ[2].

ثم ذكَر سبحانه افتقارَ خَلْقِه إليه، ومَزيدَ حاجتِهم إلىٰ فضله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

فأنتَج ذلك قطعًا تهديدًا لِمَن عصاه وتحذيرًا شديدًا: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4].

واقعٌ موقعَ البيانِ لِما تضمَّنَتْهُ جملةُ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ مِن معنىٰ قلَّةِ الاكتراث بإعراضِهم عن الإسلام، ومِن معنىٰ رِضاه علىٰ مَن يعبُدُه؛ فهو تعالىٰ لِغِناه عنهم

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٩٥).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٢).

وغضَبِه عليهم لو شاء لأبادهم وأتىٰ بخَلْقٍ آخَرين يعبُدونه، فخلَصَ العالَمُ مِن عُصاةِ أمرِ الله، وذلك في قُدْرتِه، ولكنَّه أمهلَهم؛ إعمالًا لصفةِ الحِلْمِ[1].

لمَّا ذكَر أنَّه الغنيُّ علىٰ الإطلاق، ذكَر ما يدلُّ علىٰ استغنائه عن العالَمِ، وأنَّه ليس بمحتاجٍ إليهم، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2].

ثم ذكَر سبحانه نوعًا مِن الأنواع التي يَتحقَّق عندها افتقارُهم إليه، واستغناؤه عنهم، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[3].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

وعطَف عليه الإعلامَ بأنَّ ذلك لو شاء، لكان هيِّنًا عليه، وما هو عليه بعزيزٍ[4].

ثم ذكَر أنَّ ذلك غيرُ ممتنِعٍ عليه سبحانه، فقال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا أنهىٰ سبحانه بيانَ الحقِّ بالدَّلائلِ القاطعة والبراهينِ الساطعة بالتَّهديدِ بالأخذ، وكان الأخذُ علىٰ وجهِ التَّهديد عقابًا، وكان العقابُ لا يكون حُكْمُه إلا عند الذَّنبِ؛ قال دالًّا علىٰ أنَّه لا ينفكُّ أحدٌ عمَّا يَستحِقُّ به العقابَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨٦).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٩٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨٧).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٢).

لمَّا كان ما قبل هذه الآيةِ مسُوقًا في غرضِ التَّهديد، وكان الخطابُ للناس؛ أُريدَتْ طَمْأنةُ المسلمين مِن عواقبِ التَّهديد، فعُقِّب بأنَّ مَن لم يأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جزاءُ الوازِرِ في الآخرةِ[(١)].

لمَّا بيَّن الحقَّ بالدَّلائلِ الظاهرة والبراهينِ الباهرة، ذكَر ما يَدْعوهم إلى النَّظرِ فيه، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[(٢)].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فما يستوي في الطَّبْعِ والعقلِ المُتدَسِّي[(٣)] الذي هو أعمى بعصيانِه في الظُّلماتِ ولا المُتزكِّي الذي هو بطاعاتِه بصيرٌ في النُّورِ، وإن استوَيَا في الإنسانيَّةِ؛ عطَف عليه ما يصلُحُ أمثلةً للمُتدسِّي والمُتزكِّي، وما يكونُ به التَّدْسِيَةُ والتَّزكيَةُ -دلالةً على تمامِ قُدْرتِه الذي السِّياقُ له مِن أولِ السُّورة، وتقريرًا لأنَّ الخشيةَ والقَسْوة بيدِه؛ إبطالًا لقولِ مَن يُسنِدُ الأمورَ إلى الطبائعِ-؛ قولَه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[(٤)].

لمَّا بيَّن الهدى والضَّلالةَ ولم يَهتدِ الكافرُ، وهدى اللهُ المؤمنَ؛ ضرَب لهم مثَلًا بالبصيرِ والأعمى؛ فالمؤمنُ بصيرٌ حيث أبصَرَ الطريقَ الواضح، والكافرُ أعمى[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٨٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٠).

(٣) عكس المتزكِّي.

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٥-٣٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٢).

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مِن أغرَبِ الأمور، وإن غُفِل عنه لكثرةِ إلْفِه؛ نبَّه علىٰ غرابتِه ومَزيدِ ظهورِ القدرة فيه بتكريرِ النافي في أشباهِه، وعلىٰ أنَّ الصبرَ لا ينفُذُ إلا في الظُّلمةِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ المعاصيَ تُظلِمُ قلبَ المؤمنِ وإن كان بصيرًا، وقدَّم الظُّلْمةَ؛ لأنَّها أشَدُّ إظهارًا لتفاوُتِ البصرِ مع المناسبةِ للسياق علىٰ ما قرَّر، فقال في عطفِ الزَّوْجِ علىٰ الزوجِ وعطفِ الفردِ علىٰ الفرد جامعًا تنبيهًا علىٰ أنَّ طُرُقَ الضَّلالِ يتعذَّر حصرُها: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾(١).

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان الظَّلامُ ينشأ عن الظِّلالِ، وهو نَسْخُ النُّورِ؛ قدَّمه فقال مُقدِّمًا مثالَ الخيرِ -لأنَّ الرَّحمةَ سبقتِ الغضَبَ-: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾(٢).

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان المُظهِرُ لذلك كلِّه الحياةَ، قدَّمها فقال مثالًا آخَرَ للمؤمنين -ولذلك أعاد الفعلَ؛ وهو فوق التَّمثيلِ بالأعمىٰ والبصيرِ؛ لأنَّ الأعمىٰ يشارِكُ البصيرَ في بعضِ الإدراكات، وصار للمؤمن والكافر مثالانِ؛ ليُفيدَ الأولُ نَفْيَ استواءِ الجنس بالجنس مع القَبولِ للحُكْمِ علىٰ الأفراد، والثاني بالعكس، وهو للنَّفْيِ في الأفرادِ مع القَبولِ للجنس-: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٧).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٨).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٨).

جملـةُ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ أُظهِـرَ في هـذه الجملـةِ الفعـلُ الـذي قُـدِّر في الجملتينِ اللتين قبلها، وهـو فعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾؛ لأنَّ التمثيلَ هنا عاد إلىٰ تشبيهِ حالِ المسلمين والكافرين؛ إذ شُبِّهَ حالُ المسلم بحالِ الأحياء، وحالُ الكافرين بحالِ الأموات؛ فهذا ارتقاءٌ في تشبيهِ الحالينِ؛ مِن تشبيهِ المؤمنِ بالبصير والكافرِ بالأعمىٰ إلىٰ تشبيهِ المؤمنِ بالحيِّ والكافرِ بالميِّتِ(١).

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيـلٌ آخَـرُ للمـؤمنين والكـافرين أبلَـغُ مِـن الأولِ؛ ولـذلك كُـرِّر الفعـلُ، وأُوثِـرَ صـيغةُ الجمـعِ في الطَّـرَفَينِ تحقيقًـا للتَّبـايُنِ بَـيْنَ أفرادِ الفريقينِ(٢).

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا خاصَّةَ الإلهِ، أشار إلىٰ نَفْيِه عنه مُقتصِرًا علىٰ وَصْفِ النِّذارة؛ إشارةً إلىٰ أنَّ أغلبَ الخَلْقِ موتىٰ القلوب، فقال مُؤكِّدًا للرَّدِّ علىٰ مَن يظنُّ أنَّ النَّذيرَ يَقدِر علىٰ هدايةٍ أو غيرِها إلا بإقداره: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أفادت قصرًا إضافيًّا بالنسبة إلىٰ معالَجةِ تسميعِهم الحقَّ؛ أي: أنت نذيرٌ للمشابِهينَ مَن في القبورِ، ولستَ بمُدخِلِ الإيمانَ في قلوبهم، وهذا مسُوقٌ مساقَ المعذرةِ للنبي ﷺ وتسليتِه؛ إذ كان مهتمًّا مِن عدمِ إيمانهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٩٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٩٦).

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾

ولمَّا كان ﷺ نبيَّ الرحمةِ، وكان الاقتصارُ على هذا الوصفِ ربما أوهَمَ غيرَ ذلك؛ أتبَعه قولَه بيانًا لعظَمتِه ﷺ -بالالتفاتِ إلى مظهرِ العظَمةِ؛ لأنَّ عظمةَ الرسول مِن عظمةِ المرسِلِ؛ فنِذارتُه رحمةٌ-: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾[1].

استئنافُ ثناءٍ على النبيِّ ﷺ، وتنويهٍ به وبالإسلامِ، وفيه دفعُ توهُّمِ أن يكونَ قَصْرُه على النِّذارةِ قصرًا حقيقًا لتبيُّنِ أنَّ قَصرَه على النِّذارةِ بالنسبة للمشركين الذين شابَهَ حالُهم حالَ أصحابِ القبورِ؛ أي: إنَّ رسالتَك تجمَعُ بشارةً ونِذارةً؛ فالبشارةُ لِمَن قَبِلَ الهدى، والنِّذارةُ لِمَن أعرَضَ عنه، وكلُّ ذلك حقٌّ؛ لأنَّ الجزاءَ على حسَبِ القَبولِ؛ فهي رسالةٌ ملابِسةٌ للحقِّ ووَضْعِ الأشياءِ مواضعَها[2].

لمَّا قال: ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾، بيَّن أنَّه ليس نذيرًا مِن تلقاءِ نفسِه؛ إنَّما هو نذيرٌ بإذنِ الله وإرسالِه[3].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ﴾

ولمَّا كان ﷺ شديدَ الأسَفِ على إبائهم رحمةً لهم وخوفًا مِن أن يكونَ ذلك لتقصيرٍ في حالِه، وكان التَّقديرُ: فإن يُصدِّقوك فهو حظُّهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ عطَف عليه

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٠-٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٤).

-تأسيةً له وتسليةً- قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾(١).

أُعقِبَ الثناءُ على النبيِّ ﷺ بتسليتِه على تكذيبِ قومِه وتأنيسِه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسلِ مع أُمَمِهم(٢).

ثم سلَّى نبيَّه ﷺ وعزَّاه، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾(٣).

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا سلَّاه، هدَّد مَن خالَفه وعصاه بما فعَل في تلك الأُمَم، فقال -صارفًا القولَ إلى الإفراد دفعًا لكلِّ لَبْسٍ، مُشيرًا بأداةِ التراخي إلى أنَّ طُولَ الإمهال ينبغي أن يكونَ سببًا للإنابةِ، لا للاغترارِ بظنِّ الإهمالِ-: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان مِن أغرَبِ الأشياءِ الدالَّة على تمامِ القدرة الدالِّ على الوحدانيَّةِ أن يكونَ شيءٌ واحدٌ سببًا لسعادةِ قومٍ وهُدَاهم، وشقاوةِ قومٍ وضَلالهم وعَمَاهم، وكان ذلك

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٩٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٩٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٣).

أمرًا دقيقًا وخَطْبًا جليلًا، لا يَفهَمُه حقَّ فَهْمِه إلا أعلى الخلائقِ؛ ذكَّر المخاطَبَ بهذا الذِّكْرِ ما يُشاهِدُ مِن آيتِه، فقال على طريقِ الاستخبار لوصولِ المخاطَبِ إلى رُتْبةِ أُولي الفَهْمِ بما ساق مِن ذلك سبحانه على طريقِ الإخبار ولَفْتِ القول إلى الاسمِ الأعظم دلالةً على عظمةِ ما في حيِّزه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1].

استئنافٌ فيه إيضاحُ ما سبَقه مِن اختلافِ أحوال الناس في قَبولِ الهدى ورفضِه بسببِ ما تهيَّأَتْ خِلْقةُ النُّفوسِ إليه؛ ليَظهَرَ به أنَّ الاختلافَ بَيْنَ أفرادِ الأصناف والأنواع ناموسٌ جِبِلِّيٌّ فطَرَ اللهُ عليه مخلوقاتِ هذا العالَمِ الأرضيِّ[2].

لمَّا قرَّر تعالى وَحْدانيَّته بأدلةٍ قرَّبها، وأمثالٍ ضرَبها؛ أتبَعها بأدلةٍ سماويةٍ وأرضية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[3].

استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قَبْلَه مِن اختلافِ أحوالِ الناس؛ ببيانِ أنَّ الاختلافَ والتَّفاوت أمرٌ مطَّرِدٌ في جميعِ المخلوقات؛ مِن النَّباتِ، والجماد، والحيوان[4].

ثم ذكَر سبحانه نوعًا مِن أنواعِ قُدْرتِه الباهرة، وخَلْقًا مِن مخلوقاتِه البديعة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٣-٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٥٠).

(٥) فتح القدير (٤/ ٣٩٨).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما الأغلبُ فيه الماءُ ممَّا استحالَ إلىٰ آخَرَ بعيدٍ مِن الماء، وأتبَعه الترابَ الصِّرف؛ ختَم بما الأغلبُ فيه الترابُ ممَّا استحالَ إلىٰ ما هو في غايةِ البُعْدِ مِن الترابِ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر هذا، تشوَّف السامعُ إلىٰ معرفةِ العلماءِ، فكان كأنَّه قيل: هم الذين يُحافِظون علىٰ كتابِ الله علمًا وعملًا، فقيل: فما لهم؟ فقال مُؤكِّدًا -تكذيبًا لِمَن يظنُّ مِن الكفارِ وغيرِهم مِن العصاةِ أنَّهم مِن الخاسرين بما ضيَّعوا مِن عاجلِ دنياهم-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾[2].

استئنافٌ لبيانِ جملةِ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ الآيةَ؛ فالذين يَتلُون كتابَ الله هم المرادُ بالعلماءِ، وقد تُخُلِّصَ إلىٰ بيانِ فوز المؤمنين الذين اتبَعوا الذِّكْرَ وخَشُوا الرَّحمنَ بالغيب؛ فإنَّ حالَهم مضادٌّ لحالِ الذين لم يَسمَعوا القرآنَ، وكانوا عند تذكيرِهم به كحالِ أهلِ القبور لا يَسمَعون شيئًا[3].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٥).

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كان المرادُ بعدمِ هلاكها حِفْظَها وبقاءها إلىٰ يومِ لقائه، علَّله بقولِه - مُقتصِرًا علىٰ الضَّمير؛ لأنَّ السِّياقَ للمؤمنين؛ ولذا لفَتَهُ إلىٰ ضميرِ الغَيْبة؛ لأنَّ إيمانَهم بالغيب-: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(١).

ثم ذكَر أنَّهم حصَل لهم ما رجَوْهُ، فقال: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(٢).

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كانت ترجمةُ الآيةِ أنَّ العلماءَ هم حمَلةُ الكتابِ، وبدأ سبحانه بأدنىٰ درجاتِهم، وكان ذلك ممَّا يُرغِّب في الكتابِ؛ أتبَعه ترغيبًا هو أعلىٰ منه، فقال في تقريرِ الأصل الثاني الذي هو الرسالةُ، وأكَّده دفعًا لتكذيبِ المكذِّبين به: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾(٣).

لمَّا كان المُبدَأُ به مِن أسبابِ ثوابِ المؤمنين هو تلاوتَهم كتابَ الله، أُعقِبَ التَّنويهُ بهم بالتَّنويهِ بالقرآنِ؛ للتَّذكيرِ بذلك، ولأنَّ في التَّذكير بجلالِ القرآن وشَرَفِه إيماءً إلىٰ علَّةِ استحقاقِ الذين يَتلُونه ما استحَقُّوا، وابتُدئ التنويهُ به بأنَّه وحيٌ مِن اللهِ إلىٰ رسوله، وناهيك بهذه الصلةِ تنويهًا بالكتاب، وهو يَتضمَّن تنويهًا بشأنِ الذي أُنزِلَ

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٨٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٢).

عليه مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ ففي هذا مَسرَّةٌ للنبيِّ ﷺ، وبشارةٌ له بأنَّه أفضَلُ الرُّسل، وأنَّ كتابَه أفضَلُ الكتب[1].

لمَّا بيَّن العلماءَ باللهِ وخَشْيتَهم وكرامتَهم بسببِ خشيتِهم، ذكَر العالِمينَ بكتابِ الله، العاملين بما فيه[2].

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾

ولمَّا كان معنى الوصفَينِ: فنحن نُيسِّرُ لتلاوةِ كتابنا مَن يكون قابلًا للعلمِ الذي هو عمودُ الخشيةِ بما تعلَّمه منه بخبَرِنا وبصَرِنا، وكان الذي ضَمَّ إلى التلاوةِ الفَهْمَ في الذِّرْوةِ العُلْيا مِن العلم؛ قال عطفًا على هذا الذي أرشَد السِّياقُ إلى تقديره -مُشيرًا بأداة البُعْدِ إلى علوِّ رتبةِ أهلِ هذا القِسمِ؛ وهم هذه الأمَّةُ الأُميَّةُ على اختلافِ مراتبِ إرثِهم، مع تَراخي إرثِهم عمَّن قبلهم، صارفًا القولَ إلى مظهرِ العظَمةِ؛ لاقتضاءِ الحالِ لها في نزعِ شيءٍ مِن قومٍ وإثباتِه لآخَرينَ-: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[3].

﴿ثُمَّ﴾ للترتيبِ الرُّتْبيِّ؛ كما هو شأنُها في عطفِها الجُمَلَ؛ فهي هنا لعطفِ الجُمَلِ عطفًا ذِكْريًّا[4]؛ فالمتعاطِفاتُ بها بمنزلةِ المستأنَفات، فهذه الجملةُ كالمستأنَفة، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّرقِّي في الاستئنافِ، وهذا ارتقاءٌ في التَّنويهِ بالقرآنِ المتضمِّنِ التَّنويهَ بالرسول ﷺ، وعروجٌ في مَسرَّتِه وتبشيرِه؛ فبعد أن ذُكِّر بفضيلةِ كتابه، وهو أمرٌ قد

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٣-٥٤).

(٤) أي: ترتيبه بحسب الذكر فقط دون المعنى.

تقرَّر لديه؛ زِيدَ تبشيرًا بدوامِ كتابه، وإيتائِه أُمَّةً هـم المصطفَوْنَ مِن عبادِ الله تعالىٰ، وتبشيره بأنَّهم يَعمَلون به ولا يتركونه كما ترَك أُمَمٌ مِن قبلِه كُتُبَهم ورُسُلَهم؛ فهذه البشارةُ أهَمُّ عند النبيِّ ﷺ مِن الإخبار بأنَّ القرآنَ حقٌّ مصدِّقٌ لِما بَيْنَ يديهِ؛ لأنَّ هذه البشارةَ لم تكُنْ معلومةً عنده؛ فوَقْعُها أهَمُّ[1].

لمَّا بيَّن العلماءَ باللهِ وخَشْيتَهم وكرامتَهم بسبب خشيتِهم، ذكَر العالِمين بكتابِ الله، العاملين بما فيه[2].

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ ﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ أحوالَهم، بيَّن جزاءهم ومآلَهم، فقال مستأنِفًا جوابًا لِمَن سأل عن ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾[3].

الأظهَرُ أنَّه بدلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾؛ فإنَّ ممَّا يَشتمِلُ عليه الفضلُ دخولَهم الجنَّةَ كما عَلِمتَ، وتخصيصُ هذا الفضلِ مِن بَيْنِ أصنافِه لأنَّه أعظَمُ الفضلِ؛ لأنَّه أمَارةٌ علىٰ رضوانِ الله عنهم حين إدخالِهم الجنَّةَ، ويجوز أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا لبيانِ الفضل الكبير، وقد بُيِّنَ بأعظَمِ أصنافِه[4].

ثم ذكَر جزاءَ الذين أورَثَهم كتابَه، فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١٦).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٨٩).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا كان المقتصِدُ والسابق يَحزَنون لكمالِهم وشِدَّةِ شفقتِهم على الظالمِ إذا قُوصِصَ[(١)]، جمَع فقال مُعبرًا بالماضي تحقيقًا له: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[(٢)].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

ثم وصَفوه بما هو شكرٌ له، فقالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[(٣)].

لمَّا ذكَر اللهُ سرورَهم وكرامتَهم بتحليتِهم وإدخالهم الجنَّاتِ، بيَّن سرورَهم ببقائهم فيها، وأعلَمَهم بدوامها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن ما هم فيه مِن النِّعْمةِ، بيَّن ما لأعدائهم مِن النِّقْمةِ؛ زيادةً في سرورِهم بما قاسَوْهُ في الدُّنيا مِن تكبُّرِهم عليهم وفجورِهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[(٤)].

مقابَلةُ الأقسامِ الثلاثة للذين أُورِثوا الكتابَ بذِكْرِ الكافرين يَزيدُنا يقينًا بأنَّ تلك الأقسامَ أقسامُ المؤمنين، ومقابلةُ جزاءِ الكافرين بنارِ جهنَّمَ يوضِّحُ أنَّ الجنَّةَ دارٌ

---

(١) أي: اقتُص منه.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٦٠).

للأقسامِ الثلاثةِ على تفاوُتٍ في الزمانِ والمكانِ، وفي قولِه تعالى في الكفارِ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ نارَ عقابِ المؤمنين خفيفةٌ عن نارِ المشركين[1].

لمَّا ذكَر تعالى حالَ أهلِ الجنَّة ونعيمَهم، ذكَر حالَ أهلِ النارِ وعذابَهم[2].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا بيَّن عذابَهم، بيَّن اكتئابَهم، فقال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان سبحانه عالِمًا بما نفَى وما أثبَتَ، علَّل ذلك -مُقرِّرًا سببَ دوامِ عذابِهم، وأنَّه بقَدْرِ كفرانِهم- بقولِه مُؤكِّدًا -إشارةً إلى أنَّه لا يجبُ تمرينُ النفس عليه؛ لِما له مِن الصُّعوبةِ؛ لوقوفِ النَّفسِ مع المحسوسات-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالى جزاءَ أهلِ الدارينِ، وذكَر أعمالَ الفريقينِ؛ أخبَر تعالى عن سَعةِ عِلْمِه تعالى، واطِّلاعِه على غيبِ السماواتِ والأرض، التي غابت عن أبصارِ الخَلْقِ وعن عِلْمِهم، وأنَّه عالِمٌ بالسرائرِ، وما تنطوي عليه الصدورُ مِن الخيرِ والشرِّ والزَّكاءِ وغيرِه، فيُعطي كلًّا ما يستحِقُّه، ويُنزِّلُ كلَّ أحدٍ منزلتَه[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٩٠).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٦٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٦٥).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٩٠).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا كان مَن أنشأ شيئًا كان أعلَمَ به، وإتقانُ صُنْعِه يدلُّ علىٰ تمامِ قدرةِ صانعه، وتمامُ قُدْرتِه ملزومٌ لتمامِ عِلْمِه؛ قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه سبحانه هو الذي استخلَفهم، أكَّد بيانَ ذلك عندهم بأمرِه ﷺ بما يَضطرُّهم إلىٰ الاعترافِ به، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

ولمَّا جرىٰ ذِكْرُ المشركين وتعنُّتِهم وحِسْبانِ أنَّهم مَقَتُوا المسلمين؛ عاد إلىٰ الاحتجاجِ عليهم في بُطْلانِ إلهيَّةِ آلهتهم بحُجَّةِ أنَّها لا يوجد في الأرض شيءٌ يَدَّعي أنَّها خلَقَتْهُ، ولا في السَّماواتِ شيءٌ لها فيه شِرْكٌ مع اللهِ؛ فأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يُحاجَّهم، ويُوجِّهَ الخطابَ إليهم بانتفاءِ صفة الإلهيَّةِ عن أصنامهم، وذلك بعد أن نفَىٰ استحقاقَها لعبادتهم بأنَّها لا ترزُقُهم؛ كما في أولِ السُّورة، وبعد أن أثبَتَ اللهُ

(١) نظم الدرر (١٦/ ٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٦٨).

التَّصرُّفَ في مظاهرِ الأحداثِ الجويَّةِ والأرضيَّة واختلاف أحوالها، وذكَّرهم بخَلْقِهم وخَلْقِ أصلِهم؛ عادَ إلىٰ بطلانِ إلهيَّةِ الأصنام(١).

ثم أَمَره سبحانه أن يُوبِّخَهم ويُبكِّتَهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا بيَّن حقارةَ الأصنامِ وكلَّ ما أشركوا به النسبةَ إلىٰ جلالِ عظَمتِه، وكانوا لا يَقدِرون علىٰ ادِّعاءِ الشَّركةِ في الخَلْقِ في شيءٍ مِن ذلك، وكان ربما أقدَمَ علىٰ ادعائه معانِدٌ منهم أو مِن غيرِهم، وكان الناسُ قد توصلوا إلىٰ معرفةِ شيءٍ مِن التغيُّراتِ الفَلَكية -كالشروقِ والغروب والخسوف-، وكانوا لا عِلْمَ لهم بشيءٍ مِن الزَّلازلِ والزوالِ؛ قال مُبيِّنًا عظَمتَه سبحانه بعد تحقيرِ أمرِ شركائهم، مُعجِّزًا مُهدِّدًا لهم علىٰ إقدامِهم علىٰ هذا الافتراءِ العظيم، مُبيِّنًا للنِّعْمةِ بعدمِ المعاجَلة بالهلاك، وأكَّده لأنَّ مِن الناسِ المكذِّبَ به -وهم المعطِّلةُ-، ومنهم مَن عمَلُه -وإن كان مُقِرًّا- عمَلُ المكذِّبِ -وهو مَن يُنكِرُ شيئًا مِن قُدْرتِه؛ كالبعثِ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٢٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٧٠-٧١).

انتقالٌ مِن نَفْيِ أن يكونَ لشركائهم خَلْقٌ أو شَرِكةُ تصرُّفٍ في الكائناتِ التي في السماءِ والأرض إلىٰ إثباتِ أنَّه تعالىٰ هو القيُّومُ علىٰ السماواتِ والأرض لتَبْقَيَا موجودتينِ؛ فهو الحافظُ بقُدْرتِه نظامَ بقائهما(١).

لمَّا بيَّن تعالىٰ فسادَ أمرِ الأصنام، ووقَف الحُجَّةَ علىٰ بُطْلانِها؛ عقَّبه بذِكْرِ عظَمتِه وقُدْرتِه؛ ليَتبيَّنَ الشيءُ بضدِّه، وتَتأكَّدَ حقارةُ الأصنامِ بذِكْرِ عظَمةِ الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾(٢).

جملةٌ مستأنَفة لبيانِ قدرةِ الله سبحانه وبديعِ صُنْعِه بعد بيانِ ضَعْفِ الأصنام وعدمِ قُدْرتِها علىٰ شيءٍ(٣).

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فقالوا: إنَّا لا ندَّعي أنَّهم خلقوا شيئًا مِن السماواتِ ولا مِن الأرض، ونحن مُقِرُّون بأنَّه لا يُمسِكُ السماواتِ والأرضَ إلا اللهُ، وإنَّما نعبُدُهم ليُقرِّبونا إلىٰ الله زُلْفَىٰ؛ كما كان يفعلُ آباؤنا، ولولا أنَّ لهم علىٰ ذلك دليلًا ما فعَلوه؛ عطَف عليه قولَه مُبيِّنًا ضَلالَهم في تكذيبِهم الرُّسلَ بعد ما ظهَر مِن ضَلالِهم في إشراكِهم بالمرسِلِ وهو يُمهِلُهم ويرزُقُهم دليلًا علىٰ حِلْمِه مع عِلْمِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٢٧).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٠٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٧٢-٧٣).

لمَّا بيَّن إنكارَهم للتَّوحيد، ذكَر تكذيبَهم للرسول، ومبالَغتَهم فيه[(١)].

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كانوا قد جُبِلوا علىٰ الضَّلال، وكان النُّفورُ قد يكون لأمرٍ محمودٍ أو مباحٍ؛ علَّله بقولِه: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾[(٢)].

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ حالَهم مُوجِبٌ ولا بد للإيقاعِ بهم -لِما ثبَت مِن أيامِ الله-، وأنكَر ذلك عليهم، وكان التَّقديرُ: ألم يَسمَعوا أخبارَ الأوَّلين المُرَّةَ وأحوالَهم المستمرَّةَ، مِن غيرِ تخلُّفٍ أصلًا في أنَّ مَن كذَّب رسولًا أُخِذ؛ فقال عاطفًا عليه استشهادًا علىٰ الخبَرِ عن سُنَّتِه في الأوَّلين بما يُذكَر مِن آثارِهم: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾[(٣)].

عُطِف علىٰ جملةِ ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ استدلالًا علىٰ أنَّ مُساواتَهم للأوَّلين تُنذِرُ بأنْ سيحُلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك مِن نوعِ ما يشاهِدونه مِن آثارِ استئصالهم في ديارهم[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٣٨).

لمَّا ذكَر أنَّ للأوَّلين سُنَّةً -وهي الإهلاكُ-، نبَّههم بتذكيرِ حالِ الأوَّلين؛ فإنَّهم كانوا مارِّينَ علىٰ ديارِهم، رائِينَ لآثارِهم، وأمَلُهم كان فوق أمَلِهم، وعمَلُهم كان دُونَ عمَلِهم(١).

استشهادٌ علىٰ ما قبله مِن جريانِ سُنَّةِ الله تعالىٰ علىٰ تعذيبِ المكذِّبين بما يشاهِدونه في مَسايرِهم ومَتاجرِهم في رحلتِهم إلىٰ الشامِ واليمَنِ والعراق مِن آثارِ الأُمَمِ الماضية، وعلاماتِ هلاكِهم(٢).

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا كانوا يستعجلون بالتَّوعُّدِ استهزاءً فيقولون: ما له لا يُهلِكُنا؟! عُلِم أنَّ التَّقديرَ: لو عامَلكم اللهُ معاملةَ المؤاخِذِ، لعجَّل إهلاكَكم، فعطَف عليه قولَه إظهارًا للحُكْمِ مع العلمِ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾(٣).

تذكيرٌ لهم عن أن يغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجْزًا أو رِضًا مِن اللهِ بما هم فيه؛ فعلَّمهم أنَّ لعذابِ الله آجالًا اقتضَتْها حِكْمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرين، أو استبقاءُ أجيالٍ آتِينَ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٤٨).

(٢) روح المعاني (١١/ ٣٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٣٩).

ثم ذكر تعالى كمالَ حِلْمِه، وشِدَّةِ إمهالِه وإنظارِه أربابَ الجرائمِ والذُّنوب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[1].

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

فهرس المحتويـات

فهرس المحتويات